

فهرس

المجلد الثالث

مطبعة المعاهد الدينية
١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

فهرس الموضوعات

فهرس الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
		الجزء الأوُل	
٤٠	٢	أُترابه	أترابه
٤٥	١٨	أمامى	إمامى
		الجزء الخامس	
٣١٣	٢١	صلعى	صرعى
		الجزء السابع	
٤٦٥	١٧	داوعيهم	دواعيهم
		الجزء الثامن	
٥٢٠	٩	أنه يثير	أن النظر يثير
٥٢٨	٨	المسفاحين	السافحين
٥٢٨	٢٠	يقوم ذلك	يقوم فيها ذلك
٥٣٩	١٠	وحددوها	وحدودها
٥٥٧	٢١	قد استمر	قد استحر
٥٥٧	٢١	أن يستمر	أن يستحر
٥٥٩	١٤	واستمر	واستحر
		الجزء التاسع	
٥٩٢	١٥	من تلاوته يظهر	من تلاوته فى شهر رمضان يظهر
٥٩٢	١٩	قربة يبعث	قربة تبعث
		الجزء العاشر	
٦٩٥	٢١	فى وجود	فى وجوده
٦٩٩	١١	وجزوع	وجذوع
٧٢٣	٦	المواهب الادبية	والمواهب الخلقية
٧٢٣	٧	عام ١٩٢٩	عام ١٩٢٨
٧٢٤	٤	خلوا تماما	خلوا تاما

ووقع خطأ فى رقم الصفحات : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ من الجزء الأول نرجو من القارئ الكريم ملاحظته .

ERRATA.

Volume II English Supplement

Page		Line			Should read	
Page	84	Line	15	hath	Should read	had
»	90	»	25	Moammad	»	Mohammad
»	92	»	2	of	»	or
»	93	»	32	was	»	be
»	96	»	23	Sufist	»	Sufi
»	96	»	31	Sufists	»	Sufis
»	96	»	22	Mohammad	»	Al - Harith
»	96	»	22	Al - Harith	»	Mohammad
»	96	»	23	repeated	»	said
»	96	»	30	was about to	»	had
»	96	»	30	partake	»	partaken
»	97	»	13	on	»	at
»	97	»	18	is	»	is not
»	101	»	1	uplighting	»	uplifting
»	101	»	21	banal	»	baneful
»	105	»	2	warshipper	»	worshipper
»	105	»	19	men's	»	man's
»	106	»	8	whielded	»	wielded
»	106	»	26	clange	»	change
»	109	»	14	being	»	character
»	110	»	3	smirched	»	besmirched
»	113	»	2	has	»	have
»	118	»	2	acknowledgnig	»	in recognition of
»	120	»	7	past deeds	»	past
»	5	»	25	far	»	for
»	7	»	27	theartening	»	threatening
»	7	»	32	him	»	them
»	8	»	13	Al - Gouh	»	Al - Gourh
»	12	»	39	threat	»	treat
»	13	»	8	them	»	the treaters
»	14	»	13	to	»	no
»	16	»	20	disbediet	»	disbelief
»	16	»	38	observation	»	observance
»	17	»	10	be	»	he
»	18	»	27	And	»	He
»	19	»	2	debars	»	debars from
»	19	»	4	question	»	questions
»	24	»	21	animals	»	animal
»	24	»	33	forbiden	»	forbidden
»	31	»	6	charitable	»	humane

مطبعة المعاهد الدينية ٩٠٠٠ – ٢ – ١٩٣٣



تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الاول | محرم سنة ١٣٥١ | المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف | سابقا
ومن اعضاء مجلس الازهر الاعلى

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش
داخل القطر المصري	٤٠
لعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصري	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمؤذنون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

مقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمدا يصل جديد النعم بقديمها، ونسألك توفيقا نحتمى به من عثر ات الأقلام حقيرها وعظيمها، ونصلى ونسلم على سيدنا محمد الذى أفضت عليه كمالا يقصر البلغاء عن وصـفه، وأنزلت عليه كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى آله الذين اتقوك حق تقاتك، وأصحابه الذين جاهدوا فى الحق ابتغاء مرضاتك.

أما بعـد فقد قضت هذه المجلة سنتها الثانية، تثبّت المؤمنين، وتنبه الغافلين، وتلقن من لم يكونوا يعلمون، وتدفع عن الحقائق من يفسدون فيها وهم يشـعرون أو لا يشعرون، وتتقبل من الجديد ما كان رأيا صائبا أو عملا حسنا، وتنبذ من القديم ما كان رأيا خاطئا أو فعلا عبثا، فاذا هرع قوم الى جديد لا ينفع، احتفظت برصانتها، واذا جمد قوم على قديم لا يصلح، زهدت فى أن يكونوا بجانبها، فلا تمد يدها الى جديد زائف، ولا تقبضها على قديم معطل.

ولم يفتها بحمد الله أن نجاح البحث فى تجريد النظر من الهوى مع الخروج عن قوانين المنطق، وليست مع تثبتها ورعاية آداب البحث جهدها، بمدعية الإصابة فى كل ما تقول، وإنمـا هى أقلام فى أيدى بشر ليسوا بمعصومين من الزلل، ومن تصدى للتحرير وادعى لنفسه العصمة الخالدة، فقد ادعى ما لم يظفر به الراسخون فى العلم من قبله، وتفاضُلُ الباحثين يرجع الى كثرة ما يصيبون، فالسابق فى حلبة التحرير من يكون قلمه أكثر إنتاجا للحقائق مما سواه.

لاحظت المجلة أن فى المضلين من يكشف الغطاء عن سريرته ، ويركب الصراحة فى دعايته ، ومنهم من يدس الباطل فى عبارات يصبغها بما يشبه لون الحق ، فيكون أثره فى نفوس بعض الأحداث أشد من أثر الداعى الى الضــلالة علانية ، فلم تقصر المجلة جهادها على دفاع ما يصدع به المبطلون من آرائهم المردية ، وعنيت بنقد المقالات أو المؤلفات التى تصدر تحت اسم البحث العلمى ، أو الدعوة الى التجديد ، وهى تنطوى على روح لا يأتى على نفس غافلة إلا أطفأ نورها ، وخالطها من الحيرة أو الجحود ما كان بعيدا منها .

خطة مبيتة تلك التى يريك أصحابها أنهم يذودون عن حوزة الدين ، أو أنهم يبتغونه فى الحياة سبيلا ، حتى اذا هاجت شهواتهم أو عواطفهم القومية أو الشخصية جروا معها أين جرت ، ووضعوا على أقلامهم أو ألسنتهم طلاء من الرياء ، والرياء كالزجاجة لا يخفى سرائر الكتاب أو الخطباء على الناظرين .

والبارعون فى نصب المكايد للحق أصبحوا يتسابقون فى هذه الطريقة ، ولا يبالون أن يرفعوا من شأن الدين أو المبعوث به ، فى إحدى الجمل ، ثم يكيدون له فى جمل أخرى ، وبلغوا فى صلابة الجبين أن ترى أحدهم يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشد ما يؤذيه به عدوه الكاشح ، ويضع على هذا الإيذاء نقابا من مثل تسميته بالنبى ، وقوله كما يقول المؤمنون : « صلى الله عليه وسلم » ولا يتباطأ قلم أحدهم عن أن يصف الدين بالسماحة والحكمة ، ويخفى إلحاده الى أن يتحدث عن شىء من أصوله أو أحكامه المفصلة ، فتراه ساعتئذ ينكرها متغافلا عن أنها من الدين ، أو متأولا لنصوصه التى لا تقبل التأويل ، وأصحاب هــذه الطريقة يعدون أولئك الذين يحاربون الدين جهرة من البُله الذين لا يعرفون كيف يهدمون .

وكأن هــذه الخطة مبيتة بين طوائف من الزائغين وإن كانوا يتفاوتون فى صبغة النفاق التى يضعونها على ألسنتهم أو أقلامهم ، فمنهم نفر يشعر بعدائهم للدين كل من

فيه شيء من سـلامة الفطرة ، ومنهم من تخفى سريرتهم تحت غشاء من المداجاة ، فلا يفطن لما يمكرون به إلا من تتبع حركة الإلحاد في جماعات مختلفة ، فعرف الروح الذي تشترك فيه دعايتهم ، واللهجة التي تواطأت عليها ألسنتهم ، وكم استدرجت هذه الخطة المبيتة من نفوس كانت على هدى ، فأصبحت في عمية ، وأمكنها أن تفعل فعلتها ، لقلة تصدى أهل العلم لنقدها ، واختراقهم غشاوة النفاق الى ما وراءها ، وقد تصدت المجلة وستتصدى بتوفيق الله تعالى لنقد المقالات والكتب التي يحس فيها نزوعا الى إباحية أو إلحاد ، ولا سيما مقالات أو كتبا يسبق الى ظنون كثير من قرائها أنها صادرة من باحث أمين .

كنت اطلعت على مقال صنعه على هذه الطريقة الخطرة كاتب كان الناس يظنون به خيراً ، وحدثت أستاذاً كبيراً متخرجاً في الحقوق عما انطوى عليه المقال من همزات يمس بها الدين وبعض رجال الاسلام ، فلم يكد يثق بما حدثته حتى ناولته المقال ، فأتى على آخره ، وطوى الصحيفة وهو يقول : « ليس هـذا المقـال بإنشاء مسلم » وبعثه الأسف على أن يوجه لصاحب المقال خطابا يستكشف به مقصده من ذلك المقال ، فكان جوابه السكوت عن الجواب . والمجلة ترى أن التصدى لنقد أمثال هذا المقـال ، وتنبيه المسلمين لهذه الحبائل التي ينصبها دعاة السوء ، مما يقيم الحاجز بين المؤمنين والمنافقين ، وألف من المسلمين بحق ، أفضل وأقدر على العمل للعزة والكرامة من ملايين يقولون آمنا وهم لم يؤمنوا .

وقعت هـذه المجلة بحمد الله تعالى موقع ما يسـد أبوابا من الشر كانت مفتحة ، بل موقع المنهل العذب يرده الظمآن فيبل منه كبده ، ويشفى غلته . ويؤكد ما نقوله شـدة إقبال الطبقات المستنيرة على قرءتها ، وحرصهم على اقتنائها ، وإعرابهم في مراسلاتهم عن الاغتباط بها ، و ذا ـمتها بعض الألسنة سـوءا ، فإن الأذواق المعتلة تنكر طعم الماء وهو العذب القراح .

وفى الناس من لا يرضى عنك حتى تصدر عن رأيه ، وتنطق بلسانه ، وأنى لك أن تتفق فى العلم آراؤهم ، وتتواطأ على قول الحق ألسنتهم ، فتطمع أن تحرز مرضاتهم . وفيهم من لا يرضى عنك حتى يراك صامتا ، وعن عمل الخير منقطعا ، وهل فى مستطاعك أن تنتزع هذا الخلق من كل صدر ، فلا يبقى له أثر على وجه الأرض ؟ .

نعم لا يتفقون فى العلم ، ولا يتواطئون على قول الحق ، ولم يخلقوا خلق الملائكة فيتظاهروا على حب الخير ، فما على المجلة إلا أن تخلص لله عملها ، ومن ناقشها فى أدب الباحث عن الحق ، قابلته بالارتياح والشكر ، ومن تخطى هذا الأدب ، أخذت بالتى هى أحسن من إجابته أو السكوت عنه .

أرادت المجلة أن يتعدى نفعها الى من لا يفهمون اللغة العربية فاختصت بعض صفحاتها بنقل مقالات أو مؤلفات دينية من العربية الى اللسان الانجليزى ، وكانت هـذه الصفحات صلة تعارف بين المجلة وكثير من المسلمين فى الصين والهند وأميركا وأوربا وغيرها ، وقد ضمت المجلة هـذا العمل الى ما ينقله حضرات مترجميها من الصحف أو المؤلفات الأجنبية الى العربية ، فكانت بجمع هداية اسلامية وثقافة علمية .

وقبل أن ننتهى من هذه المقدمة نبدى خالص الشكر لحضرات السادة الذين زوّدوا المجلة بمقالات قيمة ، أو صاغوا فى تقريظها كلمات طيبة ، أو دعوا إلى اقتنائها ، ابتغاء علو الحق على الباطل ، وظهور السنة على البدعة (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) ؟

محمد الخضر حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

نقد آراء
للاستاذ فريد وجدى
من الناحية الدينية والاجتماعية [1]

كنا نقرأ للأستاذ فريد وجدى بعض مؤلفات ، فنرى فيها جملا يحيد بها عن السبيل ، ولكننا نزنها بما كان يكتبه فى تأييد الاسلام ، فيبدو لنا أن صوابه أكثر من خطئه ، ونحمل ذلك الخطأ على أنه وليد نظرة متسرعة ، أو نلتمس له العذر من ناحية أنه لم يدرس علوم الدين وتاريخ الاسلام دراسة تحميه من أن يشذ عن الجادة الى مكان بعيد . وللأستاذ المرحوم أحمد تيمور باشا تأليف فى بيان ما اشتملت عليه دائرة معارف الأستاذ فريد وجدى من الخطأ الفاحش فى التاريخ .

ما زلنا نعتقد أن الأستاذ فى صفوف الدعاة الى الحق والإصلاح على الرغم مما كان يظهر فى بعض منشآته من شذوذ ، حتى قرأنا له منذ ثلاث سنين مقالا فى مجلة تصدر فى حلب يقال لها « الحديث » فأحسسنا فى هذا المقال روحا تخذل الروح الذى كان يتردد فيما ألفه من قبل ، ولبثنا غير بعيد ، فاذا نحن نقرأ للأستاذ ثلاث مقالات نشرها فى جريدة « الاهرام » تحت عنوان « الدعوة الى التجديد » فتزحزح فيها عن

---

(١) المحاضرة الاولى من المحاضرات التى ألقاها صاحب التوقيع بدار جمعية الهداية الاسلامية بالقاهرة فى مساء الخميس ٢٥ شوال سنة ١٣٥٠ .

سيرته الأولى أكثر مما تزحزح ، وجعل ناقدى مقالاته يحسبون قلمه فى الأقلام التى تستخف بأمر الدين فى غير رصانة ، وأتبع هذه المقالات بمقالة جعل عنوانها «سطوة الإلحاد على الأديان » وأكبر فى هذا المقال حركة الإلحاد ، و دعى أن رجال الدين ليس بيدهم سلاح يقاوم سلاح الملحدين .

كنا نقرأ هذه المقالات ، ونصرف عنها النظر رجاء أن يجد الأستاذ من نفسه واعظا ، أو من كتاب الله الذى اقتحم تفسيره منبها ، حتى نشر الأستاذ الشيخ محمد التفتزانى فى جريدة الاهرام مقالا نقد فيه ما وقع فى بعض بلاد الاسلام من ترجمة القرآن الى غير العربية لتقوم الترجمة مقام الأصل ، فكان من الأستاذ فريد وجدى أن جرد قلمه ، وانهال يحبذ ذلك العمل ويطرى من ارتكبوه فى إغراق ، واستبان من لهجته أنه انقلب الى دعاية لو أساغتها العقول ، وأسلمت اليها النفوس ، لقوضت باسم التجديد ما تعبت يد الإصلاح فى بنائه .

ذلك ما دعانى الى أن أنقل من تلك المقالات قطعا متجافية عن الحقيقة ، حتى اذا شئت أيها الناشىء أن تقرأ شيئا مما يخطه قلمه ، قرأته وأنت على بينة من أنه لا يملك لعواطفه مردا .

نقد مقال المدرج بمجلة الحديث [1]

اندفع الأستاذ فى هذا المقال اندفاع من تسحرهم المدنية الأوربية ، فينظرون الى كل ما تقع عليه أبصارهم من شئون أوربا وعاداتها باستحسان بالغ وإعجاب ، فأسرف فى إطرائها ، وطاش قلمه فى تفضيلها ، ولو أراد الأستاذ أن يصف روح العصر الحاضر كما يصفه الناقد الرصين لما أحس فى نفسه الحاجة الى أن يمهد لمديحه بلمز العصور الاسلامية حتى عهد الخلفاء الراشدين ، ولكنه استحب أن يرسل قلمه

(١) فى شهر كانون سنة ١٩٢٩ تحت عنوان « روح العصر الحاضر نفحة إلاهية »

فى المديح مخلوع العذار ، وأن يخيل الى الناس صحة ما يدعيه من أن « روح العصر الحاضر نفحة إلهية » فذهب يفتش فى تاريخ صدر الاسلام ويلتقط ما حدث فيه من فتن ومنازعات ، ولم يجد فى صدره حرجا أن يتعرض لعهد الخلفاء الراشدين وهو يخاطب شبانا يحتاجون الى ما يذكرهم بعظمة أسلافهم ، ولا خير لهم فى أن يرسم لماضى أمتهم صوره مشوهة ، ثم يضع لحاضر أوربا صورة يدعى لها من الكمال ما لا تعرفه أوربا نفسها . ولو سلك الأستاذ فى إغمازه ، وإطرائه طريق الإنصاف لوجد من لدنا عذرا ، ولكنه تعتسف الحديث عتساما .

نبش الأستاذ تاريخ صدر الاسلام منقبا عما حدث فيه من فتن ، ثم قال : « فإن العناصر الأدبية التى تتألف منها الروح العصرية أرقى بما لا يقدر من كل ما سبقه من العصور الخالية » .

ذكر الأستاذ فى جملة ما أغمز فيه من العصور الخالية عصر الخلفاء الراشدين ثم حكم بأن العصر الحاضر أرقى أدبا من كل ما سبقه من العصور الماضية ، فهو لا يبالى أن يجعل العصر الحاضر أفضل من ذلك العصر لذهبى وأرجح وزنا . ولو كان الأستاذ يتحدث عن العلوم الكونية والفنون والصنائع والبراعة فى الاختراع ما وجد منازعا فى أن نصيب العصر الحاضر من هذه العلوم والفنون أوفر من نصيب ما سبقه من العصور الخالية ، ولكنه يتحدث عن أدب النفس ، وكل إنسان يدرس علم أحوال النفس بألمعية ثاقبة ونظر مطمئن ، ثم يقيس حال الناس اليوم بحال الناس فى صدر الاسلام ينكر على الأستاذ هذا التفضيل ويره مرتكبا فى حكمه شططا .

واذا أخذ علم الأخلاق فى هذا العصر بحثا أوسع ، وظهر فى أسلوب أبدع ، فإن كفة عصر الخلفاء الراشدين من جهة العمل بما تقتضيه أصول الأخلاق الكريمة لا تزال راجحة .

وقال الأستاذ فى ذلك المقال : « كان الناس فى الأزمان السالفة يعتبرون الحق للقوة ، فكان القوى يتحكم فى الضعيف ، فيسخره لمنفعته أو يبيده لا ينازعه فى ذلك منازع ، وكانت الشعوب الضعيفة تفنى فى الشعوب القوية تحت تأثير الأسر المكتسب بحق الفتح ، وليس فى العالم من يقول بهذا المذهب وأشد الناس إنكارا له الأقوياء أنفسهم » .

إن كان الأستاذ يتحدث عن قوانين يشرعها بعض الدول ، فالاسلام قد سبق الى قاعدة المساواة فى الحقوق ، وحارب ما عساه أن يخالط النفوس العاتية من أن الحق للقوة ، وإن كان يتحدث عن آراء يقررها بعض الكتاب أو الخطباء ، فلحكماء الصدر الأول أقوال بالغة غاية العدل والعطف على الانسانية ؛ وإن قصد من ذلك الإطراء السيرة العملية ، فدولة الخلفاء الراشدين ومن نحا نحوها كدولة عمر بن عبد العزيز إنما قامت على قاعدة العدل والمساواة وغل أيدى الأقوياء أن تمس الضعفاء بسوء . واذا كان فى دول الاسلام أفراد من الأقوياء يسخرون بعض الضعفاء فى منافعهم ، فلهم فى هذا العصر الذى سماه « نفحة إلهية » أشباه ليسوا بأقل منهم عددا ، ولا أخف على الأعناق وطأة . ولو ضرب الأستاذ فى الأرض ، أو صرف شيئا من وقته فى استكشاف أحوال الجماعات لأبصر كيف يعيش الضعفاء تحت سلطان الاستعمار الغاشم ، ولأحجم عن أن يقول ليس فى العالم من يقول بمذهب تحكم القوى فى الضعيف وتسخيره لمنفعته وإبادته ، وأشد الناس اتقاء له الأقوياء أنفسهم .

وهل عرف الأستاذ كما عرفنا حق اليقين أن القوى فى كثير من البلاد (وهو الأوربى) يقتل الضعيف — أعنى المسلم — رميا بالرصاص ، ولم نسمع قط أن محكمة حكمت على هذا الصنف من الأقوياء بالسجن فضلا عن القصاص . ولو كانت محاضرتنا هذه سياسية لملأنا النادى شواهد على أن الأقوياء فى هذا العصر لا يألون جهدا

فى إبادة الضعفاء وتسخيرهم لمنافعهم ما لم يجدوا ناراً أحر من نارهم، أو حديداً أصلب من حديدهم، وإن فى قضية تنصير البربر وحوادث طرابلس الغرب لعبرة لأولى الأبصار .

قال الأستاذ : « كان الناس لا يأتون الفضائل ولا يتجنبون الرذائل إلا خوفا من عقاب أو طمعا فى ثواب ، واليوم يطلبون الفضيلة باعتبار أنها أجدر بكرامة الانسانية ، ويكرهون الرذيلة باعتبار أنها من الصفات البهيمية » .

أدرك الناس فى صدر الاسلام الفضيلة فالتزموها ، وعرفوا الرذيلة فتجنبوها ، ومن درس التاريخ مجردا من كل عاطفة يشهد أن الفضيلة كانت سائدة فى ذلك العهد أكثر مما هى سائدة اليوم، ومن أين أتى للأستاذ أن أهل ذلك العهد لا يأتون الفضيلة باعتبار أنها أجدر بكرامة الانسانية ، ولا يتجنبون الرذيلة باعتبار أنها من الصفات البهيمية ؟ فإن قال انهم يعتقدون أنهم يثابون على الفضيلة، ويعاقبون على الرذيلة قلنا له : هذا الاعتقاد لا يمنع من أن يدخل فى قصدهم الى الفضيلة التحلى بما هو كمال إنسانى ، ويدخل فى قصدهم الى تجنب الرذيلة الترفع عما هو من صفات البهيمية ؟

واذا وجد فى هذا العصر طالب الفضيلة لمجرد أنها أجدر بالكرامة الانسانية فانه لا يزيد عن أن يكون فى أفراد أنبتت العصور السالفة أمثالهم ، فمن المبالغة غير المقبولة أن يذكر هذا على أنه عنصر من العناصر التى امتاز به العصر الحاضر عن كل ما تقدمه من العصور .

قال الأستاذ . «كان الناس فى الأيام الخالية يعتبرون عبيدا لحكوماتهم واليوم تعتبر الحكومات خادمة للناس » .

ما كان للأستاذ أن يطلق فى دعوى أن الناس فى الأيام الخالية يعتبرون عبيدا لحكوماتهم، فان دولة الخلفاء الراشدين إنما قامت على أساس أن تكون خادمة للناس ، وأن يبقى الناس كما ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وقد كان هذا المعنى متمثلا فى ذلك العهد

بأجلى مظهر وأكمل صورة ، ولو ضرب الأستاذ فى الأرض جنوبا أو شرقا وغربا لترفق فى هذا الحكم المطلق ، وصاغ عبارته فى غير هذا الأسلوب .

قال الأستاذ : « لا يزال للضعفاء وللشعوب المقهورة ما يشكون منه ، ولكنهم فيما يشكون يعتبرون مطالبين بحقوق طبيعية ، وتعطى لهم الحرية العامة للدفاع عنها بكل وسيلة مشروعة ، ولهم أن يعمدوا الى التحكيم ، وأن يرفعوا ظلاماتهم المحاكم الدولية ضد غرمائهم الأقوياء ، وأن يعقدوا المؤتمرات لبحث فى شئونهم العامة ، وبون بعيد بين هذه الحالات والحالات التى سبقتها فى القرون الماضية » .

كان المظلومون فى عهد الخلفاء الراشدين ومن نحا نحوهم فى العدل يعتبرون مطالبين بحقوق طبيعية ، وتعطى لهم الحرية التامة للدفاع عنها بكل وسيلة مشروعة ، ويجدون من اليد المستأصلة للظلم ما لا يجده كثير من المظلومين فى هذا العصر ، ولو درس الأستاذ أحوال شعوب كثيرة تصلى نار الاحتلال الأجنبى بكرة وعشيا ، لما قال : « ولهم أن يعمدوا لى التحكيم ، وأن يرفعوا ظلاماتهم للمحاكم الدولية ضد غرمائهم » وها هى تلك الحكومات القاسية لا تسمح لشعب وضعت عليه يدها أن يحاكمها فى شىء ، ومن يحرك لسانه بطلب محاكمتها سامته الخسف وعذاب الهوان ، ولو انفلتت طائفة من يدها ، وتصدوا الى محاكمتها، لما وجدوا محاكم دولية تسمع نداءهم أو تخفف شيئا من ويلاتهم ، والحكومة التى ترى من يتحدث بمحاكمتها فتكتم غيظها ، إنما تعتمد على أن ليس هناك محاكم دولية تقصد أو تستطيع أن تخلص المظلوم من أسرها .

يبالغ الأستاذ فى تفضيل العصر الحاضر على كل ما سبقه من العصور ، حتى نسب اليه ما ليس من روحه فى شىء . وإن تعجب فعجب قوله « كان الناس لا ينفقون أموالهم لتخفيف الويلات إلا طمعا فى أن تضاعف لهم فى الدنيا وفى الآخرة ، واليوم يبذلونها باعتبار أن الإنفاق فى هذا السبيل واجب لا يصح التخلف عنه ، غير منتظرين من ورائه جزاء ولا شكورا» .

فى المنفقين من يبذل المال للسمعة ؛ وفيهم من يبذل المال ابتغاء رضوان الله ، أو رجاء ثوابه فى الآخرة ، أو ازدياد نعمه عليه فى الدنيا ، وعلى هذا تدور مقاصد الإلهيين من الإنفاق فى القديم والحديث ، وإذا استطعت أن تصدق أن ملحدا ينفق شيئا من ماله خفية ، فإنما هو منقاد بالعاطفة الى ناحية يشعر بأن فى الإنفاق فيها ما يعود عليه بمنفعة ، فعلى فرض أن يوجد فى الملاحدة من يبذل المال لإصلاح عشيرته أو أمته لا يراعى جزاء منها ولا شكورا ، نقول . إنه مدفوع الى الإنفاق بعاطفته نحوها مراعيا أن سلامتها وصلاح شأنها يعود عليه بخير ، وأن ضعفها وانحطاطها قد يمسه بسوء .

هذا يريد الأستاذ بقوله : « واليوم يبذلونها باعتبار أن الإنفاق فى هذا السبيل واجب » ؟

إن أراد أنهم يبذلونها ابتغاء مرضاة الله ، فليس هذا القصد من خصائص العصر الحاضر ، بل كان الناس فى صدر الاسلام يبتغون وجه الله أكثر مما يبتغيه الناس اليوم ؛ وإن أراد الإنفاق لمجرد العاطفة ، فقد أريناه أنها لا تخلو من القصد الى منفعة ، وليس البذل إجابة للعاطفة وحدها بأفضل من البذل رجاء ثواب الله فى الآخرة ، على أن الإنفاق بدون قصد ثواب الله ولا ابتغاء وجه الناس متى وجد لا يكون إلا من النادر الذى لا يستقيم للأستاذ أن يذكره فى الحديث عن روح العصر الحاضر ليكثر به سواد أدلته على أنه نفحة إلهية .

وهذه بدعة « يانصيب » التى يرتكب موبقتها الناس حتى بعض جمعيات الخيرية ليست إلا نداء على فساد الأخلاق فى هذا العصر ، ولو شاء أحد أن يقيمها حجة على أن أهل هذا العصر لا يبذلون درهما إلا طمعا فى أن ينالوا بدله فى الدنيا أضعافا مضاعفة ، لم يعدم سامعا .

وخشى الأستاذ أن يملأ الناس سمعه بتعداد الرذائل التى فشت فى هذا العصر أكثر من فشوها فى العصور الماضية ، كتهتك النساء ، وإباحة الخمور والميسر ، وتحليل

لربا ، فحاول الدفاع عن أن تكون هذه الرذائل من روح العصر الحاضر ، فما استطاع أن يعتذر عنها بأكثر من أن القوم ينكرونها أو يقبحون أمرها ، وأعقب هذا بأنها من بقايا ضعف الطبيعة البشرية .

وهل وجود رجال ينكرون الرذائل الطاغية فى عصر يكفى عذرا لعدم عدها من روح هذا العصر . وهل ادعاء أنها من بقايا ضعف الطبيعة البشرية يقلل من قذارتها المالئة وجه الأرض ، ولا سيما رذائل وجدت ما لم تجده فى العصور الماضية من أقلام تلقبها بألقاب لم توضع لها ، وتسول للنفوس العمل على شاكلتها

نقد مقالات الدعوة الى التجديد :

تحدث الأستاذ فيما كتبه فى جريدة الاهرام[1] تحت عنوان «الدعوة إلى التجديد» عن الثورات العامة وما تفعله فى الأمم ثم قال : « وينهار كل ما ورثته من صروح العقائد والتقاليد وما أقامته على أصولها من النظم والعادات ، ولكنها وهى تحت تأثير هذه الحالة الشاذة تندفع فى الوقت عينه بعثل هذه الروح الثورية إلى البناء والتشييد مدفوعة بحب البقاء ، فلا تهدم حجرا حتى تضع حجرا ، ولا تحطم ركنا حتى تقيم بدله ركنا ، وتتيقظ فيها أعلى فضائل الاجتماع من التعاون والإيثار ونكران الذات ، فتعمل فى سنين معدودة ما لا يمكن عمله إلا فى أجيال » ثم ضرب المثل بثورة وقعت فى بعض البلاد الاسلامية .

يعترف الأستاذ بأن تلك الثورة انهارت فيها صروح العقائد والتقاليد ، ويريد أن يدفع عنها لومة اللائمين ، بدعوى أنهم لم يهدموا حجرا إلا وضعوا مكانه حجرا ، ولم يحطموا ركنا إلا أقاموا مكانه ركنا ، ولم ينه الأستاذ قلمه عن الهوى فيمنعه من أن يسمى انهيار صروح العقائد بين قوم مسلمين ووضع أشياء أخرى موضعها ، تيقظا لأعلى فضائل الاجتماع .

---

(١) ١٨ رمضان سنة ١٣٤٨ (١٧ فبراير سنة ١٩٣٠).

ليس فى عقائد الاسلام ولا فى التقاليد لقائمة على هذه العقائد ما يعدّ هدمه إصلاحا ، وتعاليم الاسلام هى التى توقظ أعلى فضائل الاجتماع ، ولكن القلم الذى يستحب الوقوف فى جانب الثورة على الهدى ، لا يستطيع أن يخطو خطوة إلا بعد أن يضرب بقانون المنطق إلى وراء .

وقال الأستاذ : « ولكننا فى ثورتنا العامة التى نتخبط فيها اليوم ، نعمل على تحطيم كل ما كان لآبائنا من عقائد وتقاليد دون أن نسارع الى إقامة سواها » .

لا ينكر الأستاذ من دعاة التجديد فى مصر أن يحاربوا عقائد الدين وما يقوم عليها من تقاليد ، وإنما ينكر عليهم أنهم لم يسارعوا إلى إقامة غيرها بمكانها كما وقع فى بعض البلاد الشرقية ، فهو يدلنا فيما يكتب على أنه راض عن نزعة من يحطمون العقائد والتقاليد ثم يتبعون التحطيم بالبناء . ونحن نذكره بأن هادم العقائد والآداب الإسلامية ناكث يده من عروة الدين ، فلا يرتاح لصنيعه من يستيقن أن الدين هداية خالصة وشريعة عامة باقية .

تحدث الأستاذ عن دعاة التجديد فى مصر ، وذكر أن لهم عاملين فى الهدم ، وهما التشكيك ، وتحقير كل ما له بقية من الاحترام فى النفوس ، ثم قال : « وهم يعذرون لأنهم مخلصون فى محاولاتهم ، ولكنهم من طبقة الذين يصلحون للهدم ولا يصلحون للبناء والتجديد » ثم أشار عليهم مفسر القرآن بأن يقتدوا بالطبيعة فى إتباع الهدم بالبناء ، فهو لا يلوم دعاة التجديد فى إثارة الشكوك وتحقير كل ما له احترام فى النفوس ، فقد وصفهم بالإخلاص والصلاح للهدم ، وإنما يلومهم فى عدم وضعهم بدل ما يهدمونه بالتشكيك أو التحقير شيئا جديدا .

قال الأستاذ فى مقاله الثانى [1] « وبما أننا نتكلم عن مصر فإن حركة التجديد فيها وقفت منذ فقد المصريون المملكة الحربية بعد عهد رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر

(١) الأهرام ٢٠ رمضان سنة ١٣٤٨ (١٩ فبراير سنة ١٩٣٠) .

قبل الميلاد ، ومنذ أصيب كهنتهم بحب المال والسلطة ، وطمع الجنود المسترزقة فيها أيضا ، وتوالت غارات الأمم على البلاد ، وما تلا هذا كله من الأحداث التي كانت نتائجها ضروبا شتى من الأحوال الى عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على باشا رحمه الله » .

تحدث الأستاذ فى هذه الجمل بلسان يضاهى لسان من يجحد فضل الاسلام والعرب ، فجعل الفتح الاسلامى غارة من غارات الأمم التى لم تبث فى مصر شيئا من الحياة ، ولم تحدث فيها شيئا من التجدد ، وأشعة العلم والأدب والقوة التى ضربت فى مصر بعد الفتح الاسلامى لا تعد فى نظر الأستاذ من أثر الحياة ولا التجدد النافع فى شىء .

فاذا كانت تلك الحياة السامية التى أفاضها الاسلام وأولياؤه على مصر قد يدركها فى بعض الأحيان ضعف ، فليس للأستاذ أن يطرحها من الحساب ، ولا يزيد على أن يسميها غارة من غارات الأمم ، أفلا يعلم أن للتاريخ عينا باصرة ، وأن حسابه على من يباهته غير يسير !

ذكر الأستاذ أن الجامعة المصرية لما تأسست لأول عهدها وتخرج فيها بعض الشبان تمثلت لهم الحاجة الى التجديد بكل شدتها فنادوا بوجوبه وكتبوا فى ذلك مقالات تفيض بالملاحظات الحقة والنظرات الصادقة ، وكان من رأيهم الإسراع الى تقمص العقلية الأوربية والتأدى الى ما أدت أهلها اليه فى جميع ضروب المحاولات الأدبية والمادية . ثم ذكر ثورة بعض الشعوب الشرقية وقال : « فكانت مثالا حيا ماضيا فى قطع أمة برمتها صلاتها بالتقاليد والموروثات القديمة ، وفى اقتباس أصول المدنية الغربية على ما هى عليه بدون قيد ولا شرط » .

فى مصر رجال لم يتخرجوا فى الجامعة ، وقد تمثلت لهم الحاجة الى التجديد بكل شدتها ، ولكنهم ملكوا رشدهم ، فلم ينادوا بتقليد أوربا فى كل شىء ، بل أخذوا

يتأملون مظاهر أوربا الأدبية ووسائل رقيها المادية ، ويعرضونها على أصول الاجتماع ومقتضيات الحياة الماجدة ، ويستعينون فى نقدها بالتاريخ الذى دل على أن الأمم لا تخلو من نقائص ولو بلغت من السطوة والغلبة غاية قصوى ، فكانوا موفقين فى دعايتهم الى التجديد النافع ، مؤيدين فى تقويم أولئك الذين يحاولون قطع الأمة عن كل ما له احترام فى نفوسها .

وليست الثورة التى وصفها بمثال حى أو ميت فى قطع أمة برمتها صلاتها بالتقاليد والموروثات القديمة ، فإن الأمة التى يتحدث عنها مسلمة ، ولها حرص على التمسك بتقاليد دينها ، وفيها زعماء يدعون الى التجديد النافع الذى نسميه بالإصلاح ، أما قطع صلاتها بالتقاليد جملة وإجراء أصول المدنية الغربية عليها بدون قيد ولا شرط ، فإنما ينزع اليه أفراد منها ، ومن الإساءة للتاريخ أن يعمد الكاتب الى ما يأتيه بعض الأفراد من محظور فينسبه الى الأمة بأسرها .

تحدث الأستاذ بمقاله الثالث [1] عن حال حكومة نزعت الى الانقطاع عن الشرق جملة ، حتى قال : « فلما دخلت فى دور الثورة التى لا تزال فيه اليوم ، ونادت تحت تأثيره الى تحطيم كل قديم ، وأخذت الجرائد تنقل آراء الغلاة منهم والمعتدلين فى وجوب إزالة كل حائل بين الأمة والترقى مهما كانت درجة قدسيته فى نظر الجماهير صدف ذلك عندنا هوى فى أفئدة الذين أساءوا منهم التجديد فتوهموه إباحة ، فاندفعوا تحت قيادة فئام من المسترزقة الذين ذكرناهم يطلبون ستكمال لذاتهم وشهواتهم متوهمين أن الحياة الجديدة تقتضى ذلك » ثم قال : ومتخيلين أنهم على الطريق التى عليها ذلك الشعب الشرقى ، بل التى عليها العالم أجمع اليوم .

يريد الأستاذ أن يقيم فارقا بين دعاة التجديد فى تلك البلاد ، ودعاة التجديد فى مصر ، فيبرئ الدعاة الأولين ويمجد خططهم ، ويعيب الدعاة الآخرين ويسفه أحلامهم . ونحن

(١) الاهرام ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٨ (٢١ فبراير سنة ١٩٣٠) .

نلقن الأستاذ أن فى مصر دعاة تجديد يسيرون فى دعايتهم على نور من الحكمة ، وفيها دعاية الى تقليد الغربيين ولو فيما يحرمه الدين تحريما مغلظا ، وهذه الدعاية هى التى يقوم بها الإباحيون والملاحدة فى كل قطر ، ولا نظن الإباحة والهتك فى دعاية تلك البلاد أضيق دائرة منها فى دعاية مصر ، فلم يتحر الأستاذ طريق الإنصاف حين سمى الدعاية هنالك دعاية الى أعلى فضائل الاجتماع ، والدعاية فى مصر دعاية لاستكمال اللذات والشهوات .

ذكر الأستاذ فى ذلك المقال أن قادة الانقلاب فى تلك البلاد بيدهم زمام الحكم ، وقال : « فهم يوجهون التيار الى حيث يريدون ، بالإقناع أولا ، فإن لم يفد فبالقوة ، وهم يتعهدون ثمرات أعمالهم بكل دقة ، ويستطيعون إصلاح ما فسد منها ، مثال ذلك أنهم أباحوا السفور للنساء والرقص مع الرجال على النحو الذى عليه الأوربيون ، ولكنهم لما أنسوا أن هذه الإباحة دفعت الصغار الى غشيان دور الرقص ، وأدركوا أن فى ذلك مضيعة لأوقاتهم ، سنوا قانونا ألزموا فيه أصحاب تلك الدور بعدم قبول الفتيان قبل أن يستكملوا الثامنة عشرة من أعمارهم » .

يفرق الأستاذ بين المجددين فى البلاد التى امتلكت عاطفته والمجددين فى مصر بأن فى يد طائفة المجددين هنالك قوة على التنفيذ ، وليس فى يد طائفة المجددين فى مصر قوة منفذة . ومعنى هذا أن من بيدهم القوة فى مصر ليسوا من المجددين أو ليسوا من أولى العزم على تنفيذ ما يرونه من التجديد .

نعم فى تلك البلاد جراءة متناهية على تنفيذ ما يراه المجددون تخلصا من العقائد والتقاليد ، وجراءة متناهية فى الأخذ بتقاليد أوربا وإن كانت منكرة فى نظر الدين قبيحة فى رأى العقل السليم .

فإن أراد الأستاذ أن يحمل هذه الجراءة المتناهية مما يرجح بها ورن دعاة التجديد هنالك ، فقد أخطأ فيما أراد ، فإن استخفاف ذى القوة بدين الأمة وتقاليدها القائمة على أصوله ، غير محمود الأثر ، ولا مأمون العاقبة ، وبالأحرى اذا غلا فى الثورة عليه .

وإن أراد إغراء أولى القوة فى مصر على أن يسلكوا فى الجراءة على نبذ التقاليد وما له احترام فى النفوس مسلك المتجبّرين ، فقد اكتسب إثما حيث وضع أصبعه فى العمل للثورة على دين الله . واذا لم يجرؤ أولو القوة فى مصر على ما جرؤ عليه غيرهم من محاربة العقائد والتقاليد بدون قيد ولا شرط ، فلأن فى مصر قوة علمية دينية ، ولأن الجالس على عرش مصر يقدر الدين الحنيف قدره ، ويثق بأن الفلاح وحسن العاقبة فى المحافظة على آدابه السامية ، واذا اجتمع فى الرئيس الأعلى بصيرة نافذة وعزم فاصل ، لم يستطع الملحدون والإباحيون الى القضاء على العقائد الصحيحة والتقاليد القائمة عليها سبيلا .

وقد رأيم الأستاذ كيف اعترف بأن أولئك القوم أباحوا رقص النساء مع الرجال ثم ذكر أنهم أصلحوا ما جاء فاسدا من هذه الإباحة فقصروا الإباحة على من استكملوا ثمانى عشرة سنة ، وحجروها على من لم يبلغوا هذه السن .

فرقص الفتى مع الفتاة وقد بلغا ثمانى عشرة سنة ، على النحو الذى عليه الأوربيون يعد فى نظر الأستاذ من التجديد المقبول ، وليس هو من الإباحة التى يطلب بها استكمال اللذات والشهوات ، فعلى الأستاذ أن يسوق لنا مثلا من التجديد الذى أنكره على المجددين فى مصر ، وقال إنهم يطلبون به استكمال لذاتهم وشهواتهم ، ويكون هذ المثل أدخل فى التهتك وأجمع للذة والشهوة من رقص الفتيان مع الفتيات على النحو الذى عليه الأوربيون اليوم .

وقد ذكرت بهذا أن أحد القائمين بمثل الدعاية التى يقوم بها الأستاذ كتب مذكرة يصف بها حال المسلمين فى فنلندا ، ومما جاء فى هذه المذكرة « أن الرجال والنساء يدخلون الحمامات عارين وعاريات ، والأبصار مغضوضة والفروج محفوظة » فلعل الأستاذ يدعى للراقصين مع الفتيات هذا العفاف الذى ادعاه صاحب المذكرة للعارين والعاريات من الفنلنديين ، فإن ادعى هذا قلنا له ولصاحب المذكرة : لأن تقولا : إن العفاف ليس بفضيلة ، أيسر عليكما من أن تلبسا على الناس معنى العفاف وتعدا الخلاعة عملا سائغا ! ؟

محمد الخضر حسين

الظُّرف والمُلَح

قال عبد الملك بنُ مَرْوانَ للعُريان بن الهَيْثَم : كيف تَجِدُك ؟ قال : أَجِدُني قد ابيضّ منى ما كنتُ أُحبُّ أَنْ يسودَّ ، واسودَّ منى ما كنتُ أُحبُّ أَنْ يَبْيضَّ ، واشتدّ منى ما أُحِبُّ أن يلينَ ، وقال :

سَأُنْبِئُكَ بآياتِ الكِبَرْ   نومُ العشاء وسُعالٌ بالسَّحَرْ
وقلةُ النومِ اذا الليلُ اعتكرْ   وقلةُ الطُّعْمِ[1] اذا الزادُ حَضَرْ
وسرعةُ[2] الطَّرْفِ وتَحْميجُ[3] النظرْ   والناسُ يَبْلَوْنَ كما تَبْلَى الشجرْ

---

(١) تناول الطعام أى قلة الأكل . (٢) سرعة إغماض الجفون وفتحها . (٣) تصغير العين لتمكينها من النظر . وكل منهما من ضعف الكبر .



سورة النور
٣

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى . (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

الرمى الإلقاء والقذف بحجر أو سهم أو نحوهما مما يضر ويؤذى ، ستعير للسب وتوجيه العيوب لما فى كل من الأذى والإضرار ، فجرح اللسان كجرح اليد ، بل :

جراحات السهام لها التئام ولا يلتئم ما جرح اللسان

واختير هذا التعبير فى التعبير لأن الكلمة متى أفلتت من لسان قائلها لم يتمالك زمامها وانطلقت لا تلوى على شىء حتى تصيب من وجهت اليه بالضرر والأذى . والمحصنات المصونات ، أصله من الحصن وهو الموضع الحصين المنيع الذى لا يوصل الى جوفه ، عبر به عن العفيفات إشارة الى أنهن مع عدم قربانهن الفحش فهن منيعات عن أن ينلن به ، وسيأتى معنى الحصانة فى الشرع واختلافه بحسب المواضع . والشهداء

جمع شهيد بمعنى الشاهد ، وفيه معنى أنه يخبر عن شهود وعلم يقيني ، وأنه أمين على ما يؤديه ، ويفسر الشهيد بالأمين الذي لا يغيب عن علمه شيء مما عاينه . والجلد تقدم تفسيره ، وهو إصابة الجلد بالضرب المؤلم ، ولا يشترط أن يكون مباشرا للجلد على العرى كما سبق في الآية المتقدمة . وأبدا ظرف لاستغراق الزمن المستقبل . والفسق والفسوق أصله الخروج والانسلاخ ، يقال فسقت الرطبة عن قشرتها إذا خرجت وانسلخت عنها ، سمى به في لسان الشرع العصيان ، لما فيه من الخروج والانسلاخ عن أمر الله ، كأنه ينبغي أن يكون المؤمن محاطا بأمر الله وملتفا بأحكامه لا يغادره ولا يخرج عنه . وهذا حكم آخر من أحكام هذه السورة متصل بالأحكام التي قبله ، متمم لما يتعلق بموضوعها

لما بين جل شأنه ما في جريمة الزنى من عظيم الفحش وكبير الشناعة مما لم يجتمع في جريمة أخرى من كبير الإجرام وشنيع الفعل ، وأمر هذا شأنه يلحق العرض من الرمى به ما ينكس الرأس ويهدم الشرف ، وكان من مقاصد الشرع الحكيم حفظ الأعراض وصون الشرف لصاحبه ، والاحتفاظ بالكرامة وعزة النفس ، كان من مقتضى حكمته جل شأنه هذا التشريع الزاجر للنفوس الجامحة التي قد يدفعها الغضب إلى أن تصيب الناس في كرامتهم ، وتخدش شرفهم وهو أعز عزيز لديهم ، مستهينة بما اقترفت ، ففرض لنا فيما فرض من أحكام هذه السورة الشريفة حد القذف الزاجر الرادع ، الكفيل بصيانة الأعراض وحفظ الكرامة والشرف .

وإنما خص حد القذف بالقذف بالزنى ، لأن فيه من العار بدناءة النفس وهتك الستر وافتضاح السوءات وانتهاك الحرمات والدلالة على عدم الغيرة الذي هو من سمات أخس الحيوانات ما فارق به كل الموبقات ، فإن كان المرمى به امرأة كان فيه من جلب العار على قومها ما يؤدى إلى سفك الدماء ، وقلما تغسل ذلك العار ؛ وإن كان المرمى به رجلا كان فيه الدلالة على أنه ليس للعرض في نظره كرامة ولا للغيرة على نفسه سلطان

وكان أمارة على أنه لو أصيب بما أصاب به الناس لاعتبره أمرا عاديا لا تثور له نفسه ولا يغلى له دمه ، ولذلك قيل : لا يزنى الغيور . وكفى بهذا عارا وعابا يلحق الأبناء والأحفاد ، وتبقى سيرته طوال الأحقاب .

وقد عبر فى جانب الرامين بصيغة المذكر (الذين) وفى جانب المرمى بصيغة المؤنث (المحصنات) ولا فرق بين الذكور والإناث فى الرامى والمرمى ، فمن رمى غيره بالزنى واستوفى شروط الحد وجب حده ، سواء أكان كل من الرامى والمرمى رجلا أم امرأة وإنما اختير هذا التعبير — أما فى الأول فمن باب تغليب الذكور على الإناث ، فإنهما متى اجتمعا فى حكم عبر بصيغة الذكور تغليبا لهم عليهن . وأيضا فإن الغالب أو المفروض أنه الغالب هو أن الرمى بهذه الفاحشة بعيد عن ألسنة النساء اللاتى ينبغى أن يحوطهن الحياء فلا يكاد يقع منهن هذا البذاء .

وأما الثانى وهو اختيار صيغة المؤنث فى جانب المرمى ، فلأن أكثر ما توجه هذه التهمة الشنيعة للنساء ، فهى لهن آلم وأوجع ، ولا يرمى بها الرامى إلا للنيل من المرمى بآلم ما يستطيع . وهذا لا ينافى مساواة الرجال لهن فى لحوق العار وإصابة الشرف وتنكيس العزة ، وعلى ذلك يكون قيد التأنيث المستفاد من صيغة الجمع بالألف والتاء لا مفهوم له ، بل مثلهن فى ذلك الذكور ، وليس هذا من باب قياس الرجال على النساء بل من باب إلغاء الفارق بين الفريقين ، ويسمى فى لسان الأصوليين بدلالة الفحوى للقطع بإلغاء الفارق وهو الأنوثة والذكورة فى الرامى والمرمى . على أن الآية وردت فى واقعة هى رمى رجل امرأة بالزنى ، فجاء التقييد على وفق سبب النزول ، فإنها نزلت فى هلال بن أمية لما رمى امرأته فقال عليه السلام : « البينة أو حد فى ظهرك » وإن كانت آية اللعان جاءت مخصصتها كما سيأتى .

وقد أجمع الفقهاء على أن المراد بالرمى هنا الرمى بالزنى لعدة قرائن — منها مجىء الآية بعد آية الزنى ؛ ومنها التعبير بالمحصنات وهن العفائف ؛ ومنها قوله : (بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

ومعلوم أن كون نصاب الشهادة أربعة إنما هو فى الزنى خاصة ، وقد عرفت حكمة تخصيص القذف بالزنى بذلك من بين الرمى بالجرائم الأخرى . والمحصنات معناه العفيفات اللاتى أحصن فروجهن ، وقد يأتى الإحصان بمعنى التزوج كما فى قوله تعالى : (وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ) فإنه بمعنى المتزوجات ؛ وبمعنى الوطء فى زواج كالإحصان المعتبر فى الرجم ، فإن معناه ذلك ؛ وليس هذا الإحصان شرطا فى حد القذف ، بل من قذف عفيفة سواء أكانت متزوجة أم لا استوجب الحد ؛ وإنما اشترط الفقهاء فى الإحصان هنا مع العفة الحرية والاسلام والبلوغ والعقل . واستيفاء تفصيل الأحكام والشروط والخلاف فيها يطلب من كتب الفقه .

هـذا وقد رتب الشارع على قذف المحصن أو المحصنة ثلاثة أشياء : الجلد ثمانين جلدة ، ورد الشهادة أبدا ، والحكم عليه بالفسق . فأما الجلد فللزجر ، ولمقابلة الإيذاء بالإيذاء ؛ وأما رد الشهادة فهى عقوبة لسانية تشبه قطع يد السارق ، فكأنه روعى أن جزاء هذا اللسان الذى اقترف ذلك الإثم العظيم أن يهدر ويقطع أثره فلا يعتد بما يقوله ويشهد به فيما بين النـاس فهو والعدم سواء ؛ وأما تفسيقه فهو مبالغة فى الزجر وإشارة الى أن ما لقى من جزاء فى الدنيا من الحـد ورد الشهادة لم يعفه من اعتباره فاسقا خارجا عن أمر ربه وطاعة بارئه . وناهيك بهذه الجزاءات دلالة على عظم الخطب وشدة الخطر . واذا كان هذا فى الرمى بالزنى والاتهام به ، فكيف يكون حال مقترف هذ الجرم الفاحش الشنيع ؟ فهذا الحكم مع دلالته على ما سيق له يدل دلالة بالغة على تفظيع جرم تلك الفاحشة وتشنيع أمرها ، وعناية الشارع بالتنزيه عنها والتنفير منها .

وقد أردف جل شأنه ذلك الجزاء باستثناء التائبين فقال : (إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) والتوبة الرجوع الى الله بعد الإعراض عنه ، والإقبال عليه بعد الإدبار ؛ وكفى بالمعصية إعراضا وإدبارا ، بل فرارا من حظيرة قدسه وساحة رحمته .

والتوبة فى نظر علماء الأخلاق تنتظم من معان ثلاثة تؤدى الى تطهير القلب ، بل الجوارح أيضا من أدران الذنوب ، وهذه المعانى الثلاثة هى أولا — علم ما فى الذنب من الإضرار بالنفس بالإبعاد عن ساحة الرحمة ومنزلة الرضوان ، وإنه لإبعاد لا يقدم عليه إلا عدو نفسه ، فلا تحصل التوبة دون أن يتحقق هذا المعنى الأول تحققا يقينيا وعلما حضوريا يملك عليه نفسه فلا تصدر عنه الأفعال إلا وفقه ، علما يشبه علمك أن فى هذا الطعام الذى اشتهيته سما مهلكا يخبرك به الطبيب الثقة ، وأن فى هذا الطريق الذى سلكته سبعا ضاريا ووحشا مفترسا وقطاع طريق ينبئك بذلك الدليل الصادق الذى خبر هذه الجهة وعرف ما تحتويه ولا تشك فى خبره ، فماذا يكون حالك وقد تورطت فأكلت الطعام اشتهاء ، أو سلكت ذلك الطريق تهورا ؟ أليس يدركك من الندم ما ترتبك معه وتخور له قواك ، وتجزع على هذا الاندفاع البعيد عن الاستبصار؟ ألست تشعر حينئذ بحالة اكتئاب وجزع وحسرة على ما فرط منك تقلب عليك لذتك ابتئاسا ، وغبطتك بالطريق الذى تورطت فيه استيحاشا ؟ ألست تذهل عن كل ما يحيط بك ، وينحصر فكرك فيما يخلصك من هذه الداهية والمصيبة التى تورطت فيها ؟

فهذا هو المعنى الثانى وهو الندم على ما فرط ، وليس مجرد الندم والحسرة ويقف الشخص مهونا غير مفكر إذا كان من أهل البصيرة كلا ، بل لا يسمى ندما حقيقة ويصدق فى دعواه أنه ندم حتى يترتب على ندمه أثره الصحيح ، وذلك فعل يتعلق بما مضى ، وبما هو حاصل ، وبما يستقبل من الزمان ، فيقلع عن الاستمرار فى تناول ذلك الطعام الشهى حالا ، ويعزم على ألا يعود إليه فى المستقبل ، ويعمل على تخليص معدته مما سبق منه إليها فى الماضى ، وكذلك يقطع السير فى هذا الطريق ويعزم على ألا يخترقه ما دام كذلك ويكر راجعا من حيث أتى ، فيلغى سيره فى المسافة التى قطعها .

هكذا شأن التوبة من الذنوب ، فهى الاستيقان بأنه قد جلب على نفسه الضرر المهلك متابعة لشيطان هواه الذى يرديه فى الهاوية ، فيحيط به الندم والجزع الصحيح

فرارا بنفسه مما لا قبل له به ؛ وأين الوحوش الكاسرة وقطاع الطريق من الخلود فى النار والتعرض لغضب الجبار ومحاربة القهار ؟ بل أين السموم فى الأحشاء من التردى فى الموبقات المهلكات عند من عرف مقدار الحيتين ووازن بين اسعادتين ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ؛ ومقياس الندم الحقيق الذى يميزه من دعوى الندم مغالطة وخداعا — ولا تخدع النفس إلا نفسها — مقياس ذلك أن يؤتى هذه الثمار الثلاث : الإقلاع فورا عن الاستمرار فى الذنب الحالى ، والعزم على ألا يعود فى المستقبل أبد ، والمبادرة إلى التخلص مما فرط منه فى الماضى ، ومن ذلك أن ترد الحقوق لأصحابها . هذه هى التوبة الصحيحة المطهرة ، ومتى حصلت على هذا الوجه طهّرت حقيقة ، وكانت مقبولة حتما كما وعد جل شأنه ، ووعده لا يخلف . وهذا معنى قولهم : التوبة تنتظم من علم وحال وعمل ، والعمل يتعلق بالحال والاستقبال والماضى .

تأمل هذا وقارنه بقول بعض الجهلة يلقن العاصى التوبة فيقول له : قل كما أقول — تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت على ألا أعود أبدا . فثل هذا مثل أن تأمر خادمك أن ينظف ثوبك فيقول : أحضرت الماء والصابون وغسلته وكررت غسله حتى نظف ، ويكرر ذلك القول سبع مرات كل يوم وليلة والثوب على حاله ، فهل يغنى هذا القول عن نظافة الثوب شيئا ؟ اللهم هد قومى فإنهم لا يعلمون : وقد ورد فى الحديث « الندم توبة » وهو من باب « الحج عرفة » فإن الندم هو جماع هذه المعانى .

والإصلاح إزالة الخلل والفساد الطارئ على الشيء . والمراد هنا إصلاح ذات البين التى أفسدها بينه وبين من قذفه ، وذلك بأن يستحله مما فرط منه فى حقه حتى يسامحه ، وذلك شأن التوبة والتخلص من حقوق العباد ، وهو غير ما تضمنته التوبة من الندم على ما فرط ، وإزالة ما حصل بتكذيب نفسه فى مسألة القذف ، إذ لا يلزم من اعترافه على نفسه بأنه كان كاذبا فى القذف أن تصفو نفس المقذوف من جهته ،

فقد آذاه بلا وجه حق ، وقد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا، فيجب أن يصلح ما أفسدته كلمته من صلات الأخوة الإسلامية ، بأن يستسمحه حتى يسامحه ، وهذا سر قوله : (وأصلحوا) بعد قوله : (تابوا) .

وأما قوله : (من بعد ذلك) والتوبة لا تكون إلا بعد الذنب ، فإن سره التهويل وتفظيع ما وقع فيه وتكبيره ، وذلك كما تقول وأنت تروى قصة فتصل الى جزء منها له أهمية خاصة فى القصة — تقول . « وبعد ذلك كله يجئ ويقول لى كيت وكيت » تستعمل هذه العبارة فى ألسنة الناس كثيرا لإفادة هذا الغرض، ولعلماء البلاغة فى توجيه اسم الإشارة الذى يحضر المشار اليه بذاته كأنه يشاهد ، ويلفت اليه النظر ، ما يعرفه من أخذ منها بطرف ، وكذلك فى ذكر كلمة (من) فى قوله : (من بعد ذلك) زيادة فى تهويل شأن الأمر الذى حصل ، كما فى قوله تعالى : (وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ) جاءت فى آيات تحويل القبلة بعد ما بسط على أتم تفصيل حكمة القبلة القديمة ثم حكمة التحويل وأيأسه من متابعتهم ملته ، وغير ذلك من تنويع الهدى فى المسألة ، قال بعد ما أتم الكلام فيها : (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ) وأما فى الآية السابقة عليها وهى قوله : (وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ) التى جاءت عقب قوله جل شأنه . (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ) فلم تأت بعد سوق أدلة فى الكلام السابق تكون موجبة لاستبعاد أن ينشأ من بعدها هذا المحذر منه ، بل كانت إشارة إلى ما جاءه من العلم والهدى واستقر فى نفسه حتى أصبح أمرا راسخا ، وهذا شيء وذكره فى مقام التحذير شيء آخر ، فالعظمة فى آية « بعد الذى » راجعة إلى المعلوم المستقر فى النفس ، وفى آية تحويل القبلة راجعة الى البيان وبسط الأدلة

بقيت مسألة نريد أن نلم منها بطرف وجيز حرصا على فائدتها، ونترك البسط فيها لمن شاء التوسع، فأمامه كتب الأصول تشفى غلته. وهى : ما هو مرجع الاستثناء فى قوله تعالى : (إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا) ؟

قد اختلف الشافعية والحنفية فى ذلك. فيقول الحنفية : الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة، وهى قوله : (وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ) وعلى هذا فمن حد فى القذف لا تقبل شهادته أبدا ولو تاب. وقال الشافعية : بل هو راجع إليها وإلى ما قبلها، فمن تاب بعد ما أقيم عليه الحد قبلت شهادته. وأصل الخلاف فيما إذا وقع قيد أو استثناء بعد جمل متعاطفة، هل يرجع للأخيرة ؟ بذلك يقول الحنفية، أو يرجع للكل ؟ بذلك يقول الشافعية — إلا أنه منع من رجوعها لإيجاب الحد أنه حق لآدمى لا تسقطه التوبة، ولكل من الطرفين أدلة على ما يقول وتفريعات لا يسع هذا المقام ذكرها، والله أعلم ؟

ابراهيم الجبالى

الطرف والملح

قال شاعر حكيم :

لك الخير[1] لُمْ نفسا عليك ذنوبها ودَعْ لَوْمَ نفس ما عليك[2] تُلِيمُ
وكيف ترى فى عين صاحبك القذى ويَخْفَى قذى عينيك وهو عظيم

(١) جملة دعائية. (٢) لا تجر عليك لوما ولا ذنبا.

كلمة

فى ترجمة القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين .

أما بعد فقد طرق الكتاب فى هذه الأيام باب ترجمة القرآن من اللغة العربية الى غيرها من اللغات ، واتسعت دائرة البحث والأخذ والرد بين حضراتهم على صفحات الجرائد فى هذا الموضوع ، حتى خيل للناظر فيما كتبوا أن مسألة ترجمة القرآن من المسائل المعضلة التى خفى حكمها ، وأنه لم يتكلم فيها أحد من الأئمة المجتهدين أو أتباعهم بما يشفى الغليل ويريح طالب الحق .

وحيث إن المتبع فى تعرف الأحكام الشرعية هو استنباط الحكم بواسطة القرآن أو السنة أو الاجماع أو القياس إن كان طالبه مجتهدا ، والرجوع الى أقوال الأئمة المجتهدين وتخريج أصحابهم إن كان طالب الحكم مقلدا ، ولم يدّع واحد من حضرات الكاتبين الاجتهاد ، فكان الأجدر بحضراتهم أن يعولوا فى بحثهم على ما نقل عن الأئمة المجتهدين وأصحابهم ودوّن فى الكتب التى وضعها مؤلفوها لنقل مذاهبهم وأقوالهم التى استقر الرأى عليها ، ولا يقصروا بحثهم وموضع جدلهم على الركون الى قول الامام أبى حنيفة مرجوع عنه ، وإغفال أقوال باقى الأئمة وما رجحه أتباع أبى حنيفة . وقياما بما يتطلبه

الدين (وقد اطلعت على أقوال الأئمة الأربعة فى هذه المسألة) أتقدم لإخوانى المسلمين بكلمة موجزة أبين فيها حكم ترجمة القرآن وكتابته بغير اللغة العربية ، وحكم قراءته بغير العربية فى الصلاة وخارجها كما هو منصوص فى الكتب الموضوعة لنقل مذاهب الأئمة الأربعة .

وقبل بيان الحكم أذكر مقدمة يتبين منها مدرك الأئمة فى هذه المسألة فأقول : أجمع الأئمة على أن القرآن اسم للفظ العربى المخصوص الدال على المعنى . ونقل ذلك الإجماع شارح مسلم الثبوت ، وقال علماء الأصول فى تعريف القرآن : هو اللفظ العربى المنزل للإعجاز المنقول إلينا تواترا .

وأجمع الأئمة الأربعة أيضا على أن قراءة القرآن فى الصلاة فرض على القادر عليها بحيث لو تركت لا تصح الصلاة ، قال تعالى : (فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ) قالوا : الأمر بالقراءة فى الصلاة .

ومن ذلك الإجماع والتعريف المذكور للقرآن يتضح أن اللفظ العربى الذى أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم للإعجاز لابد منه فى تحقق القرآنية ، وأن مجرد المعنى لا يسمى قرآنا ، ولا كلام الله وأيضا فغير خاف أن الكلام إنما ينسب الى الشخص ويعتبر كلامه اذا كان هو الذى رتبه ونظمه على الوجه الذى تحقق به فى الخارج ، ألا ترى أن شعر امرئ القيس إنما نسب اليه لأنه هو الذى أنشأه ورتبه ونظمه على ذلك الوجه الذى وصل الينا ، أما اذا حكى مضمونه ومعناه بعبارة أخرى فلا يقال شعر امرئ القيس ولا كلامه ؟ كذلك اذا عبر عن معنى كلام الله تعالى بعبارة أخرى من أى لغة ولو من لغات العرب ، فإنه لا يكون كلام الله ولا يسمى قرآنا . على أننا نقول : إن الترجمة لا تتأتى فى القرآن أصلا ، لأن آيات القرآن لها معان أولية يشترك فى تأديتها أهل كل لسان ، فيمكن لكل إنسان عالم بذلك المعنى أن يؤديه بأى عبارة كانت ، ولها معان

ثانوية مدارها على أمور وأحوال اقتضت أن يكون الكلام المؤدى به المعنى الأولى مشتملا على خصوصيات كإيجاز أو إطناب أو كناية أو مجاز أو تقديم أو تأخير إلى غير ذلك .

هذه المعاني الثانوية حيث اقتضتها أحوال جعلت المتكلم يأتى فى كلامه بما يفيدها فهو الذى يلاحظها ويأتى بجمل مركبة من كلمات مخصوصة مرتبة ترتيبا خاصا بحيث تفيد هذه المعانى الثانوية ، فلا يمكن لغير المتكلم أن يساويه فى الإتيان بما تقتضيه هذه الأحوال إلا اذا اتفقت الاصطلاحات وطريقة التخاطب ومساواة المخلوق للخالق فى الإحاطة بجميع الأحوال المقتضية للخصوصيات ، والإتيان بتلك الخصوصيات على الوجه الأكمل مجزوم بنفيه .

بل لو أمكن لأى واحد من البشر ترجمة القرآن ترجمة حرفية لخرج القرآن عن كونه معجزا ، وكان فى إمكان البشر أن يأتى بمثله . وكيف هذا وقد تحدى الله الإنس والجن فقال : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) ، وحينئذ لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة تؤدى المعانى التى بها الإعجاز ، واذا انتفى الإعجاز عنه بالترجمة انتفت قرآنيته ، فلا تسمى فى تلك الحالة قرآنا ، ولا تقوم الترجمة مقام الأصل فى احكامه .

اذا علمت ذلك الأصل وأنه لا يسمى قرآنا إلا ذلك اللفظ العربى الذى أنزل للإعجاز ، وأن قراءة القرآن فرض فى الصلاة على القادر عليها بإجماع الأئمة ، فاسمع أقوالهم فى كتابة القرآن بغير العربية ، وفى قراءته بغير العربية فى الصلاة وخارجها :

أجمع الأئمة الأربعة على أنه لا يجوز كتابة القرآن بغير اللغة العربية ، لأن كتابته بغيرها تخرجه عن الرسم الوارد الذى قام الإجماع على أنه يجب التزامه ، بل قد تؤدى

كتابته بغير العربية الى التغيير فى اللفظ ، لأن بعض الحروف العربية لا نظير له فى بعض اللغات الأخرى ، والتغيير فى اللفظ يؤدى إلى التغيير فى المعنى ، وحيث كانت الكتابة بغير العربية تؤدى الى هذا ، فلا تجوز . وقال بعض علماء الحنفية : إن من تعمد كتابة القرآن بغير العربية يكون مجنونا أو زنديقا ، فالمجنون يداوى والزنديق يقتل . أما ما نقله صاحب فتح القدير عن الكافى من أنه اذا كتب القرآن و تفسير كل حرف وترجمته جاز ، فهو فى خصوص ترجمة التفسير . ونحن نسلم جواز ترجمة التفسير ليتمكن العاجز عن العربية من استفادة المعانى . وأجمع الأئمة أيضا على أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية خارج الصلاة ، ويمنع فاعل ذلك أشد المنع ، لأن قراءته بغيرها من قبيل التصرف فى قراءة القرآن بما يخرجه عن إعجازه ، بل بما يوجب الركاكة ، لأن الكلام المترجم من اللغة العربية الى غيرها قد يحصل فيه تقديم المضاف اليه على المضاف ، والصفة على الموصوف ، ونحو ذلك مما يخل بالنظم وقد صرحوا بأن ترتيب كلمات القرآن على ذلك الوجه الوارد ، من مناط الإعجاز .

وأما القراءة فى الصلاة بغير العربية فتحرم عليه إجماعا للمعنى المتقدم ، لكن لو فرض وقرأ المصلى بغير العربية هل تصح صلاته أو تفسد ؟

قال مالك والشافعى وأحمد : اذا قرأ المصلى بغير العربية سواء كان قادرا على القراءة بالعربية أو غير قادر ، فسدت صلاته ، لأن المقروء ليس بقرآن لعدم اللفظ العربى ، فيصير آتيا فى صلاته بما ينافيها ، وهو من جنس كلام الناس فتفسد صلاته .

بقى الكلام فى مذهب أبى حنيفة ، واليك البيان :

ذكر الحنفية فى كتبهم أن الإمام أباحنيفة كان يقول أولا : اذا قرأ المصلى بغير العربية مع قدرته عليها اكتفى بتلك القراءة ، ثم رجع عن ذلك وقال : متى كان قادرا على العربية ففرضه قراءة النظم العربى ، ولو قرأ بغيرها فسدت صلاته لخلوها عن القراءة

مع قدرته عليها والإتيان بما هو من جنس كلام الناس حيث لم يكن المقروء قرآنا . هذا هو الذى ذكره المحققون من علماء الحنفية .

وغير خاف أن المجتهد اذا رجع عن قوله لا يعد ذلك المرجوع عنه قولا له ، لأنه لم يرجع عنه إلا بعد أن ظهر له أنه ليس بصواب ، وحينئذ لا يكون فى مذهب الحنفية قول بكفاية القراءة بغير العربية فى الصلاة للقادر عليها ، فلا يصح التمسك به ولا النظر اليه ، خصوصا وأن إجماع الأئمة ومنهم أبو حنيفة صريح فى أن القرآن اسم للفظ المخصوص الدال على المعنى لا للمعنى فقط .

أما العاجز عن العربية ويمكنه أن يقرأ بغيرها ، فقد ذكر صاحب الهداية أنه اذ قرأ بغير العربية لا تفسد صلاته ، وذكر قاضيخان فى فتاويه أن صلاته تفسد ، ووفق صاحب البحر بين هاتين الروايتين بحمل القول بعدم الفساد على ما اذا كان المقروء ذكرا أو تنزيها ، والقول بالفساد على ما اذا كان المقروء قصة أو أمرا أو نهيا . وقال صاحب النهر : إن هذا التوفيق هو الذى اختاره الكمال بن الهمام .

وبناء على هذا التوفيق يكون الحكم عند الحنفية بالنسبة للعاجز عن العربية أنه كالأمى لا تجب عليه قراءة ، ولكن اذا فرض وقرأ بغير اللغة العربية تفسد صلاته إن كان المقروء قصة أو أمرا أو نهيا ، لأن المقروء ليس بقرآن قطعا لانعدام اللفظ العربى ، وليس ذكرا ، فيكون من جنس كلام الناس وهو مفسد للصلاة ، وإن كان المقروء ذكرا أو تنزيها لا تفسد صلاته ، لأن الذكر بأى لسان لا يفسد الصلاة ، وفى كلتا الحالتين لا يكون تاليا لقرآن لانعدام اللفظ العربى .

يبقى الكلام بعد ذلك فى الأثر المنقول عن سلمان الفارسى ، ومجمل ما يقال فيه : هذا الأثر نقله صاحب النهاية والدراية بلفظ هذا نصه :

«إن أهل فارس كتبوا الى سلمان الفارسى أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية فكتب فكانوا يقرءون ما كتب فى الصلاة حتى لانت ألسنتهم، وقد عرض ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه» ونقل هذا الأثر الإمام النووى فى المجموع بلفظ هذا نصه: «إن قوما من أهل فارس طلبوا من سلمان أن يكتب لهم شيئا من القرآن فكتب لهم الفاتحة بالفارسية» واقتصر على هذا فى الرواية، ولم ينقل أنهم كانوا يقرءون بها فى الصلاة، وأن سلمان عرض ذلك على النبى ولم ينكر عليه.

هذا الأثر لا يصح التمسك به ولا الاحتجاج به على جواز ترجمة القرآن لأمور:

أولا — أن رواة الحديث الذين احتاطوا فى تمييز الحديث الصحيح من الضعيف من الموضوع مثل البخارى ومسلم ولإمام مالك والإمام أحمد لم يذكروا ذلك الحديث فى كتبهم مع وجود الداعى لى نقله لو كان صحيحا، وهو تعلق حكم شرعى به — من جواز الصلاة بغير العربية، وجواز ترجمة القرآن، ومس ذلك المترجم، وغير ذلك من الأحكام.

ثانيا — أنه حصل اختلاف فى لفظه بالزيادة والنقص كما سمعته، وهذا يوجب الاضطراب.

ثالثا — أنه مخالف للمجمع عليه من عدم جواز الترجمة الوجه الذى سمعته فى صدر الكلام، وحينئذ فلا يصح التمسك بهذا الأثر ولا النظر اليه.

ومن هذا الذى تقدم يظهر لك جليا أن الأئمة الأربعة أجمعوا على عدم جواز كتابة القرآن بغير العربية، وعلى عدم جواز الترجمة، وعلى أن ما كان بغير العربية لا يسمى قرآنا لانعدام اللفظ العربى المخصوص، وعلى أن القادر على العربية اذا قرأ بغيرها فى الصلاة فسدت صلاته، وعلى أن العاجز عنها اذا قرأ بغيرها ما كان قصة أو أمرا أو نهيا فسدت صلاته، لأن ما أتى به ليس قرآنا وهو من كلام الناس فيفسد

الصلاة ، ولم يختلفوا إلا فيما إذا كان المقروء ذكراً أو تنزيها ، فالأئمة الثلاثة قالوا بفساد الصلاة ، وأبو حنيفة وأصحابه قالوا بجواز الصلاة ، لأن العاجز عن العربية حكمه حكم الأمى فلا قراءة عليه ، وإذا أتى بذكر بأى لغة لا تفسد صلاته ، فكذلك من كان فى حكمه ، ومع ذلك فليس تاليا لقرآن لعدم اللفظ العربى . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ؟

محمود أبو دقيقة

الطُّرَف والمُلَح

قال حمزة بن بيض[1] لمخلّد بن يزيد بن المهلّب :

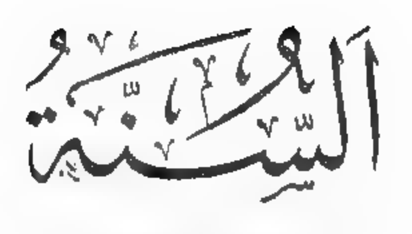
بلغتَ لعشرٍ مضتْ من سنيـ ـنك ما يبلغ السيد الأشيَب

فهمُّك فيها جِسامُ الأمور وهمُّ لِداتك[2] أنْ يلعبوا

* * *

قال بختيشوع للمأمون : لا تجالس الثقلاء فإنا نجد فى الطب : مجالسة الثقيل حُمّى الرُّوح .

(١) ضبط الباء بعضهم بالكسر وبعضهم بالفتح . (٢) أمثالك فى العمر .



بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل طلبته ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » رواه الشيخان ، واللفظ للبخارى .

تمتاز السنة النبوية بخاصية لا تكاد تجدها فى كلام سائر البشر — إلا فى النزر اليسير جدا من أعاظم الحكماء يتاح لأحدهم الفينة بعد الفينة ، ولكنها فى كلام المصطفى عليه الصلاة والسلام روح سارية لا يعتريها ضعف ولا وهن . تلك الخاصية هى جمع المعانى المفرقة التى تربطها روح واحدة تكون هى المقصد الأساسى فيها ، ولذلك كان عليه الصلاة واسلام مختصا بجوامع الكلم ، فقلما تظفر بحديث من الأحاديث الصحيحة إلا وتجد فيه من الروعة والجلال واستيفاء المعنى المسوق له ما يملأ نفسك إكبارا وإعظاما . وإن من الكاملين وذوى البصائر من أوتى قوة التمييز بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة بمجرد سماع لفظها قبل البحث فى صحة إسنادها واستيفاء شرائطه

فيقول لك : هذا لا يمكن أن يكون حديثا ، فليس فيه النور الذى تعودنا سطوعه من تلك الشمس المشرقة . فاذا ما رجع الى سنده وجد فيه من لا يصح التعويل عليه ، إما لضعف حفظ ، أو تجربة كذب ، أو رقة دين ، أو غلبة رياء .

ومن الشواهد التى تثبت لك صحة هذا وتجلوه واضحا نيرا ما تراه فى هذا الحديث الشريف الذى توجنا به هذه الكلمة وخصصناها لخدمته بالشرح واستنباط الحكم والأحكام ، فقد رواه الشيخان وكرره البخارى فى عدة مواضع تبعا لأبوابه التى دخل فيها على ما هى عادته ، وصححاه من جملة طرق على شرائطهما ، ورواه غيرهما من كبار رجال الحديث .

ويدور ما ذكر فيه من خصال متعددة على محور واحد هو الإخلاص لله فى العبادة فما من واحد من السبعة إلا وتراه داخلا فى زمرة الذين يعبدون الله مخلصين له الدين حنفاء ، وذلك دين القيمة .

فلا غرو أن يمنحو هذه الميزة الكبرى التى تتلهف لها النفوس شوقا اليها ، تلك هى أن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله . وإظلالهم بظله : إما بمعنى إيوائهم الى ظل عرشه يوم تدنو الشمس من الرءوس ، ويسيل العرق من الناس حتى يغمرهم ، ويتفاوتون فى ذلك حسب تفاوتهم فيما اقترفوا من آثام يوم يشتد الهول والفزع الأكبر ويود أهل الموقف الانصراف ولو الى النار . وإما بمعنى أن يحميهم بحمايته ويؤمنهم مما يخافون ، كما يقال : فلان يستظل بظل فلان ، أى يحتمى بعزته ويلجأ الى جواره . وأصله أنه كان من عادة العرب أن المستجير يستظل بظل خباء من أجاره . و(يوم لا ظل إلا ظله) على الأول : معناه يوم يعجز الناس عن إيجاد ما يؤويهم ويقيهم حر تلك الشمس ، فتذهب عنهم هذه القدر التى وهبهم الله إياها فى الدنيا ، فلا ملجأ من حرارة ذلك الموقف إلا لمن أظله الله ووقاه بلا مدخل لعمله وقدرته ، ومعناه على الثانى : يوم يجير ولا يجار عليه ،

يوم تقطع الأسباب بالناس ، وتنكشف الحقائق ، وتضيع تلك الخيالات ، يوم يقال : (لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ) ؟ فيكون الجواب : (لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ) .

ولا يخفى ما فى اختيار هذا التعبير الذى يفيد عظمة ذلك اليوم وشدة هوله ، إما لشدة حره وعزة ما يقى منه ، وإما لشدة الجبروت وتجلى العظمة والقهر الإلهيين ، وبدوّ العجز لا يستره حجاب ، و نكشاف الأستار الوهمية وتجلى العزة والجبروت ، فإن تصوير هذا الموقف بتلك الصوره الهائلة فى ذلك الأسلوب الوجيز (يوم لا ظل إلا ظله) مدعاة الى التماس الفرار . والعمل على النجاة من ذلك الهول الأكبر .

(١) الإمام العادل — وهو من نصب لإقامة المصالح العامة للمسلمين والهيمنة على شئونهم الدينية و لدنيوية . ومثله عادة يكون له من السلطة والمهابة ما يجعله رقيبا على غيره ، حيث لا هيمنة عليه إلا من دينه ، ولا رقيب عليه إلا الله وحده ، فهو من جهة الخلائق متمكن من أن يفعل ما شاء ، تشايعه القوة ويحيط به النفوذ وتكتنفه المهابة ، والجميع مذعن لطاعته فيما يأتى وفيما يدع ، فاذا نزعت به نفسه الى الجور ودعاه هواه الى الميل (ودواعى الهوى كثيرة لا يضبطها الحصر ، ومسالك الشيطان الى الانسان واسعة ، اذا سد منها مسلك بدت مسالك) كان ذلك له ميسورا غير معسور . فاذا ما عدل فإنما يعدل طاعة لربه ، لا خوفا من سطوة رقيب أو مهيمن ، فذلك دليل إخلاصه لربه فى حكمه ، بل فى سائر أعماله ، إذ ليس أشق على النفس من التزام طريق العدالة بين متنازع الأهواء ، فمن سلم من الزلل فى هذا الأمر الجلل ، فهو فيما سواه أسلم ، واذا يكون عدله فى حكمه ولا رقيب عليه إلا ربه دليل خضوعه لحكم مولاه القاهر فى سره وعلنه ، وكفى بهذا أمارة إخلاص .

وبعد فإنه اذا اتبع العدل فى أحكامه فقد تبعه الكثير من رعيته اقتداء به وسيرا على سنته ، فنفوس الناس مولعة باقتفاء آثار كبرائهم ، فيكون له من ذلك ما ضمن لمز

سن سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها لا ينقص ذلك من أجرهم شيئا . وكفى بتفشى الصلاح فى الأمة فائدة عظمى وخيرا عميما ، ولذلك ورد فى مسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعا : (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن : الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا) فتأمل فى اختيار هذا الوصف لهم فى دار الجزاء

(على منابر) : وإنما يعلو المنابر عادة من يهدى إلى الرشد ، ومن جعل ليقتدى بقوله وفعله ، ومن له الزعامة والقيادة . (من نور) . وذلك جزاء لهم على ما أناروا للناس من طرق الخير ، وهدوهم الى ما فيه سعادتهم ، وهو العدل فى الأحكام الذى يستل سخائم النفوس بين الناس ، ويقر عيون ذوى الحقوق ، وينصر المظلوم الضعيف ، ويردع الظالم فينقذه من مهاوى ظلمه ، وعلى الجملة فهو يريح النفوس حتى المنتصف منها . ولقد أحسن من قال . لو أنصف القاضى استراح الناس ، بل لو أنصف الناس استراح القاضى . فالثانية غاية بعيدة المنال ، وثمرتها وهى استراحة القاضى أمر هين ؛ وأما إنصاف القاضى فأمر منضبط ميسور ، وثمرته أجل من أن تحصى . (عن يمين الرحمن) : وما أشرفها منزلة يتنافس فى إحرازها المتنافسون ، ولمثلها فليعمل العاملون . وأما تتمة هذا الحديث وهو قوله : (الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا) : فما يفتح باب الرحمة واسعا ، ويعود على ما معنا بأصح تفسير ، وهو أن الامام وإن كان يتبادر منه الامام العام وخليفة المسلمين ، فإنه قابل لأن يتناول كل من ولى أمرا من أمور الأمة وعدل فيه . وقد جاء فى الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها) وقد روى عن ابن عباس أنه قال . ما نكث قوم إلا سلط الله عليهم العذاب ، الى أن قال : وما حكم قوم بغير حق إلا سلط عليهم إمام جائر . ففضيلة العدل فى الحكم وإن كانت فى الأصل معروفة فى الامام العام ، ولكنها شاملة فى منطوقها لكل من ولى شيئا من الأحكام .

(٢) وشاب نشأ فى عبادة ربه — وما أجدره بهذه المنزلة . فهو تحت سلطان الشباب القاهر ، وله عادة من أترابه وقرنائه ومن يأنس به من لا يفتأ يدعوه الى هاوية الفجور ، ويضم الى ذلك نفس نزاعة للهوى ، واشتعال نار الشباب ، وقد قام له العذر أو شبه العذر من شبابه وما اعتيد فيه ، فاللوم فى جانبه أخف ، وتتبع حركاته أهون ، واستنكار السيئة منه ألين ، فقد اجتمعت دواعيه ، وتقلصت نواهيه ، فتغلُّبُ دينه فى هذه الحالة على مقتضيات الفساد دليل على تأصل ملكة الرشد . وقد قيل : الناس أربعة : اثنان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما، واثنان أنت منهما على تجربة . فأما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، فبرٌّ بين فجار ، وفاجر بين أبرار ، فلو كان للفجور الى نفس الأول سبيل ، أو للهدى الى نفس الثانى مسلك ، لكان فى بيئته ما يساعده عليه بل يلجئه اليه . وأما اللذان أنت منهما على تجربة ، فبر بين بررة ، وفاجر بين فجرة ، فلعل أحدهما لو تغيرت بيئته لكان غير ما تراه . فتعرف من هذا أن شابا نشأ فى عبادة ربه وقد أحاط به من الأتراب وعصف به من نار الشباب ما يزلزل الجبال ويقلقل عزائم الرجال — لهو امرؤ تمكن الهدى من قلبه ، وهو حقا مخلص لربه . وقد ورد : تعجب ربك من شاب ليست له صبوة .

(٣) ورجل قلبه معلق فى المساجد — قال تعالى : (إِنَّ ٱلصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ) وورد : « الصلاة عماد الدين » وإن من علق قلبه فى المساجد يعنى تعلق بها تعلق ارتباط كما جاء فى رواية « متعلق بالمساجد » أو لازمها ، لا يكاد ينصرف عنها إلا على نية الرجوع اليها ، فكأنه كقنديل معلق فى المسجد — إن من كان بهذه المثابة يكون قد أخذ قسطا عظيما من مظهر (جُعل قرة عينه فى الصلاة) .

وماذا تظن فى رجل شغف بمناجاة ربه والوقوف بين يديه وقوف الخضوع والذلة واستحضار المجد والجلال واستدرار رحمته وطلب هدايته ؟ هل هذا إلا رجل أقبل

على ربه بقلبه وقالبه يبغي الزلفى لديه والتقرب منه؟ وما ظنك بجزاء من لا ينفك يتقرب الى الله كلما أمكنته الفرصة، وقد ورد: «اذا تقرب مني عبدي شبرا تقربت منه ذراعا، واذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا، ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه. فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» وقد عرف أن من لازم بيت كريم حق له الإكرام، فكيف بمن لزم بيت أكرم الأكرمين، عاكفا على طاعته، راغبا في عبادته؟ ناهيك بما يتبع ذلك من المواظبة على صلاة الجماعة واغتنام سنة الاعتكاف وما يتصل بذلك من صنوف الطاعات، وقد قال تعالى. (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ).

فانظر كيف حصر عمارة المسجد فيمن حاز هذه الصفات العظمى، وإن أكبر مظاهر عمارة المساجد عمارتها بالتقوى والعبادة ودراسة العلم، فذلك هو المقصود منها، وما قيمة التطاول في تشييدها ورفع عمدها بالقياس الى تتميم المقصود منها من جعلها أماكن عبادة ورجوع الى الله؟ وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يقول الله تعالى: إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زواري فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي، فحق على المزور أن يكرم زائره)

ينبع — ابراهيم الجبالي

الفتاوى والأحكام

حكم الصلاة

على الرسول صلى الله عليه وسلم

بعد الأذان

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتي :

حضرة صاحب الفضيلة المرشد الأكبر سيدي الشيخ يوسف الدجوى المحترم .

بعد الاحترام والتحية لنا سؤال نرجو من فضل سيادتكم التكرم بإجابتنا عنه فإننا لا نثق إلا بكم ، أما أولئك المتشدقون فلا نثق بهم ولا نأخذ ديننا عنهم ، ذلك أن لنا جامعا منسوبا إلينا ، ولنا مؤذن يؤذن الأذان الشرعي على المأذنة ، ويعقبه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فاعترضه آخر قائلا له . لابد أن تستغفر الله لأنك أتيت جرما بصلاتك على النبي بعد الأذان الشرعي ونحن متعطشون لفتواكم فهي لنا بمثابة نور يسطع وسط الظلمات فيبددها ، حتى نكون بعد ذلك على طمأنينة بمعرفة أننا على الحق ، وحاشا أن نكون في ليل دامس مادام فينا الشيخ الدجوى وأمثاله . ونحن لجوابكم منتظرون ولفتواكم سامعون ، أدامكم الله قوة للدين ونبراسا للحائرين ؟

يوسف محمد صفر

صاحب مخبز بالاسماعيلية

الجواب

الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الأذان لا بأس بها ، وحاشا أن تكون جرما ، فقد نص العلماء على أنها بدعة حسنة حدثت زمن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٧٨١ وقد استحسنها العلماء على اختلاف مذاهبهم ولم يمنعوا منها ، فقول القائل للمؤذن إنك أتيت جرما بصلاتك بعد الأذان كذب وجهل . وما أتى بالجرم غيره . وقبل أن نتكلم فى المسألة من الوجهة العلمية بما يناسب الخاصة ننصح للعامة قبل ذلك ألا يجادلوا تلك الطائفة ولا يخوضوا معهم فى البحث ، فإنهم يلبسون عليهم بما يذكرونه من كلمات مموهة أو أحاديث لم يدروا لها معنى ولم يعرفوا لها مغزى ، وأين هم من الاستنباط والأخذ من السنة والقرآن ؟ فذلك بحر لا ساحل له اضطرب فيه العلماء الأعلام والأئمة العظام .

وليعلم القارئ الكريم أن المجتهد الذى يأخذ من الكتاب والسنة لابد أن يكون عارفا بمواقع العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ، مقدما الخاص على العام والمقيد على المطلق ، عالما بتاريخ النصوص حتى يعلم الناسخ والمنسوخ ، محيطا بمواردها ، عارفا درجة كل حديث ، باحثا عما عسى أن يكون فيه من علة خفية لا يعرفها إلا حذاق الحفاظ ، عالما بطرق الترجيح حتى يقدم بعضها على بعض عند التعارض ، غير خاف عليه مواقع الإجماع والاختلاف . وليعلم أن للعلماء اختلافا كثيرا فيما بنوا عليه مذاهبهم وفيما يقدم من الأدلة وما لا يقدم منها كعمل أهل المدينة عند مالك مثلا الخ الخ . ولا بد بعد ذلك أن يكون فيه استعداد للاستنباط من الكتاب والسنة ، محيطا بكل ما يتوقف عليه ذلك مما بينه علماء الأصول . وليعلم أن العلم وحده غير كاف فى الاجتهاد ما لم يصحبه الاستعداد الرفيع وذلك النور الذى يسطع فى قلب من شاء الله من خاصة عباده ، ولذلك كان كبار المحدثين وعظماء الحفاظ مقلدين لا مجتهدين ، علما منهم أن سعة الاطلاع

لا تكفي وحدها في الاجتهاد ، وربما كان بعض الحفاظ المقلدين أكثر حديثا من بعض الأئمة المجتهدين ، ولكن هؤلاء الحفاظ كانوا يقلدون أولئك الأئمة اتهاما لنفوسهم واستقصارا لمداركهم ، واحتياطا لدينهم ، ومعرفة بأقدار أولئك الأئمة المتبوعين ، علما منهم أن لهم من معرفة روح الشريعة ومن الذوق الخاص في أسرارها والحس الذى يعرفون به ما لا يعرفه غيرهم من خفايا الدقائق ما ليس لأولئك المقلدين وإن كانوا حفاظا متقنين . وقد قالوا : إن المحدث كالصيدلي والمجتهد كالطبيب ولا شك أن الصيدلي اذا جعل نفسه طبيبا قتل من المرضى أكثر ممن صدق دواؤه الدواء فيهم ، فكأن هؤلاء الحفاظ هم المشار اليهم في حديث البخارى بذكر الأجادب من الأرض التي أمسكت الماء فانتفع الناس وسقوا وزرعوا . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « رب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه ليس بفقيه » .

ثم نقول بعد هذا : إنه قد وصل بعض المتمسكين بظواهر الأحاديث الى حد التشبيه والتجسيم في حقه تعالى اغترارا بآيات الصفات وأحاديث الصفات ، ولو قلد غيره من أئمة الدين لنجا من ورطة التشبيه والتجسيم ، ولكنه أراد أن يستقل وهو غير أهل للاستقلال فضل من حيث لا يشعر ، فالذى نريده من العامة وننصح لهم به ألا يصغوا لأولئك المهوشين الذين يلبسون عليهم بذكر الآيات والأحاديث ، ولكن يقولون لهم : إنهم مقلدون والمقلد يلزمه أن يتبع الجمهور لا من شذ عنهم وقد اجتمعت ببعض من يحبذ آراء ابن تيمية ويدعو الى اتباعه فقلت له : « أنا لا أتبع ابن تيمية مطلقا لأنى إن كنت قد بلغت درجة الاجتهاد فلا أتبع غيرى ، وإن لم أبلغ درجة الاجتهاد كنت مع الجمهور لا مع من شذ عنهم ، فذلك أحوط في الدين وأقرب الى العقل والنقل » بل نقول : إننا اذا وازنا بين أولئك المتشدقين وبين إمام واحد من أولئك الأئمة كالشافعي أو مالك مثلا — لم نجد نسبة بينهما ، وما لنا نذكر مالكا والشافعي ونحن اذا وازنا بينهم

وبين أتباع أئمة الهدى بل كبار علماء العصر وجدنا البون شاسعا والفرق عظيما ، فكيف يحل للمقلد أن يترك أولئك العظماء المشهود لهم بالدين والفضل ويتبع أولئك المتشدقين الذين شذوا عن السواد الأعظم ، وأوقعوا الفرقة بين المسلمين ، وتحكموا في دين الله فأرادوا أن يلزموا الناس بمذهبهم الخاص مع أننا لا نعترف لهم بإمامة ولا اجتهاد ، بل لا نعترف لهم بنظر دقيق ولا فهم صحيح ؟ فأين هم من درجة الاجتهاد وبينهم وبينها أبعد مما بين السماء والأرض (ومن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى) ؟ .

على أنهم لو كانوا مجتهدين حقاً ما صح أن يلزموا الناس مذهبهم ، فإن مسائل الفروع يكفي فيها الظن ، وقد جاء فى الحديث أن من اجتهد فأخطأ كان له أجر ، ومن اجتهد فأصاب كان له أجران . فالمدار على أن يكون الحامل له على العمل امتثال أمر الشارع حتى لا يكون خارجا على الله ورسوله ، وقد كان أئمة الهدى يقلد بعضهم بعضا ويثنى بعضهم على بعض ولا يرون بأسا باتباع غيرهم ، وها هو ذا الامام مالك لم يرض من الخليفة العباسى أن يحمل الناس قسرا على موطئه — وهو هو عند مالك — احترا ما لرأى غيره من العلماء ، واتهاما لنفسه التى يجوز عليها الخطأ ، وعلما بأن مسائل الفقه ظنية يكفى فيها الظن ، بل بعض أئمة الهدى قلد غيره فى بعض المسائل كأبى يوسف الذى قال : « نقلد إخواننا الحجازيين » عندما أخبروه بأن البئر التى توضأ منها وقعت فيها فأرة ، الى آخر ما لا يسعه هذا المقال .

فالخلاصة أن المقلد لبعض الأئمة كالشافعى مثلا ، يلزمه ألا يخوض مع أولئك المتحذلقين فى الأدلة ، وإنما يقول لهم . إن امامى أعظم فى نفسى منكم ، ولا يحل لى أن أترك الفاضل وأتبع المفضول ، ولا أدع العالم وأتبع الجاهل . هذه هى النصيحة التى أردنا أن نسديها للعامة .

ولنقل كلمة فى الموضوع تناسب الخاصة .

لا شك أن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم من أعظم القرب ، وقد طلبها منا

القرآن العزيز والسنة الشريفة ، ولاداعى للإطالة فى هذا ، وقد جاء فى خصوص الصلاة بعد الأذان أحاديث صحيحة - منها ما روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ فإنه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة » رواه مسلم فى صحيحه .

ونقول : على فرض أن ذلك الحديث لم يرد وصيغتنا عليه صلى الله عليه وسلم بعد الأذان لم يكن هناك بأس ، وحصل لنا الثواب العظيم بذلك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بالصلاة عليه ولم يلزمنا بوقت مخصوص ولا كيفية مخصوصة ، فلنا أن نصلى عليه فى أى وقت شئنا وبأى كيفية أردنا حيث إنه لم يرد نهى عن شىء خاص ولا أمر بشىء خاص بل وكل ذلك الى اختيارنا ، وليس هذا إلا استعمالا للمطلق فى بعض جزئياته (وهو بالضرورة لا بد أن يستعمل فى بعض جزئياته) وهى كلها فيه على السواء ، وقد قال البيانيون - إن استعمال الكلى فى بعض جزئياته من حيث تحققه فيه ليس مجازا بل حقيقة . فإذا صلينا على الرسول عليه الصلاة والسلام بعد الأذان تقتضى ذلك الإطلاق بأى كيفية من الكيفيات ، كان طاعة يثاب عليها فاعلها الذى أتى بها على أنها من أفراد ذلك المطلق غير معتقد سنية تخصيصها بذلك الحال أو تلك الكيفية خلافا للمشددين أو المتشدقين وليس يخفى عليك الفرق بين من يأتى بها بمقتضى الأمر العام ومن يأتى بها لأجل كون تلك الكيفية الخاصة سنة أو لكون ذلك الوقت مطلوبا من حيث خصوصه ، فكيف وقد ورد الحديث الصحيح بالصلاة عقب الأذان ؟ وقد ترك تلك الكيفيات الخاصة الينا صلى الله عليه وسلم نختار منها ما شئنا ، فيجوز لسامع الأذان المطلوب منه ذلك أن يصلى سرا أو جهرا كما يشاء ، فأصل الصلاة مطلوبة وكيفيتها مباحة

فكذلك المؤذن يطلب منه الصلاة بعد الأذان ويباح له أن يصلى سرا أو جهرا كما يشاء، لأننا لم نلزم فيها بكيفية خاصة، ولا نعتقد أن الكيفية المخصوصة سنة من حيث خصوصها، بل نقول إنها من تلك الحيثية مباحة، ولهذا كله قال العلماء المحققون غير الجامدين: إنها بدعة مستحسنة، ولم يروا بأسا برفع الصوت بها بعد الأذان. على أن فى الجهر بها فائدة جليلة وهى تذكير السامعين بها، فيكون وسيلة لإتيانهم بما ورد فى ذلك الحديث المتقدم متى سمعوا ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، وبدون ذلك قلما يأتون بها، بل كثير منهم لا يعرف ذلك الحديث الذى طلبها منا بعد الأذان.

وليت شعرى هل يقول أولئك الجامدون: إنه لا بد من تحرى الكيفية التى كان عليها الناس زمن الرسول صلى الله عليه وسلم عند ما كانوا يصلون عقب الأذان، فلا يجوز أن نرفع صوتنا أكثر مما كانوا يرفعون، أو نخفضه أكثر مما كانوا يخفضون، واذا كانوا قد أتوا بها فى «ثانية» مثلا أو ثانيتين لا يجوز أن نخالفهم فى ذلك فنجعلها فى ثلاث أو أربع مثلا، واذا أتوا بها قائمين لم نأت بها قاعدين الى غير ذلك، أم هو الجمود الذى يبرأ منه الاسلام خصوصا اذا أحدث فتنة قد توقع فى الكبائر من أجل مسألة غاية أمرها أن تكون خلاف الأولى لو تنزلنا وسلمنا لهم وجهة نظرهم، مع أن الأمر فيها على خلاف ما ظنوا؟

وليعلم أن البدعة المنهى عنها هى التى لا ترجع الى دليل من أدلة الشرع، فلا يقبلها كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس، أما ما يكون داخلا فى عمومات الكتاب أو السنة أو يمكن استنباطه بوجه من الوجوه، فليس من البدعة المنهى عنها وإن لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم ولا زمن أصحابه. ويكفى هذا الإيجاز، والمنصف يكفيه القليل، والمتعسف لا ينفعه الكثير.

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

زيارة
جلالة الملك المعظم فؤاد الاول

للجامعة المصرية

كان يوم ٢٠ شوال سنة ١٣٥٠ الموافق يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٢ في الجامعة المصرية يوما مشهود ، وعيدا تاريخيا ممدود ، صحت سماؤه ، وطاب جوه ، ونشرت بنوده ، واصطفت جنوده ، واحتشد فيه أعظم رجال الدولة وأكابر أعيان مصر من وطنيين وأجانب لاستقبال حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم لما توجهت رغبته السامية إلى تشريف الجامعة — التي هي غرس فضله وفيض إحسانه — بالزيارة وتسليم بعض درجاتها لمن استحقوها .

وبعد أن شرف جلالته كليتي الحقوق والآداب بالزيارة طبقا للبرنامج الذي وضعته وزارة المعارف تفضل حفظه الله بتشريف السرادق الذي أقيم في باحة الجامعة لاستقبال جلالته ، فقوبل بالهتاف الشديد ، وبالدعاء المنبعث عن الاخلاص لعرشه المفدى ، وألقى بين يدى جلالته حضرة صاحب المعالى وزير المعارف خطبة ضافية بيّن فيها ما كانت عليه معاهد العلم في عهدها الأول وما صارت اليه في عهد جلالته بفضل تعاهدها بعنايته وشغفه بنشر العلوم والمعارف بين رعيته ، وعدد ما لجلالته من الأيادى البيضاء والعوارف الكثيرة على الجامعة وغيرها من دور العلم .

ثم تليت قصيدة عصماء لأمير الشعراء أحمد شوقى بك في مآثر المليك المعظم ، وفي فضل العلم وحسن أثره في تحرير الأمم ، ثم تفضل جلالته بتسليم الدرجات العلمية لمستحقيها ، فتقبلوها بالشكر والدعاء لذاته الكريمة وبعد ذلك غادر السرادق ركابه العالى مشيعا من القلوب بأصدق الإخلاص ، ومن الألسنة بأطيب الحمد والثناء .

نقــد
كتاب حديث الاربعاء

اطلعنا فى جريدة الدستور على مقال لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد سليمان العضو بالمحكمة الشرعية العليا ، كتبه أيام كان القاضى الشرعى بالعريش نقدا وتفنيدا لكتاب « حديث الاربعاء » الذى ألفه الدكتور طه حسين وكان ينشره فى جريدة السياسة ، فآثرنا نشر ذلك المقال القيم لنضع أمام القراء أمثلة متعددة من جهالة الدكتور طه حسين على الدين الحنيف ، وليعلموا أن هذا الكتاب قد تلقاه العلماء من بدء ظهوره بالنقد والتفنيد ، ومع ذلك أصر صاحبه عليه وأبقاه منشورا بين الناشئين ، قال الاستاذ :

(١) أنكرنا على الشيخ طه حسين حكمه على قرن الهجرة الثانى بأنه « عصر لشك ومجون » وطالبناه بالدليل فجاءنا به يقول : « كان هذا العصر عصر شك وعصر مجون ، وكان عصر رياء ونفاق » فزاد فى دعواه تلك وصفين آخرين ألصقهما بذلك العصر ، فأظن لو طالبناه بالدليل مرة أخرى لزاد فى دعواه هذه زيادة أخرى !! ولعل ذلك طريقة حديثة فى التدليل على الدعاوى اكتشفها عالمنا الأديب ، فنكتفى الآن فى نقد « حديث الأربعاء » بتعقيب كل سقطة من الأستاذ بما يبينها ويجليها ، مستعيذين بالله ثلاثا من مداواة الداء بالداء ، وتدليل الدعوى بالدعوى :

إن للحق صرعة يذل لها المحق ويتململ منها المبطل ، وقد أبى الحق إلا أن يلعثم فم الأستاذ ويلويه ، ثم يخاطه بيمينه ما يدحض حجته ويكشف سقطته ، فبعد أن أصدر حكمه جازما على ذلك العصر بأنه « عصر الشك والمجون » بهذا التعريف والتحديد ، وحكمه على الخمسة الشعراء الفساق الذين ذكرهم أنهم « يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحا » عاد

فتدبذب ذبذبة المتهجم على الشيء لا يعرفه، وعلى الحكم يصدره م يتكون لديه أسبابه

فقال : « كان هؤلاء الناس الممتازون بالشك فى كل شيء يلقون طبقات أخرى لا تشك ولا تعبث ولا تتعاطى المجون ، كانوا يلقون الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والرواة وعلماء اللغة فكانت أحاديثهم فى هذه المجالس أو الأندية الغريبة متأثرة بجد هؤلاء العلماء وبمهابة الأمراء والوزراء الخ » .

فتراه أثبت فى ذلك العصر طبقات أخرى تبد طبقة الشعراء ، تجد وتهاب ولا تشك ولا تعبث ولا تمجن ، ثم زاد لحق محق باطله فقال . « نعترف بأن الشك والمجون لم يكونا كل شيء فى ذلك العصر ، وإنما كان الى جانب الشك يقين ، والى جانب الهزل جد ، كان الشعراء والكتاب والأدباء بوجه عام يشكون ويعبثون ، والمتكلمون والرواة مستيقنين يؤثرون الجد ويفنحون فيه » فتراه كر على حكمه بالنقض فى إثبات الجد بجانب الهزل ، واليقين بجانب الشك ، ثم أتم نقض حكمه أصلا إذ قال : « كان لكثير من الناس مظهران مختلفان أحدهما للعامة والجمهور وهو مظهر الجد والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم وهو مظهر اللهو والمجون » .

فانظر يارعاك الله الى أستاذ الجامعة المنطيق يحكم بأن العامة والجمهور فى ذلك العصر كانت للجد والتقوى ، حتى لا يستطيع اللاهون أن يظهروا أمامهم إلا بمظهرها وهو مظهر الجد والتقوى ، وانظر الى أن الخاصة الذين ذكرهم طبقات لا يؤثر الشك والمجون منهم بوجه عام إلا طبقة الأدباء ، وبقيتهم يؤثرون الجد ويغلون فيه ولا يشكون ولا يعبثون ولا يمجنون ، فلم يبق على قول الشيخ طه فى ذلك العصر كله إلا طبقة الأدباء وحدها تمجن وتشك ، ومع ذلك يكر ويعود لى حكمه قاطعا جازما بأن ذلك العصر كان « عصر الشك والمجون » ويبقى عليه ، ويمضى فيه الى درجة أنه جعل أبا نواس وحده من طبقه الشعراء وحدهم « لسان طبقات الناس المختلفة ومرآتهم الصافية

ويمثل عصرهم ويشخصه » . فأى عقل هـذا العقل الناضج من الأستاذ وقد أقر على نفسه أن الجمهور وبقية طبقات الخاصة لا تشك ولا تعبث بل تجد وتتقى ؟ . فلمن يكون المظهر فى ذلك العصر ؟ وبم يكون الحكم عليه ؟ أبحكم الجمهور وطبقات الخاصة ؟ أم بحكم أبى نواس وخمسة من الشعراء الفساق معه ؟ لا جرم أن هـذا علم جديد بعقل جديد وسبحان واهب العقول .

(٢) وجرى فى شوطه هذا الشاذ ، ولا يكفى فى وصفه الشذوذ ، بل الخارج عن المعقول ، فقد أنكر ما عليه أن يجعل حياة خمسة رجال ميزان لحياة العصر كله ، وأخذ منهم حكما عاما على جميع الطبقات يشملهم به ، فأقدم أكثر مما أقدم متهجما على التاريخ والحقيقة ، وجعل شاعرا واحدا هو ميزانه امام لحياة ذلك العصر فقال : « واذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس الذى سنتخذ درسه الماضى سبيلا الى درس هـذا العصر كله منذ الأسبوع الآتى » وأبى على الفقهاء والمتكلمين ورواة الحديث والأخبار والخلفاء والوزراء ، وبقية أهل الدولة والملة ، وقوام تلك الأمة وأرباب الحرف والصنائع ومن كان فى ذلك العصر أجمع ، أبى عليهم الشيخ طه أن يمثلوا عصرهم أو يشخصوه ، أو يكونوا دليلا عليه وعنوانا له فقال : « بينما كانت الفقهاء والمتكلمون ورواة الحـديث والأخبار عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الـكلام يمحصونه ، وعلى الحديث يروونه ، وعلى الأخبار يتلقطونها ويذيعونها بين الناس ، وكانوا فى هذا كله لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأى أحد » .

كذلك قال صاحب حديث الأربعاء ولم يسبق له غير سطور ذكر فيها أن أولئك الأدباء الذين يمثلون العصر فى نظر الشيخ كانوا يتأثرون بجد هؤلاء ومهابتهم . وذكر فى موضوع آخر « حينما تريد أن تحكم على ذلك العصر حكما صادقا أن ترجع الى الشعراء والـكتاب أكثر من رجوعك الى الفقهاء والمتكلمين والرواة » فجعل لهم مرجعا

فى الحكم على عصرهم بأخذ أحوالهم فى عناصر الحكم لصادق . مع هـذا وذلك فمن يهدى الأستاذ الى الأخبار التى يلتقطها الرواة ويذيعونها كيف لا تنطق بلسان أحد ولو أراها أو أبطالها على لغة الروائيين اليوم ؟ . والى حوادث الناس التى تجدد كل يوم وفى كل معاملة ويستنبط الفقهاء أحكامها لهم ، كيف لا تعبر عن رأى أحد ؟ والى العلماء والأمراء والخلفاء ورجال الدولة والأمة كيف لا يكون ما يجرى فيهم ويحدث عنهم عنوانا عليهم ومثالا يحتذى للحكم فى أشباههم فلا ينطقون بلسان ولا يعبرون عن رأى — إلا خمسة شعراء يقول الشيخ عنهم : إنهم « يمثلون عصرهم تمثيلا صحيحا فلنا أن نتخذهم مقياسا للحكم على هذا العصر » ثم يصطفى منهم أبا نواس فيجعله مختصر عصره ومشخصه ، وسبيل درسه ذلك العصر كله بدرسه هو وبحث حياته خاصة ؟ : .

(٣) نعم أبو نواس صاحب صديقنا هو وحده من دون أهل عصره ، مثالهم وعنوانهم والناطق عنهم ، وإن كان فى زمنه (أبو العتاهية) الذى يقول فيه أبو نواس نفسه : « والله ما رأيته قط إلا ظننت أنه سماء وأنا أرض » وكان يقال عن أبى نواس : « شاعر العراق » أما أبو العتاهية « فأشعر الناس » انظر الأغانى ج ٣ ص ١٥٦ و ١٤٠ ؛ وإن كان فى زمنه مروان بن أبى حفصة شاعر الخلفاء المنفرد بعطيته منهم قدرا فى الشرف لم يصل اليه شاعر ، وأبو نواس إذ ذاك مخلف عنه محصور ؛ وإن كان فى زمنه الحسين ابن الضحاك تربه وصاحب نشأته وأدبه ولزوم مجالس الأدباء (الأغانى ج ٦ ص ١٧٤ و ص ١٩٣ منه) قدمه الأمين على الشعراء وفيهم أبو نواس (ص ١٦٧) حتى لقد خولط بعد هـذا من جزعه على مقتل الأمين وأنكر قتله ولم يتصوره ، والمأمون مع ما ينقمه عليه لحطه الى هوى الأمين جعله ظريف الشعراء وواحد العصر ، أو أشعر شعرائهم وأظرف ظرفائهم (١٦٨) ، وملأ المعتصم فمه جوهرا ثم أمر الحاجب أن يخرجه وينظم ويدفع اليه ويخرج للناس وهو فى يده ليعلموا موقعه من رأى المعتصم ويعرفوا فضله (ص ١٦٩) ، وقبل الواثق منه أن ينشده فى طبقة الجلساء ترفعا منه عن الإنشاد

مع الشعر ، فنوله شرفا لم يصل اليه غيره (١٨٩) ، والمتوكل قال فيه : « هو عندى أشعر أهل زماننا و أملحهم مذهبا وأظرفهم نمطا (ص ١٧٧) ؛ وإن كان فى زمنه اسحق بن ابراهيم الموصلى ، بكر عطارد ، ونادرة زمنه ، وجماع ما تفرق فى غيره من محاسن عصره وفضائله وشمائله ؛ وإن كان فى أيامه أبو عبيدة ، والأصمعى ، وأبو زيد الأنصارى ، والعتبي وأبو العيناء ، وأمثالهم من فحول أهل الأدب ، وأصحاب النوادر والأشعار والأخبار وفكه المجالس وزينتها ، وبهجة العصر وقرة عيون أهليه ، وعنوين ما فيه ، وغير من ذكرنا فى فنون الأدب والشعر والكتابة : لم يبلغ أبو نواس فيهم ما يريد به الشيخ طه أن يبلغه بيننا الآن ، لا فى الشعر خاصة ، ولا فى الأدب عامة ، ولا بين طبقته فحسب ، وإنما يسمو به إلى منزلة الميزان فيشخص به عصره قاطبة على ما كان فيه ومن كان فيه ! .

ولماذا ؟ سلوا الشيخ طه عن هـذا فهو بالسر عليم ، فقد أكد فى حديث الأربعاء (٧ جمادى الثانية ١٣٤١ هـ) أن « أبا نواس كان مثالا صادقا للعصر الذى عاش فيه » وبيّن أن عمره ٥٨ سنة يسقط منها عمر الحداثة وزمان الطلب . فكيف لعمرى مع هذا يقاس به ذلك العصر كله على طوله وتجاوز عمره من ناحيته ؟ !

إن ما امتاز به أبو نواس وذكر أنه فضل به الناس لا غير ، مذهبه فى الخمر ، قال له الخليع . ويحك يا أبا نواس فأنت لا تفارق مذهبك فى الخمر البتة : قال : لا والله وبذلك فضلتك وفضلت الناس جميعا (ص ١٧٩) فلم يدّع لنفسه فى الفضل على الناس ما ادعاه له الشيخ طه حسين أنه كان مثال الناس الصادق ولسانهم الناطق ومرآتهم الصافية ، ولم يكن فى دهره بتلك المرتبة العظيمة الخطر التى سما به اليها أستاذ الجامعة على أن محاسن مذهبه فى الخمر ولطائف ما ارتشفه فيها سطا منها على غيره ، وتجمل فيها بإبداع الشاعرين المفلقين الفحلين : الوليد بن اليزيد والحسين بن الضحاك الخليع . وهذه شهادة

العمدة فى هـذا الباب ، ومفزع الأدباء والـكتاب — قال أبو الفرج الأصبهانى فى كتابه الأغانى (ج ٦ ص ١٠٧) : « وللوليد فى ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم وسلخوا معانيها وأبو نواس خاصة ، فإنه سلخ معانيه كلها ، جعلها فى شعره فـكررها فى عدة مواضع منـه ، ولولا كراهة التطويل لذكرتها ههنا على أنها تنبىء عن نفسها » وقال فى (ص ١٦٥ منه) فى الحسين بن الضحاك بعـد أن ذكر أنه شاعر أديب ، ظريف ، مطبوع ، حسن التصرف فى الشعر ، حلو المذهب ، لشعره قبول ورونق صاف : « كان أبو نواس يأخذ معانيه فى الخمر فيغير عليها واذا شاع له شعر نادر فى هذا المعنى نسبه الناس الى أبى نواس ، وله معان فى صفتها أبدع فيها فاستعارها أبو نواس ، وأخبارهما فى هذا المعنى وغيره تذكر فى أماكنها الخ » وقد ذكر منها فى إغارات أبى نواس على خمريات الخليع وقائع فى صفحات ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤

فهذا أبو نواس فى مذهبه الخمرى الذى زعم أنه فضل فيه الناس ، رأيته على أى متاع وقع ، وفى أى سهل رتع ، ولا تتعرض له فى غيره ولم يدع تجلية ، ولا تصلية ، ولا سبق الرعيل الأول ، ومع ذلك تخذه الشيخ طه ذروة السنام ، وهام تلك الأيام ، بل ممثلها ومشخصها ، ولسانها ، ومرآتها ، وحسبه فى حكمه هـذا عكازا يقيه ويهديه ، فذكر أن الناس « افتتنوا بأبى نواس فحفظوا شعره وتناشدوه ، ثم أضافوا اليه كل ما أعجبهم من شعر فيه هزل ومجون لا يعرف قائله ، ثم لم يكتفوا بهذا فرددوا عنه الروايات ، وانتحلوا له القصص ، وتحدثوا عنه فى اللعب واللهو بالأعاجيب » قال الشيخ : « أفتظن أن النـاس يتخذون أبا نواس مثالا للذة ونعيم الحيـاة فيكلفون به هـذا الـكلف إذ لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ومرآتهم الصافية . . . . » .

ولو أنا صدقنا الشيخ فى مقدماته هذه ، وكان هذا رأيه صحيحا ، لقلنا له : أولى لك فى هذا السبيل — الهضام ، ورأس الغول ، والزير ، والبردويل ، وحمزة ، وذات الهمة ،

وأبو الفوارس ، وأبو الأمصار ، وربابة ينزل بها الى « قهوات الصبوات » ففيها ولهم يطيب حديث الأربعاء عن أولئك الأبطال الأمثال ، عناوين عصورهم الخوال :

(٤) ولقد طالبناه بالدليل على ما زعمه أن « الرشيد كان مازحا من غير شك » فجاء به يقول : « إن الرشيد كان يلهو ويسكر . . . » وأكد دليله هذا سقطا فأضاف على الرشيد ابنه المأمون ، وسلكه فى حكمه فقال عنه : « إن المأمون كان يلهو ويشرب الخمر . . . » : وكذلك يرى ربيب الجامعة أدلة على دعاويه هى إغراقه فيها ، فاذا أردناه على مهيع أهل العلم حسب أن جريدة السياسة وحدها تنجيه بنشر كل ما يسويه .

ولقد أخذ فى طريقه هـذا « ابن خلدون » بالسب والتزييف لأنه قال الحق عن الرشيد ، وبيّن كذب ما نسبته اليه أقاصيص الصبيان مما يتعلق الشيخ طه بأمثالها فى أحكامه ، ومضى مع ابن خلدون فى دعوى جديدة يقول فيها : « آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه فى أمر الرشيد وأمثال الرشيد ، فقد تحدثوا أن الرشيد كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، وأنه أمضى خلافته بين الحج والغزو ، فظن ابن خلدون أن هـذا وحده يكفى لتبرئة الرشيد مما أضيف اليه من أنه كان يلهو ويسكر . . . : » وبماذا آن للشيخ طه أن يرفع عن بصيرته غشاوة الخديعة التى خدع بها ابن خلدون ؟ لم يقل لماذا ، ولا سبب تبصرته هو بما لم يبصره ابن خلدون ؟ والشيخ طه طبعا أرسخ قدما فى التاريخ ، وأطول باعا من ابن خلدون : ومن ابن خلدون هذا عمدة التاريخ وصاحب المقدمة فيه وبحاثته وراويته فى جانب الشيخ طه حسين . . ؟ : إلا أن الأستاذ لم يبين لنا لماذا يصدق عن الرشيد أنه « كان يلهو ويسكر » ولا يصدق عنه أنه كان يصلى مائة ركعة كل يوم ، وأنه مضى حياته فى الحج والغزو ، ألأنه قاس حياته بحياته فرأى استحالة ذلك الصلاح على الرشـيد ؟ أم صح عند الشيخ علم ثبت فى القرون الأولى لم يظفر به ابن خلدون ؟ أم أن الكتب التى يسقط عيها أقوم وأعدل

وأصدق من أمهات التاريخ وكتب الرواة للسلسلة المعنعنة ، فيعتمد على أمثال « إعلام الناس» و «قصص أبي نواس » و (حواديت) ألف ليلة ، عن ابن خلدون وابن جرير وابن قتيبة وغيرهم من أراكين التاريخ وراويه وناقليه ؟ لقد أشفقنا على القراء أن ننقل لهم عن تلك الكتب المعتبرة ما قالته في الرشيد والمأمون تكذيبا للشيخ طه ، ونحسب أننا إن فعلنا لم نأت لهم بجديد . ولا نطالبه على قوله بالبرهان مرة أخرى ، فقد رأينا تلك البراهين الخارجة من معمل حديث الأربعاء وكيف تكون .

«يتبع» محمد سليمان

الطُّرَف والمُلَح

قيل لشيخ : ما بَقِيَ منك ؟ قال : يَسْبِقُنِي مَنْ بينَ يَدَيَّ ، ويُدرِكُنِي مَنْ خَلْفِي وأنسَى الحديثَ [١] ، وأذكُرُ القديمَ [٢] ، وأنعُس في المَلاَ [٣] ، وأسهَرُ في الخَلاَ [٤] ، واذا قمتُ قَرُبَتِ [٥] الأرضُ مني ، واذا قعدتُ [٦] تباعدتْ عني .

---

(١) الشيء الجديد كلاما أو غيره لضعف الحفظ من الكبر . (٢) لأن المحفوظ في الصغر لا ينسى . (٣) وأنا جالس مع الناس لأن حديثهم يجلب الى النوم كالطفل ينام لغناء أمه . (٤) وأنا وحدي لأني لا أسمع حديثا . (٥) لان ظهري قد تقوس وانحنى . (٦) أي اذا أردت أن أقعد فلا بد من اعتمادي على شيء حتى أصل إلى الأرض فان ضعف قواي جعل المسافة التي بين حالتي القيام والقعود طويلة .

الكلام
فى ترجمة القرآن

تحرير محل النزاع — الفرق بين الترجمة والتفسير

الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية — ما يمكن فى القرآن وما لم يمكن

حكم تلاوة ما يؤتى به من ذلك وحكم مطالعته والفرق بين التلاوة والمطالعة

لقد شغل الناس أيما شغل بالكلام فى ترجمة القرآن ، وقام الجدل عنيفا بين الطرفين ، واتسعت أطرافه بقيام أشياع ومناصرين لكل فريق ، حتى طلعت علينا كلمات من حضرات أصحاب الفضيلة كبار العلماء ، وقد ترقبها الجمهور أيما ترقب ، وكان المنتظر أن يكون فيها القول الفصل وحسم هذا النزاع ، ولكنها لم تستأصله كل الاستئصال ، ولم يزل الأمر ملتبسا بين ما اتفق عليه كلامهم وما اختلفوا فيه ، وما زال القارئون يتطلعون الى ما تهدأ له نفوسهم وتقر عنده خواطرهم .

وإن أكبر عامل فى تشعب مسالك البحث وتعاصى اجتماع أطراف الكلام هو إغفال تحرير محل النزاع الذى يجعل النفى والإثبات بين الطرفين متواردين على أمر واحد ، ويوفر على كل من المتناظرين الكلام والجهد فى إثبات ما لم يخالف أحد فى إثباته ، أو نفى ما لم ينكر أحد نفيه ، فلعله إذا تحرر محل النزاع نجد كلا منهما يسلم لصاحبه بما يقول ، وإن اختلفت الأساليب والنزعات ، وظن أن بينهما خلافا مستحكما .

وإنه لتحرير محل النزاع فى هذه المسألة يجب كشف الغطاء عن معنى كلمتى (ترجمة) و (تفسير) وبيان ما يريده الناس بهما فى تفاهمهم على العموم، وفى هذه المسألة بنوع خاص؛ وكذلك يجب بيان الترجمة الحرفية والتفسيرية، ثم الرجوع الى هذا البحث كيف نبت قديما وحديثا، وحينئذ يتجلى الأمر فيما يمكن بالنسبة للقرآن وما لم يمكن، ويتضح حكم ما يمكن من ذلك، وهذا هو ما نعرض له فى مقالنا هذا وبالله التوفيق:

الفرق بين الترجمة والتفسير — الترجمة وإن كانت فى أصل اللغة هى التفسير بلسان آخر، إلا أنها قد تعورفت بأن يؤتى بكلام من لغة يؤدى ما يؤديه كلام من لغة أخرى ويسد مسده فيما هو المقصود منه. والتفسير أو الشرح: هو الإتيان بما يفهم منه المعنى المشتمل عليه الكلام الأول، وإن لم يكن مستوفيا لكل ما يقصد منه. ولنشرح ذلك بمثالين مما تستعمل فيه هذه الكلمة:

المثال الأول — قد يجرى بين شخصين مختلفى اللغة عقد مبايعة أو نحوها، ويحرران الوثيقة بلغة أحدهما، فيعمد الآخر الى وثيقته ويقصد الى متمكن فى اللغتين يطلب اليه ترجمة تلك الوثيقة لحرصه على أن يسجل وثيقة مفهومة له. فهذا يطالب بلا شك من المترجم أن يستوفى له كل ما تضمنته تلك الوثيقة مما يقصد للمتعاقدين، حتى لو أخل بأى شىء مما هو مقصود فيها كان إخلالا بالترجمة ولم يكن محققا له ما طلب.

والمثال الثانى — أن يبحث واحد فى أوراق مخلفة له عن والده مثلا — فيجد من بينها كتابا بلغة لا يفهمها، فيقصد الى أحد العارفين بتلك اللغة يسأله تفسير ما فى هذه الورقة وشرحها له، ليرى رأيه فيها أيعنى بها ويحافظ عليها أم يطرحها ويمزقها، فاذا أفهمه ما فيها فقد أجاب طلبه فى التفسير والتفهيم، وإن لم يستوف كل ما احتوت عليه من نقط مهمة. فهذا تفسير، وقد ينشأ عنه رغبة فى الترجمة، بأن يكون لهذه الورقة قيمة عظيمة يصح أن يبنى عليها تصرف خاص، فيطلب الى ذلك المفسر أن يترجم له تلك

الورقة لأنه سيطلب بهب حق من حقوقه مثلا ، وهنا يكون المطلوب الترجمة ، أى أن يؤتى بكلام يستوفى كل ما هو مقصود من تحرير تلك الورقة ، لا يبالى طالب الترجمة أن يكون الأسلوبان فى الأصل والترجمة متساويين بلاغة أو متفاوتين متى أدى له غرضه ، وهو استيفاء ما هو المقصود من تحرير تلك الورقة .

من ذلك يتبين أن الترجمة هى تعبير الكلام بلسان آخر على وجه يستوفى كل المقصود منه ، وأن التفسير أو الشرح هو تبيين الكلام بشرح مضمونه ولو بصورة إجمالية لم تستوف كل التفسيرات المقصودة .

هذا المعنى هو ما يتبادر الى الفهم حين قولنا : إن فلانا معه ترجمة التوراة أو الإنجيل أو معه الكتاب المقدس أى عهده القديم بالعربية أو اللاتينية أو نحو ذلك ، لا يفهم منه إلا أن كل ما يقصد من تدوين هذا الكتاب أو يطلب من الاطلاع عليه قد تضمنته هذه الترجمة ، فمن عرف لغة ثم أخذ نسخة من هذه التراجم بلغته التى يعرفها ، وليس يفكر بعد هذا فى أصل ولا فرع ، ولا فى أيها أخذ عن الآخر ، فإنما يعنيه الوصول الى التوراة مثلا — بحيث يفهم ما يقصد منها وقد وصل ، فلا يعنيه التفكير فى غيره .

هذا المعنى هو مثار هذا النزاع الحاضر ، والنزاع السابق عليه ، فقد قام النزاع هذه المرة على أثر انتقاد الأستاذ التفتازانى عمل الأتراك فى ترجمة القرآن ورد الأستاذ فريد وجدى عليه وتبيينه عملهم ، فما الذى عملوه ؟ هو أنهم أتوا للأمة التركية بترجمة للقرآن تكتفى بها تلاوة ومطالعة وتعبدا ، فتغنيها عن الرجوع للأصل العربى ، وتحلها محل القرآن فى كل ما قصد من إنزال القرآن ، وكذلك كانت الضجة السابقة على أثر منع مشيخة الجامع الأزهر إدخال نسخة من ترجمة القرآن يراد منها أن تأخذ المعنى المفهوم من كلمة الترجمة ، وهى الإتيان بما يقوم مقام الأصل فى كل ما هو مقصود منه ، بحيث يستغنى بالترجمة عن الأصل ، وتقتنع نفوس الناس بما وصلت اليه أيديهم لا يتطلعون بعده الى شىء .

أيهما يمكن بالنسبة الى القرآن ؟ — بعـد أن تبين الفرق بين معنى الترجمة الذى يتفاهمه الناس منها ومعنى الشرح أو التفسـير ، يصح أن يتساءل الباحث : أ كلاهما ممكن فى القرآن أم كلاهما غير ممكن ؟ أم هما مختلفان ؟

وللإجابة على ذلك إجابة صحيحة يجب أن يبين ما هو المقصود من إنزال القـرآن الـكريم على محمد صلى الله عليه وسلم : القرآن أنزل لمقصدين عظيمين أساسيين :

الأول : هداية الناس الى ما فيه صلاحهم فى معادهم ومعاشهم ، وبعبارة أوضح : تنظيم علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وبأخيه الإنسان وسائر الـكائنات .

والمقصد الثانى: أن يكون آية للنبى صلى الله عليه وسلم شاهدة بصدقه فيما يبلغ عن ربه ، وذلك بكونه معجزا للبشر لا يقدرون على الإتيان بسورة من مثله ، ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك . فأما المقصد الثانى وهو كونه آية ، فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقا من الطرفين المتنازعين ، فإن القرآن الـكريم وإن كان الإعجاز فى جملته لعـدة معان كالإخبار بالمغيبات واستيفاء تشريع لا يتطرق اليه الخلل ونحو ذلك ، إنما يدور الإعجاز السارى فى كل آياته على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة ، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقا ، فإن اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة ولـكن لـكل لغة خواصها لا يشاركها غيرها فيها . فالمترجم إن عول على نقل ما فى الأصل من الخواص فإنه لا تتأدى له البلاغة المطلوبة إلا اذا تشاركت اللغتان فى الخواص بعينها، وهذا غير حاصل ؛ وإن عمد الى تأدية الثمار التى تؤديها تلك الخواص البلاغية العربية بما يقوم مقامها فى اللغة الأخرى ، كان هذا الصوغ وهذا الأسلوب عملا منسوبا للمترجم يتفاوت رقيا وانحطاطا تبعا لمقدرة المترجم ، ولذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن يصل الى درجة الإعجاز مهما ارتقت درجته فى بلاغته .

ويستخلص من هـذا أن نقل الخواص البلاغية العربية الى ما يقابلها فى اللغة الأخرى — على فرض العثور عليه كله — لا يستتبع الدرجة البلاغية فى تلك اللغة ،

والتصرف باختيار الأساليب البلاغية المناسبة للغة الأخرى قد يحصل بلاغة، ولكنها تنسب لصائغ الترجمة، ومحال أن يصل الى حد يعجز البشر، كيف وهذا الصوغ صوغه وهو من البشر؟ وإذاً يكون المقصد الثانى وهو الإعجاز الذى به كان القرآن آية، فائتا لا محالة فى الترجمة.

وأما المقصد الأول وهو هداية الناس الى ما فيه سعادتهم فى الحياتين الدنيوية والأخروية، فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه، وهذا يرجع الكثير الغالب منه الى المعانى الأصلية الأولية التى يشترك فى تفاهمها وأدائها كل الناس، وتقوى عليها اللغات عربيها وعجميها، وهذا النوع من المعانى لا يُشك فى إمكان ترجمته واستفادة الأحكام والإرشادات منه، ولكن هل للأساليب البلاغية والمعانى الثانوية دخل فى استفادة بعض الأحكام أيضا كما استفيد أكثر الأحكام من المعانى الأولية؟ إن الطريق الموصل الى الجواب الصحيح عن هذا السؤال هو الرجوع الى عمل المستنبطين للأحكام من الفقهاء المجتهدين؛ وإنا اذا رجعنا الى عملهم فى الاستنباط نجدهم قد استنبطوا كثيرا من الأحكام من الأساليب البلاغية، ويحضرنا الآن من ذلك مثالان:

(الأول) قد أخذ الشافعية وجوب الترتيب فى أعمال الوضوء من آية (فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ) ووجهوا ذلك بأنه وإن كان تعطف هذه الأعمال بالواو، وهى لا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا، فإنه قد توسط فيها المسح بين أعمال الغسل، وكان مقتضى الظاهر أن يجمع المتناسبات بعضها الى بعض ويؤتى بالمخالف لها على انفراد، فكان مقتضى الظاهر أن يجمع الغسل الى الغسل ثم يردف بالمسح، فلما توسط المسح بينها دل على أن ترتيبها على هذا الوجه مقصود للشارع؛ وكذلك كان الظاهر أن يرتب فى الأعضاء

فيبدأ بأعاليها وينتقل الى الأسافل ، فيكون البدء بالرأس أو بالأسافل ، ويتدرج الى الأعالى ، فيكون البدء بالرجلين والختم بالرأس ، فلما وسط الرأس بين اليدين والرجلين دل على أن الترتيب على هذا الوجه مقصود للشارع . وكذلك قال الحنفية : إن الغرض فى مسح الرأس لا يتأدى إلا بمسح ربع الرأس ، وأخذوا ذلك من الآية الكريمة ، لأنها لما أدخل فيها الباء بعد المسح على الرأس ، وحقها أن تدخل على آلة المسح لا على الممسوح ، فهم منها أن الرأس نزلت منزلة آلة المسح ، ومعلوم أن المسح عادة يكون براحة اليد ، فيؤخذ من هذا أن اليد توضع على الرأس وتحرك عليها ، كأننا مسحناها بالرأس ، وهذا يحصل به مقدار الناصية أو ربع الرأس عادة ، فقدرناها بالربع .

نحن لا نحاول هنا هذا الاستنباط ولا نبحث فى قوته وضعفه ، وإنما نريد أن نبين أنهم قد يستنبطون أحكاما من الأساليب البلاغية والمعانى الثانوية ، فإن العدول بالباء عن موضعها لإفادة معنى ، أو مغايرة مقتضى الظاهر فى الترتيب لنكتة ، لا يدخل شىء منهما فى المعانى الأولية ، بل ذلك من الخصوصيات قطعا .

ومن هذا يعلم أن المقصد الأول وهو الهداية يرجع بعضه أو أكثره الى المعانى الأولية ، وبعضه يؤخذ من خواص التراكيب التى لا يمكن نقلها . وإذ قد تبين مما سبق أن الإعجاز لا يمكن تحصيله فى الترجمة ، كانت الترجمة مفوتة أحد المقصدين برمته ومفوتة شطرا من المقصد الثانى ، فلا يمكن أن يؤتى بترجمة تقوم مقام الأصل فى تحصيل كل ما يقصد منه .

أما التفسير أى تبيان شىء مما يتضمنه الكلام المترجم ، وشرحه وتفهيمه والإلمام ببعض مزاياه المتضمنة له ، سواء أكان بشرحها أم بمحاولة محاكاة شىء منها فى حل الكلام كتأكيد وحصر ومجاز واستعارة وغيرها على وجه أنها قاصرة عن إيفاء كل ما يتضمنه ، فلا أحسب عاقلا ينكره .

والخلاصة أن الإتيان بما يسد مسد القرآن في كل ما قصد منه لا أحسب مسلما يدعيه، والإتيان بما يفيد شيئا كثيرا مما أفاده القرآن لا أحسب عاقلا ينكره. ففيم الخلاف إذا؟ لم يبق إلا نقطة واحدة وهي: هل الكلام الذي أتى على شيء من معاني القرآن ولم يقم مقامه في إبقاء كل ما قصد منه يسمى ترجمة؟ وهل يصح أن يحل محله ويكتفي به طائفة من المسلمين مستغنين به عن القرآن؟ والجواب عن الأول: أن أمر التسمية أصغر من أن يأخذ هذه الضجة، وقد عرفنا أن الناس لا يعرفون الترجمة على معنى أنها ترجمة لا تفي بكل ما يقصد من الأصل. والجواب عن الثاني: أن إحلال الترجمة محل الأصل تستجر حرمان تلك الأمة من منبع هداها، ومن وجود الآية التي تستند إليها شريعتها استنادا دائما بينها، وإذا كان من البعيد عن الصواب أيضا أن نحرمهم من تفهم كتابهم الذي يسوسهم، وتقريبه إلى أفهامهم بصوغ المستطاع منه بلغتهم، فنقول هذا صحيح، فلنحصله بما لا يجر إلى ضرر آخر، وذلك بأن نكتب القرآن العربي ونأتي معه بتفسيره بأية لغة على أنه تفسير لا ترجمة، وحبذا لو فسر بالعربية أولا وأردف بالترجمة.

ما حكم التلاوة والمطالعة — وقبل أن نتكلم على حكم التلاوة والمطالعة لهذه الترجمة نرى تتميما للفائدة أن نشرح معنى الترجمة التفسيرية والترجمة الحرفية ليتجلى الفرق بينهما وبين قولنا: «ترجمة» و«تفسير»: فالترجمة الحرفية مدارها على أن يؤتى لكل كلمة بما يرادفها في اللغة الأخرى، وإن اختلفت مواقع الاستعمال حسنا وإلفا. والترجمة التفسيرية أن يؤتى للمعنى الذي يفهم من الأصل بتركيب في الترجمة يؤديه على وفق الغرض الذي سيق له. فإذا أريد ترجمة قوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) ترجمة حرفية، أتى بكلام يدل على النهي عن ربط اليد في العنق وعن مدها غاية المد، وقد يكون هذا التعبير غير مألوف في لغة الترجمة للنهي

عن التبذير والتقتير ، ولذلك قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذى ينهى عنه القرآن ويقول : ومن ذا الذى يعمل فى نفسه هكذا حتى يعنى القرآن بنهيه عن ذلك ، ومن فعله لا يستحق أن يلتفت اليه لأنه وضع مضحك ووضع سخرية وإذا أريد ترجمها ترجمة تفسيرية أتى بالنهى عن التبذير والتقتير مصورين بصورة شنيعة تنفر منهما حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة وإلف أهلها ، ولذلك يكون الغرض مفهوما بسهولة فى الترجمة التفسيرية دون الحرفية ، ومن هنا يرجح أغلب المترجمين طريقة الترجمة التفسيرية . وأيا كان فهى ترجمة لا تفسير ، والفرق بينهما واضح كما عرفت .

أما حكم التلاوة والمطالعة فينبغى أن يعرف الفرق بينهما أولا ، ثم معرفة الحكم وحكمته بعد ذلك : فالمطالعة هى المدارسة والتفهم لما تطالعه ، وأما التلاوة فهى القراءة ولو مجردة عن ذلك ، وتلاوة القرءان على كل حال عبادة ، أما مع التدبر والتفهم فذلك الوجه الأكمل . وقد قال تعالى : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ) وأما بدون ذلك فلأن فى التلاوة تحصيلا للحفظ وتكوينا للتواتر فى الأداء ، وبه يتحقق ما وعدنا الله به من حفظه لكتابه العزيز فى قوله جل شأنه .(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) فتضافر الأمة خلفا عن سلف على حفظه كما هو بكلماته وحركاته وسكناته وشداته ومداته وغنته وغير ذلك ، وإن لم يفهم كثير منهم معناه ، محقق للتواتر الدافع لمظنة التحريف والتبديل . وناهيك بالكلمة يغلط فيها أحد مشاهير القراء لتشابه بينها وبين مثيلها فى سورة أخرى فتتجاوب الأصداء فى رده فيرجع الى صوابه .

إن هذه فائدة عظمى جاءت من حث الشارع على تلاوته ولو لمن فاته فهمه ، وهذا لا يمنع أن التدبر عبادة أيضا كما سبق على أن كون التلاوة عبادة فى الصلاة ولو بلا فهم لا يخالف فيها أحد ، فالجميع على أن من قرأ الفاتحة وآية من القرآن فى صلاته أدى المطلوب ، وكان عمله عبادة مثابا عليها فهم أم لم يفهم .

وإذ كانت حكمة التعبد بالتلاوة هى حفظ ما هو آية ، والذى هو آية إنما هو القرآن لا تفسيره ، لا يكون حكم تلاوة ما نأتى به من اللغة الأخرى حكم تلاوة القرآن ، فليست تلاوته عبادة . وأما مطالعته وتفهمه فكمطالعة كل كتاب علمى نافع ، فهى طاعة بقصد التفهم ، كمطالعة كتب التفسير وكتب الحديث وأمثاله .

أما حكم التلاوة فى الصلاة فقد منعها الأئمة الثلاثة وأتباعهم للعاجز والقادر ، وأجازها أصحاب أبى حنيفة للعاجز ، على تفصيل لهم بين ما هو من باب الثناء أو الدعاء أو من باب القصة والأمر ، نتركه لعلماء الحنفية ، ومنعوا منها القادر على العربية ، وروى عن أبى حنيفة جوازها للقادر والعاجز ، وقد نقل بعض أصحابه رجوعه عن ذلك ، وسكت بعضهم لم يتعرض لرواية الرجوع ، ولا شك أن عدم ذكر رواية الرجوع لا يعارض رواية من رواه ، وعلى فرض المعارضة فالمثبت مقدم على النافى .

وكان وجه نظر الأئمة رضى الله عنهم أن الصلاة لا تصح لشىء من كلام الناس والترجمة من كلام الناس ، فمن عجز عن قراءة القرآن كان كالأخرس يسكت بمقدار الفاتحة . ووجه نظر أصحاب أبى حنيفة أن الترجمة التى هى من باب الثناء أو الدعاء فيها معنى التمجيد والتسبيح ، والصلاة محل لهما وقد يمكن توجيه الرواية الأخرى عن أبى حنيفة بأنه يرى القرآن اسما للمعنى المدلول كما ذكر ذلك بعض من رواه عنه ، وإن رده أصحابه . وعلى الجملة فإن مسألة القراءة فى الصلاة مسألة فقهية ، وأما هذه المسألة فهى مسألة أصلية يتفرع عليها الكثير من الأحكام . هذا ما نرى أداءه لزاما علينا ، نصحا خالصا لله ولرسوله ، والدين النصيحة . ونسأل الله أن يوفقنا إلى الهدى ، فهو رب النعمة وولى التوفيق ، والله المستعان .

ابراهيم الجبالى

استدراك

متعلق بمقال كلمة فى ترجمة القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ صاحب التوقيع

حضرة صاحب الفضيلة رئيس تحرير مجلة نور الاسلام .

السلام عليكم ورحمة الله .

الكلمة المرسلة منى الى إدارة مجلة نور الاسلام لنشرها تحتاج الى تكملة فى موضعين، أرجو إلحاق هذه التكملة بالكلمة فى نفس العدد استيفاء للموضوع ولكم الشكر .

(الأولى) تتعلق ببيان منزلة رواة رجوع أبى حنيفة المذكور فى السطر العشرين صحيفة ٣٢ ، وحاصلها :

روى رجوع الامام أبى حنيفة عن القول بجواز القراءة بغير العربية فى الصلاة مع القدرة عليها نوح بن أبى مريم ، وهو من أصحاب أبى حنيفة ، أخذ الفقه عنه وأخذه أيضا عن ابن أبى ليلى ؛ ورواه أيضا على بن الجعد ، وهو من أصحاب أبى يوسف ، وروى عنه البخارى وأبو داود أحاديث . وقال أبو حاتم : لم أر من المحدثين من يحدث بالحديث على لفظ واحد لا يغيره سوى على بن الجعد . وهو من علماء القرن الثانى والثالث ؛ ورواه أيضا أبو بكر الرازى ، وهو أحمد بن على الجصّاص ، وهو إمام أصحاب أبى حنيفة فى وقته ، تفقه على أبى الحسن الكرخى ، وهو من علماء القرن الرابع .

وحيث كان رواة رجوع الامام بهذه المنزلة فلا معنى لأن يجعل سكوت بقى أصحاب أبى حنيفة عن نقل الرجوع مثارا للشك ، فإنه لم يقل أحد : إن سكوت أبى بكر أو عمر أو عثمان عن نقل حديث رواه أبو هريرة موجب للشك .

(الثانية) تتعلق بالتوفيق المذكور بين القول بالفساد والقول بعدم الفساد المذكور فى السطر الثامن الى الثالث عشر صحيفة ٣٣ ، وحاصلها :

التوفيق المذكور هو بالنسبة للقادر على العربية ، وموضوع الكلام فى العاجز عنها ، وفيه التفصيل بين ما إذا كان المقروء قصة وما إذا كان ذكرا ، ولكن سنده قول ابن الهمام فى تحريره : «والوجه فى العاجز أنه كالأمى فلو أدى به قصة فسدت لا ذكرا» ومعنى هذا أنه يجعل العاجز عن العربية كالأمى فى أنه لا قراءة عليه ، وأن المؤدى بلغة أخرى إن كان قصة فسدت صلاته ، لأنه متكلم بكلام غير قرآن وليس ذكرا ، وإن كان ذكرا لا تفسد ، لأن الذكر بأى لسان لا يفسد الصلاة ، وعلى كل فليس تاليا لقرآن . وهذا التفصيل الذى ذكره ابن الهمام هو الذى يتمشى مع المتفق عليه المذكور أولا .

وقد ذكر صاحب طبقات الحنفية نقلا عن صاحب البحر أن الكمال بن الهمام من المرجحين فى المذهب ، بل قال بعضهم إنه من المجتهدين . ومن اطلع على تحقيقاته ودقة نظره فى الأدلة يدرك صحة ما ذكره صاحب البحر . وكثيرا ما تذكر عبارات مطلقة فى كتب المتقدمين وتكون مقيدة فى الواقع نظرا لأدلة اقتضت ذلك ، مثل أصل مجمع عليه ، أو فروع يؤخذ منها ذلك . فهذا الذى رآه ابن الهمام هو الأجدر بالاتباع .

محمود أبو دقيقة
مدرس بكلية أصول الدين

الاسلام

فى المناطق القريبة من أفريقا الشرقية [1]

عنيت الجمعية الألمانية للمعارف الاسلامية منذ زمن بعيد بإحصاء المسلمين فى النواحى المختلفة من المعمورة مع بيان حالتهم الدينية والعلمية والاجتماعية و لاقتصادية، ولما كانت أفريقا الشرقية جزءا من الممتلكات الألمانية [2] التى تدين بالاسلام، وكان للاسلام الأثر الظاهر فى حياة سكان تلك البلاد وطنيين كانوا أم مستوطنين على اختلاف نحلهم ومشاربهم، فإن اهتمام الجمعية ببحث ودرس عقيدتهم الدينية وأثرها فى حياتهم الدينية والدنيوية كان مضاعفا .

والإحصاءات المذكورة فيما يلى وما يتبعها من بيان ترجع إلى ما وصل إليه مراسلو الجمعية وكتابها فى السنين الأخيرة قبيل الحرب لأوربية الكبرى .

١ — درجة انتشار الاسلام

تعتبر ناحية « تابورا » حصن الاسلام المنيع فى أفريقا الشرقية ، ويقدر عدد السكان فى هذه العاصمة بما لا يقل عن ٣٥ ألف نسمة - منهم ٢٥ ألفا ممن يدينون بالاسلام ، ولا يقل عدد العرب والهنود فى هذه الجهة عن مائة نسمة ، ويوجد بمدينة « تابورا » وضواحيها ٣٠ مسجدا ومدرسة لحفظ القرآن ، وأربعة مساجد كبيرة خصص أحدها للعرب والثانى للهنود والاثنان الآخران للأهالى الوطنيين ، وأما باقى المساجد فعبارة عن مبانى بسيطة من القش .

---

(١) نقلا عن مقال للدكتور « شيبل » فى مجلة (العالم الاسلامى) التى تصدرها الجمعية الالمانية لمعارف الاسلامية ببرلين .

(٢) تنازلت المانيا عن هذه الممتلكات عقب الحرب الاوربية الكبرى .

ويرجع فضل إنشاء المساجد فى هذه الجهة غالبا الى الهبات الخصوصية، أو التبرعات الشعبية التى يقوم بها المسلمون .

ويطلق اسم « معلمين » على المؤذنين والمدرسين فى المساجد ، وأغلبهم من سكان السواحل الشرقية ، وهم يتقنون كتابة الحروف العربية وقراءتها ، ولكن الكثير منهم لا يجيد فهم اللغة العربية التى لا تستعمل إلا فى قضاء الأغراض الدينية ، ولا يتداولونها فى باقى مرافق الحياة الأخرى .

ولا تقام صلاة الجمعة بانتظام إلا فى الأربعة المساجد لكبيرة ، ولا يؤمها إلا القليل ، ويتراوح عدد المصلين فيها بين مائة ومائة وخمسين نفسا فى كل منها ، أما الصلوات اليومية فتقام فى جميع المساجد الكبيرة والصغيرة على حد سواء ويؤمها الكثير ، ولكن عدد المصلين يختلف تبعا لفصول السنة .

وتقوم المكاتب الدراسية بتعليم النشء القراءة والكتابة بالحروف العربية ، وبتلقينهم آيات القرآن وتجويدها ، وأما المصاريف الدراسية فتافهة جدا حتى تكاد لا تذكر .

وتقع مدينة « أوجيجى » التى تعتبر من الأوساط الاسلامية الهامة فى تلك البلاد بقرب مدينة « تابورا » ، ودخل الاسلامُ فى هاتين المدينتين بواسطة العرب النازحين من زنجبار ومن السواحل الى داخل البلاد الواقعة غرب بحيرة « تنجانيقا » بقصد شراء سن الفيل أو تجارة الرقيق .

ويوجد فى مدينة « أوجيجى » مسجد واحد بمأذنة من الحجر ، وأغلب سكان المدينة من العرب ومن العبيد المسلمين النازحين اليها من السواحل أو داخلية البلاد الواقعة بين « تنجانيقا » والكنغو ، ولا يتكلم بالعربية فى هذه الجهة سوى العرب ، وأما باقى الأهالى فيتفاهمون بلغتهم الوطنية ويطلق عليها « كيسواهيلى » علاوة على

بعض لهجات أخرى مختلفة تبعا لاختلاف موطنهم الأصلية، ويحترف أغلبهم التجارة والقليل منهم يشتغل بصيد الأسماك أو يخدم فى البحرية .

أما التجار المسلمون فنتشرون على طول السواحل الشرقية لبحيرة « تنجانيقا » كما أنهم ابتدءوا أخيرا فى استعمار المناطق الجنوبية أيضا حيث توجد لهم الآن عدة مساجد بها، ففى سهل « كيراندو » يوجد الآن ثلاث مساجد صغيرة، ويقوم بالإنفاق عليها جماعة المسلمين القادمين من السواحل أو بلاد الكنغو، ويبلغ عددهم فى الأربعة القرى المهمة فى هذه البقعة حوالى ٦٠٠ نفس أو ما يقرب من خمس عدد السكان ، إلا أنه يندر بينهم من يفهم اللغة العربية ، ويشتغلون بصيد الأسماك وبناء السفن والتجارة والزراعة .

وقد تغلغل الاسلام الى أبعد من ذلك جنوبا، فنجد أتباعه فى منطقتى « كيزومبى » و « بسمار كبورج » ، ولهم فى الأخيرة جامع يقوم بالتدريس فيه أحد فقهاء مدينة « تابورا » ولا يزيد عدد المسلمين فى هذه الناحية عن عشر عدد السكان، ولا يتكلم بالعربية سوى العرب المقيمين بها ولو أن كثيرا من الأهالى المسلمين يجيد كتابة الحروف العربية وقراءتها فضلا عن أن التحية بينهم لا تلقى إلا بعبارات عربية بحتة، وأهم الحرف التى يشتغلون بها التجارة .

أما فى الجهات الجنوبية من الشواطئ الشرقية لبحيرة « تنجانيقا » وما جاورها من الضواحى فى الناحية الشرقية، فيكاد الإنسان لا يشعر للإسلام فيها بأى أثر، رغما من أن الكثير من تجار المسلمين يمرون بها .

وكذلك فى الطرف الشمالى من بحيرة « تنجانيقا » يكاد يكون أثر الاسلام فيها معدوما — اللهم إلا فى السهول الساحلية ، حيث أسس العرب المستوطنون على قلة عددهم جامعا وعشر مدارس لنشر اللغة العربية وحفظ القرآن . ويدين بالاسلام فى تلك

النواحى العرب وبعض الوطنيين السود ، ولو أن عددهم قليل جدا بالنسبة لغير المسلمين ، أما اللغة العربية فغير شائعة هنالك إلا بين العرب ومواليهم وبعض المدرسين الوطنيين .

أما فى سلطنة « أوساميرو » الواقعة فى شمال « تابورا » و « أوجيجى » البالغ تعدادها حوالى ١٠ آلاف نسمة ، فلا يزيد عدد المسلمين فيها عن ٨٠٠ نفس — القليل منهم من أصل عربى أو هندى ، ويوجد فى بلدة « ناماريتا » التى تعتبر واقعة تحت نفوذ الاسلام منذ سنة ١٩٠٥ جامعان لإقامة الشعائر الدينية ، وكذلك فى مقر السلطنة وغيرها من القرى المتاخمة يوجد عدد لا يستهان به من المسلمين منتشرون فى نواح مختلفة ، ولو أن هذه الجهات غير مأهولة بالسكان كغيرها لقلة مواردها الطبيعية وصعوبة الوصول اليها لوقوعها بعيدة عن طرق المواصلات الرئيسية .

٢ — ماهية الاسلام وحالته

لم تكن التقارير التى وصلتنا فى أى وقت عن ماهية الاسلام وحالته فى بلاد أفريقا الشرقية بوافية ، ولو أنها تكاد كلها تجمع على أن الاسلام لم يبلغ فى هذه الجهات حدا بعيدا ، فلا تراعى تعاليمه بدقة ولا تقام شعائره بانتظام ، ويكاد يكون الختان وصيام رمضان الشيئين الوحيدين اللذين لا يزالان مرعيين عادة عند أغلبية الأهالى المسلمين ، أما إقامة الصلوات فى المساجد العمومية ، أو المحافظة على تعاليم المأكل والمشرب من حيث الحلال والحرام ، وكذلك الوضوء على قواعده الصحيحة ، فكل ذلك من الأمور التى لا يراعيها إلا النادر منهم ، بل وكثير من المسلمين من لا يعرف عن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وسيرته إلا النذر اليسير ، ولو أنهم جميعا ينظرون باحتقار الى كل من لا يدين بما جاء به ، ويقاومون أعمال التبشير المسيحى فى الجهات المأهولة باسكان مثل « تابورا » و « أوزاميرو » مقاومة عنيدة .

ومما لا شك فيه أن دخول الاسلام فى هـذه الجهات كان مقرونا بفتح حياة تثقيفية جديدة ، فكما أدخل العرب أنواعا جديدة من الزراعات — خصوصا الفاكهة — كان لهم الفضل فى نشر التعليم ، ولـكن مما يدعو للأسف الشديد أن تعاليم الاسلام فى كثير من أمور الحياة الدنيوية لا تراعى أو لا تنطبق بالروح العادلة التى تتطلبها ، فتنقلب النتائج إلى عكس المقصود منها ، وهكذا كانت إباحة تعدد الزوجات مثلا — سببا فى كثير من الأمراض الاجتماعية التى تهد من كيان الأسرة والمجتمع على حد سواء .

٣ — الدعاية للاسلام

وجد الاسلام أنصارا كثيرة فى هذه الجهات حيث حل العرب المستعمرون ، فاعتنق عبيد الـكنغو (المستوطنون الآن سواحل بحيرة « تنجانيقا » الشرقية وغيرها) ديانة أسيادهم من العرب ، كما أنه كثيرا ما تزوج العرب النازحون من النساء الوطنيات — غالبا من بنات رؤساء القبائل الوطنية — فدخلن فى دين الله وسهلن على أهلهن وذويهن اعتناقه بشرحهن أصوله وتعاليمه مما يأخذنه عن أزواجهن ، وكذلك حذا الـكثير من العساكر حذو زملائهم من المسلمين واعتنقوا الاسلام ، كما كان للتجار العرب أثر كبير فى نشر الاسلام والدعاية له باحتكاكهم المباشر بالوطنيين ومعاملة من يدين به معاملة ممتازة مما رغب الـكثيرين فى الانضمام إلى زمرتهم طمعا فى الفائدة المادية التى تعود عليهم إذا هم دخلوا فى حمى الاسلام .

أما القبائل المنتشرة فى داخل البلاد ، وهى بطبيعتها فى حاجة دائمة إلى سكان الشواطئ الشرقية ، فهم أبدا فى حالة عدم استقلال اقتصادى ، بل يدينون تقريبا بكل شىء للتجار العرب فى المدن الشاطئية الذين يسخرونهم ويستغلون جميع منتجاتهم ، ولهذا السبب نجدهم دائمى الحذر منهم ، مبتعدين كل البعد عن دياناتهم وما جلبت من عادات .

هذا الى أن الكثير منهم لا يميل الى تعذيب الجسم ويعتبر الختان صورة من صور التعذيب التى لا تقبلها عوائدهم .

ويستخلص من كل ما ذكر أن المسلمين الغرباء تمكنوا حتى سنة ١٩١١ المتداخلة فى سنة ١٩١٢ من التغلغل فى قلب المناطق الغربية من أفريقيا الشرقية ونشروا الدعوة الى الاسلام بين الوطنيين ، كما استطاعوا وضع هذه البلاد تحت نفوذهم الاقتصادى والتجارى ، ولو أنه لا تزال هناك نواح لم يتمكن فيها الاسلام من ترسيخ قدمه رغما من وجود ما يدل على تطور فكرى نحو الأفكار الاسلامية بين قبائل الوطنيين من حين لآخر ؟

البوصلة فى المملكة النباتية[1]

اكتشف أحد علماء النبات « شاندرل » خاصية غريبة فى إحدى الحشائش السهمية المسماة علميا « Sagittaria sagittafolia » وهى إحدى النباتات المائية ، ولها فروع تحت الماء ، وفروع طافية على سطحه ، وأخرى ترتفع قليلا عن سطح الماء ، وهى على نوعين : عريضة وضيقة ، فبينما تبقى العريضة دائما فى وضع أفقى ، تتخذ الضيقة أبدا اتجاها يشير الى كل من القطبين الشمالى والجنوبى ، كما تفعل الإبرة المغنطسة فى البوصلة البحرية .

---

(١) مترجمة من مجلة « Kosmos » الالمانية .

المسلمون
فى جمهوريات السوفيت الاشتراكية المتحدة
(روسية)

إن اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية يشمل منذ سنة ١٩٢٤ الأقسام التالية :

(ا) جمهورية روسيا (بما فيها سيبريا والأقاليم التسعة المستقلة استقلالا داخليا) ويوكرانيا والروسيا البيضاء .

(ب) جمهوريات السوفيت الاشتراكية المنضمة للأولى ، وهى : بلاد القريم وقازان وبشكير وبلاد القوقاز الشمالية مع حكومة طاغستان وقار قستان وأوزبكستان .

(ج) جمهوريات السوفيت الشعبية المتحالفة مع الأولى، وهى بلاد التاجيقستان وقرا كالبا كستان وتوكيانستان وقرافيرغستان ومونوغوليا الشمالية .

(د) اتحاد الجمهوريات الاشتراكية المتحدة مع الأولى — خلاف بلاد القوقاز وهى : أرمينيا وبلاد الكرج واذربايجان .

ومن الوجهة الخارجية فان سياسة السوفيت الاسلامية التى وضعت بمؤتمر باكو سنة ١٩٢٠ تتضمن تحرير الشعوب الشرقية ولا سيما الاسلامية من استغلال أوربا لرأسمالى والاستعمارى

وأما من الوجهة الداخلية فان سياسة السوفيت الاسلامية التى حددها ستالين فى تقرير سنة ١٩٢١ وسافاروف فى تقرير سنة ١٩٢٢ ترمى الى ما يأتى :

(١) تجزئة وتقسيم العقارات الكبيرة، سواء أكانت إقطاعية أم موقوفة.
(٢) حل الجماعات الأخوية الاسلامية.
(٣) القضاء على الحركة الوطنية التركية.

وقد عجلت هذه السياسة بتحرير المرأة، وأعادت تكوين جمعيات التضامن، وردت الى الجنسيات الثانوية المدارس التى يدرس فيها بلغاتها، والأراضى التى كان الاستعمار الروسى قد صادرها — إلا أنها أدت من جهة أخرى الى انحطاط هائل فى الأخلاق من وجهة الحياة العائلية ومن الوجهة الاجتماعية، والى نزول القحط بالبلاد بسبب عدم أهليتها لتنظيم حركة تموين البلاد اقتصاديا، هذا مضافا الى انسلاخ ٣٥ مليون نسمة من الروسيا. وقد نزل عدد سكانها من ١٨٠،٦٧٨،٨٠٠ نفس فى سنة ١٩١٤ الى ١٣٥،٧١٠،٤٢٣ نسمة فى سنة ١٩٢٠ — منها ١٩،٢١٨،٠٠٠ شخص (أى ١٦٪ فى المائة) غالبيتهم العظمى من الأترك المحتشدين فى الجنوب الشرق، ثم بلغ ١٤٧،٠١٣،٦٠٩ نسمة فى سنة ١٩٢٧

الصحافة: فيوجد منها بمدينة اقشيد (فى بلاد القرم) جريدة «أوقوع اشليرى» وجريدة «بلنيش» و «ينى دنيا» و «يبلكى» وكلها تصدر باللغة التركية.

وبمدينة باكو توجد جريدة «قومونيست» وتصدر باللغة التركية، وبها عمود يكتب بالأحرف اللاتينية، ويحررها حبيب جبيوف وتصدر يوميا؛ ومجلة «اقتصاد خبيرلى مجموعه سى» ويحررها طاليبى وهى شهرية؛ ثم جرائد «شرق قاضينى» و «ايكنجى همكيارل اتفاقين مجموعه سى» وهى كذلك شهرية، و «مليت ماس ايليسى» و «ينى يول» وتصدر بأحرف لاتينية ويطبع منها ٨٠٠٠ نسخة، ثم جريدة «قنديلى».

وفى مدينة بخارا تصدر منذ سنة ١٩٢٠ جريدة «ازادبخارا» باللغة التركية، وتطبع ٣٠٠٠ نسخة، ومجلة «معارف ومدنيت» وتصدر شهريا باللغة التركية.

وبمدينة جنجى (فى ازربايجان) تصدر باللغة التركية جريدة يومية اسمها « ينى جنجى » . وبمدينة «قازان» تصدر باللغة التركية الجرائد الآتية : قيزيل تاتارستان ، وبسمين بيراق ، وبسمين يول ، والتشنتش ، وقيزيل شرق ياشلارى .

وبمدينة «خوقاند» تصدرباللغة التركية جريدة «فارغانا» ويطبع منها ٤٠٠٠ نسخة. وبمدينةموسكوتصدرباللغةالتركيةوالروسيةجريدة«ايشجى». وبمدينة «ناخيتشيفان» (اذربايجان) تصدر جريدة «شرق قاپوزو» باللغة التركية وهى يومية . وبمدينة «نوخا» (اذربايجان) تصدر يوميا باللغة التركية جريدة «شيلى فاعلاظى». وبمدينة «بيشبك» تصدرجريدة«ايرنتو»باللغة القراغيرزية وبمدينةپولاتار تسك(اسحاباد)تصدر جريدة «توركينستان» باللغة التركية . وفى مدينة «سمرقند» تطبع جريدة «زرافستان» باللغة التركية . وبمدينة «طاشقند» تصدر منذ سنة ١٩٢٤ جريدة «قزيل اوزبيكستان» خلفا لجريدة « قيزيل بيراق » ويطبع منها ١٦٠٠ نسخة باللغة التركية ، وجريدة «حق يول» بالتركية ، وصحيفة «يايغى يول» وهى جريدة نسائية ، وجريدة «انقلاب» وصحيفة « تشوليان » وصحيفة « حقيقت » وجريدة « مشتيم » وهى جريدة هزلية وكلها تصدر باللغة التركية ، وجريدة « برافدفوستوكا » وتطبع باللغة الروسية .

وبمدينة «تفليس»تصدر جرائد «ينى فقير» و «داز الديزى» وتصدران بالتركية و «زاريا فوستوكا» و « سلوفو » وتطبعان باللغة الروسية .

(ا) روسيا الاصلية

فى روسيا الأصلية (التى تتكون من روسيا الكبرى وسيبريا ويوكرانيا وروسيا البيضاء) عدد المسلمين بها ضئيل ، فقد نصادف بها مركزا لهم يحتوى على ١٥٠٠٠ مسلم وكانوا يبلغون ١٠،٤٧٩ مسلما حسب تعداد سنة ١٨٦١ وهم فى مقاطعة رياضن الواقعة على نهر الأوكا ، وفى مقاطعة قاسموف (جرودتزسابقا) والتى تنوزل عنها لقاسم بن اوغلو

محمد (قيصر قازان) ولأنصاره ، فأسس بها خانات قاسموف بين سنتى ١٤٤٦ و ١٦٧٨ وهو ما ساعد كبار الأمراء بموسكو على تحطيم قيصرية قازان المستقلة ؛ ويوجد فى سيبيريا ١٢٥,٠٠٠ من تاتاربا رابا والتورالى والأشتيك—منهم ٨٠,٠٠٠مسلم من الآثار الباقية للحكم الاسلامى فى مدينة «سبيير» أو إسكر) لأمراء «تيومن» الشيبانيين من سنة ١٢٢٦ الى سنة ١٦٥٩

المقاطعات المستقلة داخلية :

لا يوجد مسلمون فى مقاطعات «زيريان» (أوست سيسولسك) و «ياقوت» (فالياقوتسك هو لهجتهم الكلامية وهو نوع من التركية) ، ومقاطعة « أويرتو خانخاس » و « بورياتس — مونغول» (ايركوتس) ولا فى جمهورية «الشرق لاقصى» (تشيتى) لكن على العكس من ذلك نجد الاسلام يربح أنصارا فى بلاد المارى أو « تشيرميس » حاضرة «كرسنو — كوكتشائسك » إذ يوجد بها ١٠٠,٠٠٠ مسلم من عدد السكان البالغ مجموعهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، وفى بلاد « الفوتيك » التى حاضرتها « ايجفسك » يوجد نصف مليون مسلم من مجموع لسكان البالغ قدره ٦٨٦,٠٤٩ نفسا وفى بلاد « التشوفاخ » وعاصمتها « تشبوكسارى » يبلغ عدد المسلمين ٤٠,٠٠٠ نسمة من ٧٥٨,١٦١ نفسا عدد السكان حسب تعداد سنة ١٩٢٠ ، وأما المقاطعات الأخرى المستقلة استقلالا داخليا فان لقحط يغتالها .

(ب) بلاد القرم

نالت بلاد القرم استقلالها الداخلى منذ ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢١ ، وتبلغ مساحتها ٢٥,٥٧٧ كيلو مترا مربعا ، وعدد سكانها ٥٧٧,٨٧٧ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٢٥ ؛ ويظهر أن أغلبية الزراع من العنصر الاسلامى (من السنيين والحنفيين) فى خارج المدن التى يسود فيها عنصر العمال الفقراء الروسيين الذى يبلغ عدد الشيوعيين منهم أو

المقيدين فى سنة ١٩٢٢ : ٦٦،٣٨٩ شخصا ، أما المسلمون فعددهم بلغ فى ابريل سنة ١٩٢١ ١٨٧،٠٠٠ نسمة ، ويقول اريستوف إن عددهم كان يبلغ ١٩٦،٠٠٠ نفس فى سنة ١٨٩٦

تعداد المدن :

«سباستبول» بلغ عدد سكانها فى سنة ١٩٢٦ : ٧٤،٧٠٣ نسمات ، و«سمفيرو پول» ٨٨،٣٤٠ نفس فى سنة ١٩٢٦ و« تيودوزى» بلغ عدد سكانه ٣٤،٣٥٨ نفسا فى سنة ١٩٢٤ وأوپاطوريا ٣٠،١٧٢ نسمة فى سنة ١٩٢٤ و « باغتشى » سراى ١٢،٣٦١ شخصا فى سنة ١٩٢٤ و « كاراسو بازار » ١١،٩٧٧ فى سنة ١٩٢٤

فبلاد القرم عند ماخضعت لحكم الخازار الذين اعتنقوا اليهودية فيما بين القرنين السابع والعاشر من الميلاد لم تتصل بالاسلام حتى القرن الرابع عشر إلا اتصالا غير مباشر ، وعند غزوة المنغوليين فى سنة ١٢٤٢ دخل بلاد القرم بعض قبائل الأتراك القفشاق ، والتتار النوجائيس ، واعتنقوا الاسلام فى القرن الرابع عشر .

وفى سنة ١٤٢٠ تنازل كبار ملوك الهورد دور (La Horde d' Or) عن بلاد القرم الى أورانج تيمور بن توكاتيمور و لى سلالته ، واستقلت بلاد القرم استقلالا داخليا من سنة ١٤٢٠ الى سنة ١٧٨٣ بحاضرتها «استارى قريم» بالقرب من «باغتشية سراى» سنة ١٥٠١ تحت حكم أسرة غيراى ، وقد كان أمراؤها مهددين من الجنوب بالأتراك الذين استولوا على «كافا» فى سنة ١٤٧٥ ، ومهددين من الشمال بالروس الذين قامت بينهم الحرب سنة ١٥٧١ وسنة ١٦٨٣ وانتزع الروس منهم بلاد القرم فيما بين سنتى ١٧٧٠ و ١٧٨٣

ولمناسبة التنازل عن بلاد القرم للروس قد نص فى عقد سياسى دولى على بقاء السلطة الروحية لسلطان آل عثمان بصفته خليفة المسلمين ، وذلك عملا بنصيحة الكونت سان بريست سفير فرنسا (المادة الثالثة من معاهدة كوتشوك — كاينارجى المبرمة فى ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤) .

أما دستور القرم الذى أقرته الجمعية العمومية بتصويتها فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٧ فقد اعترف به السوفيت فى ١٠ يناير سنة ١٩٢٢ وانتخب لبلاد لقرم رئيسا مسلما يا مى م. سيد عليف (ابن على).

أما الأجناس التى دخلت الاسلام فهى فى الشمال: التتار المنغوليون ورحالة البرارى، وفى الجنوب، والمستعمرون القادمون البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط وبعض المهاجرين من أصل سرئيلى أو افريقى أو غنوى وبعض التور. أما اللغة الرسمية فهى الروسية والتركية، وقد قويت النهضة الأدبية التركية والاسلامية وانتشرت بواسطة الصحف، وكان فى مقدمتها ومن أقواها وأكثرها انتشارا صحيفة «ترجمان باغتشى سراى» تصدر منذ سنة ١٨٨٣ وتطبع ٥٠٠٠ نسخة ويديرها اسماعيل بك عاسبرينسكى، وينفق عليها بعض العظماء مثل مهديف وتساليف، وجعفر سعيد امت وأصبحت ذات نفوذ عظيم، وأما تربية المرأة سائرة فى التقدم المستمر، ولا يزال ببلاد القرم ٥٠٥٦٤ يهوديا من الاسرائيليين القرايين، و ٤٨٠٧٧ من التلموديين. وإن إقامة فظائظ اليهود منذ سنة ١٩٢٧ فى جنكوى وفى بويابوريا قد أثارت أزمة ضد اليهود.

أما خطبة الجمعة فتلقى باسم خليفة آل عثمان منذ القرن السادس عشر، وقد وافقت الروسيا على بقاء هذه الحالة على ما هى عليها فى سنة ١٧٧٤ وسنة ١٧٧٩ وغيرتها فى سنة ١٧٨٣ حيث ألفت هيئة العلماء فى أقسجد (سمفيروبول) للامتحان الدينى للطلبة المتقدمين ليكونوا «ملا» علماء دينيين ووعاظ.

وقد كان رئيس تلك الهيئة سعيد عليف فى سنة ١٩٢٢ ثم والى ابراهيموف الذى أعدم فى سنة ١٩٢٧

(يتبع)

الحسين عليه السلام

تأليف حضرة صاحب العزة الأستاذ على بك جلال الحسيني المستشار بمحكمة الاستئناف سابقا . وهو كتاب نفيس فى التعريف بالامام أبى عبد الله سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب عليهما لسلام . تكلم فيه حضرة المؤلف عن سيرة الامام الحسين منذ نشأته إلى مقتله عليـه السلام ببسط وتفصيل، وتحدث عن قتلته وأولاده وأزواجه ، ومايقام فى يوم عاشوراء من مظاهر الحزن و لسرور ، وخلاف المؤرخين فى موضع دفن رأسه الشريف ، كل ذلك بدقة وتمحيص وإفاضة وتوسع ، فكان أوفى ما كتب فى سيرة الامام الحسين رضى الله عنه . والـكتاب محلى برسوم بعض المشاهد . تم طبعه بالمطبعة السلفية فى جزأين على ورق جيد الجزء الاول فى ٢٠٠ ص والثانى فى ٢٤٨ ص . فنشكر حضرة المؤلف الفاضل على هذا العمل الجليل ونحث أهل العلم على الاستفادة منه، ويطلب من المكتبة السلفية بشارع الاستئناف وثمنه ١٥ قرشا ؟

مراصد الصلاة – فى مقاصد الصلاة

تأليف الحافظ المحدث قطب الدين القسطلاني

هو كتاب قيم فى حكمة الاحكام والتعبدات ، وأنواع القربات وثمراتها ، وأفضلية الصلوات وآدابها . طبع بالمطبعة المصرية بالأزهر طبعا متقنا على ورق جيد ، وعنى بضبطه والتعليق عليه حضرة الأديب الفاضل الشيخ رضوان محمد رضوان . فنشكره ونحث أهل العـلم على اقتنائه ويباع بالمطبعة المصرية وثمنه خمسة قروش ؟

أغلاط فى هذا الجزء

خطـأ	صـواب	صفحة	سطر
أترابه	أترابه	٤٠	٣
أماى	إمى	٤٥	١٨

ووقع خطأ فى رقم الصفحات : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ نرجو من القارئ الكريم ملاحظته .

tural references to Mohammad as will leave no room for doubt to rankle in the minds of seekers of truth and will, at the same time render clear the Lord's saying in the Koran that the people of the Scriptures will find his name and qualities clearly given in their books the Law and the Gospel and that they know him even as they know their own children and that they were wont to invoke the Lord in his name for support against those who disbelieved but when the Koran was revealed to him, they themselves feigned disbelief.

The name of Mohammad was clearly given in several chapters of the Gospel of Barnabas as well as in the Books of Isaiah, Daniel, Ezekiel and others. It is evident that such lofty sayings, great knowledge and spiritual attainments given in the Gospel of Barnabas could only refer to a great and a holy prophet. The contents of this Gospel present a striking comparison to the modern ideals of present day thinkers and philosophers.

Nay it is even more striking in consideration of those remote centuries which some Christian critics call the dark ages but fail to substantiate their allegation The Gospel of Barnabas is, in this respect full of significance, but it was among the books that were censured and suppressed by Pope Gelasius [1] in the fifth century or about two hundred years prior to the birth of Mohammad This was detailed by Father Nematullah of Lebanon on page 35 of his book « Zakhiratul-Albab » published in Beyrouth by the Catholic Public Printing Office in 1882 A.D. The following verse is quoted from the Gospel of Barnabas :

« And the Lord said unto Adam : My servant, I tell thee thou art the first man I created; and he that thou hast set thine eyes upon is but thine own son who will come unto the world several years hence; he will be my messenger who will give light when he cometh and whose soul reposed in heavenly splendour sixty thousand years ere aught I created »; whereupon Adam prayed unto the Lord « O Lord wilt thou givest me thy word on my finger nails » and the Lord gavest unto the first man His word on his two thumbs. « There is no deity but God » on the right hand thumb and « Mohammad is the apostle of God » on the left hand one.

Another quotation from the same Gospel attributed to Christ goes: « When the Apostle of God cometh, will the Lord give unto him that which is the sign of authority; he will bring mercy and salvation unto the people of the world who accept his teachings and will overcome the wicked and extirpate idol-worship so as to foil the designs of satan for thus hath the Lord made covenant with Abraham ».

---

[1] 492-496 A.D.

بما أنزل ومن أنزل عليه فاجعلنا عندك مع الذين يشهدون بحقية نبيك صلى الله عليه وسلم وكتابك .

ترجمة هذا التفسير

« When those who declare they are Christians hear the Koran recited, thou shalt see their eyes overflow with tears for being susceptible of heart, God-fearing and anxious to admit the truth not to rebute it. Their eyes overflow with tears as a result of their knowing a par. of the truth, but what would they do should they know the whole truth, read the Koran through and acquaint themselves with the Tradition ? They would say O Lord ! We believe in what was revealed and that unto whom it was revealed, pray to count us with those who bear witness to the truth of Thy Prophet and the authenticity of Thy Book ».

(Alucy's Commentary).

It would be fitting in concluding this article, to give in the following pages some instances of the announcement by prophets of the advent of Mohammad and reference thereto in the Scriptures.

Detailed volumes could be written should we wish to give all the announcements uttered by prophets, priests and monks regarding the advent of Mohammad It would indeed be an endless task to undertake before such evidence of Sateih, Wahl Ibn Monabbeh, Kaabul-Ahbar, Al Mukaukis, Heraclius, the Negus of Ethiopia, Tobbah, Ommiah Ibn Abil-Sult and others could be exhausted.

Such announcements were so widely spread and reiterated over and over again by the prophets that no Scripture of Jews or Christians lacked reference thereto despite the fact that many verses have been misconstrued and corrupted by them. Nevertheless such corruption did not prejudice the true meaning of the verses as is conveyed for instance by the substitution of « Comforter » for « Paraclete » in chapters XVI and XVII of the Gospel of St. John. It was due to divine providence that such verses retained their original meaning. For indeed, had Mohammad not been the promised prophet whose advent Christ announced and said was near at hand, we would wonder who could that prophet be and why was his advent so long delayed..

We will give in the following pages a short account of such Scrip-

those people hear the Koran recited, they fall down to their faces, prostrate in glorification of the Lord or in gratefulness for the fulfilment of His promise in the Scriptures regarding your mission. They say in worship « Our Lord is far above breaking His promise for whatever He promiseth is surely accomplished ». And they fall down to their faces weeping, having been deeply touched by the exhortations of the Koran which intensify their humility as their knowledge and conviction of the Lord is increased by hearing it recited ».

(Alucy's Commentary).

And :

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

ويعلم أوتو العلم الذين آمنوا من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وأضرابهما أن القرآن من عند الله و يوصل الى توحيد وتقوى الله الذى يقهر ولا يقهر المحمود فى جميع شئونه عز وجل

ترجمة هذا التفسير

« The learned ones among the people of the Scriptures unto whom knowledge is given, and who believed in the Koran as Abdullah Ibn Salam and Kaabul Ahbar and others, know that the Koran is come from the Lord and that it leadeth to the belief in the unity of God and fear thereof, He who conquereth but is never Himself conquered, he who is praiseworthy in all His concerns ».

(Alucy's Commentary).

And :

« وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

واذا سمع الذين قالوا إنا نصارى القرآن رأيت أعينهم فائضة من الدمع وذلك لرقة قلوبهم وخشيتهم ومسارعتهم الى قبول الحق وعدم إبائهم إياه . فائضة من الدمع بسبب عرفانهم بعض الحق فكيف لو عرفوه كله وقرءوا القرآن وأحاطوا بالسنة . يقولون يا ربنا صدقنا

« The story of Joseph is one of the unknown histories which no one could at all divine and which We revealed unto you You were not present with Joseph's brethren when they resolved to cast him down to the bottom of the well and plotted his destruction. This history was made known to you only through revelation, for you were not present with joseph's brethren at the time when they contrived casting him down to the bottom of the well It is established even to those who gainsaid you that you have derived this knowledge from no one ».

(Alucy's Commentary).

It is because of this knowledge that the well-versed among the people of the Scriptures doubted not his prophethood as signified by the following verses :

« إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً »

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

إن العلماء الذين قرءوا الكتب لسالفة من قبل تنزل القرآن وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة وتمكنوا من تمييز الحق والباطل والمحق والمبطل ، أو رأوا نعتك و نعت ما أنزل اليك إذا يقرأ القرآن عيهم يسقطون بسرعة على وجوههم ساجدين تعظيما لأمر الله تعالى أو شكراً لانجاز ما وعد به فى تلك الكتب من بعثتك ، و يقولون فى سجودهم تنزه ربنا عن خلف وعده ، إنه كان ما وعد به ربنا لكائن . ويسقطون كذلك على وجوههم باكين لما أثر فيهم من مواعظ القرآن ، ويزيدهم القرآن بسماعهم خشوعاً لما يزيدهم علماً و يقيناً بأمر الله تعالى .

ترجمة هذا التفسير

« When the Koran is recited to the learned people who have read the books of old, prior to the revelation of the Koran, and recognised the truth of revelation as well as the true signs of prophethood, and were able to distinguish between right and wrong and true and false, or have recognised your qualities and features of what hath been revealed unto you, when

وذلك يقتضى التصديق بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام والحذر مما نزل بالمكذبين . ما كان لديك أنت ولا قومك عنها بل كانت مجهولة عندك وعندهم من قبل هذا الايحاء . وإذ قد أوحيناها اليك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح عليه السلام على ما سمعته من أنواع البلايا فى هذه المدة المتطاولة . إن العقبى بالظفر فى الدنيا والفوز فى الآخرة للذين اتقوا ربهم

ترجمة هذا التفسير

« The story of Noah mentioned before is one of the unknown histories of great import for the details thereof were, on account of its great antiquity, known only to the Lord, and its revelation unto you necessarily entails belief in your prophethood and caution against the fate of those who gainsaid it. Neither you nor your people were given knowledge thereof but it was unknown to you before its revelation. And now that We have revealed it unto you, thou shouldst suffer patiently the afflictions and persecutions which befall thee in course of delivering the message as Noah hath suffered with tolerance all sorts of afflictions for that prolonged period; for success in this world and the hereafter will indeed be assigned to those who fear their Lord ».

(Alucy's Commentary).

And :

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

إن ما ذكر من أنباء يوسف عليه السلام هو بعض أنباء الغيب الذى لا يحوم حوله أحد موحى اليك من لدنا . وما كنت لدى اخوة يوسف عليه السلام حين أجمعوا أمرهم بجعلهم إياه فى غيابة الجب وهم يمكرون به ويبغون له الغوائل . فهذا النبأ غيب لم تعرفه الا بالوحى لأنك لم تحضر اخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه فى غيابة الجب ، ومن المعلوم الذى لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك فتعلمته منه .

ترجمة هذا التفسير

connection with the revelation of the Koran to Mohammad « This is the Nomos that was wont to descend upon Moses ».

« قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الآلوسى

قل يا محمد إن الله جل وعلا قد أظهر على رسالتى من الأدلة والحجج ما فيه غنى عن شهادة شاهد آخر فهو خير شهيد بذلك ، كما يشهد به من عندهم علم التوراة والانجيل وهم الذين أسلموا من أهل الكتابين كعبد الله بن سلام وأضرابه فانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام فى كتابهم

ترجمة هذا التفسير

« Say, Mohammad ! that God in His glory, hath made manifest such evidence testifying to the truth of my mission as to render superfluous the evidence of any other witness for the Lord is the best of witnesses, also that those who are given the knowledge of the Law and the Gospel can testify thereto, their being of the people of the two Scriptures who adopted Islam as Abdullah Ibn Salam and others who testified to the qualities of Mohammad given in their Book ».

(Alucy's Commentary).

This is one of the greatest proofs of the prophethood of Mohammad. He announced unto his people such precepts and injunctions as were enjoined by other prophets; yet such knowledge was conveyed to him by no living creature. For indeed, such things were within the region of the unknown to which neither he nor any one else could penetrate except through divine revelation as saith the Lord in the following verses :

« تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الآلوسى

إن قصة نوح عليه السلام المذكورة قبل هى بعض أخبار الغيب التى لها شأن . وكونها بعض ذلك باعتبار أنها على التفصيل لم تبق لطول العهد معلومة لغيره تعالى . موحاة اليك

read a book or penned a single letter with his own hand and in this connection the Lord saith :

« وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ »

تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

وما كنت من قبل إنزالنا اليك الكتاب تقدر على أن تتلو كتاباً ولا تقدر على أن تخطه بيمينك إذ لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لارتاب مشركو مكة المبطلون وقالوا لعله التقطه من كتب الأوائل ، وحيث لم تكن كذلك لم يكن لارتيابهم وجه .

ترجمة هذا التفسير

« Thou couldst not recite any book before the revelation of the Koran unto thee, neither couldst thou transcribe one with thine own right hand, for hadst thou been able to read and write, the polytheists of Mecca who gainsaid the truth of the Koran and said mayhap he (Mohammad) had picked it up from the books of the ancients, would have doubted the divine origin thereof; but this not being so, they have no ground for doubt ».

(Alusy's Commentary)

The people among whom Mohammad was brought up, were not only unacquainted with the history of the prophets and their mission, but were moreover hopelessly steeped in ignorance and polytheistic beliefs and believed not in the future life. Monotheism was completely unknown to them and the idea of the unity of the Godhead never presented itself to their minds. They believed in the plurality of gods and the association of others with the Almighty Lord.

An examination of the Koran and the Law (Old Testament) will reveal their total agreement in regard to the fundamental precepts such as that of the unity of God, the prophetic attributes and the injunctions ordained by the Lord. Once this conclusion is reached, it would be easy to recognise the truth of the comment of the Negus of Ethiopia who, on hearing the Koran recited exclaimed « Verily this and that which was revealed unto Moses issue from the one and same source »; as also of the remark volunteered by Waraka Ibn Nowfal who said in



English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

The Prophet Mohammad [1]

(Continued)

Among other proofs testifying to the truth of the claimant to prophethood, is the announcement by former prophets of his advent. Such, indeed, was the case with Mohammad whose advent was announced by Christ and the prophets prior to him.

The truth of the claimant to prophethood could be further attested to by his inculcating some similar precepts such as were ordained by other Prophets. For as the ignorant and iniquitous judge is liable to go, in his judgment, contrary to the established rules followed by learned and righteous judges, and as the ignorant jurisconsults or quacks are liable to go in their practices, off the beaten track of their respective profession, so it is with the lying impostor who claims prophethood, he is bound to deviate from the fundamental principles on which all true prophets concur as for instance the unity of God, the prophetic attributes and the future life.

The ignorance and imposture of all such claimants are bound to be exposed on account of their contradiction to the established rules in the fields of learning and truth.

It is an established fact that Mohammad was illiterate and that he was brought up among an altogether illiterate people. Indeed he had never

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's Book « *Messages of Peace* ».

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي



الجزء الثاني | صفر سنة ١٣٥١ | المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف (سابقا)
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الاداره

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش
داخل القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصري	٥٠
الطلبة معاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية

١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الرفق بالحيوان

أقام الاسلام هدايته على أساس الرحمة المحفوفة بالحكمة، والرحمة تبعث النفوس مبعث الرفق والإحسان، والحكمة تقف بالرحمة عند حدود لو تجاوزتها انقلبت إلى ضعف ورعونة، وعلى هذا الطريق الوسط جاءت الأحكام والآداب الخاصة بالتصرف فى الحيوان.

أذن الاسلام فى أكل الطيب من الحيوان، ونبه بهذا الإذن على خطأ أولئك الذين يقبضون أيديهم عن تذكيته أو أكله بدعوى الرأفة أو الزهد، وأباح استعماله فى نحو الركوب والحراثة وحمل الأثقال وقد امتن القرآن الكريم بهذه الضروب من الاستمتاع المألوف بين العقلاء فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

امتن الله تعالى فى كتابه العزيز بما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها وجلودها من الملابس والفرش والبيوت، وبما يتغذى به من ألبانها ولحومها، وبما هيئت له من حمل الأثقال، وهذه المنافع من أهم ما ينتظم به حياة الانسان.

وقال تعالى : (وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فذكر فى هذه الآية أهم ما خلقت له الخيل والبغال والحمير من المنافع وهو الركوب ، وفى الركوب راحة البدن ، وسرعة الانتقال من مكان الى مكان ، والراحة من متممات الصحة ، وسرعة الانتقال حفظ للوقت من أن يذهب فى غير جدوى .

امتن الله تعالى بالأنعام والخيل وما عطف عليها ، ونبه على ما فيها من جمال وزينة ، وفى هذا ما يرشد الى أن يكون الاستمتاع بها فى رفق ورعاية ، فإن إرهاقها أو قلة القيام على ما تستمد منه حياتها ، يجعل نفعها ضئيلا ، ويذهب بما فيها من جمال وزينة .

كان للعرب قبل الاسلام عادات تحرمهم من الانتفاع ببعض أفراد الحيوان وفيها قوة على أن ينتفعوا بها ، ومن هذا القبيل الناقة المسماة بالسائبة ، وهى الناقة التى يقول فيها الرجل . اذا قدمت من سفرى ، أو برئت من مرضى فهى سائبة ، ويحرم ركوبها ودرها ، والوصيلة وهى أن تلد الشاة ذكرا وأنثى فيقولون : وصلت أخاها ، فلا يذبح من أجلها الذكر ، والجمل المسمى بالحام ، وهو الفحل الذى ينتج من صلبه عشرة أبطن ، فكانوا يقولون : قد حمى ظهره ويمتنعون من ركوبه والحمل عليه ، والبحيرة وهى الناقة التى تنتج خمسة أبطن آخرها ذكر ، فإنهم كانوا يبحرون أذنها أى يشقونها ، ثم يحرمون ركوبها ودرها .

ثم جاء الاسلام فرأى من الحكمة تعطيل الحيوان وهو صالح لأن ينتفع منه ، فنهى عن هذا التعطيل الناشئ عن سفاهة الرأى ، فقال تعالى : (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) .

وكان للعرب عادات يسومون فيها الحيوان سوء العذاب ، ومن هذه العادات ما يفعلونه لموت كريم القوم إذ يعقلون ناقته أو بعيره عند القبر ويتركونها فى حفرة

لا تطعم ولا تسقى حتى تموت ؛ ومن هذا الباب شقهم لآذان الأنعام كما قصصنا عليك عادتهم فى البحيرة ، وهو ما أشار القرآن الى قبحه إذ جعله مما يأمر به الشيطان فقال تعالى : (وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ) .

ما زال الحيوان كسائر الأمتعة تحت يد مالكه يفعل فيه كيف يشاء ، واذ ناله رفق فمن ناحية عاطفة الانسان على ما يملك لتطول مدة انتفاعه به ، ولكن الاسلام أرشد الى أن الحيوان فى نفسه حقيق بالعطف ، فغرس له فى القلوب عطفا عاما ، واستدعى له الرحمة حتى من قوم لا ينتفعون أو لا يرجون أن ينتفعوا به فى حال ، وجعل الرفق به من قبيل الحسنات التى تذهب السيئات ، وتنال بها المثوبة عند الله .

أذن الاسلام فى قتل الحيوان المؤذى كالكلب العقور والفأرة ، وأمر بالإحسان فى القتل فقال صلى الله عليه وسلم : (إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة) وأذن فى ذبح الحيوان للاستمتاع بالطيب من لحومه ، فقال صلى الله عليه وسلم . (واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته) .

قد يخطر على البال أنه متى أذن فى قتل الحيوان أو ذبحه فللانسان أن يتخذ لإزهاق روحه ما شاء من الطرق أو الوسائل ، فقصد الشارع الحكيم الى دفع هذا الخاطر وإرشاد الناس الى اتخاذ أحسن الطرق فى القتل أو الذبح ، فلا يجوز إحراق ما أذن فى قتله أو التمثيلُ به ، ويجب إرهاف آلة الذبح حتى لا يلاقى الحيوان قبل إزهاق روحه آلاما ، وقد ذكر أهل العلم آدابًا اقتبسوها مما جاءت به الشريعة من أصول الرفق بالحيوان ، فقال عمر رضى الله عنه : « من الإحسان للذبيحة أن لا تجر الذبيحة الى من يذبحها » وقال ربيعة : « من الإحسان أن لا تذبح ذبيحة وأخرى تنظر اليها » وقالوا : يستحب للذابح أن لا يحد شفرته بحضرة الذبيحة ، وأن لا يصرعها بعنف .

أباحت الشريعة صيد الحيوان بنحو الجوارح والنبال والشباك، لينتفع منه الانسان بما يحل الانتفاع به، ومنعت من أن ينصب الحيوان غرضا ليرمى بنحو النبال، ومما نقرؤه في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: (لا تتخذوا شيئاً فيه الروح[1] غرضا » وفي صحيح الامام مسلم (مر ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضا »

ووردت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضل سقي الحيوان وإطعامه، وعدها من عمل الخير الذي تنال به الزلفى عند الله، قال صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة[2]).

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب ثم خرج فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه. فسقى الكلب فشكره الله فغفر له، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر[3]).

وانظر إلى قولهم: « وإن لنا في البهائم أجرا » تره كيف كانوا يستهينون بأمر الحيوان ولا يعتقدون أن الإحسان إليه يبلغ مبلغ الإحسان الى الانسان فيستحقون عليه أجرا، وكيف يكون حال حيوان وقع تحت يد من لا يعتقد أنه سينال بالإحسان اليه ثوابا، ويلقى من أجل القسوة عليه عذابا؛

(١) صحيح الامام مسلم (٢) صحيح الامام البخاري (٣) صحيح البخاري.

وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (عذبت امرأة فى هرة لم تطعمها ولم تسقها ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض[1]) والوعيد بعقوبة النار على الأمر يدل على أنه من المحظور حظرا لا هوادة فيه ، ومن ذا يخطر على باله قبل هذا أن يكون لحيوان كالهرة حرمة تبلغ فى الخطر أن يعاقب من ينتهكها بعذاب النار ؟ .

وقرر الفقهاء وجوب القيام على سقى الدابة وإطعامها ، بأن يعلفها أو يرعاها بنفسه أو يكل لغيره رعيها ولو بأجر ، ولم يختلفوا فى وجوب ذلك عليه ، وصرح طائفة منهم بأنه يجبر عليه قضاء ، فإن لم يفعل بيعت عليه الدابة ، ولا تترك تحت يده تقاسى عذاب الجوع ، ومما نقرؤه فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر ببعير قد لحق ظهره ببطنه فقال : (اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة[2] ، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة[3]) .

وتحرم الشريعة الإساءة إلى الحيوان بتحميله من الأثقال ما لا يطيق ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يعرفون أن من حمّل دابة ما لا تطيق حوسب عليه يوم القيامة ، يروى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال لبعير له عند الموت : يأيها البعير لا تخاصمنى الى ربك ، فإنى لم أكن أحملك فوق طاقتك . وقال الغزالى فى الحديث عن الرفق بالدابة وعدم تحميلها ما لا تطيق « والمحِمل[4] خارج عن حد طاقتها ، والنوم عليها يؤذيها ويثقل عليها » وقال : « كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قعود » .

وإنما يجوز الحمل على ما يطيق الحمل كالإبل والبغال والحمير ، ولا يجوز الحمل على ما لم يخلق للحمل كالبقر ، قال ابن العربى : لا خلاف فى البقر أنه لا يجوز أن يحمل عليها . وذهب كثير من أهل العلم الى المنع من ركوبها ، نظرا الى أنها لا تقوى على الركوب ، وإنما ينتفع بها فيما تطيقه من نحو إثارة الأرض وسقى الحرث

(١) البخارى ومسلم . (٢) التى لا تقدر على النطق . (٣) سنن أبى داود .

(٤) المحمل . شقان على البعير يحمل فيهما العديلان ، ويقال أول من اتخذه الحجاج بن يوسف الثقفى .

ومن الرفق بالدابة أن لا يركبها ثلاثة أشخاص يكون عبئهم عليها ثقيلا ، أخرج ابن أبي شيبة عن زاذان أنه رأى ثلاثة على بغل ، فقال : لينزل أحدكم فإن رسول الله صلى عليه وسلم لعن الثالث ، وأخرج الطبرى عن على رضى الله عنه أنه قال . « إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجموهم حتى ينزل أحدهم » ومحمل هذه الآثار على حال ما إذا كان ركوب الثلاثة يرهق الدابة ، فإن كانت تطيق ذلك كالناقة أو البغلة يركبها رجل وصبيان مثلا ، فليس به من بأس ، ولا سيما ركوبها فى مسافة قصيرة ، وهذا ما كان من النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم مكة راكباً على بغلته فاستقبله أغيلمة من بنى عبد المطلب ، فحمل واحداً بين يديه ، والآخر خلفه .

ومن الرفق بالحيوان تجنب أذيته فى بدنه بنحو الضرب الأليم ، والإشعارُ الوارد فى بُدن الهدى ليس إلا جرحا فى سنام البعير بنحو المبضع ، ليكون علامة على أنها هدى ، وأما طعن البدنة بنحو السنان حتى يتجاوز الجلد إلى اللحم فإنما يرتكبه الجهال ، ولا يختلف العلماء فى تحريمه .

وورد النهى عن خصاء البهائم كما جاء من حديث ابن عمر (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يخصى الإبل والبقر والغنم والخيل [١]) وبهذا احتج فريق من أهل العلم على أنه لا يحل خصاء شيء من الفحول ، وأفتى فريق بجوازه متى دعت إليه مصلحة كأن يخاف عضاضه ، وإذا وجد طريق لمثل هذه المصلحة من غير الخصاء لم يبق موضع للخلاف لأنه تعذيب ، وقد نهى الشارع عن تعذيب الحيوان .

ومن الرفق بالدابة أن لا يتابع السير عليها متابعة ترهقها تعباً ، قال صلى الله عليه وسلم : (إذا سافرتم فى الخصب فأعطوا الإبل حظا من الأرض [٢]) وفى رواية (ولا تمدوا المنازل) .

---

(١) شرح معانى الآثار للطحاوى . (٢) مسلم وأبو داود .

وورد فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يبقين فى رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة[1] إلا قطعت) فذهب بعض أهل العلم فى فهم الحديث مذهب الرحمة بالحيوان وقال : إنما أمر بقطع القلائد من أعناق الإبل مخافة اختناق الدابة بها عند شدة الركض ، ولأنها تضيق عليها نفسها ورعيها ، وكراهة أن تتعلق بشجرة فتخنقها أو تعوقها عن المضى فى سيرها .

ومن المحظور وقوف الراكب على الدابة وقوفا يؤلمها ، وقد ورد فى النهى عن هذا الصنيع حديث (إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس[2]) وذكر الغزالى أن أهل الورع من السلف كانوا لا يقفون على الدواب الوقوف الطويل .

ومن الفنون التى يسلكها قساة القلوب فى تعذيب الحيوان تهييج بعض الحيوان على بعض ، كما يعمل بين الكباش والديوك وغيرها ، وهو من اللهو الذى حرمته الشريعة لما فيه من إيلام الحيوان وإتعابه فى غير فائدة ، وفى سنن أبى داود والترمذى «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم» والتحريش بينها إغراء بعضها على بعض .

وإن شئت أن تزيد يقينا بما جاء به الاسلام من الرأفة بالحيوان فانظر الى ما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه إذ قال : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرة[3] معها فرخان فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش[4] ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها اليها ، ورأى قرية نمل قد أحرقناها ، فقال : من أحرق هذه ؟ قلنا : نحن ، قال : إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار[5] » .

---

(١) أمر بقطع ما تقلد به من وتر القوس ثم أمر بقطع كل قلادة من أى صنف كانت . (٢) رواه أبو داود . (٣) ضرب من الطير ، وقيل الحمرة القبرة . (٤) ترتفع وتظلل بجناحيها . (٥) أبو داود .

وقد نص علماؤنا على حرمة تمكين الصبي من التلهي بالطير على وجه فيه إيلام له، وأمّا ما ورد في الحديث من أن ابنا فطيما لأم سليم كان يلعب بنُغَر [1] فمحمول على أن ذلك التلهي لم يكن بحال تعذيب، كأن يكون الطير في قفص أو نحوه، أو يكون التلهي بحضر أحد أبويه وهما يعلمان ما جاءت به الشريعة من النهي عن تعذيب الحيوان.

أما شتم الحيوان ولعنه، فأدنى ما يقال فيه أنه لغو من القول لا يصدر إلا عمن شأنه الرمى بألفاظ الشتم واللعن دون تدبر في معناها ولا قصد إلى موضعها، بل وردت الأحاديث في الزجر عن لعن الحيوان بطريقة بالغة، فإنا نقرأ في صحيح مسلم «أن امرأة كانت على ناقة فضجرت منها فلعنتها، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال: (خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة) وإنما أمر بإعراء الناقة مما عليها وإرسالها عقوبة لصاحبتها، وفي رواية (لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة) وفي هذا الأسلوب من النهي مبالغة في الزجر عن لعن الحيوان، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعمد إلى الشيء الذي قد يظنه الناس هينا فيزجر عنه بطريق أشد حتى ينصرفوا عنه جملة.

ومن فوائد النهي عن لعن الحيوان تطهير الألسنة من التعود على قول السوء، ومتى ارتدعت النفوس عن لعن ما لا يفهم للعن معنى، كان ارتداعها عن لعن من تثور ثائرة غضبه أو غضب بعض أوليائه إذا لعن، أقرب وأولى.

هذه شذرات مما أوصى به الإسلام من الرفق بالحيوان، وإن شئت أن تعلم كيف كان أثرها في نفوس من يقتدون بآدابه في كل حال، فإليك مثلا من آداب الشيخ أبي إسحاق الشيرازي إذ كان يمشي في طريق يرافقه فيه بعض أصحابه، فعرض لهما كلب فزجره رفيق الأستاذ، فنهاه الأستاذ، وقال له: أما علمت أن الطريق بيني وبينه مشترك

(١) اسم لنوع من الطير. وقد بلغ هذا الخبر النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينقل إنكاره له.

فقد رأيت كيف حاربت الشريعة السمحة طبيعة القسوة على الحيوان ، وقررت للتصرف فيه أحكاما مبنية على قاعدة الرفق بكل ذى كبد رطبة ، ولعلك تنتبه مما تلوناه عليك أن الاسلام قد وضع لجمعيات الرفق بالحيوان أساسا يقيمون عليه دعوتهم ، وما من نفس أو جمعية تدعو الى ناحية من الخير إلا وجدت فى هذه الشريعة ما يؤيد دعوتها ، ويهديها سبيل الرشد اذا تشابهت السبل عليها .

ومما تضطرم له القلوب أسفا أن تؤسس جمعيات الرفق بالحيوان فى بلاد أوربا منذ نحو مائة سنة ، ويرتفع صوت الدعوة الى الرحمة بالحيوان أكثر مما يرتفع فى بلاد الاسلام ، حتى ظن كثير من الأحداث والعامة الذين يقيسون الأديان بسير المنتمين اليها أن الاسلام لم يوجه عنايته الى حق الشفقة على الحيوان ، وأن أوربا هى صاحبة الفضل فى لدعوة الى هذه الشفقة .

أنشئت فى انكلتره جمعية الرفق بالحيوان الملكية سنة ١٨٢٤ ومما يثير الخجل أن يكون لتلك الجمعية فرع فى بلد إسلامى كالقاهرة ولا يقوم بمثل عملها جماعة من المسلمين وقد أيقظ الدين الحنيف فى قلوب أسلافهم عاطفة الرحمة بالحيوان منذ ١٣٥٠ سنة .

واذا احتاج الانسان الى حماة وهو يملك من البيان ما يعبر به عن حاجته ويدافع به عن حقه ، كان الحيوان الأعجم أشد احتياجا الى من يستجدى له الرحمة ويدفع عنه البلاء بيده إن استطاع ، أو بلسانه .

هـذا والأمل معقود على أن تؤلف فى أوطاننا جمعيات لمراقبة تصرف الناس فى الحيوان حتى اذا رأت صاحب الحيوان يرهقه بحمل الأثقال أو يناله بأذى ، سعت بما تستطيع من طرق النهى عن المنكر الى إزالة ما تشهده من الإرهاق أو الأذى ، فيكون لها حمد الناس فى الدنيا وثواب الله فى الآخرة ؟

محمد الخضر حسين



سورة النور

٤

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) .

هـذا من متممات الحكم السابق ، فبعد أن بيّن ما فى جريمة الزنى من الفحش والمقت وسوء السبيل ، وما يستحقه مرتكبها من العذاب والتنكيل ، وكان الأمر الشنيع مما يترامى به الخصوم المتغاضبون غالبا وهم تحت تأثير الغضب ، فينال المرء من خصمه فى هذه الحال ما يخدش به كرامته ، ويهدم به شرفه ، ويجلب العار على أسرته وذويه ، أردفه بعقوبة من يقع فى ذلك السباب الفاحش صونا للشرف والعرض والآداب أن تدنس وتمتهن ، فبيّن حكم من يرمى المحصنات أو المحصنين بتلك السبة الشنيعة على ما مر .

ولما كان الزوج عرضة لأن يضطر الى رمى زوجته بهذا الأمر صونا لشرفه ، واحتفاظا بنسب أولاده ، وغيرة على كرامته ، وقد يكون صادقا فى رميه إذ يكون قد استيقن ولكنه عجز عن إثبات ما رأى بحضور الشهود المطلوبين لإثبات ما رمى به ، فإن بين الزوجين من المفاجآت الانفرادية ما لا يكاد يتيسر معه إحضار الشهود فى حال تلك المفاجآت المنكودة ، لطف الله بعباده فشرع لهم المخلص من هذه الداهية الدهياء بهذا الحكم حكم اللعان ، رحمة منه بالمصاب ، وإنقاذا له من هذه المآزق المحرجة .

روى أنه لما نزلت الآية السابقة فى حكم القذف وكانت عامة للزوجين وللأجانب ففهموا منها العموم ، قال سعد بن عبادة : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم » : فقالوا : يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، ولا طلق امرأة فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها لشدة غيرته ، فقال سعد : والله إنى لأعلم أنها حق ، وأنها من عند الله ، ولكنى تعجبت أنى لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته : قالوا فما لبثوا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنى جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعينى وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتى به واشتد غضبه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام هلال بن أمية وتبطل شهادته ، فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجا ، وقال : يا رسول الله إنى أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم إنى لصادق ، فنزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام الوحى ، وكانوا يعرفون علاماته ، فأمسكوا حتى فرغ من الوحى فنزلت الآية

فسرى عنه صلى الله عليه وسلم فقال « أبشر يا هلال فوالله لقد كنت أرجو ذلك من ربى » ثم أرسل اليها فجاءت فتلاها عليها ، وذكرها عذاب الآخرة وأنه أشد من عذاب الدنيا ، فقالت : لقد كذب ، وأصر هلال على قوله ، فقال عليه السلام : « لاعنوا بينهما » فكان ذلك سبب نزول الآية ، وكان لعانهما أول لعان فى الاسلام . وقيل نزلت فى عاصم بن عدى ، وقيل فى عويمر بن نصر العجلانى .

وإنما سقنا هذه القصة لأنها مع كونها بيانا لسبب النزول تبين لنا كيف كان تشريع الأحكام تدريجيا على حسب الحوادث وكان مترقبا لهم ، فيجىء الحكم وقد تشوفوا له ، فيتمكن فى النفوس فضل تمكن ، ويعين على امتثاله بقبول وفضل إيمان إذ تتجلى حكمة الحكم تجليا يبين ما فيه من رحمة الله وفضله (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) ويتجلى فيها ما كان يملأ نفوسهم من اليقين بحكمة ربهم ولطفه بهم ، حتى إن أحدهم ليقسم إنه يرجو أن يجعل الله له مخرجا ، ويظهر مع هذا عظيم خضوعهم واستسلامهم لما يأمر به ربهم ، وإن كان على خلاف ما تهوى نفوسهم ، وأنهم مهما قامت فى نفوسهم الشبه لم يؤثر ذلك فى إيمانهم بأن ما يبلغهم الرسول حق وأنه من عند الله ، وكل ما يبدو منهم هو التعجب لا الإنكار ، ومنشأ التعجب ما عهدوه من اطراد الرحمة فى حكم الله بالنسبة إليهم فضلا منه ورحمة ، لا وجوبا عليه وإلزاما (وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ) .

والتعبير بالرمى هنا وفيما مر للإشارة إلى أن الكلمة متى انطلقت من فم قائلها فقد نفت زمامها من ملكه وأصبح لا يملك ردها ، فهى كالسهم يرمى به فلا تعود اليد قادرة على رده ، فليحتفظ من يهم بالرمى والأمر فى يده حتى لا يندم حيث لا ينفعه الندم . وحذف المرمى به لعلمه من السياق لمجيئه بعد الآية السابقة ، وصونا عن

تكرار هذا اللفظ الذى يحفه الفحش من كل ناحية ، فمن كمال الأدب عدم التصريح بالمستنكرات إلا بمقدار الضرورة ، أو فى مقام التشنيع والتهويل والتفظيع .

وقوله تعالى . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) — الشهداء جمع شهيد ، وهو من يعم علم الشهود والحضور لا الظن والتخمين ، ففيه الإشارة الى أن هذا أمر لا ينبغى الإقدام عليه لمجرد الظنة ، فإنه أمر جلل ، وشيطان الغيرة قد يلعب بالنفوس فيقيم من الأوهام صرحا مشيدا ، فدفع هذا بالتعبير بالشهداء . وقوله : (إِلَّا أَنْفُسُهُمْ) أى إلا شهادة أنفسهم ، كأنه أقيم كل شهادة يقولها مقام شاهد مثبت ، وإلا فالشهادة فى العرف الشرعى هى الإخبار بحق للغير على الغير ، ويقابلها الدعوى ، وهى الإخبار بحق للنفس على الغير ، والإقرار ، وهو الإخبار بحق للغير على النفس .

وقوله : (فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ) — المراد هنا كل واحد منهم ، فالأحد يتكرر بتكرر الرامين ، وقد قرئ أربع بالرفع على أنه خبر شهادة ، وبالنصب على أنه مفعولها لأنها مصدر ، ويكون شهادة مبتدأ محذوف الخبر ، أو خبرا لمحذوف ، أى فالواجب فى شأنهم شهادة ، أو فعليهم شهادة ، ولفظ بالله متعلق بشهادات ، ولا يضر فى ذلك أنه جمع والجمع يبعد المصدر عن شبه الفعل ، فإن الجار والمجرور يكفى فيه رائحة الفعل على ماذكره النحاة .

وقوله : (إِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ) — أصله مجرور تعلق بمحذوف ، أى يشهد على أنه لمن الصدقين ، فحذف الجار وكسرت همزة إن وعلق الفعل باللام ، والتعليق وإن كان خاصا بالأفعال القلبية ، فإن الشهادة متضمنة معنى العلم وإن كانت فعلا لسانيا ، فألحقت بأفعال القلوب ، ومن يرى أن هذه الشهادة من باب القسم واليمين يرى كسر الهمزة لوقوعها فى جواب القسم .

ومعنى الآية أن من رمى زوجته بالزنى فقد قذفها ، فهو بين أن يثبت ما رماها به فينجو من حد القذف ، وألا يثبت فعليه حد القذف كالأجنبية ، إذ يلحقها ويلحق

قومها من جراء هذا القذف ما لا يقل عاره ودنسه عن رمى الأجنبي ، ولكن لما كان الزوج من شأنه أن يتصل بزوجه على انفراد ويفاجئها ولا أحد معه فيشق عليه الإثبات بالشهادة ، فإن تكلم تكلم بأمر خطير، وإن سكت سكت على أمر جلل لا يطيقه ولا يتحمله ، فإنه يلحقه بذلك من تلويث فراشه ، وامتهان كرامته ، والاعتداء على حقه ، وإلحاق الأجنبي عنه بنسبه يشاركه فى ماله بوجوب نفقته عليه ، ويرثه بلا حق أو يزاحم ورثته كذلك ، كان من لطف الله بعباده أن شرع لهم حكم اللعان لتخليص من هذا الحرج ، وأباح للزوج أن يستقل بالإثبات بأن يشهد تلك الشهادات المكررة ويردفها بلفظ الجلالة تهويلا فى الأمر ، ثم يردف الشهادات الأربع باستيجاب اللعنة على نفسه واستحقاقه البعد عن رحمة ربه إن كان من الكاذبين

ولما كان مثل هذا العمل لا يستحيل أن يكون ناشئا عن ريبة أحسها الزوج ولم يصل الى وقوع تلك الفاحشة ، وتكون نيران الغيرة والحمية قد نفخت فى منخره حتى خال التخمين يقينا ، وقد قالوا : « إن الحريص بسوء ظن مولع » فلو جعلت كلمته ضربة لازب على زوجه ، وحرمت من باب تنقذ نفسها منه أن لو كانت فى الواقع بريئة ، لكان فى ذلك إجحاف بحقها، شرع لها المخلص الذى يدرأ عنها العذاب ، وهو أن تقابل شهاداته بشهادات أربع مثلها ، وتأتى فى الخامسة بما هو أشد من خامسته ، وهو استحقاقها غضب الله إن كان من الصادقين . والغضب أشد من اللعنة ، فإن اللعنة هى الطرد والبعد من الرحمة ، وأما الغضب فهو السخط وإنزال المقت والعذاب ، ولا يلزم من البعد عن الرحمة إنزال السخط ، كما تقول : فلان لا يستحق منى عطفا ولكن لا أريد أن أضره . وإن كان الحرمان من رحمة الله مما لا قبل لمخلوق باحتماله . فلما كانت هى أصل البلية ومنشأ هذا الفجور بأطماعه وخيانتها أمانة من ائتمنها ، غلظ عليها باستيجابها الغضب على نفسها .

هذا على فرض كذبها، وعلى فرض كذبه هو يكون الواقع منه سب البرىء، وهو أهون من ارتكاب فاحشة الزنى، ولذلك اكتفى منه باستيجاب اللعنة على نفسه. وقد ذكر الفقهاء فى حكم اللعان أنه يجب التصريح بالمشهود عليه، وهو إردف كلمة من الصادقين أو من الكاذبين بكلمة فيما رماها به من الزنى، ليكون المحلوف عليه أو المشهود عليه واضحا جليا لا لبس فيه ولا احتمال للتأويل والمخلص، وهذا شأن ما يجرى بين الناس فى كبريات الأمور ومخاطرها حتى لا يكون عرضة للتلاعب بالتأويل. ولا ينافى هذا عدم التصريح به فى الآية الكريمة، لأن الآية من باب التعليم وذلك كاف فيها، وحسن الحذف أن الشنائع المستنكرة مما يحسن أن يصان عنه اللسان والسمع.

والتعبير بهذه الصيغة وهى « إنّ » المعقبة بلام التوكيد وجعل الخبر من الصادقين، فيه من التأكيدات ما فيه، فإنّ واللام أمرهما ظاهر، وعبارة من الصادقين زيادة فى التوكيد، كأنه جعل وصف الصدق ثابتا له يعرف به حتى ينخرط فيمن عرفوا بوصف أنهم صادقون.

وقراءة حفص برفع أربع والخامسة وتشديد أن، وقرئ بنصبهما، وقرئ بتخفيف أن ورفع لعنة.

وقوله تعالى: (وَيَدْرَأُ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ. وَٱلْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ) يفيد أن العذاب والحد والرجم قد استحق عليها بلعان الزوج، ولكن لها مخلص اذا سلكته تدفع عن نفسها ما وجب عليها، وذلك مأخوذ من قوله: (وَيَدْرَأُ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ) فالدرء الدفع، وإنما يكون بعد توجهه، وكلمة العذاب بأل تفيد أنه ذلك العذاب المستحق على مرتكب تلك الجريمة، وهو الرجم إذ كانت محصنة

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم وعظهما أولاً ، وخوفهما عذاب الآخرة ، فلما جاء دورها أعاد عليها العظة وقال : إن الرجم فى الدنيا أخف من غضب الله فى الآخرة . وروى أنه أمر من يضع يده على فيهما عند الخامسة ليحول بينهما وبين التورط فيما اندفعا فيه ، وليترك لهما فرصة للتبصر عساهما يتعظان ويرجعان ، ولكنهما تمادت . وقد أخذ من ذلك أنه يسن للقاضى ألا يتركهما و ندفاعهما ، بل يذكرهما ويعظهما ويسهل لهما سبيل الرضا بالحد ، بل يهىء لهما فرصة ، وبخاصة عند الشهادة الخامسة .

ومتى لاعن الزوج حرمت عليه وقضى بالتفريق بينهما ، فقيل : الفرقة بتفريق القاضى ، وقيل مجرد اللعان موجب للفرقة وإن لم يقل القاضى فرقت ؛ ثم قيل : إنها حرمة مؤبدة ؛ وقيل كالطلقة البائنة : يجوز له أن ينكحها اذا عاد وكذب نفسه وحد . وقد قرئ بتخفيف أن ورفع غضب ؛ وقرئ بتخفيفها ولفظ غضب بصيغة الماضى .

ولما كان هذا الأمر على شناعته لا بد من الابتلاء به ، فإن الانسان هو الانسان والشيطان هو الشيطان ، والإغواء دأبه ، وضعف الانسان وانهزامه أمام جيوش الشهوات ووساوس الشيطان لا بد أن يكون ولو على وجه الندرة ، كان من الرحمة والفضل هذا التشريع ، فقال تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) . والفضل هو الزيادة فى الإحسان ، والرحمة هى الصفة التى يكون أثرها الإحسان ؛ وكان الإتيان بها بعد لفظ الفضل لبيان أن هذا الإحسان الذى تشهدون آثاره هو ناشئ عن صفة ذاتية لدى الحق جل جلاله : لا يخشى عليه الانقطاع ولا يعتريه النفاد .

وقوله : (وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ) معنى التواب حين يسند الى الله تعالى : الذى يقبل التوبة من عباده كثيرا ، فكلما تاب العبد توبة صادقة قبلها منه وإن وقع بعد ذلك فى جريمة ؛ والحكيم الذى يراعى الحكمة فى أفعاله وأحكامه . وإنما حذف جواب لولا للإشارة الى أنه مع علمه على وجه إجمالى ، فهو مما لا تحيط العبارة بتفصيله ، ولتذهب

النفس فيه كل مذهب ممكن ؛ ورب محذوف هو أوسع دلالة من مذكور ؛ وكان المعنى : ولولا ما حفكم من فضل الله ومزيد إحسانه ، وأن ذلك مصدره الرحمة الذاتية التى كتبها ربكم على نفسه ، وأنه يعرضكم لتوبة ويفتح لكم سبلها ، ويهيئ لكم فرصها ويقبلها منكم ، وأنه يراعى المصالح والحكم فى أحكامه ، لولا ذلك كله لكان ما كان مما لا تطيقونه ولا تحتملونه ، ولا تحيط به العبارة ، فقد تفضل عليكم بفتح لمخلص من تلك الورطات الكبرى ، ورطة أن يفاجأ الرجل بأشد ما يكره فى أعز ما يحتفظ به ، فإن قتل مهاجمه قتل به ، وإن سكت سكت على ما لا يطيق عليه صبرا ، وإن تكلم استوجب حد القذف وردت شهادته بين المسلمين ، فتفضل عليكم بتشريع هذا الحكم المنقذ له رحمة منه وفضلا ، ولم يهمل شأن المرأة ، وقد تكون مظلومة ، ففتح لها باب المخلص تدفع عن عرضها وشرف قومها ، فشرع لها اللعان ، ورحمهما معا بالستر على الكاذب منهما فى الدنيا وتعريضه للتوبة ، وربما صدق فيها فأحرز مع ستر الدنيا المغفرة فى الآخرة .

فأى حكمة ورحمة أوسع من هذا ؟ فهو الحكيم العيم التواب الرحيم . نسأله أن يمن علينا بالدخول فى واسع رحمته ، وأن يجملنا بإدراك سر حكمته فى شريعته ، فهو الوهاب ، لا مانع لما أعطى ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ؟

ابراهيم الجبالى



العالم

الذى نوه الدين بذكره

وخطأ الناس فى ذلك

..

يعتقد كثير من أهل العلم أنه ممن وردت فيه الآيات والأحاديث ، غترار بما معه من شهادة ما أنزل الله بها من سلطان ، أو تصنيف فى الفقه أو النحو أو البلاغة أو الأصول أو نحو ذلك . جاهلا أن ما افتخر به من ذلك قد يوجد فى غير المسلمين ؛ وها هى ذى كتب مدارسهم التى ألفها آباؤهم وعلماؤهم يشهد لها الناظر ويعترف بفضلها المنصف ؛ وما نسمعه عن مستشرق أوربا أعجب وأغرب ، فهم شركاؤك فيما علمت ، فلا بد أن يكونوا شركاءك فى خاصة ذلك العلم ، وإلا وجد الشىء بدون خاصته وهو محال ، فاذاً يجب أن يكون سر تفضيل العالم والثناء عليه من الله ورسوله راجعا الى شىء آخر ، وأن تكون هذه العلوم التى ترفّعنا بها على الجهلاء ، وامتلأنا بها عجبا وكبرا وغرورا ، وزالت بها سلامة فطرتنا وطهارة قلوبنا بما أورثتنا من الصفات المهلكة ، ونخشى أن نكون ممن قال الله فيهم : (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) أشبه شىء بالصنائع التى يتعلمها المسلم واليهودى والنصرانى ، ولا يرجع بها الفاسق عن فسقه ، ولا يتميز بها عن بنى نوعه ، إلا على قدر ما يتميز العالم بصنعة من الصنائع عن الجاهل بها .

نعم يجب أن يكون سر التفضيل أمرا وراء ذلك كله ، وهو الذى جعل العلماء ورثة الأنبياء ، وجعل خشية الله خاصة من خواصهم (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ)

وكان مجلس[*] واحد من مجالس العالم خيرا من عبدة ستين سنة . ذلك العم الذى يبلغ بك تلك الغاية ، ويحلك تلك المنزلة الرفيعة ، ومن أجله احترمك الجهلاء وعظمك الكبراء ، معتقدين أنك عرفت ما لم يعرفوه ، ووصلت الى ما لم يصلوا اليه ، والقلوب الانسانية تحس بشرف العم الأعلى ومكانة ذويه ، وتجل الروحانيين الربانيين إجلالها للملائكة المقربين ، وتنظر اليهم نظر أهـل الأرض لأهل السماء على موجب ذلك الإحساس الذى لا يكاد يخلو منه إنسان فيه روح الانسانية .

ذلك العلم يجل عن أن يكون هو العلم بأحكام لفاعل والمفعول، والتصغير والتكسير والمسند والمسند اليه ، و لحقيقة و لمجاز ، وتناقض الموجهات ، وأحكام المختلعات وفروع الطلاق، والبيع والجنايات، لى آخر ما اشرأبت به الأعناق، وعظم فيه السباق ، وتبجحت به النفوس ، وارتفعت به الرءوس ؛ بل يجب أن يكون هو العلم بجلال الله تعالى وعظمته وبديع آياته وعظيم أسراره فى خلقه ، مع معرفة خفايا النفوس ودقائق مكرها ، وتلبيسها وكثرة دسائسها ، وسرعة طيرانها نحو شهواتها ، فتراهم يتهمونها فى كل شىء ويعاملونها معاملة العدو المحتال ، باحثين وراءها فى كل ما تشير به ، خائفين من أن يكون لها فيه هوى دفين وشهوة خفية ، مجاهدين لها ما عاشوا ، ذائقين لقوله تعالى: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) قائلين : « رجعنا من لجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر» « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » وجلين من أن يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، فكانوا ممن عرفوا نفوسهم فعرفوا ربهم ، فامتثلوا قوله تعالى : (وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) فعزلوها عن منصب الرياسة فتخلصوا من غوائلها كلها ، فلم يتحركوا إلا لله ، ولم يسكنوا إلا لله ، ولم ينطقوا إلا لله ، ولم يسكتوا إلا لله ، متحققين أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، فصبروا على بلائه ، وشكروا على نعمائه ، بل رضوا بقضائه ، وسارعوا الى رضائه ، فلم يجـدوا فى أنفسهم حرجا مما

قضى وقدر ، بل سلموا له تسليما ، شأن العبد الصادق فى العبودية مع مولاه ، فرقين أن يندرجوا فى سلك من قال الله فيهم : (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ) سائرين فى الدنيا على قدم الأنبياء يتجرعون فى سبيل الحق شدة الأذى ، كاظمين غيظهم ، صابرين على ما أصابهم ، بل عافين عن الناس محسنين اليهم ، مشفقين عليهم ، على نهج من قال الله تعالى فى وصفه الكريم : (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) زاهدين فى الدنيا راغبين فى الآخرة ، مقبلين على الله تعالى بكليتهم ، داعين اليه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، عالمين أنها محل المحن ودار الفتن ، فلا يحبونها إلا على نحو ما رسم الشرع لهم ، مشفقين من قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) مستبصرين فيها بما بصرهم سيدهم ، موقنين بما وعدهم من نعيم وملك عظيم ، عالمين أنها سريعة الفناء وشيكة الانقضاء ، يرون قريبا ما يراه الناس بعيداً

أرى الموت يغتال النفوس ولا أرى بعيدا غدا ، ما أقرب اليوم من غد .

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ) مقتفين أثر من قيل له : (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) واصلين الى روح قوله تعالى : (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ) (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا

نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) محبين لمرشد الأعظم والنبي الأكرم الذى هداهم الصراط المستقيم ، وأخرجهم من الظلمات الى النور محبة تزيد على محبة الوالد لولده والولد لوالده ، متحققين بما جاء فى حديث البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب ليه من والده وولده والناس أجمعين » وما ورد فى حديث البخارى أيضا « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » فوصلوا بذلك الى روح اليقين ، حتى صارت مظان ثوابه ومواقع مرضاته تعالى مما تنشرح له صدورهم وتلتذ به نفوسهم ، عالمين أنهم لا يبلغون درجة الكمال ، وينتفى عنهم الحرج والمشقة ، ويصلون الى محل الأمن ، إلا إذا تخلل ذلك جميع أجزائهم ، ورسخ فى كل ذراتهم ، فيميلون اليه ميلا طبيعيا يتقاضى منهم المسارعة اليه والعكوف عليه ، إذ هو محل الأنس وحضرة القدس ، مجتلين فى تلك الحضرات من عرائس الجمال الإلهى ما يفوق كل نعيم ، ويحتقر معه كل لذة سواه ، حتى قال قائلهم . « نحن فى لذة لو علمها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف » فكادوا يهيمون بما يشاهدون من سبحات هذا الجمال ، ويذوبون عند ما يوغلون فى سرادقات ذلك الجلال ، مدهوشين مما يذوقونه فى تلك الحضرات من مناجاة وإلهامات وملاطفات وأنوار وأسرار ، فكانوا من قوم (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) يتيهون على ملوك الدنيا استغناء وعزة ، على حين أنهم يتواضعون للفقراء ويخضعون للضعفاء ، ولكن أبى لهم مقامهم الذى يعرفونه من أنفسهم ، وعزتهم التى يحسون بها من أعماق قلوبهم ، أن يتواضعوا لأهل العظمة والكبرياء ، وقد قال تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) الى آخر ما يطول شرحه ولا يمكننا الآن أن نأتى عليه .

وبالجملة فقد اتصفوا بكل فضيلة ، وتخلصوا من كل رذيلة ، وأدركوا من شريف الأحوال ورفيع المقامات ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فكانوا بذلك ورثة الرسل ، وقادة الأمم ، ودواء العلل ، وكواكب الظلمات ، وسرج المشكلات ، بهم تنحل العقد وتنفرج الكرب (وراثة نبوية وخلافة إلهية) ولذلك كانوا مرجع الأمراء والكبراء ، حتى قال القائل قديما :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر تحكم العلماء

وقد قالوا : إن الأمة تفسد بفساد الأمراء والأمراء يفسدون بفساد العلماء .
فانظر أين أنت من تلك المقامات ، والى أى حد وصلت من البعد عن تلك الصفات أيها المتبجح بعلمك ، المترفع على بنى نوعك ، الغافل عن كون الانسان لا يزال متعلما طالبا من العلم ما يكون وراء ما علم ، وكلما ازداد منه ريا ازداد عطش ، وكلما زاد فضله ، بان له جهله ، وقد قال تعالى لأعلم العلماء وأعظم العظماء : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) وقال : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) وقال : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) .

وإن العالم حقا ليستحى من الله أن يتبجح بعلمه ، وهو يعلم أنه جعله محل الضعف والجهل والنقص والغفلة والنسيان ، ويرى أن العلم أمامه متسع الفجاج متلاطم الأمواج ، وهو بساحله يرجو أن يتطاير عليه من بحره رشاش ينقع به مزيد غلته ، ويشفى به بعض علته ، وإن لم يعرف ذلك فهو من الجهلاء لا من العلماء .

نظر الى ذلك كله ثم قل لى بعيشك هل أحببت النبى صلى الله عليه وسلم حبا وجدانيا يزيد على محبتك الناس أجمعين ؟ وهل صار هو لك تبعا لما جاء به ؟ بل هل سعيت الى ذلك سعيه يوما من الأيام ، وآلمك من أجله ضميرك ، وعاتبتك عليه نفسك ؟ أم هل أحسست بحب الله تعالى من أعماق قلبك حبا يهون عليك قضاءه ويخفف عنك بلاءه ؟ أم هل صدقت فى بيع نفسك لله تعالى وقد جعل ذلك من صفات المؤمنين فضلا عن

العلماء منهم، فخلصت أعمالك من الأغراض والشوائب حتى صارت كلها لله، فلم تتكالب على أمورك الشخصية، ولم تتهالك على شهواتك النفسية، ولم تذل لأهل الدنيا ذل العبيد، ولم تنافق لهم نفاق صغار النفوس لئام الطباع؟ وهل ذقت لعزة المؤمنين طعماً، أو عرفت لها معنى؟ وهل أنت ممن قال الله فيهم: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ)؟ أو ممن قال فيهم: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)؟ وهل أنت ممن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟ وهل أنت ممن يقول لأخيه عند ما يقابله: اجلس بنا ساعة نؤمن، كما كان يقول ذلك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعضهم لبعض؟ وهل أنت ممن (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)؟ وهل وهل الخ؟ أم أنت ممن أخلد الى الأرض واتبع هواه، وقد أحاط به الشره واستعبده حب الدنيا، فليس يهمه إلا شيء يعود عليه، ودرهم يصل اليه، ففاتته عزة العلماء، وثروة الأغنياء، فهو لا الى هؤلاء، ولا الى هؤلاء، وهو بالجهلاء أشبه منه بالعلماء؟!.

نعم يوشك أن تكون من العلماء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أول من تسعر به النار يوم القيامة عالم لم يعمل بعلمه فيطيف به أهل النار فيقولون له ما لك وقد كنت تأمرنا وتنهانا فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه»: كما يوشك أن تكون ممن قال الله فيهم: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ) وقد أوحى الله الى بعض أنبيائه «قل لعلماء السوء ألسنتكم أحلى من العسل وقلوبكم أمر من الصبر، فبي يستهزءون وإياى يخادعون: فوعزتى وجلالى لأتيحن لهم من الفتنة ما يدع الحليم حيران». وفى الأثر «لا تجالسوا من العلماء إلا من يأخذ بكم عن محبة الدنيا الى محبة

الله ، وعن الكبر الى التواضع ، وعن التباغض الى التحابب » ولا قدر للدنيا حتى تبيع بها السعادة الأبدية ، وقد قال بعض الملوك عند ما حضرته الوفاة « كنت أظن أنى ملكت كل شيء فاذا كل شيء لا شيء . وقال بعض الحكماء : « أعظم الناس ندامة صانع المعروف عند من لا يشكره ، وعالم فرط فى علمه فلم يعمل به حتى حضره الموت » .

وقد سقت لك ذلك عسى أن يحرك منى ومنك شوقا الى العمل بالعلم ، وندما على ذلك العمر العزيز ، وخوفا من أن يخاطبنا الله عز وجل يوم القيامة بقوله : (أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ورجاء أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا :

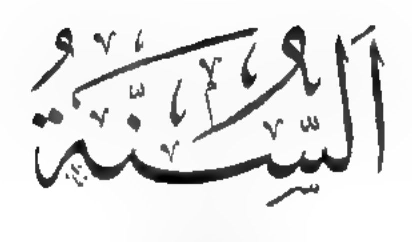
عُجُبُ الأيام بنا تثب ما أسرع ما تصل التجب
والشمس تطير بأجنحة والليل تطايره الشهب
والدهر يجد بفصل الجد فليس يليق بك اللعب
ما القصد سوى تخل هوا ك وكن رجلا فلك الطلب
سل دهرك أين قرون الأر ض يجبك بأنهم ذهبوا
ساروا عنا سيرا عجلا فكأن مسيرهم الخبب
ما أفصحهم ولقد صمتوا ما أبعدهم ولقد قربوا
يا لاعب جد بفصل الجد فليس الأمر به لعب
واحذر دنياك وزخرفها فجميع مناصبها نَصَبُ
فكأنك والأيام وقد فتحت بابا فيه النوب
وبقيت غريب الدار فلا رسل تأتيك ولا كتب

وسلاك الأهل ومل الصحـ ـب كأنهمو لك ما صحبوا
فاذا نقر الناقور جثو ت ويومئذ يوم عجب
فيصيخ السمع ويخشو الجمـ ـع ويجرى الدمع وينسكب
وجميع الناس قد اجتمعوا ثم افترقوا ولهم رتب
ذا مرتفع ذا منخفض ذا منجزم ذا منتصب
فهناك المكسب والخسرا ن وثم الراحة والتعب

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الظرف والملح

قال سهل بن هارون : ومما حفظ من كلام ذى الرياستين مما رأينا تخليده فى الكتب ليؤتم به ، وينتفع بعقول حكمته ، قوله . من ترك حقا فقد غبن حظا ، ومن قضى حقا فقد أحرز غنما ، ومن أتى فضلا فقد أوجب شكراً ، ومن أحسن توكلا لم يعدم من الله صنعا ، ومن ترك لله شيئا لم يجد لما ترك فقداً ، ومن لتمس بمعصية الله حمداً عاد ذلك على ملتمسه ذما ، ومن طلب بخلاف الحق له دركا عاد ما أدرك من ذلك له موبقا وذلك أوجب الفلاح للمحسنين ، وجعل سوء العاقبة للمسيئين المقصرين .



بسم الله الرحمن الرحيم

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)

قد مضى فى العدد السابق الكلام على الثلاثة الأول فى هذا الحديث الشريف وهذا تتمة الكلام فى البقية :

(٤) ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه .

غير خاف أن العدد هنا عدد الأصناف لا عدد الأفراد ، أى سبعة أصناف وأنواع من الناس يجمع كل صنف صفة من الصفات ، فلا يرد أن هذا الرابع فيه رجلان فحق العدد أن يكون ثمانية ، وذلك لأنهما وإن كانا رجلين فإنهما مشتركان فى صفة واحدة فهما صنف واحد ، فليس فى المذكور زيادة على السبعة ، وإنما ذكرا على وجه التثنية لأن الغالب فى المحبة التى تجرى بين الناس أن تكون متبادلة ، فالنفس دائما تستريح

الى النفس التى تحبها، فتؤدى استراحتها لها لى مشاركتها لها فى المحبة. قيل : إن رجلا طلب الى أحد الملوك أن يحب ابنه ، فرد عليه بأن المحبة ليست أمرا اختياريا يملكه الانسان من نفسه حتى يطلب منه تحصيله ، فقال له : طريق ذلك أن تحسن اليه فيحبك فتحبه وحقيقة جبلت النفوس على حب من أحسن اليها، كما قال الأول: وكل امرئ يولى الجميل محبب . واستدعاء محبة أحد الطرفين محبة لآخر أمر يكاد يكون مطرد المشاهدة :

فللقلب على القـــــلب دليـــــل حـين يلقاه

هذا ما لم يكن الحب لأغراض فاسدة ودواع شريرة ، وإلا فإنه قد يجر الى المقابلة بالكره والمقت والسخط بقدر ما يتضمن من كيد وإضرار بالشرف ، وخدش للكرامة ، وهذا فى الحقيقة ليس بحب للشخص المزعوم محبته ، وإنما هو حب امرء لذاته ، واستغراقه فى لذاته ، فيرى مخلوقا من الناس هو طريق إحراز لذته ، فيخترق أحشاءه ويمتهن حياته ، وصولا لبغية دنيئة ، ونزولا لغاية سافلة ، فهذا فى الحقيقة محب لنفسه عدو لغيره ممن يزعم أنه أحبه .

نعم قد قالوا : إن أصل كل أنواع المحبة محبة المرء لنفسه ، ومنها يتفرع حبه لغيره ، فهو اذا أحب المحسن فإنه إنما أحبه لما وصل الى ذاته من آثار إحسانه ، واذا أحب الطعام أو الشراب فلما عاد على ذاته منه من دوام الوجود واستكماله ، واذا أحب المال فإنما كان لأنه طريق نيله مقصده مما يكمل وجوده ، حتى إنه اذا أحب جمالا فى المخلوقات كألوان الزهر وتجلى الشمس والقمر ، كان مرجع ذلك الى استمتاع حواسه ، أو استرواح نفسه .

صحيح هذا ، ولكن لا يعتبر المحب محبا اذا خرج عن قانون استكمال الوجود الى تدنيس هذا الوجود ، والمحب الشرير فى محبته ساع الى تنقيص حياة نفسه بما يجلب عليها من نتائج الشر ، وتنغيص وجود غيره بما جناه من الضرر الحسى أو المعنوى ، فهو حب لا يستحق التسمية باسم الحب ، ومثله شر ينتج إلا الشر .

فللتفادى عن هذا النوع الممقوت جاء التحاب الموعود عليه بهذا الفضل العظيم فى الحديث الشريف مبينا بأنه التحاب فى الله ؛ ومعنى ذلك أن يكون مبعث الحب بينهما ما يراه كل منهما فى الآخر من مظاهر طاعة الله ، ودرجات القرب إلى الله ، ولا يرجع ذلك إلى غرض من الأغراض الدنيئة ، أو عرض من أعراض الدنيا الزائلة .

وكلمة (تحابا) على صيغة تفاعل ؛ وهـذا الوزن يأتى فى العربية لمعان ، منها وهو المراد هنا أن يشترك اثنان أو أكثر فى فعل بدون أن يلاحظ أن لأحدهما صفة البدء به أو المجاوبة على بدئه ، كقولك : تشارك فلان وفلان ، بخلاف وزن فاعل ، فإنه يدل على المشاركة بطريق أن أحدهما بدأ والآخر سايره فيه ، كقولهم : شارك فلان فلانا ، كأن الشركة ابتدأت من أحدهما والآخر سار معه فيها ، ولذلك تقول لواحد : لماذا خاصمت فلانا ؟ فيقول : لا بل هو الذى خاصمنى ؛ واذا قلت له : أنت وفلان تخاصمتا ؟ يقول نعم وهو الذى خاصمنى ، أى بدأ بالخصومة ؛ فبدء الخصومة من جانب الآخر نفى أن الأول خاصمه ولم ينف أنهما تخاصما .

وقد تأتى تفاعل لتكلف الظهـور بشىء ليس متصفا به فى الحقيـقة ، كتناوم أو تجاهل أو تعاظم ؛ وكذلك تأتى أثرا مطاوعا لفاعل ، كباعدته فتباعد ؛ وليس شىء من ذلك مرادا هنا ، إنما المقصود أنهما اشـتركا فى أن كلا منهما يحب صاحبه ، وأن مبعث المحبة جانب الله وطاعته .

وإن المحبة أصل عظيم فى هناءة الحياة واستكمال التعاطف بين العباد، فيكمل تتناع كل بصاحبه ، ويأمن كل غوائل الآخر ؛ ولقد بالغ بعضهم فيها حتى قال : الدين المحبة يريد أن من لم تملك المحبة قلبه لم ينتج الدين فى نفسه أثره ؛ ويشهد لهذ ما ورد فى حديث «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وحديث «مثل المؤمنين فى تعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر» .

وأما قوله : (اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه) فمعناه أنه حب قلبي روحي صادق ، ليس رياء ولا ملقا ، فهو في حال الاجتماع والافتراق سواء ، يثمر في الأول العطف والإيناس والتواد ، وينتج في الثاني رد غيبته ، وحفظ حقه ، ورعاية مصلحته . وجدير بمن حاز هذا الوصف أن يكرمه الله بإظلاله بظله يوم لا ظل إلا ظله .

(٥) ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله :

إن تغلغل الشهوة في قلوب الناس وتمكنها من نفوسهم أمر معروف ، وإنما يتفاوتون في الفضل بقدر ما يبذلون من جهد للتخلص من أسارها ، وقهر النفس على الفرار من سيآتها ، وقد يكون الخلوص منها لضعف تعلق النفس بها لأنها لم تستكمل كل الرغائب ، كأن يكون الوصول إليها عسيرا متعاصيا لا قدرة للمرء عليه ، أو أن تكون داعية الجمال فيها ضعيفة فتضعف الجاذبية ، أو تكون في إنسان مرذول تنفر بعض النفوس من الاتصال به لحقارة شأنه وأنفة النفس من معاشرته ، فأما إذا كملت رغائب النفس وهي مبنية على شهوات ، فكانت الصلة ميسورة ، وكان أمامها ما يرغب فيه ولا تعاف النفس مقارفته ، فهذا هو الامتحان حقا ، فمن أعرض عنها وقد توافرت رغباته فيها ، فإنما يكون ذلك خوفا من الله ، ولمن خاف مقام ربه جنتان .

وهذا هو ما صوره الحديث الشريف ، فقد بدأ بأن الطلب من المرأة ، وهذه أول درجات الإغراء ، وثنى بأنها ذات منصب أي شرف وحظ فلا تأنف النفس من الاتصال بمثلها ولا تحتقرها ، وثلث بأنها ذات جمال ، وذلك أساس الرغبة الشهوية ، فإذا امتنع عن ذلك مخافة من الله دخل في قوله جل شأنه : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) . وقوله : (قال إني أخاف الله) أي قال لنفسه ولها ذلك يعظها ويزجرها ، ويربي في نفسها مع امتناعه خوف الله ، فهي لضعفها أحق بأن تخاف ما يخافه الرجل القوي ، وتخصيصه في الإجابة الخوف بنفسه

ليلفتها هي أيضا الى نفسها، وكأنه يقول لها: أنا خفت على نفسي فإن كان يهمك نفسك فخافي أنت أيضا على نفسك. فكأنه يتركها وقد فتح لها باب المخافة لتستنبط هي بنفسها الخوف على نفسها، وهذا في الغالب أشد تأثيرا من أن تدعو الشخص الى الخوف صراحة. وقريب من هذا ما في قوله تعالى: (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

(٦) ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه:

للنفوس ولوع بالمال وإحرازه والتحفظ به لا يدانيه ولوع، فهم يرون فيه مجمع أغراضهم، وأداء رغباتهم، ونيل مشتهياتهم (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَآبِ).

إن محبة المال متغلغلة في نفوس الناس تغلغلا عميقا، وذلك لما استقر لديهم من أنه باب نيل الرغائب، وإحراز المأرب على تنوعها، فلا تكاد تجد رجلا أو امرأة أو صبيا إلا وهو حريص على المال يحصله ويدخره، إعداداً لما يفاجئه من حاجات، بل قد يزداد حب المال الى درجة أن يصير محبوبا لذاته، غفلة عما كان سبب محبته.

ولما كانت مصالح الناس لها به أتم ارتباط، وليس كل ساع لتحصيله يوفق في نيل ما يريد، وإلحاح الحاجات على الناس لا يعرف هوادة، رغب الشارع الحكيم من بيده فضل من المال عن حاجته أن يعطف على من قصرت يده وألحت به حاجته، وجعل على ذلك من المثوبة ما جعل، وجعل الزكاة قرينة الصلاة في الطلب، ورغب في الصدقة بجملة أنواع الترغيب، ولكن متى يستحق عمل الخير والبر مثوبة الله الذي بيده ملكوت كل شيء؟ ذاك إذا صدر منه ابتغاء رضا ربه، وامتثالا لأمره، وإخلاصا له في العمل، وهذا إنما يتحقق يقينا اذا ابتعد عن مظان البواعث التافهة، كالفخر

والرياء والمباهاة . حينئذ يكون الانفاق لوجه الله وابتغاء المثوبة منه ، وذلك فى صدقة السر ، فهى أقرب الى رضا الله ، وأبعد عن المن والايذاء للمتصدق عليه ، وأسلم من بواعث الرياء والمباهاة المحبطين للعمل ؛ فلا جرم كان المتصدق المبالغ فى إخفاء صدقته جديرا أن يحشر مع المخلصين لله فى دينهم ، الممحضين عملهم للتقرب الى ربهم ، فاستحق أن يكون من السبعة الذين يؤويهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وأن يعد من المخلصين الذين جمع الحديث الشريف أمارات إخلاصهم على ما سبق بيانه فى العدد الماضى

وقوله : (تصدق أخفى) جملة أخفى حال ، أى تصدق مخفيا صدقته ؛ وروى فأخفى ؛ وروى إخفاء ؛ وروى تصدق بصدقة فأخفاها . ووجه رواية الفاء أن الاخفاء أو الجهر حال من أحوال الفعل وصفة من صفاته ، وصفة الشىء متأخرة فى الملاحظة عن وجوده ، وإن لم تنفصل عنه وجودا .

وقوله : (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) يروى برفع تعلم على أن حتى بمنزلة فاء التفريع ، وبنصبها على أنه غاية للإخفاء ؛ وتقديم شماله على يمينه هى الرواية المشهورة ؛ وروى حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ؛ والرواية الأولى أظهر ، نظراً الى أن أغلب ما يباشر المرء عمله بيمينه ؛ وعلى كل حال فالمقصود المبالغة فى الاخفاء ، كأن المعنى لو قدرت إحدى يديه ممن يعلم ما علمت بعمل الأخرى ؛ ولا حاجة الى أن تقول : لا يعلم من على شماله مثلا .

ثم الترغيب فى إخفاء الصدقة محمول على صدقة التطوع ؛ أما زكاة الفرض فالأفضل إظهارها ، لأنها شعيرة دينية ، وفى إظهارها إظهار عزة الدين ، وليكون قدوة للمالكين معينا على تضافر المكلفين على أدائها ، مبعدا عن اتهام بعضهم بعضا بإهمالها ، فاتحا بابا واضحا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ومثل الزكاة والصدقة فى ذلك صلاة الفرض والنفل ، فيسن السعى لصلاة الفرض الى المساجد ، ويسن أداء النوافل فى البيوت ،

وعلى ذلك يحمل « أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته » ثم من إخفاء الصدقة التسامح فى البيع والشراء بنية الصدقة .

(٧) ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه :

هذا هو المكمل للسبعة ، وإنك لترى الإخلاص متجليا فى كلمة (خاليا) فإن البكاء قد يتصنعه الرجل الفاجر يرائى به الناس ويخدعهم ، وإذ كل فجور المرء ملك عينيه ، أما وهو خال فلا يكون إلا من خشية الله وتذكر تقصيره ، وعظم نعمة ربه وإهماله شكرها ، ثم الفزع والروعة الشديدة من الغفلة عمن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والأسى والحزن على ما ضيعه من عمره وقد هيىء له طريق الربح والفوز العظيم .

وقد ورد : ما من أحد يموت إلا ندم ، فإن كان مطيعا ندم أن لم يكن زاد فى طاعته وإن كان عاصيا ندم أن لم يكن أقلع عن معصيته . و (ذكر الله) إما بقلبه من الذكر بضم الذال ، أو باللسان من الذكر بكسرها ، وإنما يكون ذكر اللسان مؤديا للبكاء إذا صحبه الذكر القلبى ، وإلا فحركات اللسان وحدها لا تفيد ولا تثمر ، ولا تفيض منها عين ولا دمعة ، وكلمة خاليا ظاهرة فى أن معناها خاليا من صحبة الناس ، ويؤيدها رواية فى خلاء ، وقال بعضهم : المراد خلو القلب من الشواغل . وهو مع صحته فى نفسه لا ينفى أن الأظهر الخلو من الناس . والفيضان أصله زيادة الماء ونحوه فى الإناء أو مجرى الماء حتى يسيل من جوانبه ، ويسند الى الإناء ونحوه مبالغة فى نسبته للماء ، فتقول : فاض الإناء أو فاض النهر ، أى اشتد فيضان ما فيه حتى كأنه هو الذى فاض .

وقد ورد فى فضل البكاء فى الخلوة كثير من الأحاديث المرفوعة ، روى الحاكم من حديث أنس مرفوعا « من ذكر الله ففاضت عينه من خشية الله حتى يصيب

الأرض من دموعه لم يعذب يوم القيامة » وروى عن أبى هريرة مرفوعا « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع » وروى أن داود عليه السلام سأل ربه : ما جزاء من بكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجهه ؟ قال : أسلم وجهه من لفح النار .

والسر فى كل ذلك أن من يبكى من خشية الله بكاء حقيقيا فى خلوة قلما يقع فى منكر ، وإذا فرطت منه السيئة عاد فأتبعها غالبا بالحسنة ، وبادر الى التوبة والاستغفار ، والتوبة تذهب الحوبة ، و لحسنات يذهبن السيئات . نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل ، والإحسان فى السر والعلن ، وأن يغفرلنا زلاتنا ما ظهر منها وما بطن ؟

ابراهيم الجبالى

الظرف والملح

خرج الزهرى يوما من عند هشام بن عبد الملك فقال : ما رأيت كاليوم ، ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين احفظ عنى أربع كلمات ، فيهن صلاح ملكك ، واستقامة رعيتك ، قال ما هن ؟ قال : لا تعد عدة لا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى وإن كان سهلا إذا كان المنحدر وعرا ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأن للأمور بغتات فكن على حذر .

قال عيسى بن دأب فحدثت بهذا الحديث المهدى وفى يده لقمة قد رفعها الى فيه فأمسكها ، وقال : ويحك أعد على ؛ فقلت يا أمير المؤمنين أسغ لقمتك ، فقال : حديثك أحب الى .

الفتاوى والأحكام

حياة الانبياء

وحديث

حياتى خير لكم

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتى :

حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا المحقق الشيخ يوسف الدجوى .

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فعندنا جماعة متهوسون ينكرون حياة الأنبياء مستندين لقوله تعالى . (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) كما يردون حديث « حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فإذا مت كانت وفاتى خيرا لكم تعرض على أعمالكم ، فإن وجدت خيراً حمدت لله وإن وجدت شراً استغفرت لكم » فنرجو من فضيلتكم تحقيق ذلك ولكم مزيد الشكر ، ورجاؤنا أن تفيضوا القول فى هذا الموضوع الخطير فإن الأمر جلل ، أدامك الله سيفا للدين وقامعا للملحدين ؟ عبد الرحمن محمد

أستاذ بالمدارس الابتدائية

الجواب

الأنبياء أحياء فى قبورهم قطعا ، وهم أولى بذلك من الشهداء الذين ورد فيهم النص القرآنى فى قوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ

أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) بل الحياة ثابتة لجميع من فارق الدنيا ولو كفارا ، كما يدل عليه حديث أهل القليب الذى فى البخارى ؛ وجاء فى الصحيح أيضا أن الميت بعد دفنه يسمع قرع نعال المشيعين ، وأن الروح تنادى حامل الجنازة ، وأنه يسمع صوتها كل شىء إلا الانسان ، ولو سمعه لصعق . وقد رأى صلى الله عليه وسلم فى ليلة المعراج موسى عليه السلام يصلى فى قبره ، كما رآه فى السماء السادسة وقد راجعه مراراً فى أمر الصلاة ؛ وقد وضع البيهقى رسالة فى حياة الأنبياء ، وللسيوطى أيضا رسالة تسمى أنباء الأذكياء بحياة الأنبياء . أما قوله تعالى : (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) فمعناه أن روحك ستفارق بدنك وتدخل فى عالم آخر ، فلا تشتغل بتدبير الجسم ، ولا تسرى عليها أحكام هذا العالم ونواميسه ، وإلا فقد ثبتت حياة الأموات كلهم فضلا عن الأنبياء كما قلنا ، وإن كانت الحياة مقولة بالتشكيك ، وبين درجاتها من التفاوت ما لا يعلمه إلا الله ؛ وها أنت ذا تشاهد فى هذا العالم من مراتب الحياة المتفاوتة بين أنواع الحيوانات وأصنافها الى أن تصل الى أعلاها ما يجعل الأمر لديك فى غاية الجلاء والوضوح .

ولنقص عليك شيئا من أدلة حياة الأنبياء وكلام العلماء فى ذلك :

أما الكتاب فيكفيك منه الآيات المتعددة فى حياة الشهداء ، والإجماع على أن الأنبياء أرفع درجة من الشهداء . قال ابن حزم فى المحلى بعد ذكره الآيات الواردة فى حياة الشهداء ما نصه : ولا خلاف بين المسلمين فى أن الأنبياء عليهم السلام أرفع قدرا ودرجة ، وأتم فضيلة عند الله عز وجل ، وأعلى كرامة من كل من دونهم ، ومن خالف فى هذا فليس مسلما اه .

وأما السنة ففيها شىء كثير من الأدلة على حياتهم ، فمن ذلك حديث « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون » رواه أبو يعلى والبيهقى من طرق متعددة من حديث أنس ابن مالك ، قال المناوى فى شرح الجامع الصغير : رجاله ثقات وصححه البيهقى اه ومثل

ذلك للحافظ السخاوى فى القول البديع ، ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقى فى حياة الأنبياء ، وبها يصير من الصحيح المتفق عليه ؛ ومنها حديث الإسراء الذى فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى موسى قائما يصلى فى قبره ، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم . وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ ، كالقرطبي فى التذكرة ، وابن القيم فى كتاب الروح ، والحافظ السيوطى فى غير ما كتاب من كتبه ، على أن أحاديث حياة الأنبياء فى قبورهم متواترة ، قال السيوطى فى مرقاة الصعود : تواترت بها الاخبار ، وقال فى أنباء الأذكياء بحياة الأنبياء ما نصه : حياة النبي صلى الله عليه وسلم فى قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا علما قطعيا ، لما قام عندنا من الأدلة فى ذلك ، وتواترت به الأخبار الدالة على ذلك اه .

وقال ابن القيم فى كتاب الروح نقلا عن أبى عبد الله القرطبي : صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء ، خصوصا بموسى ، وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام ، الى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع الى أنهم غيبوا عنا بحيث لا نراهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة ، فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم اه .

وقد نقل كلام القرطبي هذا أيضا ، وأقره الشيخ محمد لسفاريني الحنبلى فى شرحه لعقيدة أهل السنة ، ونص عبارته : قال أبو عبد الله القرطبى قال شيخنا أحمد بن عمر . إن لموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال الى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد موتهم وقتلهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء ، كان الأنبياء بذلك أحق وأولى ، مع أنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم

اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء، خصوصا بموسى عليه وعليهم السلام، وقد أخبر نبينا صلى الله عليه وسلم أنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام، الى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع الى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم اه.

ويحقق ما ذكره هؤلاء الأئمة من تواتر الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء أن حديث عرض الأعمال عليه صلى الله عليه وسلم واستغفاره لأمته، وسلامه على من يسلم عليه، ورد من نحو عشرين طريقا؛ وحديث الإسراء ورد من طريق خمسة وأربعين صحابيا، وقد نص الحاكم والحافظ السيوطى على أن حديث الإسراء متواتر، قال بعضهم: لا شك أنه يؤخذ من هذه الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم حى على الدوام، وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه فى ليل أو نهار.

وبعد فنحن نؤمن أنه صلى الله عليه وسلم حى يرزق فى قبره، وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض، والإجماع على هذا. وزاد بعض العلماء الشهداء والمؤذنين، وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا أنهم لم تتغير أجسامهم، والأنبياء أفضل من الشهداء.

أما حديث «حياتى خير لكم» فهو صحيح محتج به فى هذا المقام وفى غيره بلا مرية. ولننقل لك ما قال المحدثون فيه فنقول: هذا الحديث رواه ابن سعد فى الطبقات من حديث بكر بن عبد الله المزنى مرسلا بسند صحيح، كما نص عليه غير واحد من الحفاظ، وقال بعضهم: إنه حسن، نظرا لإرساله، وقد نازع بعضهم فى الاحتجاج به من حيث إرساله لا من حيث سنده، ولكن فاته أن المرسل إذا ورد من طريق آخر مرسلا أو موصولا ولو ضعيفا، صار حجة عند جميع الطوائف من أهل الأصول والفقه

والحديث ، كما نص عليه بن الصلاح فى علوم الحديث ، والنووى فى التقريب ، وفى مقدمة شرح مسلم وغيرهما من كتبه ، وكذا الحافظ بن حجر فى النخبة والعراق فى الألفية ، والسخاوى وشيخ الاسلام زكريا فى شرحهما عليها ، والسيوطى فى ألفيته وفى شرحه لتقريب النووى .

إذا تقرر هذا عرف أن المرسل إذا ورد من طريق آخر مرسلا أو مسنداً صحيحا أو ضعيفا كما صرحوا به ، كان حجة قطعا ، بل اشترط جمع من أهل الحديث والأصول كونه ضعيفا لتقوم الحجة بالمجموع (المرسل والمسند) وإلا كان المسند الصحيح كافيا فى الاحتجاج . ولتعلم أن هذا الحديث ورد من طريقين آخرين موصولين ، أحدهما إسناده جيد والآخر ضعيف ، فالأول من حديث عبد الله بن مسعود أخرجه البزار ونص الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية على أن إسناده جيد ، وكذا الشهاب الخفاجى فى شرح الشفا على أن إسناده صحيح ، وكذا نص ملّا على قارى فى شرح الشفا على أن إسناده صحيح .

والطريق الثانى للحديث المذكور عن أنس بن مالك ، كما عزاه له السخاوى فى القول البديع ، والسيوطى فى الجامع الصغير ، إلا أنه أورده مختصراً ، وقال المناوى : إن إسناده ضعيف . فلو لم يرد إلا حديث أنس الضعيف لكان مرسل بكر بن عبد الله المزنى حجة على رأى الجميع بانضمام حديث أنس اليه ، فكيف وقد انضم حديث ابن مسعود الصحيح اليهما ؟ بل نقول : عندنا فى الحديث ما هو أكبر من ذلك كله ، وهو أن الحديث متواتر تواترا معنويا لورود معناه من حديث جماعة من الصحابة يبلغ عددهم حد التواتر ، وهم عبد الله بن مسعود ، ولحديثه طرق تزيد على الخمسة ، وأنس بن مالك ، ولحديثه طرق تزيد على الستة ، وأبو هريرة ، ولحديثه طرق تزيد على العشرة ، وعمار بن ياسر ، وأبو أمامه ، وعلى بن أبى طالب ، وابنه الحسن ، وابن عباس ، وأبو بكر الصديق ، وأوس بن أوس الثقفى ، وأبو الدرداء ، وأبو مسعود

البدرى الأنصارى ، وعمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله بن عمر ، وروى مرسلا عن جماعة من التابعين ، منهم بكر بن عبد الله المزنى ، و الحسن البصرى ، وخالد بن معدان ، و بن شهاب الزهرى ، ويزيد الرقاشى ، وأيوب السختيانى ، وفى الباب غير المذكورين من الصحابة والتابعين ، وهذا القدر كاف فى إثبات التواتر ، خصوصاً على رأى من يثبته بسبعة أو عشرة ، وهو الذى رجحه الحافظ السيوطى فى ألفيته حيث قال :

وما رواه عدد جم يجب إحالة اجتماعهم على الكذب
فمتواتر وقوم حددوا بعشرة وهو لدىّ أجود

ومشى عليه فى كتابه (الفوائد المتكاثرة) ومختصره (الأزهار المتناثرة) فحكم بتواتر أحاديث لا تزيد طرقها على العشرة ، وهناك من يكتفى فى التواتر بأقل من ذلك كما هو مبين بكتب الأصول وغيرها ، وقد ذكرنا لك ما يزيد على العشرين ، وقد حكم جماعة من الأقدمين بالتواتر فى الخمسة والأربعة ، ومنهم ابن حزم فى (المحلى) و (الاحكام) ، والطحاوى فى شرح معانى الآثار ، والقاضى أبو الطيب الطبرى وغيرهم . أما حديثنا فمتواتر على جميع الاصطلاحات ، لوجود ما يزيد على العشرين فى كل طبقة من طبقات رواته ، ولسنا ندعى تواتر لفظ هذا الحديث بل تواتر معناه . فإياك وتلبيس المغالطين أو غلط الجاهلين .

ثم نقول بعد هذا : إنه تقرر فى كتب الفقه والأصول والكلام أن منكر المتواتر بعد قيام الحجة عليه يكفر . فإياك والإنكار أو الإصغاء لأولئك الجاهلين المتفيهقين ، فإنهم على شفا جرف هار . وقد أطلنا فى هذا المقام ليقتنع أولئك الثرثارون ، أو ليحذرهم الناس ، وليعلموا أنهم على خطر عظيم ، وأنهم من أولئك الدعاة الواقفين على أبواب جهنم ، فمن أجابهم إليها قذفوه فيها ، كما فى الحديث الصحيح . أسأل الله أن يقينا شر الفتنة ، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

النسخ

معناه — جوازه ووقوعه — أقسامه — حكمه

ورد إلى إدارة المجلة السؤال الآتى :

ما حكم النسخ فى آية من آى القرآن بمثلها ؟ وهل هو جائز شرعا وعقلا ؟ وإذا جاز فما فائدة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم ؟ وما سبب نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ؟ وهل يصح نسخ الآية بالحديث مع أن الله يقول : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) فيعلم من الآية أنه تعالى هو الآتى لا غيره ، وأنه لا يصح نسخ القرآن إلا بمثله ، وهل الآية الناسخة أفضل من المنسوخة أو مثلها حتى يصح النسخ أو لا يصح ؟ وهل كل ذلك مما يضير القرآن أو يجعل لباغ مدخلا للطعن على أسلوبه القويم ؟ .

الجواب

النسخ هو رفع استمرار حكم شرعى بخطاب شرعى متراخ ، أو هو الخطاب الشرعى الدال على رفع استمرار حكم شرعى سابق . والغرض من قولنا بخطاب شرعى الاحتراز عن قطع استمرار الحكم الشرعى بالموت أو الجنون أو نحوهما . وكلمة متراخ الاحتراز عن رفع الحكم بغاية متصلة بالخطاب المثبت له ، نحو قوله تعالى : (ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ) فإن كلمة إلى الليل غاية وليست نسخا لاتصالها بالخطاب المثبت للحكم الذى انتهى بالغاية . وقولنا « بخطاب شرعى » فى التعريف الأول ، أو « الخطاب

الشرعى » فى التعريف الثانى : المراد منه الوحى الإلهى الذى يوحيه الله إلى نبيه عليه السلام فيبلغه النبي الى قومه بأى وجه من وجوه الإبلاغ ، سواء أكان قولا أم فعلا أم تقريرا ، وسواء أكان القول مسوقا للإعجاز مع بيان الحكم أم لم يكن كذلك ، وذلك لأن جميع ما يصدر عن الرسول فى مقام التشريع إنما هو عن الوحى الإلهى ، لا فرق فى ذلك بين التشريع الابتدائى والتشريع الناسخ لحكم سابق .

ومن هذا يعلم أن النسخ جميعه موجه للأحكام ، ومع ذلك فإن النسخ ينقسم إلى قسمين : نسخ الكتاب ، ونسخ السنة ، والأول وهو نسخ الكتاب أى نسخ آية من القرآن ينقسم إلى نسخ حكم ، ونسخ تلاوة ، وإنما صدق التعريف على القسمين أى نسخ الحكم ونسخ التلاوة ، لأن كلا منهما فيه نسخ الحكم ، وذلك أن معنى نسخ التلاوة نسخ حكم التلاوة ، أى أن هذه الآية كانت لتلاوتها أحكام تلاوة القرآن ككونها يثاب على تلاوتها ، ويصح الصلاة بها ، ولا يجوز للجنب أن يتلوها ولا للمحدث أن يمسها وهي مكتوبة ، فنسخت هذه الأحكام . وأما نسخ الحكم فهو نسخ الحكم المدلول لها كتربص المتوفى عنها حولا ، وكالوصية للوالدين والأقربين وأمثال ذلك ، فالنسخ إنما هو للأحكام على كل حال ، وإنما سمى أحدهما نسخ حكم والآخر نسخ تلاوة للتفرقة بين القسمين .

ثم النسخ جائز عقلا وثابت شرعا ، أما جوازه عقلا فلأن الله تعالى هو الآمر الناهى باختياره ، وليس فى العقل مايمنع من أن يأمر بشىء فى وقت وينهى عنه فى وقت ، سواء أقلنا إنه يفعل باختياره بدون تقيد بحكمة أو علة ، أو قلنا لا يصدر عنه فعل إلا لحكمة وفائدة ، فعلى الأول الأمر ظاهر ؛ فإنه متى كان اختياره كافيا فى الفعل أو فى الخطاب ، فيجوز أن تتعلق إرادته بالأمر بالشىء فى وقت والنهى عنه فى وقت آخر ولو لم يكن لذلك سبب ، كأمره بالصوم فى اليوم الأخير من رمضان ونهيه عنه

فى ليوم الأول من شوال ؛ وعلى الثانى وهو أنه لا يصدر عنه فعل أو تكليف إلا لحكمة وثمرة ، لا مانع أن يكون فى الفعل مصلحة فى وقت ومفسدة فى وقت آخر ، فيؤمر به فى الوقت الأول وينهى عنه فى الثانى . ومثل ذلك مثل المريض يكون تناول الدواء مفيدا له حين مرضه فيأمره الطبيب بتناوله ، ويكون مضرا له بعد سلامته فينهاه الطبيب عنه حينئذ ، أو كالغذاء الجيد لا تتحمله معدة المريض الضعيف فينهى عنه ، فاذا شفى من مرضه وسلمت معدته و حتاج إلى ما يعيد قوته حتم عليه الطبيب تناول ما كان يمنعه عنه . واعتبر ذلك فى تربية الطفل يعطى من الغذاء الخفيف ما يناسبه ، حتى إذا شب زيد له من متين الغذاء بمقدار ، ومنع من رضاع أمه ، إذ كان ذلك لا يناسبه بعد كبره . ولا شك أن الأمم عرضة لأدوار شتى فى التربية ، فيصح أن يناسبها فى وقت ما لا يناسبها فى وقت آخر . وفى القرآن الكريم ما يدل على جوازه وهو قوله تعالى : (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) .

وأما ثبوته شرعا فلأدلة كثيرة — منها قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ) نسخت بالآية لسابقة عليها فى التلاوة وهى متأخرة عنها فى النزول ، وهى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً) وذلك أن ترتيب التلاوة غير ترتيب النزول ، وليس المقام الآن فى بيان ذلك ، بل هذا معروف شائع وتلمس حكمته فى فن التفسير ؛ وكقوله تعالى : (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) الآية ، تدل على وجوب ثبات الواحد للعشرة ، نسخت بقوله تعالى بعدها : (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ) الآية ، فإنها تدل على وجوب صبر الواحد للاثنين دون ما زاد عليهما ومن النسخ نسخ التوجه لبيت المقدس فى الصلاة بالتوجه للكعبة ، ونسخ

وجوب صوم عاشوراء بوجوب صوم رمضان ، ونسخ حكم الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث ، أو بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » على الخلاف بين الفقهاء فى ذلك .

ومن هنا يجىء سؤال هل ينسخ كل من الحديث والآية بالحديث أو بالآية ؟ أى هل ينسخ الحديث الحديث والآية ، وتنسخ الآية الآية والحديث ؟ أما نسخ الحديث بالحديث والآية بالآية فلم يخالف فيه أحد من مثبتى النسخ ، ما لم يؤد الى نسخ حديث متواتر بحديث آحاد ، فإن الناسخ لا يكون أقل قوة من المنسوخ ؛ وأما نسخ الحديث الآية أو الآية بالحديث فقد اختلف فيه ، فالمجوزون يقولون : كل من عند الله ، ومن أحكامه ومكلف ، والنبى مبلغ سواء بقول من نظمه هو أو بالنظم القرآنى الكريم ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى . فكل من الحديث والآية معناه موحى به من الله ، والفرق إنما هو فى اللفظ المؤدى به ، فإذا كان اللفظ المؤدى به من قبل النبى صلى الله عليه وسلم فهو حديث ، وإذا كان نظمه ولفظه مما أوحى به مع مراعاة الإعجاز فهو القرآن ، ويكون متعبدا بتلاوته حينئذ . والنسخ على كل حال حكم من الأحكام ، سواء أكان الحكم المدلول عليه بالنص السابق ، أم كان الحكم المتعلق بلفظه على ما سبق فى التقسيم .

والمانعون لنسخ الحديث بالآية استندوا الى قوله تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) فظنوا أن السنة للبيان فحسب ، وليس لهم فيه حجة ، فقد أجمع المسلمون على أن من الأحكام ما ثبت أصله بالسنة ، فليست السنة قاصرة على البيان ، وليس فى الآية دليل على انحصار أعماله صلى الله عليه وسلم فى البيان ، وغاية ما تدل عليه أنه يكون منه بيان ما نزل إليهم ، إما بالتبليغ على ما هو رأى بعضهم فى معنى التبيين ، وإما بتخصيص العام وتقييد المطلق وبيان المجمل وما أشبه ذلك ،

وعلى كل حال لم يقل أحد بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجئ بوحي لأحكام غير ما ورد في القرآن .

وأما نسخ الآية بالحديث فنهم من جوزه ومنهم من منعه ، والمجوزون أكثرهم على أنه لم يقع وإن جاز عقلا ، لأن كلا من الناسخ والمنسوخ من عند الله على ما سبق ، ويقولون فيما توهم فيه أن فيه نسخ الآية بالحديث : إن الناسخ آية لا حديث . فمن ذلك آية الوصية للوالدين والأقربين (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ) : توهم فيها أنها نسخت بحديث « لا وصية لوارث » فيقولون : إن الناسخ في الحقيقة آية المواريث ، فقد بينت لكل ذي حق حقه ، فلم يرجع أمر التقسيم والإعطاء الى الوصي كما دلت عليه آية الوصية المنسوخة ، ويكون حديث « لا وصية لوارث » لبيان نسخ آية الوصية بها ، ولذلك روى أنه عليه الصلاة والسلام قاله بعد نزول آية المواريث .

ومن ذلك آية الجلد (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) : توهم فيها أنها نسخت بالسنة ، وهو فعله صلى الله عليه وسلم ، وأمره برجم ماعز إذ ثبت عليه الزنى وهو محصن ، فيقولون في دفعه : إن هذا تخصيص للعام لا نسخ ، إذ النسخ هو رفع الحكم كلية ، والتخصيص إبقاؤه مع قصره على بعض أفراده ، فهو من البيان المدلول عليه في قوله تعالى : (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) ، ومن الفقهاء من يقول : إن التخصيص نسخ ، فإنه رفع الحكم عما كان يتناوله قبل التخصيص . وهؤلاء يقولون إن النسخ هنا بآية نزلت ثم نسخت تلاوتها وبقي حكمها ، وهي (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله) فقد روى عن عمر رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال : « خشيت أن يطول بالناس زمان فيقول قائل : لا نجد الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله عز وجل ، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن » وروى

أبو داود عنه أنه رضى الله عنه خطب وقال : « إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه كتابا فكان فيما أنزل عليه آية الرجم — وهى الآية السابقة فقرأناها ووعيناها » ثم قال : « لولا أن يقال إن عمر زاد فى الكتاب لكتبتها على حاشية المصحف » ومعنى ذلك أنها بعد نسخ تلاوتها لم تعد من الكتاب الكريم ، وقد سمع الحضرون للخطبة ولم ينكر عليه أحد ، فاعتبر إجماعا سكوتيا ، وهو كاف فى صحة روايتها وأنها كانت قرآنا ونسخت ، فيكون ذلك من نسخ القرآن بالقرآن ثم نسخ الناسخ ، وغاية الأمر أن النسخ فى الأول نسخ الحكم المدلول للآية مع بقاء تلاوتها ، والثانى نسخ لحكم تلاوتها مع بقاء الحكم المدلول لها ، فاجتمع فى ذلك نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ، ونسخ التلاوة مع بقاء الحكم .

وملخص هذا الرأى أن نسخ الآية بالحديث جائز عقلا ، ولكن لم يثبت قطعا ، ولو ثبت ما لزم منه محال ، بشرط أن يكون الحديث متواتر . والقائلون بوقوعه يستدلون بهذا الذى ذكرناه .

أما المانعون الذين يقولون بعدم جواز نسخ الآية بالحديث ، فإنهم يستدلون بقوله تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ فإنها تدل على أن الذى ينسخ الآية آية مثلها أو خير منها . ويقول الأولون : لا دلالة فيه على أن المأتى به هو الناسخ ، بل كل ما يدل عليه هو أنه إذا حصل نسخ لحكم آية أو تلاوتها أتى الله بآية أو حكم مثلها أو خير منها فى الثواب الأخروى أو فى نفع العباد وتربيتهم ، ولا يلزم أن يكون المأتى به هو الناسخ ، بل يؤتى بحكم أو بآية عند النسخ . والفرق بين المعنيين واضح . وسنشرح الخيرية عند بيان حكمة النسخ للتلاوة أو للحكم ، وإنما ننبه هنا على أن مرجع الخيرية ثواب العبد أو نفعه ، لا أن إحدى الآيتين خير من الأخرى فى ذاتها .

وكذلك يستدل المانعون بقوله تعالى : (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) وذلك أنها تدل على أن الذى يأتى مكان آية آية لا حديث ، وقوله (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ) يدل على أنه منزل من عند الله ، وذلك هو القرآن . ويدفع المجيزون هذين الدليلين بأن قوله : (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ) لا ينفى أنه قد ينسخ حكم آية بحديث ، فإن عبارة « إذا صنعت كذا » لا تدل على أنه لا يصنع إلا ما ذكرت ، وقوله تعالى : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ) يتناول ما نزل قرآنا وما نزل سنة ، فإنه لا ينطق عن الهوى

هذا طرف من أدلة المانعين والمجيزين ، نكتفى به فى المجلة علما بأن استقصاء مثل هذه المباحث مما يكل أذهان جمهور القراء ، وإنما نرمى منها عما تتناوله مدارك الأوساط ، ومن شاء الاستقصاء فحبذا القصد ، ولكن لا تتسع صفحات المجلة لبغيته ، بل محل ذلك كتب الأصول .

وممن منع نسخ الآية بالحديث الشافعى وأحمد ، وممن أجازه بشرط التواتر مالك وأصحاب أبى حنيفة وابن شريح وكثير من المتكلمين أشاعرة ومعتزلة ، على خلاف بينهم فى الوقوع كما ذكرنا آنفا .

أما حكمة النسخ فالكلام فيها فى موضعين . (الأول) حكمة النسخ على العموم . و (الثانى) حكمة نسخ التلاوة مع بقاء الحكم ، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة .

فالمقام الأول يكفى فيه ما سبقت الإشارة اليه من أن الدين نزل تدريجيا لتربية قوم تأصلت فيهم عادات ومألوفات ، حتى اعتقدوا فيها أنها المكارم ووسائل المجد ، ومرجع الفخار ومقياس عزة النفس ، وقد اختار الله تعالى وجلت حكمته أن يبعث رسوله من

هذا الشعب الذى بلغ الغاية العظمى فى تقديس أسباب المجد والمفخر والمآثر ، وغلبت على نفسه وجهة الفخار والتحدث بالمحامد والفرار من المذام بدرجة ما عرفت فى شعب غيره ، ويكفى فى ذلك تتبع ما كان يثور بينهم من الحروب لطاحنة الى درجة التفانى بين المتحاربين ، ويبقى ذلك سنوات عديدة ، فما كانت أسباب ذلك لترجع الى التزاحم على مال أومتاع ، أو اقتناء ثروة أو غيرها مما هو مدار الحروب فى زمننا هذا ، بل بين المتحضرين كافة فى كل وقت ، وإنما كان مرجع حروبهم فى الكثير الغالب هو الحمية للشرف ، والنعرة فى التفاخر ، والاعتداد بالفضيلة ، والتبريز فى المجد والنبل . فشعب هذا شأنه ، وقد اختاره الله تعالى بالقيام بنصرة نبيه ونشر دينه ، ليس من الحكمة مطلقا أن يساس قسرا ، وأن تنتزع منه مألوفاته قهرا ، بل الحكمة كل الحكمة فى أن ينقل تدريجيا من حالة الى حالة تليها، حتى إذا ركن للثانية نقل الى درجة تليها، وهلم جرا .

يتجلى لك هذا فى تحريم الخمر التى كان يتغنى بها شعراؤهم ، ويتباهى بها فتيانهم ويتحدث بها شجعانهم ، يرونها أمارة الرجولة ، وعنوان الشهامة ، وسمة الفتوة ، فجاءت الأحكام والآيات تستلها من نفوسهم رويداً رويداً ، حتى استقر أمرها على المنع البات ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) لم يصدموا فيها ولم يتركوا لها ، فنبههم ليتأملوا آثامها ومضارها ، ثم اقرأ قوله سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) فزاد تنبههم الى أنها لا تناسب هذا المقام العظيم ، مقام وقوف العبد بين يدى ربه يناجيه بكلامه بكل خضوع ، ويستنزل رحمته بكل جهد ، فينبغى أن يكون حاضر كل العقل ، حتى إذا تفطنوا الى منافاتها لأعظم مقام تصبو إليه نفوسهم ، وجرت حوادث زادت تنبههم الى ما فيها من ضرر ، تشوفوا من أنفسهم لتحريمها بتاتا ، فجاء قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ

وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)، أفلا ترى كيف كانت الحكمة البالغة فى تربية شعب اصطفاه الله من بين الشعوب باختيار رسوله منه، لما أودع فيه من صفات النبل والمجد، فيبقيها له بعد أن ينقيه مما علق بها من الأدران؟ وكذلك آيتا التربص حولا والتربص أربعة أشهر وعشراً: كان الأول علاجا لعادة تأصلت فى نفوس أشرافهم، واعتبرت وفاء من الزوجة لزوجها المتوفى عنها، وهى أن تحرم على نفسها الرجال من بعده، فكان فى هذا وفاء حقا، ولكنه زاد حتى حمل من ظلم المرأة ما يعكر اعتباره فضيلة، فالظلم لا يدوم وإن دام دمر، ولكن العدل إن دام عمر، فلم يكن من الحكمة أن تقتلع صفة الوفاء الأبدى المقدسة فى نظرهم لى الحكم الذى أراد جل شأنه أن يستقر الأمر عليه، وهو تربص أربعة أشهر وعشر طفرة واحدة، بل الحكمة كل الحكمة أن تكون لنقلة على درجتين: (الأولى) الى حالة كان يرها بعضهم والعقول تسيغها بعد الأولى بسهولة، وهى تربص الحول — ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر. و(الثانية) بعد هذه وهى ما ستقر عليه لحكم، وهو كاف للوفاء عند الإنصاف.

وهكذا إذا تتبعت الأحكام التى نسخت وأحسنت التأمل، فإنك ظافر بحكمة تزيدك إيمانا وشكرا، وينطلق لسانك بقوله جل شأنه: (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا ٱللَّهُ).

لموضع الثانى — حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم، أو نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

وقد عرفت مما سبق أن معنى نسخ التلاوة هو نسخ حكمها، أى لم تبق للآية صفة القرآنية — من التعبد بتلاوتها، وصحة الصلاة بها، ونحو ذلك، فأما القسم الأول وهو بقاء

التلاوة مع نسخ الحكم، فلتتجلى لنا حكمته البالغة فى تربيتنا، ونشهد التدرج فى الكمال الذى أعدنا له جل شأنه بتغيير الحكم الذى كان يناسب علة متأصلة فى الأمة الى حكم مناسب للدوام والاستقرار، فنزداد شكراً، ويقوى امتثالنا للحكم، واقتناعنا بالرحمة المودعة فيه، فقد يكون انتقالا إلى أخف فنشكر نعمة التخفيف، وقد يكون انتقالا الى حكم أشد من الأول فنشكر نعمة التهذيب لنفوسنا، والتعريض للزيادة فى مثوبتنا، وتتبع الأحكام التى ورد عليها النسخ تقرأ العجب العجاب.

وأما القسم الثانى وهو نسخ التلاوة مع بقاء الحكم فيظهر فى كل آية بما يناسبها، وإذ كان السؤال فى آية الرجم فلنخصها بالذكر، ولنبد فيها ما يظهر لنا مما تنشرح له الصدور:

لقد وردت الآية فى عقوبة هذه الفعلة الفاحشة جد الفحش فى نفسها، التى تزداد فحشا إذا وقعت ممن لم يكن ليظن به أن يتردى فى هاويتها، ويلوث رجسها، ويفتضح بشناعتها، وهى مع كونها إجراما خبيثا فيها معنى الفحش والعار والقبح حتى قبح تكرار سيرتها، فهى مما يستحى من تكراره، وهى من الشناعة بحيث ينبغى أن تسلك فى مسلك ما يستحيل ولا يكاد يقع، ومما ينبغى أن تنزه الأسماع عن تكرار سماعه والألسنة عن تكرار لتلفظ به.

هذا كله فى فرض أن يقع ممن ذاق هذا الأمر وعرف قيمته، وأما أصل وقوعه ممن لم يعرفه ولا سبق له غشيانه فى حلال، فهو مما لا يكاد يقتلع كلية من الناس، فالزنى إذا فرض خفته ألا يفرض إلا من فتيان لم يتخلصوا من جهالة الشباب، ولم يتذوقوا طعم التزاوج، فقد يعذرون فيه فلا يستحقون ذلك الإعدام المزرى، وهو القتل كما تقتل الحشرات الخبيثة، ولكن يؤدبون، فليكن تأديبهم أمرا ماثلا أمامهم تتلى عليهم آيته كل حين، أما من بلغ درجة الكمال فلا يسع العقل أن يصدر منه

هذا حتى يتعرض لحكمه ، فمن الحكمة بعد أن علم أمره أن تنسخ تلاوته ويبقى حكمه معلوما فى الشرع ، ودل على البقاء صنعه صلى الله عليه وسلم مرارا ، وصنع صحابته من بعده .

ومما يشرح الفرق بين الإجرام والفحش أنك تستبيح لنفسك التحدث الى بنيك وبناتك بأخبار سرقات أوقتل أو نهب ، وتتحاشى أن يصل الى سمعهم أو سمعهن أخبار هتك الأعراض ، أو تعرض الرجال للنساء ، وتعرض النساء للرجال ؛ وعلى ذلك يكون أصل الفريضة لخطرها تثبت بقرآن يتلى ، كما أشار اليه عمر رضى الله عنه فى خطبته السابقة ، وتنزيه الأسماع والألسنة عن تكرار ذكره ، وإدراجه فى سلك ما لا يكاد يحصل حتى يتعرض له — مدعاة لنسخ آيته ، وبذلك تتجلى الحكمة البالغة فى التشريع بآية قرآنية ثم نسخها مع بقاء حكمها .

وأما حكمة نسخ التلاوة والحكم جميعا فإنها تعلم بالقياس الى ما ذكرناه والله التوفيق ؟

ابراهيم الجبالى

الطرف والملح

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أعجب ما فى الإنسان قلبه ، وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافها ، فإن سنح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاجه الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعد بالرضا نسى التحفظ ، وإن أتاه الخوف شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته الغِرّة ، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن استفاد مالا أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة بلغ به البلاء ، وإن جهد به الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط فى الشبع كظته البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط له قاتل .

نقد كتاب حديث الاربعاء

(٥) ثم إنا ثنينا عنان جريدة السياسة الى بديهية فى آداب الصحافة باتباعها لا يسوغ لها نشر ما يفحش به حديث الأربعاء ، فكان اعتذار الشيخ طه عنه حيث يقول : « فنحن نتخير لهذا الشباب من الشعر الدنس أقله من الإثم حظا ، وأنزره من الفجور نصيبا ... » فهل أحمد الله إذ أقر الشيخ طه بما تولى من كبره فى نشر الشعر الدنس ؟ وهل ينجيه من إثمه نزر فجره وقلة حظه ؟ أفى الفجر قل وكثر ؟ كلا ، إنما هو كالخمر ، وقديما قيل فيها : « أفسدتك الكأس الأولى » ثم ثنى الاعتذار بما هو أقبح من الذنب فقال : « وهل يحب ساداتنا أن يجهل الناس بشاراً وأبا نواس ؟ » .

بخ بخ للأستاذ : لقد أتمت جريدة السياسة معلومات قرائها فلم يبق عليها إلا أن تفقهم على فجر بشار وأبى نواس ، أو كأن قراءها الأحرار حبسوا معارفهم على ما تفيض بها أنهارها ، فتعطشوا الآن لبشار وأبى نواس ، أو أن الجامعة المصرية خاطت على جريدة السياسة وصارت هذه فرعا من تلك تنشر محاضراتها بالبريد ، أو كأن لسان الأحرار الدستوريين لا يريقه ما يأتيه من الأحياء فلم يكف غربه عن الأموات يتولى الأستاذ منهم نشر مقابحهم ، وذكر مخازيهم ، وهتك أسرارهم التى أطبقت دونها صفائح وجندل ، وكفنت معهم فى أجداثهم ، فنشرها لا يرقب فيهم إلّا ولا ذمة ، وللموتى حرمة وللموت جلال من دونه تلك الأعاذير ، قال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه وفى البخارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا الى ما قدموا » ولأبى داود : « إذا مات صاحبكم فدعوه لا تقعوا فيه » .

(٦) والآن ننتقل مع الشيخ طه إلى أشد ما ننكره عليه ونؤاخذه به فيه ولا عتب علينا ولا ملام : قال الشيخ المسلم طه حسين فى سياسة ٧ جمادى الثانية : « بل إن أخلاقنا وعاداتنا تمنعنا أن ننشر للناس بيتا قاله حسان يهجو به هنداً زوج أبى سفيان ، فلما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم أعجب به وقال لشاعره فيما ذكر الرواة : قل وروح القدس معك » .

فى الحديث الصحيح من رواية مسلم وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن كذبا على ليس ككذب على أحد » الحديث . فاذا سهل علينا قليلا أن يخبط الشيخ طه بقلمه خبط عشواء فى العلماء والخلفاء ، فلا يسهل علينا أن تعمد به جرأته الى الحضرة النبوية إلا متحرجا حذر ، ولا نغفر له تهجمه على المصطفى بنشر كلمة عن ذاته الطاهرة يلتقطها ممن ليس أهلا لقولتها ، أو ينقلها عن كتب لا تخصص للحديث وروايته على صحة ، ولذلك ترى صدرى ضيقا حرجا مما جرى به قلم الشيخ طه ، وكان أولى له ثم أولى أن يباعده ولا يقارفه ، فكيف وقد طوعت له نفسه أن يتنكر على المصطفى ويذكر بالقلم الذى يكتب به الشعر الدنس — كما يقول — أن أخلاقه وعاداته تمنعه من نشر شىء أعجب به النبي وأعان عليه الروح الأمين ؟ : الى هذا الحد وصل الأستاذ ؟ :

لقد كنا نظن أن حديث مخرجه من الأزهر وهو فى سن الطلب أتت عليه السنون وأذهبه العلم فى الكبر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . : على أنا نمهد بالشيخ الى كتب الأدب لأنا نعلم منه مبلغ علمه فى الحديث ، فهذا حديث روح القدس مع حسان مذكور فى الأغانى ج ٤ بصفحات ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ فى عدة مواضع ووقائع لم تذكر فيها هند ولا شعر هند ، بل كان معه جبريل فى هجاء المشركين لذين آذوا الاسلام وأعانه بسبعين بيتا فى مديح النبي وساعده روح القدس فى حماية أعراض المسلمين وما كافح عن رسول الله ، وشهد معه صلى الله عليه وسلم فيما قدس به

ربه وشهد لرسله ، ودعاه للحارث بن عوف ، ووهب له الجارية « سيرين » علامة رضاه عنه بعد غضبه عليه فيما كان قد سمّع فيه بقومه قريش إذ ناب .

فهذا ما كان من ذكرٍ لرسول الله مع حسان بما يناسب هذا المقام، أما حكاية هند وهجاء حسان فيها فقد ذكرها أبو الفرج فى كتابه ج ١٤ ص ٢٠ وهى قصيدة قالها فيها بعد أن أسمعه سيدنا عمر بعض ما قالته هند فى واقعة أحد، وكانت إذ ذاك مشركة توقد النار على المسلمين ، وفعلت بتلك الواقعة ما لم يفعله أحد حتى جدعت آذان قتلى الصحابة وأنفهم ، واتخذت منهم قلائد ، وبقرت عن بطن حمزة فلاكتها ، وكانت هى والنسوة اللاتى معها يضربن خلف الرجال بالدفوف ، وهند تقول فيما تقول من تحريش المشركين بالمسلمين وتحميتهم عليهم ، ثم كان ما كان ، فهجاها حسان بأحد عشر بيتاً لم يذكر أنه أنشدها رسول الله فأعجب بها وقال لشعره ما قال الشيخ طه (قل وروح القدس معك) ، وإنما القصة مع عمر ، والقصيدة أقل ما تقال فى مشركة كان لها ولزوجها ذلك النصيب الوافر فى هزيمة المسلمين يوم أحد ، وليست أفحش مما يقع عليه الشيخ طه وينشره إن كان ما يقال فى مشرك مستحق للعن فحش .

فهل عند الشيخ طه نبأ صحيح عن حديثه هذا الذى يرويه ؟ على أن الحديث لا يروى من كتب الأدب ، ولا يؤخذ أنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من كتبه التى تخصصت له ، فإن لم يكف الأستاذ هذا فقد أجلناه مثل ما أجلت لمهلكها ثمود أن يسند روايته ويخرج حديثه ، وإلا روينا له الحديث الصحيح الذى بلغ مبلغ التواتر ورواه غير واحد فى الصحاح والسنن والمسانيد : قال صلى الله عليه وسلم : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

(٧) وبعد هذا كله يصح أن نفكه القراء بما تنادر به الشيخ طه ، فقد زعم أن نقدنا إياه وإنكارنا سوآه سب له وشتم يعرض عنه . ولو قالها غير الشيخ طه

لغفرناها . الشيخ طه الذى تعلق من صغره بأعرض أعلام عصره بغية الوصول الى ما قصده من قبل زميله بشار فى هجاء جرير ، فقال ما لم يبلغه الباغى الأول : الآن وقد نقدت بالحق تحس ألم النقد ؟ فكيف غيرك وقد أخذه نقد الحقد وقصد الكيد وهو يستعيذ بالله من العقرب تلسب النبى والذمى ؟ أفتريد أن أقول لك ما تقوله العرب فى هذا « رمتنى بدائها وانسلت » أم أنقل لك ما أنت به أعلم من قول سيد الكنيسة الإفرنسية وغيرها فى الإصحاح السابع من إنجيل متى « لا تدينوا لكيلا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم . ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينيك فلا تفطن لها ؟ أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك ، يا مرائى أخرج الخشبة أولا من عينك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك » .

وهبنى جاريتك فيما زعمته تجر ما عليك من نقدك وأنت والحمد لله حى يومك وحر تنتصف لنفسك ، فما اعتذارك أنت وقد تعلقت بالأموات تنبش قبورهم وتنسب السوء لهم ، وطاعنتهم حين لا يدفعون ، وتكلمت فيهم من حيث لا ينطقون ، وغرك ما وطأه الموت لك من أكنافهم ، فتهجمت على حرماتهم ، لم تحاش عالما ولا خشيت خليفة ، ولو كانوا مثلك اليوم أحياء لكان بينك وبينهم بعد المشرقين ، وحال دون قولك فيهم سوط يعذبتين . وقديما مر ابن زبان وهو يومئذ سيد الأحابيش على أبى سفيان بن حرب وهو يضرب فى شدق حمزة عليه السلام بعد قتله يوم أحد ويقول : ذق عقق ، فقال الحليس بن زبان : هذا يا بنى كنانة سيد قريش يصنع بابن عمه كما ترون لحما ! فقال : اكتمها على فإنها كانت زلة . وكنت أنتظر من أستاذنا مثل توبة أبى سفيان وترك فرى الأموات ، ولكنه استغشى ثوبه وأبى واستكبر وما اعتبر . ولو أن الأستاذ طه عمد الى أبى نواس فشرحه كما شرح من قبل أبا العلاء : لم يقدم له

تلك المقدمات الخاطئات ، وجنب قلمه الحكايات الكاذبات ، ولم ينبش القبور ولم ينشر كواذب الفجور ، لما ظننت أن كاتبا تعرض له فيما سقط فيه ، وإذ كنت أرى أن الشيخ يرجع الى حديث معاد ، ويفتح بابا فرغ الناس منه ، فأبو نواس ترجم كثيرا وجمعت أشعاره وأخباره ، فما قيمة أستاذ الجامعة فى بحثه هذا بعد هذا والحب منتثر لمسقط الطير بلا عناء ؟ وكانت همته فى نظرى أبعد من هذا ، ولكنه أنزلها لهواه ، وأعظمه فأطغاه ، إذ ما كنت أظن أن أديب اليونان ، وصهر الفرنسيس ، وأبا مرغريت ، وربيب الجامعة المصرية وأستاذها ، ومحيى اسبربون فى أول كلمة قالها — يرضى لنفسه من العلم درجة الدعوى فيه .

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

ويتيه فى رده تيهان من ضل عنه هاديه ، ولقد بصرته بزالق أقدامه ومخابط أقلامه ، وأردته على وجهة الصلاح ، وأذنت فى أذنه حى على الفلاح فأخلد الى الأرض واتبع هواه ، وكان الظن فى حيائه أن يأباه ، فقل ما شئت فليس علىّ هداك ، ولن أبلى بحديثك بالة ، ولا أردّ عليه بعد اليوم مقالة ، فقد تبين الرشد من الغى ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟

محمد سليمان



مولد النبي صلى الله عليه وسلم

ورد رياسة الأزهر الجليلة خطاب من حضرة الأستاذ الشيخ عبد المجيد قرشي من بلدة بتي بلاهور من الهند في الدعوة الى إقامة حفلات عامة لذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني عشر من ربيع الاول فأجابه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الازهر بخطاب يحمد فيه الدعوة ويشكره على هذه الهمة ، وبعث اليه صحبة الخطاب الرسالة الآتية :

إن الاحتفال بالذكريات العظمى وتمجيد أيام النعم الكبرى أقوى أمارات ارتقاء الشعور وحياة الوجدان ، وهو مما يسعد المنعم عليه على أن يعرف للنعمة قدرها ويقوم بواجب شكرها ، وذلك حق محتوم على كل من انتفع بهذه النعمة وجنى ثمرة من ثمارها . ولله على عباده نعم لا يحصيها العد ولا تقف عند حد ، تتفاوت مقاديرها بحسب عموم أثرها وعظم خطرها ودوام النفع بها . وإن من أعظم النعم خطرا ، وأعمها أثرا وأدومها نفعا ، وأجماها وقعا ، رحمة الله التي بسطها على جميع العالمين ليهديهم بها الى سعادة الدارين ، ذاك هو ظهور النور المحمدي ، ومولد صفوة الله من خلقه ، الذي خاطبه جل شأنه بقوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) فقد جاءت شريعته الغراء كفيلة بسعادة الحياتين ، وانتفع بها جميع العالمين في الدارين .

أما الانتفاع العاجل في الدنيا فحسبك منه أن تعرف ما كان عليه العالم قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت الدولتان المهيمنتان على معظم المعمور في الشرق والغرب (فارس والروم) تقتسمان العالم اقتسام امتلاك ، فتفرضان على رعاياهما من صنوف الإذلال

والإرهاق ما جعل الحياة بؤسا والعيش شقاء وجحيما ، وطال عهد ذلك بالناس حتى حسبوه من لوازم الحياة ، فنشئوا وكأنهم يعتقدون أن الناس بطبعهم صنفان : صنف خلق للسيادة والعز ، وآخر خلق للعبودية والمذلة ، وتربت على ذلك نفوسهم حتى استكانوا للشقاء وخنعوا للإعنات ، وملك الطغيان رءوس ساداتهم فأوغلوا فى إرهاق العالم وتزاحموا على الأثرة بالسيادات حتى وقع العالم فى لجة عميقة من الاضطراب وارتباك الحياة ، فعم البؤس طبقات الناس ، وكانت الحياة جد مريرة ، فلما جاء الاسلام أزال الفوارق الجنسية ، وقرر مبدأ المساواة فى أصل الخلقة ، وأن التفاضل بينهم بما يكون بما يبدو من آثارهم وعظيم الانتفاع بهم فى الدين والدنيا (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ) ففتح بذلك باب جديد من أبواب سعادة البشر ، وهو باب (خير الناس أنفعهم للناس) وأكرم الناس عند الله أتقاهم ، فرد طغيان الطاغين ، وكبح جماح الجامحين ، وعاد التنافس فى النفع وتقديم الخير على النوع البشرى بأعظم المنافع .

وكذلك كان العلم محتكرا لطائفة من الناس يحجرونه عن غيرهم ، ويقصرون الاعتزاز به على من يختارون ، فكان فى دائرة ضيقة خاليا من المنافسة التى تشحذ العزائم وتذكى الهمم ، فقرر الاسلام إباحة ساحته ، بل أكد فى الحث عليه والترغيب فيه ، ووضع قاعدة (خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا) وقرنها بقاعدة (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وأطلق الفكر من كل عقال ، ما لم يصطدم بإضرار أحد ، أو يطغ على مقام العزة الإلهية ، أو يصطدم بحكم من الأحكام الدينية ، فكان فى هذا باب أوسع لسعادة البشرية وغير خاف ما عاد على العالم أجمع من تقرير هذين المبدأين من عظيم النفع العاجل ، وهما مبدأ انتزاع المفاضلة بالأجناس ونوطها بنفع الناس ، ومبدأ إباحة العلم لكل من هو أهل له .

وأما الانتفاع الآجل فى الآخرة فحسبك منه أن جعل سبيله واضحا ، وبابه مفتوحا سهل لتوصيل لأعظم الغايات وهى السعادة الخالدة ، وقرن أحكامه بحكم ومصالح ترغب فيها العقول السليمة ، وكلما أعرض المرء عن سلوكه بمعصية فتح أمامه باب التوبة مع الترغيب وتأكيد الطلب ، فاذا فوّت امرؤ بعض هذه المنافع على نفسه فليس ذلك بقادح فى عموم الرحمة ، فالشمس نعمة ولو على غير المبصرين ، وعسى أن ينتفع بشروقها الأعمى بأن يراه المبصر فلا يصطدم به فيؤذيه ، فضلا عما عاد عليه من منافعها الأخرى .

فجدير بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بجميع الأمم نظرا لما عاد عليها من سنا نوره مما أضاء لها سبل الحياة أن تعرف لهذا اليوم السعيد فضله على الانسانية جميعها .

وإنه لما يملأ القلب سرورا والنفوس غبطة أن نرى فى الأقطار المصرية لهذا الموسم العظيم موسم المولد النبوى من مظاهر التعظيم والتبجيل ما لا يكاد يدانيه موسم آخر ، فترى من عناية حضرة صاحب الجلالة ملك مصر الملك فؤاد الاول والحفاوة بهذا الموسم ما يناسب جلال صاحبه عليه السلام ، ويليق بعظيم آثار نعمته على العالم ، وتتبعه فى ذلك حكومته الرشيدة ، وتقتدى به فى هذا العمل الجليل الأمة المصرية ، فلا يكاد يهل هلال ربيع الأول من كل سنة حتى ترى أعظم ساحة فى القاهرة عاصمة الديار المصرية قد غصت بأفخم السرادقات ، متحلية بأبدع الزينات ، متلألئة الأنوار بالثريات الكهربائية والمصابيح المضيئة ، وفى وسطها سرادق الملك أعظم سرادق ممتاز بأبهته وجماله ، وسرادق الخاصة الملكية لإطعام الطعام على نفقة الجيب الملكى الخاص ، ويتبع ذلك سرادقات وزارات الحكومة ، ثم سرادقات العظماء وأرباب الطرق الصوفية ، وكأن لوامع الأنوار فيها تذكر بطلوع النور الإلهى ، نور الرحمة والهداية على العالم الأرضى بمولده صلى الله عليه وسلم .

وليس جمال تلك الأنوار الساطعة ليلا بأبهج رواء ولا أروع منظراً من هالات الموائد قد صفت عليها أشهى ألوان الأطعمة ، تحيط بها دوائر من العفاة ، يطعمون مما

يشتهون ، ويتعاقبون عليها ليلا ونهارا ، فئة تنصرف وفئة تخلفها حتى يعم الفرح به الغنى والفقير ، فيصرف من ذلك فى الصدقات ، وإطعام الفقراء ، وإكرام الضيوف ، وإقامة الزينات ، ومظاهر السرور ، أموال طائلة من الجيب الملكى وخزانة الدولة وإيراد الأوقاف وتبرعات العظماء والأعيان ، فاذا ما وافت الليلة الثانية عشرة منه سارت مواكب أرباب الطرق الصوفية تؤم هذه الساحة الفيحاء ، يستقبلها جلالة الملك بنفسه ، أو أعظم رجل فى الدولة بالنيابة عنه ، حفاوة بالموسم وإجلالا للذكرى .

وفى صبيحة اليوم الثانى عشر يتوجه جلالته أو من ينيبه لمشهد الحسينى حيث تتلى بمسمع منه قصة المولد الشريف بغاية التجلة والتعظيم ، وتجرى صورة من هذا فى المدن العظمى وسائر البلدان المصرية . وفى هذا اليوم يستريح عمال الدولة فى كل مصالح الحكومة أسوة ببقية الأعياد الرسمية ، فترى فى ذلك عيدا تشترك فيه الأمة المصرية على بكرة أبيها ، ويكون مهرجانه أفخم مهرجان تشهده البلاد كل عام ، فيشمل الابتهاج به كل الطوائف من مسلمين وغير مسلمين .

وإن فى ذلك لمظهرا للشعور الراقى والوجدان الحى ، ومعرفة القدر وأداء واجب الشكر ، ويتبعه من آثار المحبة والوئام وانتشار السكينة والسلام ما يجل عن الوصف .

نسأله جلت قدرته أن يديم نعمه على بنى الإنسان ، وأن يهديهم الى ما فيه السعادة الكاملة فى جميع الأزمان ، والله المستعان ؟

الاقاليم الجليدية
فى القطب الجنوبى [1]

يتقدم الانسان يوما بعد يوم نحو كشف أجزاء العالم النائية غير المعمورة ، إلا أن هناك فى أواسط القارات مساحات واسعة من الأراضى لا يستهان بها ما زالت غير معروفة ، فهناك فى أسيا الوسطى مثلا أقاليم لا تقل مساحتها عن مساحة ألمانيا لم تطأها رجل مستعمر بعد ، وفى عام ١٩٣٦ اكتشفت فى شمال شرقى سيبيريا أراضى لا تقل طولا وعرضا وارتفاعا عن مناطق جبال الألب فى أواسط أوربا ، إلا أننا وصلنا الآن من حيث الاستكشافات الى درجة تمكننا من معرفة شكل الكرة الأرضية على وجه التقريب ، وحتى الأقاليم الجليدية فى القطب الشمالى أصبحت معروفة ما عدا بعض أجزاء بحر الجليد وعدد قليل من الجزر الواقعة به .

أما فى الطرف الجنوبى من الكرة الأرضية فتوجد قارة لا يقل اتساعها عن أوربا ليست معروفة لنا إلا فى بعض أجزائها ، ولم نتوصل بعد الى استكشاف أكثر من نصف سواحلها .

ونستعرض الآن بعض نقط المقارنة بين هذه الأقاليم الجليدية وقارة أوربا حتى نستبين اتساع هذه البقاع الجنوبية النائية التى لم يتم استكشافها حتى الآن ، ولو أن المقارنة فى مثل هذه الحالة تكون فى بعض نقطها ناقصة حيث تختلف كل من الناحيتين من حيث الشكل الخارجى اختلافا بينا ، وعلى ذلك فالفائدة المرجوة من مثل هذه المقارنة لا تزيد عن تعرف المساحات العامة دون التفاصيل الشكلية الدقيقة .

---

(١) نقلا عن مقال للاستاذ «باشين» فى مجلة "Kosmos" الالمانية .

لنفرض الآن وقوع مركز القطب الجنوبى فى مدينة «موسكو» حتى يسهل لنا تطبيق مساحات الجهات المستكشفة فى الأقاليم الجليدية الجنوبية على القارة الأوربية، فيكون ما قطعه الرحالة «أموندصون» فى ٥٥ يوما عام ١٩١١ هو عبارة عن المسافة بين الحدود الروسية الجنوبية عند جزيرة القرم على البحر الأسود وبين مدينة موسكو التى تمثل فى هـذه الحالة القطب الجنـوبى، ويكون ما قطعـه «الكابتن سكوت» فى ٣٠ يوما عبارة عن المسافة بين مدينة استراخاز عند منابع نهر الفولجا ومدينة موسكو حيث عاد كل منهما الى حيث بدأ رحلته عن نفس طريق الذهاب، وعلاوة عن هاتين الرحلتين الاستكشافيتين قام ثلاثة آخرون برحلات قصيرة تتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ كيلومتر فى قلب المناطق الجليدية الجنوبية التى تمثلها لروسيا فى هذه الحالة أى لا تزيد عن بعد الشقة التى بين مدينتى موسكو ولينينجراد، فتكون معلوماتنا فى هذه الحالة عن داخلية لبلاد الأوربية محصورة فيما تمكن هؤلاء الرحالة من رؤيته فى الرحلات الخمسة التى قاموا بها على الوجه السابق وصفه.

فاذا ما توسعنا فى مقارنة المناطق الجليدية الجنوبية بالقارة الأوربية فاننا نجد فى هذه الحالة أن معلوماتنا من جهة السواحل الخارجية لا تزيد عن السواحل الجانبية للروسيا وحدودها الأسيوية، والنصف الجنوبى من سواحل بلاد النرويج، وبعض أجزاء سواحل بريطانيا، دون التأكد من شكلها تماما.

يتضح من ذلك أن معلوماتنا عن الأقاليم الجليدية فى القطب الجنوبى لا تزيد عما لو كنا لا نعرف من أوربا إلا أجزاءها التى ذكرت فى المقارنة السابقة، وحتى هذه الأجزاء المعروفة لنا ليست من الوضوح بحال تمكننا من الحكم عليها من حيث مواقعها أو شكلها الداخلى أو الخارجى، فلا تزال علاقة بعض أجزائها بالبعض الآخر غامضة كل الغموض حتى إنه ليصعب علينا فى أغلب الأحيان معرفة مقدار اتصالها بعضها ببعض

ككتلة واحدة، كما يصعب تمييز مواضع انفصال أجزائها عن بعض لكثرة كتل الجليد المتراكمة فى كثير من أنحائه. وكثيراً ما يخيل المستكشفين أن بحراً يجتاز هذه القارة القطبية الجنوبية الى مياه جنوب أستراليا ويمثل فى هذه الحالة كما لو كان هناك نظير له فى أوربا يمتد من بحر الشمال الى البحر الأسود.

فهذه الشكوك الكثيرة والصعوبات الجمة التى تقوم فى وجه كثير من المستكشفين جنهد الرواد المتأخرون فى أن يستخدمو المخترعات الحديثة مثل الطيارات وآلات القياس والمناظير المختلفة الأغراض للتغلب على هذه الصعوبات لإزالة كثير من الغموض المخيم على هذه البقاع الوسعة حتى يسهل استكشافها ولا تعرض حياة الرواد للأخطار.

وقد أدت الطيارات فى مساعدة المستكشفين فى الفترة الأخيرة خدمة كبيرة، ولو أن استخدام المناطيد يرجع الى زمن أبعد فى استكشاف مناطق القطب الشمالى فاستخدام الطائرات يأتى بفائدة أعظم لسهولة قيادتها فى الاتجاهات المختلفة وللسرعة الفائقة التى تساعد المستكشف على قطع المسافات السحيقة فى أزمان قصيرة، ولقد أثبتت التجارب التى قام بها بعض رواد القطب الشمالى أن الطائرات أظهرت من الكفاءة فى مغالبة المصاعب ما هو جدير بأن يجعلنا نثق بها كل الوثوق فى لاستكشافات القادمة، ولذا فاننا لا نعجب حين نعلم أنه فى خريف عام ١٩٢٨ (أى فى وقت الربيع على حساب الزمن فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية) قامت رحلتان بالطيارات بقصد الاستكشاف فى القطب الجنوبى. «يتبع»

المسلمون [1]

فى جمهوريات السوفييت الاشتراكية المتحدة

(روسية)

(ج) قازان (بلاد التتر)

قد عينت حدود بلاد التتر بمقتضى مرسوم ٢٧ مايو سنة ١٩٢٠ ميلادية ، وتبلغ مساحة هذه البلاد ٦٦,٠٥٢ كيلو مترا مربعا ، وعدد سكانها ٢,٩١٤,٤٣٩ نسمة فى سنة ١٩٢٥ يقطن منهم عشرون من المائة (٢٠ ٪) فى المدن ، ويبلغ عدد المسلمين منهم ١,٧٤١,٢٩٤ نفسا من السنيين حنفيي المذهب ، وأشهر مدنها هى مدينة « قازان » وعدد سكانها ١٧٩,٢٠٧ أنفس فى سنة ١٩٢٦ ، ومدينة « سيمبرسك » (Simbirsk) وعدد سكانها ٦٥,٠٠٠ نسمة ، ويوجد ببلاد التتر ١,٢١٠,٨٤٥ نفسا من الجاليات الروسية منهم ٣,٤٨١ من الشيوعيين المقيدين .

دخول الاسلام — ابتدأ دخول الاسلام فى بلاد القازان باعتناق الأمير حيدر أمير بولغارى (بالقرب من سباسك " Spassk " على الضفة الشرقية من نهر الفولجا) للدين الإسلامى ، وكان ذا صلات ببغداد ، ولا تزال توجد بعض العُملة المضروبة باسم خلفائه « طالب » فى سنة ٩٥٠ و « مؤمن » فى سنة ٩٧٦ ، وإن بلغاريا العظمى الواقعة على الفولجا قد ضمت الى هذه البلاد فى سنة ١٢٣٧ بواسطة الفتح المنغولى ، وقد منحها أمراء (خانات) التتر كمقاطعة فى سنة ١٣٦٦ الى طوقا تيمور بن جوجى

---

(١) مترجم عن الفرنسية من كتاب دليل العالم الاسلامى .

رأس أسرة تتر قازان وكازيموف وبلاد القرم ، وإن تسامح أولئك الأمراء الذى دخلوا فى الاسلام حوالى سنة ١٣٢٠ قد ترك دور الاسقفيات المسيحية فلم يهدمها .

وفى سنة ١٤٣٧ أسس أولوغ محمد قيصرية قازان (وقازان معناه قدر أو حلة ، وهى مدينة أنشأها باتو فى القرن الثالث عشر) ، وقد فتحها القيصر ايفان الرابع فى سنة ١٥٥٢ . وقد حاول القيصر أن يدخل بالقوة أصحاب الأملاك العقارية فى الديانة المسيحية ، ولكن بالرغم من مجهودات الأسقف سان — جورى فى سنة ١٥٥٥ فإنه لم يصدع لأوامره ما يبلغ قط ٣ فى المائة (٣٪) منهم ، وفى سنة ١٧٧٧ أقرت القيصرة كاترين الثانية رسميا باستمرار وجود الاسلام فى قازان بأن ألفت هيئة رسمية لاختيار علمائه ، وسميت باسم « مجمع العلماء » فى أوفا .

وبعد سنة ١٨٦٤ استأنف إلمنسكى وتلاميذه العمل على تنصير تتار قازان بطريقة منظمة ، وذلك بواسطة إنشاء المدارس — إلا أن ذلك أحدث رد فعل بين المسلمين إذ أخذوا ينشئون المدارس الاسلامية (وسميت باسم « المدارس الأهلية ») فمن ١٦٠,٠٠٠ ممن عمدوا فى الديانة المسيحية قد عاد ٥٠,٠٠٠ الى حظيرة الاسلام عندما أعلن دستور سنة ١٩٠٥ ، وإن الاضطهادات السوفيتية قد قربت منذ سنة ١٩١٨ بين مسلمى ومسيحى قازان . والأجناس التى دخلت الاسلام هى : الفنلنديون الأصليون الذين اعتنقوا الاسلام فى القرن الحادى عشر ، وطبقة الحكام من التتار من رؤساء أسر المنغول الذين هاجروا لبلاد قازان فى القرن الرابع عشر .

اللغة — أما لغة البلاد فهى لغة خليط من اللغة التركية التترية والعثمانلية ، وقد اتبعت كتابة هذه اللغة من نحو ٢٥ عاما مع إبقاء الحروف المتحركة وهى الـ « ا » والـ « و » والـ « ى » والـ « ه » (حرف الهاء معتبر من الحروف المتحركة فى اللغة التركية) ولا سيما الأحرف الثلاثة الأولى حسب كتاب « الأصول الجديدة » ، وجميع العلماء

يتكلمون العربية ، وأما المستوى الفكرى للذكور والإناث فهو غير عادى ، وكان يوجد ٩٥٦ مدرسة ومكتبا فى سنة ١٩٠٠

أما نساء قازان فعلى رأس نهضة التطور النسوى الاسلامى ، حيث كان يوجد فى سنة ١٩٠٠ تلميذة واحدة من اثنى عشر امرأة تتارية ، بينما لم يكن يوجد سوى تلميذة واحدة من كل خمس وخمسين امرأة روسية ، أى أن نسبة التلميذات التتارية كانت تبلغ أكثر من ٩ فى المائة (٩ ٪) من عدد نساء التتر بينما نسبة التلميذات الروسيات لم تبلغ الى نحو ١و٨ فى المائة (١و٨ ٪) من عدد النساء الروسيات .

ولأتراك قازان تأثير كبير على الصحافة العثمانية ، وتحظى صحفهم بعظيم التقدير ، مثل جريدة « يولدوز » . وتتلى الخطبة منذ ابتداء القرن الثامن عشر باسم خليفة آل عثمان ضمنيا بالرغم من مراقبة رجال البوليس . والطريقة النقشبندية كثيرة الانتشار بين سكان قازان .

وقد أسس درمند درويش بهاء الدين فيسوف (ابن عويس) أحد رجالهم والذى يدعى أنه الحفيد الثانى والثلاثين لذلك الذى أدخل الأمير حيدر فى الاسلام ، أسس « دارا للصلاة » فى قازان سنة ١٨٦٢ ، وكان يدعو الى الإضراب عن دفع الضرائب ، وهذا ما حمله على أن يتصل بتولستوى ، أما ابنه عنان الدين الذى خلفه فى سنة ١٨٩٣ فقد دافع فى قضية سنة ١٩١٠

الصحافة — أما صحافة قازان فيوجد منها سنة ١٩٢٣ الصحف التالية : « تاتارستان » و « بسنن بيراق » و « بسنن يول » و « إلتشنتشى » و « قيزيل شرق ياشلارى » و « معارف » وتطبع باللغة التركية ، وأربع نشرات شبيهة بالرسمية تطبع باللغتين الروسية والتترية .

بلاد بشكير

قد وضعت حدودها بمقتضى مرسوم ١٤ يونيو سنة ١٩٢٠ . وتبلغ مساحتها ١٥٤,٢٧٦ كيلو متراً مربعا ، وعدد سكانها يبلغ ٢,٢٧٨,٧٧٨ نسمة فى سنة ١٩٢٥ منهم ٧٤٧,٠٠٠ من رجال البشكير المسلمين السنيين التابعين لمذهب الحنفية ، و ٤٦٧,٠٠٠ من المستعمرين الروس ، و ١٠٣,٠٠٠ من الأمم الأخرى ، و ٩,٥٠٨ من الشيوعيين المقيدين .

المدن — أما مدنها فهى : « أوفا » ويبلغ عدد سكانها ٩٨,٥٥٠ نسمة فى سنة ١٩٢٦ و « ستر ليتاماك » وعدد سكانها ٦٠,٠٠٠ ، و « زلاتووست » وعدد سكانها ٣٠,٠٠٠ نسمة ، ويوجد بها العمال الروسيون من غير المسلمين والذين يشتغلون فى مصنع الأسلحة الذى أسس فى سنة ١٩١١

أما دخول الاسلام فيها فقد جاء عن طريق مركز « بولغارى » و « قازان » وكانوا يطلقون اسم « باسجرت » على أهالى البشكير فى القرن الثالث عشر من الميلاد . وبعد سقوط « قازان » فى سنة ١٥٥٢ أصبح أهلى البشكير تابعين لأمراء (خانات) «سيبير » . ولكن منذ سنة ١٥٥٨ أخذ التجار الروس من أهالى « نوفجورود » فى الاستيلاء على بلاد البشكير بأن كانوا يبنون شيئاً فشيئاً القلاع بالقرب من المناجم التى اكتشفوها ، إذا اكتشفوا الحديد فى سنة ١٦٢٧ . والذهب فى سنة ١٧٧٤ ، والبلاتين (الذهب الأبيض) فى سنة ١٨٢٤ ، وقليل منهم من دخل المسيحية ، وكان المستعمرون الروس البالغ عددهم سنة ١٨٩٧ — ٧٨٤,٠٠٠ نسمة هم وحدهم يغشون الكنائس البالغ عددها ٣٤٩ كنيسة .

الأجناس التى دخلت فى الاسلام — هى : الأهالى الذين هم من أصل فنلندى وصبغوا بالصبغة التركية بواسطة تترقازان ، و « البشكير » و « التبطر » و « المشتشيرياك » . أما اللغة فهى لغة قازان التركية .

مدينة « أوفا » التى أسست فى آخر القرن السادس عشر أصبحت فى سنة ١٧٧٧ مركز لهيئة المجمع الدينى ، أُلّف لانتخاب علماء التتر المسلمين بصفة نظامية . وفى نفس مدينة « أوفا » هذه توفى سنة ١٩٢٠ سماحة المفتى الأكبر عليم جان بارودى الذى يعد أكبر ثقة للسلطة الشرعية العليا لجميع مسلمى الروسيا . أما مديرية « أوفا » فكان بها فى سنة ١٨٩٧ — ١,٥٥٥ مسجد و ٤,٦٥٦ « ملاّ » (رجال الدين) و ٦,٢٢٠ مدرسة .

ويعيش رجال البشكير على تربية المواشى وفلاحة الأراضى ، وهم قوم نصف رحل أى أنهم يعيشون عيشة وسط بين عيشة الرحل وعيشة المستوطنين ، فأهالى الأراضى البائرة يأوون الى بيوت شتوية ، وأما أهالى الجبال الذين كانوا جندوا وكونوا فرقا عسكرية خاصة حتى سنة ١٨٧٤ فقد عودوا على عيشة الإقامة والاستيطان .

هذا وقد عقد مؤتمر لمسلمى روسيا بمدينة « أوفا » فى سنة ١٩٢٣ ، وقد وضع الـ ٢٨٠ مندوبا الذين حضروا المؤتمر مبادئ أقرتها حكومة موسكو ، منها انتخاب هيئة من العلماء مكونة من خمسة أعضاء ضمنهم مرأة يتجدد انتخابهم كل ثلاث سنوات ورئيسها وهو المفتى تمتد سلطته القضائية على المنطقتين القديمتين السنيتين للمشيخة ، وهما منطقتا « القرم » و « أورنبورج » والى بلاد « أوزبكستان » أما المنطقة الثالثة وهى بلاد القوقاز فقد كانت شيعية . « يتبع »

نثر الدر المكنون

من فضائل اليمن الميمون

تأليف حضرة الأديب الفاضل السيد محمد بن على الأهدلى الحسينى اليمنى الأزهرى .

تكلم فيه عن فضل اليمن وأهله وماجاء من ذلك فى السنة الصحيحة ، وبسط القول فى مناقب بعض التابعين من أهل اليمن ، وفى وفود اليمن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبه وبعوثه عليه الصلاة والسلام اليهم ، وختم بحثه بالحديث عن فضائل آل البيت ، فكان من خير ما كتب فى موضوعه . فنشكر حضرة المؤلف على عمله الجليل ونحث الباحثين على اقتنائه ؟

فى الكهرباء الجارية

قد يسأل سائل عن الكهرباء ما هى ، فنقول له : إن سؤ له هذا كثيرا ما يعرض ولا يجد له أبدا جوابا مقنعا ، ذلك لأن الكهرباء لا تتأتى رؤيتها ولا سمعها ولا تعاطيها كغيرها من الأشياء ، ولهذا يتعذر علينا أن نعم من أمرها ما نعلمه من أمر غيرها ، ولا شك أن أوجز تعريف لها وأيسره هو أنها شكل من أشكال القوة .

وكأنى بك تقول : ما هى القوة ؟ فاعلم أن الشمس اذا طلعت ساطعة كانت أشد حرارة منها اذا طلعت فى يوم غائم ، فهذا الأمر الخفى فى ضوء الشمس هو القوة ، فاذا أصاب الأرض هذ الضوء استحالت هذه القوة حرارة تدفئها ، وأما فى الأيام الغائمة فلا تكون قوة الضوء الواقعة على الأرض مثلها فى أيام الصحو ، ولذلك يكون النهار فيها عادة أبرد منه فى تلك الأيام .

وهذه القوة المنبعثة من الشمس اذا استحالت حرارة كانت سببا فى نمو النبات والشجر ، فاذا قطعت شجرة وأوقدت تحت مرجل استحالت القوة المنبعثة من خشبها المحترق حرارة ، وأحالت الحرارة المتولدة من اللهب ماء المرجل بخارا ، وهذا البخار هو شكل آخر من أشكال القوة .

والآلة البخارية أو الدولاب البخارى الحلزونى يحيل هذه القوة من بخار الى قوة آلية يمكن استعمالها فى إدارة أى دولاب ، وذلك بتوصيله بالآلة البخارية أو بالدولاب البخارى الحلزونى بو سطة السيور والبكر ت . والمولد الكهربائى يمكن توصيله بآلة بخارية أو بدولاب بخارى حلزونى ؛ وما ينتجه هذان الدولابان من القوة الآلية

يستحيل شكلا آخر من أشكال القوة يعرف بالقوة الكهربائية أو بالكهرباء ، ومن أجل ذلك تكون الكهرباء شكلا من أشكال القوة .

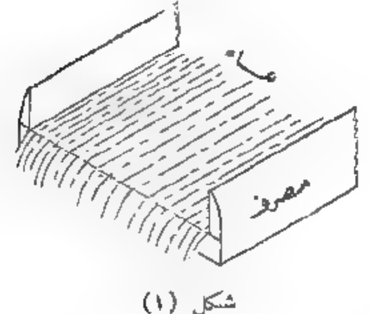
في التيار الكهربائي :

أتدري اذا أمطرت السماء ماذا يحصل في الماء الذي يسقط على سطح منزلك ؟ إنه يجري من وسط السطح الى حافاته ، وينصب في المصارف ويسيل منها في أنابيب متصلة بها نازلة على جانب البناء ، وتوجه المصارف والأنابيب الى المكان الذي يراد صبه فيه .

كذلك يكون جريان الكهرباء الى المكان الذي يراد جريها إليه ، وإنما يستعمل في ذلك عادة بدلا من مصارف الماء وأنابيبه سلك من النحاس الأحمر ، وجريان الكهرباء في هذا السلك هو المسمى بالتيار الكهربائي ، فهو يجري فيه كجريان الماء في الأنابيب النازلة على جانب المنزل سواء بسواء . على أن الكهرباء ليست سائلا وإن كان المشتغلون بها عملا يقولون عنها كثيراً إنها « عصارة » فتراهم إذا أغلقوا مجرى من مجاريها قالوا أغلقنا مجرى العصارة ، فمن أجل فهم جريانها — وهي مما لا تتأتى رؤيته — لا بد من مقارنتها بشيء يمكن رؤيته أو إدراكه ، ولذلك يتخذ جريان الماء مثالا لجريان التيار الكهربائي .

في الأمابير :

أتدري ماذا يحدث في الماء الذي يسقط على قمة الجبل في حال المطر ؟ إنه ينحدر من الجبل الى خندق يكون أسفله ، وليست جميع الخنادق متساوية الأحجام ،



شكل (١)
مصرف مستعمل لتحديد مقدار جريان الماء

فبعضها صغير وبعضها كبير جدا ، وبعضها يحتوي على وشل من الماء ، وبعضها يكاد يكون ملآن به .

هذ القول يحملنا نفكر في نسبة الماء الجاري في المجرى المختلفة ، على أنها لا تكون نسبة غاية في الضبط ، لأن الخندق الكبير قد لا يكون فيه إلا مقدار صغير من الماء في حين أن الصغير قد يكون مملوءاً منه ، ويستعمل المهندس في مقاس جريان الماء في خندق أو مجرى تدبيراً كالمرسوم في الشكل (١) ويعبر عن مقدار جريان الماء بعدد من الجالونات [١] في الدقيقة الواحدة ، أو بقدم مكعب من الماء في الثانية الواحدة . وتصدق هذه الحالة نفسها على جريان الكهرباء . على أنه لا بد من استعمال لفظ للتعبير به عن نسبة جريان التيار الكهربائي ، وهذا اللفظ هو كلمة « أمبير » فاذا تكلمت باصطلاح الكهرباء قلنا إن مقدار جريان التيار الكهربائي هو أمبير مثلا أو أمبيران أو خمسة أمابير أو عشرة أو مائة أو ألف حسب ما يكون المقدار ، فاذا جرت خمسة أمابير في سلك وعشرة في سلك آخر ، كان ما يجري في السلك الثاني ضعف ما يجري في السلك الأول . فاذا رأيت كلمة أمبير فاعلم أن معناها نسبة جريان التيار الكهربائي في السلك ، وهي شبيهة بنسبة جريان الماء في الخندق كما تراه مرسوما في الشكل (١) .

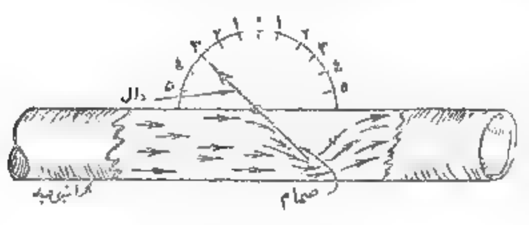
مقياس نسبة الجريان :

اذا أريد قياس نسبة جريان الماء في أنبوبة فلا بد من وضع شيء فيها يعين هذه النسبة ، وهو ما يمكن عمله بالتدبير المبين في الشكل (٢) الذي يصح تسميته مقياس الجريان ، وهذا التدبير عبارة عن صفيحة من الحديد تسمى مروحة توضع داخل الأنبوبة وتربط في أعلاها بمفصلة ، وتكون هذه المروحة من الحجم بحيث تسد فتحة الأنبوبة سدا تاما ، ويثبت فيها عقرب كعقرب الساعة يكون خارجها لتري وضعها في داخلها ، وفي هذا التدبير لولب (غير ظاهر في الرسم) يجعل المروحة تسد فوهة الأنبوبة اذا خلت من جريان الماء فيها ، وفي هذه الحالة يقف العقرب على علامة الصفر

(١) الجالونات جمع جالون وهو أحد مقاييس السوائل في انجلترا ، وهو مستعمل الآن في مصر في بيع الغاز والبنزين .

فكلما عظم مقدار الماء الذى يجرى فى الأنبوبة عظم تذبذب المروحة كما تراه فى الشكل (٢) وازداد تبعا لذلك تحرك العقرب مقابل عدد أكبر من درجات مقياس الجريان .

والتدبير المستعمل فى مقياس جريان التيار الكهربائى كان يسمى أولاً « أمبيرمتر » لأنه كان يُرى نسبة جريان التيار الكهربائى بالأمابير ، ولما رؤى فى هذا الاسم (أمبيرمتر) من الطول اختصر فصار « امتر » وترى مثالا للأمتر فى اشكل (٣)

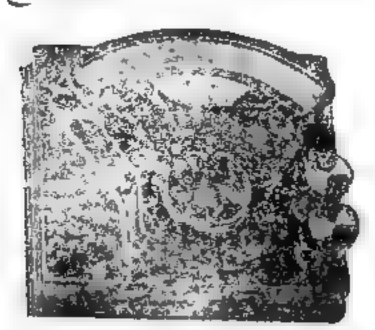


شكل (٢)
تدبير يرى نسبة جريان الماء خلال أنبوبة

ويربط الأمتر دئما بكيفية تجعل التيار يمر فى المقياس عند أحد طرفيه الى طرفه الآخر .

فى الضغط :

إنك ترى الماء فى حال المطر ينحدر على جانب التل الى حفرة تكون أسفله ، وهذا هو شأنه دائما ، وإنما يكون منه ذلك لأن له ثقلا يميل بالطبقة العليا منه الى دفع ما تحتها من طريقها ، فثقل الماء الفوق هذا الذى يميل لكبس الماء التحتى أودفعه ينتج ضغطا ، وكلما ازداد ارتفاع الماء فوق نقطة ازداد الضغط عليها ، وهذا أمر لا شك أن تكون لاحظته اذا كنت حاولت مرة وقف جريان الماء من أنبوبة متصلة بمرجل موضوع فى مكان عال ، أو من صنبور ماء ، بوضع يدك على فوهة الأنبوبة أو الصنبور ، ولا بد أنك تذكر انبثاق الماء حول يدك ، وأن ضغطه كان


شكل (٣)
منظر خارجى لمقياس أمابير تلطفت شركة الآلات الكهربائية فى مدينة وستون باهدائه الينا

قويا جدا أقوى منه فى حال نزوله من قمر مرجل . وهـذا يدلك على أن الضغط هو الذى يلجئ الماء الى الخروج من أنبوبة مركبة مع غيرها أو مفردة ، وهو الذى يلجئه الى الصعود من موقع المضخة الى الخزان المرتفع عنه ، ثم ينقله الى الأنابيب المدفونة تحت الأرض ومنها الى صنابير بيوتنا .

الضغط الكهربائى :

يجرى التيار الكهربائى فى السلك أو الموصل على نفس القاعدة التى يجرى عليها الماء فى الأنبوبة ، فالضغط هو الذى يدفع ذلك التيار الى الجريان فى السلك أو الموصل ، غير أنه فى هـذه الحالة يكون ضغطا كهربائيا لا مائيا ، ويكون مصدره القوارير الكهربائية الجافة ، والقوارير السائلة ، وقوارير التخزين ، والمولدات الكهربائية .

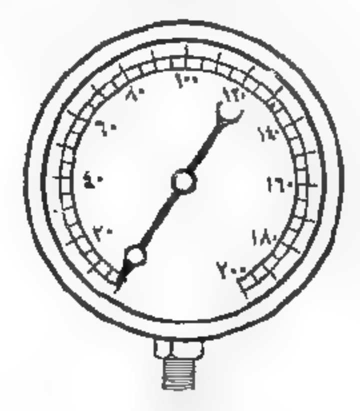
فى الفولت :

ليس لضغط الناتج من قارورة جافة أو من قارورة تخزين أو من مولد كهربائى واحدا فى جميع الحالات ، فإن المولد الكهربائى يمكن تدبيره وبناؤه على أساس أنه يكاد يولد أى مقدار مطلوب من الضغط ، والكلمة المستعملة للتعبير عن الضغط الكهربائى هى كلمة فولت ، ولضغط الذى يتولد من قارورة جافة هو فولت ونصف ، والذى يتولد من مجموعة قوارير تخزين لسيارة هو ستة أفلات ، والذى يتولد من التيار الكهربائى المستعمل للاستصباح فى بيوتنا هو من ١١٠ الى ١٢٠ فولتا ، والضغط الكهربائى اللازم لخطوط النقل الكبرى أو خطوط القوة الممتدة خلال قطر من مدينة الى أخرى هو ٣٣٠٠٠ أو ٦٦٠٠٠ أو ١٣٢٠٠٠ فولت .

فى مقياس الضغط — فولت متر :

يركب على كل مرجل بخارى مقياس يعرف به مقدار ما فيه من الضغط ، ويمكّن الوقاد من معرفة كفاية النار التى تحت المرجل لتحصيل الضغط البخارى اللازم أو عدم كفايتها . وفى أماكن رفع المياه وإدارة المضخات يوجد مقياس ضغط شبيه بالمرسوم

فى الشكل (٤) متصل بأنبوبة المياه يستطيع به العامل القائم بإدارة المضخة أن يعرف إن كان ثمة ضغط كاف لإلجاء الماء الى المرور فى الأنبوبة . وكل صاحب سيارة لديه مقياس ضغط صغير يستعمله لاختبار ضغط الهواء فى الحلقات المطاطية لسيارته . والضغط الكهربائى الذى يلجئ التيار الكهربائى الى الجريان فى السلك يحدَّد مقداره بتدبير يسمى الفولتمتر كما فى الشكل (٥) وإنما سمى بهذا الاسم لأنه يريك مقدار الضغط .



شكل (٤)
مقياس ضغط البخار أو الماء


شكل (٥)
منظر خارجى لمقياس ضغط كهربائى فولتمتر تلطفت شركة الآلات الكهربائية فى وستون باهدائه الينا

وستلاحظ أن المنظر الخارجى للفولتمتر المرسوم فى الشكل (٥) شبيه جدا بمنظر الأمتر المرسوم فى الشكل (٣) والواقع أن صناع الآلات يستعملون غالباً وعاء من نوع واحد لكل من الفولتمتر والأمتر ، وتكتب على ناصية المقياس كلمة فولتس أو فولتمتر (Volts، Voltmeter) أو أمبيرس (Amperes) أو أمتر (Ameter) بحروف مطبوعة للدلالة على ما إذ كان معداً لاستعماله مقياس ضغط أو مقياس سرعة جريان . وثمة كلمة أخرى هى أكثر استعمالا فى عرف المشتغلين بالعمل الكهربائى اذا أريد التعبير عن الضغط الكهربائى الملجئ للتيار الى المرور فى السلك ، وهى كلمة فولتج (Voltage) [1] فهم يعبرون بها عادة بدلا من هذه العبارة الطويلة ، وكذلك القول فى الضغط الكهربائى الناتج من أى مولد ، فإنه يعبر عنه بتلك الكلمة .

(١) فولتج كلمة انجليزية معناها مقدار الضغط بالأفلات .

المطالب القدسية
فى أحكام الروح وآثارها الكونية

تأليف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى وكيل مشيخة الأزهر الجليلة سابقا ، بحث فيه عن نشأة الروح وتعلقها بالأبدان وآثارها الكونية وتصرفاتها البرزخية وفى مقرها بعد الموت ، وفى معنى حياته صلى الله عليه وسلم وحياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والشهداء فى قبورهم وأنها نوع من الحياة أقوى وأكمل من الحياة الدنيوية ، وجرى فضيلة الأستاذ فى دقة البحث والتحقيق وحسن البيان على طريقته المعروفة فى غير هذا الكتاب من مؤلفاته القيمة ، وقد تم طبع هذا التأليف فى نحو ١٥٨ صفحة . فنشكر لفضيلة الأستاذ عمله الجليل، ونحث أهل العلم على اقتنائه ، ويطلب الكتاب من مكتبة مصطفى الحلبى وأولاده ؟

....

فلسفة العقوبة

تأليف حضرة الفاضل الاستاذ محمد افندى مهدى علام أستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم، وفلسفة الأخلاق بقسم التخصص بالأزهر ، وهو بحث فى فلسفة العقوبة قصد به حضرة المؤلف أن يخرج للطلبة والمعلمين والآباء والأمهات ولغيرهم فكرة عن العقوبة وما يتصل بها ، فيحث أولا فى الذنب ، وبدأ بالكلام فى الشرور الاخلاقية مفرقا بينها وبين الشرور القانونية ، ثم تكلم فى العقوبة ومنشئها وأغراضها والمذاهب المختلفة فيها ، والقواعد الأساسية التى يجب أن يحافظ عليها المعاقب ، ثم تكلم فى المسؤولية ، ثم انتقل الى العفو ، وعقد للعفو فى الاسلام فصلا خاصا أبان فيه فضل الاسلام على جميع الشرائع والقوانين ، وختم البحث بالكلام فى آراء بعض الفلاسفة فى العقوبة ، والكتاب مفيد فى موضوعه ، و قد تم طبعه فى نحو ١٣٦ صفحة ، ويطلب من المطبعة السلفية ، وثمنه ١٠ قروش ؟

as were compatible with reason and would inevitably lead to eternal salvation, and was not averse, in case of deviation, to accept the penitence of those who went astray.

And if such are the blessings of Islam and the benign teachings of its Holy Prophet, it is incumbent on all Moslems of all nationalities throughout the world to commemorate the great event of its advent by world wide celebrations of the Prophet's birthday.

In this connection it is most gratifying to state that Egypt does not lag behind in the celebration of this memorable day.

His Majesty King Fouad I, King of Egypt, sees to it that this day is celebrated with all the pomp and ceremony due to our Holy Prophet

State and nation enthusiastically acclaim the day and join in the celebration and as soon as the new moon of Rabi-ul-Awal appears in the sky and days ahead of the 12th of that month preparations on a gigantic scale are made in readiness for the great day

Huge marquees beautifully decorated and artistically lit up with chandeliers and electric lights, spring up as if by magic, in the most spacious review field of Cairo.

No expense is spared by His Majesty to provide the poor attending the Royal Marquee with the choicest of viands and fruits to which thousands are treated night and day.

Other marquees provided by the State Ministries, the well-to-do and the Sufist chiefs also attract their full quota of the poor Mohammad was the Prophet of mercy and his day could not be better celebrated than by showing mercy to the poor.

At night, the spacious field ablaze with myriad electric lights of all the rainbow hues virtually turning night into day, presents a most wonderful spectacle to the onlooker Lights everywhere to commemorate the divine light that was shed by his advent on the world.

On the eve of the 12th Rabi-ul-Awal, endless processions, headed by the sufists, make towards the scene of the celebrations and are received on their arrival by His Majesty the king in person or by the highest dignitary of the State representing him.

On the morning of the 12th, His Majesty or his representative attend the recital of the Birthday-story in the Great Mosque.

The same procedure is followed in all cities and provincial towns of Egypt and government functionaries are given a holiday on this auspicious occasion. Such pomp and grandeur are only witnessed once a year and are not seen on any other occasion when Moslems and non-Moslems of all denominations take part in the great festivities.

Thus are fulfilled the teachings of brotherhood, mercy and peace which Mohammad had proclaimed unto the world.

May the Almighty Allah ever please to shower His bountiful mercies upon mankind and guide them to wherein lies their salvation in this world and the hereafter.

THE PROPHET'S BIRTHDAY.

We are requested by Cadi Abdul Majid Qarshi of Patti, Lahore, India, to join in the world wide celebration of the Prophet-day fixed to take place on the 12th Rabi-ul Awal on which day our Holy Prophet was born.

We take much pleasure indeed to voice this desire which we heartily share, on the pages of « Nour-El-Islam » and give hereunder a short account of some of the great and outstanding changes which the advent of the Prophet has wrought on this world.

Islam was ordained from on high to vouchsafe the well-being and salvation of man. Thirteen centuries may well suffice to testify to its potential efficacy for the right and good conduct of human affairs.

The world was contended, long before the advent of Mohammad, by two mighty countries. East and West have long fallen under the ruthless dominion of Persia and Greece. They imposed their will on the subject races and oppression weighed heavy on the hearts of men. Life was rendered unbearable and it was thought, as time dragged its weary days, that such was the common fate of man and that some were born to hold sway while others were doomed to a life of drudgery and privation.

Through the long and protracted years of oppression, men took their sad fate for granted and have, perforce, become reconciled thereto. The master classes on the other hand were rendered, in their struggle for supremacy, more and more despotic as the desire to wield a greater share of authority had become an obsession with them and inevitably resulted in accentuating the sufferings of the people. The world was thus plunged in the most abysmal depths of chaos and misery and life seemed then rather a curse than a blessing

It fell to the lot of Islam to afford the panacea for this wide-spread evil and put an end to racial prejudices and distinctions. It established once for all the equality and universal brotherhood of man and allowed no other distinction save that merited by spiritual and worldy endeavour.

The world cried out for justice and equality and Islam came to the rescue when it was most needed It delivered the world from the prevailing oppression and men began to breathe freely once more after the misery and gross iniquity they have long experienced.

Nor was that the only merit of Islam. Learning too had suffered greatly under the despotism that then prevailed. It was hedged in with secrecy and exclusiveness and was made the monopoly of a privileged few. Thus it was divested of the competitive spirit of research requisite for the development and progress of true learning.

Here again, Islam came to the rescue of man. It established the freedom of thought and made it the universal heritage that it should be. It strongly urged to seek knowledge and encouraged research by pointing out, in the Holy Koran, the mysteries of heavens and earth.

Neither was Islam oblivious of the life to come. It ordained such tenets

On rising after being seated he was wont to say : « Praise be to the Lord, all thanks are due unto thee, there is no God worthy of worship but thee, I pray for thy forgiveness and am penitent unto thee ».

He hardly ever said «No» in response to his petitioners. If he was asked to do something to which he took no exception, prompt came his reply « Yea », but if he cared not to do it, he relapsed into silence.

His whole existence was so bound up with the memory of the Lord that he gave mention to His hallowed name on all occasions.

He made place for the weary wayfarer to mount behind him on his steed and ate from off the ground. Nay, he never declined the invitation of the slave.

He used to incline the pitcher for the thirsty cat to drink therefrom, and he so admired a man to wait upon his friends that he praised and prayed for him

He milked his own ewe and attended to his own personal needs He used to wake up during the night and stand for hours in worship of the Lord so much so that his feet became swollen on more than one occasion.

The best meal for him was that in which many participated. He never reserved aught to himself of the affluence that came his way and used to say in this connection : « It pleaseth me not have I a mountain (like Ohod) of gold to retain a single Dinar thereof unless it be devoted to the cause of my Faith »

On one occasion he received several Dinars which he distributed among those present. Six Dinars were left over and he gave them to one of his womenfolk.

That night he lay sleepless in his bed and was restless until he divided those as well among his household « Now my mind is at rest ! » he said.

Suffice it to say in testimony of Mohammad's humility and unworldliness, that when he died his shield was already in pledge to provide the wherewithal for his family.

During his life time he contented himself with the minimum of necessities as regards food, clothing and habitation and renounced all else though he could have lived in state and luxury should he but desired to do so.

Such was Mohammad the Prophet of Islam, humble in life and humble in death, but withal blessed and exalted by the Lord on high.

He used to inquire of people after those they knew and never failed to praise the good and condemn the evil.

He was pleasant to his companions and kindly disposed towards them. He was never known to be rude or impertinent, nor did he ever speak disparagingly of any one or seek the faults and failings of others.

When he spoke, his companions used to be hushed and hang breathlessly on his words and only when he relapsed into silence did they speak, so weighty indeed was his counsel and so grave were his words

« Announce ye glad tidings and alienate not the people but make easy the way unto them and constrain them not unto narrow straits », he used to counsel his messengers to do.

He ate but little and is cited to have said in this connection : « A few morsels may well suffice man to sustain his body ». On coming home he used to inquire : « Have ye aught of food ? » and should there be none, which was not an infrequent occurrence he was wont to say : « I fast this day ».

« Help ye to fulfil the object of him who cannot attain it », says Mohammad « for whoso fulfils his object will the Lord vouchsafe him security on the day of great terror » (judgment day).

On setting out to defend the Faith he prayed the Lord « O Lord, of thee do I seek aid, and in thy hallowed name do I go forth and fight in thy cause ».

On occasions when he was roused to anger while standing, he used to sit down and if he was sitting, he used to assume a reclining position to restrain his feelings thereby.

When he missed one of his companions three days, he inquired after him should he happened to be absent he prayed for his safe return or at home he visited him or striken with sickness he rushed to his bed-side.

On bidding anyone farewell, he was wont to take his hand in his and never did he withdraw it until the other withdrew his.

He never turned down the plea of whomsoever solicited his help ; should he was in a position to give it at the time, he never hesitated in doing so straightway but if he lacked the substance whereby to alleviate the straitened circumstances of his petitioner, he promised to come to his aid as soon as such was available.

Unstinted were his bounties; in giving he never had a thought for himself and saved nought for the morrow.

He was the most indulgent, equitable and virtuous of all men. His hand never touched a woman's unless she was his wife of a near kinswoman.

He was most modest and unassuming ; he was serene without being haughty, eloquent without being loquacious and above all most pleasant of mien and completely indifferent to all worldly affairs.

He sat in the company of the poor and shared his food with the needy and wayfarer The goodly he honoured, and the noble he sought to befriend.

He gave unto his knidred but never did he give them priority over the more deserving ones among others.

He was equanimous of temper; fury never ruffled his serenity. The plea of the penitent he was never loth to accept.

He joked, yet never did he utter but a truth Neither did he roar with laughter or look disapprovingly upon innocent play.

Nothing ever engaged his attention so much as the worship of God or an indispensable occupation whereby to sustain himself and his own

He never looked down on the poor for their penury or feared a king for his main and dominion.

He forbore from retribution for anything done save the breaking of the Lord's law; and never did he have the choice of two ways but he chose the easiest of the two unless he feared to commit a sin or alienate his kindred thereby.

He never returned evil for evil but was always prone to pass over the offence and forgive the offender. Love and compassion were characteristic of Mohammad; no one was more concerned than he to seek the interest and welfare of the people.

Voices, were not raised in his presence, he inspired awe and reverence in the hearts of those with whom he came into contact. He was openhanded and his forbearance knew no bounds even on occasions when it was severely taxed

His manner and tone were sincere and reassuring; he inspired reverence in whomsoever chanced to see him and deep affection in whomsoever knew him.

He was wont to say unto his disciples : « Let no one from among ye bear ill tidings regarding others unto me for I would please come unto ye clear of conscience ».

and that it was published in 1733 A.D. by Anthony Bortelly. In Chapter XLII of this translation a verse is given wherein the qualities of the prophet who will preach a new law and assume great power and authority under the name of Ahmed, were detailed.

This translation is still retained by the Armenians and it could easily be verified by seekers of truth.

So much then for tangible proofs quoted from the Scriptures Mohammad did not lack such qualities as could only pertain to true prophets. In this connection, it would be fitting to record in the following pages some of his personal traits and actions which will shed light on a phase of his life hitherto neglected by most biographers The importance of such an account could not be overestimated, for indeed man's personal character provides a clear indication of his true nature and the state of his mind and soul.

It was not accidental that Mohammad was acclaimed the best of men, the most generous and brave He was most tolerant and suffered patiently the persecution of his enemies.

Lying was most abominable to him; he used to avoid and completely ignore anyone of his own folk who told a lie and it was not until the delinquent showed true penitence that he spoke to him again.

When he gazed up into heaven, he was wont to say : « O Wielder of hearts ! confirm thou my heart in thy obedience ». But knowing as he did of the oscillation and inconsistency of mens' hearts, he used often to reiterate. « Nay ! By Him who wields the hearts of men ».

He was taciturn and laughed on rare occasions. His liberality and kindliness have won the hearts of all those around him. He used to inquire of the servant if he was in need of anything and never did he, by word or deed, cause distress to his folk. Unto no one would he break bad news. He gave freely unto the poor, visited them, came to their sick beds and gave them of his unbounded sympathy and attended their funerals when death claimed a dear one from their midst.

Pleasant of face and amiable was he to the sinner of the deepest dye that mayhap he win him over thereby.

Oftimes The Lord engaged his thoughts. Vain discourse never did he indulge and long indeed did he pray to the Lord.

The widow, the poor and even the slave never sought his help in vain for never did he refrain to give it or disdain to accompany any of them and help accomplish their object.

And in the Book of Psalms, Chapter XLV. 2, 3, 5 and 9 addressing a future prophet :

« Grace is poured into thy lips : therefore God hath blessed thee for ever ».

« Gird thy sword upon thy thigh, O most mighty ».

« Thine arrows are sharp in the heart of the King s enemies; whereby the people fall under thee ».

« King's daughters were among thy honourable women ».

This address could only be meant for Mohammad as Jesus was not the prophet who resorted to force and the sword in defence of religion nor indeed, did any people fall under him. He sought refuge in vain to escape the persecution of the Jews and was made the object of insult and derision and even put to violent death as the Christians allege.

No less significant are the following verses Chapter XVY. 7 of the Gospel of St. John :

« Nevertheless I tell you the truth, It is expedient for you that that I go away . for if I go not away the Paraclete (1, will not come unto you ».

and Chapter XIV. 15, 16 and 29 of St. John :

« If you love me, keep my commandments ».

« And I will pray the Father, and he shall give you another Paraclete that he may abide with you for ever »

« And now I have told you before it came to pass, that, when it comes to pass, ye might believe ».

The other « Paraclete » in whom Christ bade them believe and who was to abide with them for ever is no other than Moammad for no other prophet came after Jesus, and it is not conceivable that he has not come until now as Christ very often told his advent was near at hand.

It is easy to draw inferences from such saying as : « Abide with you for ever » and « It is expedient for you that I go away : for if I go not away, the Paraclete will not come unto you ».

In pages 63 and 64 of his book « Saiful Muslimeen », Hyder Ali Al-Korashy mentions that the Armenian priests and people have translated the book of Isaiah from the original into the Armenian language in 1666 A.D.

---

(1) « Comforter » is now substituted for « Paraclete » in the new version of the Gospel.



ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

THE PROPHET MOHAMMAD [1]

(Continued)

Among other scriptural quotations alluding to the advent of Mohammed, the following from the book of Deuteronomy XXXIII. 2 is significant .

« And he said : « The Lord came from Sinai, and rose up from Seir unto them, and shined forth from Mount Paran, and he came with thousands of saints ».

The coming from Sinai implies the assignation of the Law to Moses, the rising up from Seir implies the assignation of the Gospel to Jesus and the shining forth from Mount Paran implies the revelation of the Koran to Mohammad as Paran is a mountain of Mecca

The following quotation from the Book of Genesis Chapter XXI. 21 in connection with the story of Ishmael fully substantiates this view :

« And he dwelt in the wilderness of Paran : and his mother took him a wife out of the land of Egypt ».

According to the Arabic Translation published in 1844 A.D. Book of Genesis Chapter XVII. 20, a covenant was made with Abraham regarding his son Ishmael that one of his progeny will be followed by a great people. None of Ishmael's descendants became the chieftan of a great people except our Prophet Mohammad

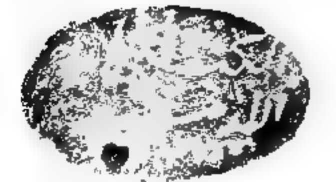
Again in the Book of Genesis, Chapter XLIX. 10, of the Arabic translation of the Bible published in 1722, 1831 and 1844 A.D., the following verses are significant :

« The sceptre shall not depart from Judah until he cometh who claimeth all and is waited for by the people ».

(1) Translated from the very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's book « Messages of Peace ».

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم *

نور الإسلام



مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الثالث	ربيع الاول سنة ١٣٥١	المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف ؛ سابقا
ومن اعضاء مجلس الازهر الاعلى ؛

رئيس التحرير
السيد
محمد الخضر حسين
من علماء الازهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٣

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	ص
داخل القطر المصرى	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصرى	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الشريعة الاسلامية

صالحة لكل زمان ومكان [1]

المصالح المرسلة

من اطمأن قلبه إيمانا بأن الشريعة وحى نزل بها الروح الأمين على أفضل الخليقة لم يرتب فى أنها قائمة على حكمة ، وأن الخير فى الاقتداء بها والوقوف عند حدودها ، يقطع بهذا كل من صادقت فيه دلائل النبوة فطرة سليمة أو ألمعية ثاقبة ، ويزيد المتفقه فى الشريعة بعد هذا الاعتقاد الذى اقتضاه أصل الإيمان أنه يرى حق اليقين كيف قامت أصولها وفصلت أحكامها على رعاية المصالح فى الحياتين . العاجلة والآجلة ، ولم يختلف أهل العلم فى أن كل حكم شرعى مربوط بحكمة . وأن الحكمة هى التى دعت الى تقريره ، ومرجع هذه الحِكَم الى المصالح والمفاسد ، ومن هذا الأصل الذى دل على أن الله تعالى قد شرع الأحكام على طريقة جلب المصالح ودرء المفاسد ، نشأت قاعدة المصالح المرسلة .

لا نزاع فى بناء الأحكام على المصالح التى قام الدليل الشرعى على رعايتها ، ومثال هذا حفظ العقل الذى دل على رعايته تحريم الخمر وإقامة الحد على شاربها ، فاذا عرض

---

(١) هذا مقال سادس يتصل بخمس مقالات نشرت تحت هذا العنوان فى الاجزاء ١،٢،٣،٤،٧ من المجلد الاول .

المجتهد مطعوم لا يسمى خمرا ولكنه يفعل بالعقل ما تفعله الخمر لم يتردد فى تحريمه أخذا بالدليل القائم على اعتداد الشارع بمصلحة حفظ العقل وبنائه بعض الأحكام على رعايتها، وهذا هو أصل القياس فى الشريعة، فإنه مبنى على التفقه فى بعض الأحكام المنصوصة ومعرفة قصد الشارع فيها الى مصلحة بعينها، حتى اذا وجدت هذه المصلحة فى واقعة أخرى أخذت حكم الواقعة المصرح بها.

ولا نزاع فى عدم الاعتداد بالمصالح التى قام الدليل الشرعى على إلغائها، والشارع الحكيم لا يلغى مصلحة إلا اذا عارضتها مصلحة أرجح منها، أو استتبعت مفسدة لا يستخف بأمرها، ومثال هذا الاستسلام للعدو: قد يبدو أن فيه مصلحة حفظ النفوس من القتل، ولكن الشارع رأى أن هذه المصلحة مغمورة بالمفسد من كل جانب، فلم يعتد بها، وأذن فى دفاع العدو نظرا الى مصلحة أرجح منها، وهى احتفاظ الأمة بالعزة والكرامة، والتمكن من المسابقة فى مضمار الحياة.

ومن هذا الباب تعدد الزوجات: يتبعه من الضرر أن تتألم المرأة من أن تشاركها فى صلة الزوجية امرأة أخرى، ففى ترك التعدد مصلحة هى قطع وسيلة استياء الزوجة، ولكن الشارع ألغى هذه المصلحة مكتفيا بما اشترطه من العدل بين الزوجات، وأباح التعدد نظرا الى ما قد يترتب عليه من المصالح، كتكثير النسل، ومساعدة الرجل على تجنب الحرام الذى قد يقع فيه صاحب الزوجة الواحدة اذا عرض مانع من التمتع بها مثل المرض والنفاس.

ومما يدخل فى هذا السلك قصة أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم إذ باشر إحدى نسائه فى رمضان، ثم ندم على ما فعل، وجمع الفقهاء وسألهم عما يكفّر به، فقال له يحيى بن يحيى الليثى: تكفر بصوم شهرين متتابعين، فلما خرجوا قال له بعض الفقهاء: لم لم تفته بمذهب مالك، وهو التخيير بين العتق والصيام والإطعام؟ فقال: لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يباشر كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود.

وقد أقيمت هـذه الفتوى على رعاية مصلحة لم يعتد بها الشارع ، فني حمل الملك على الصوم مصلحة منعه من اتباع الشهوات ، ولـكن الشارع ألغى هـذه المصلحة مكتفيا بالنهى عن الإفطار وتأثيم من يرتكبه ، وجعل الـكفارة العتق أو الإطعام أو الصيام من غير فرق بين الملك وغيره .

ويبقى النظر فى المصالح التى لم يقم دليـل معين على رعايتها أو على إلغائها ، وهذه هى التى تسمى المصالح المرسلة ، وقد اعتد بهذه المصالح كثير من الفقهاء، وبنوا بعض الفتاوى على رعايتها ، والجارى على بعض الألسنة والأقلام أنها أصل من أصول المذهب المـالكى ، والواقع أن لها يدا فى سائر المذاهب المعول عليها ، وللمالكية القسط الأوفر فى استثمارها ، قال ابن دقيق العيد : الذى لاشك فيه أن لمـالك ترجيحا على غيره من الفقهاء فى هـذا النوع ، ويليه أحمد بن حنبل ، ولا يكاد يخلو غيرهما عن اعتباره فى الجملة ، ولـكن لهذين ترجيح فى استعماله . وقال البغدادى فى « جنة الناظر » : لا تظهر مخالفة الشافعى لمـالك فى المصالح ، فإن مالـكا يقول : إن المجتهد إذا استقرأ موارد الشرع ومصادره ، أفضى نظره الى العلم برعاية المصالح فى جزئياته وكلياته ، وأن لا مصلحة إلا وهى معتبرة فى جنسها ، لـكنه ستثنى من هذه القاعدة كل مصلحة صادمها أصل من أصول الشريعة ، وما حكاه أصحاب الشافعى عن الشافعى لا يعدو هذه المقـالة .

ولهذه القاعدة أمثلة مسوقة فى كتب الأصول من فتاوى السلف وأقضيتهم ، ومن هذه الأمثلة قضاء الصحابة رضى الله عنهم بتضمين الصناع ، فالرجل ينصب نفسه لصناعة كالخياطة أو الصبغ فيدفع اليه شخص ثوبا ليخيطه أو يصبغه ، فيدعى ضياعه ولم يقم بينة على أنه تلف بغير سبب منه ، فيقضى على الصانع بضمان الثوب أخذا بقاعدة المصالح المرسلة ، ووجه المصلحة فى هذا المثال أن الناس فى حاجة شديدة الى الصناع ، وهم يغيبون بالأمتعة عن أعـين أصحابها ، وليس من شأنهم الاحتياط

فى حفظها، فن المصلحة القضاء بضمانهم حتى لا تضيع أموال كثيرة، وهذا معنى قول على كرم الله وجهه: «لا يصلح الناس إلا ذاك» يعنى تضمين الصناع.

ومن أمثلته قتل الجماعة بالواحد، فإن القصاص الوارد فى النص هو قتل النفس بالنفس، فاذا اشترك جماعة فى قتل شخص واحد، فهى قضية لم يوجد لها دليل معين، وقد ذهب الامامان: مالك والشافعى الى قتل الجماعة بالواحد، وهو ما يروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، والمستند فى هذا قاعدة المصالح المرسلة، ووجه المصلحة أن عدم أخذ الجماعة بالقصاص يذهب بدم القتيل المعصوم هدرا، ويفتح بابا قصد الشارع الى إغلاقه، وهو باب سفك الدماء البريئة، فإن الجماعة متى أمنوا من عقوبة القصاص حين يشتركون فى القتل، سهل على أحقادهم أو شهواتهم أن تسوقهم حتى يمدوا أيديهم الى إزهاق الأرواح دفعة، فى قتل الجماعة بالواحد مصلحة حياة نفوس كثيرة وحفظها من أن يتواطأ على قتلها جماعات ما لها فى احترام الأرواح من خلاق.

ومما أسندوه الى هذه القاعدة أن يتحفز العدو للهجوم على بلاد الاسلام ولم يكن فى بيت المال ما يقوم بحاجة الجند المهيأ لقتاله، فقد قال طائفة من علماء الأندلس: للأمير العادل أن يفرض على الأغنياء ما يراه كافيا للجند فى الحال، ووجه المصلحة أن هذا الفرض تقوى به شوكة الدولة وتحصن به البلاد من استيلاء قوم إن ظهروا عليها لا يرقبوا فيها إلّا ولا ذمة.

والى هذه القاعدة يستند الامام مالك فى إجازته سجن المتهم، فالسجن عذاب، والأصل أن لا يعذب أحد لمجرد الدعوى، ولكن الامام رحمه الله تعالى نظر الى أن فى سجن المتهم مصلحة الوصول الى الحق، وليس ببعيد أن يقصد الشارع الى حفظ هذه المصلحة، ويغضى عما يلحق المتهم من ألم الاعتقال، والمراد من المتهم من تقوم حوله قرينة تحيك فى نفس الحاكم، وتؤثر فى قلبه شيئا من الظن.

وليس فى الأخذ بالمصالح المرسلة فتح طريق يدخل منه العوام الى التصرف فى أحكام الشريعة على ما يلائم آراءهم أو ينافرها — كما ظنه بعض الكاتبين — فإن ما ذكرناه فى شرط الأخذ بهذه المصالح من عدم ورود دليل شرعى على رعايتها أو إلغائها يرفعها عن أن تكون فى متناول آراء العامة أو أشباه العامة ، إذ لا يدرى أن هذه المصلحة لم يرد فى مراعاتها أو إهمالها دليل شرعى إلا من كان أهلا للاستنباط ، قال الشيخ عمر الفاسى فى رسالة له فى الوقف : « وأنّى للمقلد أن يدعى غلبة الظن أن هذه المصلحة فيها تحصيل مقصود الشارع ، وأنها لم يرد فى الشرع ما يعارضها ولا ما يشهد بإلغائها ، مع أنه لا بحث له فى الأدلة ولا نظر له فيها ، وهل هذا إلا اجتراء على الدين وإقدام على حكم شرعى بغير يقين ؟ » فليس كل ما يبدو للعقل أنه مصلحة يدخل فى قبيل المصالح المرسلة وتبنى عليه الأحكام ، وإنما هى المصالح التى يتدبرها من هو أهل لتعرّف الأحكام من مآخذها حتى يثق بأنه لم يرد فى الشريعة شاهد على مراعاتها أو إلغائها .

ولا يقف فى سبيل المصالح المرسلة ما أورده بعض الكاتبين من أنه يفضى الى اختلاف الأحكام باختلاف المواطن والعصور ، فإن هذا الاختلاف معدود فى محاسن الشريعة ، وهو ناحية من النواحى التى روعيت فى جعلها الشريعة العامة الباقية ، وليس اختلاف الأحكام الناشئ عن مراعاة المصالح المرسلة اختلافا فى أصل الخطاب ، وإنما جاء من جهة تطبيق أصل عام دائم هو أن المصلحة التى لم يرد دليل على مراعاتها بخصوصها أو إلغائها ، يقضى فيها المجتهد على قدر ما يراه فيها من صلاح ، فالأحكام المبنية على رعاية المصالح المرسلة تستند الى أصلٍ تعرّفه المجتهدون من موارد الشريعة ، فكأن الشارع يقول للذين أوتوا العلم : اذا عرض لكم أمر فيه مصلحة ولم تجدوا فى الأدلة التى بين أيديكم ما يدل على رعايتها بخصوصها أو إلغائها ، فزنوا تلك المصلحة بعقولكم الراسخة فى فهم المقصود من التشريع ، وفصلوا لها حكما يطابقها .

وقد ادعى بعض أهل العلم من غير المالكية أن الامام مالكا أفتى بانيا على قاعدة المصالح المرسلة بجواز قتل ثلث العامة لمصلحة الثلثين ، والمالكية ينكرون نسبة هذه الفتوى الى لامام مالك أشد الإنكار ويقولون : إنها لم تنقل فى كتبهم البتة ، وإنما تكلموا كما تكلم غيرهم فى مسألة العدو يضع أمامه الأسرى المسلمين يتترس بهم فى الحرب ، فأفتوا بأنه يجوز دفاع العدو بنحو الرمى متى خيف استئصال الأمة ولو أفضى الدفاع الى قتل أولئك الأسرى من المسلمين .

ونقرأ فى ترجمة الشيخ علاء الدين الجمالى أحد فقهاء الحنفية أن السلطان سليما همّ بقتل جماعة خالفوا أمر السلطان فى بيع الحرير، فدخل عليه الشيخ علاء الدين منكرا عليه قتلهم ، فقال له السلطان : أما يحل قتل ثلث العالم لنظام الباقى ؛ فقال الشيخ علاء الدين : نعم ، ولكن اذا أدى الحال الى خلل عظيم ، فعفا السلطان عن الجميع .

وقد حقق الباحثون فى المصالح المرسلة النظر ، وأجروها فى أبواب المعاملات ، وتجنبوا بها أصول العبادات ، لأن المتفقه فى علم الشريعة يدرك أن أحكام المعاملات مبنية على رعاية المصالح المدنية التى يتيسر للعقول السليمة متى تلقتها من الشارع ، وغاصت فى تدبرها من كل جانب ، أن تقف على أسرارها ، وترى خير الحياة فى التمسك بها ، وأما العبادات ففيها ما تستبين حكمته ، ويبدو القصد من مشروعيته واضحا ، ومنها ما لم تقف العقول على حكمته الخاصة ، وحسب العقل فى الإيمان بحكمة ما كان من هذا القبيل أنه صادر ممن قام الدليل القاطع على أنه لا يأمر إلا بخير ، ولا يجد فى هذا الإيمان حرجا مادامت العبادات على اختلاف ضروبها بريئة مما تنبذه العقول الراجحة ، والفرق بين ما لا يقف العقل على مصلحته الخاصة ، وما ينبذه لاشتماله على فساد راجح ، لا يخفى إلا على ذى نظر سقيم .

ولما كثر فى العبادات ما تخفى مصلحته الخاصة ، قالوا إن أصلها التعبد ، وقصروا الأمر فيها على ما ورد عن الشارع الحكيم ، ثم إن الشارع حذر من الزيادة على ما قرره

من العبادات ، وسمى ما يخترع بقصد القربة بدعة وضلالة ، والتصرف في العبادات من طريق المصالح المرسلة يفتح باب البدع ويدخل بالناس في ضلال بعيد .

فلا نزاع في بطلان اختراع عبادات ذات أوضاع لم يرد بها كتاب أو سنة ، بدعوى أن فيها مصالح توافق قصد الشارع فيما وضع من العبادات .

وقد يتصرف الفقهاء في أشياء تتصل بأصل العبادة ، وينظرون اليها من ناحية المصالح الملائمة لتلك العبادة ، فيصيبون في الحكم ، ويخطئون ، ومن أمثلة تصرفهم الصحيح أن أذان الجمعة كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفتين بعده واحدا يقام بباب المسجد ، ومن الواضح الجلي أن القصد من الأذان الإعلام بدخول وقت الصلاة ، ولما كثر الناس واتسع العمران بالمدينة ، أقام عثمان رضى الله عنه أذانا بالزوراء [1] ، وهذا العمل خارج عن البدعة ، لأنه تصرف في إحدى وسائل العبادة ، لا في أصل العبادة ، ولأن القصد من الأذان واضح وضوحا لا تحوم عليه ريبة ، وهو إعلام المصلين بدخول الوقت ، وفي الأذان بالزوراء إعلام بدخول الوقت على وجه أكمل ، ولم يكن الباعث على زيادة هذا الأذان وهو كثرة الناس واتساع العمران متحققا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يقال إن الشارع لم يعتد بهذه المصلحة ، وأنها ليست من نوع المصالح التي توافق قصده من التشريع .

وقد يتسرع الى هذه القاعدة من لا يجيد فهمها ، فيفتى بغير حق أو يقضى بغير عدل ، وقد رأيتَ السلطان سليما كيف توهم أن في قتل جماعة كثيرة خالفوا أمره في بيع الحرير مصلحة يأذن الشارع بالمحافظة عليها ، وظن بعض القضاة أن هذه القاعدة تبيح له أن يقطع أنملة شاهد زور ، ليمنعه من الكتابة ، واستشار ابنَ دقيق العيد في هده العقوبة فأنكرها أشد الإنكار ، وعدّها من المنكرات العظيمة الوقع في الدين والاسترسال في أذى المسلمين . وخاتمة المقال أن رعاية المصالح المرسلة من أهم القواعد التي تأتي بثمر طيب متى تناولها الراسخ في علوم الشريعة ، البصير بتطبيق أصولها . محمد الخضر حسين

(١) موضع بالمدينة قرب المسجد .



سورة النور

ه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِٱلإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ . لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).

سبب النزول — كان من عادته صلى الله عليه وسلم اذا خرج الى غزة أن يقرع بين نسائه فأيتهن خرجت عليها القرعة اصطحبها معه فى سفره ، فلما أراد الخروج لغزوة بنى المصطلق أقرع بينهن فخرجت قرعة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما فسافرت معه ، وكان ذلك فى سنة ست من الهجرة بعد نزول آية الحجب ، فلما فرغ من الغزاة وقفل راجعا الى المدينة نزل منزلا قريبا منها ، ثم أمر بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش لقضاء بعض شأنها ، ثم أقبلت الى رحلها فافتقدت عقدا لها كان فى عنقها ، فرجعت تلتمسه حيث كانت فحبسها ابتغاؤه ، وجاء الرهط الذين كانوا يحملون هودجها فرحلوه على بعيرها وهم يحسبونها فيه ، وكانت حديثة السن ، والنساء إذ ذاك خفيفات اللحم ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، فلما وجدت عقدها ورجعت إذا بالجيش قد سار وليس بالمكان داع ولا مجيب ، فأمّت المنزل الذى كانت به ظانة أنهم سيرجعون اليها حين يفقدونها ، فجلست حتى غلبها النوم .

وكان صفوان بن المعطل السلمى يتخلف عن الجيش عادة ليتتبع منازلهم بعد رحيلهم عسى أن يكون أحدهم قد نسى شيئا فيحمله الى المنزل الآخر ، فلما أقبل عليها عرفها ، وقد كان يراها قبل نزول آية الحجاب ، فأناخ راحلته بجوارها وولاها ظهره وأخذ يسترجع ، شأن المؤمنين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت على استرجاعه فوجدت الراحلة بجانبها فركبتها ، وأخذ هو بزمام الناقة يقودها لكيلا يقع بصره عليها حتى وافى القوم وهم نزول فى المنزل الآخر ، فمر بجماعة فيهم المنافق عبد الله بن أبى ابن سلول ، فسأل فقيل هذه عائشة ، فقال كلمة الإفك ، وفتن بكلامه نفر من المؤمنين ، فلما قدموا المدينة مرضت عائشة ، ومكثت شهرا لا تدرى ما يقول الأفاكون ، قالت : وما كان يريبنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أنى لم أكن أرى منه اللطف الذى اعتدته منه اذا كنت أشتكى ، فكان يدخل فيسلم ويقول : كيف تيكم (وتى إشارة للمؤنث) ثم ينصرف ، فلما نقهت خرجت

مع أم مسطح لبعض شأنهما ، ولم يكن من عادتهم إذ ذاك اتخاذ الكنف فى البيوت ، فلما رجعنا عثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح . وكان مسطح أحد الخائضين فى الإفك ، فقالت لها عائشة : بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا . قالت : أو لم تسمعى ما قال ؟ قالت وما قال ؟ قالت : أما إنك من المحصنات الغافلات ، إنه يقول كيت وكيت ، وأخبرتها بإفكهم ، فعاودها المرض أشد مما كان ، فدخل صلى الله عليه وسلم وسأل عنها كعادته فاستأذنت منه أن تأتى أبويها ، تريد أن تستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لها ، فأتت أمها وسألتها : ما يتحدث الناس ؟ فقالت : يا بنية هوّنى عليك فقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، فقالت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا : وملكها البكاء ليلتها لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ، ومكثت هكذا ليلتين ويوما .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار بعض الصحابة فى ذلك فمنهم من قال : والله ما نعرف عن أهلك إلا خيرا ، ومنهم من قال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، فسأل بريرة فقالت : والذى بعثك بالحق ما علمت عليها أمرا أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى أتى المسجد وصعد المنبر وقال فيما خطب : يا معشر المسلمين : من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا — يريد عبد الله بن أبى — فقام سعد بن معاذ وهو سيد الأوس فقال : أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فرد عليه سعد بن عبادة سيد الخزرج وقد ملكته الحمية وذكرى أيامهم الماضية التى أنقذهم الله منها وألف بين قلوبهم ، وللشيطان مسالك ولكن لا يلبث الإيمان أن يتغلب عليها ، ثم تحرش الحيان بعضهما ببعض حتى همّا أن يقتتلا ، فخفض

بينهما صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم عليها وهى فى بيت أبويها فتشهد ثم قال :

أما بعد يا عائشة فقد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فإن العبد اذا تاب تاب الله عليه . قالت : فلما قضى صلى الله عليه وسلم مقالته تقلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . وذلك شأن البرىء يستشعر بعزة النقاء و ابراءة ، ثم قالت لأبيها : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : والله ما أدرى ما أقول . وقالت لأمها كذلك فأجابت بمثل جواب أبيها ، فقالت : والله لقد علمت أنكم سمعتم ذلك القول حتى استقر فى نفوسكم ، ولئن قلت لكم إنى بريئة — والله يعلم أنى بريئة — لا تصدقونى ، وإن اعترفت لكم بما يعلم الله أنى بريئة منه لتصدقنى ، والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا قول العبد الصالح أبى يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، واضطجعت على فراشها ، قالت : وأنا والله أعلم أن الله سيبرئنى ولكن ما كنت أظن أن سينزل فى شأنى وحياً يتلى ، ولقد كنت أحقر فى نفسى من هذا ، وإنما كنت أرجو أن يرى صلى الله عليه وسلم رؤيا فى منامه يبرئنى الله بها ، قالت : فوالله ما قام صلى الله عليه وسلم من مجلسه ولا خرج أحد من البيت حتى أنزل الله الوحى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحى من البرحاء حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق فى اليوم الثانى ، قالت : فوالله ما فزعت وما باليت علما منى ببراءتى ، وأما أبواى فحسبت أن نفسهما ستخرج فرقا من أن ينزل الوحى محققا ما قال الناس ، فسرى عنه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فقال : أبشرى يا عائشة ، أما والله لقد برأك الله . فقالت أمها : قومى اليه ، فقالت : لا أقوم ولا أحمد إلا الله الذى برأنى ، فنزلت الآيات العشر (إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ) وقد كان مسطح قريب أبى بكر : كانت أمه بنت خالة أبى بكر ، وكان أبو بكر

ينفق عليه لفقره فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ، فنزل قوله تعالى : (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَىٰ) الى قوله : (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ) فقال أبو بكر : بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، وعاد للنفقة عليه .

ولقد سقنا هذه القصة على طولها ليتبين سبب نزول هذه الآيات ، وليتجلى ما فيها من أخلاق كريمة من عائشة وأبويها ، وليظهر أن الذين كانو يزعمون الإيمان وهم خلو منه إبقاء على أنفسهم ، ما كانوا يألون جهدا فى تتبع ما يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكانت السياسة الشرعية والحكمة فى الدعوة مدعاة للكف عنهم حتى لا يقال إن رسول الله يقتل أصحابه .

المفردات — الإفك : هو أبلغ الكذب وأبعده عن الصدق ، والعصبة : الجماعة من العشرة الى الأربعين ، وقيل من الأربعة فصاعدا . والخطاب فى منكم ولكم لجماعة المؤمنين ، وقوله : (لَا تَحْسَبُوهُ) : لحسبان الظن ، ويقال غالبا لظن خلاف الواقع .

والمعنى أن تلك الجماعة التى اختلقت ذلك البهتان وأتت به من عند أنفسها ما خرجوا عن أنهم عصبة منسوبة اليكم ومعدودة منكم ، فلا تثر أنفسكم عليهم كل الثوران فالمرء عادة عرضة لأن يصاب من أقربيه ، وأجمل شىء به حينئذ أن يغضى بعض الإغضاء ولا يبالغ فى الاستقصاء ، والتسلى بهذا المعنى معهود عند العرب كقول الشاعر :

قومى هم قتلوا أميم أخى ... فاذا رميت يصيبنى سهمى

وأيضا فإنهم عصبة ، والعصبة جماعة قليلة تعصبت وائتمرت على أمر بيّتته وترابطت عليه ، وفى ذلك تهوين لشأنه ، إذ ليس التحدث به مستفيضا بنفسه بل بيّته قوم محصورون ، فالغرض من هذا الإخبار بدء التسلية لمن أصيبوا بذلك وهم من وجه اليه القذف ومن يتصل به ، أى عائشة وصفوان وأبو بكر وزوجه والمصطفى صلى الله عليه وسلم . وقوله

تعلى بعد ذلك : (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فيه من التسرية عنهم ما يزيل أثر كل حزن ، فكفى بشهادته جل شأنه أنه خير لا شر فيه ، وكيف لا وقد حازت به عائشة رضى الله عنها شهادة ببراءتها يقينا ، وأصبح التصديق ببراءتها وطهارتها جزءا من إيمان كل مؤمن ، ومن شك فيه فقد كفر ، إذ شك فى خبر الله عز وجل ، وفيه التوعد لأولئك الذين اختلقوه باستحقاق كل منهم من الله جزاء ما كسب ، فالله القادر القاهر هو الذى تولى عنكم عقوبة من آذاكم ، وخص كبيرهم فى هذا بالعذاب العظيم ، وفيه حسن التأديب لعامة المؤمنين بطلب ظن الخير وعدم المسارعة الى سوء الظن ، والدعوة الى تطهير اللسان وصون الآداب ، والتحرز عن الخوض فى كبريات التهم بلا علم ، وتقدير بينات التهمة بحسب فظاعتها حتى لا يتخذ الناس الكيد بالاتهام الكاذب ذريعة للخدش والنكاية بلا حق .

فكل هذا من الخير الذى عاد على المقذوفين ومن اتصل بهم وعلى عامة المؤمنين بسبب هذه الحادثة ، ولله فى طى كل مصيبة نعمة ، فسبحان من لا يحمد على المكروه سواه ، إذ فى ضمنه محبوب ورحمة وإن لم يطلع على ذلك صاحبها . ولقد ترى من آثار الخير ما بدا من عائشة رضى الله عنها فيما بيناه فى القصة السابقة من استجماعها قواها وعدم تضعضعها وقت أن جد الجد حين عرض صلى الله عليه وسلم مقالته عليها ورجوعها أدبا منها لأبويها ليجيباه ، وتنحيهما عن أن يهجما على البت بأمر لا يتحقق بأنفسهما وإن كان متعلقا بأعز نفس عندهما ، احتراما للحق ووقوفا عند حد العلم .

وما أبعد هذا مما نراه متكررا من اندفاع الناس للدفاع عن ذويهم بغير علم ، واجترائهم على الحلف فيما لا سبيل لهم الى علمه إلا مجرد حسن الظن أو ميل القلب لمن يدافعون عنه ، ثم قولها رضى الله عنها : لقد سمعتم هذ القول حتى استقر فى نفوسكم ، وهى قاعدة مقررة أن تكرار القول من شأنه أن يترك كل مرة أثرا فى النفس حتى يتقلب من الإنكار الى الشك الى الظن الى الاستقرار ، ثم إباؤها التكلم بما لا ترى

فى نفس مخاطبيها استمدادا كاملا لقبوله ، وردها الأمر الى لله مستعينة بالصبر ، واثقة بمعونته جل شأنه ، فهذا مظهر من الكمال العقلى والخلق لم يكن يتجلى لولا هذه الحادثة ، وإن من أراد أن يستنبط منها من صنوف الخير ليجده وافرا على ما فى القصة من مكروه .

وذكر وعيد الأفاكين بعد بيان أنه خير ، لكيلا يبقى فى نفوس من لحقهم هذا الأذى شئ من الأثر ، فقد بان خيرهم وانتقم الله لهم ممن آذاهم ، وقوله : (لِكُلِّ امْرِئٍ) أتى باللام فى مقام على للإشارة الى أن هـذا حق لازم لصاحبه لا مفر من استيفائه ، والتنصيص على أن الجزاء لاحق لكل امرئ منهم أشفى للنفس من أن يلحق بجملتهم ، وغير خاف حال من تولى كبره منهم ، والكبر بكسر الكاف وقرئ بضمها مع سكون الباء فى كل : هو معظم الشىء ، وقيل كبر الشىء بالكسر بداءته ، وقيل الإثم . والذى تولى ذلك هو عبد الله ابن سلول ، وسلول أمه ، وكان رأس المنافقين ، كان يطمع فى سيادة قومه فلما جاء الاسلام وأسلم الأنصار ولم يقو على مناهضة هذه القوة العظمى انضوى تحت لوائها قهرا ونفاقا ، ومازال الحقد والنفاق يأكلان قلبه حتى مات ، وكثيرا ما كشف ستر الرياء عن نفسه الخبيثة ، فما كان يلوح له فرصة فى التأليب على المسلمين أو إيصال الأذى اليهم إلا انتهزها ، وكان ما يخفيه صدره أكبر مما يبدو من فيه ، وعظم عذابه بقدر عظم جريمته .

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) — لولا للحث على الشىء وتأكيد طلبه وبيان أنه كان ينبغى أن يسارع اليه لو تنبهتم الى ما فيه من دواعى الأخذ به ، وتلك الدواعى هى أولا — أنه من عمر الإيمان قلبه من رجل أو امرأة وأحس من نفسه أنها تأبى الوقوع فى مثل هذا الفحش ، ينبغى أن يقيس على نفسه من شاركه فى وصف إيمانه ، فقد وحد الإيمان بين أنفسهم ، وهذا سر قوله : (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) فكأن ما تظن وقوع غيرك

فيه ترى في نفسك أنه قريب الوقوع منك ، فهل أنت أيها المؤمن كذلك ؟ وحقا إن المرء يتخذ نفسه غالبا مقياسا لغيره ، ويحمل ما يصدر منه على حال نفسه ، كما قال الشاعر :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم

واستفزاز للحمية الرشيدة ببيان أن ما توهموا لحوقه بإخوانهم في الدين فقد جروا بذلك الريبة بمثله على أنفسهم ، فكأنهم رأوا الإيمان غير كاف في ردع النفوس عن شرورها ، ثم فيه تربية الأواصر والارتباط بين المؤمنين ، وأن أحدهم من صاحبه بمنزلة نفسه فينبغي أن يغار عليها غيرته على نفسه . وقوله : (وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) إرشاد للرد المنتظر ، بأن لا يكتفوا بالظن في أنفسهم ، بل يجب أن يتبعوه برد الفرية على صاحبها ، واسم الإشارة القريب هنا للتحقير ، كأنه يصور بصورة الأمر الذي لا يتشوف اليه ولا تتبعه النفوس استقصاء ، وذلك في القريب المشاهد . وإفك أي كذب مختلق بلا أصل ، وقلب الأمور عن وجهها ، ومفاجأة بالبهتان ، ومبين أي ظاهر فيه أمارات التكذيب لا يحتاج الى شدة تأمل ، وذلك أن من مقتضى الكرامة اللائقة بمقام النبوة أن تصان فرشهم عن هذا التلويث المزرى بمقام صاحبه ، وأنه اذا جاز أن تكفر امرأة نبي كامرأة نوح وامرأة لوط ، فلن يجوز أن تفجر امرأة نبي وهي على فراشه ، فإن الكفر وإن كان أشد جرما من الفحش ولكن هذا الفحش أكبر منه عارا ، وأشد تنفيرا ، وأوجب للاحتقار في نظر الناس ، والأنبياء مصونون عن أن يلحقهم ما يزرى بمقامهم ، ويهد من كرامتهم ، ثم منبت عائشة رضي الله عنها ونشأتها وما عرف من خلقها وعقلها بيّن في أنها رضي الله عنها أبعد في نظر كل عقل عن أن تحوم حولها الشبه .

وأيضا فإن صدور هذا الإفك عن قوم عرفوا بالنفاق ولهم سوابق في الكذب والبهتان أمارة على أن ما جاءوا به كذب وافتراء ، ومتى كانوا صادقين حتى يصدقوا

فى هذا ؟ فكل ذلك من وجوه ظهور أن هذا إفك ما كان ينبغى أن يحل فى نفوس المؤمنين محل أن يغيظهم . ولا يعكر على الوجه الأول وهو أن هذا لا يحتمل فى مقام الأنبياء كونه صلى الله عليه وسلم اختلفت عادته فى ملاطفتها حال مرضها ، وأنه سألها ذلك السؤال أمام أبويها ، فهذا إنما كان من ضيق صدره عليه السلام بكلام الأفاكين ، وقد قال تعالى : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) لا أنه تطرق اليه ريبة فى أهله ، فقد قال فى خطبته : والله ما علمت على أهلى إلا خيرا .

(لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) .

هذا من تأكيد فظاعة الأمر الذى اختلقوه ، وأنه من القذف الذى لا يحل أن يقدم عليه امرؤ أو أن يؤخذ به إلا اذا كان له من الحجج ما يناسب عظمه وفداحته ، وفى ذلك تأديب وتربية على أن نعطى كل دعوى ما يناسبها من الحجج ، وقد شرح ذلك فى آية لقذف فى العدد الماضى . وقوله : (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) تقرير لكذبهم لا أنه تعليق ، فالمعنى هم الكاذبون عند الله فى هذا ، وكان حقكم أن تعرفوا كذبهم أو ألا تنخدعوا فى قولهم لأنهم لم يأتوا بالشهداء ، فليس هذا من باب عجز المدعى عن الإثبات ، وهو لا يستلزم الكذب ، بل من باب لوم من انخدع بكلامهم فى غير مظان الخديعة ، والإشارة اليهم لاستحضارهم بأولئك بصفاتهم التى بها استوجبوا تسجيل الكذب عليهم ، بل انحصار الكذب فيهم ، كما يستفاد من الجملة المعرفة الطرفين المشتملة على ضمير الفصل ، كقولهم : هذا هو القاتل ، أى لا قاتل غيره ، فكأن كذبهم لشدة شناعته قد ستأثر باستحقاق سم الكذب ولا كذب غيره ، ومثله قولهم : هذا هو الرجل ، أى لا رجل سوه ، وكلمة (عند الله) أى فى علمه وفى الواقع : فيها مزيد تقرير وتثبيت لهذا الحكم ، وعلى هذا يكون الكلام

فى مورد القصة بعينه ، وهو قذف أم المؤمنين رضى الله عنها ، وتكون لولا للتبكيت والتأنيب لا للحض والطلب .

وفى الآية وجه آخر وهو الحمل على العموم بحيث يشمل هـذه القصة وكل ما يماثلها من نوعها ، وإذاً تكون لولا لبيان ما يطلب فى مثل هـذه الحال . وقوله : (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ) الخ : يكون معناه أن من قذف ولم يقم البينة المطلوبة فهو كاذب عند الله ، أى حكمه فى شريعة الله حكم الكاذب يقينا ، فيقام عليه حد الكاذب ، فمعنى (عند الله) أى فى حكم شريعته ، والوجه الأول أنسب بالسياق .

(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

لولا هنا للربط والتعليق ، وهي التى يقال فيها حرف امتناع لوجود ، أى دلت على ربط عدم مس العذاب بوجود الفضل والرحمة . والفضل : الزيادة فى الجود والكرم ، والرحمة : الرأفة ، وكلاهما فى الدنيا بإضافة النعم التى منها الإمهال للتوبة والإرشاد لطرق الخير ، وفى الآخرة بقبول توبة التائبين وإثابتهم على امتثال أوامره ، وقيل إن «فى الدنيا» يرجع للفضل « والآخرة » يرجع للرحمة ، ولا داعى له . والتعبير بالمس لتهويل شأن العذاب وأنه يكفى فى الإزعاج به مسه ، لا لتهوين الإصابة به . والإفاضة : الخوض مع الإكثار ، كأنهم زادوا فى حديثهم حتى فاض من جوانبهم كما يفيض الماء من إنائه ، ووصف العذاب بالعظم ليكافئ عظم الخطب الذى وقعوا فيه . والخطاب لعموم الخائضين وإن كان فيهم ابن سلول ، فإنه داخل فى الفضل والرحمة فى الدنيا ، وقد هيئا له فى الآخرة ففوتهما على نفسه بإصراره بعد ما تبين الحق ، ويجوز أن يكون الخطاب لعامة المؤمنين على معنى أن هـذا الذى وقع فيه من وقع لولا فضل الله ورحمته لكان من موجبات عموم العذاب ، كأنه من الفتن التى لا تختص نتائجها بالذين ظلموا ، وقيل الخطاب للخائضين غير ابن أبى .

وفي الآية نوع آخر من الخير وهو تنبيههم الى نعمة الله عليهم ورحمته التي يجب أن يشكروها ويعرفوا قدرها فلا يغتروا بإمهال عقوبة حتى يأمنوا مكر الله ، وإذا تورطوا في معصية فلا ييأسوا من روح الله ، فهذا ما فيه الخير لعامة المؤمنين ، وأما الخير الخاص بالمقذوفين ومن يتصل بهم ، فحسبك منه هذا التنويه العظيم بشأنهم ، إذ كاد سوء عمل أولئك القاذفين يرديهم في سوء العذاب لولا فضل الله ورحمته .

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .

إذ ظرفية متعلق بمسكم ، وفيها معنى التعليل ، فإن ربط الفعل بوقت حادثة مشعر بأن حصوله بسببها ، أى مس العذاب لتلقى ذلك القول ، والتلقى والتلقف والتلقن متقاربة المعنى ، أى أخذ الشيء بحرص وعناء — إلا أن في التلقي معنى الاستقبال به والتهيؤ لأخذه ، وفي التلقف معنى السرعة في الالتقاط ، وفي التلقن معنى الحذق في تفهمه واستقصائه وقوله : (بِأَلْسِنَتِكُمْ) معناه أنهم كانوا حين ملاقاة بعضهم بعضا يستثير أحدهم الآخر بسؤاله ما وراءك ؟ فكان يتلقى ذلك القول ويجتذبه بلسانه ، لا أنه مجرد سماع عفوا ، وبهذا يظهر ما فيه من معنى الجرم . وقوله : (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ) معناه أن هذا القول لم يكن له محل في قلوبكم وأمارات تقره في نفوسكم ، بل هو قول اذا رجعتم الى أنفسكم لا تجدونه يتجاوز أفواهكم ، فما لأحد منكم به من علم ، فالتقريع فيه من جهة الإقدام على ما لا علم فيه ، فهو كقوله تعالى : (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) ويجوز أن يكون تشنيعا عليهم ، كقولك : تقول هذا بفمك أو بملء فيك ، أى تجاهر به ولا تخشى ما فيه من ضرر وخطر ؟ وقوله : (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) تنبيه على جرم آخر وهو استهانتهم بما وقعوا فيه ، فالمؤاخذة فيه في ثلاثة مواضع : تلقى ذلك بالسؤال عنه ، وأنهم يقفون ما ليس لهم به علم ويملأون به أفواههم ، واستهانتهم بما صدر منهم فلا

ينعطفون الى الاستغفار والإقلاع مع عظمته عند الله . والخير فى ذلك لعامة المؤمنين التربية والارشاد الى قبح ما وقعوا فيه ، ليتعلموا دقائق الأعمال وما تحتويه من خطر حتى لا يترددوا فى مثلها فى المستقبل ، وآثار ذلك واضحة جلية ألمح الى شىء منها فى الآية لتالية ، وهى قوله جل شأنه . (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) فإن فيها تنبيها على ما كان ينبغى أن يصدر منهم حين سماعه من التحرز عن التكلم به فضلا عن الافاضة فيه ، وتلقيه بألسنتهم بحثا عنه وجريا وراءه . ولولا هنا للحث المصحوب باللوم ، إذ كان حقهم أن يتفطنوا له من أنفسهم ، فإن دلائله واضحة ، فإن فيه إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وقذفا لأم المؤمنين وما عهد عليها ولا على أحد من بيتها ما يريب ، وإقداما على ما يضر المقدم عليه بلا احتمال لمنفعة عاجلة ولا آجلة ، ومثل هذا لا يصح من عاقل فضلا عمن ملك الإيمان قلبه ، وافتياتا بلا علم على ثلم شرف هو أعز على صاحبه من كل شىء ، فكل هذه الوجوه كانت تؤدى الى أن يقولوا : (مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا) وهذا من أبلغ طرق التربية والتعليم للمسالك التى يحسن بالمؤمن سلوكها . وقوله بعد ذلك : (سُبْحَانَكَ) فيه أولا تنزيه الحق جل جلاله عن أن يرضى لأكرم الخلق عليه صلى الله عليه وسلم بحاول هذه النقيصة بألصق الناس به ، أو أن يرضى عن طغيان أولئك الأفاكين . وقوله : (هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) أصله من بهته اذا فجأه بكذب مختلق بلا أصل ولا يخطر على البال ، فإن المرمى بهذا يبهت ويدهش ، وعظمه لعظم خطره وشدة وزره .

هذا وقد روى أن بعض الصحابة رضى الله عنهم حين سمع هذا قال . ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . فكأن فى الآية إشارة الى حسن لتأسى ووجوب التفطن لما هو الأعظم قبولا فى نظر العقل ، والأشد انطباقا على الأخلاق

الشرعية، ولا يعكر على هذا ما بدا على أبي بكر وزوجه من الجزع ، فما كان ذلك لريبة لحقتهما ، وإنما هو التأذى مما أصيبوا به من الكلام البذىء بلا وجه حق ، وقد روى أن أبا أيوب قال لزوجه : ألا ترين ما يقول الناس ؟ فقالت : لو كنتَ مكان صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءا ؟ قال : لا ، قالت : ولو كنتُ مكان عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعائشة خير منى وصفوان خير منك . فقال أبو أيوب : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم .

(يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

هذا كالنتيجة للآيات السابقة ، وأن ليس الغرض منها مجرد التقريع والتوبيخ ، وإنما يقصد بها العظة والتعليم حتى لا تقعوا فى مثل ما وقعتم فيه بلا تبصر . وقوله : (أَبَدًا) أى ما دمتم أحياء . واقترانه بإن كنتم مؤمنين ، لبيان أن ذلك مقتضى الإيمان وثمرته ، فاذا لم تتعظوا به فإن الايمان لم يؤت ثمره . وقوله : (وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) حث للعقول على التدبر فى أحكامه وحكمه ، ليعين ذلك على قبول النفس لها وعظم رغبتها فى الامتثال . وتكرار لفظ الجلالة فى الآية الكريمة لتمكين ذلك فى النفس فضل تمكن ، والعليم : المحيط بكل شىء وما يترتب عليه ، والحكيم : الذى يضع الأمور فى نصابها وتستتبع أفعاله الفائدة والثمرات ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ابراهيم الجبالى

ذكر
قصص الانبياء
فى القرآن

قال تعالى : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) .

يقول تعالى : إنه يقص علينا قصص الأنبياء وما كان منهم وما حصل لهم لنعتبر بما فيها من حكم جليلة ، وفوائد رفيعة ، وتعليمات إلهية ، وإرشادات ربانية ، تنير لنا طريق الهدى ومنهاج السعادة فى الدارين ، بحيث تكون للناس نبراسا يستضيئون به فى كلتا الحياتين ، وقد قال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أى لا يخافون من أمر مستقبل ولا يحزنون على أمر فائت .

فطوبى لمن يتلو القرآن حق تلاوته ، ويتدبر ما فيه حق تدبره ، ولا يهذه[1] هذ الشعر أو ينثره نثر الدقل ، فمثل هذا نصيبه منه قليل ، وحظه من معين علمه ضئيل ، وإن للقرآن ظهراً وبطناً ، وقد اغترف من بحاره العلماء كلّ على قدر ما آتاه الله ، وما أكثر ما استخرج الحكماء الربانيون من أسراره ما ابتهج به علماء الاجتماع ، ودهش له أساتذة علم النفس وأساطين علم الأخلاق ، ولا غرو فهو الكتاب الذى لا تخلق جدته ، ولا تنقضى عجائبه (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) وهو

(١) الهذ والهذاذ بضم الهاء : سرعة القراءة . والدقل : الردىء من التمر أو النخل الذى لا يعرف له جنس . وأصل هذا ما ورد فى حديث ابن مسعود وحذيفة فى القراءة (هذا كهذ الشعر ونثرا كنثر الدقل) أى كما يتساقط الرطب اليابس من العذق إذا هز.

الصراط المستقيم الذى ارتفع به سلف الأمة الى أوج العز والفخار، فكانوا أرفع الأمم على الإطلاق، وأعزها على الإطلاق، بما أفادهم من تعاليم أورثتهم عزة الملوك وطهارة الملائكة (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) فكانوا يخشون الله ولا يخشون أحدا سواه، مطهرين من أدناس الدنايا التى تسقط الأمم وتذل الشعوب، متحابين فيما بينهم على مقتضى ما رسم لهم (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فما أشبههم بأهل الجنة فى الجنة، نزع ما فى صدورهم من غل، قائلين دائما : (وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) مشفقين من أنفسهم، عالمين أنها أمارة بالسوء، ذاكرين قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ).

وقد أخبرنا عز وجل أن الناس مختلفون جد الاختلاف فى فهم القرآن على حسب استعدادهم (والإمداد على قدر الاستعداد) فقال : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ) وقال : (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَانًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) وان من النفوس ما لا تعرف إلا الشر ولا تفهم إلا الشر، فهى تقلب كل شىء اليه، كالإناء الخبيث الذى تخذ من معدن خبيث، فإنه يقلب كل ما يوضع فيه من الماء الصافى الى طبعه الخبيث، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون.

ولنقص عليك شيئا مما تضمنته قصة آدم عليه السلام مما ستعلم أنه يكفل سعادة الدنيا والآخرة لمن عرفه وتمسك بما فيه، وكأن الله يشير الى ذلك بقوله . (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَابِ) فجعل ذلك لأرباب العقول السليمة لا لغيرهم،

ثم نتلو عليك بعد ذلك بعض ما تضمنته قصة يوسف عليه السلام من حكم جليلة وأسرار نبيلة ، فنقول وبالله التوفيق :

ما يؤخذ من قصة آدم عليه السلام من الفوائد والاشارات على طريق الايجاز :

(١) يؤخذ من إعلامكم أيها العقلاء بتلك القصة وجعل الله إياكم خلفاء فى الأرض أن الله تعالى ما عرفكم أنكم خلفاء عنه إلا لتعرفوا ما فيكم من الاستعداد العظيم ، حتى تعملوا بمقتضى تلك الخلافة ، فتهيئوا أنفسكم لهذا المنصب الشريف وتحكموا بالعدل ، فلا تفسدوا فى الأرض ، ولا تسفكوا الدماء ، فإن ذلك كان مظنونا فيكم ، ومترقبا منكم ، فلا تحققوا ذلك الظن .

(٢) يؤخذ من عرض الله تعالى على الملائكة ما يريد أن يحدثه فى الأرض ، وما كان منهم معه تعالى من المحاورة والمقاولة أن من الحكمة استخراج ما هو كامن فى النفوس حتى لا يكون فيها اعتراض ولا منازعة خفية ، وهو ضرب من سياسة الحاكم مع المحكومين ، وفن من فنون تربيتهم وإصلاحهم .

(٣) يؤخذ من محاورة آدم عليه السلام مع الملائكة وعرض الأشياء عليهم وسؤالهم عنها سؤالا يعرفهم أن دعواهم تفوقهم على من عداهم من المخلوقات دعوى غير صحيحة — أنه لا بد من البرهنة على الدعوى ولو كانت من أكبر كبير ، حتى تتملك العقول بالحق لا بالاستبداد الذى تبقى الشبهة فيه كالنار خلل الرماد : يوشك أن يكون له ضرام .

(٤) يؤخذ من كونه تعالى علم آدم الأسماء كلها ولم يعلمها الملائكة أننا معشر بنى آدم مستعدون لما هو أعلى من متناول الملائكة ، وليعلم أن الملك ليس له إلا وجهة واحدة ، فليس مستعداً إلا لأن يكون مظهراً لبعض آثار الأسماء الإلهية ، أما الانسان فهو مستعد لأن يكون مجلى لجميع الآثار وظهور جميع الأسرار ، فهو صالح للمتقابلات

ومستعد لجميع المتضادات ، فهو أعلى المظاهر التى تتجلى فيها آثار الأسماء الإلهية ، وأنوار الصفات الربانية ، وما من شىء فى هذه العوالم السفلية والعلوية على اختلاف أنواعها واتساع أصنافها إلا وفيك نموذج منه ، ولسان فصيح يعبر عنه . ومما ينسب للامام على كرم الله تعالى وجهه قوله :

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ولهذا شرح طويل لا يمكننا أن نأتى عليه اليوم .

(٥) نستنبط من قوله تعالى : (ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ) أنه ينبغى لمن يريد إقامة الحجة على خصمه أن يأتى له بما يفيده اليقين بحيث تمتلئ به نفسه ، حتى يصل الأمر عنده الى حد المحسوس الذى لا مرية فيه .

(٦) يؤخذ من قوله تعالى : (ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) أنه يجب الاعتذار لصاحب الحق ، ويتحتم الشكر لصاحب النعمة ، فإنهم ما سجدوا لآدم عليه السلام إلا شكراً لتعليمه إياهم ما لم يعلموا ، واعترافا بفضله عليهم وارتفاع مقامه على مقامهم .

(٧) يؤخذ من قوله تعالى : (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) أن الكبر أساس المفاسد كلها ، وموجب لاقتراف ما يستلزم الهلاك الأبدى ، ويفوت أعظم السعادات ، ويجلب أكبر الآفات ، ويجر صاحبه الى رد الحق مهما كان قائله ، ويبين أن الرجوع الى القياس والأنظار العقلية كقول إبليس : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قد يكون سبباً للضلال ، وموجبا لغاية الخبال ، والواجب ترك ذلك مع من يجب طاعته والتسليم له ، وأن ذلك لم ينشأ إلا من عدم الاعتراف لله تعالى بالحكمة والعظمة وسعة العلم ، فضلا عن كونه قادحا فى المحبة التى تقتضى الإذعان وعدم السؤال .

(٨) ويؤخذ من قوله تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) أن فيك غريزة من الحرص لا تدع شيئاً إلا أتت عليه، فإما أن تنسيك أو تطغيك، مع بيان أن الشيطان لا يتمكن منك إلا بوسطها، فيتحتم عليك ملاحظتها، وتقويم اعوجاجها، والاحتراس منها.

(٩) يؤخذ من محاورة الشيطان لآدم وحواء واحتياله عليهما بقوله: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) ولم يكفه ذلك القول حتى أقسم لهما عليه إنه لمن الناصحين، يؤخذ من ذلك كله أن لكم عدوا لا يألوجهدا فى الكيد لكم، والاحتيال عليكم، حتى تهلكوا كما هلك، وقد أقسم ليغوينكم أجمعين، وليأتينكم من بين أيديكم ومن خلفكم، وعن أيمانكم وعن شمائلكم (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) ولذلك كله ختم الله كتابه العزيز بالاستعاذة من ذلك العدو المبين، الذى يؤثر فيك من حيث لا تشعر، ويأتيك من حيث لا تعلم، ويعرف موضع الضعف منك، فأمرك أن تستعيذ بربك الملك العظيم، والإله الذى هو فوق الملوك، من شر ذلك الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس، فإن من وقى شره فقد وقى الشر كله ونال الخير كله.

ولعل نفسك التى بين جنبيك أول من يدخل فى الموسوس من الناس، أو هى المرادة منهم، فإنها أعدى أعدائك، وما أرسل الأنبياء جميعا إلا لتخليص الناس من شر النفس والشيطان، فهذا هو الغاية القصوى من جميع الشرائع، والغرض الأسمى من كل ما جاء به الأنبياء، فالخلوص منهما هو السعادة الكبرى لمن فاز به فى الدنيا والآخرة،

فكأنه تعالى أرشدك فى آخر كتابه الى فذلكة ما فى القرآن كله ، وخلاصة ما تضمنته آياته ، فهو النتيجة المختصرة ، والغاية التى ليس وراءها غاية ، وهو الحقيقة التى ترمى اليها جميع العلوم ، والزبده التى تمخضت عنها جميع الفهوم ، فهى نتيجة تغنيك عما امتلأت به كتب الأولين والآخرين من علم العلماء وحكمة الحكماء .

هذا ولعله يرشدك الى أن المراد من الناس قبل كل شىء هو نفسك التى بين جنبيك ، أو أنها تدخل فى الناس دخولا أوليا . إن الوسوسة تعتمد الخفاء ، وليس أخفى من وسوسة النفوس فى الصدور ، أما تأثير شياطين الانس فلا ننكره ، ولكنه بعيد عن معنى الوسوسة بعدا ما ، وإن كان مما يصل الى القلوب فى لطف وخفاء ، وقد جرت المناسبة لهذا ، ولعله مفيد فى الموضوع أو غير بعيد منه .

(١٠) بيان أن من اقترف ذنبا فله طريق الى الخلاص منه بالتوبة ، والإرشاد الى ما تداوون به أنفسكم مما عسى أن يكون منكم بمقتضى تلك الغريزة ، وأن الحكمة فى أن تتداركوا الخطأ الذى ربما وقعتم فيه بموجب الجبلة البشرية ، لا فى أن تستسلموا لليأس من روح الله ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون .

(١١) بيان أن الانتباه بعد الخطأ واليقظة بعد الغفلة ربما كان سببا فى بلوغ الدرجات العلا والترقى الباهر ، فإن آدم بعد ما كان منه أدام الملاحظة لجلال ربه والاحتراس من عدوه ، ومراقبته نفسه ، بعد ما عرف أن هناك عقوبات مقررة وسننا لا تتبدل ، عرف بها من كمال الإلهية وجلالها وحكمتها وعظمتها ما لم يكن يعلمه قبل ، شأن من تربى فى النعمه التى لا يتأتى أن تكون معها المعرفة الصحيحة ، ولا الرجولة التامة ، ولا الصبر والثبات ، ولا التطلع الى الكمال ، ولا معرفة وجه المخرج من المضايق فالتجربة والمحنة والبلية أكبر المعلمين وأعظم المؤدبين ، ومن لم تهذبه نيران الامتحان لا يثبت أمام حوادث الحدثان ، بل يندرج فى سلك النساء والصبيان .

(١٢) بيان أن السعادة والفوز والفلاح والأمن من الخوف ليس له إلا طريق واحد (فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) واتباع الناس والنفس يضل عن سبيل الله ، فإن الانسان ظلوم جهول (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) فإنهم إنما يتبعون الظن ، والأنبياء أعلم ، والله أرحم وأحكم (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) .

(١٣) ويؤخذ من القصة بعد ذلك أن من السنن الإلهية الامتحان ، وهو ضرب من ضروب الترقية ، وفيه أيضا إزالة طغيان النفس التي ترجع بصاحبها الى غاية النقص بعد غاية الكمال .

وبعد فاتعلم أن الأخلاق الذميمة كلها ترجع الى الكبر ، والحسد ، والحرص ، وسنفصل ذلك ، وهذه الثلاثة التي هي جماع الشرور ، وأصول المفاسد ، ومثار الشقاء والبلاء ، مأخوذة من هذه القصة (قصة آدم عليه السلام) فكأن الحق سبحانه وتعالى يكررها عليك المرة بعد المرة تحريرا لك من هذه الخصال الذميمة ، وتذكيرا إياك بما ينشأ عنها . أما الحرص الداخل فى تكوينك ، لآخذ بمجامع قلبك ، وهو فى أصل جبلتك وعنصر من عناصر طينتك ، فقد نبهك عليه كى تحذره حذرك الأفاعى بما قص عليك من كونه أباح لآدم الجنة كلها إلا شجرة واحدة ، فأبى عليه حرصه الغريزى وتكوينه البشرى أن يدعها ويستغنى عنها بكل ما عداها . وأما الكبر والحسد وما ترتب عليهما من الطرد الأبدى واللعن السرمدى لإبليس ، فقد بينهما بما قص علينا من قول إبليس : (أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً) وقوله : (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً) الى آخر ما جاء فى القصة مما يبين حسده البالغ ، وكبره الذى رد به أمر الله وطعن فى حكمته ، فأصبح من الكافرين ، واستوجب اللعنة الى يوم الدين .

ويلتحق بذلك ما ذكره الله فى قصة ابنى آدم لذين قتل أحدهما لآخر إجابة لداعى الحسد، وامتثالا لغريزة الحرص الذين هما سبب كل بلاء، وأساس كل شقاء. ولنفصل لك مايتفرع عن تلك الخصال الثلاث من شعبها الكثيرة التى أتت على سعادة الدنيا والآخرة، ولولاها لكان الناس فى سرور وحبور فى هذه الحياة وتلك الحياة، ولعلك لا تستطيل القول فنقول: إن الأخلاق الرديئة جميعها ترجع الى ثلاثة أصول: الكبر، والحرص، والحسد، فهذه الخصال الثلاث أمهات جميع الخبائث والمعاصى. وبيان ذلك أن الكبر من آثاره التى تنشأ عنه عجب المرء برأى نفسه، والأنفة عن قبول الحق، وترك الإقرار به، والتعدى على الغير، والظلم والجور عند القدرة، وترك الإنصاف فى المعاملة، والتهاون فى الواجبات، والإعراض عن أداء الحقوق، والقحة وصلابة الوجه فى دفع الحق، والفحش والسفاهة فى الخطاب، والجدال واللجاج فى الخصومات، والنزق فى العشرة، والحدة والبطش فى التصرف، واحتقار الناس والاستطالة عليهم، والافتخار بما يزعمه من المواهب، والإنكار لفضل من فضل عليه، والبغى والعدوان وما شابه ذلك. هذه فروع الكبر ولوازمه.

أما الحرص وهو الخصلة الثانية، فمن آثاره التى تترتب عليه الطمع الكاذب، وشدة الرغبة، والطلب الحثيث، والعجلة فى السعى، وتعب البدن، وعناء النفس، وكد الروح فى الجمع والادخار، والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر، والبخل والمنع والشح، والغش والمكر فى المعاملة، واللؤم، وما يتبعها من الشؤم والخذلان، وقلة الانتفاع بالموجود، والحرمان من المدخر، والمضايقة فى المعاملة، والمناقشة فى الحساب، وسوء الظن بالأمين، والتهمة للثقات المؤتمنين، والخيانة فى الأمانة، وطلب الحرام، وهتك الحرم، وارتكاب الفحشاء، والكذب، وكثرة الحيل فى البيع والشراء، وقلة النصيحة، واليمين الكاذبة، وأقاويل الزور فى أسباب الخصومات، والعداوة الناشئة

من التعدى فى الحدود ، وما شاكلها من الخصال المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، والأعمال السيئة . هذه فروع الحرص ونتائجه .

أما الخصلة الثالثة وهى الحسد ، فمن آثاره الحقد والغل والدغل ، وهذه تدعو الى المكاشفة بالعداوة والبغضاء ، والبغى والغضب ، والتعدى والعدوان ، وقساوة القلب وقلة الرحمة ، والفظاظة والغلظة ، والطعن واللغو والفحشاء . وطالما كانت هذه الخصال سببا للخصومة والشر والحرب والقتال إن أمكن جهرا ، وإلا كان بالحيل والخداع والغدر والخيانة والسعاية والغيبة والنميمة والزور والبهتان والكذب والمداهنة والنفاق والرياء وتشتيت الشمل وقطيعة الرحم والبعد من الإخوان ، ومفارقة الأليف ، وخراب الديار ، ووحشة الوحدة ، والحزن والغم ، وألم القلب وهموم النفس وعذاب الأرواح ، وتنغيص العيش وسوء المنقلب وخسران الدنيا والآخرة ، نعوذ بالله من ذلك كله .

وبعد فنقول : ذكر علماء الأخلاق أن القوى التى هى منشأ الخير والشر ثلاثة ، وهى القوة الغضبية ، والقوة الشهوية ، والقوة العقلية ، فأشير الى القوة الغضبية بما كان من إبليس ، والى القوة الشهوية بما كان من آدم فى قربان الشجرة ، والى القوة العقلية بما كان من رجوعه الى الله وتوبته ، الى آخر ما أوجب له الاصطفاء والارتقاء ، ويلتحق بذلك تعليمه الأسماء كلها .

أليس من أعجب العجب أن تشتمل هذه القصة على علم الأخلاق بحذافيره ؟ إذ هو راجع بكل فروعه الى هذه القوى الثلاثة كما هو معروف . ولنقتصر اليوم على هذا ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الذكريات الاسلامية

في الهجرة والمولد النبويين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وصلى الله على من أرسله بالحق مبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا ، محمد النبى الأمى العربى الهاشمى وآله وصحبه وجنده وحزبه ، وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد فإن الاحتفال بالذكريات العظمى ، وتكرار ذكرها ، وتمجيد النعم الكبرى معين على أداء واجب شكرها ، وبرهان على أن المنعم عليه يقدرها حق قدرها . وإنك لتلمح فى الشرع الشريف طرفا من هذا ، فقد ترى فى مجئ العيدين العظيمين : عيد الفطر وعيد الأضحى فى وقتهما أن كلا منهما جعل موعده عقب نعمة كبرى منّ الله بها على عباده ، فقد جاء عيد الفطر عقب شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وكان عيد الأضحى عقب يوم عرفة الذى نزل فيه قوله تعالى : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا) وناهيك بهما من نعمتين لا يجحد فضلهما ولا يحقر شأنهما إلا من كتب عليه الحرمان من رحمة الرحمن ، وهما نعمة إنزال القرآن ونعمة إكمال الدين ،

وترى أن حكمة تخصيص يوم عاشوراء بمزيد تأكيد لطلب الطاعات النافلة كالصوم وصلة الرحم، والعطف على اليتامى والفقراء، وأمثال ذلك، قد تجلت في ورد من أنه يوم نجى الله فيه موسى من فرعون وقومه، وأخرج فيه يونس من بطن الحوت، ورست فيه سفينة نوح على الجودى، وأمثال ذلك من النعم التى أنعم الله بها على أنبيائه وأصفيائه، ونعمته عليهم نعمة على جميع الخلائق الذين أرسل الرسل رحمة بهم، وهدى لهم، ونعمة على كل من يغار على الحق ويعنى بنصرته.

وإن من أكبر النعم التى أفاضها الله على الأمة الاسلامية بل على جميع البرية نعمة تخليص نور الحق من ضغط ظلمات الشرك، فقد بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم بين قوم شديدى الشكيمة قويى المراس، تمكنت منهم الحمية حمية الجاهلية حتى أنستهم مصالحهم، وأعمتهم عما فيه سعادتهم، فلم يبصروا ذلك النور المتلألئ بين أعينهم، ولم يسمعوا صيحات التبشير والإنذار تنبههم وترشدهم، فما زالوا يغمضون أعينهم على القذى، ويصرفون عقولهم عن الهدى، ويجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر أن يسمعوا ما يغلبهم على تصميمهم، ويصدون عن سبيل الله من أمن، ويؤذون الرسول والمؤمنين بلا ذنب سوى أنهم يحرصون على حياتهم حياة سعيدة، وما زالوا يعتدون بقوتهم، ويصولون بعزتهم وغلبتهم، ويتتبعون حركات كل من آمن أو مال الى الإيمان فيحولون بينه وبين الإيمان بمختلف الوسائل: بإرهاب المستضعفين، وتأنيب ذوى الخطر، واستعطاف من له صولة، حتى قطعوا الطريق على السالكين، وكادوا يمنعون رحمة الله أن تصل الى عباد الله.

ولقد مكث عليه الصلاة والسلام معهم عشرة أعوام أو يزيد يدعوهم الى الإيمان بربهم، وهو معروف بينهم طول عمره بالصدق والأمانة حتى سموه الأمين، وهم له كارهون يكيدون ويصدون، حتى ضاقت بالمؤمنين أرضهم، وسئموا هذه الحياة

المضطربة ، والعشرة المشاكسة ، فأذن الله لنبيه أن يهاجر هو وأصحابه من هذه الديار ، وهى أحب بقاع الأرض اليهم لأنها تجمع الأماكن المقدسة ، ومقر بيت الله ومفخرة قريش ، وأثر ابراهيم واسماعيل ، ومنبت نشأتهم الأولى ، ففرجت عنهم الضائقة ، وخرجوا لا يلوون على شيء مما يحبون ، يفرون منها بدينهم ، فالمؤمن يجب أن يكون مؤمنا قبل كل شيء ، لا أن يكون متمسكا بأرض اتفق له أن وجد عليها قبل كل شيء ، فأرض الله واسعة فضاها ، وكما يقولون : أرض بأرض وجيران بجيران ، أما الدين فلا بديل له ، ولا عوض عن سعادة الحياتين ، فمن خسر دينه فقد خسر سعادة الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

أذن الله لنبيه وللمؤمنين أن يهاجروا من مكة الى المدينة ، فهاجر اليها فريق من المؤمنين أولاً بأمره صلى الله عليه وسلم ، وهاجر بعد ذلك عليه السلام هو وأبو بكر ، وقد تكفلت كتب السيرة النبوية بتفصيل ما وقع فى هذه الهجرة وفى هجرة الصحابة قبل ذلك الى أرض الحبشة بما فيه المقنع ولم نرده من كلمتنا هذه .

وإنما الذى نعنى به فى هذه الكلمة هو بيان ما ترتب على هذه الهجرة مما كان نصرة للحق وسعادة للمؤمنين ، بل رحمة لجميع العالمين ، ذلك هو انجلاء هذه الشمس الساطعة وانكشاف غيوم تلك الأضاليل والأباطيل عنها من تسلط قوم بلغ بهم الحمق والجناية على أنفسهم وعلى الناس أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فكان تجلى هذا الضياء وسطوعه على كافة الخلائق وذهاب الحجب التى كانت تحول بينه وبين الوصول لمن ينتفع به رحمة على الناس أجمعين ، كيف لا وقد قال جل شأنه : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

ولا يمنع أنها رحمة للناس أجمعين تفويتُ فريق من الناس على أنفسهم الانتفاع بها عنادا واستكبارا ، أو جهلا وغباوة ، فشروق الشمس رحمة للجميع وإن أغمض بعض

الناس عينيه فلم ينتفع بضوئها أو كان به غشاوة ، وسكينة الليل رحمة للجميع وإن قضاه بعضهم فى العربدة حتى أتلف صحته ، ونزول المطر رحمة للجميع وإن قاطعه أناس وأبوا أن يستقوا من مائه .

على أن هـذه الرحمة قد شمل الانتفاع بهـا ولو من بعض الوجوه جماهير سكان الكرة الأرضية حتى من لم يؤمن ، فقد أبادت أحكامها وتعاليمها عوائد ممقوتة مرذولة كان الناس قد خضعوا لها واستكانوا تحت نيرها حينا من الدهر لا يفكرون فى الخلاص منها ولا يعملون على إنقاذ نفوسهم من مقتها . جاء الاسلام فنبه النوع الانسانى الى منزلته فى الوجود ، وأنه لا ينبغى أن يكون خاضعا إلا للسيد الأعلى ، وألا يستعظم إلا ربه ، فغرس فى نفوس الخلائق معنى (الله أكبر) فكان بذلك قاضيا على ما استفاض بين الأمم والشعوب من خضوع فريق لفريق ، واستعباد ناس لناس ، واستبداد إرادة بإرادة ، دون مبرر لكل ذلك سوى الزعم الباطل بأن بعضهم أرقى عنصرا وأكرم أصلا من بعض ، وأحق أن يطاعوا فى كل ما يشاءون ، وأن البقية يجب عليهم الخنوع والذلة والطاعة لأنهم لا يصح لهم أن يتساموا الى مراتب ساداتهم ، فجاء الاسلام بمبدأ (الله أكبر) فغرس فى النفوس أنه لا كبير إلا وفوقه أكبر منه ، وأن هناك من هو أكبر من كل كبير ، ومهيمن على الصغير والكبير ، ولا تفاوت بين الناس يوجب هذا التقديم والتأخير ، فالناس لآدم ، وآدم من تراب ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالأعمال الصالحة ، والآثار النافعة ، وما يكون منهم من عمل يقربهم الى ربهم ، وذلك تهذيب نفوسهم ، وتمجيد خالقهم ، والعطف على سائر الناس ، وإيصال النفع للخلائق ، وأمثال ذلك من أسباب التقوى (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) فسرت هذه الروح فى الأمم والشعوب ، فتنبه الانسان الى حقوقه فى مشارق الأرض ومغاربها ، فبعد أن

كان الجزء المعروف من الأرض يتقاسمه دولتان هما فرس والروم ، فتنشر كل منهما فى أرضها من صنوف الإرهاق والظلم ما عود الناس الاستكانة والذلة ، نفخت هذه الروح روح المساواة فى الإنسان ، فتراجع الأقوياء وسلموا بهذا المبدأ الحق ، فانتفع بذلك كل الناس ولو لم يدينوا بالدين الحنيف دين الاسلام .

فترون من هذا أن يُمن هـذا الدين قد لحق حتى الكافرين ، لحق على الجميع لو أنصفوا وقدروا ما أصابهم من خير أن يشتركوا فى تمجيد هذه الذكرى أجمعين .

إن ذكر الهجرة وأسبابها ، والوقائع التى حصلت فيها ، والنتائج التى ترتبت عليها أمر قد استفاضت به كتب السير والتاريخ ، وقد سمع مرارا وتكرارا ، فلم أر كبير داع للتحدث فيه ، وإنما أشير الى أمر واحد ، وهو أن المسلمين فى زمن عمر رضى الله عنه لما رأوا أن بعض الكتب يجئ متقدما وبعضها يجئ متأخراً ، وأن الحوادث تتوالى وتكون مذكورة بترتيبها فى ذهنهم إبان حدوثها فاذا مضى عليها طويل وقت ضاعت معالم ترتيبها ، وجدوا أنفسهم بحاجة شديدة الى وضع تاريخ يضبط لهم زمان الحوادث والكتب ، فتشاوروا بينهم فى أمر يجعلونه مبدأ للتاريخ ونعرّف أوقات الحوادث بنسبتها إليه ، فذكروا جملة حوادث عظمى كمولده صلى الله عليه وسلم ، وبعثته ، والبدء بالدعوة والجهر بها ، والإسراء به صلى الله عليه وسلم ، ووفاته ، وذكروا فيما ذكروا هجرته عليه السلام الى المدينة ، فنظروا واذا بها مبدأ انهزام الباطل أمام الحق ، وارتفاع كلمة الله ، وأول عهدهم باعتزاز الاسلام ، وتبوئه المقعد المرجو له والجدير به ، نظروا وإذا بهم قد أصبحوا يدعون عباد الله الى دينه جهارا ، لا يخشون معارضة ولا استنكارا .

نظرو واذا بهم قد أصبحوا طلقاء بعد التقييد ، أحرارا بعد الأسر أو ما هو أشد من الأسر ، أعزاء بعد الذلة ، منصورين بعد الهزيمة ، فكان هـذا اليوم أحب الأيام

الى قلوبهم ، وأروعها أثرا فى نفوسهم ، وأظهرها تأثيرا فى حياتهم ، وأى يوم أعظم من يوم الانتصار ؟

ما كانت الغزوات التالية والانتصار فيها إلا أثرا من آثار الهجرة ، وما كانت الحوادث التى قبل الهجرة على عظمتها مؤتية ثمرها لولا الهجرة ، فلتكن الهجرة هى مبدأ التاريخ الاسلامى ، وما أجدرها أن تكون مبدأ التاريخ العالمى ، لما حوته من كمال وصول الرحمة من الله الى عباد الله ، وسلامة الطريق من قطاع الطريق :

وإنه ليحق لنا وقد وصل بنا الكلام الى تكرار ذكر الرحمة التى جاءت بها الشريعة الغراء أن نشير الى آثار رحمته تعالى بالمؤمنين فى هذه الشريعة المطهرة ، وعظيم نعمته عليهم فى هدايته التى تخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه

وإن نعمة رسالته صلى الله عليه وسلم لتتجلى واضحة فى ثلاثة مظاهر : (الأول) فى وضوح التعاليم فى شريعته الغراء (الثانى) فى متانة حججها وسطوع أدلتها وبراهينها (الثالث) فى عظم فوائدها وجليل آثارها فى الدنيا والآخرة .

ولنشرح كل واحد من هذه المظاهر بمنتهى الإيجاز بما تسعه هذه الكلمة :

أما وضوح تعاليمها فإن الناظر اليها مجردة عن أى مصدر أو مستند يجد لها فى ذاتها تغلغلا فى النفوس ، ويجد فى القلوب استعدادا لقبولها ، ولو لم يسندها برهان أو لم يعرف منزلة قائلها ، فأشبهها بقولهم : قضايا قياساتها معها : أو هى كما قال تعالى فى وصفها : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ . ذلك أنها فى عقائدها وفى عباداتها وفى أحكام معاملتها تجلو على العقل المثل الأعلى لما ينبغى أن يكون عليه نظام هذا الوجود

فأما العقائد فلم ترهق العقول بما تعيا عن فهمه ، بل هدتها الى ما يزيل الحيرة ويحل لغز الوجود ، فقد أرشدت الانسان الى أن ما يقع عليه حسه وتدركه نفسه من هذا

العالم المنظم فى ارتباطه ، المتقن فى إبداعه ، المتماسك فى تباعده ، مع قيام الدليل من حاله على إمكانه فى نفسه وعدم مقتضى لوجود من ذاته ، يجب أن ينتهى الى وجودٍ واجب يكون أكمل وجود متصف بأكمل الصفات وأمجدها ، وجود لا يخضع لعوامل السكون والفساد ، ولكنه مصدر لكل ما يبدو من الآثار ، ويكون هو المهيمن على جميعها المتصرف فى كل شئونها من صغير وكبير . دل باهر صنعه على عظيم علمه وحكمته ، وقدرته وإرادته ، فهو الحى القيوم ، وهو بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، وهو الرحمن الرحيم ، والغنى عن كل شىء ، وكل شىءٌ محتاج إليه .

ولا شك أنه لا يحل مشكلة الوجود الجامع لهذه الأجرام الفلكية ، والعوالم الأرضية ، وماحوت من ارتباط وتماسك ، وصلاح وحكمة ، وما يعتريه من تغير وانحلال وحركة وسكون ، سوى هـذه العقيدة السهلة التى تتحدر الى العقل الإنسانى من الملكوت الأعلى لا يحجبها عنه إلا ازورار طبعه ، أو اعوجاج تربيته ونشأته .

وإن من مظاهر رحمته أن يتعهد العقل بهداة يرشدونه إذا ضل ، ويقوّمونه اذا عوج ، ويؤيدهم بأدلة ظاهرة ، وآيات باهرة ، هى أمارات أنهم رسل من عنده يبلغون عنه وهم فى بلاغهم صادقون ، وأنهم وهذا شأنهم يجب أن يكونوا أمناء صادقين ، وأن يكون لهم من رجاحة العقل ولفطنة ما يقتدرون به على أداء مهمتهم وإرشاد أممهم ، وان هذا من القبول بحيث لا تأباه العقول . لم يزد الاسلام فى أمر العقائد على هذين وما يتفرع عنهما مما يلزمهما ويستفاد منهما ، وذلك هو الإيمان بالله وكتبه وملائكته ورسله .

وأما العبادات فقد أشير الى أساسها إجمالا فى قوله تعالى : (قُلْ يَأَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ ٱللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ) .

ولما كانت تفاصيل العبادات لا يستطيع العقل تحديدها أرسل الأنبياء ليهدوا العقل لبشرى الى ما يرضاه منه الحق جل جلاله ، وهو أعلم بما يرضى . ولقد جاءت هذه الشريعة فى هذا الباب بما هو أنور فى نظر العقل من الشمس فى رائعة النهار ، فجعل أركان الاسلام خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ولكل ركن منها فى تهذيب النفوس وتنظيم شئون المجتمع أبلغ أثر وأعظم خطر ، فى الشهادتين تعويد النفس ألا تصدر فى أعمالها إلا عن بصيرة بالأمر واستيقان بصحته ، فمهما عمل ومهما ترك فهو فرع اعترافه ويقينه بخضوعه لله وحده ، وتصديقه لرسوله ، يقينا واضحاً يشبه المشاهدة ، وهذا يستتبع قطعا النتيجة المذكورة فى قوله تعالى : (وَمَآ آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ) .

وفى إقام الصلاة تذكير النفس مراراً فى كل يوم وليلة بعظمة الخالق ، واستحضار نعمه ، والوفاء بشكرها استزادة لها بالشكر ، والاستعانة به فى كل شأن ، وطلب الهداية من لدنه ، مع تعظيمه وتبجيله والخضوع له أى خضوع ؛ وفيها من نيل شرف المثول بين يدى أحكم الحاكمين مع خلوص نفس وطهارة ظاهر وبطن ، وإشعار القلب بالجلال ما يغرس فى النفس الانسانية الشعور بالعظمة والعزة الدينية ، إذ من يشعر أنه عبد الملك الأعلى يقف بين يديه وهو مطلع عليه لا تحدثه نفسه أن يكون عبداً لعبد مثله .

وسر الزكاة أن فيها من جمع القلوب وتقوية أواصر المحبة والعطف بين الأمة ما يكفل سعادة الجميع بارتباطهم بعضهم ببعض ، وهى أكفل ضامن لدفع الشيوعية المقوتة .

وأثر الصيام فى تحديد عزة النفس وقمع غلوائها لا يخفى على من ذاقه وجربه .

وهل الحج إلا اجتماع جماعة المسلمين كل عام فى وقت واحد فى صعيد واحد مستشعرين معنى العبودية ، خاضعين لرب لا شريك له ، يتعارفون فيتساندون فيكونون إخوانا ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ؟ .

هـذا شأنها فى وضوح تعاليمها فى عقائدها وعباداتها ، فاذا التفت الى ما بثت من أخلاق كريمة تطهر النفوس من الآثام والأدناس ، وجدت لذلك ما يملأ قلبك اعتقادا واستيقانا بأنها الرحمة المهداة حقا للعالمين .

وأما فى المعاملات فاعمد إلى أى باب من أبوابها سـواء أكانت معاملات خاصة كنظام الأسرة ، أو عامة كعقود النظم المدنية من بيع وإجارة ورهن وضمان وأمثالها ، أو معاملات أعم كعقود النظم بين الأمم من معاهدات واتفاقات وأمثالها ، فإنه يتجلى لك من ذلك ما لو اجتمعت العقـول متضافرة على أن يأتوا بخير منه شامل لجميع الأمم فى كل زمان ومكان ، ما وجدوا الى ذلك سـبيلا . وإنك لتـكتفى فى الاستشهاد على هذا بقيام تشريعات وقتية لفئة من الناس فى حالة تكون مغايرة لبعض أحكام الشريعة الغراء ، ويتوهم فيها أنها كفيلة بسعادتهم وهناءة حياتهم ، فلا يمضى عليها كبير زمن حتى يظهر عوارها ، ويسعى أهلها فى تبديلها ، فى حين أن أحكام هذه الشريعة الغراء تمضى عليها الحقب والدهور فلا تزيدها الأيام إلا جدة ، وما من اعتراض أو إشكال توهمه الخارجون عليها إلا وكشف الزمان فساد لتوهم فيـه . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

هـذا ما تسعه هذه الـكلمة فى وضوح تعاليمها إجمالا ، وأما متانة براهينها وقوة حججها ، وبيان آياتها ، فذلك متجل فى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنها لنوعان – منها ما هو من جنس معجزات إخوته المرسلين عليهم جميعا أفضل صلاة وأتم تسليم ، وذلك كنبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ، وكردّ عين قتادة الذى فقئت عينه فى إحدى الوقائع ، وكتسبيح الحصا وحنين الجذع وأمثال هذا ، فهى من جنس معجزة موسى فى تسخير الماء بانفلاق البحر ، ومعجزة عيسى فى إبراء الأكمه ، ومعجزتهما فى إحياء الموتى ، وقلب العصا حية . وحكمة ذلك أن شريعته عليه

السلام لما كانت ناسخة للشرائع السابقة فمن الحسن ألا تمتاز شريعة عليها بمعجزة تؤيد بها، حتى لا يكون فى المنسوخ قوة خلا منها الناسخ.

ومنها ما اختص به صلى الله عليه وسلم وذلك هو المعجزة الباقية الخالدة ما فى وجوب العمل بهذه الشريعة المطهرة، وذلك أبد الآبدين، تلك هى معجزة القرآن الكريم، وإن وجوه الإعجاز فيه لمتكاثرة، أظهرها ما يرجع الى بلاغة أسلوبه وقوة بلاغته حتى عجز من تحداهم وهم فحول البلاغة عن أن يتعرضوا لمحاكاة شىء منه ولو قدرا صغيرا كسورة قصيرة، وذلك مقدار ثلاث آيات، وقد كانوا — لو وجدوا الى ذلك سبيلا — قادرين على أن يشهد بعضهم لبعض، وما أكثرهم إذ ذاك وأشد عنادهم، فعجزهم جميعا والبلاغة موضع مباهاتهم ومناط فخرهم دليل عجز من سواهم من باب أولى وذلك هو الإعجاز اليقينى حتى لمن لم يكن من أهل البلاغة. على أن فيه من نواحى الإعجاز ما تعرفه أصحاب العلوم المتنوعة، فما أحق من زاول فنون التشريع والتقنين وعرف ما يقاسيه المتصدى له بعد أن يعد لذلك عدته، ما أحقه بمعرفة أن ظهور هذا التشريع الكامل ممن لم يزاول هذا الفن واهتداءه لما يوافق كل أمة بادية أو حاضرة ويفى بكل ما يلزمها أمر ليس فى طاقة أحد من البشر خصوصا، مع اختلاف الأجيال والقرون والعادات والمألوفات .

وما أجدر من درس الأخلاق وأخذ نفسه بأن يعطيها كاملة أن يعرف أن ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك فوق الطوق البشرى؛ بل إنا لنجد فى القرآن من وجوه الإعجاز ما لا يتوقف المرء فيه على تعلم علم ولا التبحر فى فن، وإنما يكفيه أن يكون له قلب أو يلقى السمع وهو شهيد، ذلك كالإخبار بالمغيبات الماضية والمستقبلة فتجىء صدقة لا يتخلف منها شىء. وإنك لتجد من غرائبه المدهشة العجب العجاب فى قوله تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ عِنْدَ ٱللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً) فإن هذه الكلمة لو لم يكن قائلها يقولها عن أمر ربه المهيمن على كل شيء ، ما صح فى نظر العقل أن يجازف صاحبها فيجعل نفسه تحت رحمة خصمه الذى هو أحرص الناس على تكذيبه فيقول له : من أخبارى الصادقة عن ربى أن لا أحد منكم يقدر أن يتمنى الموت . فما كان أيسر على أحدهم أن يلفظ بكلمة تمنى الموت فيقضى على كل أخباره : وما كان له صلى الله عليه وسلم حينئذ ولا لأحد من أصحابه أن يقول : إنما قالها بلسانه لا بقلبه ، فما لأحد اطلاع على ما فى القلوب سوى علام الغيوب ، وإذاً لو قالها لزلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، ولقالوا . أين صدقك يا محمد : ولقد كانوا يضجون ويصخبون لأقل وأتفه من هذا حتى يلقموا الحجر المسكت ، فما بالك بمثل هذه الفرصة لهم . وإن حجة تصل الى هذا الحد من البداهة والوضوح لهى حجة ساطعة وآية بينة ، بل شمس مشرقة لا يعمى عنها إلا من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة .

وأما عظم فوائدها وشمول نفعها ودوام ثمرها فإنها فى هذا الباب تنقسم الى قسمين : سعادة الدنيا ، وسعادة الآخرة ، فأما سعادة الدنيا فقد شملت العالم بأسره : من دان بالاسلام ومن نأى بجانبه ، فلقد جاءت هذه الشريعة الغراء والعالم على أشد ما يكون من شقاق وافتراق ، واختلاف واضطراب . جاءت وقد تأصلت فى الناس عادات ممقوتة وفوارق مرذولة جعلت الانسانية تئن منها أنينا موجعا ، فقد كانت الدولتان القائمتان فى الشرق والغرب (فارس والروم) تقتسمان الناس اقتسام امتلاك ، فتفرضان على الرعايا من فنون الاستعباد والاستبداد ما قيدها بقيود الذل ، وجعلها تستكين وتخنع لبؤس العيش وشقاء الحياة ، حتى ترببت فيهم عقيدة أنهم ليسوا من طينة سواء ، فجاء الاسلام مزيلا هذه الفوارق ، مقررا أن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ

شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) فتنبه الإنسان الى حقوقه وهبّ يطالب بها واستيقظ من سباته، فخضع القوى لحكم الإله الأقوى واسترد الضعيف حقه المفقود، فسعد الناس أجمعون .

ولقد جاء وقت على علماء الأديان كانوا أيضا يشاركون زعماء الحكام فى جبروتهم ، فيحتكرون العلم يقصرونه على طائفة منهم ويحرمون بقية الأمة منه ، فجاء الاسلام وأباح العلم لكل إنسان ، بل دعا إليه وحث عليه ورغب فيه ، بأن جعل كل ما فى الأرض جميعا ملكا للنوع الانسانى ينتفع بكل ما فيه من خيرات ، ويستثمر كل ما يؤتيه من الثمرات ، مستعينا بالعلم والبحث والتحليل ، غير مقيد فى تفكيره وبحثه إلا بتجنب ما فيه ضرر بأحد ، أو تعد على مقام العزة الإلهية ، أو تجاوز لمركز العبودية ، أو مخالفة لصريح أحكام الدين ، أو نصوص الكتاب الكريم ، وما وراء ذلك فهو له هنىء سائغ ، فكان من وراء إباحة العلم للجميع بعد حظره والترغيب فيه والحث عليه أن أقبلت النفوس تسوقها الحاجات ، وتغذوها الهمم ، وتذكيها المنافسة ، وتتسع أطرافها باتساع نواحى الحياة ، حتى قدمت للبشرية منافع لم تكن على بال أحد ، واشترك فى ذلك من دان بالاسلام ومن أعرض عنه ، فعم نفعه هذا جميع العالمين . وذلك أن الحاجة والثمرة الدنيوية لا تمييز فيها بين متدين وغير متدين ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، لا فرق فى ذلك بين عمل الدنيا وعمل الآخرة (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) والله لا يضيع أجر من أحسن عملا من عمل الدين ومن عمل الدنيا .

هذان المبدآن العظيمان : مبدأ المساواة بين أجناس الناس فى الخلق والحقوق والواجبات ، ومبدأ إباحة العلم وتمكين جميع الطبقات منه مع بث مبدأ العدالة والإنصاف وأن كل واحد أحق بإحراز ثمر جهوده — كان لهما فى إسعاد النوع البشرى ما يجعل حقا على كل طائفة أن يقدر نعمة هذه الرحمة المهداة ، ويقيم لها فى قلبه وفى مشاعره أعظم

ذكريات التبجيل والتمجيد. وإن عموم لنفع وعظم الخطر ودوام الأثر لتجل فيها لكل من له قلب وسمع وبصر، وبهما يتجلى مظهر من قول الكتاب المبين : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).

وأما الانتفاع الأخروى فحسبك منه أن هيأ سببه واضحا سهل التناول، وفاتحا باب السعادة الأبدية الخالدة، حاثا على اجتيازه بأبلغ أنواع الحث والتحضيض حتى يدعوهم الى دخول الجنة بسلاسل، وكلما سدوا بابا بالإعراض فتح لهم باب بالتوبة الى آخر لحظة من لحظات الحياة. فأى رحمة وأى نعمة أعظم وأبلغ من هذه الرحمة والنعمة؟

ولا ينقص من منافعها أن حرم بعض الناس أنفسهم من احتناء بعض ثمارها، فطلوع الشمس نعمة حتى لمن أغمض عينيه عن إبصارها، بل لمن حرم نعمة الإبصار بالمرة، فإنه ينتفع بها بأن يراه المبصرون فيرشدوه ويتحاشوا أن يصطدموا به فيؤذوه، ويتعاونوا على تحصيل منافعه ونيل مآربه فى ضوئها؛ ونزول الغيث نعمة ولو لمن تحاشى أن يستقيه، فقد أنبت له الزرع وأدرّ له الضرع، وجعل ما يحيط به فى خير، وإباؤه هو عنه لا ينقص من أنه نعمة عليه، وهلم جرا فى النعم العامة، ومنها نعمة هذه الشريعة المطهرة التى هى مفتاح سعادتى الدنيا والآخرة.

فأى نعمة هى أحق من هذه النعمة بالذكر والشكر من بنى الإنسان عامة؟ فاذ ابتهج العالم أجمع لحلول موعدها وعودة موسمها، فإنما هو قائم بالشكر الجميل، ومقابل الجميل بالجميل، سواء فى ذلك موسم افتتاح السنة الهجرية، وموسم شهر مولده صلى الله عليه وسلم، وإن مما يملأ القلب سروراً والنفوس غبطة أن نرى مظهر هذا الموسم العظيم قد أخذ فى أرجاء القطر المصرى من الإجلال والتعظيم ما لا يدانيه فيه موسم آخر، فلا يكاد يظهر هلال شهر ربيع الأول حتى نرى الأمة تحركت لإحياء لياليه باجتلاء سيرته صلى الله عليه وسلم والقيام لله بشكر هذه النعمة بصنوف العبادات وإقامة

الأذكار ، وعمران المساجد بالصلوات ، و لمجالس بتكرار الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، ويبالغون فى إطعام الطعام وإكرام الفقراء ، وبذل الصدقات الى درجة أن يدخلوا السرور على نفوس أفراد الأمة بأسرها .

تتأسى الأمة فى هذا كله بقدوتها العظمى فى الخير ، وبراسها الهادى الى طريق الفلاح جلالة ملكها المعظم **فؤاد الأول** ملك مصر . ومن أجمل ما يسر النفوس ويشرح الصدور أن ترى تمجيد هـذه الذكرى لعظيمة وتبجيلها مشتركا بين طوائف الأمة المصرية على اختلاف مللها ونحلها ومشاربها ومذاهبها . ومن ذا الذى لا تخفق جوانحه لذكرى من كان سبباً لسعادته بل سعادة العالم أجمع ؟ .

نسأل المولى القدير أن يسبغ على العالم لاسلامى نعمة الهداية الكاملة ، والسعادة الشاملة ، وأن ينزع ما فى صدور الناس من غل ونفور ، وأن يبدلهم منه السرور وانشراح الصدور إنه سميع مجيب — آمين ؟ ابراهيم الجبالى

الظرف والملح

وقع بين الحسن ومحمد بن الحنفية لحاء ، ومشى الناس بينهما بالنمائم ، فكتب إليه محمد بن الحنفيـة : أما بعد فإن أبى وأباك على بن أبى طالب ، لا تفضلنى فيه ولا أفضلك ، وأمى امرأة من بنى حنيفة ، وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو ملئت الأرض بمثل أمى لكانت أمك خيراً منها ، فاذا قرأت كتابى هذا فاقدم حتى ترضانى ، فإنك أحق بالفضل منى .

الفتاوى والأحكام

اوراق اليانصيب

ورد بإدارة المجلة السؤال الآتى :

هل يجوز عمل اليانصيب وشراؤه اذا كان لمقصد خيرى كما تفعله بعض الجمعيات الخيرية الاسلامية ؟

ع . ج

وورد السؤال عن حكم هذه المسألة بعينها ، بتوقيع حضرة محمد ابراهيم سيد احمد المدرس بمدرسة الدر الأميرية ، وحضرة عبد العزيز اسماعيل صاحب مطبعة الاتحاد الأخوى ؟

الجواب

أوراق اليانصيب هى تلك الأوراق التى جرت بعض الجمعيات على إصدارها وتوزيعها على الشعب بثمن معين لكل ورقة ، على أن يكون جزء من ثمن المبيع من تلك الأوراق للجمعية والجزء الآخر للأوراق الرابحة ، وقد كانت الجمعيات تصدر ما شاءت من هذه الأوراق حتى كثرت أضرارها ، فنظمتها الحكومة أخيراً تنظيما قلّل من أضرارها ، ونظم طريقة السحب ، فصار يحضر البعض منها مندوب من قبل الحكومة .

والقصد الأصلى من هذا العمل هو الصرف على بعض الأعمال الخيرية كتعليم الفقراء والصرف على المعوزين ، ولكن توسع الناس فيها حتى صارت تعمل فى كثير

من الشئون وهى مهما نظمت نوع من أنواع الميسر (القمار) وهو حرام، لأن طريقة اليانصيب عند التأمل البسيط تكاد تتفق والطريقة التى كان يعملها العرب فى الجاهلية بالأقداح، وهى أنه كانت لهم أقداح هى الأزلام والأقلام الخ يجعلون لكل واحد منها نصيباً معلوما من جزور ينحرونها ويجزءونها عشرة أجزاء، وقيل ثمانية وعشرين، ولا يجعلون لثلاثة منها نصيباً، ثم يضعون الأقداح فى الربابة وهى خريطة، ويضعونها على يدى عدل ثم يهزها ويدخل يده، فيخرج باسم رجل رجل قدحا منها، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء الى الفقراء ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه.

وقد نعى الله عليهم هذا ونهى عنه وإن كان فيه نفع، قال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ).

فأنت ترى أن الله سبحانه وتعالى حرم الميسر لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب، لما فى ذلك من الاضرار بصاحب المال، ولما فيه من الأضرار التى تنجم عن هذا من خصومات ومنازعات قد تؤدى الى سفك الدماء، ولم يعتبر جل شأنه ما فى بعض طرق الميسر من نفع، لأن القاعدة التى يقرها الشرع ويقبلها العقل هى الموازنة فى كل أمر بين النفع والضرر، فما كان ضرره أكثر من نفعه حرم، والميسر من هذا القبيل.

وأوراق اليانصيب ميسر اشتمل على منفعة ومضرة، وضرره عند التأمل أكثر من نفعه، وقد يكون فى بعض صوره من شر أنواع القمار إذا دخله غش، وكثيراً ما يحصل ذلك.

ونفع لفقراء ميسور وغير متوقف على هـذه الطريقة ، إذ فى مكنة أهل البر واليسار مد يد المعونه للفقراء من غير مقامرة ، ونفس الشعب يمكنه الاكتتاب وأداء ثمن تلك الأورق من غير حاجة الى المخاطرة بالمال . وهذا يجعل الدفع لوجه الله دون قصد لربح من وراء ذلك ، وهى طريقة الإحسان ، أما شراء الأوراق الحاصل الآن فليس من باب البر ، لأن الباعث عليه هو قصد الربح ، وهـذا يبعده عن كل أنواع الإحسان . على أن المسلمين فى غنى عن هـذه الطرق جميعها اذا تمسكوا بدينهم ، وأخرجوا زكاة أموالهم التى من مصارفها الفقراء والمساكين .

وصفوة القول أن عمل اليانصيب هو من عمل الميسر المحرم شرعا ، فلا يجوز شراء هذه الأوراق ولا بيعها ، والربح الناشىء منها ربح خبيث لا يحل لصاحبه التمتع به ، والله الموفق م؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقا

الطرف والملح

قال رجل لسويد بن منجوف وقد أطال الخطبة بكلام افتتحه للصلح بين قوم من العرب : ياهذا أتيت مرعًى غير مرعاك ، أفلا أدلك عليه ؟ قال نعم ، قال قل : أما بعد فإن فى الصلح بقاء الأحوال والآجال ، وحفظ الأموال ، والسلام . فلما سمع القوم هذا الكلام تعانقوا وتوهبوا الترات .

عبد الله بن سلام

وكعب الأحبار — ووهب بن منبه

ورد إدارة المجلة السؤال الآتى :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الجليل الشيخ يوسف الدجوى حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

قرأت بإحدى المجلات الجملة الآتية :

« تظاهر جماعة من أحبار اليهود بالدخول فى الاسلام ليصيبوه فى مقاتله إذ عجزوا عن هدمه بمناوأته وجها لوجه ، وقد نالوا بعض بغيتهم بتسميم العقول وبث الأضاليل فى النفوس ، وهكذا فتنوا الناس بالخرافات التى ما أنزل الله بها من سلطان ، ورأسُ هؤلاء الذين اندسوا بين المسلمين لإفساد عقائدهم ثلاثة : كعب الأحبار ، ووهب ابن منبه ، وعبد الله بن سبأ » .

فهل هؤلاء الثلاثة كما ذكر الكاتب ؟ أرجو بيان الجواب على صفحات مجلة نور الاسلام حيث إن هذه الجملة تخالف عقيدة كثيرين من المسلمين . أسأل الله أن يلهمنا الصواب ، والسلام عليكم ورحمة الله ؟

محمود الشربينى
بفارسكور

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما بعد فإن كثيرا من الناس يجازف فيما يكتب ولا يتحرى الصواب فيما يحرر ،

وقد رأينا بعض المشهورين بالأدب والتاريخ من كبار الكتاب بعصر يقرن عبد الله بن سلام الصحابي الجليل بعبد الله بن سبأ اليهودي الخبيث الذي نفي مرارا، وأضل الناس بدعوتهم الى التغالي في حب علي كرم الله وجهه، وبغض عثمان رضي الله عنه كيدا للاسلام والمسلمين، فأين هذا من ذاك: ولكننا في عصر أصبح الناس فيه فوضى في كل شيء حتى العلم والدين.

ولنقص عليك بعض ما قال العلماء في عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب ابن منبه فنقول: جاء في تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي ما نصه:

عبد الله بن سلام

هو عبد الله بن سلام بن الحارث الحبر أبو يوسف الاسرائيلي حليف الأنصار، أسلم وقت مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله عبد الله وشهد له بالجنة، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) وقوله تعالى: (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وكان عبد الله من علماء أهل الكتاب وأفاضلهم في زمنه بالمدينة، روى عدة أحاديث، حدث عنه أنس بن مالك وزرارة ابن أوفى قاضي البصرة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو يوسف المقبري، وأبو بردة ابن أبي موسى وابناه يوسف ومحمد ابنا عبد الله وآخرون. روى معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن يزيد بن عميرة قال: لما احتضر معاذ قيل له: أوصنا، قال: إن العلم والايمان مكانهما، من ابتغاها وجدها، فالتمسوا العلم عند أبي الدرداء أوسلمان وابن مسعود وعبد الله بن سلام، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنه عاشر عشرة في الجنة) أخرجه الترمذي. وروى مالك عن سالم أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول لأحد إنك فى الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) متفق عليه .

روى عاصم بن بهدلة عن مصعب عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يدخل رجل من أهل الجنة) فدخل ابن سلام ، ومن غير وجه أن ابن سلام رأى رؤيا فقصها على رسول الله فقال له : (تموت وأنت مستمسك بالعروة الوثق) .

وعنه أنه مرّ يحمل حزمة حطب فقيل له : أليس قد أغناك الله عن هذا ؟ فقال : بلى ولكنى أردت أن أقمع الكبر . واتفقوا على موته سنة ثلاثة وأربعين » اه .

كعب الاحبار

هو كعب بن ماتع الحميدى من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب ، أسلم فى زمن أبى بكر ، وقدم من اليمن فى دولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحبة ، وروى عنه جماعة من التابعين مرسلا ، وله شىء فى صحيح البخارى وغيره اه .

وهب بن منبه

هو الحافظ أبو عبد الله لصنعانى عالم أهل اليمن ، ولد سنة أربع وثلاثين ، روى عن أبى هريرة كثيراً ، وعن عبد الله ن عمرو ابن عباس وأبى سعيد وجابر بن عبد الله وغيرهم ، وعنده من علم أهل الكتاب شىء كثير ، فإنه صرف عنايته الى ذلك وبالغ ، وحديثه فى الصحيحين عن أخيه همّام ، ولهمام عن أبى هريرة نسخة مشهورة أكثرها فى الصحاح رواها عنه معمر ، وقد طال عمر همام وعاش الى سنة نيف وثلاثين ومائة ، وحدث عن وهب ابنُ أخيه عبد الصمد وأقاربه ، وعمرو بن دينار واسرائيل أبو موسى ، وسماك بن لفضل وعوف الأعرابى وآخرون ، وكان ثقة واسع العلم مثل كعب الأحبار فى زمانه .

قال العجيلى : كان وهب ثقة تابعيا ، وكان على قضاء صنعاء . وقيل كان والده من أهل هراة ممن بعثهم كسرى لأخذ اليمن ، وأسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن وهب قال : يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما ؟ يعنى نفسه . قال مثنى بن الصباح : لبث وهب عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والفجر وضوءاً . ولوهب ترجمة طويلة فى تاريخ دمشق .

فها أنت ذا ترى عبد الله بن سلام من أكابر الصحابة قد نزل فى حقه قرآن مثل قوله تعالى : (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة . فكيف يسوى بعبد الله بن سبأ الضال المضل ؟ وهل هذا إلا خلط يحرمه الدين والعلم جميعاً ، ويسخر منه التاريخ لدى عارفيه ؟

وأما كعب الأحبار ووهب بن منبه فهما من العدول الثقات . وقد سمعت أن وهبا كان يصلى الصبح بوضوء العشاء عشرين سنة ، وكان ابن عباس ينقل عن كعب الأحبار ويرجع إليه هو وغيره من الصحابة ، وأما ما يرويه هو ووهب بن منبه رضى الله عنهما فلم يسنداه الى الرسول ولم يكذبا فيه على أحد من المسلمين ، وإنما كانا يرويانه على أنه من الإسرائيليات ، ولست مكلفاً بتصديقه ولا الإيمان به .

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نلفت نظرك الى أن ابن جرير الطبرى وغيره من المفسرين قد يذكرون أشياء غير صحيحة ، ولكن عذرهم فى ذلك أنهم يذكرون السند ، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا من العهدة ، فإن أحوال الرجال كانت معروفة فى العهد الأول ، وبذلك يعرف ما يروونه من ضعف وصحة ، ولكن خلت العناية الآن بذلك العلم ، فعلى من يشتبه فى شىء مما يذكرونه أن يبحث عن رجال السند الذى ذكروه ليعرف ما عسى أن يكون من راو ضعيف أو وضاع ، ولينظر مع هذا أهو إسلامى أم اسرائيلى ، وليعطى كلاًّ حكمه ، فإن لم يفعل فليست التبعة عليهم بل عليه . أسأل الله أن يرزقنا الأدب فى حق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى حق سلفنا الصالح ، وألا يكلنا الى أنفسنا طرفة عين بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

زكاة الورق النقدى

ورد إدارة المجلة السؤال الآتى :

أرجو التفضل بموافاتنا بفتوى فى موضوع الزكاة المستحقة على ورق النقد «بنكنوت» المتداول بين جميع الناس فى معاملاتهم على المذاهب الأربعة يمكن الاعتماد عليها حيث إنه قد تضاربت الأقوال فى عدم وجوب الزكاة عليها ؟

عبد المجيد صبرى — بوزارة المعارف

الجواب

الزكاة ركن من أركان الدين أوجبها الله سبحانه وتعالى على الأغنياء رعاية للفقراء ورأفة منه بهم ورحمة ، فأوجب جل شأنه على المسلم العاقل البالغ الحر المالك ملكا تاما لنصاب تام قابل للزيادة بالتوالد أو التجارة ، أو ممكن النمو فى ذاته ولو لم ينمه صاحبه إخراجَ جزء من ذلك المال قدّره سبحانه وتعالى .

وقد جعل الله مناط الوجوب ملك النصاب متى كان المال منتفعاً به أو فى الإمكان الانتفاع به ، فالمال المودع عند أمين تجب فيه الزكاة ولو لم يعمل فيه صاحبه ، والدين الذى على ملئ تجب فيه الزكاة عما مضى من السنين لإمكان الانتفاع به لتيسر الحصول على ذلك المال ، فيجب الأداء على المالك متى قبض الدين .

وقد قسم الامام الأعظم رحمه الله الديون الى ثلاثة أقسام رأى وجوب الزكاة فيها جميعها على التفصيل الآتى ، وهى :

أولا — دين قوى وهو بدل مال القرض ومال التجارة ، وهذا يجب فيه الزكاة إذا حال الحول ولو لم يقبض الدائن من المدين ، غير أن الأداء يتراخى الى أن يقبض أربعين درهما فيجب عليه أداء درهم ، وكلما قبض شيئا بعد هذا وجب الأداء بحسابه .

ثانيا — متوسط وهو بدل ما ليس للتجارة كثمن الثياب ودار السكنى ، والحكم فى هذا كالأول ، إلا أن الأداء لا يجب إلا إذا قبض نصابا تاما .

ثالثا — دين ضعيف وهو بدل ما ليس بمال كالمهر والوصية وبدل الخلع ، وهذا لا تجب فيه الزكاة عما مضى من سنتين قبل القبض ، وتجب بعد القبض إذا قبض نصابا وحال عليه الحول .

ورأى صاحباه وجوب الزكاة فى الديون كلها قبل القبض ، وكلما قبض شيئا زكاه قل ذلك أو أكثر ، ولم يستثنوا إلا بعض أفراد الديون .

وإذ قد تبين هذا فالجواب هو ما يأتى :

اعتادت الدول فى هذه الأزمنة اتخاذ وحدات غير النقدين للتعامل بها بقيم اسمية مختلفة وحفظ ما يوازى قيم هذه الوحدات من ذهب أو فضة ، أو من ذهب وسندات فى خزائنها ضمانا لما تصدره من الأوراق ، وقد نهجت حكومتنا السنية هذا المنهج فى سنة ١٨٩٨ واستصدرت دكريتو لأحد المصارف المالية (البنك الأهلى المصرى) تدفع قيمتها لحاملها عند الطلب ، وقد اشترط على المصرف أن يكون فى خزائنه ذهب يعادل نصف قيمة هذه الأوراق التى تصدرها والنصف الثانى يكون من القراطيس التى تمينها الحكومة . وقد نص فى الأوراق التى استصدرها المصرف أنه يتعهد بأن يدفع لحاملها لدى الطلب المبلغ المسمى بها .

وقد تعامل الناس بهذه الأوراق معاملتهم بالنقدين ، وصارت هذه الأوراق أثمانا ، فيصح القول بوجوب الزكاة فيها حيث إن الثمنية قد عرضت لها وصار الناس يتعاملون

بها على اعتبار أنها أثمان رائجة ، فتجب الزكاة فيها باعتبار قيمتها ، ويكون ذلك قياسا لها على الفلوس المسكوكة إن كانت أثمانا رائجة أو سلعا للتجارة . وقد نص الحنفية على وجوب الزكاة فى قيمتها ، ففى فتاوى قارئ الهداية — الفتوى على وجوب الزكاة فى الفلوس إذا تعومل بها وبلغت ما يساوى مائتى درهم أو عشرين مثقالا من الذهب . وفى الشرمبلالية — الفلوس إذا كانت أثمانا رائجة أو سلعا للتجارة تجب الزكاة فى قيمتها ، وإلا فلا .

غير أن هذا يبعده أن هذه الأوراق لا قيمة لها فى ذاتها ، واعتبارها إنما جاء من ضمان جهة الإصدار لما سمى بها ، حتى إذا تنحت الجهة الكافلة عن الضمان أو أصيبت جهة الإصدار بالإفلاس تصبح هذه الأوراق ولا قيمة لها ، فرواجها فى الواقع ونفس الأمر ناشىء من ضمان أرباب الأموال الموثوق بهم وبقدرتهم على الدفع لقيمتها ، فليست كالفلوس المسكوكة التى تعرض لها الثمنية أو ينوى بها التجارة . وليست هذه الأوراق سنداً بوديعة ، فيكون إيجاب الزكاة فيها باعتبار المال المودع فى المصرف ، لأن الوديعة تسليط الغير على حفظ المال صريحا أو دلالة بتعاقد بين الطرفين ، وشىء من هذا لم يحصل بين مدير المصرف وحامل هذه الأوراق ، ولأن المال المودع لا يضمن عند الهلاك إلا بقيود ، والقيمة الاسمية للأوراق مضمونة على المصرف ، ولأن المال المودع فى المصرف الذى يصدر هذه الأوراق يكون أقل من قيمتها الاسمية فى كثير من الأحيان ، وقد يكون المودع فى المصرف سندات على الغير فيبعد اعتبار هذه الأوراق سندات بودائع حتى يكون إيجاب الزكاة فيها باعتبار المال المودع .

والذى يظهر هو اعتبار هذه الأوراق سندات بدين (هو المبلغ المسمى بها) على الجهة التى أصدرتها تطالب به ، ويجب عليها وعلى الجهة التى كفلتها فى الإصدار الأداء عند الطلب ، وهذا أقرب شىء الى ما نص عليه فى هذه الأوراق ، والى ما اشترطته الحكومة من الشروط .

وإذ قد علمت أن الامام الأعظم أوجب الزكاة على الدائن فى ديونه ، فلا تمتر فى وجوب الزكاة فى قيم الأوراق المالية (البنكنوت) على حاملها متى بلغت نصابا أو نصبا وحال عليه الحول ، وأنها تجب فيها على السنين الماضية قبل القبض لأنها سندات بدين قوى ميسور الحصول على القيمة فيه . أما القول بعدم وجوب الزكاة فيها فأمر لا يوافق روح الشريعة ، واحتيال على دفع الوجوب ، وهدم لركن من أركان الدين الحنيف .

وقد جرى السادة الشافعية على وجوب الزكاة فى الدين الحال ، قال فى مختصر المزنى قال الشافعى : وإن كان له دين يقدر على أخذه فعليه تعجيل زكاته كالوديعة .

ومذهب المالكية أن الدين إذا لم يكن ثمن عرض وكان حالا فيزكيه عن كل سنة ولو قبل قبضه .

وقال الحنابلة : إن من له دين على ملئ باذل من قرض أو دين عروض تجارة أو ثمن بيع وحال عليه الحول ، فكلما قبض شيئا أخرج زكاته عما مضى . وفى الدين على غير ملئ روايتان الصحيح من المذهب أنه كالدين على الملىء فيزكيه إذا قبضه عما مضى .

فيتبين من هذا وجوب الزكاة فى قيمة الأوراق المالية عند أئمتنا الأربعة على الوجه السابق بيانه ، والله الموفق ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقا



الرؤيا
ليست طريقا للأحكام الشرعية

ورود إدارة المجلة السؤال الآتي :

هل يجوز العمل بما يتلقنه الانسان — مهما عظم شأنه — في حالة الرؤيا عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ولو لم يرد هذا العمل في الشريعة ؟

وما قولكم فيمن يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لقنه في الرؤيا صيغا معلومة للتسبيح أو التهليل لم يلقنها لأحد قبله ، وأن من عمل بها يضاعف له كل عمل يعمله ؟

بيروت — عزت المرادى

الجواب

كثير من المرائى ينشأ من انطلاق المخيلة وسيرها فى غير نظام حيث تعطل الحواس ، ويفقد التنبه ، ولا يبقى للإرادة سلطان على تنظيم حركة التفكير ، وقد تنشأ عن تعلق النفس بالشيء فى حال اليقظة وكثرة تفكيرها فيه ، وربما نشأت عن أمر تنفعل له الأعصاب ، كأن يقرع صوت الموسيقى أذن النائم ، فتضطرب أعصابه ، وتجرى فى مخيلته صور من خواص الموسيقى ، فيرى نفسه فى مجتمع سرور أو عرس . وجميع هذا من قبيل أضغاث الأحلام لا يحتفل بتأويله ، ولا ينبغى الالتفات اليه .

وفى المرائى ما يكون من قبيل الإلهام فيدل على بعض المعانى دلالة صحيحة ، وقد دل على وجود هذا القسم القرآن والسنة الصحيحة ، والتجارب التى لا تقف عند نهاية ،

بل دل القرآن على أن صدق الرؤيا قد يتحقق فى رؤيا غير المؤمنين ، ومن شواهد هذا رؤيا عزيز مصر التى عبرها يوسف عليه السلام ، ووقعت على نحو ما عبرها .

ولما كان فى المرائى المنامية ما هو من هذيان المخيلة سقطت الرؤيا عن درجة الاعتبار ، ولم يكن لها فى مآخذ الأحكام الشرعية موضع ، قرّر أبو سحاق الشاطبى أن رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم طريق من طرق الوحى الصادق ، ثم قال : «وأما أمته فكل واحد منها غير معصوم ، بل يجوز عليه الخطأ والغلط والنسيان ، ويجوز أن تكون رؤياه حلما ، وكشفه غير حقيقى ، وإن تبين فى الوجود صدقه واعتيد ذلك فيه واطرد ، فإمكان الخطأ والوهم باق ، وما كان هذا شأنه لم يصح أن يقطع به حكم » . وإنما كانت رؤيا الأنبياء وحيا ، لأنهم معصومون من أن يتمثل لهم الباطل فى صورة الحق ، ولم يجعل الله للشيطان أو الخيال عليهم من سبيل .

هذه نظرة فى أصل الرؤيا ، فإن ذكر الرجل أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، وأمره بأمر يخالف ما جاء فى شريعته ، أو أخبره بشىء يخالف ما يعلمه فى اليقظة ، فليس له التمسك بهذه الرؤيا ، بل يأخذ بما جاء فى الشريعة الغراء ، ويبنى على ما يعلمه فى اليقظة ، فإن قيل : إن رؤية النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام حق لقوله عليه الصلاة والسلام : (من رآنى فى المنام فقد رآنى فإن الشيطان لا يتخيل بى) فيكون ما يأمر به أمراً حقا ، وما يخبر به خبراً صدقا ، قلنا : إن رؤية النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم قد تكون لمثاله الصادق ، كرؤيا الصحابى الذى رآه فى اليقظة فانطبع مثاله فى نفسه ، أو رؤيا من درس صفاته المنقولة فى الكتب فارتسمت منها فى نفسه صورة مطابقة ، أما رؤياه على غير هذا الوجه فمحتمل لأن يكون من قبيل تخيل الشيطان ، ثم إن رؤيا مثاله الصادق وإن كانت حقا ، لا يصح الاستناد اليها فى حكم شرعى لاحتمال الخطأ والغلط فى ضبط المثال فى النوم ، قال الزركشى فى البحر المحيط : « والصحيح أن

المنام لا يثبت حكما شرعيا ولا ينفيه وإن كانت رؤية النبي صلى الله عليه وسلم حق والشيطان لا يتمثل به ، ولكن النائم ليس من أهل التحمل والرواية لعدم تحفظه » .

والخلاصة أن من رأى لنبي صلى الله عليه وسلم على صورة غير مطابقة لشمائله الواردة فى الصحيح ، فرؤياه هذه ليست هى الرؤيا التى وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها حق ، فضلا عن أن تكون مأخذ حكم شرعى ، فإن كانت مطابقة لما ورد فى شمائله فهى حق ، ويؤخذ بها فى نحو التحذير من عمل عرف من دلائل الشريعة أنه سيء ، أو الترغيب فى عمل قام الدليل فى اليقظة على أنه صالح ، فالعمل الذى يذكر الانسان أنه تلقنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فى النوم ، يعرض على دلائل الشريعة ، ويوزن بمقاييسها ، ويقضى فيه بأصولها ، ويدخل فى هذا الباب صيغ التسبيح والتهليل ، فيؤخذ فيها بما يرويه علماء السنة ، وتسعه أدلة الشريعة المتلقاة عنه عليه الصلاة والسلام فى حال اليقظة ، وليس من المقبول أن يكون فى بعض صيغ الأذكار المتلقاة فى المنام فضل لا يوجد فى الصيغ التى تلقاها الصحابة رضى الله عنهم فى حال اليقظة ؟

محمد الخضر حسين

الظرف والملح

قال حكيم : ما أبين وجوه الخير والشر فى مرآة العقل إذا لم يصدئها الهوى ! .

مبحث الزار

الجن أو الجان — الشيطان — العفريت — المارد — الإصابة من الجن

علاجها — الزار — حرمته

> ورد إلينا عدة أسئلة من بعض حضرات الفضلاء مشتركى المجلة فى موضوع الزار فرأينا كتابة المبحث الآتى ردا على حضراتهم .

قال فى لسان العرب : الجن ولد الجان ، وقال ابن سيده : الجن نوع من العالم سموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ، ولأنهم استجنوا من الناس فلا يرون ، والجمع جنان ، وهم الجنة .

والجنى منسوب الى الجن أو الجنية ، والجنة الجن ، ومنه قوله تعالى : (مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ) والجوهرى — الجن خلاف الإنس والواحد جنى سميت بذلك لأنها تخفى ولا ترى ، والجنة طائفة الجن . وعن ابن الأعرابى : والجان أبو الجن خلق من نار ثم خلق منه نسله . وفى القاموس : الشيطان كل عات متمرد من إنس أو جن أو دابة .

والجن والشياطين والعفاريت فى لسان الشرع أجسام حية نارية غير مركبة قادرة على التشكل بأى شكل كان ، وعلى أن تنفذ فى الأجسم نفوذ الهواء المستنشق ، منها المؤمن والكافر والخير والشرير ، ووجود هـذا الجنس من العالم مقطوع به بدلالة الكتاب والسنة عليه ، وقد يحتك بعض أفراد هـذا الجنس ببعض أفراد الآدميين فيحدث لهم من هذا الاحتكاك أضرار ، منها الجنون والصرع ، ومنها غير ذلك من

أمراض تصيب الأجسام، وهذا القدر مجزوم به عند أهل الملة، وفى قوله تعالى فى صفة أكلة الربا: (لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) مايفيد أن الشيطان قد يلمس الإنسان فيصرع أو يصاب بما هو غير محمود من جنون أومرض، وقد ورد «ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخا» وغير ذلك من الأحاديث الدالة على جواز وقوع الأذى للآدميين من الشيطان، بل ووقوعه بالفعل.

وفى الآلوسى ما نصه: «وقد يدخل فى بعض الأجساد على بعض الكيفيات ريح متعفن تعلقت به روح خبيثة تناسبه فيحدث الجنون، وربما استولى ذلك ابخار على الحواس فعطلها واستقلت تلك الروح الخبيثة بالتصرف فتتكلم وتبطش وتسعى بآلات ذلك الشخص الذى قامت به من غير شعور للشخص بشىء من ذلك أصلا، وهذا كالمشاهد المحسوس الذى يكاد يعد منكره مكابرا منكرا للمشاهدات».

وغير خاف أن من النفوس سواء أكانت من الإنس أم من الجن نفوسا قوية وأخرى ضعيفة، وأن بعض ذوى النفوس القوية قد يستولى على ذى النفس الضعيفة استيلاء تاما يفقدها إرادتها فى كل أمر وكل شأن، وهذا ليس خاصا بالنفوس البشرية بل قد تستولى بعض النفوس الكبيرة من الجن على بعض النفوس الضعيفة من الإنس فتسلبها الإرادة وتجعلها لا تصدر فى شىء إلا عن إرادتها، يقرب ذلك جدا ما نراه نحن فى عمليات التنويم المغناطيسى.

هذا القدرهو المعروف فى الدين وعند العرب قبل البعثة من مس الشياطين والجن للآدميين، وماعداه مما يتوهمه لناس أو يهرفون به فحديث خرافة لا أصل له فى الدين.

وقد من الله على عباده فجعل لكل داء دواء، ولكل داء أطباء يعرفونه ويفهمونه ويعالجونه بما يبعد أثره أو يضعفه. وللأمراض التى تحصل من المس أمارات يعرفها الحذاق من أطبائه يعالجونها بما لا يخالف الدين ولا يباين العقل، إما حسيا وإما معنويا

يقوم بالأول الأطباء المخصيصون بمعالجة الأمراض العصبية ، وبالثانى أطباء النفوس وهم أصحاب النفوس الكبيرة من الصديقين والصالحين ، يحولون بسلطانهم وما لهم من نفس عالية بين الشياطين وأصحاب النفوس الضعيفة ، وبفضلهم لا يتمكن الشيطان من الأضرار ، ولا من الاستيلاء على النفس ، وينصرف عنها . وقد خفى هذا الأمر على كثير من الناس فعبر عن الحالة الأولى بأن عفريتا أو شيطانا دخل الجسم ، وأن فلانا أخرجه ، والحقيقة ما سمعت ، فلا دخول ولا خروج على الوجه الذى يفهمه الناس اليوم ، وإنما هو ما شرحناه لك .

وقد انتهز فرصة جهل العامة شياطينُ الإنس ، وهم شر من شياطين الجن ، وتوسعوا فى أمر المس توسعًا ضارا ، فما رأوا مريضا بمرض عصبى أو بمرض غير عصبى إلا قالوا إنه من الجان ، وإنه فى استطاعتهم علاجه ، واتخذ كل فريق منهم طريقا للعلاج ، هذا يعالج بتعاويذ لا يقرها الدين ، وما أنزل الله بها من سلطان ، وذاك يداوى بما لا يلائم مرض المريض ، وقد يعالج بعضهم المريض المشرف على الهلاك بما يقضى عليه ، وقد حصل ذلك مراراً .

وأكثر هذه الطرق انتشارا تلك الطريقة الضارة القبيحة المحرمة شرعا طريقة « الزار » وقد انتشرت هذه الطريقة فى جميع أنحاء القطر فى المدن والقرى ، وللقائمين بها دعايات فى جلب السيدات إليهن بعجز إبليس نفسه عنها ، حتى لقد أصبح الحال من أشد الحالات ضرراً بالأخلاق ، فأصبحت ترى المسوسات أكثر من السليمات ، لأن ماينفثه هؤلاء الدعاة من طرق الترغيب الكثيرة كثيراً ما يصادف هوى من الجهلة وما أكثرهم : وإذا عرفت أن من طرق الترغيب فى هذا تيسير الزواج على من لا زوج لها ، ورضاء الزوج الغاضب وجعله تحت سيطرة الزوجة وصلح الخصم ، وتسهيل الرزق ، وما الى ذلك من طرق خدعة ، جزمت بأن الحال حال

شديدة تقتضى الضرب على أيدى هؤلاء الدعاة ومعاقبتهم ، ولا شك أن ما يدعو اليه هؤلاء ويقومون به فى حفلات « الزار » محرم شرعا ، وممقوت عقلا ، لاشتماله على الكفر فى بعض الصور ، وعلى ما هو محرم شرعا بالكتاب والسنة والإجماع ، كشرب الدم المسفوح وطلاء الجسد به أياما ، والطواف حول القرابين من دجاج وخراف ، والاحتفال بها ، وشرب الخمور فى بعض الصور اذا كان العفريت ممن يطلبون شرب الخمر ، والرقص والمفاخرة بما أعدت كل سيدة من حلى وملابس لشيخها ، وما جلبت من هدايا ونفائس لأمها (الكودية) وإذا أضيف الى هذا ما يصيب الناس فى أموالهم من أثر هذه الحفلات التى لا نتيجة لها ، كان ذلك أدخل فى باب التحريم .

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقا

الطرف والملح

اعتذر رجل الى رجل بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله فلم يقبل عذره ، فقال عبد الأعلى : أما والله لئن كان احتمل إثم الكذب ودناءته ، وخضوع الاعتذار وذلته ، فعاقبته على الذنب الذاهب ، ولم تشكر له إنابة التائب ، إنك لمن يسىء ولا يحسن .

الاقاليم الجليدية

فى القطب الجنوبى [1]

أما الرحلة الأولى فكانت تحت قيادة المدعو « بيرد » ضابط الطيران البحرى الأمريكى الذى تمكن فى ٩ مايو سنة ١٩٢٦ من قطع المسافة بين جزيرة « سبتزبرجن » والقطب الشمالى ذهابا وإيابا فى ١٥ ساعة أى قبل أن يتمكن الرحالة العالمى المشهور « أموند صون » والجنرال الايطالى « نوبيل » من التحليق فوق القطب الشمالى على ظهر السفينة الجوية « نورجه » بثلاثة أيام .

تمكن « بيرد » من الوصول الى الجهة المعروفة هناك باسم « حاجز روص » فى أواخر عام ١٩٢٨ حيث ضرب خيامه . وبهذه المناسبة نذكر أن الرحالة « أموند صون » بدأ فى عام ١٩١١ رحلته المشهورة الى القطب الجنوبى من هذه البقعة أيضاً على زحافات الثلج ، وكانت الاستعدادات المتخذة لرحلة « بيرد » تامة والمعدات موفورة للغاية حتى كان لا ينقصها العلماء المنقبون والقوارب والطيارات وكلاب لجر الزلاقات الجليدية ، وعلاوة على ذلك فكان فى حوزتهم ٢٢ جهازاً للإرسال بواسطة الراديو و ٣٤ جهازاً لالتقاط الإشارات اللاسلكية ، حتى إن كل من اشترك فى هذه الرحلة ستطاع أن يرسل أو يتسلم على انفراد إشارات لاسلكية .

ولقد ساعدت هذه المعدات أعضاء الرحلة كثيراً على التغلب على صعاب كثيرة حيث إنه فى ذات يوم اقتلعت الرياح إحدى الطيارات التابعة لفريق منهم من مربطها

(١) نشرت مقدمة هذا المقال فى الجزء السابق .

وحطمتها على جبال الثلج ، وأوشك هؤلاء على الإشراف على خطر أكيد فى ١٨ مارس سنة ١٩٢٩ بعد أن أضناهم المجهود الذى بذلوه فى استكشاف جبال روكفلر فى إحدى رحلاتهم ، ولولا تمكنهم من الاتصال بزملائهم بواسطة جهازات الإرسال بالراديو لذهبت أرواحهم ضحية قيامهم بعمل من أجل الأعمال الإنسانية .

وبعد استكشاف جبال روكفلر تقدم جماعة الرواد نحو الشرق بخطوات وسعة وأطلوا على أراض لم يسبقهم أحد الى رؤيتها وأطلقوا عليها اسم « مارى بيرد لاند » تخليداً لذكرى زوجة رئيس الرحلة ، وضمت الى أملاك الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى تقع وراء حدود الأراضى التى ضمتها انجلترا الى ممتلكاتها من قبل .

وبعد أن قضى « بيرد » وإخوانه فصل الشتاء قام برحلة واسعة النطاق توج بها أعماله الاستكشافية فى هذه الجهات ، حيث طار على متن طائرة كبيرة « لويد بينت » مع سائق ومهندس للآلة اللاسلكية ومصور ، متجها شطر القطب الجنوبى ، واضطر أن يعلو بطائرته الى ارتفاع ٣٠٠٠ متر حتى يتمكن من التحليق فوق جبال الملكة مود البالغ ارتفاعها ٤٥٠٠ متر التى اكتشفها « أموندصون » من قبل ، وكان عليه أن يلقى بما بلغ مقداره ٢٨٠ رطلا من مئونة الأكل التى أخذها معه ليسهل على الطائرة الارتفاع الى مثل هذه الطبقات ، وبذا حرم من زخيرة كان قد أعدها لإعانته فى حالة اضطراره للهبوط لأى سبب طارئ ، وقد كللت أعماله بالنجاح ، وتمكن من التحليق فوق القطب الجنوبى الواقع على هضبة من الجليد ، وهو على ارتفاع ٣٠٠٠ متر ، ثم عاد الى خيامه حيث بدأ بعد أن قطع هذه الشقة فى ١٨ ساعة و ٤١ دقيقة .

وأما الرحلة الثانية فكانت تحت قيادة الرحالة الاسترالى الشهير « الكابتن فلكنز » ولم تكن مزودة بالاستعدادات الكثيرة مثل التى كانت فى حوزة الرحلة الأولى ، إلا أن قائد هذه الرحلة من الرجال الأفذاذ الذين لا تنقصهم التجربة العملية فى مثل هذه الأمور ، وتاريخه حافل بأعمال الاستكشافات ، فكان عضوا فى الرحلة التى

قام بها « ستيفانصون » التى دامت خمس سنوات ما بين سنة ١٩١٣ وسنة ١٩١٨ فى المنطق الجليدية بشمال كندا ، وقام برحلة الى المناطق الجليدية بالقطب الجنوبى من سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٢٢ ، واشترك أخيراً فى رحلة زميل له « شاكلتون » حيث تمكن بطائرته من التوغل داخل مناطق القطب الشمالى فى عام ١٩٢٧ ، وفى ابريل سنة ١٩٢٨ قام بطائرته من شبه جزيرة « آلاسكا » فى شمال أمريكا الى جزيرة « سبتز برجن » فى شمال النرويج ماراً بالبحار الجليدية الغامضة فى القطب الشمالى . وبذا يكون هو أول من قام برحلة شمالية غربية — كما يسمى عادة اجتياز البحر المتجمد حذاء الشواطىء الشمالية — بدون أى صعوبة مذكورة ، وذلك بواسطة الطيارة .

وقد لا يوجد برهان أقوى للاستدلال على صلاحية الطيارات وتفوقها على المراكب والزلاقات فى لاستكشافات القطبية من أنه كان فى وسع « الكابتن فلكنز » أن يقوم بعمل بوسطة الطيارة فى ٢٢ ساعة بسهولة لم يتمكن غيره من كبار الرواد المحنكين من القيام به بواسطة البواخر والزلاقات فى قرون عديدة ، بالرغم من الضحايا الكثيرة التى ذهبت فى سبيل تحقيق هذا العمل . وقد لا يقع منا موقع الاستغراب أنه فى سبيل الاستكشافات فى المناطق المتجمدة بالقطب الجنوبى ذهبت ضحايا لا تقع تحت حصر إذا علمنا الفارق لواسع بين الصعوبات لتى يلاقيها رواد هذه الجهات والتى يلاقيها رواد مناطق القطب الشمالى . فالطريق لى الأولى محفوف بالمخاطر والزوابع البحرية ، مع خلوه من محطات لاتخاذها قواعد بحرية لرحلة فينقطع لإنسان عن كل وسائل المساعدة ، هذا الى صعوبة الحصول على مواد غذائية أو وقود بواسطة الصيد وخلافه . وتاريخ استكشاف القطب الشمالى حافل بأخبار صيد كلاب البحر وثيران ودببة أو طيور المناطق الباردة ، حيث كان لرواد يستفيدون من لحومها فى غذائهم ويستعملون شحومها فى الوقود ، وأما القطب الجنوبى فعبارة عن بقاع فقرة

خاليـة من الإنسان والحيوان والنبات ، ولذا فكثيراً ما يطلق عليها اسم « دولة السكوت الأبدى » .

يتضح مما سبق بيانه من الفروق الكبيرة بين منطقتى الاستكشافات عظمة « الكابتن فلكنز » ورحلته التى كانت سبباً فى إزالة كثير من غموض هذه الصحارى الجليدية الواسـعة . كان الغرض الأول من رحلة « الكابتن فلكنز » استكشاف النواحى الغربية المرتفعة من القطب الجنوبى الواقعة جنوب أمريكا ، والتى طالما حامت حولها شكوك علماء الجيولوجيا لشدة شبهها وتمام مطابقتها للطرف الجنوبى من أمريكا الجنوبية مما جعل البعض يميل الى الاعتقاد بأنها كانت متصلة بها فى العصور التاريخية الغابرة ، هذا الى أنه وجد فى هـذه النواحى كثير من بقايا الغابات المتحجرة يرجع تاريخها الى تلك العصور ، وتدل دلالة واضحة على أن فى هذه العصور كانت الأحوال الجوية لهذه المناطق تسمح بنمو نباتات غزيرة بها لا تزدهر عادة إلا فى الأجواء القريبة من المناطق الحارة ، بينما يغطى الثلج الآن جميع أرجائها . جعل « فلكنز » جزيرة « ديسيشون » مركزا لرحلاته ، وهى جزيرة بركانية فى غرب القطب الجنوبى تخللت مياه البحر فتحاتها المتخلفة عن البراكين الخامدة ، فجعلتها كثيرة الأخاديد صالحة الملاحة ، واتخذها كثير من صيادى الحيتان مرفأ هادئا يتقابلون عنده فى كل صيف .

بدأ «فلكنز» من هذه الجهة — وهى أقصى ما وصلت إليه يد المدنية الانسانية — رحلتين بالطيارة : الأولى فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ والأخرى فى ١٠ يناير سنة ١٩٢٩

طار فى رحلته الأولى متجها نحو الجنوب بسرعة ١٩٣ كيلو مترا فى الساعة الى أن وصل درجة ٧١ من خطوط العرض ، وحلق فوق سطح الماء على ارتفاع ٣٠٠ متر وعلى الأراضى الغربية من القطب الجنوبى على ارتفاع ١٨٠٠ متر ، إلا أنه اضطر الى التحليق على بعض الجهات على أبعاد أكبر حتى وصل الى ٢٥٠٠ متر فى الجو ، وتمكن فى هذه الرحلة بسهولة من إثبات أن غرب القطب الجنوبى غير متصل بالأقاليم الجليدية

الجنوبية ولا علاقة له بها بالمرة ، بل هى عبارة عن مجموعة جزر فى شكل هضبة ترتفع فى بعض جهاتها الى ١٨٠٠ متر ، وتعلو هـذه قمم قد تصل ارتفاعاتها من ٢٤٠٠ متر الى ٢٧٠٠ متر .

وقـد ساعد جـو المناطق القطبية الصافى على اتساع منطقة دائرة النظر الى ٢٠٠ كيلو متر ، فتمكن «فلـكنز» من كشف ما بين المحيط الهادى والمحيط الاطلنطيق من يابس وماء بكل وضوح ، فاكتشفت ست جزائر جديدة واقليم ساحلى لايقل طوله عن ٥٠٠ كيلو متر ، كما اكتشف مضيقا بجوار لدائرة القطبية يصل بين المحيط الهادى والمحيط الاطلنطيق ، وأطلق عليها اسم قنـاة « كرين » . ورأى على مسافة أبعد نحو الجنوب أربع ثلاجات ضخمة ومنها ينحدر سطح الهضبة الى أن تنتهى فى مضيق مائى أطلق عليه اسم مضيق « ستفانصون » عند خط عرض درجة ٧٠ ، وأما فى الناحية الأخرى فكشف عن أراضى واطئة مغطاة بالثلوج على مدى النظر ، وأطلق عليها اسم ناشر الصحف الأمريكى الشهير « هيرست » ويغلب على الظن أن هـذه الأراضى الواسعة هى جزء من أقليم القطب الجنوبى ، وبهذ يثبت أن ساحله الشمالى يبعد بما يقرب من ١٠٠٠ كيلو متر مما كان يعتقد البعض من قبل .

لم تستغرق كل هـذه الاستكشافات التى أخذت لها صور شمسية ووضحت على الخرائط بدقة تامة أكثر من خمس ساعات وخمس وعشرين دقيقة .

يتبين لنا قيمة هـذا النجاح الباهر عند مقارنة النتائج التى وصل اليها « الكابتن فلـكنز » فى مثل هذا الوقت القصير بالمعلومات القاصرة والخرائط الرثة التى كانت فى حوزتنا قبل ذلك والتى هى ثمرة مجهودات فائقة وضحايا عديدة فى سنين طويلة .

لم تساعد الأحوال الجوية الرحالة الباسل فى رحلته الجوية الثانية فقفل راجعا بعد أن زود العالم بمعلومات قيمة ، ولم يثنه ما صادفه من صعوبات وحرمان من أن يعيد الكرة ويشـترك فى رحلة المنطاد الألمانى الكبير « جراف زبلين » لتزداد معلوماته من وجهة الطيران بالمناطيد ؟

المسلمون

فى جمهوريات السوفيت الاشتراكية المتحدة

بلاد القوقاز الجنوبية وطاغستان

وعد المديريات الثلاث التى بقيت تحت إشراف حكومة موسكو المباشر فإن بلاد القوقاز الجنوبية التى أعلنت استقلالها ووحدتها فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٧ فى مؤتمر فلاديقوقاز قد قسمت الى جمهوريتين بين سكان الجبال المقول عنهم « جورتسى » وبين « الطاغستان » ثم قسم الجبليون جمهوريتهم الى خمس ولايات سوفيتية صغيرة حسب الشعوب التى تقطنها وهى :

(ا) ولاية « الجورتسى » الأصليين ، ويشملون « أوسيت الشمال » و « الكيست » و « الانجوش » ، وحاضرة هذه الولاية هى « فلاديقوقاز » وعدد سكانها ٢٠٠،٠٠٠ نسمة .

(ب) ولاية « تشيتشينا » وعدد سكانها ١٠٥،٠٠٠ نسمة وحاضرتها « جروزنى » (Groznyi) حسب مرسوم ٤ يناير سنة ١٩٢٣

(ح) ولاية « كاباردى   بالكارى » ويبلغ عدد سكانها من الكابارديين ١٤٥،٠٠٠ نسمة ، ومن لبالكاريين ٢٠،٠٠٠ نسمة وحاضرتها « نالتشيك » .

(د) ولاية « التشركس الكاراتشاويين » وعدد سكانها ٢٠٠،٠٠٠ نسمة وحاضرتها « باتالياتشنسك » (Patalpachinsk) .

(هـ) ولاية « التشركس أديغى » وعدد سكانها ١٠٠،٠٠٠ نسمة ، وحاضرتها « كرسنودار » وهى « إكاترينودار » القديمة . ومجموع مساحة هذه الجمهورية يبلغ ٤٤،٠٩٠ كيلو مترا مربعا ، ومجموع سكانها ٨٠٨،٤٢٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٢٠ ، وفى سنة ١٩٢٥ قد ضمت تلك الولايات الخمس مع بلاد القوقاز الجنوبية الروسية الى

بلاد القوقاز الشمالية فأصبح مجموع عدد سكانها ٦،٨٣٣،٠٩٠ نسمة فى سنة ١٩٢٥ ، وبلغت مساحتها ٢٧٩،٦٧٠ كيلو مترا مربعا . وأما مدنها المهمة فهى فلاديقوقاز وعدد سكانها ٧٠،٠٠٠ نسمة « وجروسنى » وعدد سكانها ٥٠،٠٠٠ نسمة .

وأما بلاد الطاغستان فتبلغ مساحتها ٥٨،٩١٨ كيلو متر مربع ، وعدد سكانها ٨٣٣،٩٩٦ نسمة فى سنة ١٩٢٥ وهى حكومة حاضرتها « بويناه » (Bounah) وكانت تدعى « تيميرخان شورا » سابقا ، وعدد سكانها ٢٠،٠٠٠ نسمة ، ومدنها الأخرى الشهيرة مثل « دره بند » (Derbent) وعدد سكانها ٤٠،٠٠٠ نسمة و « ماختشاك كاليه » (بتروفسك سابقا) وعدد سكانها ٣٥،٠٠٠ نسمة . والمجموع العام للمسلمين فى بلاد القوقاز يبلغ مليونا ونصف مليون مسلم . وهذا العدد لم يبلغ الأربعة الملايين التى كان قررها اتحاد شمال القوقاز فى سنة ١٩١٧

دخول الاسلام فى بلاد القوقاز الجنوبية — ابتدأ دخول الاسلام فى هذه البلاد من الجنوب الشرقى عن طريق مضيق (دره بند) « بب الأبواب » شرقى « جدار خسرو » وعن طريق « طاغستان » . وأول من شرع فى إدخال « الاوار » فى دين الاسلام هو أبو مسلمة شيخ الشافعية الذى يوجد قبره فى «خوتزاق» (Khowtzaq) الذى تأكد فيما بعد أنه هو نفس الأمير أبو « مسلم » وابتدأ اعتناق « الاوار » للاسلام فى سنة ١٠٠٠ من الميلاد ثم اعتنقه « القومويق » (Koumuks) فى القرن الرابع عشر ، ثم « الدرغين » (Darghina) فى القرن الخامس عشر ، ثم إن اليهود « طاغ تشوفوت » الذين أدخلوا فى الاسلام بواسطة «الخازاريين» (? Khazars) والمسيحيين (Alains) قد عفت آثارهم وانقرضت بقاياهم ، إلا أن «الينغيل» (Yenghil) لم يعتنقوا الاسلام إلا فى القرن التاسع عشر . ومنذ القرن السادس عشر للتاسع عشر اشتبك الأمراء المحليون فى النضال بين فارس وتركيا وروسيا تنهى بفوز روسيا فى سنة ١٧٨٥

ومنذ سنة ١٨٣٠ نظمت الطريقة النقشبندية حركتها لاعادة شوكة الاسلام ، ومن ذلك قامت الثورة التى قادها الأمير شاميل بين سنتى ١٨٣٢ و ١٨٥٩ ثم فى سنة ١٨٧١

بالقرب من بلدة المدينة (Médine) وهو أمير عظيم من أمراء « جونيب » (Gounib) من بلاد الأوار (Aware) من الكتلة السنية الشيعية .

أما القسم الشمالى الغربى فان الاسلام الذى بدئ دخوله فيه بواسطة أمراء (خانات) بلاد القرم ثم بواسطة باشوات « عنبه » (Anapa) الاتراك بين سنتى ١٧٨١ و ١٨٢٦ قد دخل فى بلاد القوقاز الجنوبية (بلاد الجركس) عن طريق « كاباردى » فى القرن الثامن عشر ، لكنه لا يزال ضعيفا ، لأن الجركس ما فتئوا يعبدون قوى الطبيعة ، مثل آلهة المطر والصيد والصاعقة وغيرها . ونظام الاقطاعيات عندهم الذى قضى عليه العثمانيون فى أوائل القرن التاسع عشر قد قسم الناس الى طوائف وطبقات ، ويدعون أنفسهم أنهم سنيون حنفيون . وأما دخول الاسلام فى القسم الشمالى الشرقى فقد كان من عمل أمراء (خانات) « الهورد دور » (مملكة المونغول الغربية منذ عهد « براكاخان » (Baraka Khan) من سنة ١٢٥٦ الى سنة ١٢٦٧) وأسرة « باكو » (Bacou) التى حكمت من سنة ١٢٢٤ الى سنة ١٣٥٩ وأسرة «أوردا » (Orda) التى حكمت من سنة ١٣٧٨ الى ١٥٠٢ وجاءت من « قيتشاق » الشرقية ، وكذا أمراء (خانات) « استراخان » من سنة ١٤٦٦ فى عهد حاج طرخان الى سنة ١٥٥٤

هذا ولا يزال يوجد فى هذا القسم عدد عظيم من المسلمين المهاجرين من الجنس الفنوى (الفنلندى) أو من الجنس التركى (من التتار النوجائيس الذين نزحوا من كارا) فى القرن السادس عشر ، وكان عددهم يبلغ ٨٧٫٠٠٠ نسمة ، ويوجد كذلك بجانب التتار القلموق البوذيين ٥٠٠٠ نسمة من التركمان المسلمين سنة ١٩٢٢

وقد ابتدأ استعمار الروسيا ببلاد القوقاز فى ولاية « قوبان » (Kouban) فى سنة ١٣٢٠ ، وذلك بترحيل قوزاق يوكرانيا الى « كراسنودار » (Krasnodar) ثم باحتلال « الزبوروج » (Zaporoguas) الذين استوطنوا هذه الولاية منذ سنة ١٧٣٧ بعد أن طردوا منها التتار النوجائيس وأقاموا الحصون فى « ستافروبول » (Stavropol) و « جورج » و « جيبفسك » و « موزدك » (Mozdok) و « كيزلجار » . وإليك

أهم الأجناس التى دخلت فى الاسلام :

الفنويون (الفنلديون البلقار) ، والترك التتار (التتاروالنوجائيس وغيرهم) لغاية شمال الطاغستان ، و « الكست » و « الانجوش » و « التشيتشين » ثم طائفة « الليسغيان » فى الطاغستان ، ويبلغ عددهم ١٥٠,٠٠٠ من « الاوار » و ١٢٢,٠٠٠ من « الكورين » و ٦٦,٠٠٠ من « القومويق » و ٦١,٠٠٠ من « الدارغين » و ٥٠,٠٠٠ من « اللاك » الخ .

ثم الجركس وهم « الكاباردبون » و « الكراتشائف » و « الاديغى » . وكل جنس من تلك الأجناس يتكلم لغته الخاصة به عدا البلقار والتتار الترك فإنهم يتكلمون التركية .

وقد رفض نحو ٤٠٠,٠٠٠ من الجركس أن يخضعوا لحكم الروسيا فانضموا لتركيا فيما بين سنتى ١٨٦٤ و ١٨٧٨ ، وقد شكل منهم سلاطين آل عثمان عدة فرق عسكرية هنا وهناك فى العزيزية وقنيطرة سوريا وعمان (Amman) وغيرها ، ولما وقعوا تحت سيطرة انجلترا فى سنة ١٩٢٠ هرب من بينهم ٥٠٠٠ من تركيا الى بلاد اليونان فى سنة ١٩٢٢ ويقوم الآن الجراكسة المشردون فى خارج بلادهم بحركة قومية عظيمة لإحياء لغتهم . ومسلمو بلاد القوقاز الجنوبية من السنيين (عدا قليل من الشعبيين فى جنوب دره بند) وجلهم حنفيو المذهب ما خلا « الأوار » فانهم يتبعون مذهب الامام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى . ومنذ سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٩١٧ كان شيوخ الدين عندهم (الملا) وقضاة القرى يعينون بواسطة هيئة علماء (أورنبورج) (Orenbourg) ، وقد كان الامام نجم لدين حتسين شيخا للاسلام عند أهل الشيعة من سنة (١٩٢٠ـ١٩٢١)

أما منتوجات بلاد القوقاز الجنوبية فهى غاز البترول فى « جروزنى » حيث توجد ٤٨٧ بئرا ، وفى « مايكوب » متصلة بقناة بالقرب من بحر قزوين ، ويستخرج منه ٣ ملايين طن فى السنة ، والزنك فى « كورجيورت » والفحم ، ويزرع الورد فى « كوبا » ويصنع اسجاد التشتشينى (نزنى) والطاغستانى فى دره بند وكاستان (كوبا) .

ومنذ سنة ١٩٢٠ استرد المسلمون الانجوش من القوزاق الروس أرضى الفلاحة التى كانت استعمرتها جاليات القوزاق فى وادى « السونجا » .

How could he achieve success in face of overwhelming odds and embark as he did on what was seemingly a hopeless quest ?

How could he win those millions of people to his cause and bend their wills to his own ?

Would not such a soul be justly termed the greatest in the world ? and would not its will be regarded as the most indomitable ever known ?

Could a gainsayer account for such unprecedented influence which was the lot of Islam to exercise over the world ?

Nay, history as well as reason both point out that such great achievements could never have been performed without divine favour and heavenly support.

---

of men and endowing its followers with its invigorating and uplighting influence.

All that, had Mohammad, the Prophet of Islam accomplished yet he never lost an iota of the initial purity of his soul and throughout his life, he remained unaffected by success which would have rendered others the most conceited and vain — glorious of men.

He continued to be the same kindly, modest and contented person that he ever was In all his actions he offered a living example of equity and perfection.

He was kindliness incarnate; the little urchin of Medina would confidently take him by the hand and lead him round the town on an errand. So great was his kindness and love for children that he disdained not to converse with and accompany them, nay he evinced great pleasure to do so.

Would not the total disregard of material success which Mohammad had shown throughout be considered a mighty proof of his greatness and rectitude ?

Kings, legislators, philosophers, leaders have all succumbed to the temptation of but a fraction of this success.

But the power which Mohammad enjoyed was a spiritual one and proceeded from on high. He was not therefore amenable to the banal influence of temptation and his thoughts were far removed from the material successes the world offered.

It is noteworthy that all chroniclers agree that the great soul of Mohammad is unique and singular. Environment and consuetudinary usages exercised no influence over it, which fact reveals a surprising phenomenon in human nature For how indeed could Mohammad, who was born and bred among a heathen and ignorant people be immune from the effects of customs, morals and beliefs which prevailed for generation in that part of the world ? how is it that heredity so failed to function in his case that his character showed no trace of the peculiar traits of his people ?

How could he overcome single-handed those unsurmountable difficulties and emerge from the mighty struggle in which he was engaged unscathed and unaffected ?

In concluding this article, we give in the following pages the views of some modern writers on Mohammad. A contemporary writer writes : "Virtue, as all moralists agree, and as reason points out, could not be associated with vice, for should that ever take place, one of them will inevitably dominate the other, and once it has become dominant it will exercise its peculiar influence over men. Vice and virtue are diametrically opposed and their respective influence, as established by intuitive and empirical knowledge is well-defined in each case and admits of no confusion.

Should I claim then that the spirit of Mohammad was the greatest spirit that has ever been known to the world since the creation, no one would hesitate to admit the truth of this assertion. For should he do so, I would simply ask him to point out, if he can, a single individual who alone and single-handed, achieved success in one of the following three items :

Firstly, the unification of a people who were divided into hostile tribes and among whom blood-feuds never ceased from time immemorial; and the stamping out entailed by such unification, of the prevailing vices of those dark ages and the institution of virtue and goodliness in lieu thereof

Secondly, the prescription of a law that endowed them with power and made possible their ascendancy and expansion after having practically been unheard of.

Thirdly, the extirpation of false beliefs and the institution of a religion inculcating such high ideals as to admit of its growth and development in a most surprising manner up to the present day Many people adopt this religion of their own accord and through no missionary propaganda Little wonder therefore that this religion is confidently expected to inherit all the remaining religions in some future day.

Thus with no human aid or counsel to direct it, had this great soul accomplished those three gigantic tasks. So complete indeed was the success it achieved that the leading men of learning in the West unanimously recognise the far-reaching results it involved and rightly regard it as a signal event in the history of the world

With its mission accomplished, this great spirt rose in satisfaction to where it belonged. The opposition with which it met at the outset only contributed to its eventual success. The name of Mohammad was thus engraved deep in the world history leaving an indelible mark on the minds

His, was a company of modesty, goodliness and righteousness.

So highly indeed did his people hold him in esteem that they con ferred upon him the epithet of "the Faithful" long before his prophetic mission.

In this connection, Al Nadr Ibn Al-Harith who was sometime the sworn enemy of Mohammad, thus addressed Koreish :

"When a youth Mohammad was in character the best among you, the most honest and true yet when grey hairs glistened on his temples and he announced unto you his mission you said "a sorcerer for sooth!" Nay by Allah, he is no sorcerer.

HIS HUMILITY AND INDIFFERENCE TO THE WORLD.

We have already alluded in these articles to the Prophet's complete indifference to the world. Suffice it to point out in this connection how little indeed did he care for it and how unheedful he was of the joys and luxury it offered, yet the world lay at his feet and the dominion of Islam extended far and wide beyond the Peninsula. Yet Mohammad died in poor circumstances and his shield was already in pledge to provide the wherewithal for his family.

Amonth or even two may elapse and no fire would be kindled in Mohammad's hearth. To quote Aysha, "Never did the family of Moham mad eat their fill of barley bread for three full days in succession " "The messenger of God left not a single Dinar (1) or Dirham nor a sheep or a camel." "On his death there was nothing eatable in my house save half a loaf of barley bread left over on a shelf."

"Once" Aysha goes on to say "the Prophet told me : the world had been offered me but I declined; I may go hungry one day and eat my fill another; on the former, I would humbly pray the Lord and on the latter I would glorify and praise Him."

---

(1) A Dinar is an ancient Arab gold coin of 65 grains weight.

HIS LIBERALITY AND MAGNANIMITY

In the exercise of charity Mohammad was unique and incomparable. No one ever petitioned Mohammad in vain. Always ready to help and give his all to the first petitioner who came to his door, he retained nought of the affluence that came to him and lived throughout his life even as the humblest live.

It is cited on the authority of Anas one of his companions, that a man once petitioned Mohammad for a living and received all the sheep that were grazing between two mountains near by.

On returning to his people, the man called them to Islam and announced unto them that "Mohammad giveth even as him who hath no fear of the onset of poverty."

More than one person have received the bounty of one hundred camels. One Safwan had on one occasion received three hundred, a hundred, then another hundred then yet another hundred.

Al-Abbas was once given such a quantity of gold that he could scarce carry it and had to abandon the attempt to carry it all.

On one occasion, ninety thousand Dirhams (1) were sent to Mohammad. He ordered them to be laid on a mat in front of him and started on the spot to distribute this huge sum, and never did he refuse a petitioner until the whole ninety thousands were exhausted.

HIS MODESTY AND URBANITY.

"The Prophet" says Aysha, "was the least disposed to vile words or deeds nor did he ever wilfully have recourse thereto." "He never returned evil for evil but he was always prone to pass over the offence and forgive the offender."

In referring to anything distasteful, he was wont to express it allegorically to spare his hearers' susceptibilities.

---

(1) A Dirham is a silver coin equivalent to nearly sixpence.

thou not!" "Fear thou not! said the Prophet, "for even if thou wished it, thou wouldst not have been able to do it."

Before his adoption of Islam, Zeid the jew, once came to demand of the Prophet the settlement of a debt He grabbed him by his clothes and harshly spoke thus to him "Verily, ye sons of Abdul-Muttalib are recalcitrant !"

Omar who was present at the time, severely chided the jew for his insolence but the Prophet who stood smiling said "Verily, he and I are more in need of a different treatment from thee O Omar;" "thou shouldst have bidden me be prompt in settlement of the debt and him to be more courteous in demand thereof." "Three days yet remain ere the debt falleth due." He then bade Omar to discharge the debt and give his creditor twenty handfuls over for the treatment he received on Omar's hands

Mohammad's behaviour on this occasion, so favourably impressed Zeid that he adopted Islam soon after.

"I have says Zeid "satisfied myself as to all the signs of the prophethood of Mohammad except as regards to two which I have yet to know : "whether his forbearance is outstripped by his temper and whether his tolerance is augmented by insolence."

The preceeding incident prompted Zeid to decide to take his stand once for all, on the side of Islam.

The books of Traditions abound in such instances which we could scarce deal with in this short treatise. But suffice it to point out, in testimony of Mohammad's forbearance and forgiveness, the tolerant attitude which he always maintained in the face of the ever-increasing persecution of Koreish. When, however, he triumphed over them and entered Mecca the scene of his sorest sufferings and persecutions, he nobly forgave them and granted them full amnesty.

" How do ye think I would treat you?" inquired Mohammad of Koreish on the surrender of Mecca.

"We hope for good" said they, "a noble brother and the son of a noble brother," whereupon he said "I say even as my brother Joseph said : There shall be no reproach against you this day; God will forgive you for He is the most merciful; go you are free."

Such unparalleled display of tolerance and magnanimity, gives an insight into the Prophet's character and the momentous nature of his mission. For not only did he refrain from retaliation for the physical injury and humiliation afflicted upon him but he also forgave his assailants, nay, even took pity on them that he prayed for them and interceded with the Lord on their behalf. Their ignorance was to him a sufficient excuse and hence he prayed the Lord for them for "they know not what they do."

On one occasion when the process of the distribution of spoils was in progress, the Prophet was harshly interrupted by an Arab who said "Observe thou justice in dealing out the spoils for this is no fair division."

Mohammad no more than calmly explained the reason why such division was made. But his companions were so infuriated at the Arab's insolence that they wanted to kill him were it not for the Prophet forbidding them to do so.

On another occasion when Ibn-Al-Harith resolved to slay Mohammad, he came upon him, in one of the expeditions, while he was having his midday sleep in the shade of a lone tree at a good distance from his companions.

Mohammad had just awakened in time to find Al-Harith standing by with a drawn sword in his hand. "What keepeth thou from me?" said Mohammad. "Allah" said Al-Harith and the sword fell from his hand whereupon the Prophet picked it up and offering it back to him repeated. "What keepeth thou from me." "Be thou the best of forgivers" said Al-Harith, which plea the Prophet granted and set him free. On returning to his tribe, Al-Harith is cited to have said "I have come from the best and most noble of men."

Nor was this the only instance in which he forgave the assailant who attempted his life. He forgave the jewess who administered poison in a lamb he was about to partake of. She confessed to her evil intention and was forgiven and set free.

"Never was the Prophet" says Aysha, "inclined to retribution for any harm done him unless the Lord's Law be violated; neither did he smite anything save in the cause of the Lord nor strike a woman or a servant throughout his life."

A man was once brought before him for attempting his life. "Fear

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

The Prophet Mohammad [1]

(Continued)



HIS TOLERANCE AND FORGIVENESS

The most tolerant and indulgent of people are sometimes apt to lose their patience and be roused to anger when they are driven to extremes that they could no longer restrain their feelings.

Not so was Mohammad, for his was the patience that grew with persecution and increased in the face of insolence and revilement.

"Never did the Prophet" says Aysha, "have recourse to retribution save when the Lord's Law was violated."

It is related that when the Prophet's eye-tooth was broken and his face lacerated at Ohod, his companions were so deeply chagrined that they asked "Wouldst thou not invoke the Lord's wrath against the unbelievers?" to which he replied, "I have not been sent to invoke evil upon men but to pray for the Lord's favour and a mercy unto them." "Forgive O Lord my people for they know not what they do."

---

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digawy's Book "*Messages of Peace*".

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم *

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الرابع	ربيع الثاني سنة ١٣٥١	المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى } سابقا

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تلفون ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	ص
داخل القطر المصري	٤٠
خارج القطر المصري	٥
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والا أذونين ومعلمي المدارس الاولية والطلاب داخل القطر	٢٠
وحضرات المذكورين في خارج القطر .	٣

ثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل اللغة العربية

ومسايرتها للعلوم والمدنية (١)

فى الكائنات ما يدرك بإحدى الحواس ، فيولد فى الذهن صورة شىء آخر غير محسوس بالفعل ، كالدخان المشاهد على بعد : يولد فى أذهاننا صورة النار ، والنار غير ظاهرة لأبصارنا ، وكالاحمرار يبدو على الوجه فجأة فيحضر فى أذهاننا معنى الخجل ، ولم يكن قبل ظهور هذا الاحمرار حاضراً ، وكلفظ الأسد يحضر فى أذهاننا صورة الحيوان المفترس ، وهذا الحيوان غير حاضر عند ما يطرق اللفظ أسماعنا .

ولا شىء يدل على آخر بطبيعته حتى يكون مجرد وجوده كافيا فى الدلالة ، وإنما توجد الدلالة بعد العلم بما بين الشيئين من رابطة ، ولولا ملاحظة هذه الرابطة لم اقترن شيئان فى الذهن على أن هذا دال ، وذاك مدلول له . فالأوضاع البدنية كتقطيب الوجه ، تدل على بعض أحوال نفسية كالغضب ، وهذه الدلالة لا تتحقق إلا عند من عرف بطريق التجربة مثلا — أن تلك الأوضاع البدنية والأحوال النفسية يرتبطان فى الوجود ، وهذا هو الذى يمكنه أن يلاحظ هذا الارتباط ، فتقترن تلك الأوضاع البدنية والأحوال النفسية فى ذهنه ، أولاهما بصفة دالة ، وأخراهما بصفة مدلول عليها .

---

(١) محاضرة ألقيت بدار جمعية الهداية الاسلامية فى مساء الخميس ١٩ صفر سنة ١٣٥١ (٢٣ يونيه سنة ١٩٣٢) .

وإذا قالوا : إن دلالة احمرار الوجه على الخجل طبيعية ، فمعنى أن احمرار الوجه يرتبط بالخجل بقانون طبعى ، أما نفس الدلالة فإنها لا تتحقق إلا بعد أن يكون الناظر قد علم أن احمرار الوجه ينشأ عن الخجل ، وهذا العلم إنما يحصل من نحو التجربة أو التلقين .

وعلى هذا النحو يجرى حال الأمور التى لا يربطها بما تدل عليه قانون طبعى ، وإنما هو العرف والاصطلاح ، فإذا رأينا عَلَماً على شاطئ البحر عرفنا أن هناك سفينة ، ومن البين أن لا رابطة بين العَلَم ووجود سفينة بالمرسى غير تلك الرابطة الذهنية الناشئة من اصطلاح الناس على أن يرفعوا على السفن أعلاماً .

ومن هذا الوادى دلالة الألفاظ على المعانى ، فإن المعنى لا يحضر عند النطق باللفظ ، أو لا يحضر حضورا تنشأ عنه فائدة إلا أن يسبقه العلم بأن هذا اللفظ قد وضع ليدل على هذا المعنى ، وأن المتكلم به ممن يحذو فى الكلام حذو هذا الوضع .

اللغة :

اللغة — كما قال ابن جنى — أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم — وهى مزية عرف بها الانسان ، ولم يعرف فى البشر أمة ليس لها لسان تعبر به عن حاجاتها ، وقد حاول بعض الباحثين أن يثبت من تركيب أدمغة أشخاص عاشوا فى القرون الخالية أنهم كانوا محرومين من هذه المزية ، فلم يستطع أن يقيم على ما يقوله دليلا تام المقدمات صحيح الإنتاج . كما أن العلم لم يستطع أن يثبت لغير الانسان من الحيوان لغة تخاطب ، وفى دائرة المعارف الانكليزية أن هذه المسألة لا تزال تحت البحث .

أصل نشأة اللغة :

تصدى للبحث فى أصل نشأة اللغات كثير من الفلاسفة والمتكلمين واللغويين ، وذهبوا فى البحث مذاهب شتى ، هذا يقول مصدرها التوقيف من الله ، وذلك يقول

مبدؤها الطبيعة ، وآخر يقول منشؤها الاصطلاح والتواطؤ ، والقائلون إن مبدأ اللغات التوقيف لا ينكرون أن تعدد اللغات ونموها من بعدُ كان بطريق الاصطلاح وعلى حسب الحاجة ، رجح ابن حزم فى كتاب الإحكام أن أصلها التوقيف من الله تعالى ، ثم قال : ولا ننكر اصطلاح الناس على إحداث لغات شتى بعد أن كانت لغة واحدة وقفوا عليها ، بها علموا ماهية الأشياء وكيفياتها وحدودها ، ثم قال : ولا ندرى أى لغة هى التى وقف آدم عليه السلام عليها أولاً .

وليس فى أدلة هذه المذاهب ما يحمل النفس فى قرارة من علم لا يخالطه ريب ، وقصارى ما وصل اليه الباحثون اليوم أن الناظر فى اللغة متى توغل فى أطوارها الى أقصى ما يسمه التاريخ ، يصل الى شذوذ فى تركيب الكلمات أو تركيب الكلام ، بحيث يعتقد أن هذه اللغة لم تبلغ حالتها الحاضرة إلا بعد أن تقلبت فى أطوار ومرت عليها أحقاب ، فمن الصعب على الفيلسوف أو اللغوى أو المؤرخ أن يحكم فى أصل نشأة هذه اللغات حكما فاصلا ، وإنما يستفيد من بحثه فى اللغات التى بين يديه أنها تكون فى أول أطوارها قليلة الكلمات غير متنوعة الأساليب ، ثم تغزر مادتها وتتعدد أساليبها ، على حسب ما يكون للناطقين بها من ثقافة أو حضارة .

تأثير الفكر فى اللغة :

للفكر أثر فى اللغة عظيم ، ولولا الفكر لفقدت اللغة خواصها ، ولم يكن لوجودها أية فائدة ، فإن الفكر هو الذى يربط الألفاظ بمعانيها ، فيعمد إليها وهى أصوات فارغة ، فيردها كالأصداف تحمل من درر المعانى ما يبهر العقل ، أو كالأغصان تحمل من الثمار ما تشتهيه النفس ، والفكر هو الذى يتوسل به الانسان الى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها ، فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة ، أو يبتدع فيها أساليب طريفة ، ويضع لها قواعد تساعد الناس على تعلمها ، وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها .

ومن شواهد تأثير الفكر على اللغة أن اللغة لا يرتفع شأنها وتظهر فصحة ألفاظها وغزارة مادتها وحسن بيانها إلا أن تلد أرضها رجالا ذوى عقول نيرة وقرائح جيدة .

تأثير اللغة فى الفكر :

للفكر تأثير فى اللغة كما أسلفنا بيانه ، وهـذا لا يمنع من أن يكون للغة تأثير فى الفكر من بعض الوجوه ، وقياس هذا أن العلم يزيد الأخلاق تهذيبا ، وللأخلاق المهذبة كالصبر على طول البحث ، والإنصاف فى المحاورة ، دخل فى توسيع دائرة العلم أو تحقيق ما يشكل من مباحثه .

تؤثر اللغـة فى الفكر من جهة أن المعانى لا تمايز ولا تخرج فى وضوح إلا أن يشار الى كل معنى بلفظ يخصه ، فاللغة وسيلة إيضاح المعانى الغامضة ، وتنسيق المعانى المختلطة ، والرجل الذى يريد أن يؤدى المعنى فى صورة منتظمة ، يفكر فى اختيار الألفاظ والأساليب أكثر ممن لا يبالى أن تقع صور المعانى فى ذهن مخاطبه مبهمة مختلطة .

وتأثير اللغة فى وضوح المعنى وتنظيمه فى ذهن المخاطب أمر لا شبهة فيه ، والذى يمارس التدريس أو التحرير ، قد يحس فى نفسه معانى مجملة أو مختلطة ، فيأخذ فى معالجتها بالبسط أو التنسيق ، وإنما يستعين على بسطها أو تنسيقها بكلام نفسى ، وليس هذا الكلام النفسى إلا صور ألفاظ لغـوية تتسرب من قوة الحافظة الى المفكرة ، فللغة تأثير على الفكر من قبل أن يعبر عنه بالقلم أو اللسان .

واللغـة تصور ما يخطر فى الفكر من المعـانى ، وهى التى تجعل المعانى محفـوظة باقية ، وكذلك يقول أحد الفلاسفة : « الأفكار التى لا تودع فى الألفاظ كالشرارات التى لا تبرق إلا لتموت » .

ولا تقتصر اللغة على نقل ما يجرى فى أقوال الأجيال الماضية من المعانى الحيوية ، أو الآراء العلمية أو الأدبية ، بل تنقل إلينا طرق تفكيرهم ، ومن الواضح أن الأقوام

يختلفون فى طرق التفكير ، وطرزُ تفكير كل قوم مبثوث فى ألفاظهم ، ومدلول عليه بأساليب مخاطباتهم .

هل يمكن اتحاد البشر فى لغة ؟ :

يقول الباحثون فى اللغات : كانت اللغات فى أول الأمر فقيرة مختلفة ، إذ كان لكل جماعة صغيرة من البشر لسان خاص ، وبكثرة اختلاط صنوف البشر واشتراكهم فى المنافع أخذت بعض اللغات تقترب من بعض ، بل أخذ بعضها يندمج فى بعض ، فقلّ عددها ، واتسع نطاق بعضها .

ثم رأى بعض علماء أوربا مثل (ديكارت) أن تعدد اللغات أدى الى صعوبة التفاهم بين الأفراد المختلفة الشعوب ، وهذا مما يجعل سير المدنية بطيئاً ، فارتأوا وضع لغة جديدة لتكون لسان البشر جميعا ، وقد سعى لإنفاذ هذا الرأى الطبيب البولونى « لودفيج زامنهوف » (Ludwing Zamenhof) فوضع اللسان المسمى الاسبرانتو (Esperanto) .

وقد اعتمد فى تأليفه على ثمانية وعشرين حرفا ، ووضع له ست عشرة قاعدة ، ومعظم كلماته من اللغة الرومانية والانكليزية ، وفى العالم جمعيات تدعو لهذا اللسان يقدرونها بنحو ١٧٧٦ جمعية ، وفى ألمانيا وحدها من هذه الجمعيات ٤٤١ جمعية مركزها الرئيسى فى مدينة لايبتسيق ، وللجمعيات العالم كلها مركزان أساسيان أحدهما فى جنيف ، والآخر فى باريز ، وفى أوربا وأمريكا والصين واليابان صحف تصدر بهذه اللغة ، وفى دائرة المعارف الالمانية أن عدد الذين يتكلمون بها يقرب من مائة وثلاثين ألفا .

وإذا أمكن انتشار لسان من الألسنة حتى يعرفه جميع الأمم زياده على ما يعرفون من لغاتهم القومية ، فمن الصعب جدا أن ينتشر بين الشعوب على اختلاف مواطنها

لغة تستولى على ألسنتها ، وتطمس على آثار لغتها ، فإن الألسنة تابعة لأحوال التفكير والإحساس ، وهل من سبيل الى أن تتحد الأمم فى تفكيرها وإحساسها ؟

اللغة العربية لا تموت :

ليس من الهين أن توضع لغة تتلقاها كل الأمم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها ، واذا فرضنا أن شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها ، فإن الشعوب الذين ينطقون باللغة العربية أحرص الناس على حياة لغتهم ، فمن المحال أن يتبدلوا بها لغة أخرى وإن تضافر على هذه اللغة أمم الأرض جميعا .

تأبى هذه الشعوب هجر اللغة العربية وتحويل ألسنتها الى لغة أخرى ، تأبى ذلك لأنها لغة القرآن الذى هو معجزة الرسالة ومطلع الهداية ، ولأنها تملك من فصاحة الكلم ، وحكمة الأساليب ، وغزارة المادة ما يجعل خطيبها أو شاعرها أو كاتبها المجلى فى حلبة البيان ، فلو زهدت هذه الشعوب الاسلامية فى اللغة العربية كانت قد فرطت فى جنب الله ، وأضاعت من يدها لسانا بلغ فى الإبداع أقصى ما يمكن أن تبلغه لغات بنى الانسان .

كتب[1] « جول فرن » قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها ، ولما أرادوا العود الى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثرا يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية ، ولما سئل جول فرن عن وجه اختياره للغة العربية ، قال : إنها لغة المستقبل ، ولاشك أنه يموت غيرها ، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه .

اللغة فى عهد الجاهلية :

كانت اللغة فى عهد الجاهلية تعبر عن حاجات القوم وما تجود به قرائحهم ، أو يجرى فى مخيلاتهم من صور المعانى ، فما كانوا ليحسوا نقصا فى لغتهم ، وإنك لترى المذاهب

(١) من مقال « عليكم باللغة العربية » للاستاذ محمود بك سالم .

التى كانوا يطلقون فيها أعنتهم ، كالفخر والنسيب ، فسيحة الأرجاء الى أقصى ما يمكن أن يبلغه الناشىء فى مثل بيئتهم ، الآخذ من المعانى المحسوسة أو المعقولة مأخذهم ، ومن نظر فى أشعارهم وخطبهم ومحاوراتهم ، وجد من جودة تصرفهم فى المعانى وحسن سبكهم للألفاظ ما يدله على أنهم كانوا يرسلون الفكر والخيال ، ويصوغون ما شاءوا من المعانى ، فيجدون فى ألفاظ لغتهم وأساليبها ثروة تسعدهم على أن يقولوا فيبدعوا ، وإليك مثلا من إبداعهم فى الفخر بالبسالة ، والثبات فى حومة الوغى ، قال ودّاك بن ثميل المازنى يخاطب بنى شيبان :

رويد بنى شيبان بعض وعيدكم	تلاقوا غدا خيلى على سَفَوان
تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى	اذا ما غدت فى المأزق المتدانى
عليها الكماة الغر من آل مازن	ليوث طعان عند كل طعان
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم	على ما جنت فيهم يد الحدثان
مقاديم وصّالون فى الروع خطوهم	بكل رقيق الشفرتين يمان
اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم	لأية حرب أم بأىّ مكان

هذه الأبيات يؤذن بالحرب ، افتتحها الشاعر بشىء من التهكم ، فقال : « رويد بنى شيبان بعض وعيدكم » وإنما كان طلبه الكف عن بعض وعيدهم تهكما ، لأن هذا الطلب شأنه أن يصدر ممن يعتقد قدرتهم على تنفيذ كل ما يوعدون به . وبعد أن تظاهر بإكبارهم والرهبة من وعيدهم على وجه التهكم فاجأهم بإنذار بليغ هو لقاؤهم فرسان قومه بالمكان المسمى « سفوان » فقال : « تلاقوا غدا خيلى على سفوان »

ثم وصف هذه الخيل بأنها متدربة على الحروب غير هيابة من مضائقها فقال :

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى	اذا ما غدت فى المأزق المتدانى

وليست الخيل كافلة للنصر إلا أن تكون أعنتها فى أكف رجال لا يلوون جباههم عن طعان ، لذلك أردف هذا البيت بقوله :

عليها الكماة الغُرّ من آل مازن ليوث طعان عنـد كل طعان

وفى وصفهم بالغر إيماء الى شاهد من شـواهد قوة الجأش وهو طلاقة الوجه ووضاءته عند لقاء الأقران ، وقال : « عند كل طعان » ليدل على أن الشجاعة قد أشربت فى نفوسهم فلا تتأخر عنهم فى موطن ، ولا تغيب عنهم فى حال ، وعزز هـذا البيت بقوله :

تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم على ما جنت فيهم يد الحدثان

ليدل على أن خلق الصبر فيهم وثيق العرى ، واسع المدى ، وليسوا ممن يزفون الى الحروب زفيف النعام حتى اذا طال عليهم أمدها ، وكثر ما لا قوة من مكارهها ، ضجروا من صحبتها ، ومالوا بالسـيوف الى أغمادها . وفى الناس أولو شجاعة ولـكن شجاعتهم لا تتجاوز بهم أن يبسطوا أيديهم على قدر ما تناله سيوفهم أو رماحهم ، فقصد الشاعر الى أن يدل على أن قومه ليسوا من هذا الصنف ، فقال :

مقاديم وصّالون فى الروع خطوهم بكل رقيق الشـفرتين يمـان

يعنى أنهم يقدمون فى القتال حتى اذا قصرت سـيوفهم ، وبعُـد ما بينها وبين أعدائهم مشوا قُدما حتى يضربوا بشفارها الرقيقـة فى مقاتلهم ، ولم يبق لبنى شيبان أمل فى النجاة إلا أن يرجوا من هؤلاء الكماة النظر فى أمر هذه الحرب ، فعلهم يرون عو قبها غير صالحة فيتحاموها ، فقطع الشاعر عرق هذا الأمل فقال :

اذا استُنجِدوا لم يسألو من دعاهم لأية حـرب أم بأى مكان

فأخبر أنهم كالجنـد متأهبون للخوض فى غمار الحروب ، ولا يزيدون على أن يسمعوا نداء من يستنجدهم ، فيطيروا الى ما يناديهم له غير سائلين عن سبب الحرب : أحق هو أم باطل ، ولا عن مكانها : أقريب هو أم بعيد .

تأثير الاسلام فى اللغة :

طلع الاسلام على العرب وفى هدايته من المعانى ما لم يكونوا يعلمون ، بل فى هدايته ما لا تفى اللغة يومئذ بالدلالة عليه ، فعبر عن هذه المعانى بألفاظ ازدادت بها اللغة نماء ، ومن الجلى أن القرآن الكريم والحديث النبوى قد سلكا فى البلاغة مذاهب ينقطع دونها كل بليغ ، ثم إن فتح الممالك الكبيرة كبلاد الفرس والروم زاد مجال اللغة بسطة بما نقل اليها من المعانى العلمية أو المدنية ، ففضل الاسلام على اللغة العربية يظهر فى غزارة مادتها ، وبراعة أساليبها ، واتساع مذاهب بيانها ، وكثرة الأغراض التى يتسابق اليها فرسان الخطابة والكتابة .

فضل اللغة العربية :

للغة العربية فضل من جهة اعتدال كلماتها ، فإنا نجد أكثر ألفاظها قد وضع على ثلاثة أحرف ، وأقل من الثلاثى ما وضع على أربعة أحرف ، وأقل من الرباعى ما وضع على خمسة أحرف ، وليس فى اللغة كلمة ذات ستة أحرف أصلية ، وقد جاءت ألفاظ قليلة جدا على حرف واحد أو على حرفين .

ولها فضل من جهة فصاحة مفرداتها ، فليس فى كلماتها الجارية فى الاستعمال ما يثقل على اللسان أو ينبو عنه السمع ، وللعارف بحسن صياغة الكلام أن يصنع من مفرداتها المأنوسة الوضاءة قطعاً أو خطباً أو قصائد تسترق الأسماع وتسحر الألباب . ولعناية العرب بتهذيب الألفاظ زعم قوم أن العرب تعنى بالألفاظ ، وتغفل المعانى ، وهؤلاء هم الذين رد عليهم ابن جنى فى باب مستقل من كتاب الخصائص ، ومما قال فى هذا الباب : « فاذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ، وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هى بالألفاظ ، بل هى عندنا خدمة منهم للمعانى ، وتنويه وتشريف ، ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه وتزكيته وتقديسه » .

كانت اللغة الفارسية فى الشرق هى التى يمكن بما لها من فصاحة وحسن بيان أن يوازَن بينها وبين اللغة العربية ، وقد شهد بعض الأعاجم الذين عرفوا اللغتين بأن العربية أرق مكانة وألطف مسالك . قال ابن جنى فى الخصائص : « إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمى ، وقد تدرب قبل استعرابه ، عن حال اللغتين ، فلا يجمع بينهما ، بل لا يكاد يقبل السؤال عن ذلك ، لبعده فى نفسه ، و تقدم لطف العربية فى رأيه وحسه ، سألت غير مرة أبا على عن ذلك ، فكان جوابه عنه نحوا مما حكيته » .

وقد استدل بعض علماء الأدب بما كتبه أرسطو فى الشعر على أن الشعر العربى أرقى من الشعر اليونانى ، قال حازم فى كتاب المناهج الأدبية [1] :

« ولو وجد أرسطو فى شعر اليونان ما يوجد فى شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع فى فنون الكلام لفظا ومعنى ، وتبحرهم فى أصناف المعانى وحسن تصرفهم فى وضعها ووضع الألفاظ بإزائها ، وفى إحكام مبانيها واقتراناتها ، ولطف التفاتاتهم وتمثيلاتهم واستطراداتهم وحسن مآخذهم ومنازعهم ، وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا ، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية » .

هـذه شهادات صادرة ممن يعتقدون أن للغة العربية فضلا من جهة أنها اللسان الذى نزل به القرآن الكريم ، واليك شهادات ممن لا يؤمنون بالقرآن ، وإنما ينظرون الى اللغة من ناحية حسن البيان ، قال المستشرق « أرنست رينان » فى كتابه تاريخ اللغات السامية :

« من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية ، وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل . تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها . وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب بالمكتبة الصادقية فى تونس .

ظهرت لنا فى حلل الكمال الى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى إنها لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة — لا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التى لا تبارى ، ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج ، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة » .

وقد ذكر محاسن العربية رجال يعرفون غيرها من اللغات الراقية ، وشهدوا لها بأنها أقرب اللغات انطباقا على النظم الطبيعية ، قال المطران يوسف داود الموصلى : « من خواص اللغة العربية وفضائلها أنها أقرب سائر لغات الدنيا الى قواعد المنطق ، بحيث إن عباراتها سلسلة طبيعية ، يهون على الناطق صافى الفكر أن يعبر فيها عما يريده من دون تصنع وتكلف ، باتباع ما يدله عليه القانون الطبيعى ، وهذه الخاصية إن كانت للغات السامية تشترك فيها مع العربية فى وجه من الوجوه ، فقلما تجدها فى اللغات المسماة « الهندية الجرمانية » ولا سيما الافرنجية منها » .

لندع الحكم بين اللغة العربية وأى لسان أعجمى لمن يعرف العربية الفصحى ويعرف ذلك اللسان الأعجمى ، فهو الذى قد يصغى اليه الناس متى آنسوا فيه الإنصاف ، ويتلقون حكمه بالقبول ، والذى أقوله وأنا على بينة مما أقول : أن أساليب اللغة العربية أقرب الى النظم الطبيعية من اللسان الألمانى ، فإن فى اللسان الألمانى ضروبا من التصرف يفقد بها الكلام ترتيبه الطبيعى ، وليس لهذه الضروب فى العربية الفصحى من شبيه ، ففى اللغة الألمانية أفعال مركبة من قطعتين ، يضع المتكلم إحدى القطعتين فى أول الجملة ويضع الأخرى عند انتهائها ، فالسامع لا يعرف معنى الفعل عند ما يسمع القطعة الأولى فى صدر الجملة ، ويبقى معه لفظ لا يدرى ما معناه حتى يصل الى القطعة الملقاة فى آخر الكلام . والمتكلم باللسان الألمانى يأتى فى صدر الجملة بعلامة استقبال الفعل أو مضيه ، أما الفعل نفسه فهو آخر ما تسمعه من الجملة ، أعنى أنه يأتى بعد المفاعيل

والظروف ونحوها . والمتكلم باللسان الألمانى كثيرا ما يورد أداة التعريف ولا يأتيك بالمعرف إلا بعد كلمات أو جمل لها صلة بالمعرَّف ، وقد تلاقيك أداة تعريف ولا تصل الى المعرف إلا بعد أن تقرأ نحوا من سطر أو سطرين .

الحاجة الى مجمع لغوى :

قد أريناك أن اللغة العربية بالغة من حسن البيان ما ليس بعده مرتقى ، وكانت تجرى مع العلوم والحضارة جنبا لجنب ، فلا يقف عالم أو خطيب أو شاعر ، إلا وجد فى غزارة مادتها وإحكام أساليبها ما يمكِّنه من إبراز الحقائق أو المتخيلات فى برود صافية محبَّرة ، ثم أدركها نقص منذ حين ، وأخذت تتباطأ فى مسايرة العلوم والمدنيـة ، حتى تقدمها كثير من اللغات النامية ، وأصبحت هـذه اللغات تجول فى كثير من العلوم والفنون ، وتعبر عن معان تقف دونها اللغة العربية صامتة .

ولم تقع اللغة العربية فى هـذا التباطؤ لقلة مفرداتها ، أو ضيق دائرة تصريفها ، أو إبايتها نقل بعض كلماتها من معانيها الأصلية الى معان أخرى تناسبها ، ولو كان لشئ من هذا دخل فى تباطئها ، لعذرنا أولئك الذين يحاولون صرف الألسنة عنها ، ويدعون الى أن تأخذ كل جماعة بلغتها المعتلة المشوهة ، ولعذرنا أولئك الذين يدعون الى استعمال الألفاظ الأعجمية ، وحشرها فى منشآتنا وأشعارنا وخطبنا ومحاوراتنا ، وإنما علة ذلك النقص غفلة المعهود إليهم بالقيام على حياة اللغة ومسايرتها للعلوم والفنون والمدنية .

والوسيلة التى تنهض باللغة ، وترفعها الى مستوى اللغات الراقية ، هى الوسيلة التى نهضت بتلك اللغات الحية ، وجعلتها تسير مع العلم والحضارة كتفا لكتف ، أعنى تأليف مجمع لغوى ينظر فيما تجدد أو يتجدد من المعانى ، ويضع لكل معنى لفظا يناسبه . ولا عجب أن تكون اللغات الأجنبية الراقية قائمة بحاجات العلم والمدنية ، وأن يكون باللغة العربية خصاصة من هذه الناحية ، فإن أصحاب تلك اللغات قد سبقونا الى عقد

المجامع اللغوية منذ أحقاب ، فالمجمع اللغوى فى ألمانيا تألف سنة ١٦١٧ م ، والمجمع اللغوى فى فرنسا تألف سنة ١٦٣٤ ولم نفس أن كلمات كثيرة حدثت فى اللغة العربية لهذا العصر ، وأصبحت تجرى على ألسنة أدبائنا ، وتنطق بها أقلام كتابنا ، وهى عربية المنبت ، خفيفة الوقع على السمع ، آخذة حظها من مناسبة الوضع ، ولكن العلوم تتدفق تدفق السيل ، ومقتضيات المدنية تتجدد تجدد النهار والليل ، وكل من المعانى العلمية والمرافق الحيوية تحتاج الى أسماء تلتئم مع سائر الألفاظ العربية التئام الدرر النقية فى أسلاكها ، وتلك الكلمات المشار اليها إنما هى من صنع أفراد قد تنساق اليهم من نفسها ، فيقع عليها اختيارهم ، وتصادف فى الناس حاجة ، فتتلقفها ألسنتهم ، وهذه الطريقة لا تشفى غلة العلم ، ولا تملأ المدنية عينا ، وإنما يشفى غلة العلوم المتكاثرة ويملأ عين المدنية الزاخرة ، تأليف مجمع لغوى يسير مع العلوم والمدنية ، لا يتأخر عنها طرفة عين .

ذكر ابن حزم فى كتاب الإحكام سنة من سنن الكون فى سقوط اللغة ، فقال : « إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل ، بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم فى مساكنهم ، أو تنقلهم عن ديارهم ، واختلاطهم بغيرهم ، فإنما يقيد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ، ونشاط أهلها وفراغهم ، وأما من تلفت دولتهم ، وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم ، فمضمون منهم موت الخاطر ، وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم ، ونسيان أنسابهم وأخبارهم ، وبيود علومهم ، هذا موجود بالمشاهدة ، ومعلوم بالعقل والضرورة » .

وقد أصاب ابن حزم فى حكمه على الأمة التى تقع تحت سلطان من لا ينطق بلسانها ، من أن لغتها تصير الى انحطاط أو ضياع ، وهذه سنة لغات الأمم التى يجدها الأجنبى فى جهالة ، ويتمكن من أن يبقيها فى جهالتها ، أما الأمة المتيقظة لوسائل سلامتها وعزتها ، فإنها تندفع فى ابتغاء هذه الوسائل بكل ما تستطيع من حيلة ، وعلى

كل ما تهتدى اليه من سبيل ، فلا تألو جهدا فى الاحتفاظ بلغتها ، والعمل لإعلاء شأنها ، على الرغم من كل من يكيد لها ، ويبرى السهام ليرمى بها مقاتلها ، وفى البلاد التى تنطق بالعربية شعور ساطع فى نفوس شيوخها وشبابها ، ومن أثره هذه الغيرة التى تملأ ما بين جوانحهم ، وتهزهم أفرادا وجماعات الى النظر فى إصلاح ما اختل من أمورنا ، وإعادة ما تقوض من مجدنا ، فنحن على ثقة من أن للغة العربية سترفع رايتها ، وتفوق اللغات الراقية بغزارة مادتها وفضل بلاغتها ، وما ذلك من همم أبنائها وطموحهم الى الحياة الماجدة ببعيد ؟

محمد الخضر حسين

الظرف والملح

قال المهلب يوماً لجلسائه : أراكم تعنفوننى فى الإقدام ، قالوا : إى والله إنك لتقوط بنفسك فى المهالك ، قال : إليكم عنى : فوالله لولا أن آتى الموت مسترسلا ، لأتانى مستعجلا ، إنى لست آتى الموت من حبه ، إنما آتيه من بغضه ، ثم تمثل بقول الحصين بن الحمام المرى :

أرى كلنا يهوى الحياة لنفسه حريصا عليها مستهاما بها صبا

فحب الجبان النفس أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا



سورة النور

٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).

وهذا باب آخر من أبواب الخير الذى أنعم الله به على الأمة بسبب هذه الحادثة الشديدة، حادثة خوض من خاض فى أم المؤمنين رضى الله عنها، ذاك هو هدايتهم لى شدة خطر هذا الجرم وعظيم هوله، وقد كانوا يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم. وإنك لا تجد من أنواع الجرم ما يقدم عليه صاحبه غافلا عن عظيم خطره إلا جرم اللسان،

وكأن سهولة حركته بطبعه ، ولذة التحدث بالأمور المستغربة ، وحسبان أن الكلام لم ينقص من المتكلم فيه شيئا محسوسا يذكر ، مع اعتياد الناس التساهل فى القول والسماع ، كل أولئك جعل الناس يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

إن من شاء أن يشهد عظمه يرجع الى ما يجده من نفسه حين ينقل اليه أن فلانا ناله بكلام يكرهه وإن كان صادقا ، فإنه يجد من غليان دمه وثوران نفسه ورعدة جسمه ما يحمل على الجزم بأنه لو تمكن منه ما أبقى عليه ، فاذا كظم غيظه كظمه على حقد وحرض ، وتربى له فى نفسه من المقت والكراهية ما يجعله يتربص به الدوائر ، ويسره أن يراه فى أشد مكروه ، هذا إذا لم يشغل فكره فى الانتقام منه ، وناهيك بضرر نزع الرحمة من قلوب متحابة ونفوس متآخية . هذا كله فى الكلام المستكره مطلقا ، فما بالك بالكلام فى العرض وهو مستقر الشرف ومستودع الحياة ؟ وكيف اذا كان من ينال من عرضه سيدة محصنة ؟ وكيف اذا كانت من أشرف الخلق بهذه المنزلة ؟ أفليس العقل لأول نظرة وأدب الدين لمن حل قلبه يقضى أن يقولوا : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ؟ .

والشيوع : الانتشار ، والفاحشة والفحش : الجرم المخزى المعيب ، وقد يكون الجرم شديدا كالقتل والكفر ولا يسمى فحشا وفاحشة ، فإنك لا تجد القاتل يلحقه من العار والخزى والاستخذاء وتنكيس الرأس خجلا وعارا مثل ما تجده فيمن رمى بتلك الفاحشة . وإن أسلوب الآية من ربط العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة بمحبة الشيوع مع أن الظاهر أن يقال : إن الذين يشيعون الفاحشة الخ : فيه مبالغة فى الزجر والتهويل ، وكأنه يقول : إن المحبة لهذه الخطة المرذولة والرضا بها موجب للعذاب فى الدنيا والآخرة ، فكيف بالخوض فيها والعمل على نشرها بالفعل ؟ (وترتيب العذاب على محبة الجريمة المستلزمة الإصرار عليها لا ينافى قولهم : إن الهم بالمعصية ثم تركها

لاعقوبة فيه) وهو فى هذا منبه المؤمن الى أصل الداء من نفسه ، وهو محبة هذا الأمر الشنيع الفظيع ، فمتى تنبه الى أصل الداء عمل على المداواة منه واستأصل شأفة العلة قبل بدو آثارها . وإن فيه مع الإرشاد الى العلاج الحاسم تنبيها لمنشأ المرض ، وهو ميل النفوس بفطرتها الى التسامى فى الشرف والمجد ، وأن تفوق غيرها فى كل فضيلة ، فاذا شعرت بنقيصة عند الغير رأت ذلك موافقا لرغبتها وأثرتها ، وهو انفرادها بالطهارة حيث تدنس الغير فيسترسل فى الجريمة وهو لا يشعر . فانظر الى هذا التأديب العجيب والإعانة على تعرف مكمن الداء ليستأصل بأسهل دواء ، سبحانك لا نحصى ثناء عليك .

وإنك اذا تأملت فى تعليق الشيوع بالفاحشة نفسها مع أن المراد شيوع خبرها والحديث فيها ، وجدت بابا آخر من الإرشاد ، ذلك أن الأسماع التى لم يطرقها حديث الفحشاء تجد أصحابها فى أكمل نفرة من خطراتها على نفوسهم ، فاذا ما طرق سمع أحدهم حديث فحش مرة اشمأزت نفسه وأكبرت الأمر ، ومسه من الهلع والذعر الشىء الكبير ، فاذا ما تكرر على سمعه مرة أخرى كان اشمئزازه ونفرته أقل ، فلا يزال يتكرر حديث الفحش حتى يصبح أمرا مألوفا لا يستنكره ولا ينفر منه ، وقد يزيد حتى يستمرئ الحديث ويصغى اليه ، وهنا تنفتح أمامه هوة التدهور فيتردى فيه وقد مات حارسه وهو عاطفة الاستنكار والنفرة ، فترى بذلك أن حب شيوع الحديث كحب شيوع نفس الفاحشة ، فلا جرم عبر به عنه . ومما يزيدك استبصارا فى هذا ما ترى من تحرج الآباء عن ذكر مثل هذه الأخبار أمام أبنائهم الأحداث ، فما ذاك إلا لما وقر فى النفوس من أن ذكر الفحش يلفت النفوس اليه فيردى فيه ، وهل يشك أحد فى أن من أساليب الترغيب فى الشىء خيرا كان أو شرا تكرار ذكر حوادثه وتفاصيل شئونه ؟ وهل يربى الشجاعة والكرم فى النفوس مثل أخبار الشجعان والأجواد ؟ فهذا من سر التعبير بقوله : (يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ) الخ .

واذا كان ذكر الفاحشة مستكرها على كل حال فإن للتعبير بهذا اللفظ هنا جمالا يا له من جمال، فقد بين به ما يحمل على النفرة منه، واختير على لفظ الزنى تحاميا عن ذكره فى هذا الموطن ولو بطريق النفى مبالغة فى تطهير من جاءت هذه الآيات لتطهيرها، ثم ليعم جميع أنواع الفحش. وأما قوله جل شأنه: (فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا) ففيه إثبات ما هو كدليل البراءة والتكذيب للأفاكين، وهو إيمان من وجه اليهم هذا الرمى الشنيع، وما كان المؤمن الصحيح الإيمان مظنة لهذه المنكرات، كما أشير الى ذلك بقوله عز وجل فيما تقدم: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا) وفيه مع هذا لفت نظرهم الى ما فى أنفسهم مما يمنعهم من هذا الفحش، وإنهم ليجدون من أنفسهم أن إيمانهم يمنعهم من مقارفته، فحقهم أن يقيسوا إيمان من رموهم على إيمانهم، وهذا كما يفهم من التعبير عن المرميين (بأنفسهم) فى الآية السابقة.

وقوله: (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ) قالوا: إن التعبير بلهم فيه إشارة الى أن هذا حق من حقوقهم ملازم لهم لا يعدوهم ولا يخلصون منه فهو نصيبهم من عملهم، والعذاب المتوعد به فى الدنيا شامل لحد القذف، ولما يصيب المتعرض للأعراض غالبا من مصائب الدهر، ولحوق المخزيات، وتسليط الألسنة على عرضه تثير منه ما كمن بالباطل وبالصحيح، ومن غربل الناس نخلوه، ومن فتش عن عوراتهم فضحوه، ومن لا يتق الشتم يشتم. أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى، ويبين جانبا من خطره ما شرحناه آنفا فى شديد وزره وقبح أثره.

وأما قوله تعالى: (وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) فهى تتميم لهذه الإرشادات منزلة منها منزلة قوله فيما سبق: (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ) كأنه يدفع بها خاطر من يظن أن الكلام كثير عليه أن يستتبع كل هذا الوعيد، فما خرج عن أنه كلام، والكلام فيه الصادق وفيه الكاذب، فجاءت هذه الجملة الجميلة لتبين لهم أن الله

عليم بالأعمال وآثارها، وما يترتب عليها فى نفس من وجهت اليه، وفى نفس من وجهت منه، وفى نفس السامعين من مضار كثيرة، وقد أشرنا فيما سبق الى شىء منه، فكأنه تعالى يدعونا الى أن نستمسك بهدايته فيما تبين لنا وجه الحكمة فيه وفيما خفى عليك فهو العليم الحكيم، وهو الرءوف الرحيم، فلا تتركوا علمه الحق الى أوهامكم الباطلة، فلذلك أردفها بقوله جل من قائل. (وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) فقد تفضل عليكم وأرشدكم الى ما فيه خيركم، وزجركم عما يقطع أوصالكم، وينفر قلوبكم بعضكم من بعض، ويربى الضغينة والتقاطع والتدابر فى نفوسكم، وأقل ثمرة من ثمراته أن يجعل أحدكم يحب الضرر لصاحبه، ويجعله يفرح به ولولم يكن من ناحيته، فكفى بهذا شؤما، فضلا عما ينشأ عنه من استهتار النفوس الضعيفة فى الفحش واستهانتها بالوقوع فيه لتكرار ذكره أمامها، أو لنسبته الى من كان يظن فيه خير، فيقول فى نفسه: وأين أنا من هذا؟ اذا كان هو قد حصل منه فلم لا يحصل منى؟ فيكون بئس المربى:

ولا تتوهم أن فى قوله: (وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) تكرارا مع قوله: (وَلَوْلاَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ) فإن فى الأول ذكرا للآثار اللاحقة بالعباد والرحمة المسبغة عليهم تفضلا منه وإحسانا، وفى الثانى ارتقاء بذهنهم ليشهدوا صفته تعالى الثابتة القارة التى هى مصدر تلك الآثار وعنها تنشأ جميع النعم، والتى يقرّب فهمها قولهم فى جانب المخلوقين: ملكة راسخة فى النفس، فكأنه لفت نظرهم أولا للآثار المتجلية الواضحة، واستطرق منها الى ما هو منها بمنزلة المدلول من الدليل. وحذف جواب لولا يفيد ما لا يفيده أى ذكر، فكأنه قيل: لولا الفضل والرحمة لوقعتم فى هذه المهالك ولضلت بكم المسالك، ولكان بعضكم على بعض شرا ووبالا، ولساءت حياتكم حالا ومآلا، فالحمد لله على فضله ورحمته.

(يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ) هذا إرشاد جديد، وتنبيه أوسع دائرة

مما سبق ، وتحذير من عدو بعيد وهو الشيطان ، بعد لتحذير من العدو القريب وهو النفس ، فقد أشير فى الأول الى بعض أسباب هذه الجريمة وهو محبة النفس وميلها الى الاستئثار بالشرف ، والانفراد بمجد الطهارة ، وبيّن لهم ما فى هذا الأمر الذى تحبه نفوسهم من طلائع المقت والغضب الإلهى والعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة . وأشير هنا الى سبب آخر وهو ما يلقيه الشيطان من الوسوسة فى النفوس والهواجس المنكرة ، وأن له تحديثا خفيا مع النفوس المصغية اليه فيوقع فى وهمها من منكر القول وزوره ما تعلق به ويعلق بها ، فتسترسل فيه وتزيد عليه من فروضها واحتمالاتها ، وتستن فى ذلك شوطا بعيد جريا وراء الخطوة الأولى التى رسمها لها الشيطان وخطاها أمامها . ولا شك أن تنبيه الغافل الى ما سيتردى فيه ، والى أن قائده هو عدوه الأكبر الذى عاهد الله على إغوائه ، وأن يخترط عليه كل مسلك ، وأن يأتيه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، هـذا التنبيه بلا شك يرد الى العاقل عقله فيقيه شر الشرك الذى نصب لاصطياده ، ومن يتبع خطوات الشيطان ضل سواء السبيل ، وأشرف على غاية هى الدمار والهلاك فى الدنيا والآخرة ، فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، وأمره إغواؤه وإغراؤه ووسوسته بتزيينه الشر والقبيح ، وإبداء ما قد يرغب فيه من مغتنم لذة عاجلة ، أو تشف من نفس مكروهة .

وإنك اذا علمت أن الشيطان مخلوق حى ذو فهم وتصرف وإن كنت لا تراه ، ونظرت الى أنه يجرى بين الناس تفاهم على أوجه شتى ، من نظرات وإشارات وتصنعات ، بل قد يجرى بينهم ما هو أدق من هذا فى التفاهم ، إذ قد يتفاهم اثنان بجريان الخواطر بين نفسيهما ، وإن كان قليل من الناس من يعرف هذا أو يعترف به ، أقول اذا علمت هذا سهل عليك تصور وسوسة الشيطان للنفوس ، وإلقاء المغريات بالشر فى روعها وتذكيرها بمحاسن المفاسد ولذات الفواحش ، وشغلها عن التفكير فى عواقبها ، واستعانته عليها بما وقر فيها من عواطف ، حتى اذا كانت عواطف خير قلبها الى الشر واستخدمها.

ومن أمثلة ذلك ما يحكى أن عابدا كان فى صومعة، وكان بجواره رجلان لهما أخت جميلة، فعن لهما أن يسافرا فاستودعاه أختهما ليتولى إطعامها وليحميها ويحرسها، فكان فى كل يوم يجيء بطعامها يضعه على باب صومعته فتجيء تأخذه، فحسّن له الشيطان أن يكرمها بوضع الطعام على باب بيتها حتى لا تتجشم المشى الى صومعته وقد يقابلها فى طريقها ما يؤذيها ففعل، ثم بدا له أن يزيدها إكراما بأن يناديها لتأخذه منه حتى لا يتعرض الطعام لما قد يفسده ففعل، ثم رأى أن فى طول مقامها منفردة وحشة مسئمة فقد يكون من الخير أن يسرى عنها بالتحدث اليها فترة وجيزة ففعل، وهنا تمكن الشيطان أن يحجل بينهما، فما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، فوقعا فى التهلكة. فلقد جاءه الشيطان من طريق الخير، ووجد من نفسه ميلا الى ذلك، وأغفله عما سيجره اليه من سوء المصير.

وقوله تعالى بعد هذا البيان والإرشاد: (وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا) فيه تنويه بهذه الهداية العظمى، ليتمسك بها ويعمل جهد الطاقة على امتثالها، ومن الحق أن من وقع فريسة ضعيفة بين هذين العدوين القويين الخفيين: النفس والشيطان، لا يكاد يزكو لولا فضل الله عليه بالتزكية والتطهير، وأنى له أن يزكو وهو يستمرئ ما تدعوه اليه نفسه ويدفعه اليه شيطانه؟ فكيف يستمسك وهو بين قائد ضال ودافع أضل؟ ولكن الله يزكى من يشاء، فهو يختار من عباده من ينقذهم من سلطان الشيطان ويصطفيهم عبادا له. والله سميع عليم، فهو لا يخفى عليه شيء مما يجرى من حديث النفس أو وسوسة الشيطان، ولا يخفى عليه شيء من استمساك نفوس الأصفياء الأخيار، وردهم له مذموما مدحورا، وقمعهم نفوسهم يحفظونها من التردى فى الهاوية، فيذكرون ما يؤمنون به من أن الله سميع عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وأنه قدير عظيم، فهو مالك ناصيتهم، فإن شاء سلبهم حياتهم أو قدرهم وإن شاء أمهلهم حتى يوقع بهم شديد العذاب، وأنه ذو الجلال والإكرام الذى من

حقه أن يستحيا منه ، فلا يقدم على ما يكرهه ولو لم يكن خائفا عذابه ، كما قيل فى صهيب : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » .

هذا وفى ختم هذه الآيات بقوله تعالى : (وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) فتح عظيم لباب التوبة ، ودعوة واسعة الى الدخول فى حظيرة التزكية ، وتشويق الى ذلك ببيان أن الله سميع لما يجرى منكم من خير أو شر ، فاجعلوا ما يسمعه منكم مما ترجون به رحمته ، عليم بكل شىء ، ومن جملة ذلك نياتكم التى تعقدونها على الخروج مما تورطتم فيه من المعاصى . وإنك لتجد فى هذه الإرشادات المتوالية والتربية العالية ما يشرح لك قوله جل شأنه فيما مضى : (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) نسأل الله تعالى أن يهدينا للخير، وأن يزكينا بفضله ورحمته، إنه سميع مجيب ؟

إبراهيم الجبالى

الظرف والملح

قال الأصمعى : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه : والله لو صوّر الجهل لأظلم معه النهار ، ولو صوّر العقل لأضاء معه الليل ، وإنك من أفضلهما لمعدم . خف الله ، واعلم أن من ورائك حكمًا لا يحتاج المدعى عنده لى إحضار بينة .

***

وقال أعرابى لأبيه : يا أبت إن فى كبير حقك ما يبطل صغير حقى عليك ، والذى تمت به الىّ أمت بمثله إليك ، ولست أزعم أنا سواء ، ولكن لا يحل لك الاعتداء

اعتراف أجنبي بفضل الاسلام

شيء مما يقوله علماء الافرنج عن الدين الاسلامي ، وما للعبادة البدنية فيه من الأثر في تربية النفوس وتزكية الأخلاق ، لعل في نشره هنا عظة بالغة لتاركي الصلاة والمفرطين في جنب الله ، الساخرين بنواهيه ، المطيعين لأوامره ، ولعلهم ينتهون .

جاء في كتاب العقيدة الاسلامية لمؤلفه السير توماس أرنولد بصفحة ٢٩ وما يليها بمناسبة كلامه في الصلاة ما ترجمته :

هذا الفرض المنظم من عبادة الله هو من أعظم الأمارات المميزة للمسلمين عن غيرهم في حياتهم الدينية ، فكثيراً ما لاحظ السائحون وغيرهم في بلاد المشرق ما لكيفية أدائه من التأثير في النفوس . ودونك ما قاله فيه الأسقف لو فروا قال : « لا يستطيع أحد يكون خالط المسلمين لأول مرة أن لا يدهش ويتأثر بمظهر عقيدتهم . . . فإنك حيثما كنت ، سواء أوجدت في شارع مطروق أم في محطة سكة حديدية أم في حقل ، كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلا ليس عليه أدنى مسحة للرياء ، ولا أقل شائبة من حب الظهور ، يذر عمله الذي يشغله كائناً ما كان وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين . ولننتقل من صلاة الفرد الى صلاة الجماعة فنقول : إنه لا يتأتى لأحد يكون قد رأى مرة في حياته ما يقرب من خمسة عشر ألف مصل في عرصة المسجد الجامع بمدينة دلهي (بالهند) يوم الجمعة الأخيرة من شهر الصيام (رمضان) وكلهم مستغرقون في صلاتهم ، وقد بدت عليهم أكبر شعائر التعظيم والخشية في كل حركة من حركاتهم . نقول : إنه لا يتأتى لأحد يكون رأى ذلك المشهد أن لا يبلغ تأثره به أعماق قلبه ، وأن لا يلحظ ببصره القوة

التى تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها . على أن توقيت الأذان اليومى للصلاة بأوقات معينة حينما يرنّ به صوت المؤذن فى أبكر البكور وقبل الإسفار ، وعند الظهيرة والناس مضطربون ومصطخبون فى أعمالهم ، وعند الإمساء ، هذا الأذن الذى يحصل فى هذه الأوقات على تلك الصورة مشحون بذلك الجلال عينه .

ومما يؤثر عن رينان[1] أيضا قوله : إنه ما دخل مسجدا مرة إلا تأثر تأثراً شديداً بل شعر بشىء من الأسف أن لم يكن مسلما . وقد كان ذلك المشهد (مشهد الصلاة) من الأسباب المساعدة على دخول رجل يهودى من أهل الاسكندرية فى الاسلام سنة ١٢٩٨ كما حكاه هو عن نفسه إذ قال : « كنت مريضا مرضا شديداً فتمثل لى فى أثنائه أن هاتفا يهيب[2] بى أن أعانق الاسلام ، ولما دخلت المسجد ورأيت المسلمين مصطفين للصلاة وقوفا كالملائكة ، سمعت فى نفسى صوتا يناديني بقوله : هذه هى الجماعة التى أنبأ بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ولما رأيت الخطيب يتقدم للخطبة وعليه رداء أسود وقع فى نفسى وجدان الرهبة والخشية ، ولما ختم خطبته بهذه الآية (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وأقيمت بعد ذلك الصلاة آنست من نفسى أنها سمت سمواً كبيراً ، فقد بدت لى صفوف المسلمين كأنها صفوف الملائكة ، وأن الله سبحانه قد تجلى عليهم فى سجودهم وركوعهم ، وسمعت فى نفسى منديا يناجيني بقوله : إن الله سبحانه اذا كان قد خاطب شعب إسرائيل مرتين فى جميع القرون الخالية ، فلاجرم أنه يخاطب هذه الجماعة فى كل وقت من أوقات صلاتهم . واقتنعت فى نفسى بأنى خلقت لأن أكون مسلما[3] » .

عبد العزيز محمد

---

(١) رينان حكيم فرنسى شهير . (٢) يهيب بى : يناديني . (٣) نقلا عن مجلة المباحث اليهودية فى عددها الثالث الصادر سنة ١٨٩٥ صفحة ١٧ — ١٨

السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لأبواب الشريعة المطهرة ، من أعمال العبادات الظاهرة والباطنة ، ولذا ابتدأ بعض المصنفين فى الحديث كتبهم به ، كأنهم يرونه من السنة بمنزلة أم الكتاب من القرآن الكريم ، وبدأ به مسلم بعد ما استوفى الكلام فى شئون الرواية والرواة ، ورواه البخارى ومسلم أيضا عن أبى هريرة ، وفى الروايتين اختلاف يسير بالتقديم والتأخير ونحوهما مما لا يختلف به جوهر المعنى

وقد تكلم العلماء كثيرا فى بيان معنى الإيمان والإسلام وهل هما متحدان فى المعنى أو متغايران ينفكان أو متلازمان ؟ بعد بسط القول فيه باستقصاء خارجا عن مقصدنا فى هذه الكلمات المنشورة للجمهور — إلا أنا لا نرى بأسا بالإلمام بطرف من ذلك لا ينبو عن متناول الأوساط ولا يعد سلوكه تعمقا .

أصل الإيمان فى اللغة : التصديق بالشيء واعتقاد النفس له مع الجزم به وعدم التردد فيه بحيث تكون النفس مذعنة مطمئنة ، يقال آمن به وآمن له اذا صدقه ووثق به . والاسلام : الاستسلام ، يقال أسلم له قياده اذا استسلم وخضع ولم يعارض . وهذان المعنيان هما المناسبان للمعنيين الشرعيين للإيمان والإسلام ، فالإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغا عن ربه مع إذعان النفس له وقبولها إياه ، أى التصديق الخالى من الإنكار والمكابرة ، والإسلام هو الانقياد لما جاء به من الأحكام والخضوع له وعدم المعارضة فيه أو الإباء لشيء منه .

ولقد جاءت النصوص فى الآيات والأحاديث دالة تارة على وحدتهما كقوله تعالى (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) ودالة تارة أخرى على تغايرهما كقوله تعالى : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) فمن هنا اختلفت كلمة العلماء فى اتحادهما وتغايرهما ، ولكن كلمتهم جميعا واحدة فى أن من اختل منه أحد

المعنيين المذكورين لا يعتبر فى نظر الشارع مؤمنا ولا مسلما ، فلا ينجيه أن يعتقد صدق الرسول فيما يبلغ عن ربه مع إبائه أن يمتثل أوامره عنادا واستكبارا ، ولا ينجيه أن يسلم قياده ويطيع أوامره وهو فى نفسه غير معتقد صدقه فى أنه يبلغ عن ربه ، فالمنافق الذى أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، والمعاند الذى يجزم فى نفسه بالتصديق ولكن تدفعه عوامل من صلف أو كبرياء أو عناد عن الإذعان للطاعة كأولئك الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الفريقان سيان فى أنهم ليسوا مؤمنين ولا مسلمين شرعا ، ولا تجرى عليهم أحكام الإسلام ، فقد قال تعالى فى المنافقين : (وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ) وقال تعالى فى لتنديد بأهل الكتاب والنعى عليهم سوء صنيعهم : (ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

ومن أجل هذا قال فريق من المحققين : إن الإيمان والإسلام وإن تغاير فى معناهما فلا يعتد بأحدهما دون الآخر ، فهما متلازمان فى الشرع وإن انفكا فى المفهوم ، فليس بمسلم شرعا من لا يكون مؤمنا ، وليس بمؤمن شرعا من لا يكون مسلما .

وليلاحظ أن معنى الإباء وعدم الإذعان للطاعة مغاير لمعنى الترك ، فربما كان الترك لكسل أو تهاون فى أداء الواجب مع الإذعان بالطاعة ، فلا يعد التارك على هذا الوجه كافرا خارجا عن معنى الإسلام والإيمان ، وإنما يسمى عاصيا وفاسقا .

ثم قد ورد فى السنة ما ظاهره ينفى الإيمان عن مرتكب الكبيرة كقوله صلى الله عليه وسلم : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) الى آخر الحديث ، فإن ظاهره يفيد انتفاء الإيمان عمن يفعل شيئا من هذا ، ولكن هذا الظاهر غير مقصود ، وإنما المراد أنه لو لاحظ المؤمن معنى الإيمان الكامن فى نفسه ، واستحضر ما يعتقده ويجزم به جزما لا شك معه من أن الله عالم به مطلع

عليه مالك بناصيته ، وهو الذى منحه القدرة التى بها يجاهر بمعصيته ويحارب ربه ، لو لاحظ هذا واستحضره لما أمكن أن يقترف من الذنوب ما يقترف ، ولكان إن لم يمنعه الخوف يمنعه الحياء ، فلا يفعل العبد ما يفعل إلا وهو غافل عن مقتضى إيمانه ، ذاهل عن حكم عقيدته .

فالإيمان المنفى حال المعصية هو الإيمان الكامل الذى يتفاوت المؤمنون فيه ، فمنهم من يكمل استحضاره وتدوم ملاحظته ، ومنهم من تستولى عليه الغفلة حتى تدركه الذكرى النافعة لتى قال فيها جل من قائل : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وهذا هو المراد فيما ورد فى شأن أبى بكر رضى الله عنه من أنه لو وزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح بها .

وأما الاعتقاد الجازم فإنه اذا نقص فيه معنى الجزم ، بدخول الشك والتردد على النفس ، كان كافرا جزما . ومن الأمثلة التى توضح هذا نوع توضيح ما يحكى أن أحد المبشرين المسيحية شاهد رجلا قد أخذ منه السكر مأخذا شنيعا ، ولمح فيه الوجاهة والترف ، فاقترب منه وقال له : «إنك خسرة فى نار جهنم ، وقد اعتنقت دينا يحرم عليك السكر ولا تستطيع القيام بما أوجبه عليك ، فلو أنك آمنت بخلاصنا المسيح الذى تحمل الخطايا عن البشر بتعرضه للصلب فداء لنا لنجوت من العذاب مهما ارتكبت من الذنوب » فحركت هذه الكلمة كامن الإيمان من نفسه ، وتنبه لما يحاك له من شرك الشرك ، فدفع المبشر فى جبهته وقال له : « نقول ربنا يغفر لنا السكر توقعنا أنت فى الكفر ؟قم . . . » فمثل هذا قد أحاطت به الغفلة حتى نبش مكمن الإحساس الدقيق منه فتذكر ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ولنرجع الى شرح الحديث ، ولاضرر فى سوق هذه الكلمة المتقدمة ، إذ كانت مما يتساءل فيه كثير من الناس ، وما نظن أن المقدار الذى أتينا به مما ينبو عن متناول الجمهور :

يقول عمر رضي الله عنه : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا رجل » الخ — قد جاء فى رواية أخرى أنه صلى الله عليه وسلم كان قد برز للناس ، ومعنى ذلك أنه جلس على هيئة متميزة عن بقيتهم بحيث يعرف القادم أنه هو صلى الله عليه وسلم دون أن يسأل ، وقد كان قبل ذلك يجلس معهم كأحدهم ، فكان القادم الذى لم تسبق له رؤيته يسألهم : أيكم رسول الله أو أيكم محمد . وسر الحالين ظاهر ، فهو يجلس معهم كأحدهم ليتعلموا منه الأدب الكامل فى أن يرعى عظيمُهم صغيرَهم ، ويظهر بمظهر المساواة لهم ، حتى تطيب نفسهم وتعظم محبتهم ، وليس أجلب لمحبة القلوب من تواضع العظيم ، وبذلك يكون لهم نعم القدوة الصالحة ؛ وكان يجلس بهيئة متميزة ليعرفه من ورد عليهم فيتجه اليه بالسؤال بدون حيرة ولا تردد ، فيسهل على مريد التعلم مقصده . وقد ورد فى بعض الروايات أنهم كانوا يرجون أن يرد بعض الأعراب ليسأله صلى الله عليه وسلم عن أشياء يريدون السؤال عنها ويمنعهم المهابة والحياء وما عرفوا من كراهيته صلى الله عليه وسلم كثرة السؤال ، فأرسل الله جبريل عليه السلام ليعلمهم آداب السؤال ، وأنه اذا كره السؤال فيما لا يتعلق به مقصد عظيم مما تطلبه شهوة العقول ، فلا حرج فى السؤال عما ينبغى علمه والإحاطة به ، وفهمه حق الفهم .

والحكمة فى مجىء جبريل عليه السلام بهذه الهيئة الحسنة من شدة بياض الثياب ، وشدة سواد الشعر ، المستغربة من جهة أنه مع وجاهته غير معروف لهم ، وليس عليه آثار السفر ، ليعظم اتجاههم اليه ، وإصغاؤهم لما يقول ويقال له ، فإن النفوس أشد مراقبة للعظيم ، وأعظم تطلعا للأمر المستغرب ، وبذلك يتمكن فى نفوسهم ما يدور بينهما عليهما الصلاة والسلام من سؤال وجواب . ويعلم من هذا أن الملائكة قوة التشكل والظهور بما يريدون .

وقول عمر رضي الله عنه : « ولا يعرفه منا أحد » يفسره ما ورد فى رواية أخرى : « فنظر القوم بعضهم الى بعض » وهذا شأن القوم الذين يرد عليهم من لا يعرفونه ،

خصوصا اذا كان موضع غرابة بكونه وجيها حقه أن يعرف ، وليس عليه آثار السفر حتى يكون جهلهم له لأنه غريب عنهم . وقوله : « حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه الى ركبتيه » — قد ورد فى رواية أخرى شرح ذلك بأنه جلس كجلوس أحدنا للصلاة ، ويفهم من هذا التأدبُ من جهة السائل ، فإن هذه الجلسة جلسة المتأدب ، والعطفُ وعدم الجفوة من المسئول المرشد ، كما يفهم من هذا القرب . وأما قوله : « ووضع كفيه على فخذيه » فيحتمل أنه وضع كفيه على فخذى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يسترعيه لناحيته ويظهر بمظهر الاقبال عليه وشدة الحرص على التلقف والتلقى منه ، ويحتمل أنه وضع كفيه على فخذى نفسه وهى حالة التأدب ، وقد ذهب الى كل من الاحتمالين بعض الشراح جازما به ، ولكل من المعنيين وجهة .

وأما قوله : « وقال يا محمد أخبرنى عن الاسلام » الى آخره ، فقد روى بدله : ما لإيمان وما الإسلام بالاستفهام بما ، وبتقديم السؤال عن الإيمان على السؤال عن لاسلام . وإن التفرقة بين طلب الإخبار عن الشىء وبين السؤال عنه بما ، إنما هو من الاصطلاحات المستحدثة ، والعرب تقول : أخبرنى عن كذا أى فسره لى وفهمنى معناه ، وهذا التفسير والتفهيم تارة يوافق الحقيقة والواقع ، وتارة يخالفهما ، فلا عجب اذا قيل للمفسر : صدقت ، متى أصاب فى التفسير ، ولا يقال : إن التفسير ليس من الأخبار التى توصف بالصدق والكذب ، ولا يقال كذلك : إن المفسر ليس مخبرا حتى يقال أخبرنى عن كذا ، فإن ذلك كله من الاصطلاحات المستحدثة ، والعرب تستعمل كلا العبارتين فى مثل هذا ، أى « أخبرنى عن كذا ، وما هو كذا » .

وقوله : « فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة » الخ — الذى فى رواية البخارى بدل أن تشهد الخ : أن تعبد الله ولا تشرك به . ومؤدى المعنيين واحد ، فإن من شهد أن لا إله إلا الله يكون

قد علم علما جازما واضحا فى نفسه كأنه يشاهده أنه لا متصرف فى الكائنات ولا مهيمن على العالم ولا مستولى على كل شىء إلا الله وحده ، فلا مستحق لأن يعبد ويخضع له ويدان له إلا الله ، فلا يَعبد إلا إياه ولا يشرك به شيئا ، ومن كان يعبد الله ولا يشرك به فهو بلا شك جازم أن لا إله إلا الله .

وقوله : « وتقيم الصلاة » الخ — هذه مكملة لأركان الإسلام الخمسة الواردة فى حديث « بنى الإسلام على خمس » . ودخول هذه الأركان فى تحقيق معنى الإسلام معناه الإذعان لها وعدم إبائها ولا رفضها ، ولا يقتضى هذا أن يكون من ترك شيئا منها مع القدرة عليه قد كفر وخرج عن الإسلام ، وإنما ذلك خاص بالشهادتين ، فهما الركن الذى من تركه مع القدرة على أدائه كان كافرا ، وإن كان عنده الجزم بصدق معناهما ، نعم إن من ترك هذه الأشياء فهو على قاب قوسين من الكفر ، فإن الرجل لا يزال يرتكب المعاصى حتى يران على قلبه فيوشك أن يدخل فى الكفر ، إن لم يكن قد دخل فيه بالفعل .

وإن من يسمع من بعض المتدهورين فى المعاصى من كلمات الاستهانة بما هم فيه يعلم حقا أن تغلغلهم فى الفسوق أشرف بهم على هاوية الكفر أو أرداهم فيه ، وهل قول القائل لمن ينصحه : « يا سيدى ابق خذنا على جناحك » إلا مظهر من مظاهر الشك وعدم الجزم ؟ : وإنك لتحتار فى شأنهم حين تقول لصاحب هذه الكلمة : « إذاً أنت لا تصدق بالله ولا بالنبى » فيفزع لهول هذه التهمة ويغضب لها ويخاصمك من أجلها ، فهذه المظاهر المتناقضة دليل الارتباك والحيرة ، ومصداق ما ورد (ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه) .

وعلى الجملة فورد الحديث فى مقام تربية النفوس على أصول الدين ، وغرس الأحكام التى تعود على الانسان بالسعادتين فى النفوس ، وما ذكرناه من عدم تكفير من ترك

شيئا منها مع الإذعان لها وعدم الإباء والرفض إنما هو فى مقام الحكم على من يحصل منه شىء من ذلك : أيحكم بكفره أم يحتفظ بإيمانه ويعدّ مسلما عاصيا فى نظر الشارع . ولقد ورد فى شعب الإيمان أنها سبعون شعبة ، وأن منها الحياء ، ومنها إماطة الأذى عن الطريق ، وهذه بلا شك لا يقال إن تاركها كافر .

وقوله : «قال صدقت ، قال فعجبنا له يسأله ويصدقه» — القائل الأول هو السائل ، والقائل الثانى هو الراوى . ووجه العجب ظاهر ، فإن كونه يسأل يقتضى ألا يكون عارفا بالمسئول عنه ، وقوله صدقت ، إنما يصدر عمن يعرف حتى يجزم بصدق المجيب ، ولم يكونوا ليعهدوا أن أحدا يسأله صلى الله عليه وسلم عن شىء إلا سؤال تعلم واسترشاد .

ولنكتف بهذا المقدار من الحديث ، وتتمة الكلام عليه إن شاء الله فى العدد التالى . والله أعلم ؟

ابراهيم الجبالى

الطرف والملح

وقع بالكوفة وباء فخرج الناس وتفرقوا فى النجف ، فكتب شريح الى صديق له خرج بخروج الناس : أما بعد فإنك بالمكان الذى أنت فيه بعين من لا يعجزه هرب ، ولا يفوته طلب ، وإن المكان الذى خلفت لا يعجل لأحد حمامه ، ولا يظلمه أيامه ، وإنى وإياك لعلى بساط واحد ، وإن النجف من ذى قدرة لقريب .

الفتاوى والأحكام

أين مقر الارواح بعد الموت

ورد إدارة المجلة السؤال الآتى :

كنت أطالع بعض موضوعات فى كتاب فتح العلام الجزء الثانى فرأيت فصلا معقودا للبحث فى روح الميت بعد انقضاء الحياة وهو كما يأتى :

« رأى جمهور المتكلمين أن الروح جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر وهو باق لا يفنى ، قال الشيخ البجيرمى : إن الأرواح خمسة أقسام : أرواح الأنبياء ، أرواح الشهداء ، أرواح المطيعين ، أرواح العصاة من المؤمنين ، أرواح الكفار .

أما أرواح الأنبياء فتخرج من أجسادها وتصير على صورة مثل المسك والكافور[1] وتكون فى الجنة تأكل وتنعم ، وتأوى بالليل الى قناديل معلقة تحت العرش . أما أرواح الشهداء اذا خرجت من أجسادها فإن الله يجعلها فى أجواف طيور خضر تدور بها فى أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتشرب من مائها ، وتأوى الى قناديل من ذهب فى ظل العرش . هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما أرواح المطيعين من المؤمنين فهى فى رياض الجنة لا تأكل ولا تنعم لكن تنظر فى الجنة فقط .

---

(١) الرواية المعروفة : أطيب من ريح المسك . وستسمعها عن أبى موسى الاشعرى فى أرواح المؤمنين .

أما أرواح العصاة من المؤمنين فبين السماء والأرض فى الهواء . وأما أرواح الكفار فهى فى أجواف طير سود فى سجين ، وسجين تحت الأرض السابعة ، وهى متعلقة بأجسادها ، فتعذب أرواحها فيتألم بذلك الجسد ، كالشمس فى السماء الرابعة ونورها فى الأرض ، كما أن أرواح المؤمنين فى عليين متنعمة ونورها متصل بالجسد » .

ثم قال : إن المحقق القسطلانى نقل عن الحافظ ابن كثير ما يفيد تمتع أرواح المؤمنين وإن لم يكونوا شهداء بالأكل والتلذذ ورؤية منازلهم فى الجنة لا بالنظر فقط . انتهى ما رأيته فى فتح العلام فيما يتعلق بروح الميت .

أرجو بيان ما هو الصحيح من هذه الأقوال ، وهل ورد نص فى الشريعة المحمدية عن صحة هذه الأقوال كلها أم عن بعضها دون بعض ؟

عطية الشوادفى هلال
بمعهد الزقازيق

الجواب

مقدمة :

ليس يهمنا الكلام فى حقيقة الروح ما هى ، ويكفينا أن نعرفها بآثارها وخصائصها ، وأنها ليست من جنس هذا العالم المنظور (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) وليعلم قبل كل شىء أنه قد صح فيما لا يحصى من الأحاديث والآثار أن الأرواح جواهر حاملة لأعراضها من التعارف والتناكر ، وأنها عارفة مميزة مدركة عالمة الى غير ذلك مما جاء فى السنة الصحيحة . ولتعلم أيضا أن الانسان لا يكاد يعرف إلا ما وقع عليه الحس ثم ينتزع منه ما قدر له من المعلومات والمتخيلات على حسب استعداده ، ثم هو بعد ذلك تارة يصيب فيما ينتزع ويستنبط ، وتارة يخطئ فيما يحدس ويتخيل ، بل نستطيع أن نقول : إن حقائق الأشياء المشاهدة التى يقع عليها الحس ويدركها الحس

لا يصل اليها الانسان تماما وإن كان يظن ذلك جهلا وتبجحا . فالعلم بكنه الأشياء على ما هي عليه من كل وجه مختص بالله تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) وقد خلقت على حد محدود فى عقلك ، كما خلقت على حد محدود فى سمعك وبصرك .

ثم هنا شيء آخر يجب التنبيه له خصوصا فى هذا المقام ، وهو أن العوالم كثيرة ، ولكل عالم منها أحكام تخصه ، ولا يصح أن يقاس بعضها على بعض ، فمن الغلط البين أن تحكم بأحكام عالم الإنس على عالم الجن ، وبأحكام عالم الجن على عالم الملائكة ، وبأحكام عالم الأجسام على عالم الأرواح ، أو تحكم بشيء من أحوال هذه العوالم كلها على إله العالم الذى ليس كمثله شيء ، بل فى عوالم الحس ما يرشدك الى هذا ، فللسوائل أحكام تغاير أحكام الجوامد ، وللغازات أحكام تغاير أحكام السائلات ، وقد عرف الآن من ظواهر الكهرباء والراديوم ما لا تكاد تصدق به إلا بالمشاهدة ، بل بين أنواع الحيوان وهو جنس واحد ما تختلف خصائصه وتتباين أحكامه ، وكم من فرق بين الحيوانات المائية وغيرها ، أو تقول بين الحيوانات الدنيا والعليا ، وكلها مخلوقة من تراب ، وقد خلق الله الانسان من سلالة من طين ، وسلط عليه الروح ، فكان له من الأحكام ما تعرف ، ثم خلق الجن من مارج من نار ، فكان لها بمقتضى ذلك ما تقضي منه العجب ، فليس يحجبها ستار ، ولا يمنعها جدار ، فلو فرضنا أن الله عز وجل — وهو على كل شيء قدير — خلق مخلوقا من الكهرباء وسلط عليه الحياة ومتعه بالشعور والإرادة والاختيار ، فماذا يكون حاله والى أى حد تنتهى عجائبه ؟ .

اذا عرفت هذا فأمر الأرواح والملائكة أعجب من ذلك كله ، لأن هذه الأشياء كلها خلقت من تلك العناصر المادية الأرضية التى تعرفها ، فما بالك بما جاوز تلك العناصر ، وعلا على تلك الظواهر ، حتى قال فيه الفلاسفة وكثير من أهل السنة كالغزالى والراغب والحليمى : إنها جواهر مجردة عن المادة وعلائقها (والله يخلق ما يشاء كما يشاء)

قلها من الأحكام والشئون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً).

ومن ظن أن أحكام الوجود كلها منحصرة فى تلك النواميس الطبيعية التى عرفها فقد جهل عظمة الله الذى لا نهاية لمقدوراته، وجهل قدر العلم الذى لا آخر له، وجهل قدر الانسان الذى قال الله فيه: إنه خلق ضعيفا، وكان ظلوما جهولا. ولنقتصر من المقدمة على هذا.

بعد المقدمة:

أما ما قاله الشيخ البجيرمى فهو منقول من بحر الكلام للنسفى على تغيير فيه، ولا حاجة للإطالة فى ذلك. وفى المسألة أقوال كثيرة لعلماء من السلف والخلف، وقبلها سنن مأثورة وأحاديث مشهورة. وسنتلو عليك شيئا من ذلك ثم نعرفك جلية الحق ووجه الجمع بين تلك الآراء المتعارضة فنقول:

يرى كثير من العلماء أن أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة شهداء أو غير شهداء اذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وهو مروى عن أبى هريرة وابن عمر. وقريب منه قول الامام أحمد فى رواية ابنه عبد الله: أرواح الكفار فى النار وأرواح المؤمنين فى الجنة لقوله تعالى: (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) ذكره تعالى بعد ذكر خروجها من البدن، وقسمها ثلاثة أقسام: مقربين فى الجنة، وأصحاب اليمين: سالمين من العذاب، ومكذبين: لهم نزل من حميم وتصلية جحيم. كما قسمها يوم البعث الأكبر يوم القيامة إلى ثلاثة أقسام فى أول السورة (الواقعة) فى قوله: (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) ولما فى الموطأ

والنسائى عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه مرفوعا « إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يبعثه الله الى جسده يوم القيامة » وأخرج عبد الله بن منده عن أم كبشة بنت المعرور قالت : « دخل علينا النبى صلى الله عليه وسلم فسألناه عن هذه الروح فوصفها حتى أبكى أهل الميت فقال : « إن أرواح المؤمنين فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة وتأكل من ثمارها وتشرب من مياهها وتأوى الى قناديل من ذهب تحت العرش يقولون ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا ، وإن أرواح الكفار فى حواصل طير سود تأكل من النار وتشرب من النار وتأوى الى جحر فى النار » وقيل : إن الذى فى الجنة الشهداء لقوله تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وروى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا : الشهداء يغدون ويروحون فى الجنة ثم يكون مأواهم الى قناديل معلقة بالعرش . وفى صحيح مسلم واللفظ له وجامع الترمذى وغيرهما عن مسروق قال : سألت عبد الله بن مسعود عن هذه الآية (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) فقال : إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرواحهم فى أجواف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة فى أيها شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل .

وأخرج أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أرواح الشهداء فى طير خضر تعلُق[1] من ثمر الجنة أو شجر الجنة » لفظ الترمذى ، وقال حسن صحيح . ولأحمد وأبى داود والحاكم وقال صحيح الإسناد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يعنى يوم أحد جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل

(١) تعلق أى تتناول . وهو بضم اللام كما فى المختار

من ثمارها وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش » الحديث . وفى بعض الآثار : فى صور طير ، وفى بعضها فى أجواف طير ، وفى بعضها كطير خضر .

وحديث كعب « نسمة المؤمن طائر » وقيل هم بفناء الجنة على بابها يأتيهم من نعيمها ورزقها ، قاله مجاهد . وقد يحتج له بما فى المسند عن ابن عباس مرفوعا : الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم بكرة وعشية من الجنة . وقالت طائفة من الصحابة والتابعين : أرواح المؤمنين عند الله . ولم يزيدوا على ذلك . وقريب منه قول حذيفة بن اليمان : الأرواح موقوفة عند الرحمن عز وجل تنتظر موعدها حتى ينفخ فى الصور . وهذا تأدب منهم مع لفظ القرآن حيث يقول : (أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وعن أبى موسى الأشعرى قال : « تخرج روح المؤمن أطيب من ريح المسك فتنطلق بها الملائكة الذين يتوفونه فتتلقاه الملائكة من دون السماء فيقولون : هذا فلان ابن فلان كان يعمل كذا وكذا لمحاسن عمله فيقولون : مرحبا بكم وبه فيقبضونها منهم فيصعدون به من الباب الذى كان يصعد عمله منه فتشرق فى السماء ولها برهان كبرهان الشمس حتى تنتهى الى العرش ، وأما الكافر فاذا قبض انطلق بروحه فيقولون : ما هذا ؟ فيقولون : فلان ابن فلان كان يعمل كذا وكذا لمساوى عمله فيقولون : لا مرحبا لا مرحبا ردوه فيرد الى أسفل الأرضين » .

وقال الامام مالك : بلغنى أن الروح مرسلة فى برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت . وهو قول سلمان الفارسى رضى الله عنه . وقال ابن حزم : إنها عند منقطع العناصر : الماء والهواء والتراب والنار ، تحت السماء ، ثم قال : ولا يدل ذلك على تماثلهم ، بل هؤلاء من المؤمنين عن يمين آدم فى العلو والسعة ، وهؤلاء من الكفار عن يساره فى السفل والسجن ، وتعجل أرواح الأنبياء والشهداء الى الجنة . وقيل : هى على أفنية قبورها . وقد ذهب اليه ابن عبد البر وقال : هو أصح ما ذهب اليه العلماء ، ألا ترى

أن الأحاديث الدالة على ذلك ثابتة متواترة كأحاديث السلام على القبور؟ يريد بالأحاديث المتواترة مثل حديث ابن عمر فى عرض المقعد على الميت ، وحديث البراء بن عازب الذى فيه « هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة » وحديث أنس بن مالك الذى فيه أنه يرى مقعده من الجنة والنار ، وأنه يفسح للمؤمن فى قبره سبعون ذراعا ويضيق على الكافر . وحديث جابر أن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فاذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان . الحديث ، وفيه أنه يرى مقعده من الجنة فيقول : دعونى أبشر أهلى . فيقال له اسكن فهذا مقعدك أبدا . وكذا سائر أحاديث عذاب القبر ونعيمه . ومراده بأحاديث السلام — وهى صحيحة — أن فيها خطاب المسلم لأهل القبور خطاب العاقل الحاضر .

تحقيق فى المسألة وجمع بين الآراء :

قال ابن القيم : وهذا القول (يعنى قول ابن عبد البر) إن أريد به أن كونها على القبور لازم بحيث لا تفارقها ، فهذا خطأ يرده الكتاب المحكم والسنة الصحيحة ، وعرض المقعد لا يدل على أن الروح فى القبر ولا على فنائه ، بل على أن لها اتصالا به يصحح أن يعرض عليها مقعدها ، فإن للروح شأنا آخر ، فتكون فى الرفيق الأعلى وهى متصلة بالبدن ، بحيث اذا سلم المسلم على صاحبها رد عليه السلام وهى فى مكانها ، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام ليلة الإسراء قائما يصلى فى قبره ، ورآه فى السماء السادسة أو السابعة ، فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر بمنزلة شعاع الشمس يكون فى الأرض وجرمها فى السماء . وهذا قول ابن عبد البر بعينه ، فإنه قال : أرواح الشهداء فى الجنة ، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورها . والمعنى أنها قد تكون على أفنية قبورها ، لا أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور . وقد قال مالك : بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت . وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله تحت العرش ثم ترد الى جسده فى أيسر زمان .

والروح المطلقة من أسر البدن وعوائقه من التصرف والقوة ما ليس لمحبوسة فى علائقه وعوائقه ، فلا يحكم على قول من هذه الأقوال بعينه بالصحة وعلى غيره بالبطلان ، بل الصحيح أن الأرواح متفاوتة فى مستقرها فى البرزخ أعظم تفاوت ، ولا تعارض بين الأدلة ، فإن كلا منها وارد على فريق من الناس بحسب درجاتهم فى السعادة أو الشقاوة ، فمنها أرواح فى أعلى عليين فى الملأ الأعلى ، وهم الأنبياء ، وهم متفاوتون فى منازلهم أيضا ، كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، ومنها أرواح فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وهى أرواح بعض الشهداء لا جميعهم ، فإن منهم من يحبس عن دخول الجنة لدين أو غيره ، كما فى المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله مالى إن قتلت فى سبيل الله ؟ قال : الجنة . فلما ولى قال : « إلا الدين ، سارّنى به جبريل آنفا » . ومنهم من يكون على باب الجنة كما فى حديث ابن عباس : الشهداء على بارق نهر بباب الجنة ومنهم من يكون محبوسا فى الأرض لم تعل روحه الى الملأ الأعلى ، فإنها كانت روحا سفلية أرضية ، فإن الأنفس الأرضية لا تجامع الأنفس السماوية ، كما أنها لا تجامعها فى الدنيا ، فالروح بعد المفارقة تلحق بأشكالها وأصحاب عملها (فالمرء مع من أحب هنا وهناك) ومنها أرواح تكون فى تنور كأرواح الزناة ، وأرواح فى نهر الدم كآكلة الربا ، فليس للأرواح سعيدها وشقيها مستقر واحد ، وكلها على اختلاف محالها وتباين مقارها لها اتصال بأجسادها فى قبورها ليحصل له من النعيم أو العذاب ما كتب له .

واذا أمعنت النظر فى السنن والآثار عرفت حجيج ذلك وأنه لا تعارض بينها ، لكن الشأن فى فهمها ومعرفة النفس وأحكامها ، وأن لها شأنا غير شأن البدن ، وأنها مع كونها فى الجنة هى فى السماء ، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه ، وهى أسرع شىء انتقالا ، وأنها تنقسم الى مرسلة ومحبوسة ، وعلوية وسفلية ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة وألم ، وما أشبه حالها فى هذا البدن بحال الجنين فى بطن أمه ، وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن الى هذه الدار :

وللنفس أربع دور كل دار أعظم من التى قبلها ، الأولى بطن الأم ، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث الثانية هذه الدار التى نشأت فيها وألفتها واكتسبت فيها الخير والشر . الثالثة دار البرزخ وهى أوسع من هذه الدار وأعظم ، ونسبة هذه الدار اليها كنسبة الدار الأولى وهى بطن الأم الى هذه التى نحن فيها . الرابعة الدار التى لا دار بعدها ، دار القرار : الجنة أو النار ، والله تعالى ينقلها فى هذه الدور طبقا بعد طبق حتى يبلغها الدار التى لا يصلح لها غيرها ، وهى التى خلقت لها وهيئت للعمل الموصل اليها . ولها فى كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى وقال ابن القيم فى موضع آخر إن الأرواح المنعمة مطلقة لا حجر عليها ، فأرواح الأنبياء فى الجنة وفى عليين ، ولكن ذلك لا يمنعها أن تكون فى السماء الأولى أو الثانية ، كما فى حديث المعراج ، وأنها حرة مطلقة تكون عند قبرها وتذهب حيث شاءت ، فالآثار فى ذلك كله صحيحة وحق لا مرية فيه . وقال الحكيم الترمذى الأرواح تجول فى البرزخ فتبصر أحوال الدنيا وأحوال الملائكة تتحدث فى السماء عن أحوال الآدميين ، وأرواح طيارة الى الجنان الى حيث شاءت ، على أقدارهم من السعى الى الله تعالى أيام الحياة . وذكر البيهقى فى كتاب عذاب القبر أنه لما توفى ابراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن له مرضعا فى الجنة » وهو فى الصحيح ، ثم قال : فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنه ابراهيم بأنه يرضع فى الجنة وهو مدفون بالبقيع فى مقبرة المدينة .

ولنختم مقالنا هذا بما أخرجه ابن أبى الدنيا من مرسل سليم بن عامر الجبائى مرفوعا : أن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه اذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى اذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع الى مكانه ، وكذا المؤمن يجزع من الموت فاذا أفضى الى ربه لم يحب أن يرجع الى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع الى بطن أمه .

ويكفى هذا وإن كان قليلا من كثير ؟

يوسف الدجوى

من هيئة كبار العلماء

الاخوة الاسلامية - ودار الاسلام

ورد إدارة المجلة السؤالان الآتيان :

السؤال الأول — ما حقيقة الأخوة الاسلامية المرادة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ؟ .

السؤال الثانى — ما حقيقة معنى دار الاسلام وحق المسلم فيها وإن لم تكن هى وطنه ؟ فهل له أن يتمتع بحقوقها كما يتمتع بها أى مسلم هو وطنيها ؟ والذى دعانى مع بعض إخوانى الى طلب معرفة الحقيقتين هو ما نراه اليوم من فوضى المعاشرة بين أكثر إخواننا المسلمين على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وانحرافهم عن جادة الصواب فى معاملة بعضهم بعضا على حسب معنى الأخوة الاسلامية فى هيئاتهم الاجتماعية ، فكأنهم بهذا الانحراف ما أدركوا معنى الأخوة الاسلامية التى قررها الله لهم ، أو أنهم أدركوه لكنهم يتعامون ويتجاهلون عنه ، أو يتساهلون فى اعتبار أهميته للجامعة الاسلامية .

ومما دلنا على حصول الانحراف الكلى منهم هو أننا نرى الافريقيين المسلمين متى رأوا مسلما هنديا لا يعتبرونه أخا لهم لأنه آسيوى ، ويعتبرون أى أفريقى من مواطنيهم أخالهم وإن كان وثنيا أو مرتدا عن دين الاسلام، ونراهم يعاضدونه ويساعدونه فى كل ما يحتاج اليه من المساعدة ، ويخذلون أى مسلم لم يكن مواطنا لهم ، وكذلك نرى المسلم الآسيوى لا يعتبر المسلم الافريقى أخا له ، بل يعتبر كل آسيوى أخا له وإن خالفه

فى دينه الاسلامى. فهل هذه المعاملات والوطنيات التى نراها فى أيامنا هذه تطابق معنى الأخوة الاسلامية فى شىء؟ أفيدونا رحمكم الله تعالى بتوضيحكم الجواب ؟

برهان بن محمد مكلا
مدرس العربية بمدرسة الحكومة — زنجبار

الجواب

أبدأ الكلام على إجابة هذه المسائل بكلمة إجمالية عن الإيمان والاسلام ليتضح الجواب عما سأل عنه فأقول :

الإيمان هو تصديق النبي صلى الله عليه وسلم فى كل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة. والقصد الإذعان والقبول بما جاء به مع الرضا الذى لا يصحبه كبر ولا عناد. وإقرار اللسان بما أذعن به القلب أمر لابد منه.

أما الإسلام فهو الانقياد والخضوع للألوهية، ولا يتحقق إلا بقبول الأوامر واجتناب النواهى، ولا ينفك الإسلام المعتبر شرعا عن الإيمان، ولا الإيمان عن الاسلام، فلا يوجد مؤمن غير مسلم، ولا مسلم غير مؤمن. وثمرات الاسلام تظهر بالقيام بالأوامر كالنطق بالشهادتين، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج، وما الى ذلك من بقية الأوامر.

والإيمان متى تحقق من شخص ترتب عليه حكمه، وهو عصمة النفس والمال، قال عليه الصلاة والسلام : « نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ».

وهذه العصمة حق لمن أسلم على سائر المسلمين، فليس لمسلم كائنا من كان حق فى أن يعتدى على مسلم آخر فى نفسه أو ماله، لا فرق فى ذلك الحق بين رفيع ووضيع

وسيد ومولى ، وغني وفقير ، وعظيم وحقير. وعلى الجملة فإن دخول الشخص ساحة الدين الاسلامي وتصديقه التصديق الذي بيناه يجعله متمتعا بكل حق أوجبه الله للمسلم على المسلم ، ومترخصا بكل رخصة رخص الله فيها للمسلمين ، ومطالبا بكل حق أوجبه الشرع كذلك ، وهذا الحكم عام للمسلمين طرا لا يختلف الحال فيه باختلاف مناطق إقامتهم ، فسواء فيه العجمي والعربي والأمريكي والأوربي ما دام الكل مسلماً .

أما دار الاسلام التي سألت عنها فالجواب عليها يتبين لك من الآتي :

بعث صلى الله عليه وسلم هاديا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ولقد قام صلى الله عليه وسلم بالدعوة الى التوحيد ، فدعا الناس الى الهداية والخروج من الظلمات الى النور وصدع بأمر ربه ، ولاقى في ذلك من الشدائد ما لاقى ، ولم يثنه عن الدعوة ما كان يلقاه ، فاستمر يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل بالتي هي أحسن ، ويدافع ويذب لحماية الدعوة الى الحق ، حتى أكمل الله على المسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ، ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما يدعو الى النجاة الى أن انتقلت روحه الشريفة الى الرفيق الأعلى ، فقام أصحابه من بعده يدعون الى ما كان عليه الصلاة والسلام يدعو اليه ، ويقاتلون في سبيل نصرة الاسلام حتى سطعت شمس الدين الاسلامي على أكثر أنحاء المعمورة ، وانتشر الاسلام بسرعة لم يكن لها نظير في التاريخ ، فانتقل الاسلام من جزيرة العرب الى غيرها ، واستولى المسلمون على كثير من الممالك كالفرس والشام والعراق ومصر . ولقد كانت أم القرى (مكة) أول بلدة مهمة فتحها المسلمون تحت قيادة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فانتقل الحال فيها من شرك بالله الى إيمان بالتوحيد ، وجرت فيها الأحكام الاسلامية من رجم وقطع وقصاص ، ومن عبادات ومعاملات ، وزالت تلك الأحكام التي كان يدين بها مشركو العرب ويتحاكمون اليها . ثم تتابعت الفتوح واتسع نطاق الاسلام ، وبحكم الفتح دخلت هذه الممالك تحت سيطرة

المسلمين وسلطانهم ، وكانت الولاية فيها لخليفتهم ، فأجرى فيها أحكام الاسلام وصارت هذه البلاد بلاداً إسلامية ، ومن هنا قال الفقهاء رحمهم الله : إن دار الاسلام هى التى تجرى فيها أحكام الحنيفية السمحة ، وتعتبر بالنسبة لسائر المسلمين بلداً واحدا ، وبعبارة أخرى : دار الاسلام هى الاقليم الواقع تحت ولاية ملك مسلم تجرى فيه أحكام الاسلام من عصمة النفس والمال ، وإقامة العدل ، ومعاقبة الجناة ، وكبح جماح لظلمة ، ورد يد الطغيان ، وما الى ذلك من بقية أحكام الدين الاسلامى .

فكل مملكة من الممالك العالمية جرى الأمر فيها على الوصف الذى قدمناه ، تعتبر دار إسلام ، وإن اختلفت هذه الممالك باختلاف الملك والمنعة ، إذ لا عبرة باختلاف الدار فى حق المسلمين بعضهم مع بعض ، لأن حكم الاسلام يجمعهم ، فالممالك الاسلامية كلها فى حكم المملكة الواحدة : لكل مسلم فيها ما لبقية المسلمين من أهلها من الحقوق التى أوجبها الشارع كعصمة النفس والمال ، ورد المظالم ودفع الغائلة ، ولا دخل لاختلاف الأقاليم والممالك — متى كانت إسلامية — فى التمايز بين المسلمين فى المعاملة الدينية .

فالمسلم الأسيوى والمسلم الأفريقى سواء فى الحكم الاسلامى فى أى دار من دور الاسلام ، لأن الاسلام آخى بينهم ، وأخوته فوق كل اعتبار ، وقد نص الفقهاء رحمهم الله على أن اختلاف الدارين لا تأثير له بين المسلمين ، وأن التوارث يجرى بينهم وإن اختلفت الدار باختلاف الملك والمنعة ، فأهل العدل مع أهل البغى يتوارثون فيما بينهم ، لأن أحكام الاسلام تجمعهم ، وبالأولى يتوارثون اذا كان الكل من أهل العدل ، كإيران ومصر والأفغان والحجاز ، فمن مات من المسلمين بإيران يرثه قريبه المسلم المصرى .

وسماحة الدين الاسلامى تأبى التفرقة فى الحكم بين مختلفى الوطن ما داموا مسلمين ، بل تأبى سوء المعاملة المخالف فى الدين ما لم يكن حربا على المسلمين . ومن المعلوم أن من أخص صفات الاسلام أن الدين جعل لأهل الذمة ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وحض

على التمسك بأهداب الفضيلة حتى مع الأعداء عند المعاهدة أو الموادعة . والدين الذى يوجب القصاص فيقتل المسلم بالذمى والحر بالعبد حقنا للدماء وصيانة للأنفس ، لا يبيح لأهله أن يتفرقوا شيعا مهما اختلفت الدار ، ولا يجيز لأهله أن يعاملوا بعضهم بعضا معاملة غير جائزة ، فليس من الجائز فى الدين أن يعامل مسلمو أفريقية مسلمى آسيا معاملة لا يرضونها لأنفسهم متذرعين بأنه ليس مواطنا لهم ، فإن ذلك من حمية الجاهلية التى نعاها الله على مشركى العرب ، ولأن المسلم من أية قبيلة أو أية قارة أخ للمؤمن فى الدين ، لأن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاحق ما إن لم يفضل الأخوة النسبية لم ينقص عنها ، وأخوة المؤمن للمؤمن معناها أن كلا منهما انتسب لأصل واحد هو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ، والذى هو جماع الفضل ، ومكارم الأخلاق ، ومنشأ المجد والسؤدد .

وقد أوجب الدين الاسلامى على المؤمن لأخيه المؤمن حقوقا كثيرة تكفل الكتاب العزيز والسنة الشريفة ببيانها ، وإنا ذاكرون لك البعض من ذلك لتعلم منها سماحة الاسلام ، فمن ذلك ما جاء فى الكتاب العزيز جليا واضحا فى الآية التى نتلوها عليك ، قال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ . يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

ومن الحقوق صون النفس والمال والعرض ، ورد الظلم ، والنضال دون أخيه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وألا يؤذيه بقول ولا بفعل ، وقد ورد فى الحديث الصحيح « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ومن أهم الحقوق المؤمن على أخيه المؤمن الوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، والعفو عن الزلة ، والتصديق فى الحديث ، وستر العورة والنصح له اذا استنصحه ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ويكره له ما يكرهه لها ، وأن يوقره ويجله وينزله المنزلة اللائقة به ، ولا يجبهه ولا يكذبه ما دام لم يجرب عليه كذبا ، ويتواضع له ولا يتكبر عليه ، ولا يصغى لسماع كلام الناس فيه ، ويترك هجره ويقيل عثرته ، وما الى ذلك من الحقوق والآداب .

وصفوة القول أن المسلم يجب عليه درء المضرة عن أخيه المؤمن ، وأن يعمل على جلب المنفعة له ، وقد ندب الدين الى التآخى بين المسلمين تقوية للرابطة بينهم ، وزيادة فى تمكين قوة الاسلام وإعزازها ، فآخى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وبين أبى بكر وعمر ، وبين غيرهما من بقية أصحابه . ولا يخفى ما فى الإخاء من التناصر ، لأنه معاهدة بين شخصين أو أشخاص على التمسك بالفضائل ونبذ الرذائل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعمل على كل ما يرقى من شأن المتعاهدين ويزيد قوتهم وألفتهم ومحبتهم ، وبدهى أن هذا الصنيع بين جماعة المسلمين من شأنه التقريب بينهم ، ووقوف كل منهم على حال الآخر وشئونه ، فيتلافى الكل النقص ويرأبون الصدع ويممون المصلحة ، وفى هذا من الفوائد ما لا يستهان به ، وكل الذى ينبغى فى التآخى دينة هو أن يتخير الانسان أن تكون مؤاخاته لقوم متصفين بالعقل يفهمون الأمور على ما هى عليه ، لهم من حسن الخلق ما يمنعهم عن النقائص ، وأن يكونوا معروفين بالصدق والأمانة والشجاعة ، والوفاء والكرم ، وعلو الهمة وعظم المروءة ، غير فاسقين ولا مبتدعين ، وأن يكون أساس المؤاخاة جلب المنافع ودرء المضار ، دون تعد على حق الغير ومن غير إخلال بالواجبات الدينية أو الدنيوية .

من هذا تعلم أيها السائل أن ما يعمله أهل الأقاليم والقارات من التباين والاختلاف وسوء المعاملة على الوجه الذى ذكرت فى سؤالك، ليس من الدين الاسلامى فى شىء. وإذا أضفت الى ما قدمناه لك ما هو معلوم من سماحة الاسلام والمسلمين مع أهل ذمتهم ومن وادعهم أو جاورهم من أهل الملل الأخرى، وما كان عليه خلفاء المسلمين من الثقة بأهل الذمة ثقة لا تقل عن ثقتهم بأخيهم فى الدين، تلك الثقة التى كانت سبباً فى تقريبهم وإعطائهم المناصب الكبيرة فى الدولة والأخذ برأيهم فى مهام الأمور، لم نتوقف عن الجزم أن الحال التى وصفت فى سؤالك حال بعيدة عن الدين وعن تعاليمه وإرشاداته، بل الجزمت بأن حال المسلمين الذين ذكرت حال لا يحسن السكوت عليها، ويجب استئصال هذه الأوصاف المباينة للدين ولسماحته من أنفسهم بإرشادهم الى ما دعا اليه دينهم من التلطف والسماح والبر والمعروف وحسن المعاملة مع من ليس متفقا معهم فى الدين فضلا عن أخيهم فيه، قال الله تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ).

وكيف يستبيح لنفسه من آمن بالله واليوم الآخر أن يتناسى ما طلبه الله سبحانه وتعالى الى المسلمين كافة من التعاون على البر والتقوى وترك التعاون على الإثم والعدوان بقوله تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ) وكيف يقدم مسلم على نبذ مسلم لمجرد اختلافهما فى الوطن دون أن يكون قد انحرف عن جادة الصواب ولم يدرك معنى الأخوة فى الإيمان، أو يكون قد أدرك ولكنه تجاهل لغرض؟

وأين هؤلاء من قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»؟ وأين هم من فعله صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين تأليفا لقلوبهم؟ فلقد كان عليه الصلاة والسلام يكرم الوفود التى كانت تفد عليه وينزلهم منازلهم

اللائقة بهم ولم يكن لهم بعدُ شرف الاسلام ؟ وأين هم مما كان عليه السلف الصالح في صدر الاسلام من سماحة وكرم ؟ وإن منهم من كان يخرج عن ماله جميعه لمصلحة المسلمين أينما كانوا وفي أي مكان حلوا ، ومنهم من حبس ماله لأبناء السبيل ووقفه على فقراء المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا .

وصفوة القول أنه لا يجوز لمسلم أن يخذل مسلما ويترك معاونته ومساعدته لمجرد اختلافهما في الوطن ، كما أنه لا يجوز لمسلم أن يعاون مرتدا عن دينه لمجرد أنه يشاركه في الوطن ، لأن معاونة لمرتد عن دينه أيا كانت جنسيته لا تجوز شرعا . والله الموفق م؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقاً

الظرف والملح

لما ظفر الحجاج بعمران بن حطان الشارى قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئسما أدّبك أهلك ياحجاج : كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتني به ، أبعد الموت منزلة أصانعك عليها ؟ فأطرق الحجاج استحياء وقال : خلوا عنه ، فخرج الى أصحابه فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع الى حربه معنا . فقال : هيهات : غلّ يداً مطلقها ، وأسر رقبةً معتقها ؛ وأنشد :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه	بيد تقر بأنها مولاته
إني إذاً لأخو الدناءة والذي	عفّت على عرفانه جهلاته
ماذا أقول إذا وقفت موازيا	في الصف واحتجت له فعلاته
وتحدث الأكفاء أن صنائعا	غرست لديّ فحنظلت نخلاته
أأقول جار عليّ ؟ إني فيكمُ	لأحق من جارت عليه ولاته
تالله ما كدت الأمير بآلة	وجوارحي وسلاحها آلاته

الاجتهاد — والتقليد

وورد السؤال الآتى :

هل يجوز للعالم أن يُفتى على كل مذهب ولو بطريق الاجتهاد، ومع كونه فى الأصل مقلداً ومن شأن المقلد أن لا يخرج عن قول إمامه؟ وإذا فرضنا أنه مجتهد وقد أفتى بما يخالف الأئمة الأربعة أو أصحابهم بالاستنباط من الكتاب أو السنة بأقوال وأحكام لم تظهرها الأئمة وأصحابهم فى عصرهم ولا علماء السلف.

ثم هل يكون مصدقا فى دعواه الإفتاء بطريق الاجتهاد المطلق منتسبا أو غير منتسب، مع أننا وإياكم نعرف أنه لم يدع الاجتهاد المطلق غير المنتسب بعد الأئمة الأربعة إلا الامام محمد بن جرير الطبرى ولم يُسلم له، ونعرف نحن أيضا أن المجتهدين اجتهادا مطلقا منتسبا هو ما كان عليه أصحاب الأئمة الأربعة مثل أبى يوسف وابن القاسم وأشهب والمزنى وغيرهم، ومع ذلك نعرف نحن وأنتم أيضا أنهم لم يخرجوا عن قول أئمتهم وفتواهم وتآليفهم؟

ثم إنهم كانوا يستنبطون الأحكام بطريق النقل وبطريق الكشف عن النبى صلى الله عليه وسلم، ويلتمسون النظر إلى عين الشريعة ذوقا وكشفا، ولكن الآن نبحث عن علماء الخلف فنجد منهم من يدعى الاجتهاد، فنجده يلحد فى الكتاب، ويبيح ما هو حرام ويحرم ما هو مباح، ومنهم من يتخذون الرأى والقياس يحلون به ما يشتهون ويُبيحون به ما يتلذذون، ومنهم من يفتون العوامّ فى أمر دينهم بدون قيد ولا حد يقفون عنده ولا شرط.

نرجو من فضيلتكم التحقيق فى هذا الموضوع والإجابة بما يبين لنا كيف كان علماء السلف واجتهادهم وكشفهم ونقلهم ، والفرق بينهم وبين علماء الخلف وقياسهم وآرائهم ، وما نأخذه من علماء الخلف وندين الله تعالى به ، والفرق بين فتواهم وفتوى السلف رحمهم الله . وفقكم الله للعمل بما فيه رضاه ؟

عبد المحسن عبد الحفيظ القصراوى
إمام وخطيب مسجد سيدى زايد بحزب العزب

الجواب

الاجتهاد مأخوذ من الجهد والمشقة . وفى لسان الفقهاء : بذل الطاقة والوسع فى تحصيل حكم شرعى عملى بطريق الاستنباط . ولا ينال مرتبة الاجتهاد إلا من اتصف بالصفات الآتية :

الأول — أن يكون ذا فطنة تمكنه من استنباط الأحكام الشرعية .

الثانى — صحة إيمانه بمعرفة البارى سبحانه وتعالى وبصفاته ، وتصديق النبى صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند الله .

الثالث — أن يعرف الكتاب (القرآن) بمعانيه لغة وشريعة ، أما لغة فبأن يعرف معانى المفردات والمركبات وخواصها فى الإفادة ، فيفتقر الى اللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان ، ما لم يكن يعرف ذلك سليقة . وأما شريعة فبأن يعرف المعانى المؤثرة فى الأحكام ، ويعرف أقسام اللفظ من خاص وعام ومشترك ومجمل ومفسر ومشكل ومحكم وخفى ونص ومؤول وما الى ذلك من الأقسام ، ويعرف حكم كلٍّ بحيث يتمكن من الرجوع الى ما يحتاجه عند طلب الحكم .

الرابع — أن يعلم السنة : متنها وهو نفس الحديث ، وسندها وهو طريق وصولها إلينا من تواتر أو شهرة أو آحاد ، ويعلم حال الرواة والجرح والتعديل . والغرض

من معرفة متن السنة معرفة معانيه لغة وشريعة على السنن الذى تقدم فى معرفته بالكتاب .

الخامس — معرفة وجوه القياس بشرائطها وأحكامها وأقسامها والمقبول منها والمردود ليتمكن من الاستنباط الصحيح .

السادس — أن يكون على علم بمسائل الإجماع حتى لا يفتى بخلاف ما وقع الإجماع عليه .

السابع — أن يكون عالما بالناسخ والمنسوخ بحيث لا يخفى عليه شيء من ذلك مخافة أن يقع فى الحكم المنسوخ .

الثامن — أن يكون عدلا ، وهذا شرط لقبول فتواه لأنه لا يقبل قول الفاسق فى الديانات .

التاسع — ألا يكون الاجتهاد فى مقابلته قاطع من نص أو إجماع . وهذا الشرط شرط لجوازه وحده ، ومنه يعلم أن المجتهد فيه هو الحكم الشرعى العملى الذى ليس فيه دليل قاطع ، وأنه لا يحل الاجتهاد فى مقابلته قاطع من نص أو إجماع .

ومتناول الاجتهاد الأحكام الخمسة ، من حيث الحكم المتعلق به ، فيكون واجبا عينيا على المسئول فورا ، سواء فى حق نفسه أو فى حق غيره اذا خاف فوت الحادثة على غير الوجه الشرعى ، أو نزلت به الحادثة بهذا الشرط وكان يعلم الجواب والصواب ؛ ويكون واجبا كفائيا لو لم يخف فوت الحادثة على غير الوجه الشرعى ، فمتى أفتى مجتهد فى الحادثة سواء أكان هو المسئول أو غيره من باقى المجتهدين ، سقط الوجوب عن الكل لحصول المقصود ؛ ويكون مندوبا اذا كان فى حكم شرعى من غير سؤال فيه أو مع السؤال ، لكن قبل نزول الحادثة ؛ ويكون حراما وهو ما اذا تناول البحث فى مقابلة دليل قاطع من نص أو إجماع .

هذه هي الشروط التي يجب أن تتوافر حتى يتحقق الاجتهاد . وأنت خبير بعد اطلاعك عليها أن تحققها أو بعضها غير متيسر الحصول الآن ، لانصراف الناس عن تعلم العلوم الدينية واشتغالهم بالعلوم الآلية ، ومن اشتغل منهم ببعض العلوم الشرعية فإنما يشتغل بالنزر القليل ، ويا ليته يشتغل به ليعلمه ، بل إنما يشتغل به ليكون طريقا للكسب ، وقلّ في الناس من يتعلم العلم للعلم ، أو يبحث مسألة من المسائل قاصدا الوصول لى حق يقرره أو صواب يدعو اليه .

ولا يستثنى من هذا إلا علماء الأزهر ، فإنهم والحمد لله يشتغلون بمسائل الفقه والأصول والتفسير والحديث ، ويشتغلون بالوسائل اليها ، ولكنهم وهم على ما نعلم من علم لقواعد الأصول ومعرفة لمسائل الفروع لم يدع أحدهم أنه مجتهد في مذهبه ، فضلا عن أن يدعي أنه مجتهد مطلق . وإنك لتراهم ولا سيما خاصتهم كمشايخ الجامع وغيرهم ممن ماثلهم على سعة اطلاعهم وعلو كعبهم في العلوم الدينية لا يخرجون عن المنقول في مذاهبهم في المسائل الدينية الشرعية ، وهذا منهم — حفظهم الله — معرفة بقدر الأئمة المجتهدين وما بلغوا من رتب عالية ودرجات سامية في العلم والتقوى والورع . هذه المعرفة بقدر الأئمة جعلت هؤلاء السادة يرون أن لا يلج هذا الباب إلا من بذل الوسع حتى صار على بينة من الكتاب والسنة ، وعرف مآخذ الأدلة وأحاط بالمسائل وعللها وما أجمع عليه منها ، وحقق ودقق وراض نفسه على البحث والتنقيب حتى أحاط بدقائق العلوم ، وعرف تاريخ التشريع .

لهذا لم يدع أحد من مشايخنا الاجتهاد . واذا كان مثل الامام الغزالي يرى أن الزمن خلا عن المجتهد ، فهل يكون من المستطاع أن يدخل في روعك أو يختلج في صدرك أن في هذا الزمان من توافرت فيه بعض الشروط فضلا عن تمامها ؟ لا سبيل الى الجزم بهذا وحال الناس هو ما عرفت ، وأكثر أبناء الأمم ممن يقصدون

دور العلم إنما يقصدونها للحصول على شهادات تمكنهم من الاستخدام ، حتى إن كثيرا ممن ينتسبون الى العلم أصبح شغلهم الشاغل هو التوظف ، وقصدهم مما يتعلمونه من المسائل على قلتها وعدم التعمق فى بحثها الربح وجمع المال .

أما ما يتمشدق به المغرورون ممن ينسبون أنفسهم الى العلم وهو برىء منهم فلا قيمة له . وإذا أنت تأملت فى حال هذه الفئة وما هى عليه من قصور فى المدارك وتقصير فى معرفة المسائل ، جزمت بأن ما يدعيه هؤلاء من اجتهاد لا سبيل له من الصحة ، وأن دعاواهم باطلة لا يستطيعون سوق البرهان عليها ، وحسبك فى بطلان دعواهم أنهم ليسوا على شىء من العلم ولا الخلق ، وأنهم لا يفقهون من كتاب الله ولا سنة رسوله لا قليلا ولا كثيرا ، ولا ملكة لواحد منهم على تفاهم معانى الكتاب وخواص تراكيبه ، وليس فيهم من يعرف أسباب النزول ولا تاريخ الوقائع ولا الناسخ ولا المنسوخ ، بل لا أكون مبالغا اذا قلت : إنه ليس فيهم من يحفظ كتاب الله فضلا عن السنة المطهرة .

وقد علمت أن من الشروط معرفة السنة متنا وسندا ، وحال هؤلاء المغرورين هى ما وصفت لك من بعد عن الكتاب العزيز ، وهم أبعد ما يكون عن الحديث متنا وسندا ، وليس فيهم من يعرف الجرح والتعديل ، بل إن بعض هؤلاء لا يحسن قراءة أسماء الرواة . وقد اكتفى هؤلاء من العلم بقولهم . هذا غير مفهوم ، وذاك غير معقول ، وما الى ذلك من ألفاظ جوفاء ، فهل هؤلاء وهذا حالهم يستطيعون فهم كتاب الله واستنباط الأحكام منه ؟ وهل يكون قريبا من العقل وحال الكثرة الغالبة من الناس ما شرحناه قبلُ أن يتصور وجود مجتهد فى هذه الأزمان التى انصرف الناس فيها الى الماديات تاركين العلم ينعى أهله ويبحث عنهم فلا يكاد يهتدى إلا الى النزر اليسير ممن هداهم الله ؟

وإن الإنسان لتأخذه الدهشة وتملك لبه الحيرة من دعاوى أدعياء العلم الذين لا يميزون بين غث القول وثمينه ، فتراهم وهم على هـذه الحال التى وصفنا يدعون معرفة حقائق الأشياء وهى بعيدة عن مداركهم . وكيف نسمع دعاوى أمثال هؤلاء الاجتهاد ومنهم من لا يحسن المراجعة فى مراجع اللغة ، ولا فهم التراكيب البلاغية ، ولا يكاد يفرق بين الحقيقة والمجاز ؟ ! وقد علمت أن الشرط فى المجتهد أن يكون على علم تام بمعانى المفردات والمركبات وخواصها فى الإفادة . وكيف يسمع لأمثال هؤلاء أنهم مجتهدون ومن الشروط الأساسية لقبول الاجتهاد أن يكون المجتهد تقيا عدلا بعيدا عن الهوى ، وهؤلاء المدعون لا يتحرون الصدق ولا يتورعون عن المخالفات ، ولا يرغبون عن مساءة ، ولا يتحرجون عن المؤثم ، والويل لمن رام هدايتهم الى الطريق السوى ، فإنهم يحاربونه بكل أنواع البلايا .

اذا تبين هذا تبين لك أن دعوى الاجتهاد الآن غير مقبولة ، فلا يسمع من أحد من الناس أنه مجتهد مطلق ، ولا عبرة لدعواه ، ولا يعول على فتواه ما دامت تخالف أقوال المجتهدين . أما أن عالما من العلماء يحيط حفظا وضبطا لمسألة من مسائل الفقه فى مذهب الامام أبى حنيفة ، ويحيط بها كذلك فى مذهب الشافعى ، فاذا سئل عنها فى المذهبين فنقل النص الراجح فى المذهب على وجه الصحة ، وكان عدلا غير متهم فى النقل ، فلا مانع من ذلك شرعا ، وليس تقليده لإمام من الأئمة بمانع من تقليده لإمام آخر فى حادثة أخرى ، كما أن التزامه بمذهب لا يمنع من أن يكون على علم ومعرفة لمذهب آخر ، فيفتى فيه ناقلا القول الراجح .

أما من ذكرتهم فى آخر سؤالك وسميتهم علماء وقلت إنهم يلحدون فى الكتاب ، فهؤلاء ليسوا بمسلمين ، فأول شروط الاجتهاد مفقود فيهم ، وهم بناء على وصفك إياهم بأنهم يحرمون الحلال يكونون قد خرجوا عن دين الاسلام ، لأن تحريم الحلال كفر ،

ومن كان هذا شأنه فالواجب تحذيره بما نص عليه الكتاب والسنة وخرجه الأئمة . ودعوى هؤلاء الاجتهاد وهم على ما ذكرت من وصف وأبنت من حقيقة دعوى لا نصيب لها من الصحة ، والواجب على كل مسلم أن يحول بينهم وبين العامة حتى لا يفسدوا عليهم دينهم لأنهم أضر على الدين من أعدائه ، ويحرم على المسلمين أن يسألوهم عن أى حكم أو يأبهوا لقول من أقوالهم . وإن من دواعى الأسف أن كثر هؤلاء فى كل ناحية ، وكثرت مزاعمهم ، وعلة ذلك تفشى الجهل فى المسلمين ونبذهم الأخذ بالتعليم الدينى ، حتى صار يدعى العلم من ليس من أهله .

وصفوة القول أن هؤلاء ليسوا من أهل الدين حتى يستفتوا فيه ، وها نحن أولاء نسوق اليك أيها السائل حكم التقليد فى المسائل الفرعية والواجب على المقلد فنقول :

التقليد :

التقليد هو العمل بقول من ليس قوله إحدى الحجج بغير حجة . فالعمل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس تقليداً ، والعمل بالإجماع ليس تقليدا . والتقليد يجب على غير المجتهد فى المسائل الشرعية الفرعية ، لقوله تعالى : (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وهو عام فى جميع من لا يعلم ، فيجب عليه سؤال من يعلم . وقد جرى الناس منذ فجر الاسلام الى اليوم على استفتاء غير العالم للعالم من غير نكير ، وليس لازما أن يكون المسئول مجتهدا مطلقا ، بل يجوز لمجتهد المذهب (وهو المطلع على مآخذ الأحكام الذى له ملكة الاقتدار على استنباط الفروع من الأصول التى مهدها إمامه) أن يفتى فيما يسأل عنه بمذهب إمامه من غير نقل لكلام إمامه ، وتقبل فتواه لدى الناس متى كان معروفا بالعلم والعدالة ، وقد انعقد الإجماع على ذلك ، فقد أفتى العلماء وإن لم يكونوا مجتهدين اجتهادا مطلقا فى جميع العصور من غير اعتراض . أما المفتى الذى يفتى بنقل ما حفظه أو وجده فى كتب المذهب من نصوص ، فهذا

ناقل لا يشترط فيه إلا ما يشترط فى الراوى من العدالة والضبط والحفظ . وإن الواجب على المفتى أن يفتى بالراجح ، ولا يجوز له الإفتاء بالمرجوح ، لأن العمل بالمرجوح اتباع للهوى ، واتباع الهوى محرم شرعا . ومن اكتفى بأن تكون فتواه أو عمله موافقا لقول أو وجه فى المسألة من غير نظر فى الترجيح ، فقد جهل وخرق الإجماع . وينبغى ملاحظة أن يكون الترجيح صادرا من أهله ، ولا يكفى صدوره من أى عالم كان . ولابد للمفتى أن يعلم حال من يفتى بقوله ، بأن يعرف حاله فى الرواية ، ودرجته فى الدراية ، وطبقته من الفقهاء ، ليكون على بصيرة وافية فى التمييز بين الأقوال المتخالفة والآراء المتعارضة . ولا يخفى أن الفقهاء طبقات ، منهم طبقة المجتهدين اجتهاداً مطلقا ؛ ومنهم طبقة المجتهدين فى المذهب ؛ ومنهم طبقة المجتهدين فى المسائل التى لارواية فيها عن صاحب المذهب ؛ وهؤلاء لا يخالفون إمامهم لا فى أصول ولا فى فروع ، ولكنهم يستنبطون الأحكام من المسائل التى لا نص فيها عنه على حسب الأصول التى قررها ، ومقتضى القواعد التى بسطها . وهناك طبقات أخرى ، أدونها طبقة المقلدين الذين لايقدرون على التمييز بين الغث والثمين ، وهؤلاء لا يجوز تقليدهم ولا الأخذ بآرائهم .

وصفوة القول أن الواجب على من نصب نفسه للفتيا على مذهب إمام أن يتبع الراجح من الأقوال ، وأن يعرف مراتب الترجيح قوة وضعفا ، وأن يتثبت فى الإجابة ولا يجازف فيها ، خوفا من الافتراء على الله بتحريم حلال أو تحليل حرام ؛ وأنه يحرم اتباع الهوى والتشهى .

من هذا يتضح أن من يتعرض للفتيا بغير أن يتحقق فيه ما سبق ، لا يؤخذ بفتواه ، ولا يعتمد على قوله . كما أنه لايعتمد على ما يفتى به كثير من الناس بمجرد مراجعة كتاب من الكتب المتأخرة التى ليست محررة دون الاطلاع على المآخذ

والتثبت من الصحة ، إذ كثيرا ما يقلد الساهون الساهين ، وكثيرا ما يكون النقل الأول خطأ .

وإذ قد علمت ما شرحناه قبلُ سهل عليك فهم أن من يتعرض للفتيا ممن ذكرت فى سؤالك ليس أهلا للفتوى ، ولا عبرة برأيه ولا قوله ، وأن الواجب على المستفتى أن يسأل من هو معروف بالعلم والعدالة والتقوى والورع ، ومعرفة ذلك واضحة وميسورة . والله أعلم ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً

اخبار انتشار الثقافة الاسلامية

فى الخارج (1)

ظهرت حديثا رسالة قيمة باللغة الألمانية فى تراجم حياة عظماء الشرقيين اسمها « مجموعة التراجم الشرقية » واشترك فى وضعها كل من الأساتذة « فيست » من جامعة ميونخ (المانيا) و « بارتهولد » من جامعة لينجراد (رسيا) و« فيك » من جامعة تيبنجن (المانيا) و« فيجوالا » من جامعة برلين (المانيا) و « أوجدن » من نيويورك (أمريكا) و « روزنبرج » من جامعة لينجراد (روسيا) و « توماس » من جامعة اكسفورد (انجلترا) .

وقد قام بنشر هذه التراجم القيمة الدكتور لوسيان شيرمان ، وظهر أول أجزائها فى سنة ١٩٢٦ وتمت فى عام ١٩٢٨

(1) نقلا عن مجلة « Der Islam » الالمانية .

رؤيا

الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية

بلى الاسلام بأشخاص يتخذون من الافتراء عليه طرقا للتنفير منه ، أو حبائل لاصطياد شيء من المال ، ومن هذا القبيل صحيفة تشتمل على حكاية رؤيا منسوبة لشخص يسمى نفسه الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية ، وقد اخترعت هذه الأكذوبة من مدة تزيد على أربعين سنة ، ولا يزال مخترعها يتعهد بها الناس فى الشرق والغرب من سنة الى أخرى ، وكثيرا ما كتب أهل العلم فى تزييفها وبيان ضلالاتها ، ورجاؤنا اليوم فى الخطباء والوعاظ أن ينبهوا الأمة لفريتها وسخافة عقل من يتقبلها ، وقد ورد إدارة المجلة مقال محرر بقلم فضيلة الاستاذ صاحب التوقيع يكشف عن جهل كاتبها ، وسوء قصده ، وعظم وزره ، وإليك ما كتب الاستاذ :

لا نزال بين آونة وأخرى نسمع خبر هذه الرؤيا ، ويسوءنا أن يتهافت الناس على طبعها ونشرها وقراءتها وتعليقها على الجدران ، رغبة فى الوعد الذى وقع فيها ، وهو قوله : « ومن يصدق بها ينج من عذاب النار » وقوله : « ومن قرأها ونقلها من بلد الى بلد كان رفيق النبي صلى الله عليه وسلم فى الجنة ، وكانت له شفاعته يوم القيامة » ورهبة من الوعيد الذى تضمنته ، وهو قوله : « ومن كذب بها كفر » وقوله : « ومن قرأها ولم ينقلها كان خصم النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة » ! .

كنا فى سنة ١٣٣١ هجرية نشرنا فى الجزء السادس من المجلد الثالث من مجلة الحقائق ، ردا ممتعا على هذه الفرية ، وحذرنا الناس من الوثوق بها ، والاغترار بوعودها ووقع إذ ذاك فى خلدنا أن صاحب هذه النشرة سيرتدع عن إعادة نشرها ، وأن الناس

سيعرضون عنها ، ولا يلتفتون بعد هذا اليها ، ولكن خاب ما ظننا ، ولم نبلغ ما أملنا فالكاذب لا يزال الفينة بعد الفينة ينشر فريته ، ويذيع كذبته بين الناس ، وهم لا يزالون يقبلون عليها ، ويتقبلون ما فيها من ترهات وتغرير بالقبول الحسن ، والعناية اللازمة .

نعم إن ناشرها — جريا مع الأيام — قد عاد عليها بالتشذيب والتهذيب فنقح وصحح ، وحذف منها كثيرا من المفتريات التي كنا نبهنا عليها مثل قوله : « كنت[1] ليلة الجمعة في اليوم الثاني والعشرين من شهر صفر الخير سنة كذا مضطجعا على وضوء كامل » الخ . وقوله : « استحييت (كذا) من الله عز وجل[2] وهو يقول لي : يا محمد لأبدلن وجوههم وأعذبهم عذابا شديدا . فقلت يا رب أمهلهم حتى أنذرهم وأبلغهم » الخ . وقوله : «يا أحمد[3] إنهم قد سلب إيمانهم من كثرة الزنى» الخ . وقوله : «يا أحمد[4] إن تارك الصلاة لا تمشوا بجنازته » . وقوله : « ومن[5] اطلع عليها ، ولم يخبر بها الناس

---

(١) كتبنا في الرد الاول على هذه الجملة ما نصه . هذا من كذبات الرجل اذ أن هاته الرؤيا لم تزل من سنين عديدة تأتي على هذا النمط وهو أنه في ليلة الجمعة من اليوم الثاني والعشرين الخ . ومع اختلاف السنين لم يختلف تعيين الليلة ولا الشهر ليظن الجاهلون أنها قريبة العهد وحديثة الزمن .

(٢) كتبنا في الرد الأول على هذه الجملة ما ملخصه : دعوى هذا الافاك بأنه عليه الصلاة والسلام طلب إمهال أمته حتى ينذرهم ويبلغهم محض كذب ، لانه عليه الصلاة والسلام بلغ الناس جميع ما أمره الله تعالى بتبليغه وقد أتم تبليغه وترك الناس على شريعة كاملة تامة واضحة . والشك في إتمام التبليغ كفر يجب التحذير من اعتقاده .

(٣) ملخص ما كتب في الرد على هذه الفرية أن الزنى وما بعده من المعاصي التي ذكرها مما يوجب ارتكابها العذاب في الدار الآخرة لكنه لا يسلب الايمان ولا يمحو الاسلام خلافا لما زعمه هذا الكاذب على الله ورسوله . وقد صح قوله صلى الله عليه وسلم « ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار » . الحديث . أخرجه البخاري .

(٤) ملخص ما كتب من الرد على هذه الفرية بأن عامة العلماء على أن تارك الصلاة اذا مات تجب الصلاة عليه كما يسن تشييع جنازته ، خلافا لما افتراه هذا الكذاب على الله تعالى ورسوله .

(٥) أما هذه الجملة فخلاصة ردنا عليها أن وعيد اسوداد الوجه يوم القيامة هو للكافرين والمكذبين . وقد جعله هذا المفترى لمن لم يخبر الناس بوصيته فالامتناع من إخبار الناس بوصيته معناه عنده الكفر والتكذيب ! عافانا الله من الكذب وحمانا من الافتراء !

كان وجهه مسودا يوم القيامة » الخ . وقوله : « ومن[١] كذب ولم يصدق بها – يعنى الوصية – فهو ملعون ثم ملعون ثم ملعون » الخ . وقوله : « من بعد[٢] ألف وثلاثمائة وأربعين سنة يخرجن (كذا) النساء من بيوتهن الى الأسواق من غير إذن أزوجهن » الخ . وقوله : « وبعد[٣] ألف وثلاثمائة وخمسين ينزل من السماء مطر كبيض الدجاج ، وبعد سنة ١٣٧٠ تغيب الشمس ثلاثة أيام » . وقوله : « وبعد ألف[٤] وأربعمائة يظهر المسيح الدجال » .

وقوله : « فما كان[٥] والله والله والله وآيات الله وأمانه إنها مكتوبة بقلم القدرة » وقوله : « ومن كان[٦] عنده ثلاثة دراهم واستأجر بهم (كذا) وكتب هذه الوصية وكان مذنباً وعليه فرض صيام غفرت ذنوبه ببركة هذه الوصية » .

---

(١) قلنا فى الرد على هذه الأكذوبة : إن اللعنة اذا لم تجد مسلكا رجعت من حيث جاءت كما فى حديث النبي صلى الله عليه وسلم عند أحمد . وعلى هذا فهذه اللعنات تعود على صاحبها

(٢) يلخص ما كتبناه فى الرد على هذه الجملة أنها مع ما فيها وما فى غيرها من اللحن الذى يتنزه عنه الله تعالى ورسوله دليل واضح على كذبه إذ أن النساء خرجن قبل الوقت الذى عينه بعشرات من السنين .

(٣) كتبنا فى الرد على هذه الأكذوبة ما ملخصه : ما ذكره من نزول المطر كبيض الدجاج وغروب الشمس محض كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ليس هو من أشراط الساعة التى ورد النص الصحيح بها .

(٤) كتبنا فى الرد الأول على هذه الفرية ما ملخصه : صح فى الحديث الشريف أن خروج المسيح والدجال من أشراط الساعة لكن لم يصح تعيين ذلك فى سنة مخصوصة . فمن أين لهذا الكذاب العلم بتعيين الوقت وتحديده والله تعالى يقول على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) أى فالنبي صلى الله عليه وسلم ينفى عن نفسه الكريمة علم الغيب ، وهذا الكذاب يدعيه . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(٥) جاء فى الرد الأول على هذه الكذبة ما ملخصه : من علامة الفاجر أن يحلف من غير أن يستحلف وهذا الكذاب لم يكتف بالهزء بالدين حتى عرج الى السماء وادعى أن وصيته مكتوبة بقلم النور . نسأل الله تعالى السلامة منه ومن أمثاله أهل الافك والزور .

(٦) يلخص ما كتب ردا على هذه الفرية الفاضحة بأنها مؤكدة أتم التأكيد تلاعب هذا الأفاك بأحكام الدين فقد سبق له أن حكم بسلب إيمان المذنب ثم جاء الآن يغفر ذنوبه لا لأنه آمن وتاب بل لمجرد أنه نقل هذه الوصية الكاذبة . ولو أن إنسانا ترك صوم يوم واحد من صيام الفرض ثم نقل جميع كتب العلم بل نقل كتاب الله الحكيم لا يكون ذلك مكفرا لذنبه بل هو مسئول ومحاسب .

كل هذه الترهات والأكذوبات قد حذفها هذا المفترى الكذاب جريا مع الأيام كما قلنا، وجاء إلينا الآن برؤيا أو وصية ملخصة مشذبة ومع ذلك لم تخل مما يجب إنكاره وفضيحة صاحبه ، وإشهاره بين الناس بأنه كاذب أفاك متلاعب ، مجترئ على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم القائل فى الحديث الصحيح المتواتر الذى رواه الجم الكثير [1] من الصحابة عنه صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » أى فليتخذ منزله منها .

وقبل الشروع فى الرد على وصية هذا المفترى الجديدة رأينا أن نتقدم الى إخواننا (قراء مجلة نور الاسلام الغراء) بجمل مختصرة يتعرفون منها عظيم أمر الكذب ، وخصوصاً ما كان منه فى حكاية المنام كهاته الرؤيا التى نحن بصدد ردها ، وما كان من ذلك على الله تعالى وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قبح الكذب مطلقا

لا يشك عاقل فى أن الكذب من أقبح الخلال وأردأ الخصال ، وأنه وخيم العاقبة ، كثير الأضرار ، مذل لصاحبه ، مخز لفاعله ، منهك لقوى المجتمع البشرى ، مفسد لنظامه المالى والاقتصادى والأخلاقى ، موجب لمقت الله وعذابه فى الدار الآخرة ، وها كم ما يشير الى ذلك من آيات كتاب الله الحكيم ، وسنة نبيه الرءوف الرحيم :

قال الله تعالى . (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ). وقال جل ذكره : « إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ) وقال جل جلاله : (ثُمَّ نَبْتَهِلْ [2] فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ) .

---

(١) قيل : إنهم يبلغون ثمانين نفسا وبلغ بهم الطبرانى وابن منده سبعة وثمانين منهم العشرة المبشرون بالجنة وقال الحافظ المنذرى روى هذا الحديث عن غير ما واحد من الصحابة فى الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها حتى بلغ مبلغ التواتر .

(٢) أى نتضرع فى الدعاء

وقال رسول [١] الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، و ذا عاهد غدر » زاد فى رواية : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم . وقال صلى [٢] الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، ومايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ؛ وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى الى الفجور ، وإن الفجور يهدى الى النار، ومايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » وقال [٣] صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالصدق فإنه مع لبر وهما فى الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما فى النار » وقال [٤] صلى الله عليه وسلم : « رأيت الليلة رجلين أتيانى قالا لى : الذى رأيته يشق شدقه كذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به هكذا الى يوم القيامة » . وقال [٥] صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى المزاح والمراء [٦] » الحديث . وقال [٧] صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم [٨] ببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا » وقال [٩] صلى الله عليه وسلم : « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب » .

وعن الحسن [١٠] بن على رضى الله عنهما قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك الى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة » .

---

(١) رواه البخارى ومسلم والزيادة لمسلم . (٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وصححه . (٣) رواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه . (٤) رواه البخارى من حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه . (٥) رواه أحمد والطبرانى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (٦) المراء : الجدال . (٧) أخرجه البيهقى باسناد حسن وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه عن أبى أمامة رضى الله عنه . (٨) الزعيم : الكفيل . (٩) قال الحافظ المنذرى رواه أحمد قال حدثنا وكيع سمعت الاعمش قال حدثت عن أبى أمامة قال قال صلى الله عليه وسلم الخ .

(١٠) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن صفوان[١] بن سليم قال : « قيل يا رسول الله . أ يكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم قيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال نعم . قيل له : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال لا » . وقال[٢] صلى الله عليه وسلم : « إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلا من نتن ما جاء به » .

قبح الكذب في حكاية المنام

لو أن هذا الرجل الذى سمى نفسه بالشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية كان ممن يخشون الله تعالى ، ويعدون العدة للقائه سبحانه ، لما حمل نفسه أقبح أنواع الكذب ، وأشدها لله تعالى سخطا ، حيث اعتاد أن يبنى وصيته على رؤيا منامية يحكيها للناس وهو فى ذلك من الأفاكين الكذابين الدجالين ، فقد صح عنه[٣] صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من أعظم الفرى[٤] أن يدعى الرجل الى غير أبيه ، أو يُرى عينه فى المنام[٥] ما لم تر ، أو يقول علىّ ما لم أقل[٦] » . وقال[٧] صلى الله عليه وسلم : « من أفرى الفرى أن يرى عينيه ما لم تر » . وعن أوس[٨] بن أوس الثقيفى مرفوعا : « من كذب على نبيه أو على عينيه أو على والديه فإنه لا يريح ريح الجنة » وقال[٩] صلى الله عليه وسلم : « من كذب فى حلمه[١٠] كلف يوم القيامة أن يعقد شعيرة » وقال[١١] صلى الله عليه وسلم : من كذب فى حلمه متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

« يتبع » دمشق — محمود يس

---

(١) قال الحافظ المنذرى رواه مالك هكذا مرسلا . (٢) رواه الترمذى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما وقال حديث حسن . (٣) قال العراق : رواه البخارى من حديث واثلة بن الاسقع رضى الله عنه . (٤) بوزن القرى وبمد أى من أكذب الكذبات الشنيعة . (٥) قال الزبيدى لانه جزء من الوحى فالمخبر عنه بما لم يقع كالمخبر عن الله تعالى بما لم يلقه اليه . (٦) جمع الثلاثة لشدة المناسبة بينها وليبان أنها من أفحش أنواع الافتراء . (٧) قال العراق : أخرجه البخارى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ورواه أحمد بلفظ إن من أعظم . ورواه البيهقى من حديث واثلة رضى الله عنه .

(٨) رواه ابن جرير والطبرانى وابن عدى والخرائطى . (٩) قال العراق رواه البخارى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الزبيدى : ورواه أحمد والترمذى وابن جرير والحاكم . (١٠) بضم فسكون أى فى منامه . (١١) قال الزبيدى : أخرجه الامام أحمد .

استعمار المناطق الشمالية فى امريكا[1]

تمتد يد المدنية يوما بعد يوم الى استعمار المناطق النائية فى شمال أمريكا بعد أن كانت خلوا من أثر الحياة الاقتصادية لا يكاد يفلت أحد من أجدادنا الذين ركبوا المخاطر وقابلوا الأهوال فى تجوابها من يد الأقدار القاسية بأن يقع ضحية إقدامه فريسة الأجواء العاتية أو الوحوش الضارية التى تجوب فيافيها المقفرة أو غاباتها الباسقة .

تقع هذه النواحى النائية الآن فى وسط معترك الحياة الاقتصادية العالمية ، ويتنازع الانسان حيازة مرافقها التجارية ومناطقها الصناعية والزراعية .

تدفعنا الحاجة المستمرة الى الفحم والمعادن والزيوت الى استكشاف أقصى أنحاء المعمورة ، واقتحام مجاهل الأرض التى كانت يخيم عليها الى زمن غير بعيد كثير من الغموض ولا نستطيع اليها سبيلا . وأما الآن فلا تسمح حالة العالم الاقتصادية وقد بلغ سكان المعمورة نحو المائتى ألف مليون بأن تترك مثل هذه الأقاليم الشاسعة دون استغلال اقتصادى واسع النطاق ، ولذا فانا نجد أن حركة استعمار الأصلح منها فالأصلح قائمة على قدم وساق ، و تبذل الممالك المتحضرة فى سبيلها كل مرتخص وغال .

وما كان يعوق استعمار المناطق الشمالية الامريكية إلا الفكرة الخاطئة عن سبل الحياة التعسة فيها وانقطاع مواردها الطبيعية ، وقد سادهذا الاعتقاد فى مملكة السكوت الأيدى وانتشارها شمال الجهات المعمورة من آسيا وأمريكا الشمالية أمدا طويلا كانت لا تطلع فيه الشمس أو يطل القمر إلا على قبور الأبطال المجاهدين فى صحراوات جليدية

---

(١) نقلا عن مقال للاستاذ « هانس هيولين » فى مجلة « Kosmos » الألمانية .

واسعة الأرجاء ، أو على قبائل الاسكيمو تحيا حياة منغصة بين الأوحال والجليد بعيدة عن كل حضارة ومدنية ، لا نعرف عن وجودها إلا فى أشعار وأغانى المنشدين .

وقد بعث حب الاستطلاع من ناحية والسعى وراء الرزق من ناحية أخرى جماعة من سكان القارة الأوروبية وأمريكا الشمالية الى ارتياد هذه البقاع المجهولة ، وأقاموا بها وفلحوا الأرض وأسسوا بعض الصناعات المنزلية ، ووجدوا أن فى كثير من بقاعها لا يغلب سقوط الثلوج أكثر مما يسقط فى كثير من المدن الكبيرة فى أوربا أو أمريكا ، وأنهم لا يقاسون من برد الشتاء أكثر مما يعانون من حر الصيف ، وقد تصل درجة الحرارة فيه ٣٢ فى الظل ، وتستمر على ذلك أكثر من ستة أسابيع تنتشر فيها المراعى الواسعة وتكثر الزهور اليانعة ذات الألوان الرائعة كثرتها فى البلاد الجنوبية ، فتحيا الأرض حياة لا يمكن أن يسعها خيال سكان المناطق المعتدلة ، فتصل الزهور وبعض المحاصيل الزراعية الى أحجام ليس لها مثيل فى ناحية أخرى من المعمورة .

يتضح من ذلك أن البرارى الشمالية فى كندا وما يتبعها من مجموع جزر ليست عديمة الحياة كما كان الاعتقاد القديم ، خصوصا وأن بها من الماشية المختلفة ما يحصى بعشرات الآلاف ، ومن الطيور ما يحصى بالملايين . هذا الى ما بها من الثعالب والذئاب مما يجعل سكوت هذه الناحية من الأرض لا وجود له إلا فى خيل الأجيال السابقة . أما العدو الحقيقى فى هذه الجهات صيفا فهو البعوض الذى يؤثر كثيراً فى راحة المقيمين بها . أما وجود الثلاجات الكثيرة فى نواحى متعددة من جرينلاند فانما يرجع الى وقوعها فى المناطق الشمالية وليس الى ما يهطل من الجليد .

يتضح مما سبق ذكره أنه ليس بوسع الانسان أن يحكم على أحوال الجهات بمجرد اطلاعه على علوم تقويم البلدان والأجواء الطبيعية دون أن يكون ملماً بالأحوال والظروف الخاصة لكل جهة من الجهات ، ومما يزيد الدهشة من هذه الناحية أن

سكان تلك الأقاليم (الاسكيمو) يدعون رغدة العيش وبحبوحته ، وأنه كلما ذهب الانسان شمالا كلما قلت أسباب سعادة المعيشة وأصبحت الحياة لا تطاق .

وتهتم حكومة كندا الآن اهتماما كبيراً فى استعمار أرضيها الشمالية واستغلالها الى أوسع مدى ، وتميل الى اعتقاد آراء روادها ورجالها المستكشفين . ففى سنة ١٩١٣ أرسلت بعثة كبيرة بقيادة الرحالة المشهور « ستفانصون » دامت حتى عام ١٩١٧ لكشف مجموعة الجزر الواقعة شمالى « بانكسلاند وفكتوريا لاند » ، وقد ثبت لرجال هذه البعثة أن الأحياء المائية تكثر فى هذه الجهات كثرتها فى المياه القريبة ، وأن كثيراً من أنواع المواشى والغزال يقطن هذه الأصقاع حتى درجة ٨٠ عرضا ؛ وهذه المعلومات تؤيد ما قرره « سفردروب » من ذى قبل ويميل « ستفانصون » الى الاعتقاد أنه مما يعود على الحياة الاقتصادية بفائدة لا تنكر لو اهتمت حكومة كندا بتشييد مدينة كبيرة فى بانكسلاند أو فكتوريا لاند ، ويتنبأ أن برارى كندا الشمالية ستصبح فى وقت قريب أهم مراكز الكرة الأرضية لتصدير اللحوم المحفوظة والمجففة .

وتمكن « ستيفانصون » من اكتشاف مستودعات كبيرة للفحم والقطران فى جزيرة « ملفيل » وينابيع لغاز البترول على شواطئ بحيرة لعبيد . وفى وادى نهر ما كنزى طبقات من المعادن الخام ، هذا علاوة على مناطق الذهب التى وجدت من قبل فى ناحية « جوكون » ولا تزل عالقة بالأذهان إلا أن هذه الاكتشافات ما هى إلا نتيجة المصادفات ، ويغلب على الظن أنه بالبحث العلمى الدقيق يمكن أن نتحصل على كميات وافرة من هذه المعادن والزيوت الطبيعية .

وقد تزداد الكميات التى يمكن الحصول عليها من ثروة الأرض الدفينة لو توفرت طرق الحصول على الغذاء الكافى للعمال القائمين بعملية البحث والاستغلال ، أو بمعنى آخر لو تمكنا من الحصول على المواد الغذائية من نفس الجهة ، إذ أنه مما لا يزال يذكره

كل إنسان أن استعمار غرب الولايات المتحدة الأمريكية قد تم على الوجه المعروف لوجود قطعان المواشى بوفرة هناك ، وأن صيدها فيما بعد ذلك وذبحها لحاجة أو لغير سبب أو مبرر ما كان سببا فى انعدام هذه الماشية الآن تماما . ويقاسى رواد هذه النواحى الأمرين فى الحصول على اللحوم من مسافات بعيدة ، وتعتبر هذه الحادثة من أكبر السيئات المعروفة فى التاريخ الاقتصادى . وتبذل حكومة كندا الآن مجهوداً كبيراً فى إصلاح غلطة جارتها (الولايات المتحدة الأمريكية) وتقاوم حركة صيد قطعان المواشى القليلة الموجودة ، بل وتحيطها بسياج منيع حتى تبقى وتتكاثر لتكون من معدات الاستعمار المقبل .

وقد أجريت هذه التجارب فى ولاية «ألبرتا» بنجاح باهر حيث زاد عدد رءوس الماشية زيادة مضطردة أدت الى ضيق المراعى بها على اتساعها واضطرت الحكومة الى نقل بضع آلاف منها الى بقاع أخرى لرعاية ما بها من الكلأ والحشائش على ما يتكلفه نقل هذه المواشى فى مثل هذه النواحى غير المعمورة وغير الممهدة السبل من مجهود كبير ونفقات باهظة . وذلك كله حرصا منها على مستقبل البلاد الزراعى والصناعى الذى يتوقف على أسباب المعيشة وأجور العمال .

وأكثر أنواع المواشى شيوعا فى هذه الأصقاع هو البقر القطبى ، وهو نوع متوسط بين البقر والغنم ، ولحومه طيبة ، وكثير الشبه بالحيوان المعروف باسم « ياك » فى هضب آسيا الداخلة . ولهذه الفصيلة من البقر صوف غزير يحسدها عليه كثير من الحيوانات القطبية للوقاية من البرد ، وهى قوية العضلات سريعة العدو ، حتى ليكاد يستحيل على الهواة اقتناصها أو رميها بسهولة ، وتستميت بفطرتها فى الدفاع ضد عدوها الذئب الذى يتغذى عليها وعلى ما يصادفه من الغزال المستوحش . وتبذل الحكومة عناية خاصة فى استئصال هذه الوحوش الضارية ، فاذا نجحت فى القضاء عليها

فإنه من المنتظر أن يزداد عدد الماشية زيادة كبيرة وقد أعدت مزرعة مترامية الأطراف لاقتناء وحماية هذا النوع من البقر مساحتها ٣٨٤٠٠ كيلو متر مربع فى شرق بحيرة العبيد ، وأخرى فى الجزائر الواقعة فى الطرف الشمالى من خليج هدسون لتربية الغزال المعروف باسم « رنتير » .

وكل هذه التجارب هى فى الواقع ابتدائية ، ولكن الظواهر تدل على أن برارى كندا القطبية والمتاخمة لها ستصبح فى زمن غير بعيد لا تقل أهمية فى إنتاج اللحوم عن أهمية الولايات الجنوبية فى محصول القمح ، ولا زال بعض سكان مقاطعة «مانيتوبا» ذات الشهرة العالمية فى زراعة القمح يذكرون الى عهد قريب اشتغالهم بصيد الحيوانات ذات الفراء الثمينة ، وتدرجهم فى مختلف الأعمال الاقتصادية الى أن صاروا من الزراع وأصبحت بلادهم من أكبر أقاليم العالم محصولا فى القمح ، ولا يزالون يذكرون عهدا كانت تعتبر فيه حدود الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية الحاجز الطبيعى للزراعة ، وهم يشهدون الآن انتقال هذه الحدود الزراعية من دائرتها الى منطقة تبعد ١٠٠٠ كيلو متر شمالا ، وفى عام ١٩٢٦ نال أحد مزارعى اقليم « بيس ريفر » الجائزة الأولى لمحصول القمح فى معرض شيكاغو الزراعى ، ولا يمكننا التنبؤ من الآن الى أى بعد نحو الشمال سينتقل هذا الحاجز الطبيعى للزراعة فيما بعد .

الظرف والملح

قال حكيم : ليس لثلاث حيلة : فقر يخالطه كسل ، وخصومة يخامرها حسد ، ومرض يمازجه هرم .

الثقافة الاسلامية فى الخارج

افتتحت دار الـكتب التابعة للحكومة الألمانية ببرلين قاعة مطالعة خاصة بالقسم الشرقى من محفوظاتها ، وقـد عنيت به عناية تامة ، وبلغ عـدد لزائرين منذ افتتاحه فى عام ١٩٢٤ الى أواخر سنة ١٩٢٦ مالا يقل عن ١٧٠٠٠ ممن يهتمون بالشئون الشرقية والثقافة الاســلامية . وإن دل هذا العدد على شئ فدلالته على اهتمام الجمهور المثقف بالاطلاع على علوم وآداب الاسلام . هذا وقد عنى « الهر جوتشالك » بوضع فهرس حافل بأسماء الـكتب والمجلات العربية وغـيرها من اللغات الشرقية المحفوظة بدار الـكتب لألمانية ببرلين والتى يمكن للزائرين الاطلاع عليها فى كل وقت بقاعة المطالعة الخاصة بها . وتحتوى هـذه القائمة المقسمة لى أبواب وفصول مختلفة ترتيب يسهّل على الباحث عمله على مالا يقل ٣٤٠٠٠ كتاب مختلف أو ٧٢٠٠٠ جزء .

وتعتبر هذه القائمة التى اهتمت دار الـكتب المذكورة بطبعها طبعا جيدا من أهم لمراجع التى يلجأ اليها المستشرقون للعناية التامة التى بذلت فى تنسيقها ، ولاحتوائها على أجل ما ظهر فى العالم الشرقى كله فى اللغة والآداب والثقافة وأصول الدين والتاريخ .

* * *

رد الخطأ والكفر والبدع

التى حـواها كتاب امرأتنا فى الشريعـة والمجتمع

تأليف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الصالح بن مراد المدرس بجامع الزيتونة

تناول فيه فضيلته بالنقد والتفنيد كتاب امرأتنا فى الشريعة والمجتمع وأبطل بالحجة والبرهان كل ما زاغ به صاحبه من مفتريات وترهات . ثم أتبع ذلك بالدفاع عما لغا فيه الملحدون من أحكام وآيات ، مبينا أسرار الشريعة الاسلامية ومزاياها ببيان عذب وأسلوب متين ، والـكتاب مطبوع طبعا متقنا فى ورق جيد ويقع فى ٢٣٨ صفحة . فنشـكر فضيلة المؤلف على غيرته الدينية وعمله المجيد ونحث أهل العلم على الاستفادة منه ؟

In his last address to the people, he said:

" O ye who hearken unto me, if I have smitten any of you, there is my back for him to smite; if I have smirched any one's reputation let him wreak his vengeance on mine: if I have robbed anyone's property, let him exact it out of mine; for verily this day he is secure and my heart beareth no malice."

When he finished his address and made to depart, a man siezed him by his clothes and demanded the setlement of three Dirhams which Mohammad owed him. The debt was discharged on the spot the Prophet saying: "Better the shame of this world than that of the hereafter."

the Law (Old Testament) in a few places but the reason thereof is not hard to find. The Koran was revealed to set the seal to previous Scriptures just as Mohammad was sent as the last of the prophets. His mind and soul came under the same influence which affected the minds and soul of other prophets; he worshipped the same God as they worshipped. Little wonder therefore should words be similar or even identical in same cases despite the fact the Lord's dispensations were given unto mankind through the media of different prophets For did they not proceed from the one and same source ?

(9) Mohammad was definitely averse to all pomp and luxury. He was not haughty nor was he covetous of wealth or wordly power. He used to milk his own ewes, sit on the ground, mend his own clothes and cobbles his own shoes. Contentment pervaded his whole being for never did he complain of his lot. He left this world and never once in his life did he have a full meal of barley-bread.

He never maintained a court nor permitted a retinue to attend him. His, was a spiritual authority which aspired to no worldly pomp, neither did he seek the aid of a vizier to administer it.

He despised money and hated to have anything of it left on his hands. During his life he had attained to the highest pinnacle of authority and virtually exercised absolute power, yet never did he abuse it or go beyond the limits of equity Of this power he had only one symbol: a staff where no king was more entitled to a sceptre than he.

(10) Mohammad resolutely set himself to exterminate paganism. In the choice between paganism and the worship of one Almighty God, he never hesitated for a single moment to choose the latter. His conviction never faltered throughout, and his zeal never showed signs of abatement from beginning to end. And herein is revealed another sign of his truth, for uniformity is not an attribute of man

He was averse to the amassing of wealth and whenever he had a little thereof, he straightway spent it in charity.

On one occasion, he gave his wife Aysha a small sum of money to keep. When he was taken ill, he directed that it should be given to the poor and when this was done, he exclaimed, " Now I am at peace for verily it behoves me not to meet my Lord with this money still in my posession."

(6) The Koran constitutes in itself an ample proof of Mohammad's truth. It still remains up to the present day one of the mysteries which no one could solve or fathom the depth thereof save those who implicity believe in the authenticity of its revelation and are convinced of its divine origin. But even then it is questionable whether tey fully understand its intricacies.

(7) No one could deny that Mohammad displayed all the signs of true prophethood in so far as he delivered a message unto people at the behest of his Lord and wholly believed in the truth of his word.

Mohammad believed that his mind was so completely influenced by a divine spirit that he no longer exercised any control over it. He was merely the instrument of God and the medium through which the word of God was conveyed to mankind.

His ego completely disappeared and was sunk deep in the idea of the all-pervading Providence in which he implicitly believed.

Whether the revelation came to him in his dreams or at times of unconsciousness, it is difficult to say, but in either case, the truth of these revelations could not be gainsaid.

(8) Emotions used to show clearly on his face; some thought that he was subject to fits, a conjecture which proved totally unfounded for Mahammad embarked on his mission after the fortieth year and never before in his life did he show signs of ill-health to justify this assumption. Very few people indeed could be so well-known throughout the span of their life as Mohammad was. So thorough indeed was his life treated that even such details as the number of grey hairs in his beard did not escape the traditionists' attention.

Had Mohammad been suffering of ill-health or fits as it is alleged, it would have been impossible to hide the fact and one or two of his biographers would have at least referred to it. Mohammad's states of unconsciousness were not due to fits or any other supernatural paroxysms. They were essentially the manifestation of an awe-inspiring experience under which he laboured when the word of God was revealed to him.

Mohammad was not an innovator nor did he profess to be a writer. Indeed, we would find some similarity between the Koran and

(3) We all know of the great hardships which Mohammad had endured and the mental agonies which he suffered in silence. The secret of his fortitude lies in the fact that the Lord caused his soul to be open only for the reception of the true faith. It is for this reason that he frequently sought solitude to escape the scenes of idolatry and polytheism which acted as thorns in his side whenever he came across them.

The oneness and unity of God had so pervaded his soul that he used to seek the solitude of Mount Hera to hold communion with and give prayers to the Lord.

(4) It is indeed baffling to the human mind how such verses (of the Koran) came to be uttered by an illeterate person like Mohammad, verses whose equivalent the master mind of mankind utterly fail to produce in both words and meaning. The failure of the Arabs themselves who were the acclaimed masters of eloquence and oratory and who were intent on the refutation of Mohammad's claims points conclusively to its divine origin.

It is related that when the Koran was recited to Okba Ibn Rabieh, he was so impressed by its beauty and eloquence that he straightway embraced Islam.

Not less impressed was the Negus of Ethiopia whose eyes teared when the Chapter of Zachariah and the verses regarding John were recited to him by Jafar Ibn Abi Taleb. In this connection it is recorded that on the following day, he requested Jafar to recite the story of Jesus from the Koran which he did. The Negus was surprised to hear that Jesus was the servant of the Lord and his apostle and that he proceeded from the spirit of God. He took up a thin rod that was lying in front of him and said to Jafar:

"The difference betwixt what I have just heard from you and that which our religion saith is no more than the thickness of this rod."

This rod has however become stronger that it stood between Ethiopia and Islam and rendered it a Christian country up to the present day.

(5) It is hard to believe that human eloquence could produce such effect, for the eloquence of the Koran is so positively flawless and inimitable that no man on earth or angel in heaven could produce anything like it and its origin is therefore unquestionably divine.

deep in their hearts. This is the bedrock of all good and prosperity, and the Prophet Mohammad could, in this respect, be considered the greatest of all prophets, for would not his insistence to purge the souls of the taints of evil and his solicitude for the people's salvation constitute another sign of his truth ?

It would indeed be impossible that such far-reaching results as were achieved by Mohammad could have been reached without divine support. The failure of others who whielded great earthly power fully bears out this conclusion. Moreover it should be remembered that of earthly power, Mohammad had none and his cause spread and is still spreading to the furthest corners of the globe by sheer power of truth and conviction.

CONCLUSION

In concluding this series of articles on the Prophet Mohammad, we summarise in the following pages the views expressed by Count Henry, the great French orientalist when dealing with the same subject.

He classified his views into ten arguments:

(1) In establishing the truth of Mohammad, we need only point out his own conviction that his mission was a true and real one and that his ultimate object was to extirpate idol worship and substitute God's worship in lieu thereof.

(2) Mohammad's faith was inborn in him. It grew within his conscience into an all-pervading belief which no other soul prior to him had ever conceived.

This unwavering faith revolutionised the thoughts of men and was directly responsible for the change that took place in the destinies of mankind over a large area of the globe. Mohammad could neither read nor write. He was, as he repeatedly described himself an illeterate Prophet. It is significant that no one of his contemporaries ever denied this assertion.

He never read a book nor did he seek guidance from any of his predecessors in the matter of religion.

guide, preacher, warrior, leader, legislator, judge, philosopher, chieftain, politician, ruler, party to a treaty, combatant, warshipper and a prophet, he was a model of perfection. And inasmuch as history and tradition record him so, they are both agreed that such combination could not possibly be displayed by an ordinary person. But Mohammad was indeed no ordinary person. For should we contemplate his life-story, his traditions and the tenets of his religion, we would be convinced beyond doubt that his life offers a guiding spirit to all mankind and endows men with power and vigour in the exercise of their vocations but above all it prescribed a law that warranted the achievement of men's aspirations and offered a haven for those who seek peace of mind and soul. Thus viewed, Mohammad's character presents a most intriguing phenomenon to philosophers and psychologists.

Would not his wide vision comprehending as it did all spheres of human life constitute a sign of his truth ? There is not a single concern of man to which he did not prescribe the adequate means for the right conduct thereof. He pointed out the proper attitude in regard to God, which leads to the elevation of men's mind and the salvation of his soul, thus acquanting him with those finer and higher attributes that dwell within him Nor was the treatment of his family and people in general left out His relations with them were so happily ordered to ensure a happy and contended life

Again it should be remembered that the elevation of the Arab people from the lowest depths of ignorance to the highest attainments of learning, from a state of degradation to exaltation, their inculcation fo a most efficient culture and guidance to the most noble conduct in every sphere of life were directly due to the benign influence exercised by Mohammad. They were guilty of the grossest iniquities that made them akin to the beasts of prey. Yet in less than a little time they achieved distinction in all the spheres of life and the light that was theirs was henceforth, shed all over the world.

To those of sound judgment and clear insight, this proves beyond all doubt that the messenger of such dispensation is the very incarnation of all good and perfection. For the virtues imbued from one person by others must, of necessity, be commensurate with his moral worth and attainments. "I was sent to perfect the traits of noble conduct". This in a nutshell was the mission of Mohammad for indeed the object of all God's dispensation is to deliver mankind from the evils that beset them and implant noble conduct and the fear of God

and are averse to anything new, no matter how advantageous it may prove.

Notwithstanding his weak position and the apparently hopeless end he set himself to achieve, he kindly reasoned with them and advanced arguments to establish his claims. Through repeated exhortations and admonitions a sense of anxiety was engendered in their hearts; yet withal, he proffered them goodly counsel even as a king whose word is law unto his people and whose commandments are just and equitable or even as a wise father who is solicitous for his children's welfare and whose severity is tempered with kindness and mercy.

But what astounded them most of all was the fact that Mohammad was humble and illeterate and far below them in station and knowledge to dare to condemn and criticise their actions. Yet his cause prevailed in the end and wonder they did at such might coupled with humility, such power where disability was thought to dwell, such knowledge despite illeteracy and such wisdom in an age of ignorance and idolatry !

Could there be a greater evidence of the purity of this great soul and the support given thereto by the Lord ? Could there be a mightier proof of his truth and the authenticity of his mission ?

An illeterate person, yet despite his illeteracy calls the master writers of the day to the intelligent understanding of their texts! He who had never been tutored yet calls upon the learned people to rectify their knowledge! He who was born and bred far away from learning and erudition yet had come to guide the master minds of his time! He who was reared among a backward people, yet had come to correct the corrupted beliefs of philosophers ! He who was an orphan among a primitive race to whom nature and the universe were beyond their comprehension, yet had prescribed for the benefit of the world at large the principles of an efficient law whereby the salvation of mankind is assured. Those who aspire to blessedness, had only to follow his example to attain to eternal salvation.

For indeed Mohammad's character combined such noble traits as to offer to all men of all kinds a perfect pattern for imitation. This is itself constitutes a miracle which no sound reason would deny. Mohammad's character did not only offer one phase to be judged by, but combined so many phases at the one and same time. As a tutor,

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

The Prophet Mohammad[1]

(Continued)

That Mohammad met with stubborn opposition on the part of his people, is a fact well established by both history and tradition. They left no stone unturned in their desire to refute his claims and did all that lay in their power to prejudice his cause. Proud kings and princes, great poets and orators have all taken their stand against Mohammad and united in a joint effort to rebut his pretensions rather than follow him or submit to his claims. Their vanity and blind zeal for their beliefs and the time-worn dogmas of their forefathers stood an unsurmountable barrier between them and the admission of Mohammad's truth. Yet, in face of relentless persecution, he never ceased to call them unto the very reverse of their beliefs and fearlessly point out the folly of idolising their wooden dieties.

Alone and unaided, he delivered his message and was heedless of the spirit of antagonism he evoked in an altogether conservative people; and little wonder indeed that this should be the case, for men are apt to cherish what they are used to, wrong though it may be

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's Bokk "*Messages of Peace*".

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ •

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الخامس	جمادى الأولى سنة ١٣٥١	المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف (سابقاً)
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الإدارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش صاغ
داخل القطر المصري ...	٤٠
خارج القطر المصري ...	٥٠
لعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد ومأذوني ومدرسي المدارس الأولية والطلاب داخل القطر	٢٠
وللحضرات المذكورين في خارج القطر ...	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة من حياة أبي الحسن الاشعري

التحق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى وقد أورث الناس دينا ساطع الحجج ، محكم الآيات ، فساروا في ضوئه أمة واحدة ، لا يختلفون في شيء يرجع الى العقائد حتى آخر خلافة عثمان رضى الله عنه حيث حميت تلك المناقشات السياسية ، واتخذها مرضى القلوب أمثال عبد الله بن سبأ ذريعة الى فتنة يكيدون بها للاسلام ، ففتحوا بابها بقتل الخليفة ، ونشأت خلافة عليّ كرم الله وجهه ، وغبار الفتنة ثائر ، فتولدت تحت مثاره آراء سياسية ، ثم جعلت تلك الآراء تتحول الى مذاهب دينية ، ودبّ في النفوس مرض الاختلاف ، ومن هذا الاختلاف ما يرجع الى أصول العقائد فيحل عروة الإيمان ، ومنه ما يرجع الى فروعها ، فلا يزيد على أن يسمى انحرافا عن الصواب .

كثرت الفرق ، وتعددت الألقاب ، فوهن حبل الاتحاد الاسلامي ، ولولا هذا التفرق لبلغ الاسلام من القوة فوق ما بلغ ، وارتقى في السيادة ذروة فوق التي ارتقى .

ومن هذه الفرق فرقة يغلون في التشيع للامام علي كرم الله وجهه . ومن أبعدهم في هذا الغلو نزعة السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ الذي ادعى لعلي عليه السلام وصف الالهية ، فنفاه عليّ الى المدائن ، ويقال : إنه كان يهوديا ، فتظاهر بالاسلام ليكيد له بمثل هذه الدعوى .

ويقابل هذه الفرقة فرقة يدينون بكراهة علىّ رضى الله عنه ، وهم الخوارج [١] ، ونشأ هذا المذهب من جماعة كانوا مع علىّ فى حرب صفين ، ثم خرجوا عليه عقب قضية التحكيم .

ومن هذه الفرق فرقة يبالغون فى إثبات الوعد ، حتى قال بعضهم : لا يضر مع الإيمان معصية ، وهم المرجئة . أما الإرجاء الذى ينسب الى بعض فضلاء التابعين كالحسن ابن محمد بن الحنفية [٢] ، فمعناه عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين من العلويين والأمويين بكونها مخطئة أو مصيبة ، وإرجاء أمرهما أى تأخيره وتفويضه الى الله تعالى ، وهو بهذا المعنى لا يمس جانب الإيمان ، ولا يعد صاحبه عند أهل السنة موضعا للعيب .

ومن هذه الفرق فرقة يبالغون فى إثبات القدرة للإنسان ، وينكرون إضافة الخير والشر الى القدر ، وهم القدرية ؛ وأول من تكلم بهذا معبد بن عبد الله الجهنى الذى خرج مع ابن الأشعث ، ووقع فى يد الحجاج فقتله سنة ٨٠

ومن هذه الفرق فرقة لا يثبتون للعبد قدرة على الفعل لا مؤثرة ولا كاسبة ، وهم الجبرية ؛ وأول من ظهر بهذا المذهب جهم بن صفوان الذى خرج مع الحارث بن سريج على بنى أمية فى أواخر دولتهم ، ووقع فى قبضتهم بعد انهزام الحارث ، وقتل سنة ١٢٨ أو ١٣١

ومن هذه الفرق فرقة يشبهون الله — وهو واجب الوجود — ببعض مخلوقاته ، وهم المشبهة ؛ وممن تعزى إليه هذه البدعة الجعد بن درهم مؤدّب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . ومن غلاة المشبهة الكرامية : أتباع محمد بن كرام [٣] ، وهو شيخ

---

(١) الصفرية ، والأزارقة ، والنجدية ، والعجاردة . (٢) توفى سنة ٩٩ أو ١٠٠ ، وعبارته فى الكتاب الذى يقال إنه قد وضعه فى الارجاء « ونوالى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، ونجاهد فيهما لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة ، ولم نشك فى أمرهما ، ونرجىء من بعدهما ممن دخل فى الفتنة فنكل أمرهم الى الله »

(٣) ضبط بفتح الكاف وتشديد الراء ، وضبطه آخرون بكسر الكاف وتخفيف الراء .

نشأ بسجستان، ثم دخل نيسابور، وباح بالتجسيم، فحبسه عبد الله بن طاهر، ثم أطلقه فتخلص الى القدس الشريف، وهنالك توفي سنة ٢٥٦

ومن هذه الفرق فرقة يؤولون القرآن والسنة على غير ما يرد منهما، مكراً بالدين وصرفا للناس عن هدايته، وهم الباطنية. والتئام من أصلهم المجوسية بالكيد للاسلام، وقع — على ما يقصه أبو بكر بن العربي[1] — في عهد البرامكة، ولكن تأويل الظواهر على وجوه تعطل أحكام الشريعة وتذهب بهاء حكمتها، ظهر فيما بعد؛ ومن زعماء هذه النحلة حمدان قرمط المتوفي سنة ٢٦٤، ومنه أخذ الباطنية لقب «القرامطة».

ومن أذناب هذه الفرقة اليوم الطائفة المسماة بالبابية أو البهائية، وكانت قبل هذا تعمل في خفاء، فسرى وباؤها في نفوس كثير من المسلمين الغافلين، حتى أخذ بعض زعمائها الغرور، فجاهروا بشيء مما يسرون، فانكشفت للناس سريرتها، وافتضح أمرها، فلا تقوم لدعايتها بعد هذا، إن شاء الله، قائمة.

ومن هذه الفرق فرقة المعتزلة، ومن رءوسها أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال، وصاحبه عمرو بن عبيد، وكانا يجالسان الحسن البصري المتوفي سنة ١١٦، ثم اعتزلاه في نفر كانوا على رأيهما، وظهر بعد هؤلاء طبقة أخرى، من زعمائها ابراهيم بن سيار النظام المتوفي سنة ٢٢١، ومحمد بن الهذيل العلاف المتوفي سنة ٢٣٥، وأحمد بن أبي دواد المتوفي سنة ٢٤٠، وبشر المريسي المتوفي سنة ٢١٨، ثم عمرو بن بحر الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٠، وظهر بعد هؤلاء طبقة من رجالها أبو علي محمد الجبائي المتوفي سنة ٣٠٣ وهو أستاذ أبي الحسن الأشعري، وأبو القاسم عبد الله الكعبي المتوفي سنة ٣١٧، وإليه تنسب الفرقة الكعبية، وأبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي المتوفي سنة ٣٢١ وإليه تنسب الفرقة البهشمية، فالكعبي وأبو هاشم كانا معاصرين لأبي الحسن الأشعري.

(١) كتاب القواصم والعواصم.

وظهر مذهب الاعتزال لذلك العهد، إذ كان لكثير من زعمائه البراعة فى البيان والوجاهة عند رجال الدولة، فعمرو بن عبيد كان رفيع المنزلة عند المنصور، وكان المجلس الذى يعقده البرامكة لأصحاب المقالات ينتظم من أبى الهذيل العلاف، وابراهيم النظام وبشر بن المعتمر، وجعفر بن حرب، وثمامة بن أشرس، وجعفر بن بشر، وكلهم من زعماء الاعتزال. وأحمد بن أبى دؤاد كان وجيها لدى المأمون، وتولى قاضى القضاة فى خلافة المعتصم، وهو الذى امتحن الامام أحمد بن حنبل، وحاول إلزامه القول بخلق القرآن الكريم؛ وكذلك كان أبو دواد فى عهد الواثق؛ ولما تقلد المتوكل الخلافة أصيب ابن أبى دواد بفالج، فخلفه فى القضاء ابنه محمد بن أحمد، ثم صرفه المتوكل عن القضاء، وولى مكانه يحيى بن أكثم، وكان يقتدى بمذهب أهل السنة.

ومن أسباب ظهور الاعتزال أن بعض زعمائه كانوا يتصدون للرد على الخارجين عن الملة من نحو الملاحدة والطبيعيين، كما ردّ واصل الغزالى على المانوية، ورد أبو هاشم ابن أبى على الجبائى على القائلين بالطبائع، وردّ أبو الحسين بن أبى عمر الخياط على ابن الراوندى فى كتاب الانتصار، وكانوا يدرسون الفلسفة، ويتناولون آراء رجالها بالنقض، فلأبى هاشم هذا كتاب النقض على ارسطاليس فى الكون والفساد. ومما نقرؤه فى ترجمة النظام أن جعفر بن يحيى البرمكى ذكر أرسطاليس، فقال النظام: قد نقضت عليه كتابه، فقال جعفر: كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه: فقال النظام: أيهما أحب إليك: أن أقرأه من أوله الى آخره، أم من آخره الى أوله؟ ثم أخذ يذكر شيئاً فشيئاً، وينقض عليه، فتعجب جعفر منه.

ودراسة المعتزلة للفلسفة أفادت فى ردهم على بعض الفلاسفة والملاحدة، ولكن انحرفت ببعض آرائهم عن قصد السبيل، فتعسفوا فى تأويل نصوص من الكتاب والسنة ظنا منهم أن الفلسفة تتعاصى عن قبول ما تدل عليه هذه النصوص؛ ولم يكن المعتزلة فى المسائل التى تعزى اليهم على رأى واحد، بل كانوا يختلفون فى بعض الآراء

وقد ينتصب بعضهم لتفنيد آراء بعض، كما ألف جعفر بن حرب فى الرد على أبى الهذيل العلاف كتابا سماه توبيخ أبى الهذيل ، وبالغ فى الرد عليه حتى أشار الى تكفيره .

وزاد مذهب الاعتزال فى القرن الثانى والثالث رواجا أن أهل السنة كانوا لا يعنون بمجادلتهم على طريقة نظرية يرخى فيها الخصم لخصمه العنان ، ثم يدفع شبهه شبهة بعد أخرى ، وينقض أدلته دليلا بعد دليل ، وكان الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يكره التصدى لمجادلة المبتدعين ، حكى عنه الغزالى فى كتاب المنقذ أنه أنكر على الحارث المحاسبى تصنيفه فى الرد على المعتزلة ، فقال الحارث : الرد على البدعة فرض ، فقال أحمد : نعم ، ولكن حكيت شبههم أولاً ، ثم أجبت عنها ، فلا يؤمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ، ولا يلتفت الى الجواب ، أو ينظر الى الجواب ، ولا يفهم كنهه . قال الغزالى : وما ذكره أحمد حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، أما اذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب إلا بعد الحكاية .

كان أهل السنة من ناحية التفقه فى الدين وتقرير أصول الأحكام يبسطون القول الى أبعد غاية ، أما موقفهم أمام الفرق التى تتكلم فى العقائد وما يتصل بها ، فيشبه موقف من يستخف بقوة خصومه ، فلا يعدّ لهم ما استطاع من قوة ، أو لا يعمل فى دفاعهم ما لديه من سلاح ، حتى يجوسوا خلال أرضه ، وينقصوها من أطرافها . سادت فى القرن الثالث الآراء المخالفة لمذهب السلف ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعرى فأحسن التعبير عن مذهب أهل السنة ، وانقلب علم الكلام الى هيئة غير هيئته التى خلعها عليه المعتزلة والمرجئة والمشبهة والقدرية ، والذى يستطيع أن يجاهد فيقلب أمما كثيرة من وجهة الى أخرى ، جدير بأن يعدّ فى أعاظم الرجال ، فاذا عرضنا عليك صحيفة من حياة أبى الحسن الأشعرى ، فإنما نعرض عليك شيئاً من سيرة رجل كان له فى إصلاح النفوس وتقويم العقول جهاد أى جهاد .

نسب أبي الحسن الاشعرى ومولده :

هو على بن اسماعيل بن اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والأشعرى نسبة الى أشعر أبي قبيلة باليمن ، فنسبه عربى صريح ، ومولده بالبصرة سنة ٢٦٠ ستين ومائتين .

نشأته العلمية :

نشأ الأشعرى بالبصرة وهي يومئذ زاهية بالعلوم الدينية والعربية وفن الكلام ، فأخذ السنة عن الحافظ زكريا بن يحيى الساجى ، وأبي خليفة الجمحى ، وسهل بن نوح ، ومحمد بن يعقوب المقرى ، وعبد الرحمن بن خلف الضبي ، وقد أكثر فى تفسيره من الرواية عن هؤلاء ، ثم رحل الى بغداد ، وأخذ عمن لقيه فيها من علماء الحديث .

ودرس علم الكلام على مذهب المعتزلة ، فكان يتلقى على طائفة من كبارهم مثل أبي على الجبائى ، والشحام ، والعطوى ، وكان متقدماً فى هـذا العلم على أقرانه ، وسنحدثك قريبا عن براءته من مذهب المعتزلة ورجوعه الى مذهب أهل السنة .

واذا لم يُذكر الأشعرى فى طبقات المحدثين ، فلأنّ همته لم تكن مصروفة الى الإكثار من الرواية ، وإنما كان يبذل جهده فى تعرف آراء الفرق والغوص على الحجج التى تنقض شبههم ، وتدمغ باطلهم ، فلا بأس عليه مما وصفه به بعض الحنابلة من أن خبرته بمقالات أهل الكلام أوسع من خبرته بمذاهب أهل الحـديث ، وكثير ممن عاصروه أو تلقوا عنه ، قد شهدوا له بغـزارة العلم وحسن التصرف فيما يعلم ، قال الأستاذ أبو اسحاق الاسفرائينى : كنت فى جنب الشيخ أبى الحسن الباهلى كقطرة فى جنب البحر ، وسمعت الباهليّ يقول : كنت فى جنب الأشعرى كقطرة فى جنب البحر .

وهـذه الشهادة وإن كانت صادرة عن تواضع من أبى الحسن الباهلى ، لا تخلو من إيماء الى عظم منزلة أبى الحسن الأشعرى فى العلم .

مذهبه فى أصول الدين :

كان أبو الحسن الأشعرى فى مبدأ أمره على مذهب الاعتزال ، ولزم أبا على الجبائى سنين كثيرة ، ثم اهتدى الى أن الحق فى جانب أهل السنة ، وأراد أن يكون رجوعه عن الاعتزال علانية فأتى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ، ورقى كرسيا ، ونادى بأعلى صوته قائلا : من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى : أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار (يعنى فى الدار الآخرة) وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة .

والواقع أنه لم يأت بمذهب جديد ، وإنما صار الى مذهب السلف وما كان عليه الأئمة الراشدون ، فقام بتأييده والنضال عنه ، وإنما ينسب اليه المتمسكون بمذهب أهل السنة لأنه زاد المذهب حججا ، وألف فيه كتبا كثيرة ، وقد صرح فى كتاب الاستبانة بأنه على طريقة السلف فقال : « وديانتنا التى بها ندين التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل — نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته — قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون » وعوده الى مذهب أهل السنة بعد الاعتزال شاهد — كما قال القاضى عياض فى المدارك — على ثبات قدمه وصحة يقينه فى التزام السنة ؛ اذ لم يلزمها لأنه نشأ عليها ولا اعتقدها تقليدا .

مذهبه فى الأحكام العملية :

تنازع بعض أصحاب المذاهب أبا الحسن الأشعرى : كل ينسبه الى مذهبه ، ذكره ابن السبكى فى طبقات الشافعية ، وقال : « قد زعم بعض الناس أن الشيخ كان

مالكي المذهب ، وليس بصحيح ، وإنما كان شافعيا ، تفقه على أبي إسحاق المروزي[١] . نص على ذلك الأستاذ أبو بكر بن فورك في طبقات المتكلمين ، والأستاذ أبو إسحاق الاسفرائيني فيما نقله عنه الشيخ أبو محمد الجويني في شرح الرسالة » .

وذكره القاضي عياض في كتاب المدارك على أنه من فقهاء المالكية ، وقال : ذكر محمد بن موسى بن عمران أن الأشعري كان مالكيا ، وقال : ذكر لي بعض الشافعية أنه كان شافعيا حتى لقيت الشيخ الفاضل الفقيه رافعا الحمل الشافعي فذكر لي عن شيوخه أن أبا الحسن كان مالكيا ، وكان مذهب مالك رحمه الله تعالى في وقته شائعا في العراق ، أيام إسماعيل[٢] بن إسحاق . والذي يظهر أن أبا الحسن الأشعري لم يؤلف كتابا في الأحكام يستفاد منه أنه مستقل النظر في الأحكام ، أو أنه مقتد بأحد الأئمة .

قوته على المناظرة :

تمرن الأشعري على المناظرات منذ كان على مذهب الاعتزال ، حتى إن أستاذه أبا علي الجبائي كان إذا حضرت مناظرة ، قال له : نب عني ، وكان الجبائي صاحب قلم ، ولم يكن قويا على المناظرة في المجالس .

وكان رحمه الله تعالى يقصد الى مواطن المعتزلة ليناظرهم ، فقيل له : كيف تخالط أهل البدع ، وتقصدهم بنفسك ، وقد أمرت بهجرهم ؟ فقال : هم أولو رياسة : منهم الوالي والقاضي ، ولرياستهم لا ينزلون الىّ ، فاذا كانوا هم لا ينزلون لىّ ، ولا أسير أنا اليهم ، فكيف يظهر الحق ، ويعلمون أن لأهل السنة ناصرا بالحجة :

وكان لا يبتدئ مناظريه بالسؤال ، بل يقف موقف المجيب المدافع ، حضر الأستاذ أبو عبد الله بن خفيف مناظرة بين الأشعري وبعض مخالفيه ، فقضى العجب من علمه

(١) هو أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي إمام في فقه الشافعية جليل . رحل إلى مصر في أواخر عمره وتوفي بها سنة ٣٤٠ ودفن بالقرب من تربة الامام الشافعي . (٢) هو القاضي اسماعيل أحد أعلام المالكية المتوفى سنة ٢٨٢

وفصاحته، وقال له: لم لا تسأل أنت ابتداء؟ فقال الأشعرى: أنا لا أكلم هؤلاء ابتداء ولكن اذا خاضوا فى ذكر ما لا يجوز فى دين الله، رددنا عليهم بحكم ما فرض الله سبحانه وتعالى علينا من الرد على مخالفى الحق.

وجرت مناظرات بين أبى الحسن الأشعرى والجبائى، منها مناظرة فى قول الجبائى كسائر معتزلة البصرة: إنه يجب على الله تعالى مراعاة الأصلح بمعنى الأنفع للعبد؛ فسأل الأشعرى أبا على الجبائى عن ثلاثة أخوة عاش أحدهم فى الطاعة، وأحدهم فى الكفر والمعصية، والآخر مات صغيرا. فقال له الجبائى: يثاب الأول، ويعاقب الثانى، ولا يعاقب الثالث ولا يثاب. فقال الأشعرى: إن قال الثالث: يا رب هلا عمرتنى، فأصلح، فأدخل الجنة كما دخلها أخى المؤمن: فأجابه الجبائى بأن الرب يقول: كنت أعلم أنك لو عشت لفسقت فدخلت النار، ثم قال الأشعرى: فإن قال الثانى: يا رب لمَ لم تمتنى صغيرا حتى لا أعصى فلا أدخل النار كما أمتّ الثالث؛ فانقطع الجبائى. فمعتزلة البصرة هم الذين يرون وجوب مراعاة الأصلح بمعنى الأنفع للعبد؛ أما معتزلة بغداد فيذهبون فى تفسير الأصلح الذى يجب على الله مراعاته الى معنى الأوفق فى الحكمة والتدبير، وليس هذا المذهب بموضع المناظرة السالفة، لأن الحكمة لا تتبع جلب المنفعة أو درء المفسدة الشخصية، وإنما تقوم على ما يقتضيه حسن النظام العام للخليقة.

أخلاقه وتقواه:

كان فى أبى الحسن دعابة، وكان له مع هذه الدعابة غيرة على الحق حامية، وتلك الغيرة هى التى كانت تدفعه الى مقارعة مخالفيه غير مبال بما كان لهم من جاه أو رياسة، قال أحد أصحابه: « إنه كان حضر معه مجلسا فى جماعة من المبتدعة، فقام فيه لله مقاما حسنا، وكسر حجتهم، فلما خرج قلت له: جازاك الله خيراً، قال: وما ذاك؟ قلت: لمقامك هذا لله تعالى ونصر دينه، فقال: يا أخى إنا ابتلينا بأمراء سوء أظهروا بدع المخالفين، ونصروها، فوجب علينا القيام لله، والذب عن دينه حسب الطاقة، فسألة من معرفة ربك، وما تطيعه به وتتقرب به إليه، أجدى عليك من هذا ».

وهذه القصة تدلك على أنه كان يؤثر الحق على رضا الأمراء، وأنه كان من التواضع بحال من يذكر أن الازدياد من معرفة الله والإقبال على فعل الطاعات يفضل ما كان يشتغل به من مقارعة الابتداع على طريقة علم الكلام

وفى أبى الحسن خصلة يعز فى أهل العلم وجودها ، وهى الرجوع عن الرأى عند ما يستبين الحق ؛ وشاهد هذا أنه نفض يده من مذهب الاعتزال علانية عند ما استبان أن الحق فى جانب أهل السنة ؛ وكان قد صنف فى أيام اعتزاله كتابا كبيرا نصر فيه مذهب المعتزلة ؛ ولما صار الى مذهب أهل السنة ألف كتابا فى نقض ذلك الكتاب الذى نصر فيه مذهب الاعتزال ؛ وقد يقول فى بعض مؤلفاته : ألفنا كتابا فى مسألة كذا ، رجعنا عنه ، ونقضناه ، فمن وقع اليه فلا يعولن عليه .

وكان رحمه الله متجملا بالحياء والورع ؛ قال أحمد بن على الفقيه : خدمت الامام أبا الحسن بالبصرة سنتين ، وعاشرته ببغداد الى أن توفى ، فلم أجد أورع منه ولا أغض طرفا ، ولم أر أحدا أكثر حياء منه فى أمور الدنيا ، ولا أنشط منه فى أمور الآخرة . وكان ينفق من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن أبى بردة .

خصومه :

خصوم الرجل على قدر عظم شأنه ، فكلما ارتفع الرجل درجة ، أو ظهرت له مزية ، تألم لها من أحسوا من أنفسهم العجز عن أن يبلغوا شأوه ، فليس من العجيب أن يكون لمثل الأشعرى خصوم يناوءونه ، ويعزون اليه من المقالات ما لم ينطق به لسانه ولم يخطر على قلبه ، وليس من المعقول أن يقف الأشعرى لطوائف مختلفة المذاهب والآراء ، وقفة من لا يعرف ذلك الذى يسميه الناس رهبة أو إحجاما ، ويرجو مع هذا أن يمضى فى سلامة من أن يتحدثوا عنه فى غير أمانة .

ألصق به خصومه أقوالا لم تسمع منه فى مناظرة ولا توجد له فى كتاب، كما عزوا اليه أنه قال : إن المعجز هو كلام الله تعالى الذى لم يزل غير مخلوق ، ولا نزل إلينا ولا سمعناه قط ، وقد ساق الأستاذ ركن الدين أبو عبد الله محمد الجوينى فى كتاب عقيدة الامام المطلبى أشياء من هذه الأراجيف . وقال : « قد تصفحت ما تصفحت من كتبه ، وتأملت نصوصه فى هذه المسائل ، فوجدتها كلها على خلاف ما نسب اليه » ثم قال : « ولا عجب أن اعترضوا عليه واخترصوا ، فإنه رحمه الله تعالى فاضح القدرية وعامة المبتدعة ، وكاشف عوراتهم ، ولا خير فيمن لا يعرف حاسده » وتحدث القاضى عياض فى كتاب المدارك عمن يناوئون الأشعرى فنسب طائفة منهم الى الغلو فى ترك التأويل حتى وقعوا فى التشبيه ، ثم قال : « وأكثر من شنع عليه بالأندلس ابن حزم ، فإنه ملأ كتابه عليه وعلى أئمة أصحابه كذبا وتشانيع باطلة ، وذلك فى كتابه المسمى بالنصائح والفضائح » .

ولأبى العباس أحمد بن محمد بن عبد المنعم القرطبى رسالة رد بها على شخص تورط فى هجو الأشعرى ، تسمى « زجر المفترى ، على أبى الحسن الأشعرى » قال فى طالعها :

أسير الهوى ضلت خطاك عن القصد فها أنت لا تهدى لخير ولا تهدى

سللت حساما من لسانك كاذبا على عالم الاسلام والعلم الفرد

تورطت فى أعراض بيت مقدس رمى الله منك الثغر بالحجر الصلد

ومما قال فى وصف الأشعرى :

وسلّ حساما من بيان فهومه فرد سيوف الغى مفلولة الحد

وأبدى علوما ميزت فضل فضله كتمييز ذى البردين والفرس الورد

فجاءت مجىء الصبح والصبح واضح وسارت مسير الشمس والشمس فى السعد

سللن سيوف الحق فى موطن الهدى فغادرن صدعى الملحدين بلا لحد

وأيدن دين لله فى أفق العـلا بلا منصل عضب ولا فرس نهد
وأمضين حكم النقل والعقل فاحتوى كلام إمام الحق مجـداً على مجـد

أنصاره :

قلنا فيما سلف : إن الأشعرى لم يبتدع مذهبا جديدا ، وإنما هو مقرر لمذهب السلف المبنى على الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة وترك تأويلها حيث لم يعارضها قاطع من معقول أو محسوس ، فمزية الأشعرى أنه بسط البحث والمناضلة عنها بالحجج النظرية ، أى على طريقة علم الكلام ، وهى الطريقة التى مكّنته من الظهور على من يدرسـون أو يدعون الفلسـفة ، ويتعلقون فى الجدال عن مذاهبهم بشىء من آرائها ، ولأخذه بظاهر الكتاب والسنة ، وتصديه لمدافعة كل فرقة شاذة أو ضالة بمثل سلاحها ، كان لمؤلفاته الوقع الحسن فى نفوس أكثر أهل العلم من أتباع الأئمة ، قال القاضى عياض فى كتاب المدارك : « فلما كثرت تآليفه وانتفع بقوله ، وظهر لأهل الحديث والفقه ذبّه عن السنن والدين ، تعلق بكتبه أهل السنة ، وأخذوا عنه ، ودرسوا عليه ، وتفقهوا فى طريقه ، وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق فى الذب عن السنة وبسط الحجج والأدلة فى نصر الملة » .

وقد ينساق أبو الحسن الأشعرى فى مجادلة الخصوم الى آراء لا تمس أصول العقائد ولا ترجع الى صريح القرآن أو السنة ، وأكثر ما يخالفه فيه بعض علماء السنة الذين يجلونه ، كإمام الحرمين وغيره من الراسخين فى العلم ، عائد الى هذا القبيل .

أنكر بعض أهل العلم على الامام الرازى مناقشته للأشعرى فى بعض مؤلفاته ، فقال ابن السبكى : والإمام الرازى لا ينكر عظمة الأشعرى ، كيف وهو على طريقته يمشى ، وبقوله يأخذ ؛ ولكن لم تبرح الأئمة يعترض متأخرها على متقدمها ، ولا يشينه ذلك ، بل يزينه .

ومن معاصرى الأشعرى محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدى المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ٣٣٣، وهو من أئمة أهل الحق، وبينه وبين الأشعرى خلاف فى مسائل يعذر كل منهما صاحبه فى الاجتهاد فيها، ولا يراه حائدًا بها عن مذهب أهل السنة.

مؤلفاته:

لأبى الحسن مؤلفات كثيرة، حتى قيل إنها تزيد على مائتى مصنف، من هذه المؤلفات كتاب الفصول فى الرد على الخارجين على الملة من الملحدين والفلاسفة والطبيعيين، والدهريين، وأهل التشبيه، والقائلين بقدم الدهر، على اختلاف مقالاتهم وأنواع مذاهبهم، ثم رد على البراهمة، واليهود والنصارى، والمجوس، وهو كتاب كبير يشتمل على اثنى عشر كتابا.

ومنه كتاب الموجز، وهو يشتمل على اثنى عشر كتابا على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين فيها، وآخره كتاب الإمامة.

ومنها تفسيره المسمى بالمختزن، قال القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب القواصم والعواصم: وانتدب الأشعرى الى كتاب الله فشرحه فى خمسمائة مجلد، وسماه بالمختزن، ومنه أخذ الناس كتبهم، ومنه أخذ عبد الجبار الهمدانى كتابه فى تفسير القرآن الذى يسمى بالمحيط فى مائة سفر، ثم ذكر ابن العربى أن الصاحب بن عباد بذل عشرة آلاف دينار لخازن الكتب فى بغداد، فألقى النار فى الخزانة، فاحترقت الكتب، واحترق من بينها «المختزن» ولم تكن منه إلا نسخة واحدة فنفدت من أيدى الناس. وكان الصاحب بن عباد على مذهب المعتزلة، ولأبيه عباد بن عباس كتاب فى أحكام القرآن ينصر فيه مذهب الاعتزال.

وليس بين أيدينا من مؤلفات أبى الحسن غير كتاب الإبانة، وهو كتاب قرر فيه عقيدة السلف، ورد على ما يخالفها من آراء اعتزالية، ومنه يقف القارئ على طريقة الشيخ فى الرد على مخالفيه، ويعرف كيف كان يجمع فى الاستدلال بين السمع والعقل.

وفاته :

توفى أبو الحسن رحمه الله تعالى، فى بغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال أبو على زاهر بن أحمد السرخسى : لما قرب أجل أبى الحسن الأشعرى دعانى فأتيته، فقال : اشهد على أنى لا أكفّر أحدا من أهل هذه القبلة، لأن الكل يشيرون الى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف عبارات. ومات فى حجر أبى على هذا، وكانوا يصفونه عند النداء لجنازته بناصر الدين، ودفن فى تربة بين الكرخ وباب البصرة، قال أبو الحسن القابسى : لقد مات الأشعرى يوم مات وأهل السنة باكون عليه، وأهل البدع مستريحون منه. أفاض الله على قبره رحمة ونورا.

محمد الخضر حسين

الطرف والملح

قال سليمان بن عبد الملك : ما سألنى أحد قط مسألة يثقل علىّ قضاؤها، ولا يخف لدىّ أداؤها بلفظ حسَن يجمع له القلب فهمه، إلا قضيتها، وإن كانت المزية قصدت إلى منعه، وكان الصواب مستقراً فى دفعه، ضناً بالصواب أن يرد سائله، أو يحرم نائله.



سورة النور

٧

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ . ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

لما نزلت الآيات العشر السابقة ببراءة عائشة رضى الله عنها ، حلف أبو بكر الصديق رضى الله عنه ألا ينفق على مسطح ، وكان ابن خالته ، وكان فقيرا مهاجرا بدريا ، وكان ممن خاض فى الإفك ، فنزل قوله تعالى : (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ) الى قوله : (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فقال أبو بكر :

بلى إنى لأحب أن يغفر الله لى ، ورجع الى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه وقال لا أنزعها منه أبدا . وإن من ينظر الى جريرة مسطح من إيذائه لأبى بكر فى أعز شىء عليه وهو عرض ابنته ، مع قرابته منه ، وقد قيل :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على النفس من وقع الحسام المهند

ومع موالاة إحسانه اليه ، ولا شىء أصعب على النفس من مقابلة الإحسان بالإساءة ، ومع بقاء احتياجه اليه ، وليس أدل على السخافة وأوجب للدهشة من مهاجمة المحتاج من يحتاج اليه فى أعز عزيز لديه بلا موجب ، ومع كونه بلا وجه حق ولا دليل إثبات وما كان لمؤمن أن يهجم فى كبريات الأمور بلا تثبت ، ومع علاقة الأمر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنها من أعظم ما يجب الاحتياط فيه والتبصر فى شأنه قبل الإقدام ، نقول . إن من ينظر الى ما صدر من مسطح على هذه الصفات التى ذكرناها لا يستنكر من أبى بكر رضى الله عنه أن يحلف أن لا ينفق عليه بعد . وأىّ نفس بشرية تستطيع التسامح والإغضاء عن هذه الجريرة التى هى مجمع جرائم جمة ؟ ومع ذلك لم يتعد فى يمينه حقا من حقوقه وهو قطع إحسانه عنه ، وليس بواجب عليه بخصوصه أن ينفق عليه ، فلم يزد أمر مسطح عن أنه فقير ، وليس أبو بكر مكلفا أن يعول الفقراء ، ورابطة قرابته به وهى أنه ابن خالته لا تجعله واجب النفقة عليه ولو أن رجلا غير أبى بكر لكان له كل العذر عادة اذا أضمر له الشر وصمم على أن ينتقم منه ما استطاع ، ولو ليجازيه على كفر نعمته عليه ، ومقابلته الإحسان بالإساءة اليه .

مع هذا كله كان أبو بكر أسرع شىء الى إجابة داعى الله فقال : بلى إنى لأحب أن يغفر الله لى ، وعاد الى سابق إنفاقه متعهدا ألا يقطعه عنه ، بل روى أنه ضاعف له ما كان يجريه عليه ، وهذا أعظم مظهر لتمكن الإيمان من قلبه ، وأنه ممن ينطبق عليه قوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ) وأن

مرضاة الله فى طاعة أمره أحب اليه من متابعة عوامل نفسه . وإن هذه المسارعة بدون تردد ولا تلكؤ لأعظم برهن على أنه كان يتلقف كل ما يعلم تقريبه من ربه ليسارع الى جنته ورضوانه ؛ وإن الضغط على النفس حتى تنزل على ما أراده الله وأمر به لأصعب أنواع الجهاد حتى سمى ذلك فى الحديث الشريف جهادا أكبر ، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال حين رجع من غزاة : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » وأين مجاهدة الانسان لعدوه يستجمع له كل قوه الظاهرة والباطنة ويراه وجها لوجه من مجاهدته لنفسه التى بين جنبيه تزين له القبيح وتأخذه على غرة وعلى غفلة من أمر دينه ، وما أكثر الغفلات ، وتستعين عليه بداعى الهوى والشهوات ، ويعينها الشيطان بتحسين أو تهوين السيئات ، والتنفير من الحسنات ، إلا من عصم الله ؟

وإنك لتجد فى هذه الآية الكريمة بابا آخر من أبواب اليمن والخير يساق لنا بمناسبة هذه القصة فيحقق معنى من قوله تعالى : (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) ذلك هو تعويد النفوس احتمال الأذى ، وتحذيرها من أن تجعل منه قاطعا وصارفا عن فعل الخير ، فإنه من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ؛ ولن يكون الخير خالصا تمام الخلوص لوجه الله حتى تبتعد عنه حظوظ النفس ؛ وأى خير هو أبعد عن حظ النفس وهواها من أن تحسن الى من أساء اليها ؟ ولذلك قيل : « ليس الإحسان أن تحسن الى من أحسن إليك ، وإنما الإحسان أن تحسن الى من أساء إليك » ذلك أن الإحسان للمحسن وإن كان جميلا وفيه معنى الشكر ، لا أن فيه شائبة المعاملة والمقايضة ، وليس هذا فى الإحسان الى من لم يحسن إليك ، بله المسىء ، فقد جاءت هذه القصة مصورة أشد إساءة تلحق الانسان من الانسان ، ومع ذلك أمر المساء اليه بمعاودة إحسانه الى من أساءه ، فامتثل طيب النفس قرير العين بما يوصله الى رضا ربه . ومما يدل

على طيب نفس أبي بكر رضى الله عنه وقرة عينه تعهده أن لا يقطع ذلك عنه أبدا ، وما روى من مضاعفته له ما كان يعطيه إياه .

من هذا السياق تفهم أن معنى يأتل يحلف ، من الألية بمعنى الحلف ، يقال آلى على كذا حلف عليه . ويؤيده قراءة . ولا يتأل ، على وزن يتفعل ، وهو المناسب لسبب النزول على ما سمعت ، وقوله : أن يؤتوا ، أى على ألا يؤتوا ، وحذف لا النافية فى القسم مستفيض فى لغة العرب ، قال تعالى : (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ) أى لا تفتأ ، وقال الشاعر :

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى لا أبرح . وقال بعضهم : إنه بمعنى يقصر ، من قولهم : لا يألو يفعل كذا أى لا يقصر . ودعاهم الى هذا ما زعموه من أن افتعل يأتى من فعل لا من أفعل ، كقولهم : رضيت وارتضيت وكسبت واكتسبت ، ولا يقال أعطيت واعتطيت ولا أكرمت واكترمت ، وقولهم : التزمت بكذا هى فى مقابلة ألزمه لا بمعناها ، يقال ألزمه فالتزمه . وأيضا فإن الحلف كان على ألا يؤتوا ، لا على أن يؤتوا ؛ وقد عرفت جواب هذا الأخير وهو شيوع حذف لا مع القسم ؛ وأما جواب الأول فيكفى فيه النقل عن جمهور المفسرين فى الصدر الأول كابن عباس رضى الله عنهما وغيره ، بل جميعهم على أنه بمعنى يحلف ، وكل واحد منهم حجة فى اللغة ، فكيف بمجموعهم ! .

والفضل : الزيادة . وإنما تكون فى زيادة الخير والمحمدة ، ولذ يفسر بأنه ضد النقص ؛ والمراد الزيادة فى الدين حتى لا يتكرر مع قوله : « والسعة » فإنها بمعنى الزيادة فى المال ؛ والمراد هنا نهى أهل الفضل وسعة الرزق مطلقا عن الحلف على منع الخير عمن اتصف بتلك الصفات الآتية . ودخول أبي بكر رضى الله عنه فى ذلك مقطوع به على ما قاله الأصوليون من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولكن دخول الواقعة

التى هى سبب النزول مقطوع به، وكذلك قوله: (أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يراد به كل من اتصف بصفة من هذه، وهى واردة فى مسطح، وقيل فى جماعة منهم مسطح، وعلى كل حال فدخول مسطح فى هذا دخول أولىّ. وإنما ذكر هذه الصفات بطريق العطف مع أن الموصوف بها فى سبب النزول واحد، وهو مسطح للدلالة على أن كل صفة منها كافية فى استيجاب العطف عليه وموالاة إحسانه، فكأنه يقال: لو لم يكن له إلا قرابته أو إلا مسكنته أو إلا أنه مهاجر فى سبيل الله، لكان بذلك جدير أن يعفى عنه ويداوم على الإحسان عليه، فكيف وقد اجتمعت هذه الصفات كلها فيه؟ وهذا المعنى لا يستفاد اذا أتى بالصفات مترادفة بدون عاطف، فإنها قد يفهم منها أن المنهى عن قطع صلته هو من اجتمعت فيه تلك الصفات.

هذا وإن فى وصف أبى بكر رضى الله عنه بأولو الفضل والسعة بإطلاق دليلا على علو قدره فى الدين والخير، فإن فى الفضل معنى الزيادة فى الخير، وفى السعة فوق سعة المال معنى سعة الصدر والقلب وأنه بحيث لا ينبغى أن يضيق صدره لأمر فرط من أحد فى حقه. وقد حاول بعضهم أن يأخذ من الآية أنه رضى الله عنه أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتكب تمحلات متعسفة لا يسهل أخذها من الآية؛ وفضله رضى الله عنه ثابت وأدلته كثيرة، ولكن هذا شىء وإعطاء الآية ما يريدون شىء آخر.

والقربى: القرابة. والمسكين: من لا شىء له أو له مالا يكفيه، كأن الفقر قد أسكنته وأبطل حركته. وللفقهاء فى الفرق بينه وبين الفقير وأيهما أسوأ حالا كلام كثير، أحسنه أنهما اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا، أى اذا اجتمعا فى اللفظ افترقا فى المعنى وكان لكل منهما معنى يخصه، واذا افترقا فى اللفظ بأن عبر بواحد منهما كان معناه شاملا للفريقين. والمهاجرون فى سبيل الله: هم من هجروا ديارهم وأهليهم وأترابهم وأصحابهم فرارا بدينهم؛ وكأن الهجر حصل من الجانبين: جانبهم وجانب أهليهم؛ والمراد

بهم من هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، ومنهم مسطح ، بل كان مع هجرته من أهل بدر . وما ورد فى شأن أهل بدر من مثل « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم » ليس معناه عصمتهم ولا خروجهم عن دائرة التكليف ، وإنما معناه أن الله علم أنهم يموتون على إيمان وتوبة ، فلا مانع أن يلم منهم بالذنب من يلم ويتوب فيتوب الله عليه

وقوله تعالى : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا) اللام فيه لام الأمر ، وهى غالبا لأمر الغائب . والعفو : محو الذنب ، من قولهم عفت الريح رسم الديار وآثارها أى محتها . والصفح : الإعراض ، فكأنهم أمروا أن يمحوا أثر الذنب فلا يؤاخذوا عليه ، وأن يعرضوا عنه بتاتا فلا يذكروه ولا يلتفتوا اليه . وما أشبه هذا الأمر بأمره تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بقوله . (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ) : وإنها لمزية جليلة القدر لأبى بكر ، وفيها من عظيم الترغيب فى القدوة الحسنة من التجاوز عن المسىء والصفح عنه ما فيها ، فكيف وقد أردفت بقوله تعالى : (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ؟ ومن ذا الذى لا يشعر كل وقت بأنه فى أشد الحاجة الى أن يغفر الله له ؟ ومن ذا الذى لا تذوب نفسه حسرات كلما ذكر سيئاته فى حق مولاه المنعم عليه ، المتفضل بالإحسان اليه ، الممد له بكل ما لديه من قوة فيها يعصيه ويجاهره بالمعصية ، وهو مطلع عليه لا تخفى عليه منه خافية ، وكان من حقه أن يخاف بطشه فى كل حين ، أو أن يستحى من عصيانه بنعمته التى أنعم بها عليه ، أو أن يخجل من جلاله وعظمته فلا يفرط منه ما ينكره عليه ، وما من امرئ إلا وهو واقع فى شىء من هذا — إلا من عصم الله :

من ذا الذى ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط

فباب مغفرة الله لك هو أن تغفر لمن أذنب اليك ، بدلالة هذه الآية الكريمة (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

ومن جمال الأسلوب فى الآية الكريمة أن أتى الأمر والنهى فى صدرها بطريق الغيبة معلقا بالصفات التى من حقها أن تدعو الى امتثال الأمر واتباع الإرشاد : من كونهم أولى فضل وسعة ، وكون المطلوب العطف عليهم أولى قرابة ومسكنة وهجرة ؛ ثم لما جيء الى باب الترغيب والتشويق واجتناء الثمار ، عدل الى طريق الخطاب تقريبا لمنزلتهم ، ولإيلائهم عظيم الشرف بالزلفى حيث يقول لهم مخاطبا : (أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ) وإن فى هذا من التشويق ما يصعد بالنفوس الصافية الى عليين فيكاد يطير بها فرحا وتلهف على إحراز هذه المنزلة ، وتحليقا فى سماء العز فتنسى كل شيء فى سبيل الحصول على مقام الخطاب الأسمى ؛ فلا بدع أن كان من أبى بكر رضى الله عنه ما كان من مضاعفة الإنعام والإحسان ؛ وما أحسن ختامها بقوله . (وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) : ذلك الختام الذى يشوق أعظم تشويق الى التخلق بأخلاق الله ، والاقتداء بصفاته التى رضيها لنفسه ، ودعانا الى التمسك بها . من الغفران ، والرحمة ، والإحسان .

قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ) .

تضمنت الآية السابقة (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ) الخ تعطيفا على قوم ممن وقع فى هذه المهلكة ، فغير بعيد على بعض الأذهان أن يتطرق اليها أن فى هذا التعطيف تهوينا ما لشأن تلك الجريمة ، فعد اليها مفظما أمرها ، مشنعا على من وقع فيها ، شارحا عظم خطرها وشديد وعيدها ، وأى وعيد أشد من اللعنة فى الدنيا والآخرة واستحقاق العذاب العظيم ، وتقرير ذنبه بشهادة جوارحه عليه بما يخزيه ويقطع حجته ويسد عليه باب التنصل من ذنبه ؛ وحسبك بإردافه بأن سيوفى جزاءه الحق ، ويعلم — إن لم يكن قد علم — أن الله هو الحق ، وأن وعيده هو الحق ، وأن قوله هو الحق المبين ،

فقال جل شأنه : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ) وقد سبق لك القول بأن مثلهم فى الجزاء من يرمون المحصنين الغافلين المؤمنين ، وأن تخصيصهن بالذكر لأن أكثر ما يوجه مثل هذا القول البهن ، لأنهن عرضة لهذه الظنة غالبا ، ولأن تأثرهن بهذا الرمى أشد ، ورميهن به أفحش ، ولأن النساء غالبا لا يكاد يتعلق بهن أمر من أمور الحياة العامة كالظلم والعدوان أو ما يماثلها ، وإنما إذا جرى ذكرهن اتجهت الأذهان فى شأنهن الى أمر العرض .

وإن التشديد فى الوعيد فى هذه الآية بذكر اللعن فى الدنيا والآخرة مع العذاب العظيم ، ثم ذكر شهادة الجوارح الخ بالقياس الى ما ذكر فى الآية السابقة (إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ) ليناسب كل من الوعيدين ما ذكر فى جانبه أتم مناسبة ، فإن محبة الشىء وإن كانت تستدعى غالبا الوقوع فيه ، مغايرة لإيقاعه بالفعل ، خصوصا بصيغة الرمى والقذف . وما أحسن التعبير بصيغة الرمى : فإن الناطق بهذه الكلمة يقذفها لا يدرى من أصابت فى طريقها . من محصنة وأبيها وأخيها ، وزوجها وبنيها ، وعشيرتها التى تؤويها ، كل أولئك قدناالهم من قديفته الطائشة ، وهو ناعم البال لا يدرى من آلام أولئك شيئا .

ثم التعبير بهذه الصفات أنسب ما يوافق هذا المقام ، فالمحصنات : أى المصونات التى بولغ فى صونها حتى كأنها جعل عليها حصن منيع والغافلات : أى المنصرفات الذهن عن التفكير فى هذه الفاحش ، فلا تتجه إليها نفس منهن بتفكير ، فضلا عن التوجه اليها برغبة ، بل الوقوع فيها والمقارفة لها . والمؤمنات : معناه أولئك اللائى آمن بما أنزل على الرسول من أحكام وأذعن لها بالطاعة ، والتزمن حدود الإيمان ، فهن أبعد إنسان عن أن ينال منهن هذا المنال لفاحش . وبهذ يتبين لك سر تقديم (المحصنات الغافلات) على لفظ (المؤمنات) مع أن الإيمان أصل الفضائل بجملتها ،

ذاك أن استنكار الرمى مع صفتى التحصن وغفلة النفس عن تلك السيئة أقوى منه مع وصف الإيمان ، وكون وصف الإيمان أصلا على الإطلاق مستحقا للتقديم بالذات لا يمنع أن يكون لغيره تقدم خاص فى موضع من المواضع .

واللعن : الطرد من رحمة الله . ولعنهم فى الدنيا إما على لسان الملائكة والمؤمنين وإما على معنى طردهم عن الرحمة فى استحقاق الحد والتعذيب ، وألا تأخذهم بهم رأفة فى دين الله . وأما فى الآخرة فهو استحقاق العذاب العظيم ، فإن صاحبه أبعد ما يكون من رحمة الله ؛ وعظم العذاب بقدر عظم الجرائم . واللعن فى الدنيا والآخرة جزاء ما أقض من مضاجع ، ونال من كرامات ، وثلم من شرف ، وآذى من أبرياء ، إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

وقوله جل شأنه : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

لفظ يوم متعلق بما تعلق به قوله : ولهم عذاب عظيم ، أى يستحقون ذلك العذاب يوم تشهد عليهم الخ . وكان فى هذا إشارة الى أنهم يحاولون الإنكار والتنصل مما اقترفوا حين يرون ما يحل بهم من عذاب عظيم ، فيختم الله على أفواههم أن تنطق باختيارهم ، ثم ينطق ألسنتهم وجوارحهم بما اقترفوا ، قطعا لحجتهم وتسجيلا للخزى عليهم نظير ما أخزوا الأبرياء . وإنطاق الألسنة والجوارح بالشهادة لا ينافى الختم على الأفواه أن تتكلم بإرادة أصحابها ، فقد عقلت الألسنة أن تتخذ آلة للتحدث عن إرادة أصحابها ولكن أنطقها الله الذى أنطق كل شىء ؛ فهذه الشهادة يصح أن تكون باللفظ كما هو ظاهر النص ، ولا داعى لتأويله بالوقوف عند المألوف من أن المتكلم عادة إنما هو الشخص التام الخلقة والتكوين المستقل بهما ، فليس الوقوف عند المألوف بمقتض لصرف النصوص عن ظاهرها . ويجوز أن تكون الشهادة بلسان حالها كما يقال : نمت عليك عيناك ، وكما فى قوله تعالى . (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) وأيا كان فالمستيقن هو أن

الجوارح تشهد ، والظاهر هو أن الشهادة بالقول ، إبقاء للنص على ظاهره ، وإن كان البحث عن كيفية الأمور الغيبية بأزيد مما ورد لا يخلو عن مجازفة ، والله أعلم وقوله : (بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فيه تنبيه على أن شهادة الجوارح على أصحابها لا تقتصر على القول المذكور ، بل ستعم ما كان منهم من جرائم الأعمال كلها ، فتشهد كل جارحة على صاحبها بما صدر منها وما صدر من غيرها أيضا . والتعبير بكانوا يعملون فيه إشارة الى أن تلك الأعمال كانت ديدنا لهم وعادة ، ففرق بين عمل كذا وكان يعمل كذا

(يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ) .

أجل : حينذاك تخنع نفوسهم ، ويتبين ما حاولوا المراء فيه ، وتحق عليهم الكلمة وتنقطع عنهم الحجة . حينئذ يتبين الحق من الباطل ، وينصب الجزاء الحق على الذنب الذى انكشف وانجلى ولم يبق فيه مراء . يومئذ يوفيهم الله القادر القاهر ، من بيده ملكوت كل شيء وهو محيط بكل شيء ، يوفيهم دينهم وجزاء أعمالهم ؛ والدين يستعمل بمعنى الجزاء كقولهم : كما تدين تدان ؛ والحق : العادل الذى لا يزيد على جريرتهم ويقتنعون بحقيته وعدالته ، ويعلمون أن الله هو الحق فيما أرسل على ألسنة رسله من أمر ونهى ووعد ووعيد ، فقد بين لهم فى الدنيا ، وأقام لهم البينات جلية ظاهرة على يد رسله ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولكنهم كذبوا عناداً واستكبارا ، أو انصرفوا غفلة فتدهوروا فى الجرائم استهتارا ، أو جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، فها هم أولاء اليوم قد تبين لهم الحق جهارا ، وغشيهم من الهول مالا يستطيعون منه فرارا ، وعلموا أن دينهم الحق ، وأن جزاءهم هو العدل ، وأن الله هو الحق المبين ، المحق فيما حكم ، المبين لما شرع ، فيلحقهم الندم حيث لا ينفع الندم وتخصيص علمهم بهذا اليوم لأنه يصير علما ضروريا لا مرية فيه ولا تردد ولا يتوقف على استدلال ، فلا ينافى نسبة ذلك لعصاة المؤمنين .

وبعد فقد اختلف المفسرون فى المراد من المحصنات الغافلات فى هذه الآية : أهو كل محصنة غافلة مؤمنة ، وإن كان سبب النزول قصة عائشة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؟ أم هو خاص بعائشة رضى الله عنها وحدها ، أو مع باقى أمهات المؤمنين رضى الله عنهن ، نظراً الى شدة الوعيد باللعن فى الدنيا والآخرة ، وعظم العذاب وشهادة الجوارح ، وترك ذكر التوبة ؟ وذكر بعضهم أن الآية فى كفار قريش ، إذ كانوا يرمون المؤمنات المهاجرات بأنهن هاجرن للفجور .

والذى يظهر رجحان الوجه الأول ، وأن المراد كل من اتصف بتلك الصفات ، أى كل محصنة غافلة مؤمنة ، وعظم العقوبة على قدر عظم الجريمة ، فاستحقاق اللعنة وعظم العذاب وشهادة الجوارح ليست قاصرة على الكافرين ، وإنما المختص بهم الخلود فى العذاب ، وهو لم يذكر فى الآية ، وقد نيطت اللعنة فى آية اللعان السابقة بالكذب وليس كفرا ، وإن كان من أشد الجرائم ، وبخاصة الكذب فى رمى المحصنة بالفاحشة . وعدم ذكر التوبة هنا لا يفيد عدم قبول توبة من تاب ، فباب التوبة مفتوح ، حتى التوبة من الكفر بالإيمان ، وذلك معلوم من عموم النصوص الداعية للتوبة ، وليس بلازم تكرارها مع كل وعيد .

ومن طريف النكت ما ذكره بعضهم أن القاذف مطالب فى الدنيا لتصديق دعواه بأربعة شهداء ، فالقاذف يوم القيامة يقوم فى وجهه لتكذيبه خمسة شهود من جوارحه : لسانه ويداه ورجلاه ، تنكيلا له وفضيحة لشأنه ، جزاء وفاقا على محاولته فضيحة المحصنات الغافلات المؤمنات

(ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

هذا مبنى على سنة الله فى خلقه ، وحكمته الغالبة فيما بين الناس ؛ وأكبر مظاهرها ذوو القدر العظيم والخطر الكبير ، وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؛ ومعناه أن الخبيثات من النساء لا يلقن إلا بالخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال لا يقعون إلا على الخبيثات من النساء ، فكل عن مثيله يبحث ، وإليه يرد ؛ والطيبات من النساء إنما يهدين للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال يوفقون للطيبات من النساء .

هذه سنة الله الغالبة فى خلقه التى تظهر فيها حكمته البالغة ؛ فاذا تخلفت بحسب بادئ الرأى فى نظرنا لحكمة خفيت علينا فى بعض الحالات ، فهل يمكن أن تتخلف فى أطيب الخلق على الإطلاق ، بل هل يقبل العقل أن يصاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الدعاة الى الله ، المنتصبون لجمع القلوب على محبة الله ، هل يمكن أن يصاب أحد منهم بمثل هذا الوباء المنفر للطباع من الاتصال بمن أصيب به ؟ فكيف بصفوتهم وخيرهم وأفضل الخلق على الإطلاق ؟ وعلى هذا يكون المراد بالخبيثات والطيبات : النساء ، وبالخبيثين و لطيبين . الرجال ، ويكون «أولئك» إشارة الى الطيبين والطيبات ، والإخبار عنه بصيغة المذكر فى قوله « مبرءون » للتغليب ، وتكون الآية تختم القصة بحكم عام مقرر فى السنة الإلهية والحكمة المرعية ، وهى أن يختار الله لكل فئة ما يناسبها ويليق بها ، فلا يمكن أن يختار أخبث الخبيثات لأطيب الطيبين . وهذا قريب مما سبق فى آية (ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) على ما سبق تقريره ، ويكون ذكر هذه الآية كتقرير النتيجة للآيات السابقة .

وذكر بعضهم أن الخبيثات والطيبات ، أى من الكلام . للخبيثين والطيبين ، أى من الناس رجالا ونساء ؛ والمعنى أن خبيث القول إنما يوجه للخبيث من الناس ، والخبيث من الناس هو المستحق للخبيث من الكلام ، أو الذى يصدر عنه ذلك ؛ وكذلك الحال

فى الطيبات والطيبين ، و لإشارة فى أولئك للطيبين والطيبات تغليبا كما سبق ، وضمير يقولون للخبيثين أو الأفاكين . والذى يظهر هو الوجه الأول ، وكلاهما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

ووعد الله لهم بالمغفرة والرزق الكريم أى الجنة ، فيه أعظم بشارة للصديقة رضى الله عنها ، وفيه شهادة لها بأنها من أهل الجنة ، فالآية وإن كانت عامة ولكن دخول صورة السبب فى العموم دخول أوّلى مقطوع به على ما ذكره علماء الأصول .

هذا وإن من تأمل فيما تضمنته هذه الآى الحكيمة من حكم مفصلة ، وتعليمات قيمة ، وإرشادات بالغة ، وتربية للنفس ، وتهذيب للأخلاق ، وشفاء لأمراض القلوب ، وتنبيه على كيفية العلاج الشافى ، وتوجيه للنظر الى مغامز الشيطان ومكامن الداء ومن أين تأتى ليجتنب ، كل ذلك مع التنويع فى التربية وحياطة الأخلاق بالسياج المتين ، نقول : من تأمل فى ذلك علم كيف كانت الشريعة المطهرة تتعهد النفوس من جميع نواحيها بالتغذية والتربية والعلاج وتقويم الحية من جميع مناحيها ، وتجلى له أن بث الإرشاد ومختلف الأحكام بحيث يأخذ بعضها بحجز بعض هو الغاية القصوى فى التربية والتعليم الحكيمين ، وأن ما يتوهم بعض قاصرى النظر من جمال ضم كل نوع الى قرينه بباب وحده هو خرق فى الرأى ، وقصر فى النظر ، واغترار بالجهل ، فلا يسع عقل عاقل أن يعمد امرؤ فى تنشئته ناشئا قد عهد اليه به أن يجعل له يوما للغذاء بلا شراب ، ويوما للشراب بلا غذاء ، ويوما يكسوه ولا يغذوه ، ويوما يعالج داءه ويهمل غذاءه ، لو أنه فعل ذلك لكان من الحمق فى المكان المكين ، وإنما الحكيم العليم من يتعهد من فى عهدته بجميع حاجته ، فيمزج هذا بذاك ، ويضيف إليه من التعليم والتقويم ما يكفل له الكمال فى كل ناحية ، فسبحان الحكيم العليم ، ذى الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة : نسأله جل شأنه أن يهدينا الى سواء السبيل ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟ ابراهيم الجبالى

صاحب المنار

والصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الأذان

رحم الله امرأ عرف قدره

كتبنا فى الجزء الأول الصادر فى شهر محرم من هـذه السنة جوابا عن سؤال ورد إلينا يقول كاتبه : إن بعض الناس قال لمن أتى بالصلاة عقب الأذان : إنك أتيت جرما، فقلنا له : إن ذلك ليس جرما وحاشا أن يكون جرما فإن العلماء صرحوا بأنها بدعة حسنة ، ويصرح الشافعية بأنها سنة عقب الأذان من المؤذن وغيره ، وروينا فى ذلك ما جاء فى صحيح مسلم : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ » الحديث .

ثم قلنا ما ملخصه : إن المؤذن ممن سمع الأذان ، وكل من سمع الأذان طلب منه الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بمقتضى هذا الحديث الصحيح ، ثم هو مخير بعد ذلك ، فإن شاء ذكرها سرا وإن شاء ذكرها جهرا ، فكل ذلك محصل لامتثال الأمر النبوى، فإنه لم يلزمنا صلى الله عليه وسلم فى ذلك كيفية مخصوصة ، فأصلها مطلوب بالأمر العام الذى ورد به القرآن ، وهى بعد الأذان مطلوبة طلبا خاصا بمقتضى هذا الحديث . أما الكيفية فهى موكولة الى اختيارنا ، ولو كانت الكيفية المخصوصة لازمة للزمنا أن نبحث عن درجة جهرهم وإسرارهم وسرعتهم فى النطق بها وإبطائهم فى ذلك ، الى آخر ما قلناه فى تلك المقالة .

ثم قلنا : لا يصح أن يرمى من أتى بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بالإجرام ، ومن فهم أنها داخلة فى البدعة التى هى ضلالة فهو جاهل وجامد لا ينبغى أن يعدّ فى سلك

العلماء، والخلاف بين من يقسم البدعة الى حسنة وغيرها، وبين من يرى أن البدعة لا تكون حسنة، هو خلاف لفظى فى الحقيقة، فإن الأول أراد البدعة اللغوية، والثانى أراد البدعة الشرعية، وقد نقل ذلك التقسيم عن الامام الشافعى نفسه (الذى ليس من علماء القرون الوسطى) بل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سن سنة سيئة» يوافق هذا التقسيم الذى لم يفهمه الشيخ، فشنع عليه اغترارا بكلام من لا يرى التقسيم؛ وقد قلنا: إن من فوائدها بعد الأذان تذكير الناس بالعمل بالحديث المتقدم، بل الخروج من الإثم الذى يراه بعض العلماء فى ترك الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم عند ذكره، وقد سمعوا ذكره فى الأذان فوجب عليهم أن يصلوا عليه صلى الله عليه وسلم وإلا أثموا على هذا الرأى، فلو لم يكن إلا تذكيرهم بهذه السنة أو بهذا الوجب لكفى. فقامت قيامة الأستاذ الشيخ رشيد من أجل ذلك، فكتب فى مناره ما أكل الحكم فيه اليك بعد أن أتلوه عليك:

قال: «إنها بدعة فشت هى وأمثالها فى أمصار المسلمين بجهل المعممين أدعياء العلم بالسنة، الى أن يقول: وإننا لنعجب أشد العجب إذ نرى بعض كبار علماء الأزهر يفتون الناس ببدعة الزيادة فى الأذان ويزعمون أنها حسنة، الى أن يقول: إن لهم إذاً أن يزيدوا فى الصلاة ركعات أو سجدات، وهل يوجد دليل على امتناع ذلك وأمثاله غير كونه مخالفا للمأثور؟ وما الفرق إذاً بين الأذان وغيره؟ أما أنه لو فعل هذا كثير من العوام لأفتاهم باستحسانها مفتى مجلة نور الاسلام (يعنى الشيخ الدجوى)».

وأرجوك كل الرجاء أن لا تسأم من الأخذ والرد مع الشيخ حتى تعرف منزلته من العلم ومكانه من المنطق، ثم نذكر لك بعد ذلك مقدار تصلبه فى الدين، واحتياطه للكتاب والسنة، وهو اكتشاف غريب وتفكهة لذيذة.

(١) فنقول لفضيلة الأستاذ: ليس هذ زيادة فى الأذان، وإنما هو شىء فعل بعد انتهاء الأذان، فأين هذا من ذاك، وليس هناك من يجعل الزيادة من الأذان، بدليل

أنها تترك فى أذان المغرب ؛ وبدليل أنهم تارة يطيلون وتارة يقصرون ؛ وبدليل ما ذكره هو أنهم قد ينادون شيخ العرب (السيد البدوى) فهل يفهم أن ذلك كله من الأذان ؟ بل قد يذكرون شيئاً من القصائد فى مديحه صلى الله عليه وسلم بعد الأذان ، فهل يعتبر ذلك كله من الأذان ؟ اللهم إن الأمر واضح حتى عند العوام !.

(٢) أما قياسه ذلك على زيادة ركعة أو سجدة فى الصلاة فهو قياس ينبغى أن نتعجب منه أشد العجب ، فإننا لم نجعل ذلك من أجزاء الأذان ولا أدخلناه فيه ، فهو بمنزلة الذكر بعد الصلاة ، أو بمنزلة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ منها ؛ على أن الأذان لا يصح أن يقاس على الصلاة من كل وجه .

(٣) وإنى لأعجب أشد العجب من مجتهدنا الجديد الذى برز فى علم الأصول، وقتل المنطق بحثا حيث يقول : ما الفرق بين الأذان وغيره : مع كون الفرق فى هذا القياس الذى أراد أن يجعله برهانه الساطع ودليله القاطع أوضح من الصبح عند صغار الطلبة . ومن الذى لا يفرق بين الزيادة فى الشىء والزيادة عليه بعد الفراغ منه ؟ ولا بأس أن نفكهك بشىء من علم الشيخ وذوقه الرفيع :

يقول : إن هؤلاء القبوريين يدعون البدوى وأمثاله من دون الله (أى فهم كفرة) فانظر أولاً لسوء عقيدة الشيخ فى المسلمين ؛ وثانيا الى خطئه فى التطبيق ، وثالثا الى ذوقه فى الإتيان بما لا علاقة له بالمقام ، بل نداء السيد البدوى مما يرد عليه لو كان يدرى ؛ ورابعا الى خطئه النحوى فى قوله القبوريين ، وابن مالك يقول : والواحد اذكر ناسبا للجمع .

ولكن الشيخ أرفع من أن يقلد ابن مالك أو سيبويه ومن لطائفه أنه يعبر عن عصور النور والعلم عندنا بالقرون الوسطى تقليدا للأوربيين .

(٤) ثم نقول : ألا يكفى ذلك كله فى أن تكون المسألة محل نظر يصح الاجتهاد فيها لهذه الوجوه كلها ، فلا يضيق صدر الشيخ ممن يخالفه فيها ، وغاية أمرها بعد كل تنزل أن تكون خلاف الأولى بالكيفية المخصوصة لو سلمنا وجهة نظرهم ؟ !

(٥) ألم يقرر العلماء أن الأمر لا يكون منكرا يجب النهى عنه إلا اذا كان مجمعا على إنكاره ، أو كان فاعله يرى أنه منكر ؟ .

(٦) وبعد هذا يحسن بنا أن نناقش الشيخ مناقشة خفيفة فى عباراته البيغة :

يدعى أنه لا يوافق على هذه البدعة وأمثالها إلا أدعياء العلم المعممون الجاهلون . فليت شعرى أيجهل الأستاذ أن ذلك مذكور فى كل مذهب من المذاهب الأربعة ، وربما كان فى كل كتاب من كتبه ، أم يرمى أولئك المعممين كلهم بالجهل والغباوة ؟ !

(٧) ولماذا يعجب أشد العجب من فتوى بعض كبار العلماء باستحسان هذه البدعة ؟ أليس موافقا لغيره ممن لا يحصى كثرة من علماء المذاهب ؟ وهل هنالك محل لعجب بعد ما امتلأت الكتب بذلك ؟ .

(٨) بل ذكر حضرته قبل ذلك بقليل أن علماء القرون الوسطى قسموا البدعة الى حسنة وغير حسنة ، وقال : إن المعممين أفتوا باستحسانها ، فأى معنى لأن يعجب أشد العجب لمفتى مجلة نور الاسلام عند ما يقول ذلك ؟ .

(٩) ألم يكن فيما قاله هو ما يجعله يحس بما فى كلامه من تناقض أو شبه تناقض حيث دهش غاية الدهش مما ذكر هو أنه كان معروفا لدى علماء القرون الوسطى ؟ فما الموجب لعجب ولأشد العجب حينئذ ؟ : ولكن الشيخ لا يحس بما يقول

(١٠) ألم يبلغ الشيخ أن بعض تلك الطائفة التى بذروا فيها تلك البذور الخبيثة قد أثاروا بسبب ذلك شرا كبيرا فى كثير من البلدان ، ووصل الأمر فيها الى حد سفك الدماء ، وإبطال صلاة الجمعة ، وإفساد أمر البلد كلها بما حصل بينهم من التشاحن والتباغض ؟ . أليسوا بمنزلة من يبنى قصرا ويهدم مصرا لو فرضنا أنهم بانون !

خلاصة المقام

(١١) والخلاصة التى ينتفع بها القارئ فى هذا المقام أنه قد خفى الفرق بين الزيادة على الأذان والزيادة فيه على مجتهد آخر الزمان الشيخ رشيد ، ولذلك استباح

لنفسه أن يقول إن مفتى مجلة نور الاسلام لو سئل عن زيادة ركعة فى الصلاة لأفتى باستحسانها .

ونقول زيادة فى الإيضاح واهتماما بالموضوع إن أمر الصلاة والسلام على لنبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان هين جدا ، ومن الجرم أن يسمى جريمة ، ولسنا أول من قال إنها بدعة مستحسنة ، بل علماء المذاهب الأربعة مصرحون بذلك ، وليس كل ما لم يفعل على عهده صلى الله عليه وسلم يكون بدعة سيئة ؛ ومن فهم أن ذلك داخل فى قوله فى الحديث : « وكل بدعة ضلالة » فهو من أقل الناس علما ، وأضيقهم عقلا ، كما أنه ليس ذلك زيادة فى الأذان حتى يشبهه بركعة فى الصلاة ، أو يقول إنه زيادة فى العبادة المشروعة : بل هو عبادة مستقلة ، كما اذا قرأنا القرآن مثلا بعد الصلوات ، أو صلينا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكذلك الصلاة والسلام بعد الأذان سواء بسواء ؛ ولكن شيخ المنار ليس من أهل المنطق ولا الأصول ، ولا صلة له بصناعة البرهان ، فهو يرخى لقلمه العنان فيما يجول برأسه ، بلا ميزان يضبطه ، أو أصل يرجع اليه ، شأن من يأخذ علمه عن الأوراق لا عن العلماء .

ولا نزال نقول له : أترى علماء المذاهب كلها بهذا ، فإنهم قائلون باستحسانها فتقول إنهم لو سئلوا عن زيادة ركعة فى الصلاة لأفتوا باستحسانها كما قلت ذلك لمفتى مجلة نور الاسلام ، أم ذلك خاص بنا لغير معنى معقول ؟ . وليس يبعد على الشيخ أن يرمى من شاء بما شاء أو يرجح بلا مرجح ، ولهذا لم يتعرض لما ذكرناه فى مقالنا من التوجيه والاستدلال ، لأنه لا صبر له على الحوار المنطقى ولا الجدل العلمى ؛ وكأنه من قسم العامة الذين أشرنا اليهم فى صدر ذلك المقال ، لا من الخاصة الذين تكلمنا معهم فى آخره .

وقد سقنا لهم من الأدلة الصحيحة ما يقنع المنصف ؛ وقلنا : إن الصلاة مطلوبة وكيفيتها مباحة ؛ ولو كان استعمال العام فى بعض أفراده يخصصه ، أو المطلق فى بعض جزئياته يقيده ، لكان كل عام مخصصا ، وكل مطلق مقيدا ، لأن العام أو المطلق حين

استعمل لم يكن إلا فى بعض جزئياته ، ولكن الشيخ لا يعرف هذا ولا يحسنه ، ولذلك عدل عن الكلام فيه ، ونحن لا نستطيع أن نحاور إلا أهل البرهان وأرباب المنطق .

ألم يكن الأجدر بهم أن يقتنعوا أو ينصفوا فيقيموا لأولئك العلماء وزنا ، أو يقولوا : إن المسألة محل نظر فيصح فيها الاجتهاد ، وما يصح فيه الاجتهاد لا يتصلب فيه أهل العلم هذا التصلب ، ولا يجمدون فيه هذا الجمود ؟

مضحكات أو مبكيات

(١٢) هذا ، ثم نقول لحضرة العلامة المجتهد : مالك تأتى بالمتناقضات فتشن الغارة على مسألة يصح فيها اختلاف النظر والأمر فيها واسع ، ولا تحتاط هذا الاحتياط فى مسألة الربا المجمع على تحريمه ، وتبيح الانتفاع بالأرض المرهونة قياسا على ما قال بعض العلماء فى الانتفاع بالحيوان المرهون الذى يركب ويحلب بنفقته ، كما فى الحديث ، وهو قياس مع الفارق الواضح ، إن كنت تعرفه أو سمعت به ؟

(١٣) بل رأينا منك ما هو أطم وأدهى أيها المحتاط فى ترك الصلاة على النبى عقب الأذان ، رأيناك لم تحتط فى تفسيرك هذا الاحتياط عند ذكر الملائكة فى سورة البقرة ، فأخذت تتقرب من الماديين لتكون مجددا وعصريا بتأويل كتب الله على غير ما أراد الله ، بما يخرق الإجماع ، بل يصادم المعقول والمنقول ، فقررت أن الملائكة عبارة عن القوى الطبيعية . وليت شعرى هل تلك القوى الطبيعية هى التى وقع الحوار بينها وبين الله تعالى بقولها : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ؟ ؛ وهل تلك القوى الطبيعية هى التى أوجب الله علينا الإيمان بها وقال فى حقها : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ

ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً) الى آخر ما جاء فى الكتاب العزيز مما لا يعلم تأويله إلا شيخ المنار والراسخون فى علم المادة ! .

(١٤) ومثل ذلك ما قرره فى المكروبات عند ذكر الجن فى القرآن ، وليت شعرى هل هذه المكروبات الجنية هى التى كانت تعمل لسليمان ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوب وقدور راسيات ؟ وهل هى التى قال عفريت منها لسليمان عليه السلام : أنا آتيك به « بعرش بلقيس » قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ؟ وهل هى التى قالت لقومها : إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم الخ الخ ؟ .

(١٥) ومثل ذلك ما قاله فى مذهب دروِن فى أول تفسيره لسورة النساء ، وأنه يجوز تطبيق القرآن عليه . وما أدرى كيف يفعل فى قوله تعالى : (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ) الى آخر ماجاء فى الكتاب والسنة ، مع أن كثيرا من الأوربيين أنفسهم يأبون هذا المذهب كل الإباء . وهل يبقى مع تلك التأويلات وثوق بكتاب الله الذى أصبح قابلا لكل تأويل ، وأصبح المراد منه غير معروف حتى فى أصول الدين ، كالإيمان بملائكة الله تعالى ؟ فرحى مرحى أو برحى برحى : فأىّ خدمة أعظم من هذه الخدمة لدين الله وكتاب الله ، وأى إصلاح أكبر من هذا الإصلاح (الدينى والمدنى والسياسى) : وأى اجتهاد أجل من هذا الاجتهاد الذى يفوق اجتهاد الاسماعيلية والبابية ؟ . وهل هناك فرق بين هذا وبين تأويل الملاحدة من الباطنية الذين أطنب الشيخ فى الرد عليهم والتشهير بهم ، ونسى أن له من الترهات ما يفوق ترهاتهم حتى صدق عليه قول القائل : رق حتى انقطع ، وحلق حتى وقع :

أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

(١٦) وهل نسى الشيخ ما كنا نكتبه تحت عنوان « صاحب المنار وآدم عليه السلام » حتى تدخل بيننا السيد عبد القادر التلمسانى رحمه الله حينما جمعنا لأجل الصلح ببيت السيوفى والاتفاق على ما يرضى الله ورسوله ؟

(١٧) وهل نسيت يا حضرة الغيور على دين الله ما كان منك من تأبين رؤساء الإلحاد مما أفضى الى التقاضى أمام مجدى باشا عليه رحمة الله ؟ وإن الشيخ ليعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان ، بل أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله كما فى الحديث الشريف الذى لا يجهله الأستاذ (ومن ذاق حلاوة الإيمان يحب المرء لا يحبه إلا لله) ويقول الله فى كتابه العزيز : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) فهذ كلام الله ورسوله ، ولكن الشيخ لا تحكم عليه سنة ولا كتاب ولا منطق ، وكل ذلك تحت سلطانه وتصرفه وبديع تأويله . ولقد كتبنا فى هذه المجلة كلة عن إنكار الملائكة ، ورأينا أن نستر عليه فلم نصرح باسمه ، ولكن أبى عليه ذوقه وعقله إلا أن يضطرنا للتصريح ، ولعله أنفع للقارئ وأبلغ فى النصيحة .

(١٨) وهل نسى الشيخ ما أفتى به من حل صلاة التلاميذ المسلمين مع النصارى بالكنيسة ، ليغرس فى قلوبهم الخالية النقية تلك الطقوس النصرانية ، وينقش فى نفوسهم الساذجة ما يسمونه من القسوس والمبشرين هناك .

عظيمة العظائم

بل وصل الأمر من اجتهاد مجتهدنا (الذى يبحث فى جميع شئون الإصلاح الدينى والمدنى والسياسى) كما يقول فى مناره — أن اجترأ على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم عن أبى ذر من أن الشمس تسجد تحت

العرش ، وقال : إن الأنبياء لا تعرف هذه العلوم ، ولو كان رشيداً لم يضق صدره بذلك ولوسعه إيمانه بالغيب ، فإن لم يسعه إيمانه بالغيب فكان ينبغي أن يسعه علمه بسعة لغة العرب وكثرة مذاهب البيان فيها ، فإن ضاق علمه كما ضاق إيمانه فما كان ينبغي أن تضيق سياسته وهي التي وسعت الشرق والغرب وبيان ذلك أنه كان يستطيع أن يقرر فى الحديث ما قرره العلماء فى قوله تعالى حكاية عن الأرض والسماء : (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) وقوله تعالى : (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقوله تعالى : (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) وقوله تعالى : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) حتى قال كثير من العلماء : إنه بلسان المقال لا بلسان الحال ، بدليل قوله : ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، فإنا نعرف ما يدل عليه حالها ، فالذى لا نفقهه اذاً هو مقالها لا حالها ، وقد سبح الحصى فى كفه صلى الله عليه وسلم وإن لم يتسع صدره ولا إيمانه لذلك فكان عليه أن يخرج ذلك على وجه من وجوه المجاز أو الكناية ، ووجوه المخارج كثيرة ، وما أوسع لغة العرب لدى من يعرفها ، وكان ينبغى إذ لم يتسع صدره ولا إيمانه ولا علمه لشىء من ذلك أن تتسع سياسته لحسن المخرج منه بأية وسيلة غير تجهيل النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أن يرى البخارى أو غيره من رواة الحديث بالخطأ والكذب ، ولا يتعرض لرسول الله ، فقد كان تكذيبهم أهون من تكذيبه صلى الله عليه وسلم ، فما أضيق دينه وعلمه وسياسته ، وإن كان يبحث فى شئون الاصلاح الدينى والمدنى والسياسى !

وإنى أحس منك بامتعاض شديد غيرة على المقام النبوى ، ولعلك تستبعد صدور ذلك من الشيخ أو لا تصدقه ، فلننقل لك عبارته بنصها وفصها وما طعن به على أحاديث كثيرة فى البخارى غير هذا الحديث ، ثم ترقى من تكذيب الرواة فى تلك الأحاديث الى تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث :

قال فى مناره الصادر فى آخر رمضان سنة ١٣٢٧ صفحة ٦٩٧ من مجلد السنة المذكورة ما نعرض عليك محصله، لتحكم فيه، وليتضح به الموضوع الذى نحن فيه، فإنه كالمقدمة له : رد الأحاديث التى فى البخارى وغيره الناطقة بأن آية (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة) كانت قرآنا يتلى، وأن عمر قال ذلك بجمع من الصحابة ولم ينكر عليه أحد، وهو معروف لا مراء فيه ؛ ويستند حضرته فى ذلك الرد الى ما تعرف منه مقدار علم الشيخ وتفكيره . يقول . إن ذلك لو تم لكان يتخذ شبهة على القرآن من حيث حفظه وضبطه وعدم ضياع شىء منه ؛ ولم يفرق الشيخ بين النسخ الذى يكون من قبل الشارع ولا يعرف إلا من جهته ولا يكون إلا فى زمنه بإرشاده وتبيينه، وبين التفريط فى القرآن وضياع شىء منه . ثم رد الحديث الصحيح الذى رواه البخارى فى سحر النبى صلى الله عليه وسلم، رد ذلك بتمويهات وخيالات لا نطيل بها .

ومن المعلوم أن الأنبياء تجوز عليهم الأمراض البدنية والأعراض البشرية ولا فرق بين السحر الذى يؤذيه فى بدنه ولا تسلط له على الوحى، وبين كسر رباعيته يوم أحد . وكان عليه وهو المحدث الكبير — فيما يزعم — أن يطعن على سند الحديث ويجرح أحد رجاله، أو يبين أن فيه علة خفية كما يصنع أرباب هذ الشأن، وقد طعن فى أحاديث أخرى يطول فيها القول . ثم قال بعد ذلك كله مترقيا من رد روايات البخارى الى رد كلام النبى صلى الله عليه وسلم، وهى جراءة لا يصح أن تكون من مسلم يؤمن بالله ورسوله .

قال ما نصه : « ومثل هذا وذلك ما خالف الواقع المشاهد كرواية السؤال عن الشمس أين تذهب بعد الغروب والجواب عنه بأنها تذهب فتسجد تحت العرش وتستأذن الله تعالى بالطلوع الخ » الى أن قال : « فالشمس طالعة فى كل وقت لا تغيب عن الأرض طرفة عين كما هو معلوم بالمشاهدة علما قطعيا لا شبهة فيه » أى فكلام النبى كذب

لا شبهة فيه » : الى أن قال : « والأنبياء لا تتوقف صحة دعوتهم ونبوتهم على العلم بأمور المخلوقات على حقيقتها » الى آخر ما قال ، أى فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف ما عرفه الشيخ رشيد ، بل لم يدرك المشاهد المحسوس .

وليت شعرى ما الداعى إذاً له صلى الله عليه وسلم أن يدخل فى شىء لا يعرفه ولا سئل عنه ، بل هو الذى لفت نظر أبى ذر اليه وقال له حيث غربت الشمس : أتدرى أين تذهب ؟ فقال : الله ورسوله أعلم الخ . أما الشيخ رشيد فلا يقول الله ورسوله أعلم ، بل يقول : أنا أعلم ! ؛ وإن جوزنا عليه الخطأ فى المشاهد المحسوس كما هو رأى الشيخ ، فكيف نثق به فيما أخبر به من المغيبات التى هى وراء الحس والمشاهدة ! .

هذا ولتلاحظ أن الشيخ رشيد يؤول لنظريات الأوربيين التخمينية كتاب الله بما لا يخطر لأحد على بال . وإن نظرت فى منار شعبان من تلك السنة أيضا وجدت من السخافات ما يضحك الثكلى ويبكى الحليم .

وبعد فلا بد أن يكون الشيخ مكذبا لله أيضا فى قوله : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ) الخ ، فإنه أثبت السجود للشمس ، كما أثبته الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا فرق بينهما ، فما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر ، فالشيخ إذاً مخطىء لله ورسوله ، مكذب للقرآن والسنة . وإن شئت فقل مجهل لهما !

ولولا ضيق المقام لسردنا على القارىء الكريم ما يلهيه عن أكبر المصاب ، أو يغنيه عن أعظم الألعاب . ويكفى هذا اليوم ، ونصوص المنار عندنا إذا أرادها القارىء ، وإنى لأعلم أن الشيخ سيكيل لنا من السب والإقذاع ما يعرفه منه القراء ، ولكن هناك فرق بين قول باللسان وكلام يشبه الهذيان ، وبين ما يشهد له الوجدان ويقام عليه البرهان ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالازهر



......

بسم الله الرحمن الرحيم

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال . (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض لثيب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا نعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبي صلى الله عيه وسم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن لإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال . فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تر ه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرنى عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

ذكرنا الحديث فى العدد الماضى وتكلمنا على صدره ، وأعدناه هنا جميعه تيمنا به وعونا للمطالع على حفظه التمسا لبركته ، مع كونه من أجمع الأحاديث الشريفة لأصول الشريعة وفروعها كما سبق تقريره ، وإنه من أجل ذلك بدأ به بعض المحدثين كتبهم كأنهم رأوه من سائر الأحاديث بمنزلة أم الكتاب من القرآن الكريم .

وقوله : « قال فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » فيه ضمير قال الأول يعود للسائل ، وضمير قال الثانية يعود للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعنى طلبه الإخبار عنه طلبه تبيين معناه وتفسير المقصود منه ، كما يبينه ما ورد فى الرواية الأخرى « ما الإسلام وما الإيمان » الخ . وأصل الإيمان فى اللغة التصديق مطلقا . مأخوذ من الأمن ، كأن المصدق آمن المخبر من التكذيب ؛ وقد جاء فى الشرع على هذا الوجه مع تقييده بأشياء مخصوصة ، فهو التصديق بكل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعلم مجيئه به بالضرورة . وقد ذكر فيه الفقهاء والمتكلمون وعلماء الحديث أقوالا كثيرة مختلفة يقترب بعضها من بعض ، ويبتعد بعض منها عن بعض ، فى ماهيته ، وشروطه ، وأجزائه ، وهل يزيد وينقص ، وأطالوا فى ذلك بما لا نرى مجاراتهم فيه فى هذه الكلمة الموجهة لجمهور القراء ، وإنما نكتفى بكلمة وجيزة ، ومن أراد الاستقصاء استطاع الرجوع الى كتب الكلام ، ومبسوطات شروح الحديث ، وكتب الفقه .

والذى يعنينا من بين كلامهم أن الإيمان هو التصديق القلبى ، أى إذعان النفس وتسليمها وعدم جحودها ، وأنه مغاير للمعرفة الخالية من الإذعان وقبول النفس ؛ وعلى ذلك يكون من عرف فى نفسه معرفة يقينية مصحوبة بالجحود والتكذيب ، ورفض ما هو معلوم له عنادا أو استكبارا ، لا يسمى مؤمنا ؛ وذلك مثل الذين حكى الله عنهم بقوله جل من قائل : (ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ

فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وكما قال تعالى فى حكاية خطاب موسى لفرعون : (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) فوصفه موسى بأنه كان يعلم أن رب السموات والأرض هو الذى أنزل ، ومع ذلك كان كافرا لأنه كان يجحد ويرفض ما استقر فى نفسه علمه فلم يكن مصدقا ؛ وهذا أمر غير مسألة الإقرار باللسان ، بل هو عمل قلبى نفسى ، وهو طمأنينة النفس ما علمت وقبولها إياه ، وهو أمر اختيارى مغاير لما تسمبه انقداح المعنى فى النفس مما قد يكون اضطراريا . ومن هنا نعلم صحة التكليف بالإيمان نفسه ، خلافا لمن ظن أن التكليف به تكليف بالنظر والاستدلال ؛ وحمله على ذلك ظنه أن العلم أى التصديق أمر اضطرارى لا يستطيع دفعه عن نفسه من سلمت له الأدلة ، وإنما الأمر الاختيارى هو توجه النفس نحو المطلوب بالاستدلال عليه والنظر فى أدلته ؛ وقد عرفت أن العلم والتصديق القهرى قد يصحبه رفض المكابرة والعناد ، وإباء ما يلقى اليه ، مع علمه بحقيته ، بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فهؤلاء المنكرون مكابرة لا يسمون مؤمنين ، وإن كانت نفوسهم ممتلئة جزما بما توافر لديها من آيات بينة .

وكما لا يسمى هذا مؤمنا لا يسمى من نطق بلسانه وهو غير مصدق بقلبه مؤمنا ، وذلك كالمنافقين الذين كانوا لا يعتقدون بصدقه صلى الله عليه وسلم ومع ذلك يظهرون أنهم آمنوا ، نفاقا أو خوفا أو غير ذلك ، فهؤلاء إن علم أمرهم علما جازما أنهم يبطنون الكفر ، عوملوا معاملة الكفار ، وإن لم يعلم أمرهم قبل منهم فى الدنيا ، والله يتولى جزاءهم فى الآخرة . ومصداق الأول قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) الآيات فى أول البقرة ، وقوله جل شأنه : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) .

أما من آمن بقلبه وأقر بلسانه وأذعن للطاعة ، أى لم يشهر سيف العصيان تمردا وإباء ، ولكنه يترك ما كلف به من أمر ونهى ، كسلا عن الطاعات ، أو انهزاما أمام داعى الشهوات ، فلا يخرج بذلك عن معنى الإيمان والإسلام ، وإن كان عاصيا وفاسقا ، فيدخل فى وعيد العصاة والفاسقين ، ولكنه لا يدخل فى عداد الكفار المخلدين فى نار جهنم ، والله أعلم .

أما زيادة الإيمان ونقصانه فإنها لا ترجع الى التصديق والجزم ، وإلا فنقص الجزم لا يكون إلا بالشك ، ومتى شك وتردد فقد كفر . وإنما مرجعها واحد من أمرين : الأول أن اسم الإيمان وإن كان استعماله فى الأصل فى لسان الشرع للتصديق — قد يطلق على الأعمال لأنها ثمرته ومظهره ، فمن ذلك قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) فسروا الإيمان هنا بالصلاة الى بيت المقدس ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان » ونحو ذلك . والأمر الثانى أن التصديق الجازم وإن كان لا يقبل النقص ، إلا أن أثر التصديق يتفاوت بحسب قوة استحضار ما هو كامن فى نفسه أو غفلته عنه ، فإنك تجد شخصين مقبلين على نتيجة واحدة كلاهما عرضة لها ويعلم كل منهما أن لا مفر له من لقائها ، ولكنك تجد أحدهما دائم التذكر لها والاستحضار لما ينبغى أن يعدّ لها ، بينما ترى الآخر منصرف النفس عنها يؤلمه أن تذكره بها أو تمر بها على خاطره .

واعتبر بالموت الذى لا يشك أحد فيه وأنه ملاقيه : كيف ترى الكثير من النفوس منصرفا عن تذكره ، يتضايق ممن يلفته اليه ، أو يتكلم فيه أمامه . وانظر حال طلاب العلم فى تذكرهم ما هم قادمون عليه من الامتحان ونتائجه ، وعلمهم أن من رسب منهم لاقى من الخزى والهون ما لا يطيق عليه صبرا ، ومع ذلك لا تجدهم متساوين فى العمل على مقتضى جزمهم ، لأنهم ليسوا بمتساوين فى قوة استحضارهم ؛ وعلى هذا

يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فإن معناه لو استحضر ما كمن فى نفسه من عقيدة حقة ، وراعى أن الله عالم به مطلع على حركات نفسه قادر على البطش به ، لكان إن لم يرعو حذر العقاب ، انكمش حياء من عالى الجناب . نسأله تعالى التوفيق . ولنكتف بهذا القدر فى هذه المسألة ، ونرجع الى شرح الحديث :

قوله صلى الله عليه وسلم فى جواب السؤال عن الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » معناه أن الإيمان هو ما تعارفه أهل اللغة فى تخاطبهم ، وهو التصديق ؛ وإنما يخص بأنه تصديق بهذه الأشياء المذكورة ، فقوله : « أن تؤمن بالله » أى تصدق بوجوده تعالى ، وأنه لا يجوز عليه العدم ، وأنه موصوف بصفات الجلال والكمال : من العلم ، والقدرة ، والإرادة ، والكلام ، والسمع ، والبصر ، والحياة ، وأنه منزه عن صفات النقص ، وعن صفات الأجسام والمتحيزات ، وأنه واحد أحد ، فرد صمد ، خالق جميع المخلوقات ، متصرف فيها بجميع التصرفات ، يفعل فى ملكه ما يشاء ، ويحكم فى خلقه ما يريد ، ليس كمثله شىء ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

وقوله : « وملائكته » أى أن تؤمن بأن لله ملائكة ، هم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فهم مخلوقون قائمون بأنفسهم ، ليسوا قوة مودعة فى مخلوق آخر ، فيصح أن يكون منهم رسل ، كما قال تعالى : (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا) ويصح أن يعهد الى بعض منهم شىء من تنفيذ مراد الله فى خلقه ، كقبض الأرواح ، وتصريف الرياح ، وسوق الماء الى أرض جرز ، ونفخ فى الصور للبعث ، وهبوط بالوحى على الرسل ، وأمثال ذلك ، فمن ورد فى النص ذكر اسمه تفصيلا وجب الإيمان به تفصيلا ، كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ، وما ورد بصفة معينة كحملة العرش والكرام الكاتبين وجب الإيمان بهم على هذه الصفة ، وما لم يرد فى شأنه اسم معين ولا صفة مخصوصة وجب الإيمان بهم إجمالا .

ومن الحماقة أن يزعم بعض من لا خلاق لهم أن الملائكة عبارة عن القوى المبثوثة في عالم الكائنات لتنظيم وجودها ، كنظام الجاذبية أو الكهربائية أو ما أشبهها ، فهذا ومثله ما حمل عليه إلا ضيق العطن ، وظنهم أن ما لم يقع تحت بصرهم ولم يحسوه إحساسا مادياً فهو معدوم البتة وليت شعرى كيف التبس عليهم عدم العلم بالشيء بالعلم بعدم الشيء ؟ : وإذا كانوا لا يعترفون إلا بما علموه بحواسهم ، فماذا استفادوا من إيمانهم ؟ وأين هو الإيمان بالغيب الذى ذكره تعالى فى صفات المؤمنين بقوله : (وَيُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) ؟ !

هذا وللعلماء فى تحديد ماهية الملائكة كلام طويل ، فنهم من يقول : هم أجسام نورانية قادرة على التشكل بأى شكل تريد ، ومنهم من قال : إنهم جواهر قائمة بذاتها مجردون عن المادة ولواحقها ، وليس هذا الموضع مما يتسع لذكر قول كل منهم ودليله ، والذى يعنينا منه أن نؤمن بأن لله ملائكة هم الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم بالصفات التى أشرنا إليها سابقا ، وأما تحديدهم بالكنه فما لا سبيل اليه فى المغيبات ، بل قد نقول : إنه أصعب شىء فى المحسوسات .

وقوله : « وكتبه » معناه أن تؤمن بأن لله كتبا أنزلها على أنبيائه لهداية الناس وإرشادهم الى مصالحهم فى حياتيهم الدنيا والآخرة ، وأن ما فيها كلامه القديم الذى شاء من الأزل أن يُطلع عليه عباده على يد أنبيائه ورسله ، رحمة منه بالعباد ، ولكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

فنها القرآن الكريم المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هدى للناس وبينات ، ومنها التوراة والإنجيل والزبور وصحف المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

وقوله : « ورسله » أى أن تؤمن بأن لله رسلا من البشر اصطفاهم من خلقه ليبلغوا أمر ربهم ، ويشرعوا لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وأيدهم بمعجزة منه تحمل من اطلع عليها

على تصديقهم، تمييزاً لهم عمن يدعى هذا المقام السامى كذبا طمعا فى الإذعان له، وأن ينال من الاحترام والطاعة ما لا حق له فيه .

ولا يكون الإيمان بالرسل حتى يكون المؤمن غير مفرق بين أحد من رسله ، فكل من ادعى النبوة ولم يكن فى ماضيه ما يؤخذ عليه من المنفرات، وعرف بالصدق والأمانة ، وظهرت على يده معجزة أى أمر خارق للعادة لا يستطيع أحد من الناس أن تبلغه قدرته ، وجب الإيمان برسالته . والرسل عليهم الصلاة والسلام مصدقون بعضهم بعضا ، لا معارضة بينهم ولا مناقضة ، دعوتهم الى توحيد الله وتمجيده وعبادته واحدة ، وطريقهم فى الدعوة من الإرشاد والمصابرة والإقناع والإفهام بإقامة الحجة كذلك واحدة ، وإن اختلفت بعض أحكام الفروع حسب مقتضيات الظروف والأحوال المناسبة لكل أمة ولكل عصر ، وعلى ذلك يكون من آمن ببعضهم وكذب ببعض مع قيام آيته وبلوغ حجته بمنزلة المكذب للجميع ، فإنه إنما صدق من صدق حمية لنفسه لا طاعة لأمر ربه ، وإلا فلا فرق بين نبى ونبى فى أن كلا مبلغ عن ربه ، مؤيد منه بالآيات البينات والمعجزات الظاهرات .

وأنت تعلم أن المسلمين ولله الحمد قد آمنوا بجميع الرسل ، إذ جاء صلى الله عليه وسلم مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وأن كلا من عند الله ، وإنما جاء الذين يزعمون اتباعهما والإيمان بهما فيهما بتحريف من عند أنفسهم (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) ولذا كثر فيها التناقض والتخالف وذلك أمارة أنه ليس من عند الله كما قال جل شأنه : (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) و لإيمان بأولئك الرسل يستتبع الإيمان بصدق ما بشروا به من نبى عربى أى هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : « واليوم الآخر » أى يوم الدين ، يوم الجزاء ، يوم القيامة ، (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) .

والإيمان باليوم الآخر هو أكبر داع لامتثال التكليف ، وأعم باعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، فإنه وإن كانت الخاصة من المؤمنين تصل درجتهم الى أن يعبدوا الله لأنه مستحق لأن يعبد لذاته ، أو شكرا له على سابق نعمه ، فإن العامة تقصر نفوسهم عن هذه الدرجة العليا ؛ وأكبر عامل يحفزهم على امتثال التكاليف مع ما فيه من مشقة هو خوفهم من العقاب ورجاؤهم الثواب .

وقوله : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » أى أن كلا من عند الله ، فهو وحده المقدر للأشياء بحكمته ، المدبر للعالم بكل ما فيه بإرادته ، لا شريك له فى ملكه ، ولا معقب لحكمه ، فما من أمر يقع فى الكون إلا وهو بتقدير العزيز العليم ، أراده من الأزل ، وأوجده على حسب علمه القديم .

والقضاء والقدر معناهما إرادة الله الأشياء فى الأزل ، وإيجاده لها فيما لا يزال . فقيل : القضاء : تعلق الإرادة فى الأزل ، والقدر : إيجادها بقدرته على وفق إرادته . وقيل : بل القدر تقديرها وإرادتها من الأزل ، والقضاء إيجادها ، كما فى قوله تعالى : (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ) وانقسام القدر الى الخير والشر هو بالنسبة لما يبدو لنا ويوافق مصالحنا الخاصة ، وإلا فباعتبار النظام العام كلٌّ خير ، وكل حسن ، وما من شىء إلا وله فيه حكمة بالغة ، ومستوفٍ كل جمال ، وهو أبدع ما تصل اليه المدارك لو اطلعت على مجموع الكون ؛ وكل هذا باختياره ومشيئته لا وجوبا عليه ، فهو مالك الملك ذو الجلال والإكرام . وإنما خص القدر بالذكر مع دخوله فى الإيمان بكتب الله ورسله إذ تضمنت الكتب أن كلا من عند الله وبلغت الرسل ذلك —

لأن بعض من يزعم لنفسه الإيمان يغالى فى تنزيه الله عن بعض ما لا يعجبه ولا يروق فى نظره، فينسبه لشريك لله — حاشا وكلا، وذلك كالمجوس الذين ينسبون الخير لإله الخير وهو النور بزعمهم، والشر لإله الشر وهو الظلمة فى اعتقادهم؛ وقد تبعهم بعض من يدعى الاسلام فوقعوا جهلا فى هذه العقيدة الفاسدة، وهم القدرية، ولذا قيل: القدرية مجوس هذه الأمة.

وقوله: « أخبرنى عن الإحسان » الخ - قد سئل عن الإحسان أيضا لوروده فى آيات كثيرة تدعو اليه وترغب فيه، كقوله تعالى: (ثُمَّ ٱتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا) وقوله: (هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ) وقوله: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ) وكقوله: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) والإحسان يستعمل على وجهين — تارة معدى بإلى، يقال أحسن اليه، إذا أنعم عليه وأولاه يدا، وتارة بدونها كقولهم: أحسنَ العمل، أى أتى به على أكمل وجه؛ وهو هنا بالمعنى الثانى، إذ المراد إحسان العبادة وإتقانها.

وإن هذا لإرشاد من أعظم طرق التربية والتعليم، بل من جوامع الكلم فى ذلك، فإن العبد إذا استحضر ربه فى مقام العبادة استحضارا كاملا، كان ذلك مدعاة لإخلاص العبادة، واستكمال كل ما يطلب فيها من سنن ونوافل، مع الخشوع والخضوع وعظيم الإقبال والإجلال. وإنك لترى المرء إذا كان يرى أباه أو رئيسه أو أحدا ممن يجله ولو كان مساويا له فى المنزلة، يجتهد فى أن لا يرتكب أمامه ما يكرهه، فيكف بهذا المقام بين يدى أحكم الحاكمين، مالك يوم الدين، مالك النواصى، واهب النعم، ذى الجلال والإكرام؛ وانظر إلى قول الشاعر:

يمثلك الشوق الشديد لناظرى ... فأطرق إجلالا كأنك حاضرى

فاذا ضعفت نفسه عن هذا الاستحضار وجب ألا يغفل عن أن الله يراه ، ويعلم سره ونجواه ، وهذا هو سر الحياء ومحل المراقبة فى الحقيقة ، فإن إجلالك لمن تراه إنما هو لأنه يراك ، حتى لو كنت تراه وهو لا يراك ما كلفت نفسك معه ما كلفتها ، وهذا المعنى متحقق بالنسبة لعلام الغيوب مع الجوارح والقلوب ، فيجب أن يراعى ذلك لاجتناء ثمره . وإنك لتجد هـذا المعنى حارسا قويا على المكلف يصونه إذا راعاه عن الوقوع فى المعصية ، فمتى هم بها ورأى برهن ربه جليا واضحا ، وقام فى نفسه مقتضى إيمانه مستحضرا ظاهرا ، ولاحظ أن ربه مطلع عليه يراه وإن لم يكن هو يراه ، فرّ من المعصية إما فرار الخائف الحذر ، أو فرار المستحي الخجل .

وهذا هو الذى حصل ليوسف عليه السلام ، فقد هم بها ، أى تحركت نفسه التحرك البشرى الذى هو مقتضى الخلقة والطبيعة البشرية ، لا الهم بمعنى العزم والإرادة الاختيارية ، فلما رأى برهان ربه ، وتمثل فى نفسه مقتضى إيمانه به ، واستحضرت نفسه ما وقر فيها من عقيدة مستيقنة ، فر من بين يديها بدينه (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ) .

وتأمل إن شئت قوله جل شأنه بعـد آيات : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ) فإنه رتب على توجه كيدهن اليه صبوته وميل نفسه ، وعقبه بأكن من الجاهلين ، لأن الميل إذا استحكم صرف النفس عن استحضار معلوماتها ، وطمس على القلوب أن تتفكر فيما قر فيها ، فيجهل ، بل يذهل المرء حتى ينفذ أمر الله .

وهذا مغزى قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » أى مستحضر معنى إيمانه الذى هو به جازم ، فكأن العقيـدة المذهول عنها التحقت بالعدم ، إذ لم تثمر ثمرتها ، وهى منعه وصيانته من الوقوع فى المعصية . وكذلك الإحسان

فى باب الطاعات — على ما سبق — مدعاة لكمال الخضوع والخشوع والإخلاص فيها ، وصدق التوجه الى الحق جل جلاله ، بل تقول فى المباحات : إن من استحضر مقام الإله كأنه يشاهده ، أو عجز عن ذلك فراعى ما يجزم به وتنطوى عليه نفسه من رؤية الله إياه ، حمله ذلك على مراعاة الآداب ، وأن لا يستغرق فى لهو الدنيا ولعبها ، بل تتجه نفسه الى حياة الجد والعمل .

واعتبر نفسك مع والدك وأنت صغير ، أو مع من تجله وأنت كبير ، فهل ترى من الأدب اللائق بك أن تشغل نفسك بلهو ولعب وحياة باطلة ؟ فأنت ترى أن مقام الإحسان ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، مقامُ الحارس المقوّم الناهض بالنفس الى درجات الرقى فى الفضيلة ، و لتدرج فى مدارج العبادة بل السعادة .

وإنى لأحسب هذا المقام هو المشار اليه بقوله عليه السلام فى أبى بكر : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجح بها » فذلك هو قوة الاستحضار حتى كأنه يراه ، أو ملاحظة أن ربه فى كل حين يراه . نسأل الله أن يحققنا بمقام الإحسان ، وأن يعاملنا منه بالإحسان ، إنه هو اللطيف المنان ؛ وموعد تتمة الكلام على بقية الحديث العدد القادم ، إن شاء الله . والله أعلم ؟ ابراهيم الجبالى

الطرف والملح

لما قتل ذو الرياستين دخل المأمون على أمه فقال : لا تجزعى فإنى ابنك بعد ابنك . فقالت : أفلا أبكى على ابن أكسبنى ابنًا مثلك !

الفتاوى والأحكام

النذر

ورد الى ادارة المجلة السؤال الآتى :

ما قولكم دام فضلكم فى رجل نذر أن يدفع لأهل البيت رضى الله عنهم جزءا من ماله أصلا وربحا ، وجزءا آخر للفقراء كذلك ، ثم إن هذا الرجل يقيم فى جهة تحتاج الى من يرشدها فى دينها وليس لها قوة على إحضار عالم بأجر ، فهل يجوز أن يدفع للعالم أجره من المنذور أم لا ؟ وهل يصح النذر لأرباب القبور أم لا يصح ؟

عبد السلام محمود ماضى
أويش الحجر — دقهلية

الجواب

النذر قربة أوجبها العبد على نفسه بالتزامه ، فمن نذر نذرا غير معلق بشرط كأن يقول لله علىّ صوم شهر ، أو لله على أن أحج حجة ، أو لله على صلاة ركعتين ونحو ذلك مما هو طاعة مقصودة ، فعليه الوفاء بما نذره ، لقوله تعالى : (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ) ولقوله عليه الصلاة والسلام : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » ولانعقاد الإجماع على وجوب الوفاء به . ومن نذر نذرا معلقا بشرط فوجد الشرط فإنه ينظر الى الشرط الذى علق به النذر ، فإن كان شرط يرغب فى حصوله كما لو قال : لوشفى الله مريضى فعلىّ صوم شهر ، أو إن نجح ولدى فى امتحانه فعلى حجة ، فوجد الشرط ،

لزمه الوفاء، ولا يجزيه إلا فعل عين المنذور، لأنه حيث أراد كونه كان راغبا فى حصول المنذور أيضا، فكان النذر فى معنى المنجز، فيندرج فى حكمه وهو وجوب الإيفاء به. وأما إذا كان النذر معلقا بشرط لا يريده الناذر كما لو علقه على دخول دار لرجل لا يحبه أو تكليم خصم له فوجد الشرط، فإن الناذر بعد حصول الشرط مخير بين الإيفاء بما سمى وبين أن يكفر كفارة يمين، لأنه لما لم يرد حصول المعلق عليه، علم أنه لا يرغب كون المنذور ولا حصوله، بدليل أنه جعله مانعا من فعل الشرط، لأنه لما علق النذر على ما لا يريد كونه، أراد بالضرورة منع نفسه منه. ولا ينافى ذلك أن يكون المنذور عبادة لأن الإنسان لا يريد إيجاب العبادات دائما وإن كانت مجلبة للثواب، مخافة أن يثقل الأمر عليه فيتعرض للعقاب.

ويشترط لصحة النذر ووجوب الوفاء بالمنذور شروط — منها أن يكون المنذور عبادة مقصودة لذاتها، فلا ينعقد النذر بالمعصية، فمن نذر قتل زيد أو سرقة ماله أو غصب داره وما الى ذلك من المعاصى التى هى حرام لعينها أو ليس فيها جهة قربة، لم ينعقد نذره ولم يصح، ولكن تلزمه كفارة يمين بالحنث. وأما إذا نذر ما فيه قربة ولكنه قترن بمعصية فإن نذره يصح ويلزمه الوفاء بالقربة على غير الوجه الذى تقترن فيه بالمعصية، فمن نذر صوم يوم النحر يصح نذره ويجب عليه الوفاء بصوم يوم غير يوم النحر، لأن لزوم الوفاء بالنذر معناه لزوم الوفاء بأصل القربة لا بكل وصف التزمه، فصح التزام الصوم من حيث هو صوم مع إلغاء كونه فى يوم العيد وعلى هذا يتفرع أن من نذر أن يتصدق بهذ الدرهم فتصدق بغيره عن نذره، أو نذر التصدق فى هذا اليوم فتصدق فى غد، أو نذر أن يتصدق على هذا الفقير فتصدق على غيره، أجزأه عن نذره، وكان بهذا خارجا عن عهدة النذر الذى التزمه، ولا يقال إنه أتى بغير ما نذره، لأن لزوم ما التزمه إنما كان باعتبار ما هو قربة لا باعتبار آخر، وقد أتى بالقربة الملتزمة. ومثل ذلك ما اذا نذر صلاة ركعتين فى المسجد الحرام فصلاهما فى غيره ولو أقل درجة منه لما علمته من أن الغرض هو القربة.

ومنها أن يكون المنذور أصل فى الفروض كالصوم والصلاة والصدقة ، فلا يلزم الوفاء بعبادة نذرت وليس من جنسها فرض ، فمن نذر على نفسه عيادة مريض أو تشييع جنازة أو دخول مسجد أو بناء قنطرة أو بناء رباط وسقاية ونحو ذلك ، لا يلزمه الوفاء لأن هذه الأمور ليست عبادة من جنسها فرض .

ومنها ألا يكون المنذور واجبا عليه قبل النذر ، فلو نذر حجة الاسلام أو صلاة ظهر ذلك اليوم أو صلاة ظهر غد لم يلزمه غيرها (أى غير المكتوبة) .

ومنها ألا يكون ما التزمه أكثر مما يملكه ، فلو نذر التصدق بألف وهو لا يملك إلا مائة ، لزمه المائة فقط .

وإذ قد علمت أن المنذور يجب الوفاء به متى كان مستوفيا الشروط التى قدمناها فاعلم أن من لم يقم بما أوجبه والتزمه فعليه الإثم ، فمن نذر أن يتصدق بشىء يملكه ولم يفعل ، أثم . وقد علمت مما تقدم أن الغرض من النذر القربة ، وأن النذر لا يتقيد بزمان ولا بمكان ، فمن نذر أن يتصدق على فقراء أهل المدينة جاز أن يتصدق على فقراء الكوفة ؛ ومن نذر أن يتصدق فى مسجد السيد البدوى بشىء معين من ماله جاز أن يتصدق بذلك المال فى مسجد الامام الحسين أو فى بيته ، لأن الغرض القربة ؛ ومن نذر أن يتصدق بماله على المساكين ولا مال له لم يصح نذره ، فلا يلزمه شىء ؛ ومن نذر أن يتصدق بجزء من ماله وكان المال موجوداً فأخر الوفاء الى أن أعسر بعد اليسار ، أثم ، وإن كان نذره معلقا وجاء الوقت ولم يكن بيده شىء ، لم يأثم ؛ ومن نذر أن يذبح هذا الجمل ويتصدق بلحمه على الفقراء صح نذره ، ولكن لا يلزم خصوص هذا الجمل فلو ذبح غيره من الجمال أو ذبح بدله سبع شياه جاز ؛ ومن نذر أن يتصدق بخبز مقرر جاز أن يتصدق بدله بثمنه ؛ ومن نذر صوم شهر معين كرجب مثلا لزمه متتابعا ، لكن إن أفطر فيه يوما قضاه وحده ولا يستقبل الصوم ، ومن نذر صوم شهر دون تعيين

كان بالخيار عند الوفاء بين أن يتابع الصوم وبين أن يفرقه — إلا إذا شرط التتابع في الصوم فيلزمه ؛ ومن نذر أن يحج سنة ٣٥٣ فحج سنة ٣٥٢ صح ، لأنه تعجيل بعد وجوب السبب وهو النذر ، فيلغو التعيين .

إذا تقرر هذا فلنرجع الى سؤال السائل فنقول : إن كان الغرض من جعل بعض المال لآل البيت رضوان الله عليهم التصدق على الفقراء الذين يوجدون في المساجد المنسوبة لآل البيت كما هو الظاهر من صنيع الناس ، صح النذر ولزمه الوفاء ، ولكن لا يلزمه أن يتصدق على خصوص هؤلاء الفقراء ، ولا في خصوص المكان الذي ذكره في نذره ، لأن الغرض القربة الى الله وسد خلة المحتاج ، وذلك يتحقق بإعطاء أي فقير كان ، وإن كان الغرض للناذر تمليك المنذور لآل البيت (وهو غير ظاهر ولا مقصود للناس) فهذا النذر على فرض إرادته يقع غير صحيح ، لأن آل البيت رضي الله تعالى عنهم قد فارقوا هذه الدنيا ، فليسوا الآن بالذين يقبلون التمليك ولا بالذين يملكون ، فلا يصح النذر لهم إلا على الوجه الذي بيّنا قبلُ من حمل عبارة الناذرين على عرفهم وما يقصدونه ، وهو أن الغرض التصدق بالمنذور على الفقراء الذين يكونون في مساجد آل البيت ، وقد علمت صحته وما يجوز فيه ، وأنه لا يتقيد بزمان ولا بمكان .

ويبعد أن يكون الغرض الذي يسأل عنه السائل هو النذر لآل البيت من الأحياء ، لأن هذا لا خفاء فيه ، وعلى فرض إرادته فإن الحكم فيه هو أن من نذر التصدق على فئة من آل البيت الأحياء فلا يخلو : إما أن يكونوا فقراء أو أغنياء ، فإن كانوا فقراء صح النذر ولزم الوفاء به ، وإن كانوا أغنياء لم يصح إلا إذا كانوا من أبناء السبيل لعدم القربة .

وإذ قد تبين أن النذر يجب الوفاء به متى استوفى شروطه ، اتضح أن المنذور للفقراء لا يصح صرفه أجرا للتعليم . أما النذر لأرباب القبور بأعيانهم فغير صحيح ، لأنهم ليسوا أهلا للملك والتملك ، أما من نذر أن يتصدق بجزء من ماله على الفقراء ليكون ثواب ذلك لأبيه المتوفى أو لغيره ، فذلك جائز . والله أعلم ؟ طه حبيب

عضو المحكمة العليا الشرعية سابقاً

الصلاة فى الطيارة

ورد من حضرة محمود محمود التاجر بالمغربلين السؤال الآتى :

ما حكم الشريعة السمحة فى الصلاة فى الطيارة ؟

الجواب

إن كانت الطيارة مستقرة على الأرض جازت الصلاة فيها وإن أمكنه الخروج منها ، لأنها اذا استقرت كان حكمها حكم الأرض ، ولا تجوز الصلاة فيها حينئذ إلا من قيام بركوع وسجود متوجها الى القبلة ، لأنه قادر على تحصيل الأركان والشرائط . أما إن كانت طائرة فإن أمكنه وقف السير والنزول بها الى الأرض من غير ضرر ، يستحب له النزول ، لأن فيه أمنا من دوران الرأس حين الصلاة فى الطائرة ، وهذا قد يحوجه الى القعود .

واذا صلى بها بركوع وسجود قائما متوجها الى القبلة أجزأه ، واذا درت وهو يصلى يتوجه الى القبلة حيث دارت ، لأنه متى كان قادرا على تحصيل الشرط وجب عليه تحصيله ، وأما إن عجز عن القيام بأن علم أنه يسبب له دورانا فى الرأس أو مرضا آخر وكان عاجزا عن النزول بالطائرة الى الأرض صلى فيها قاعدا بركوع وسجود ، لأن ركن القيام يسقط بعذر العجز ، وإن لم يقدر على الصلاة قاعدا بركوع وسجود وكان لا يمكنه النزول بالطائرة الى الأرض ، صلى متوجها نحو القبلة بومئ بالركوع وبالسجود ، ويجعل إيماء السجود أخفض من إيماء الركوع .

هذا ما يمكن تخريجه على قواعد أئمتنا ويؤخذ من نصوصهم فى الصلاة على الدابة وفى السفينة . والله أعلم ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

المسيح الدجال - والمهدى

وورد السؤال من حضرة عبد الله سليم بدوى بأبى صوير شرقية عن :

المسيح الدجال ، ومجيئه آخر الزمان ، ودرجة الأحاديث الواردة فى ذلك ، مع ذكر تخريج تلك الأحاديث .

الجواب

اعلم أن من لطف الله تعالى ورحمته لعباده بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام ليبينوا للناس ما لا تستقل به عقولهم ، وليعضدوا العقل فيما يستقل بمعرفته ، مثل وجود البارى وعلمه وقدرته ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليؤمنوهم ويزيلوا خوفهم عند الإتيان بالحسنات وعند تركها ، وليبينوا لهم حال الأفعال التى تحسن تارة وتقبح أخرى من غير اهتداء العقل الى مواقعها ، وليعلموهم الأخلاق الفاضلة التى ترجع الى الأشخاص ، والسياسات الكاملة التى تعود على الجماعات ، وليرشدوهم الى ثواب المطيع وعقاب العاصى ، ليرغبوا فى الحسنات ويحذروا السيئات .

وصفوة القول أن النظام الذى به صلاح حال النوع فى معاشه ومعاده لا يكمل إلا ببعثة الأنبياء . لهذه الحكم جميعها كان من لطف الله تعالى إرسال الرسل ، وقد أرسل الله سبحانه وتعالى جل شأنه رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وجعله خاتم المرسلين ، وجعل شريعته صالحة لكل زمان ومكان ، وأكمل برسالته الدين . قال تعالى : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا) . ولما كانت النفوس مجبولة على التعلق بالشهوات ، راغبة عن

التكاليف ، ميالة الى اتباع الهوى ، لم يخل الله سبحانه وتعالى الأرض من دعاة الى الحق يرشدون الناس الى أحكام دينه والى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة ، ويرغبونهم فى الطيبات ، ويبينون لهم ما يغيب عنهم من أوامر ونواه ، رحمة منه سبحانه وتعالى بعباده ، غير أنه يعرض على الناس ما يلهيهم عن الطاعة وعن التمسك بالدين ، فتسوء حالهم ويتفشى فيهم الجهل ، فيبتعدون عن الصراط السوى ، وتكثر الفتن ، ويسود أهل البدع ودعاة الضلالة ، ويصبح الإسلام وقد بلغ أهله من الضعف ما لم يستطع البليغ وصفه ، ولقد يكثر هذا كثرة زائدة حين يأذن الله سبحانه وتعالى بقرب زوال الدنيا .

ولقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن لقرب الزوال أمارات هى أشراط الساعة التى بيّنها صلى الله عليه وسلم ، ومن هذه الأمارات التى تكون عند ما تبدأ ساعة الزوال دقاتها ظهور رجل يدعى الألوهية يسمى المسيح الدجال يختبر الله به عباده ؛ وقد أقدره الله على أشياء من مقدوراته من خوارق العادات ، فيقع ذلك المقدور بقدرة الله ومشيئته ؛ وقد جعل الله صورته على وصف لا يدع مجالا للشك فى كذب ما يدعيه من الألوهية ، فهو مكذب لدعواه بصورة حاله ، ودلائل الحدوث فيه ، ونقص صورته ، وعجزه عن إزالة ذلك النقص الذى فى عينيه ، وعن إزالة شاهد الكفر المكتوب بينهما ، فيستمر فى دعواه الناس ، فيغتر به الرعاع لشدة حاجتهم وفاقتهم ، وتقية من خوفه وأذاه . وفتنة هذا المفتون عظيمة تدهش العقول ؛ ولهذا حذر الأنبياء صلوات الله عليهم من فتنته ، ونبهوا على نقصه ، ودلالة إبطاله ؛ ولهذا التنبيه أثره فى أهل التوفيق ، فلا يغترون به لعلمهم بحاله ؛ ولهذا روى أنه يقتل شخصا ثم يحييه ، وأن ذلك الشخص بعد الإحياء يقول له : « ما زدت فيك إلا بصيرة » ويبقى الدجال داعيا الى ما يدعو اليه مدة من الزمن اختلف فيها العلماء ، الى أن يعجزه الله سبحانه وتعالى فلا يقدر على أمر خارق للعادة ، ويبطل أمره ، ويقتله المسيح عليه الصلاة والسلام .

هذا هو القدر الذى عليه أهل السنة، أما الأحاديث الواردة فى شأنه فكثيرة، فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرانى الليلة عند الكعبة فرأيت رجلا آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم، قد رجّلها فهى تقطر ماء، متكئا على رجلين يطوف بالبيت، فسألت من هذا فقيل لى: المسيح ابن مريم، ثم اذا أنا برجل جعد قطط أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية، فسألت من هـذا فقيل لى: المسيح الدجال». وروى البخارى واللفظ له ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بعث نبى إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور، وإن بين عينيه مكتوب: كافر» وروى البخارى واللفظ له ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة ليس له فى نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق».

وروى أيضا بسنده عن أنس بن مالك قال النبى صلى الله عليه وسلم: «يجىء الدجال حتى ينزل فى ناحية المدينة، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات فيخرج اليه كل كافر ومنافق» وروى أيضا عن أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، ولها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان» وروى أيضا عن سالم بن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: «قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: «إنى لأنذركموه، وما من نبى إلا وقد أنذره قومه، ولكنى سأقول لكم قولا لم يقله نبى لقومه: إنه أعور، وإن الله ليس بأعور» وقد روى البخارى جملة أحاديث أخر يمكن الرجوع اليها فى باب ذكر الدجال من كتاب الفتن. وروى مسلم عدة أحاديث يمكن الرجوع اليها فى باب ذكر

الدجال من كتاب الفتن أو أشراط الساعة ، وروى غيرهما . وكل ما روى يدل على أن الدجال شخص على الوصف الذى قدمناه .

وصفوة القول فيه أنه فتنة أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم أمرها ، وحذر المسلمين منه ، ووصفه بأوصاف لا تجعل المسلم شبهة فى كذبه وتضليله ، ولا يعزب عن بالك أن هذا الدجال إنما يكون فى آخر الزمان ، وأن ظهوره من أشراط الساعة .

ولما كان من أشراط الساعة المهدى المنتظر أيضا ، فقد رأينا بمناسبة الكلام عن المسيح الدجال أن نذكر كلمة عن المهدى المنتظر ، لتكون بينة للناس على كذب من يدعى فى هذا الوقت أنه المهدى المنتظر :

سبق أن بيّنا فى صدر هذه الكلمة أن الله سبحانه وتعالى لكامل رحمته للناس لا يدعهم دون إرشاد الى ما فيه خيرهم فى معاشهم ومعادهم ؛ لهذا ورد أنه حين تكثر الفتن ويكثر دعاة الضلالة فى آخر الزمان يظهر رجل من آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم يحيي ميت الآمال ، ويدعو الى الشرع واتباع هدى المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فيرجع الناس بفضل رعايته وبركة رسوله صلى الله عليه وسلم الى اتباع أحكام الله وسنة رسوله فى جميع أحوالهم ، فقد روى الترمذى وأبو داود عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تذهب الدنيا حتى يملك رجل من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى » وفى رواية لابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا » وروى أبو داود عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المهدى من عترتى من أولاد فاطمة » وعنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يكون خلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل المدينة

هاربا الى مكة فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام ويبعث اليه بعث من لشام فيخسف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة، فاذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه، ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب فيبعث اليهم بعثا فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسم المال ويعمل فى الناس بسنة نبيهم ويلقى الاسلام بجرانه فى الأرض فيلبث سبع سنين ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون » رواه أبو داود وأحمد وأبو يعلى . قال ابن خلدون : سنده متين على شرط الشيخين لا مغمز فيه ولا مطعن .

وروى ابن ماجة من طريق ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود قال : بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل فتية من بنى هاشم فلما رآهم النبى صلى الله عليه وسلم اغرورقت عيناه وتغير لونه فقلت يا رسول الله : ما نزال نرى فى وجهك شيئا تكرهه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتى سيلقون من بعدى بلاء وتشديدا وتطريدا حتى يأتى قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فيفرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوه الى رجل من أهل بيتى فيملؤها قسطا كما ملئوها جورا ، فمن أدرك ذلك منكم أو من أعقابكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج » وعن حذيفة بن اليمان : « يلتفت المهدى وقد نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام كأنما يقطر من شعره الماء فيقول : إنما أقيمت الصلاة لك ، فيصلى خلف رجل من ولدى » وعن على رضى الله تعالى عنه فى إحدى خطبه قال : « إن لله تبارك وتعالى خليفة يخرج فى آخر الزمان وقد امتلأت الأرض ظلما وجورا فيملؤها قسطا وعدلا ، ولو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوله الله حتى يلى هذا الخليفة من ولد فاطمة الزهراء رضى الله عنها » الى إن قال : « وسيميت الله به كل بدعة ويحيى به كل سنة » الى آخر ما قاله كرم الله وجهه . وقد أكثر الشيعة الكلام فى أمر المهدى

وردوا كثيرا وتأولوا بعض آيات الكتاب العزيز بما يجعلها مشيرة الى ظهور المهدى مما لا نقول به ، ولا محل لذكره فى هذه العجالة .

وتعرض لهذا أيضا بعض المتصوفة وأشار أكثرهم الى ظهور رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق من ولد فاطمة رضى الله عنها . والقدر المشترك فيما قدمنا من أحاديث يكاد يكون مجمعا على أن من أمارات الساعة ظهور مجدد لأحكام الدين من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم .

هذا وإن من دواعى الأسف أن تكون مسألة المهدى المنتظر مدعاة لفتن كثيرة قام بها أهل الفتن والأهواء : كل يدعى أنه المهدى المنتظر ، ونسوا جميعا أن ظهور المجدد الحكيم إنما هو فى آخر الزمان ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل له من الأمارات ما لا ينطبق على واحد من دعاة المهدى الآن وقبل الآن ، فقد علمت من الحديث الذى قاله ابن خلدون إن سنده متين على شرط الشيخين ، أنه قد صرح فيه بعلامات قاطعة للاشتباه فى أمر المهدى المنتظر — منها أنه يخرج من المدينة هاربا الى مكة ، ومنها أنه يبايعه أهل الحل والعقد ، وأن تكون المبايعة بين الركن والمقام ؛ ومنها أن ذلك يكون بعد موت خليفة الوقت والتنازع فى إقامة خليفة غيره ، وأن يكون كارها فى بيعته لا راغب فيها ، فضلا عن أن يدعو الناس اليها الى آخره ؛ وهذه الأمارات — وأهمها أن ذلك إنما يكون عند قرب زوال الدنيا — لا تجعل الإنسان يشك فى كذب من ادعى المهدوية قبل ، ومن يدعيها الآن .

هذا ما أحببنا أن نذكره تتميما للبحث - والله الموفق ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

من هم المخاطبون

بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

ورد أيضا من حضرة عبد الحفيظ ابراهيم اللاذقى ببيروت السؤال الآتى :

هل المطالبون بانكار المنكر هم العلماء فقط دون غيرهم ، أم جميع الناس ؟

الجواب

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية لا فرض عين ، اذ قام به البعض سقط عن الآخرين ، والواجب على الكفاية واجب على الجميع ، ويسقط بفعل البعض ، فيأثم الكل بتركه . ومن هذا يعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مطالب به جميع الناس ، لا فرق فى ذلك بين عالم وغير عالم متى كان غير العالم يعلم المنكر حتى يصح له أن ينهى عنه ، ويعلم المعروف حتى يصح له أن يدعو اليه . والآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة ، منها قوله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) فإن قوله تعالى : « ولتكن » أمر ، وظاهر الأمر الإيجاب ، وقد جعل الله الفلاح منوطا به حيث قال : « وأولئك هم المفلحون » وفى الآية أيضا بيان أن ذلك فرض كفاية ، إذ لم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف ، بل قال : « ولتكن منكم أمة » .

وقال تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللَّهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ) وقال تعالى : (وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ) وقال تعالى: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وقال عز وجل: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) والأخبار الدالة على ذلك لا تكاد تحصى. وقد انعقد الإجماع على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الجميع وجوبا كفائيا إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

وبما أن علماء الدين أعرف من غيرهم بالمحظورات والمنهيات، فواجب عليهم المبادرة الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قبل غيرهم على الوجه الذى أبانه الشرع. ولو أن المسلمين فى سائر الأقطار وخصوصا العلماء منهم قاموا بواجبهم نحو الدين، وتركوا التقصير فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لما تفشت البدع والمنكرات، ولوقف كل عند الحد الذى حده الشارع وفق الله المسلمين الى التمسك بأهداب الدين ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقاً

تكذيب مزاعم

فى مجلة المنار

ظهر كتاب منسوب الى طالب بالأزهر من النجديين وفيه إقذاع وسباب موجه الى أستاذ من هيئة كبار العلماء، فكلفت المشيخة الجليلة أحد الأساتذة بأن يجرى تحقيقا مع الطالب من جهة ما تضمنه الكتاب من الطعن والشتم، فقدم الأستاذ نتيجة تحقيقه الى مجلس إدارة الأزهر، فقرر المجلس فى جلسته المنعقدة فى ١٣ مارس سنة ١٩٣٢ فصل الطالب من الانتساب الى الأزهر.

هذا ما وقع، وما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا فى مناره من أن فضيلة الأستاذ الأكبر خاطب دولة رئيس الوزراء فى مصادرة الكتاب، وأن المشيخة حملت الطالب على أن يبيع لها الكتاب، ووعدته بأن تعطيه شهادة العالمية، كل هذا الذى ذكره الشيخ رشيد مزاعم غير صحيحة، ولا منشأ لها إلا التخيل المحض ؟

تطعيم الأشجار [1]

إن تطعيم الأشجار عملية شائعة بين المشتغلين بالزراعة وفلاحة البساتين ، فاذا كنا نعجب بالنتائج التى توصلنا اليها من تحسين أنواع الزهور وزراعة الفواكه وإكثارها إلا أننا نجهل بصفة عامة ما تتضمنه عملية التطعيم من الوجهة العلمية ، ولا نعرف كيف أن الشجر البرى المطعم يمكن بواسطة نمو الطعم أن يصبح شجرا يانعا يخرج أزهارا جميلة وفاكهة شهية . وقد شاهدنا أن كروم فرنسا قد سلمت من مرض الفيلوكزيرا التى كانت تنخر جزورها ، وذلك بفضل تلك الكروم من الكروم الأمريكية التى لا تغتالها حشرة الفيلّوكزيرا الفتاكة ، ولذلك نرى من المناسب أن ندلى هنا بأحدث النظريات التى أدت الى الوصول الى طريقة علمية عملية للتطعيم ، والتى تلعب دورا تزداد أهميته كل يوم فى الاقتصاد الزراعى .

قلّما يوجد من الناس من يتأثر ببهاء ورونق الورد الجميل الذى أمكن الوصول الى إنتاجه الآن ، أو من لا يشعر بإعجاب ممزوج برغبة شديدة أمام الفواكه الشهية التى ينتجها المشتغلون بزراعة الأشجار ، فإلى تلك المشاتل الفنية ، وإلى عمليات التزاوج التى أجريت بحذق ومهارة بين الأشجار وبعضها ، يرجع الفضل فى ظهور كل تلك الثمار الجيدة والزهور الجميلة ، فالتطعيم يلعب إذاً دورا مهماً فى الاقتصاد الزراعى ، إذ أنه يتيح لنا الإكثار من أنواع مختلفة من الثمار والأزهار ، ومن تحسين نوعها ، ويساعد على توالد الأشجار المطعمة بواسطة شتلها . ولكن ما هى تلك الظاهرة العجيبة ؟ أن

(1) مترجم عن الفرنسية من مجلة « العلم والحياة » .

يؤخذ جزء صغير من فرع من نبات معين، ويطعم به نبات معين آخر، فيغير هذا الأخير تغييرا تاما. وكيف أن هذه العملية البسيطة يمكن أن تجعل من النبات البرى الذى لا فائدة فيه نباتا يثمر ثمارا يانعة وعجيبة من حيث الحجم والدقة، أو تحول شجرة النسرين (ورد الغابات) الى شجرة ورد البساتين، وهل هو خشب الشجرة أم قشرها الذى يلتحم مع الجزء المطعم به؟ أو هل النباتان: الطعم والمطعم يتحدان مع بعضهما اتحادا عضويا، أم على العكس يحفظ كل منهما خصائصه الفردية؟ وما هي أنواع الطعم التى يمكن إجراء تطعيمها حتى تتحد وتنمو نموا صالحا بين أجناس النباتات المختلفة؟ وما هى التى لا تنجح عمليات التطعيم بينها؟

كثيرا ما تطرح هذه الأسئلة أمامنا، ولكن لا نجد الجواب الشافى عليها إلا عند ما نفحص الأشجار عن كثب، ونباشر أعمال المشتغل بعملية التطعيم، ونكب على النظر إليها من خلال المجهر.

وما هو التطعيم؟ — هى تلك العملية التى ينشأ عنها التحام جزء من نبت بنبات آخر، فيقال لهذا: حامل الطعم وموضع ارتكازه، ويورد له المواد الضرورية لإنمائه وازدهاره وإخراج شطئه. ولو أن الطعم ليس فى واقع الأمر وسيلة للإكثار، لأنه لا يضاعف عدد الأفراد فى نوعها، إلا أنه من الوجهة العملية يمكن اعتباره وسيلة للإكثار، إذ بواسطته نستطيع تحويل النباتات البرية التى لا فائدة فيها الى نباتات مثمرة أو مزهرة، فالأولى تدعى « النباتات المطعمة » وأجزاء النباتات التى تطعم بها تسمى « بالطعم ».

والتطعيم لا يمكن فى الغالب إجراؤه إلا مع فصيلة النباتات ذات الفلقتين، أما ذوات الفلقة الواحدة (مثل الفصيلة الزنبقية والبصلية والنخيلية) فلا يمكن تطعيمها لتجردها من قاعدة يرتكز عليها الطعم لتغذيه وتسبب التحام الطعم بالمطعم، كما يحصل

فى الفصيلة الأولى . وهذه القاعدة الموصلة للغذاء ، والتى لها أهمية كبرى فى التطعيم ، تقع بين اللحاء (الخشب الرقيق) وبين الطبقة الكتابية (القشرة الحية) وفى الجزء الداخلى من القشرة ، ومن توالد الخلايا الجديدة المستمر يحصل انتفاخ الساق من جهة وتبدل القشرة الحية من جهة أخرى ، فيتكون الخشب الجديد حول القاعدة ، والجزء الحديث من اللحاء يتكون فى الداخل . وإن وجود هذه القاعدة هو الشرط الأولى لنجاح عملية التطعيم ، إذ من المحتم اجتماع الطعم مع قاعدات الأشجار المطعمة فى نقطة على الأقل ، ولا بد من أن يشتمل الطعم على عين أو عدة عيون صلحة للنمو لإخراج فرع أو عدة فروع ، وإلا فإن الطعم لا يفلح ولا ينتج أية فائدة عملية حتى ولو حصل الالتحام .

هذا وزمن التطعيم : فيمكن إجراؤه طول العام ، إلا أن أكثر عمليات التطعيم تجرى فى وقت خروج المصارة النباتية وحول أواخر الصيف ، وفى هذه الحالة الأخيرة يحصل الالتحام قبل حلول فصل الشتاء ، لكن العيون لا تنمو إلا فى السنة التالية .

كيف يحدث الالتحام ؟ — إن تقابل القواعد بالطعم يحدث الالتحام كما رأينا ، إلا أنه قبل أن تنتج تلك القواعد أنسجة موصلة جديدة على امتداد أنسجة الطعم والمطعم يتصل هذان القسمان ببعضهما اتصالا وقتيا ، إما بواسطة الالتحام المباشر ، وإما بتكوين أنسجة حديثة محلية ، وهى التى لم تتميز بعد ، أو بعبارة أخرى لم تكون لها شكلا خاصا بها ، وهذا الاتصال الوقتى يحدث فى حالات كثيرة جدا ، حتى الحالة التى لا يلتحم فيها الطعم بصفة نهائية ، ومن ذلك تدرك أن بعض الطعم (طعم لأرم على الأخص) يبقى مخضرا ، ورغما عن ذلك فإنه لا يلتحم بصفة دائمة .

هذا وبالاتحاد النهائى الناشئ من تكون أنسجة موصلة جديدة (من خشب وقشر) تبتدئ حقيقة حياة الطعم على القعدة المغذية له من الشجرة المطعمة ، لكن

وقوف النمو النسبي (كما سيأتى الكلام عنه فيما يلى) يستمر بين الطعم والمطعم بسبب بطء فى سريان العصارة النباتية ، ولا سيما العصارة الناضجة الأكثر تغذية والأقل ميوعة من العصرة العادية ، ومن ذلك يحدث انسداد الأنسجة بطبيعة الحال ، ويحصل انتفاخ بمحاذاة الطعم . (يتبع)

مسألة ترجمة القرآن

لصاحب الفضيلة ضيف مصر الكريم الشيخ مصطفى صبرى افندى شيخ الاسلام للدولة العثمانية سابقا بحوث قيمة نافعة ، وآراء سديدة حكيمة . وقد وقف فضيلته على ما كتب فى مسألة ترجمة القرآن وما دار فيها من نقاش ، فأبى عليه فضله إلا أن ينفع الناس بعلمه ، ويقف جمهور المسلمين على رأيه ، فوضع فى ذلك كتابا قيما سماه « مسألة ترجمة القرآن » ناقش فيه مناقشة علمية إقناعية كل القائلين بجواز الترجمة ، وخص بالنظر ما ذهب إليه بعض العلماء المعاصرين ، وبعض فقهاء الحنفية السالفين فى ذلك ، معتمدا على متانة الحجة النقلية والعقلية وصريح البرهان وصحة النقل . وقد عنى بالتحرير الدقيق لما استندوا إليه من نصوص مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

وقد عرض فضيلته لما تشيع به بعض الكاتبين المغالين فى نصرة التجديد ، ففند مزاعمهم بالبيان الجلى المقنع .

والكتاب مصوغ فى بيان عذب وأسلوب علمى متين . طبع بالمطبعة السلفية طبعا متقنا فى ورق جيد . فنشكر فضيلة الأستاذ على غيرته الدينية ، ونرجو أن ينتفع المسلمون بسديد رأيه

الذهب فى منشوريا[1]

توجد أراضى واسعة فى شمال الأمبراطورية الصينية لا زالت مجهولة للمستعمرين ، خصوصا ما يقع منها فى وادى نهر « الأمور » الذى يكوّن الحدود الطبيعية بين منشوريا وسيبيريا ، فانه يندر وجود السكان بها . وقد اتجهت الى ذلك الاقليم أنظار العالم منذ وجد بعض الباحثين عن الذهب من بلاد سيبيريا المتاخمة مناجم غنية من هذا المعدن النفيس .

تألفت بعد ذلك شركة روسية صغيرة لاستغلال ثروة الأرض الدفينة فى هذا الاقليم ، وتحصلت على نتائج باهرة بالرغم من عدم استعدادها بالمعدات العلمية والفنية الكافية . ولما بلغ خبر هذه الثروة بعض المخاطرين استوطنوا هذه الجهة طمعا فى الرزق الواسع ، و تفقوا أثناء قيام الثورات التى عقبت الحرب الأوربية الكبرى مع جماعة من المنفيين والعساكر الفارين ونفر من المتجولين فى الغابات على تأسيس جمهورية خاصة بهم للبحث عن الذهب ، وأعلنوا استقلال هذ الاقليم ، وأبعدوا كل من حاول الإقامة به من الأجانب الدخلاء ، ولم تتمكن الحكومة الصينية من التغلب عليهم وطردهم إلا بمجهود كبير ، ومنعت بعد ذلك مهاجرة الباحثين عن الذهب ، وهكذا خيّم الغموض على هذه الثروة الكبيرة فى الصحارى المقفرة .

وفى عام ١٩٢٧ سمحت الحكومة الصينية لبعثة ألمانية لأول مرة أن تجرى بعض الأبحاث العلمية فى هذه المنطقة ، وقد تمكنت هذه البعثة من الحصول على معلومات

---

(١) نقلا عن مقال الدكتور « هانس ماير » فى مجلة « Kosmos » الالمانية .

قيمة عن مناجم الذهب الخفية فى هذا الاقليم غير المعمور . ويمتد الى مسافات واسعة لا تقل مساحتها عن ٢٠٠ ألف كيلومتر ولا توجد بهذه الناحية بقاع مسكونة باستمرار لانقطاعها عن مرافق المعيشة وبعدها عن سبل العمران — اللهم إلا بعض محطات صغيرة تقع على طريق البريد العام، وكانت معدة لراحة واستبدال الخيل فى العربات، وتبعد المحطة عن الأخرى بمسافات بين ٢٠و٣٠ كيلو متر ، ولا يتعرف الإنسان الآن على هذا الطريق فى أجزاء كثيرة منه إلا بواسطة أعمدة أسلاك المسرات والبرق الممتدة على جانبيه .

وتمتد على جانبي هـذا الطريق صحروات وسعة يجوبها من حين لآخر بعض الوطنيين الصيادين ، وأما الطرف الشمالى فهو عبارة عن هضبة يبلغ ارتفاعها نحو الألف متر ينمو بها كثير من الكلأ وبعض شجر الأرو والقان ، وفى منخفضاتها تكثر المستنقعات والأوحال .

ويوجد الذهب تقريبا فى أحواض جميع النهيرات والمجارى التى تنبع من هـذه المنطقة الجبلية وتصب فى نهرى « أمور » و « رونى » ، وهو فى الغالب على شكل قطع صغيرة قد تصل الى حجم ذرات الرمال . وقد تحققت البعثة الألمانية أثناء تجوالها فى تلك الأصقاع من وجود كميات وافرة من التبر وقطع أكبر من هذا المعدن النفيس .

وفى الوقت الحاضر لا تسمح الحكومة الصينية باستغلال واسع النطاق لمعظم هذه المناجم ، وذلك لعدم تنظيم أسباب الاستغلال تنظيما يتفق ومصلحة البلاد الاقتصادية ولعدم استتباب الأمن فى هذه الناحية بعدُ مما يهدد ثروة هذا الاقليم بأخطار مستمرة ، وعلى الأخص حرمت كل الجاليات الأجنبية من منح امتياز البحث والاستغلال فى هـذه المنطقة أو على الأقل لا تمنح امتيازا إلا بشرط سيادة أغلبية صينية بحتة . وتعمل الآن ثلاث شركات كبيرة تستخدم حوالى بضع آلاف العمال على

استخلاص الذهب فى هذه المنطقة . هـذا اذا استثنينا المجهودات البسيطة التى تقوم بها بعض الشركات الصغيرة الأخرى ، وكذلك ما يستخلصه بعض الأفراد المتجولين بآلاتهم وطرقهم الأولية . وقد تكون حرفة البحث عن الذهب فى هذه المنطقة من أشق الحرف التى يقوم بها الأفراد ، فان حياتهم التعسة مهددة من حين لآخر بالجوع والعطش المرير، وبزمهرير البرد ليلا أو الوقوع فريسة الوحوش الضارية التى تجوب هذه الأصقاع مثل الدببة والذئاب بل والنمور فى الجهات الشرقية ، فاذا فاز أحدهم بعد شق النفس بالقليل من تبر الذهب وقفل سالما الى البلاد المعمورة ، فانه لا يسلم فى طريقه اليها من اللصوص وقاطعى الطريق الذين يقفون لأمثالهم بالمرصاد ، وكثيراً ما صادفت قافلة البعثة الألمانية فى أثناء أبحاثها فى النواحى المختلفة من أعياه التعب ونهكه الجوع والعطش وأشرف على الهلاك من هؤلاء الصينيين قبل أن يحصل على ما يكافئ مجهوده الذى قضى فيه شطرا كبيراً من حياته بعيداً محروما .

وكثيراً ما يتفق بعض هؤلاء الباحثين عن الذهب على العمل بالاشتراك ويستخلصون بطريقة عملية سهلة لا تحتاج الى مجهود أو عناية كبيرة قدرا لا يستهان به من حبات الذهب ، وتتلخص عمليتهم فى تحويل المياه من مجاريها الطبيعية الى الشقوق التى بها الذرات الذهبية فتجترفها ، ثم تحجز فى أحواض فتطفو الرمال الخفيفة على سطح الماء ويسقط الذهب فى القاع حيث يستقر بداخله ، وبذا يسهل تنقيته من الرواسب الثقيلة الأخرى ، وبديهى أن هذه العملية تسبب ضيع جزء كبير من ذرات الذهب الدقيقة التى تجرى مع الماء المتدفق ، إلا أنها على سهولتها وقلة ما تتطلبه من مصاريف ومجهود أنجع الطرق التى يمكن للأفراد الذين تنقصهم أسباب الاستغلال الفنيـة أن يتبعوها .

ويمكن التنبؤ اليوم بأنه لو استعملت الطرق الفنية والآلات الحديثة لبحث واستخلاص الذهب فى المستقبل فإن شمال منشوريا يصبح فى زمن قريب من الأهمية

بمكان عظيم ، ويمكنها مزاحمة مناجم سيبريا . وكذلك فى الطرف الجنوبى من منشوريا عند حدود شبه جزيرة كوريا فإنه يغلب وجود الذهب على أشكال أخرى مغايرة داخل أحجار مختلفة ، وقد منحت شركة أمريكية منذ عامين امتياز بحث واستخلاص الذهب منها ولا توجد للآن احصاءات دقيقة عن كمية أو قيمة الذهب الذى يستخرج من منشوريا ، ولكن بعضهم يقدره بعشر ما يكتسب من سيبريا .

منهج اليقين

فى بيان أن الوقف الأهلى من الدين

تأليف صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى وكيل الجامع الأزهر ومدير المعاهد الدينية سابقا .

وهو بحث واف فى بيان منزلة الوقف الأهلى من الدين الاسلامى ، رد به فضيلته فى فصول محكمة على من زعموا أنه نظام مدنى لا أصل له فى الدين ، بأدلة ناهضة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفعل الصحابة . وقد أفاض فى هذه الفصول أيما إفاضة . فكان بذلك من أوفى ما كتب فى موضوعه .

وقد ختمه فضيلته برسالة ضافية فى ترجمة القرآن نقض فيها أقوال المنحرفين ، واستشهد بأمثلة عديدة من تراجم مختلفة خلص منها الى عدم إمكان الترجمة . والكتاب مطبوع طبعا متقنا . فنحث أهل العلم على الاستفادة منه .

استدراك

جاء فى السطر الأخير من صفحة ٣١٣ : صدعى . والصواب : صرعى .

ends of justice in a case submitted for judgment before Ibn Al-Khateeb. The judge straightway said "I would never suffer my authority to be curtailed". He then dismissed his officers, resigned his pos. and retired into the seclusion of his home. On hearing of this, king Al-Ashraf was greatly annoyed and tried all he could to pacify and conciliate him until he accepted to go back on certain conditions which were all granted by the king.

An honest head of the state greatly esteems the judge who displays such qualities of rectitude and tries his utmost to please him in order to dissuade him from resignation.

Abu Obeid, another Cairo Judge, once sent Abu Bakr Ibn Al Haddad to Baghdad to secure his exemption from the judgeship of Cairo. The vizier Ali Ibn Issa Ibn Al Gouh, did not entertain the idea and said "I think he resents the surveillance of Hilal Ibn Badr for he is an inexperienced youth who does not appreciate the judge I will, therefore. dismiss Hilal and appoint so-and-so who is a wise man and knows how to appreciate the judge".

An equitable sovereign justly admires the learned man whose rectitude and impartiality have been tested over and over again Such admiration, necessarily prompts him to nominate such a man to jugdeship. Omar Ibn Al-Khattab once took a horse from a man with a view to price it. He inadvertently overloaded the horse which sustained some injuries in consequence. The man vehemently disputed with Omar about it to which Omar said "Choose a man to judge between us". The man named one Shareeh Al-Iraqy. "You have taken it well and sound, you are therefore responsible to return it in that same condition" was the judgment of Shareeh. Al-Shaaby, the narrator of this incident says that Omar was so apparent ly pleased with him that he, straightway made him a judge.

On account of the inherent difficulty involved in the office of justice firstly as regard ascertaining the truth and secondly as regards enforcing it, many of the righteous and learned men decline the appointment thereto an dresolutely refuse to accept it for fear that they might encounter, in the course of enforcing the law something that lies beyond their power to repel or for fear of falling into error in the consideration of some cases and establishing the facts thereof.

Haroun Al-Rasheed once offered Al-Mughierah Ibn Abdul-Rahman Ibn Al-Harith the judgeship of Medina for a gratuity of four thousand Dinars which Al-Mughierah declined saying "I would rather the Sultan strangle me than sit in judgment on men".

to be continued.

who feareth the censure of no one for upholding the tenets of God. Nay! by Allah! I would not thwart the precautions he hath taken for himself nor betray the Moslems by the suspension from office of the like of him".

On being asked the reason why he turned down the evidence of the Caliph, Ibn Basheer replied "It is imperative in the hearing of evidence to afford the defendant the right to refute it, and who would dare repudiate the Caliph's evidence if it were accepted? Had I not given the defendant that right, I would have been unfair to him".

Islam teaches the judge that he is independent and that he is subject to no one's influence. The history of Islam abounds in cases where many equitable judges did not refrain from passing a judgment against the very head who nominated them to the judgeship just exactly as they would pass it against the poorest and meanest of the people.

Ibn Abdul-Salam says of such judges "Sometimes they passed judgment against the very one who nominated them to office and even declined to accept his evidence".

Al-Mukry says of the judicature of Andalusia "The judiciary system of Andalusia, is acclaimed by both the upper class and the proletariate as the most efficient for being administered in strict accordance with religion and for the fact that should a summons be served on the Sultan, he had to appear in court before the judge".

Ibn Basheer, judge of Cordova, once passed a judgment against the Caliph Abul-Rahman Al-Naser in an action brought against him by one of his subjects. The sentence was duly communicated to the Caliph along with a note from the judge theartening to resign his post if the Caliph would not abide by the judgment and expeditiously execute it.

Some of the judges would throw up their situation in righteous indignation if ever a functionary of the state interferes in the litigations dealt with by him. This happened in the case of Ibrahim Ibn Ishaq, judge of Cairo, when two men came to him for judgment and he pronounced it against one of them. The party thus sentenced, went to the Emir and pleaded for his intercession in the matter, whereupon the Emir sent Ibn Ishaq orders to suspend the judgment pending reconciliation of the parties concerned. Ibn Ishaq consequently left the court and retired to his house. On being apprised of what had taken place, the Emir sent him a message requesting him to go back but he resolutely answered the Emir "Never would I go back; there is no intercession in judgment".

Burhanul-Din Ibn Al-Khateeb, another justice of Cairo, did the same thing when Muhibul-Din, the army-chief tried to defeat the

make a book on the manners of judgeship?" Uphold justice and stretch thine legs if thou wilt in court; for hath the judge better manners than those of Islam!" he replied.

It is said of Abu Abdullah Mohammad Ibn Issa, a judge of Cordova that "he used the utmost severity in enforcing justice and was resolute in executing the ordained punishments. He sought out the right evidence in secret and proclaimed the truth in public. He feared no one in a position of authority or flattered anyone of high rank. Neither did he ever pass over the lapses of those in authority or their peoples". They justly feared his severity and none ever dared to hope for any remission so far as he was concerned.

We read of Ibrahim Ibn Abu Bakr Al-Agnadi, a judge of Cairo, that "he countenanced no message or intercession by anyone; but he, regardlessly established the truth and favoured no one with appointment to a post unless he rightly merited it".

Abdullah Ibn Taleb, a judge of Al-Qairwan who had been once tried and interred in prison, used to say while he was prostrate in prayers "O Lord! thou knowest I have never unjustly pronounced a sentence, nor did I ever prefer any body's favour to thine own or fear the censure of any one for following thy way".

It is cited by chroniclers concerning Mohammad Ibn Abdullah Ibn Yahya, a judge of Cordova that "he flattered no one of main and might or passed over the offences of those in authority. The strong never hoped for his injustice and the poor never despaired of his equity. The weak were never so bold of heart and tongue as they were in his days".

Some of the judges may be asked to settle a case in which one of the litigants submits the evidence of the Caliph himself but he heedlessly wave the evidence aside. The Sultan Bajazet once gave evidence in a case before Shamsul-Din Mohammad Ibn Hamza Al-Finary, judge of Constantinople. The judge waved the evidence aside and when the Sultan asked him the reason why he did so, he curtly answered "Thou performest not the congregational prayers", whereupon the Sultan ordered a mosque to be built in front of this palace, and thenceforward never missed the congregational prayers.

A case was once submitted to Mohammad Ibn Basheer, judge of Cordova in which one of the litigants was Saidul-Khair uncle of the Caliph Abdul-Rahman Al-Naser. Said produced, among other evidence, the evidence of the Caliph himself in writing. When the letter of evidence was presented to the judge, he said to Said's agent "this evidence would not do for me, you better find me an equitable witness" whereupon Said went to the Caliph and tried to persuade him dismiss the judge. But the Caliph said "the judge is a righteous man

Islam has pointed out the success attendant on upholding the cause of justice and the misery resulting from iniquity.

The judgment of the Holy Prophet (Peace be upon him) was the ideal in the establishment of rights and judging between litigants. Suffice it to recall in testimony of this the incident in which the Prophet once sentenced a woman of Beni Makhzoum who committed a theft to undergo the ordained punishment. Koreish spoke to Osama (1) to intercede in the matter with the Prophet with a view to rescind the sentence.

"Wouldest thou intercede in an ordained punishment?" said the Prophet who then addressed the people thus:

"O men! your predecessors have erred before you for when the strong committed a theft, they passed it over but when the lowly did so, they imposed the ordained punishment on him. Nay, by Allah, should Fatima the daughter of Mohammad commit a theft Mohammad would himself sever her hand".

The Prophet has planned the way of justice as clear and upright as could be. He gave practical examples during his life of the administration thereof, thus making the way competely clear to his companions who followed his instance and taught the people what equitable justice was.

In his message to Abu Moussa Al-Ashari, Omar Ibn Al-Khattab says: "Treat people alike in talking unto them, turning your face towards them and judging between them, so that the strong hopeth not far thy injustice and the lowly despaireth not of thy equity".

Islam and the life of its learned men, have had a healthy effect on reforming the judiciary systems to a great extent. There could be no court within whose precincts justice is truly upheld unless the judge in charge be of sound reason and a firm believer in the judgment day.

Fear of God prompts the judge to consider carefully every case so that he may be in a position to elicit the truth. He would not let himself be influenced by first impressions though he may be sure his judgment will be duly enforced and no superior authority would rescind the sentence pronounced by him.

Certain Emirs of Andalusia used to dismiss the judge who expeditiously settled cases which required some little deliberation as such expedition only meant heedlessness on part of the judge to blunder in his judgment.

Fear of God further prompts the judge not to overstep the bounds of justice and deviate therefrom in the least.

Ismail Ibn Ishaq Al-Malky was once asked "Wilt thou not

---

(1) A favourite attendant of the Prophet.

Among the Traditions cited in warning against unfair judgment is the following: "He who is appointed to the judgeship, is even like unto him who is slain without a knife".

In this Tradition, the sufferings of the judge in the hereafter is likened to the tortures suffered in this life by one who is slain without a knife. This is the case of the judge whose knowledge of justice is scanty or whose sense of probity is faint and feeble.

The Tradition could however be interpreted to refer to the inherent difficulty involved in judgeship. The judge who suffers greatly in the course of revealing the truth and enforcing it, striving against his own desires and inclinations, is indeed like him who is slain without a knife. The Tradition moreover indicates the high position of judgeship for the equitable judge is likened to the slain in the cause of the Lord who is no longer subject to the influence of passions and whose sole object is the favour of God, and great indeed is the recompense of the Lord.

Another Tradition comprising both promise and warning, is the following: "Three are the judges: two have hell for their abode and one has Paradise for his. One who knew the truth and judged according thereto is in Paradise. Another who is ignorant of the principles of equity yet sits in judgment, is in hell. And the third who knew the truth yet judges with injustice is in hell."

This Tradition points out the ending of those who uphold the truth in their judgment knowing thereof. To such paradise is promised. But those who pass judgment ignorantly or unfairly are destined for hell. The Tradition however, does not include the learned in the principles of law and equity who tries his best to get to the truth but fails to light on it and judge according to his own opinion.

It is cited that on reciting the following verse:

«وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا»

ترجمة هذه الاية نقلا عن الالوسى

"And call to mind the story of David and Solomon when they passed judgment concerning the field which the people's sheep grazed and ate up at night; and We did know of their judgment. So We made Solomon to understand the case and each of them have We endowed with great wisdom and knowledge". (Alucy's Commentary). Hassan Al-Bisry remarked "Had it not been for the Lord giving the parallel of these two, judges would have all been doomed to perdition; for the Lord hath praised the one for his knowledge and excused the other for trying his best to get to the truth".

conferred upon the just ruler, an honour, no less than the love of God for him which could only mean prosperity in this world and salvation in the hereafter.

Among the traditions indicating the high esteem and exalted position in which the just ones are held by the Lord is the following. "The just are assigned platforms of light to the right hand side of the Most Merciful whose two sides are both right — those who seek the truth in their judgment, are just to their people and just to their charges". This alludes to their proximity to the Lord and their success in securing His favour.

The mention of the "Most Merciful", arouses the hope and confidence of the just ruler who will be granted the full realisation of his hopes and desires just like him who is held near to the Lord whose mercy embraces everything.

The following Koranic verse is one of warning against injustice:

«يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ»

ترجمة هذه الآية نقلا عن الالوسى

"O David! We have made you viceregent on earth and have given you authority and the right of judgment between the people; so judge between them with justice ordained by the Lord and follow not the desire of the soul in judgment, lest it should lead you astray from the signs which He set on truth; for those who deviate from the way of the Lord, will be severely chastised as they forgot and remembered not the day of reckoning" (Alucy's Commentary).

This verse points out that the settlement of cases after one's own passions and desires is definitely a deviation from the Lord's way and as such will inevitably lead to severe punishment. No one could make light of a punishment which the Lord Himself has described as severe and render himself thereby liable to it for the mere trifles of this world unless he has lent himself to perdition and denied his soul the blessing of true belief.

This verse has a highly invigorating effect on souls already blessed with the security of true belief. It is related that Ahmed Ibn Sahl had for his neighbour Bakkar Ibn Kutaibah, judge of Cairo. On passing his house once about eventide, Ibn Sahl heard him reciting the above verse. At daybreak, he heard him reciting and reiterating the same verse. "No wonder" he said "Bakkar is most fair of judgment and is held in high esteem by those in authority".

finds himself more or less, inclined to the cause of one or the other for say, relationship, friendship, high position or wealth; or maybe this inclination be the outcome of sympathy for one of them on account of poverty or weakness or that the judge may happen to share the same feelings of animosity towards the other litigant.

In such cases, a judge could seldom regard the two litigants on a footing of equality while he settles the case according to the dictates of equity inspired from on high.

Such feelings as surge in the judge's breast during the examination of the case, are overlooked unless they prove instrumental in supporting the cause of one of the litigants against the evidence submitted and the principles of equity.

Those feelings are apt to influence the judgment passed by the judge and cause it to incline towards the one to whom he has given his sympathies. The influence thus exercised varies according to the sympathy felt by him, and when they become stronger in someone who fears not the Lord, and is ignorant of the sublime ends of justice, truth is apt to be totally disregarded and the judge is thereby carried away, by his feelings of sympathy, to the very depths of iniquity.

Such feelings which incline the judge and influence him to please one of the litigants by siding with him, are bound to make fair judgment a burdensome business unagreable to men's nature. And herein lies the secret why great stress was particularly laid on justice by Islam which urged to equitable dispensation thereof by different ways and means.

The Moslem Religion has given the fullest attention to equitable dispensation of justice inasmuch as it was concerned with all that is essential for securing the wellbeing of man. It ordained the highest ideals of justice and promised those who uphold it with high esteem and a good ending while it threatened those who deviated therefrom with severe punishment and an evil abode.

Among the Koranic verses pointing to the great honour of justice is the following:

« وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الالوسى

"If you are requested to judge, then judge between them with equity which We ordained and in accordance with the injunctions of the Koran and the law of Islam, for surely Allah loveth the just as to ward evil off them and exalt their position." (Alucy's Commentary)

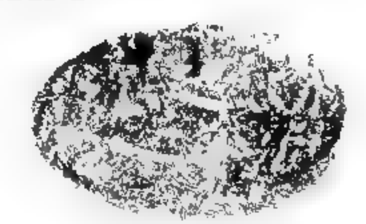
Thus the Lord enjoins justice and points out the great honour

ENGLISH SUPPLEMENT TO

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

FAIR JUSTICE OF ISLAM (1)



Islam has embraced every possible felicity of mankind through the guidance and culture it offers. Indeed evidence to substantiate its teachings is abundantly available and no excuse could be offered for remaining ignorant thereof.

The guidance of Islam proceeds in stages. It might merely point out a thing without having to refer to it constantly or insist thereon beyond the bare mention of it for the simple reason that it is easily assimilated by men or that they are naturally inclined thereto such as the affection of father to son or striving for a living to sustain one's self.

But sometimes a thing may be a little burdensome and intendedly meant to turn the souls of men away from desires In such case, strong will and foresight are needed as for instance in prayers, payment of the ordained alms (Zakat), fasting, pilgrimage and Jehad. These, it repeatedly enjoins by different ways and means so that it may win thereby the hearts of men according to the intensity of ardour and aspirations that dwell within them.

Such is the way of Islam in enjoining fair judgment.

The two litigants submit their case to the judge who oftimes

(1) Translated from the Very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hussain's editorial in Nour El-Islam Review.

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء السادس	جمادى الآخرة سنة ١٣٥١	المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف) سابقا
ومن اعضاء مجلس الازهر الاعلى)

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش
داخل القطر المصرى	٤٠
خارج القطر المصرى	٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين) ومعلمى المدارس الاولية والطلاب داخل القطر)	٢٠
وللحضرات المذكورين فى خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

محاكاة المسلمين للاجانب

قد يوجد فى أفراد البشر من يولد فى بيئة عفاف وحكمة ، وتتولاه يد التربية الحازمة بالتنبيه لمواقع الهنات ، فتكون سيرته كالسبيكة الخالصة لا يجد فيها الناقد مغمزا ؛ وليس على وجه المعمورة اليوم أمة استوفت خصال الكمال وبلغت فى رقيها المدنى أن يفتح الناقد الألمى فيها عينه فلا يرى إلا أعمالا مرضية ، أو عادات مقبولة ؛ فاذا وجد فى الأفراد من يفضل ببراءته من العيوب جملة ، فإن الأمم إنما تفضل بغلبة خيرها على شرها ، ورجحان محامدها على مذامّها ؛ وإذا وجد فى الأفراد من يأذن لك أساتذة التربية فى أن تقتدى بسيرته على الإطلاق ، فليس فى الأمم أمة يقول الرجل الحكيم لشعبه الناهض : خض خوضها فى كل واد ، وشابهها مشابهة الغراب للغراب .

هذه حقيقة قد تغيب عن أذهان فئة من الشعوب الآخذة فى النهوض ، فاذا رأوا أمة ذات معارف وسطوة ، تهافتوا على محاكاتها فى غير تدبر واحتراس ، وربما سبقوا الى ما يعدّ من سقط متاعها ومستهجن عاداتها ، فصبّوا هممهم فى تقليدها فيه ، فزادوا شعبهم وهنا على وهن ، وكانوا كالعثرات تعترضه فتعوقه عن السير ، أو تجعل سيره فى الأقل بطيئا .

ومتى كثر فى الشعب أمثال هؤلاء الذين لا يميزون فى محاكاتهم السيئةَ من الحسنة ، فقد الشعب هدايته الدينية ، وتجرد من ميزاته القومية ؛ ولا يفلح شعب نكث يده من الدين الحق ، ولا يعتز شعب نظر الى قوميته بازدراء .

وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لهذه المحاكاة من حيث إنها طبيعة اجتماعية فقال : « إن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ، والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى ، إنما هو لكمال الغالب » ثم قال : « ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب فى ملبسه ومركبه وسلاحه ، فى اتخاذها وأشكالها ، بل فى سائر أحواله » ثم قال : « وانظر الى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الأكثر ، لأنهم الغالبون لهم ، حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها يسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير ، كما هو فى الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة ، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء ، والأمر لله » .

وهذا الذى قرره ابن خلدون طبيعة من طبائع الأمم الضعيفة حيث توجد بجوار أمة قوية ، ولكنها طبيعة عرفت علتها ، فيمكن لزعماء الأمة الضعيفة أن يعالجوا العلة ، فتسلم الأمة من هذه الطبيعة ، ويمكنها أن تتحفظ من الاقتداء بالغالب إلا فيما كان من وسائل الرقى والسيادة . يذكر ابن خلدون أن العلة فى هذا التقليد إما ما وقر فى صدر الأمة من تعظيم الغالب ، وإما ما تغالط به من أن غلب الغالب ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحله من المذاهب والعوائد ، وكلتا العلتين إنما تتفشى

فى الأمة الملقى حبلها على عاتقها ، تمشى على غير بصيرة ، ولا تقصد الى غاية نبيلة . فاذا قيض الله للأمة المغلوبة رجالا يعالجون ما عساه أن يطغى فى صدرها من تعظيم شأن الغالب ، أو يوقظونها الى ما تغالط به من أن غلب الغالب بما انتحله من المذاهب والعوائد ، أنقذوها من عماية التقليد الذى تتجرد به من الآداب الدينية والميزات القومية . والناشىء الذى يدرس تاريخ الاسلام ، وما كان لرجاله من مجد شامخ وسلطان كريم ، لا يكبر فى عينه سلطان الغالب الى أن ينحدر فى التشبه به فى كل حال .

يذكر الكتاب والخطباء تقليد المسلمين للأجانب ، ومنهم المسرفون فى الدعوة الى التقليد ، ومنهم الراشدون ؛ وإليك كلمة تعرض عليك الرأى الذى يقف عند حدود الدين ، ويرعى حق القومية ، ويقدر المصالح ، ويحرص على أن لا يفوت الأمة منها مثقال ذرة :

محاكاة المسلمين للأجانب تظهر فى خمسة وجوه :

(أحدها) محاكاتهم فيما يشتمل على مصلحة دنيوية ، ولا يخالف حكما شرعيا أو أدبا دينيا ؛ وهذا مما تأذن الشريعة فى الأخذ به ، ويتأكد العمل به على قدر ما فيه من مصلحة ؛ وليس من المعقول أن تنهى الشريعة عما فيه خير لمجرد أن قوما من غير المسلمين سبقوا إليه ؛ ويدخل فى هذا مجاراتهم فى العلوم والصنائع ، ووسائل الدفاع ، والمرافق التى يخف بها جانب عظيم من عناء هذه الحياة ؛ ومن شواهد هذا ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق حول المدينة المنورة وقد أشار به سلمان الفارسى ، وهو من مكايد الفرس فى حروبها .

وفى أوربا اليوم نظم إدارية نزنها بقاعدة رعاية المصالح ، فنرى إجراءها فى بلادنا من قبيل إصلاح الإدارة ؛ كنت أرسلت من برلين برقيـة لصديق لى فى جنيف ، فجاءنى خطاب من إدارة البرقيات يقول لى : لم نهتد الى معرفة المبعوث اليه بالبرقية ،

وبعد ساعت وصلتنى برقية من صديق جوابا عن البرقية التى بعثت بها إليه ، وبعد ساعات جاءنى خطاب من تلك الإدارة تقول فيه : اهتدينا الى معرفة صاحبك بعد وأبلغناه البرقية . فمن ذا ينكر فائدة مجاراة الأجانب فى مثل هذه النظم المريحة للنفوس ؛ وأذكر من أبيات للأستاذ محمد بن عبد الكريم المقيلى فى الرد على من أنكر تعلم علم المنطق قوله :

خذ العلم حتى من كفور ولا تقم دليلا على شىء بمذهب أحمد

ولا أسوق فى هذا الوجه محاكاتهم فى بعض أخلاق انتظمت بها مدنيتهم ، وارتفعت بها على كثير من البلاد رايتهم ، كالصبر على المكاره ، والإقدام على العظائم ، وقوة رابطة الاتحاد والتعاون بين أفرادهم وجماعاتهم ، فإن الاسلام قد أرشد الى جميع الأخلاق التى تزدهر بها المدنية ، وتستحكم بها عرى السيادة ، فاذا ظهر المسلمون بخلق عظيم ، فإنما يقتبسونه من حكمة دينهم وسيرة عظمائهم .

(ثانيها) محاكاتهم فى شىء من شعائر دينهم ؛ وهذه المحاكاة إن كانت عن رضا دلت على نبذ الإسلام ، ولا سيما محاكاة تقع منه مرة بعد أخرى ، فإن قامت قرينة على أنه يقصد الاستهزاء بمن يقلدهم ، فهى سفاهة وعصيان ؛ فالذين يرسلون أبناءهم لمدارس أجنبية تحتم على كل تلميذ الاشتراك فى القيام بشعائرها الدينية ، إنما يلقون بأفلاذ أكبادهم فى حفرة من النار .

وقد وصل ببعضهم الشغف بالانحطاط فى هوى الأجانب ، والانغماس فى التشبه بهم أن اقترح فى غير خجل قلب هيئة المساجد الى هيئة كنائس ، وتغيير الصلوات ذات القيام والركوع والسجود الى حال الصلوات التى تؤدى فى الكنائس ؛ وهذا الاقتراح شاهد على أن فى الناس من يحمل تحت ناصيته جبينا هو فى حاجة الى أن توضع فيه قطرة من الحياء .

(ثالثها) محاكاتهم فى شىء لم يكن من شعائر دينهم ، ولكنه مما نهى عنه الإسلام على وجه الحرمة ، كتقليدهم فى اختلاط الرجال بالنساء ورقص الفتيان مع الفتيات ، أو نهى عنه على وجه الكراهة ، كتقليدهم فى تناول الطعام باليد الشمال [1] أو إطالة بعض الأظفار ، والمحاكاة التى توقع فى محرم فسوق عن أمر الله ، والتى توقع فى مكروه يخسر بها صاحبها قسطا من ثواب الله ؛ هذا اذا كانت المحاكاة عن مجرد هوى ، فإن كانت عن اعتقاد أن ما يفعله الأجنبى أحكم وأليق ، زلزلت أصل الإيمان ، والتحقت بمحاكاته فيما هو من شعائر ملته ؛ وعلى هذا الوجه يجرى حكم استبدال قوانينهم الوضعية بأحكام الشريعة الغراء نحو القوانين المبيحة لما حرم الله من الربا .

ومن الأمراض التى سرت الى المسلمين على طريق التقليد للأجانب موبقة الانتحار ، فقد يتخيل صغير العقل حيث يقع فى بلاء أن الانتحار طريق يصح أن يسلك للتخلص من البلاء ، متكئا فى هذا الخيال على أن كثيرا من رجال الدول أو الأمم الغالبة يرتكبونه وسيلة الى الخلاص من مكاره تصيبهم ، أو مكاره يخشون إصابتها .

ومن هذا الباب محاكاتهم فى إغلاق محالّ التجارة فى يوم الأحد أو السبت ، فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم قصد الى صوم يوم السبت والأحد ليخالف أهل الكتاب فى جعلهما يومى عيد ، لأن صوم اليوم يبعده من أن يكون عيدا ؛ نقرأ فى سنن أبى داود أنه صلى الله عليه وسلم كان يصوم يوم السبت والأحد ، يتحرى ذلك ويقول : (إنهما يوما عيد الكفار وأنا أحب أن أخالفهم) وأخرج الامام أحمد والنسائى أنه ما مات صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صيامه السبت والأحد .

---

(١) ليس من الصعب على من يريد المحافظة على أدب إسلامى أن يعود يسراه قطع اللحم ونحوه بالسكين ، ويعود يمناه تناوله بالشوكة . وقد عزم على هذا قوم يعز عليهم أن يستخفوا بأدب دينى فوجدوه أمراً ميسوراً .

فإغلاق المسلم لمحل تجارته يوم الأحد أو السبت يناقض قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى صوم هذين اليومين ، لأن إغلاق محل التجارة أو الصناعة فى يوم معين لا يلتزمه إلا من شأنه أن يعتقد أن ذلك اليوم حقيق بأن يتخذ عيداً .

ومن محاكاتهم فيما يحرمه الشرع وينبذه العقل إنشاء مكتب يستأذنه فاسدات الأخلاق فى التجارة بأعراضهن فلا يجد فى صدره حرجا أن يأذن لهن ؛ وقد تيقظ كثير من رجال دولتنا الرشيدة الى ما فى هذه المحاكاة من شر مستطير ، فأخذوا يجاهدون فى تطهير البلاد من هذه الخبائث ، وسيلقون على هذا الجهاد شكرا صادقا ، وذكرا طيبا ، وما عند الله خير وأبقى .

(رابعها) محاكاتهم فيما لم يتعرض له الدين بنهى خاص ، ولكن رعاية جلب المصالح أو درء المفاسد تقضى بترك هذه المحاكاة ؛ والمصالح كالمفاسد تتفاوت فى شدتها فيفصل الحكم على حسب هذا التفاوت ؛ ومن أمثلة هـذا النوع اتخاذ بعض الأزياء الظاهرة فى الاختصاص بهم كالقبعة ، فإن وضع المسلم لها على رأسه بين قوم مسلمين يدل على ميله وترجيحه لجانب من اختصوا بلبسها ، ويوقع فى اعتقاد الناظرين اليه أنه من طائفة المخالفين ؛ والمسلم المطمئن لدينه يتحامى ما يدل على أنه يميل الى غير أمته أكثر مما يميل الى أمته ، ويتألم من أن يصفه أحد بأنه من قوم غير مسلمين ؛ وقد حاول بعض المفتونين بتقليد الغالب فيما لا أثر له فى قوة سلطانه أن يحملوا أبناء المسلمين فى مصر على لبسها نخاب سعيهم ؛ ولم يكن جند صلاح الدين الأيوبى الذى انتصر على جيوش الأوربيين فى حطين حيث كانت الواقعة الفاصلة ، يرضى بأن يتخذ فى شعاره القبعات ، ولم ينفع أعداءه المنهزمين أن كان على رأس كل واحد منهم قبعة .

ويدخل فى هـذا القبيل اتخاذ نحو الملابس وأثاث البيوت من مصنوعاتهم وفى المصنوعات القومية ما يغنى غناءها ، وفى الإقبال على المصنوعات القومية فتح باب عظيم من أبواب الثروة العامة ؛ وارتقاء الشعوب على قدر يسارها .

ومما يثير الأسف البالغ أن يقتصر لمسلم فى رسائله أو عند ذكر الحوادث على ما يؤرخ به المسيحيون ، وهو التاريخ القائم على ميلاد المسيح عليه السلام ، وقد فشت هذه المحاكاة ، حتى أصابت أقلاما شأنها أن تَنهى عن مثل هذا التشبه ، وفى الاعتماد على التاريخ الهجرى محافظة على ذكرى مبدأ علو الإسلام وظهوره على الدين كله ، وكان صاحبنا العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله تعالى يقتصر فى مراسلاته على التاريخ الهجرى متعمدا هذا الاقتصار حتى فى مخاطبة الجمعيات أو الشركات الأجنبية .

(خامسها) محاكاتهم فى أمور لم يرد فيها عن الشارع نهى خاص ، ولم تكن فى نفس موافقتهم فيها مصلحة أو مفسدة ، ولا تلقى على صاحبها شبهة الانتماء الى ملتهم ، ولا حرج فى هذه المحاكاة إلا من جهة الاحتفاظ بالتقاليد القومية ، فصغار النفوس أو العقول يسارعون الى التخلى عن المعروف بين قومهم ، ويستبدلون به المعروف بين الأمم الأجنبية ، ولا داعى لهم الى هذه المحاكاة إلا الافتتان بكل شأن من شئون أولى الشوكة والسلطان . أما أولو الأحلام الراجحة فلا ينتقلون عن المعهود فى بيئتهم إلا الى ما هو أفضل ، ولا يفضل عرف على عرف لمجرد أنه يجرى بين قوم لهم القوة والغلبة ؛ ومن أمثلة هذا محاكاتهم فى لون خاص يلتزمونه فى حفلات خاصة ، فليس للّون الخاص فى الحفلات مصلحة أو مدخل فى نهوض القوم ، وإنما هى عادة جرت بينهم ، وألفتها أذواقهم ، فاذا لم يعتمد قوم مسلمون التزام ذلك اللون فى مثل تلك الحفلات وأبوا تقييد الأجانب فى هــذا العرف ، دلوا بهذه الإباية على الاعتزاز بقوميتهم ، ونبهوا على أنهم لا يريدون أن يكونوا أتباعا حتى فيما لا يقدمهم خطوة ، ولا يسد من حاجاتهم خلة .

فإن خطر على بال أحد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعر رأسه موافقة لأهل الكتاب ، قلنا : كان عليه الصلاة والسلام بين فريقين : عباد الأوثان وأهل الكتاب ، وأهل الكتاب أقرب الى الدين الحنيف من عباد الأوثان ، فهم بالموافقة يومئذ أحق من عباد الأوثان ، ولكن بعد أن دخل عباد الأوثان فى الإسلام ، وأصبح

فرق الشعر شعار فريق كبير من المسلمين، عاد صلى الله عليه وسلم، ففرق شعر رأسه، وكان الفرق آخر حالتيه.

وإن تعجب فعجب لذلك الذى وضعت صولة الغالب على بصيرته غشاوة، فقام يدعو المسلمين الى تقليد الأجانب بدون قيد ولا استثناء، وذهب يذكر فى وجه هذا التقليد المطلق غاية هى العمل لاتحاد العالم؛ ولا نطيل فى وصف انحراف هذا الرأى فان العالم فى حاجة لى الاتحاد فى معرفة واجبات الانسانية، وفى احترام الأقوياء لحقوق الضعفاء، ومتى ظفر بهذا الاتحاد لم يضره اختلاف شعوبه فى بعض مظاهر الحياة؛ ثم ما بال هذا الكاتب يسعى لاتحاد العالم من ناحية دعوة المسلمين لى موافقة الغربيين فى كل شىء، ولم ينظر نظر المتدبر الرصين فيدعو الغربيين الى موافقة المسلمين فى آداب هى أشد انطباقا على ما تقتضيه لانسانية وترتضيه الأذواق السليمة :.

هذه كلمة نوجهها الى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، لعلهم يجدون فيها تحقيق الفرق بين محاكاة الأجنبى المحمودة ومحاكاته المنبوذة، فيسلكوا طريقا وسطاً يكفل لهم سعادتى الأولى و لآخرة، (وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ).

محمد الخضر حسين

الطرف والملح

دخل معن بن زائدة على أبى جعفر المنصور فقال له: كبرت يامعن، قال: فى طاعتك يا أمير المؤمنين، قال: وإنك لجلد، قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين، قال: وإن فيك لبقية، قال: هى لك يا أمير المؤمنين، قال: أى الدولتين أحب إليك: أهذه أم دولة بنى أمية؟ قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب الىّ. فقال المنصور: صدقت.



قال الله تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) .

وهذا حكم آخر من أحكام هذه السورة المباركة التى وصفها جل شأنه فى فاتحتها بقوله جل من قائل : (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا) وهذا الحكم له مزيد اتصال بما قبله ، فإن من متممات الاحتياط لصيانة الشرف والعرض المستفادة من الآيات السابقة تشريع هذا الحكم العظيم ، المتضمن من آداب المعاشرة ومخالطة الناس بعضهم بعضا ما فيه صون كراماتهم وسمعتهم ، وشرفهم ، ودوام الارتباط بينهم ، على أنقى الوجوه وأبعدها عن الريبة والتألم والتأذى .

ومناسبتها للآيات السابقة جلية واضحة ، فقد ذكر فى أول السورة حد الزنى مبينا ما فيه من الشناعة والفظاعة ، مؤكدا فى التشديد على من وقع فى جريمته ، مبعداً له عن أن ينال برأفة ورحمة ؛ ثم أردفه ببيان حد القاذف المتعدى على شرف الناس وسمتهم ، وساق تلك القصة التى كانت فتنة لكثير ، ولكنها تضمنت من التعليم خيراً كثيراً كما سبق تفصيله وتوضيحه ، وجاء فى هذه الآيات بتشريع الأحكام التى تساعد على سد هذا الباب ودفع ما فيه من المفاسد والشرور ، فقال جل شأنه : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا) .

وذكروا فى سبب نزولها أن امرأة شكت الى النبى صلى الله عليه وسلم أنها تكون فى بيتها على الحالة التى لا تحب أن يراها فيها أحد : لا والد ولا ولد ، فيأتيها آت فيدخل عليها ، فكيف تصنع ، فنزلت (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا) الخ . ومن ذا الذى يخلص من هذه الحالة ؟ فما من أحد : رجل أو امرأة إلا وهو عرضة لأن يكون على حالة لا يحب أن يراه فيها أحد : لا والد ولا ولد ، فيسوءه أن يفاجئه مفاجىء فيطلع على ما لا يحب أن يطلع عليه أحد ، فاذا فوجىء على هذه الحالة تألم وكره القادم ولو كان قدومه برأيه ، فليس أكرم على المرء من صون نفسه وشرفه ، وعدم تعريضهما للافتضاح وانكشاف الستر . وفوق هذا تجد هذا الأدب متضمنا لقطع ألسنة السوء من مظنة الريبة ، فاذا دخل امرؤ بيتا بلا استئذان ، وكان ذلك مباحاً ، فقد يراه حال دخوله أو حال خروجه من يتهمه ويتهم أهل البيت المدخول عليهم بما لم يخطر لهم ببال ؛ ولقد يصادفه حال خروجه رب الدار وليس فيها إلا امرأته مثلا — فتذهب به الظنون كل مذهب ، ويجد الشيطان له فى نفسه مرتعا خصيبا ، ربما جر الى خراب البيت وإلحاق أطفالها بالأيتام ، وتتسع المقالة لضعفاء الإيمان ، فيخوضون فى الأعراض بما ليس لهم به علم ؛ فتشريع هذا الحكم من أعظم مظاهر الرحمة فى تشريع الحنيفية السمحة .

والبيت: المسكن. لأن المرء يأوى الى مسكنه ليلا عادة، فهو فى الأصل من بات يبيت، مقابل ظل يظل، فالأولى لليل، والثانية للنهار. والإضافة فى بيوتكم للاختصاص بالسكنى أو الملك، أى ملك المنفعة لا ملك العين وحده، حتى إن من أجر بيتا لغيره أو أعاره له، فليس لمالك البيت الدخول حتى يستأنس ويسلم.

وقوله تعالى: (حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا) معناه حتى تستأذنوا. فهو إما من الأنس ضد الوحشة، لأن من دخل بيتا غير بيته تلازمه الوحشة حتى يؤذن له فتتبدل وحشته أنسا وطمأنينة، فيكون المعنى: حتى تطلبوا الأنس بالإذن، أى وتصلوا إليه، بدليل (فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ) الخ، أو حتى تأنسوا وتطمئنوا بالإذن لكم بالدخول؛ وإما من قولهم: أنس بالشيء وآنسه أى علمه، كقوله تعالى: (آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا) أى رآها وأبصرها، فالمعنى حتى تستعلموا: أفيها أحد، أو حتى تعلموا أن فيها أحداً؛ وهو كناية عن تنبيه أصحاب الدار بالقدوم عليهم ليكون لهم الخيار فى الإذن والرد، أو حتى تستعلموا الحال التى أمامكم وينكشف لكم الأمر، أأذنتم بالدخول أم منعتم منه. والمعانى متقاربة فى الغاية وإن اختلفت فى طريق الدلالة.

والاستئذان يكون بوسائل متعارفة، كقرع الباب، أو النداء لمن فى البيت، أو صريح الاستئذان، أو التنحنح، أو التسبيح، والتحميد وما يجرى مجرى ذلك؛ فالمقصود ظاهر، والوسائل معروفة، وكما لا يجوز الدخول قبل الاستئذان لا يجوز النظر الى داخل البيت قبل الاستئذان، فقد ورد « إنما جعل الاستئذان من أجل النظر » وليس معنى الحديث أن من لا يبصر كالأعمى له الدخول بلا استئذان، فإن فى معنى النظر العلم مطلقا، وقد يطلع الأعمى بسمعه على ما لا يحب أهل البيت أن يطلع عليه، خصوصا مع ما هو معروف عن كفيفى البصر أنهم يعتمدون على حاسة السمع

فى تعرف أشياء بطريق الحدس قد لا تخطر لمبصرين على بال . ومنع الدخول قبل الاستئذان عام فى الرجال والنساء ، مع المحارم وغير المحارم ، فما من امرئ إلا وله حالات يكره أن يطلع غيره عليها ، رجلا كان الغير أو امرأة ، محرما أو غير محرم ؛ وقد قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمى ؟ قال : نعم ، قال : ليس لها خادم غيرى أأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ ؛ قال : لا ، قال : فاستأذن عليها .

وقوله تعالى : (وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا) ظاهر فى أن السلام بعد الاستئذان ، وهو الموافق للعادة من أن القادم قد لا يعلم أفى الدار أحد ، فاذا استأذن وأذن له ، سلّم ودخل . ولا يعارض هذا ما روى الترمذى عن جابر بن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم قال : « السلام قبل الكلام » فقد يحمل الكلام فى هذا على ما يجرى بين الناس وقد تقابلوا وتلاقوا بعد الإذن أو فى الطريق ونحوه ، نعم روى البخارى فى الأدب المفرد عن أبى هريرة فيمن يستأذن قبل أن يسلم ، قال : لا يؤذن له حتى يسلم ؛ وكذلك روى عن زيد بن أسلم قال : أرسلنى أبى الى ابن عمر فقلت : أألج ؟ فقال : ادخل ، ثم قال : مرحبا بابن أخى : لا تقل : أألج ، ولكن : السلام عليكم ، فاذا قيل : وعليك ، فقل : أأدخل ، فاذا قيل : ادخل فادخل . فظاهر هذ وما قبله يدل على أن السلام قبل الاستئذان .

وقد رأى بعضهم تفصيلا حسنا فى ذلك ، وهو أنه إن وقعت عينه على من فى البيت بأن كانوا ظاهرين ، قدّم السلام ، وإلا قدم الاستئذان . وقوله تعالى : (ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) فيه إرشاد الى ما حوى هذا الحكم من عظيم المصلحة التى ترجح على ما يتوهمونه من أن فى الاستئذان وانتظار الإذن مذلة ومهانة للمستأذن المنتظر ، وقد يكون فى غنى عن هذه الزيارة ، أو قد تكون زيارته لصالح المزور أو نحو ذلك ، فلماذا تحمل مذلة الاستئذان والانتظار ، وهكذا من مظاهر النعرة التى كانت

تتملك نفوسهم ، فقال جل شأنه : إن تشريع الحكم للعموم على هذا الوجه خير لكم من عزة كاذبة تتمسكون بها ، فكما منعتم من الدخول على غيركم بلا إذن منع غيركم من الدخول عليكم كذلك ، وما منكم من أحد إلا وهو عرضة لمثل هذا ؛ وفيه استبقاء المودة وعدم التأذى من زيارتكم بخلاف ما لو كانت هجوما ، فقد يكون قصدكم منها البر فتنقلب الى شر . وقوله : (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) جاءت بعد قوله : ذلكم خير لكم للتعليل الذى فيه دعوتهم للتذكر . و « لعلّ » الآتية للتعليل فى القرآن الكريم تخالف لام التعليل من جهة أن التعليل فيها منوط باختيار المخاطبين ، على معنى أنه هيّئ الأمر لمن يريد أن يتذكر أو يتفكر أو يتق مثلا ؛ وأما اللام فهى للتعليل المحتوم ، أى ليس الأمر فيه منوطا باختيار الشخص . فكن على ذكر من هذا . والمعنى أنه بسط لكم الحكم وأرشدكم الى خيريته لتتذكروا وتتعظوا وتعلموا فتحرصوا على امتثاله ، فباب التذكر مفتوح أمامكم لمن شاء .

هذا ولا يبعد أن يلتحق ببيوت السكن حجر القائمين بالأعمال العامة ، فإنها وإن لم تكن سكنا ولا محلا لانكشاف عورات ، ولكن قد يكون المنوط به عمل من الأعمال العامة بحاجة الى خلوة يستجمع فيها ذهنه لينجز ما عهد اليه به ، فلو أبيح الدخول عليه بغير إذنه تعطل عن عمل واجب عليه إنجازه ؛ وقد يكون مع ذى مصلحة يجب أن يفرغ لها ليتمها على أتم وجه ، أو يكون مع صاحب حاجة يكره أن يطلع عليها غيره ؛ فكل هذا وأشباهه مدعاة الى احترام من فى مركز لعمل أن يدخل عليه بغير إذن ؛ روى أن أبا سفيان استأذن على عثمان رضى الله عنهما فى زمن خلافته فلم يأذن له مع ما بينهما من صلة النسب ، فقيل له : أنت أبو سفيان رأس العرب فى الجاهلية والاسلام ويحجبك عثمان بن عفان ؛ فقال : لا عدمت من قوى من أحجب ببابه ! فانظر الى هذا الجواب السديد الذى رد كيد ذلك المحرش عليه ، ودفع الحمية والنعرة الكاذبة عن نفسه ،

وبيّن له أن ما فيه من عزة عائد عليّ فهو من قومى ؛ وهذا الخطاب ليلاقى اعتراض المعترض ، فقد جاءه من ناحية العزة والحمية ، فأجابه من ناحيتها أيضا ، وهو أنه من قومه فيعتز به ، وإلا فقد كان حجبه لمصلحة العمل .

قال تعالى : (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ) .

هذا تتميم للحكم الأول من جهة أنه فى البيوت التى فيها أصحابها وهذا فى البيوت التى ليس فيها أصحابها ، وقوله : «فإن لم تجدوا فيها أحدا» الخ غير أن يقال : فإن لم يكن فيها أحد . فإنّ « لم يجد أحدا » معناه لم يعلم أن فيها أحدا وإن كان فيها أحد ولم يحب أن يظهر نفسه . وقوله : (فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ) وجهه أنه قد يكون فى البيت الذى ليس فيه أحدٌ أشياء لا يحب أصحابها أن يطلع أحد عليها ، فليس المنع من أجل العورات الشخصية فحسب ، بل مثلها الأمتعة والممتلكات والمرافق ، يعرف ذلك كل من رجع الى شئونه الخاصة وكان حريصا على كرامته . وقوله : حتى يؤذن لكم ، أى ممن يملك الإذن بالدخول فى هذا البيت ويدرى ما يقول ، فلا يعول على إذن صبى إلا اذا علم أنه مأذون من قبل أهله فى البيت .

وقوله تعالى : (وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ) بيان لأن هذا الاستئذان حقيقى لا صورى ، فالمستأذن عليه أن يأذن وأن يرفض ، وعلى المستأذن أن يمتثل لكلتا الحالتين ، فلا تأخذه العزة بالإثم ، فيلح فى الاستئذان ، أو يلج بلا إذن ، أو يقف على الباب ، فإن فى هذا مضيعة لمصلحة الحكم وقد شرع لمنفعة الجميع ، ورب متأذ منه يوما قد احتاج اليه فى اليوم التالى . وقوله : «هو أزكى لكم» إما معناه أطهر لنفوسكم من دنس الدناءة والرذالة والثقل ، أو أنفع لدينكم وأ كل لآدابكم ، على أن أزكى من زكا يزكو بمعنى طهر أو بمعنى نما .

وبعد فالحكم المذكور فى الآيتين مخصوص شرعا بما اذا لم يكن فى البيت منكر تجب إزالته، أو حادث خطير يجب المبادرة بالإنقاذ منه، كشبوب حريق، أو هجوم لصوص، أو شروع فى قتل، أو إيذاء بلا وجه حق، أو أمثال ذلك، فله حق الدخول لإزالة هذه الحالات.

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، فيجزى كل امرئ على حسب ما عمل وقصد، فقد يدخل متظاهرا بنية إطفاء حريق مثلا - وهو ينوى أن ينهب ما تصل اليه يداه، أو أن ينظر الى ما حرم الله، فما أجل ختم هذه الآية بقوله: والله بما تعملون عليم: ومن نظر فى هذه الآية الكريمة علم أن هذا المبدأ الذى يترنم به كثير بأنه من آثار المدنية الحديثة وهو احترام المنازل والبيوت قد دعا اليه القرآن الكريم على أبلغ وجه. فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

قال تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ).

هذا فى البيوت العامة المعدة لمصالح الجمهور كالخانات والحمامات، ومحال البيع والشراء، فقد روى فى سبب نزول الآية أن أبا بكر رضى الله عنه لما نزلت الآية السابقة قال: يا رسول الله فكيف بتجار قريش الذى يختلفون من مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ولهم بيوت معلومة على الطريق، فكيف يستأذنون ويسمون وليس فيها سكان؟ فنزل قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ) الآية. وقوله: فيها متاع لكم، إما صفة لبيوت، وإما مستأنف كالتعليل لنفى الجناح، أى أن البيوت العامة لا حرج عليكم فى دخولها فإن فيها متاعا لكم، أى أعدت لمنافعكم واستمتاعكم، إما بقضاء ما تبتغون منها من شراء أمتعة أو نحوها، أو بالإيواء اليها بأنفسكم

ودوابكم ومتجركم ، أو قضاء بعض مصالحكم كالاستحمام أو الحلق ، أو خياطة الثياب أو ما ماثل ذلك .

وقوله تعالى . (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ) نسقه كنسق قوله فيما تقدم : والله بما تعملون عليم . والداعية اليه هنا قوية ، فإن إباحة الدخول المبنية على غرض قد يتخذها بعض الناس ذريعة لأغراض خفية سيئة ، فجاء قوله : والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ليذكرهم حين أباح ما أباح لهم أنه عليم بما يجرى فى نفوسهم ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم ما تبدون وما تكتمون . نسأله تعالى أن يوفق لعمل الخير وقصد الخير إنه سميع مجيب : والله أعلم ؟ ابراهيم الجبالى

الطرف والملح

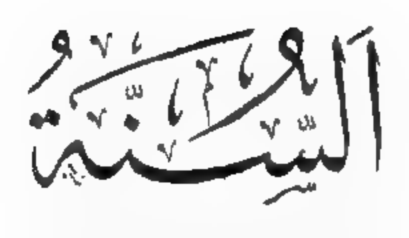
يروى أن أعرابيا وقف على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : إن لى إليك حاجة رفعتها الى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك . فقال له على : خُطَّ [1] حاجتك فى الأرض فإنى أرى الضر عليك فكتب الأعرابى على الأرض : إنى فقير . فقال على : يا قَنْبَرُ [2] ادفع إليه حلتى الفلانية . فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتنى حُلّة تبلى محاسنها   فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه   كالغيث يحيى نداه السَّهل والجبلا
لا تزهد لدهر فى عُرف بدأت به   فكل عبد سيُجزَى بالذى فعلا

فقال على : يا قنبر أعطه خمسين دينار ، أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك .

---

(١) إنما دعاه الى كتابة حاجته رفقا به وصيانة لمساء وجهه ، وتلك كانت عادته رضى الله عنه ، فقد روى أنه كان يقول لأصحابه : من كانت له إلى منكم حاجة فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة . (٢) قنبر كجعفر : مولى على وخادمه .



عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال . أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

لا نرى بدعا من العمل أن ندرج الحديث الواحد فى المجلة ثلاث مرات فى ثلاثة أعداد متوالية، وبخاصة مثل هذا الحديث الذى يراه جمهور المحدثين بمنزلة أم الكتاب من القرآن المبين كما قدمنا، فعسى أن يكون ذلك معينا على حفظه فى جملة ما يحفظ من أحاديثه صلى الله عليه وسلم، فقد روى الترغيب فى حفظ ما ورد عنه عليه السلام فى جملة روايات، ومنها: نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع. وقد مضى فيما سبق شرح صدر الحديث الى قوله فأخبرنى عن الساعة، ونحن ماضون فى شرح بقيته بعون الله وتوفيقه:

« قال: فأخبرنى عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل » .

أى قال هذا الآتى الجالس من النبى صلى الله عليه وسلم تلك الجلسة: فأخبرنى عن الساعة، أى متى تكون، كما ورد فى رواية أبى هريرة: قال: يا رسول الله متى الساعة؟. وقوله: قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل، أى قال صلى الله عليه وسلم: ليس لدىّ من العلم بها أزيد مما لديك، وهو أنها آتية لا ريب فيها، أما تحديد وقتها فقد استأثر الله بعلمه فى جملة أشياء استأثر بها، وهى المذكورة فى الرواية الأخرى بقوله: فى خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ) فهذه الخمس لا سبيل لأحد الى العلم بها علما جازما، فمن ادعى علم شىء منها على سبيل الجزم فهو كاذب، وانتفاء الجزم لا يقتضى انتفاء الظن والتخمين المبنى على قيام الأشراط والأمارات، فالأمارات قد تشتبه وقد تتخلف، والعلم الجازم غير قابل للتخلف، وإلا لم يسم علما، فظنُّ نزول الغيث لهبوب رياح خاصة أو انعقاد غمام متراكم، وتخمين القوابل وأهل الخبرة بأن فى بطن المرأة ذكرا أو أنثى لا يسمى علما جازما، فكثيرا ما يتخلف الظن فى ذلك، على أن تلك الأمارات إنما

تقوم بعد استكمال خلقة الجنين ، أو توافر أسباب نزول الغيث العادية ، وعلى كل حال فهى قابلة للتخلف ، والأمارات فيها كالأمارات المذكورة فى الحديث لقرب قيام الساعة ، فإنها مهما دلت على القرب لا تعطى العلم بالتحديد الذى استأثر الله به .

ولا يهولنك مايجد فى عالم العلم والاكتشاف من التوصل الى أشعة تخترق حجب الأجرام فتتكشف ما فى باطن الأرحام وتصوره ، فليس هذا من باب علم ما فى الأرحام ، وإنما هو من رؤية أشياء خلقها الله وأتم خلقها فيبصرها من يقدر على إبصارها بعد تمام تكوينها ، والذى استأثر الله جل وعز بعلمه هو حالتها قبل تمام تكوينها ، وإلا فبعد التكوين قد أصبحت من عالم المرئيات ، فكل من اخترق الحجب اليها أبصرها على وجهها ، ويكذب كل الكذب من يزعم أن لديه القدرة على التحكم فى النسل ليجعل هذا الجنين ذكرا وذاك أنثى ، فالله وحده هو الذى يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما . وكما يقال فيما فى الأرحام يقال فى باقى الخمسة : من إنزال الغيث ، وعلم النفس ما تكسب غدا ، وعلم مكان الآجال ومستقر النفوس ، فلتتوافر أماراتها توافرا تاما فلن يعدو أمرها التخمين والظن ، شأن كل الأمارات ، وشأن أمارات الساعة ، ولكن العلم الحقيقى عند الله ، كما قال تعالى : (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ) فسّرت بهذه الخمسة .

«قال : فأخبرنى عن أمارتها» وروى : عن أماراتها بالجمع ، وروى : ولكن سأخبرك عن أشراطها . والأشراط جمع شرط (بفتح الراء) وهو العلامة ، فهو بمعنى الأمارة . وقوله : « أن تلد الأمة ربتها » أى سيدتها ، وكأن التأنيث فيها مراعاة معنى النسمة أو النفس ، ولصون لفظ الرب عن أن يستعمل فى مثل هذا المقام ، وإلا فالمقصود السيد ذكرا كان أو أنثى .

وقد فسر هذه العلامة شرح الحديث بعدة أوجه ، فقيل : إن ذلك كناية عن فساد الزمان ، وكثرة عقوق الأولاد للأمهات ، حتى كأن المرأة بدل أن تلد الابن البار أو البنت البارة التى تتقرب الى الله بخدمتها ، أو الذى يرى أن الجنة تحت أقدامها — تلد من الأولاد من يتحكم فيها ويرى لنفسه حق السيادة عليها كأنه سيدها وهى أمته .

وقيل : إن ذلك كناية عن كثرة التسرى وعدم مراعاة حكم الله فى أمهات الأولاد من أنهن يستحققن العتق بالوفاة ، ولا يجوز التصرف فيهن ببيع ولا شراء ولا هبة ولا غيرها ، فيتبدل الحال ويفسد الزمان حتى يهمل هذا الحكم ، فتباع الأمة المستولدة حتى تقع بالتداول فى يد ابنها وهو لا يعرفها .

وقيل : هذا كناية عن التسرى فى الملوك والأمراء ، فتلد الأمة المملوكة من يلى أمر الملك و لإمارة ، فتخضع له أمه مع سائر الرعية ، فبذلك تكون قد ولدت سيدها أو سيدتها . وقيل الرب بمعنى المربى ؛ ومعناه أن تلد الأم من يكون أوفر علما منها وأغزر معرفة بمعالجة الأمور ، فيتولى تربية أمه ، وقد كان المعتاد أن الأم هى التى تتولى تربية ابنها .

وأيا مّا كان فإن هـذه العلامات فيها من معنى الإبهام ما يبقى العلم الواضح بقيام الساعة أمرا مكتوما استأثر الله به ؛ وهذا لحكمة عظيمة ، فإن الله تعالى كما خبأ عن كل امرئ أجله ، حتى يكون أمامه باب الأمل فسيحا فيقبل على العمل الذى هو مناط العمران فى هذا العالم ، وحتى يكون دائما بين الخوف والرجاء ، يرقب الموت كل حين ويفسح لنفسه عظيم الأمل حسب ظنه اتساع الأجل ، كذلك خبأ عن مجموع العالم أمر قيام الساعة حتى يطرد أمر العمران ، ويبقى الاتجاه الى الله تعالى بين كفتى الميزان ، فمن الناس من يقبل على الطاعات ، ومنهم من ينغمس فى العصيان ، لحكمة يعلمها هو ، ولو شاء لجعل الناس أمة و حدة .

وقوله : « وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان » — قد اختلفت فيها آراء الشراح أيضا : فمنهم من قال : إن ذلك كناية عن انقلاب الحال وانتقال الإمرة والسيادة الى رعاع الناس ، فيصبحوا هم السادة ، وتقبل عليهم الدنيا فيكونوا هم ملاك الأموال ، فيتطاولون فى البنيان ويتباهون به ، ويلزم هذا انخفاض أعالى الناس ورءوسهم ، كما قال القائل :

وكذا الدنيا اذا ما عز ناس ذل ناس

ولعل من نسق ذلك ما نسمع عن تلك الفئات من طغام الناس الذين ثاروا على نظام العالم فقلبوه رأسا على عقب ، واستأثروا بما فى أيدى الملاك فأزالوه عنهم وأزالوهم عنه ، أولئك هم البلاشفة المفسدون . وقيل : هذا كناية عن تفتح كنوز الأرض واتساع خيراتها حتى تعم الثروة كافة الناس ، فيتطاول الحفاة العراة فى البنيان ، وينغمسوا فى البذخ والترف . وقيل غير ذلك . وقد عرفت الحكمة فى مجىء الأمارات على هذا الوجه من الإبهام فيما سبق فى العلامة الأولى .

وقوله : « قال ثم انطلق » أى قال عمر رضى الله عنه راوى الحديث : ثم انطلق السائل فلبثت مليا ؛ روى : فلبثت ثلاثا ، أى ثلاث ليال ؛ وفى رواية أبى هريرة : ثم أدبر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ردوه فلم يروا شيئا فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . ولا تعارض بين هذه الرواية ورواية عمر التى فيها فلبثت مليا أو ثلاثا ، فقد يكون عمر قام عند قيام السائل وقبل أمره صلى الله عليه وسلم من بقى من الصحابة برده ، فلم يعلم ما علمه الذين بقوا فى المجلس إذ ذهبوا ليردوه فلم يروا شيئا ، فأعلمه النبى صلى الله عليه وسلم بعد ثلاث ، وأما هم فقد علموا فى المجلس أنه جبريل .

والسر فى مجىء جبريل عليه السلام على هذا الوجه أن ينبههم أن يسألوا عما فيه فائدة لهم فى دينهم : من معنى الإيمان والإسلام والإحسان ، فيقيسوا عليها السؤال عن المهم من

الأحكام ، ولا يسترسلوا فى السؤال عن غير المهم ، كسؤال بعضهم : أين أبى ، ونحو ذلك .
وأما سؤاله عن الساعة فليعلمهم أنه لا سبيل الى علمها فيكفوا عن السؤال عنها .

ولقد جمع لهم هذا الحديث أمر العقيدة وتفصيلها ، والعبادات العملية وأمهات أبوابها ، وطريق الترقى فى عبادات الله والتقرب اليه ، الذى هو المقصد الأعظم ، والغاية القصوى ، والنهاية فى سعادة الدارين ، وأوقفهم عند الحد فيما استأثر الله تعالى بعلمه ، فكان ذلك من أيمن المجالس وأعودها عليهم وعلى المسلمين بالخير والبركة ، والله سبحانه وتعالى أعلم ؟

ابراهيم الجبالى

الظرف والملح

قال رجل للمهدى : عندى نصيحة يا أمير المؤمنين ، فقال : لمن نصيحتك هذه ؟ لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك ؟ قال : لك يا أمير المؤمنين ، قال : ليس الساعى بأعظم عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته ، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة ، فلا نشفى غيظك ، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك ؛ ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه لله رضى ، وللمسلمين صلاح ، فإنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ، ومن استتر عنا لم نكشفه ، ومن بادانا طلبنا توبته ، ومن أخطأ أقلنا عثرته ، فانى أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعاجلة ، والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استُرحم .

الفتاوى والأحكام

هل تأكل الارض أجساد الانبياء

جاءنا هذا السؤال من حضرات الموقعين ، ونصه بعد الديباجة :

الذى نعتقده ونعتقد أن كل موحد صدق يعتقده أن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، واليوم وقع فى يدنا مجلة المنار فوجدنا صاحبها يقول : إن أجساد الأنبياء تبلى ، ويجتهد فى تضعيف الحديث الوارد فى ذلك ، ولا يجب اعتقاد أن أجساد الأنبياء لا تبلى ، ويقول : إن هذه المسألة من مسائل الإيمان بعالم الغيب ، فهى اعتقادية ، وما يجب اعتقاده و لا إيمان به لا يثبت إلا بالنصوص القطعية الرواية والدلالة ، وليس فيها نص ظنى راجح فضلا عن القاطع ، ويقول : إنها من مسائل المناقب والفضائل التى يقبلون فيها الروايات الظنية ولا يأبون إثباتها بما دونها من الضعاف ، وبهذا النظر قبل بعض ما روى فيها وإن كان معلولا ، الى أن يقول . إن التسليم بهذه الخرافات وعدم إنكار العلماء لها قد كان فتنة للعقلاء المستقلين ، منفرا لهم عن الدين ، الى أن يقول : وقد نبش بعض رجال الحكومة التركية اللادينية الحاضرة بعض قبور الأولياء المعتقدين عند العامة أمام الجماهير منهم فأروهم بأعينهم أنه ليس فيها إلا عظام نخرة . هذا ما قال ، فنرجو من فضيلتكم بيان الحق فى ذلك حتى نطمئن على عقيدتنا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الحميد محمد بيومى المدرس بمدرسة الزوامل	أحمد سلمان عثمان التجانى مدرس بمدرسة الكفر القديم	فوزى السيد خالد التجانى مدرس
عبد الرحيم مصطفى التجانى مدرس بمدرسة الجوسق الالزامية	محمد محمد غالى التجانى مدرس بمدرسة العدلية	وآخـــــرين

الجواب

أحضرنا المجلة المذكورة فقرأنا ما فيها خاصا بذلك الموضوع ، وإنا نرى قبل كل شيء أن نبين ما في هذه المجلة من التناقض الذي يدل على الضعف العلمي وعدم الرسوخ في القوانين المنطقية ، ثم المجازفات الشنيعة التي لا يقدم عليها محتاط لدينه ولا متثبت في علمه فنقول :

قال الشيخ رشيد : إن هذه المسألة من المسائل الاعتقادية التي يجب أن تكون أدلتها قطعية ، ثم قال بعد ذلك إنها من مسائل الفضائل التي يتساهلون فيها . وكفى بذلك تناقضا وجهلا . ثم نقول له ثانيا : إن الاعتقاديات التي يجب فيها القطع هي التي تكون من أصول الدين ، وليست كل مسألة غير عملية يلزم فيها القطع ، بدليل ما ذكرته أنت من أن الفضائل يتساهل فيها ، وليس معنى كون المسألة اعتقادية أن فيها اعتقادا كما توهمه صاحب المنار ، فإن المسائل العملية نعتقد صحتها ووجوبها أو سنيتها الخ ولا نقدم على شيء من الأمور العملية إلا بعد أن نصدق بأنه شرع الله ورد به خطابه المتعلق بأفعال المكلفين . وإذا لم نعتقد ذلك لم يكن حكما شرعيا عندنا ، وإذاً لابد من الاعتقاد في مسائل الحلال والحرام والفروع العملية كلها ، كما أن من الاعتقاديات الاعتقاد بأن أبا بكر أفضل الصحابة مثلا ، وأنه أحق بالخلافة منهم ، وأن عمر أفضل من عثمان ، وأن المسجد الحرام أفضل من المسجد الأقصى الخ الخ ، وهذه كلها لا عمل فيها ، وإنما فيها الاعتقاد ، أفيرى الشيخ أنه لا بد فيها من الدليل القاطع كما يقول ، أم يسهل عليه أن نفيده أن الاعتقاديات التي سمع العلماء يقولون فيها : إن دليلها قاطع هي أصول الدين التي لا بد منها في كون الشخص مسلما ؟ .

والخلاصة أن الاعتقاديات التي يجب أن تكون أدلتها قطعية هي ما يكفر جاحدها لا كل ما فيه اعتقاد ، أو ما ليس فيه عمل كما ظن حضرته ، فلا نطاق للاعتقاديات

إلا على ما أوجب الدين اعتقاده وجعله من الأصول لا من الفروع ، والأصول كلها اعتقادية ، فصارت هذه العبارة متعارفة بينهم فى ذلك ، كما لا يخفى على من مارس العلم أو تلقاه عن العلماء . ثم تقول : كيف يكرر الشيخ أن المسألة ليست قطعية ولا ظنية مع ورود الأحاديث الصحيحة فيها على ما نذكره بعد ، ويصف القائلين بذلك أنهم خرافيون . وهذه جراءة غريبة ، فإن الأحاديث فى ذلك صحيحة لا شك فيها ، وقد خرجها الثقات من أئمة الحديث وصححوها كما ستسمع . أما ما يقوله من أن الأتراك نبشوا قبور الأولياء فوجدوها عظاما نخرة ، فلا يستدل به إلا من ليس له علم ، ومن أين جاءه أن الولى دفن فى هذه القبور ؟ ! وهل ثبت عنده ذلك من طريق صحيح وهو يطعن فى الطرق الصحيحة اذا كان فيها فضل الأنبياء وشرفهم ونحو ذلك مما لا يوافق نزعته ، ويصدق كل ما يقال ولو كان أوهى من بيت العنكبوت اذا صادف هوى فى نفسه أو جاء عن الأوربيين ، واذاً يؤول له الآيات القرآنية !

ثم نقول بعد ذلك : ما لنا وللأولياء ؟ وأين هذا من كلام السائل الذى سأل عن الأنبياء الذين وردت فيهم الأحاديث الصحيحة ، لا فى الأولياء الذين يجوز عليهم كل شىء حيث لم يكونوا معصومين ؟ ! فلو ثبت ما قاله لصح أن نقول : إن الولى قد تغير حاله واقترف من الكبائر ما جعله فى زمرة الفاسقين ، فذلك جائز عليهم ، كما يجوز الغلط فى اعتقاد أنهم أولياء . ومـاذا يذكر ما رآه الكماليون ولا يذكر ما ذكرته الجرائد المصرية فى ظروف كثيرة من ذلك عند ما كانت الحكومة تريد أن تنقل بعض الأولياء من أماكنهم لأمر ما « كأبى نوار — بنها » وأحد الصحابة بالعراق ، وقد حضر نقل جثمانه جمهور عظيم وعلى رأسه جلالة الملك فيصل ، كما ذكرته الجرائد من عهد قريب ؛ وغير ذلك كثير لا يحضرنى الآن ، ووزارة الأوقاف تعرف كثيراً منه .

وفى موطأ الامام مالك وغيره أن معاوية لما أراد أن يجرى النهر الذى يمر فى قبور الشهداء بأحد ، وجدوا عمرو بن الجموح لم يتغير ، وكذلك غيره ، حتى قال بعضهم :

لا ينكر بعد هذا منكر . وكان بين غزوة أحد وحفر النهر ست وأربعون سنة ؛ وفى مثل هذا آثار كثيرة ، فلماذا يعدل عما فى الموطأ وغيره الى ما روى عن الأتراك ولو كان صحيحا كما يقول ؟ : .

الكلام على الحديث :

ورد فى هذا الموضوع أحاديث كثيرة — منها حديث « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » وهو حديث صحيح فى نهاية الصحة لا غبار عليه ، صححه من الأئمة من لا يحصى عددهم ، منهم ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأقره الذهبي (صفحة ٢٧٨ جزء أول من المستدرك) ، وصححه أيضا النووى فى الأذكار ، والحافظ عبد الغنى ابن سعيد المقدسى والامام القرطبي فى التذكرة ، والحافظ ابن يحيى وقال : إنه صحيح محفوظ ينقله العدل عن العدل ، وحسنه ابن العربى المالكى فيما نقله عنه الثعالبي فى العلوم الفاخرة ، وحسنه أيضا المنذرى فيما نقله عنه السخاوى ، وصدّره فى الترغيب والترهيب بعن ، وهى علامة الصحيح والحسن عنده .

ومع تصحيح هؤلاء الحفاظ الأعلام ، وفيهم الذين لا يعرف لهم تساهل فيه كالذهبي والمنذرى وابن العربى المالكى ، فإنا نتكلم على الحديث من جهة الصنعة الحديثية فنقول : الحديث أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة وأحمد فى مسنده ، وابن أبى عاصم فى الصلاة له ، وأبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم ، والطبرانى فى معجمه ، وابن خزيمة وابن حبان والحاكم فى صحاحهم ، والبيهقى فى حياة الأنبياء وشعب الإيمان وغيرهما من تصانيفه ، كلهم من طريق حسين بن على الجعفى ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد ابن جابر عن أبى الأشعث الصنعانى عن أوس بن أوس الثقفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل أيامكم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا علىّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ ، قالوا : وكيف

تعرض صلاتنا عليك وقد أرِمْت — يقولون بَلِيت — قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » رجاله كلهم ثقات على شرط الصحيح — أبو الأشعث الصنعانى اسمه شراحيل بن أدة ، روى له مسلم ، ووثقه العجلى ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر روى له البخرى ومسلم ، ووثقه ابن معين والعجلى ، وابن سعد والنسائى ويعقوب بن سفيان وأبو داود وغيرهم . والحسين بن على الجعفى روى له البخارى ومسلم ، ثقة باتفاق ، قال عثمان بن أبى شيبة : بخ بخ ثقة صدوق ، وبه تم الإسناد ، فإن حسين بن على شيخ جماعة ممن أخرجوا الحديث ، فهذا برهان ما حكم به أولئك الحفاظ من الصحة لهذا الحديث .

ثم إن له طريقا آخر أخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى الدرداء مرفوعا « أكثروا الصلاة علىّ يوم الجمعة فإنه مشهود يشهده الملائكة ، وإن أحدا لن يصلى علىّ إلا عرضت علىّ صلاته حتى يفرغ منها ، قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال وبعد الموت ، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » قال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب : إسناده جيد ، وكذا قال العلامة السمهودى فى وفاء الوفا (صفحة ٤٠٦ جزء ثانى) وقال السخاوى فى القول البديع والحافظ البوصيرى فى زوائد ابن ماجه : رجاله ثقات ، إلا أن فيه انقطاعا . قلت : انقطاعه لا يضر ، لأن الحديث الأول الصحيح شاهد له . وله طريق ثالث عن ابن شهاب مرسلا : « أكثروا علىّ من الصلاة فى الليلة الغراء واليوم الأزهر ، وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء » أخرجه النميرى والطبرانى كما ذكره السخاوى فى القول البديع . وله طريق رابع أخرجه ابن ماجه من حديث شداد بن أوس بلفظ حديث أوس بن أوس . وله طرق أخرى ذكر الحافظ المنذرى فى اختصار السنن لأبى داود أنه جمعها فى جزء خاص . فلا يرتاب مع هذه الطرق والشواهد فى صحة هذا الحديث إلا متعصب جاهل أو معاند مضلل .

ويلتحق بذلك الموضوع مايحسن أن تتم به هذا المقام ، وهو حديث : « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون » رواه أبو يعلى والبيهقى من طرق متعددة من حديث أنس ابن مالك ، قال المناوى فى شرح الجامع الصغير قال السمهودى : رجاله ثقات ، وصححه البيهقى . انتهى . قلت : والسمهودى ذكر ذلك فى وفاء الوفا (ص ٤٠٥ جزء ثانى) ، وسبقه الى ذلك الحافظ السخاوى فقال فى القول البديع (صفحة ١٢٦) : رجاله ثقات ، وصححه البيهقى .

ولنبين ذلك من طريق الصناعة الحديثية حتى ينقطع لسان كل مكابر فنقول : قال أبو يعلى : حدثنا أبو الجهم بن على ، حدثنا يحيى بن أبى بكير ، حدثنا المستلم بن سعيد عن الحجاج بن الأسود عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون » رجاله كلهم ثقات — ثابت : هو البنانى ، لا يسأل عنه لإمامته وجلالته ، ثقة باتفاق ، من رجال البخارى ومسلم . والحجاج بن الأسود قال أحمد : ثقة ، رجل صالح . وقال ابن معين : ثقة . وقال أبو حاتم : صالح الحديث ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، ولم يعرفه الذهبى فقال : إنه غير معروف ، وردّ ذلك الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان بأنه معروف ، روى عن ثابت وجابر بن زيد وأبى نضرة وجماعة ، وعنه جرير بن حزم وحماد بن سلمة وروح بن عبادة وآخرون ، ثم ذكر عن الأئمة توثيقه الذى قدمناه ، والراوى عنه مستلم بن سعيد من رجال الأربعة ، قال أحمد : شيخ ثقة ، من أهل واسط ، قليل الحديث ، وقال النسائى : ليس به بأس ، وذكره ابن حبان فى الثقات . ويحيى بن أبى بكير ثقة ، من رجال البخارى ومسلم ، وثقه ابن معين والعجلى ، وقال أبو حاتم : صدوق . وقال على بن المدينى : ثقة ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وأبو الجهم روى له البخارى فى الأدب المفرد ، والحاكم فى صحيحه ، وذكره ابن حبان فى الثقات .

فحال رجال هـذا الإسناد كما ترى : كلهم ثقات ، فهو صحيح على رأى ابن حبان والحاكم وأمثالهما ، حسن على رأى البخارى وأمثاله . ثم له طرق أخرى أخرجها البيهقى فى حياة الأنبياء ، وبها يرتقع الى درجة الصحيح المتفق عليه — منها حديث الإسراء الذى فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى موسى قائما يصلى فى قبره ، وأنه اجتمع بالأنبياء وصلى بهم . وقد نص كثير من الأئمة والحفاظ كالقرطبى فى التذكرة ، وابن القيم فى كتاب الروح ، والحافظ السيوطى فى غير ما كتاب من كتبه على أن أحاديث حياة الأنبياء فى قبورهم متواترة ، وقال ابن القيم فى كتاب الروح نقلا عن أبى عبد الله القرطبى : صح عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس وفى السماء خصوصا بموسى ، وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد عليه السلام ، الى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع الى أنهم غيبوا عنا بحيث لا نراهم ، وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة ، فإنهم أحياء موجودون لا نراهم . انتهى .

وقد نقل كلام القرطبى هذا أيضا وأقره الشيخ محمد السفرينى الحنبلى فى شرحه لعقيدة أهل السنة ، الى آخر ما كتبناه فى حياة الأنبياء بشهر صفر من هذه السنة وقد نص الحاكم والحافظ السيوطى على أن حديث الإسراء متواتر أيضا ، وحديث « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » ورد من طرق متعددة كما قدمناه ؛ وقد صح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والشهداء فوجدوا لم تتغير أجسامهم ، والأنبياء أفضل من الشهداء اهـ . فصاحب المنار خرق إجماع المسلمين ، وعارض ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت عنه بالدليل القاطع .

مناقشة الشيخ رشيد في عبارته المتهافتة :

وبعد هذا يحسن أن نتلو عليك شيئا من عباراته لتعلم ما فيها من جهل وتناقض فنقول : قال تمهيدا لاستنتاجه الفاسد : « إن سنة الله في البشر واحدة في حياتهم وموتهم » ونحن نقول له : إن سنة الله في الأنبياء والمرسلين ليست كسنته في غيرهم ، بل سنة الله في الصالحين ليست كسنته في الطالحين ، ولهذا أظهر المعجزات على يد الأنبياء ، والكرامات على يد الصالحين ، وخصهم بخصائص ليست لغيرهم في الحياة وبعد الممات ؛ وهل من سنة الله أن يسمع من في المدينة من يكون ببلاد فارس ، كما حصل لعمر مع سارية رضي الله عنهما ؟ وهل من سنة الله أن تضيء العصا لصاحبها كما حصل لأسيد بن حضير وعباد بن بشر لما خرجا من عند رسول الله في ليلة مظلمة ، وهو في البخاري وغيره ؟ بل نقول : وهل من سنة الله الإسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ثم الرجوع في ليلة واحدة ، بل العروج الى السموات العلا والى سدرة المنتهى الخ الخ ؟ أم هو كلام قاله قائل فاغتر به جاهل ، قياسا على الأعراض البشرية من المرض والقتل والحياة والموت الخ ؟ ؛ ولماذا لم يسلموا لسحر مع صحة حديثه وهو من الأعراض البشرية ؟ أم يحلونه عاما ويحرمونه عاما ؟ ؛ وقد قال تعالى في حق الشهداء : إنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، والأنبياء أفضل من الشهداء بإجماع ، فهل يرى أن كل ميزة للأنبياء والشهداء هي مشتركة بينهم وبين غيرهم تحقيقا لما قاله من أن سنة الله في البشر واحدة في حياتهم ومماتهم ، واذا لا تكون ميزة ، فهل يعقلون هذا ؟ ؛

ثم انظر الى قول الشيخ رشيد الأمين الثقة بعد ذلك : إنه ورد في غير الصحاح أن أجساد الأنبياء لا تأكلها الأرض ؛ وما أدري كيف يحل له أن يقول بعد ما سمعته في تصحيح الحديث : إن ذلك ورد في غير الصحاح ؛ ثم قال حضرته : وأمثل ما ورد في ذلك حديث أوس بن أوس في فضل يوم الجمعة الذي فيه أن الصلاة عليه صلى الله

عليه وسلم تعرض عليه ، قال أوس : قال يارسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ يعنى بليت — قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء رواه أحمد فى مسنده وأبو داود والنسائى والبيهقى فى الشعب ، وفى رسالته حياة الأنبياء وغيرهم ، وقد صححه بعضهم وحسنه آخرون ، منهم المنذرى .

هذا كلامه ، فانظر لذكره هؤلاء الأئمة الذين خرجوا الحديث ثم صححوه أو حسنوه ، ثم انظر الى ما سبق له والى مايذكره من أن الذى تمسك بهذا هم المخرفون : ثم قال بعد ذلك طاعنا فى الحديث ما خلاصته : إن أبا حاتم جزم بأن فى الحديث علة خفية ، وهى أن راويه حسينا الجعفى غلط فى اسم جد شيخه عبد الرحمن بن يزيد فسماه جابرا ، وإنما هو تميم ، وابن تميم منكر الحديث ، فالحديث منكر لهذه العلة . هذا محصل عبارته على تحريف وغلط فيها . ثم قال : لكن هذه العلة ردها الدار قطنى وقال : إن سماع حسين من جابر (وصوابه من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر) ثابت ، والى هذا جنح الخطيب ، والعلم عند الله تعالى . وهنالك أحاديث أخرى تقويه وتشهد له اهـ .

ونقول له : كيف يحل لك بعد ما ذكرت كثيرا من أولئك الأئمة الذين صححوه ، وبعد ما ذكرت أنت أن الدار قطنى رد هذه العلة وقال : إن سماع حسين الجعفى من عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثابت ووافقه الخطيب ، نقول : كيف يحل لك بعد ذلك كله أن تجعل القائلين بأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء مخرفين ! أفلا تعقل يا أستاذ ما تكتب ؟ أما كان ينبغى لك أن تقول فى المقدمات غير ما قلت ، أو تكتب فى النتيجة غير ما كتبت ؟ ! ولكن لا غرابة ، فلست من أهل هذا الشأن ، وليس فيك استعداد لأن تكون من أهل المنطق .

وبعد فنقول : إن الدار قطنى أثبت فى هذا الشأن من أبى حاتم ، ولا أدرى كيف يتجه هذا الطعن والحديث فى سنن أبى داود والنسائى وغيرهما ، وفيه التصريح بأن عبد الرحمن هو ابن يزيد بن جابر لا ابن تميم ؟ ! .

ولنذكر لك شيئا مما ذكره علماء المصطلح عن أبى حاتم الذى قدمه الشيخ رشيد على أولئك الأئمة الذين صححوا الحديث جميعا — قال فى شرح التقريب :

(١) « أحمد » عن عاصم البلخى : جهله أبو حاتم لأنه لم يخبر حاله ، ووثقه ابن حبان .

(٢) « أبو اليسع » : جهله أبو حاتم وعرفه البخارى .

(٣) « بيان » بن عمرو : جهله أبو حاتم ووثقه المدينى وابن حبان وابن عدى ، وروى عنه البخارى وأبو زرعة وعبد الله بن أبى واصل .

(٤) « الحسين » بن الحسن بن يسار : جهله أبو حاتم ووثقه أحمد وغيره .

(٥) « الحكم » بن عبد الله القبرى : جهله أبو حاتم ووثقه الذهلى ، وروى عنه الثقات .

(٦) « عباس » بن الحسين القنطرى : جهله أبو حاتم ووثقه أحمد وابنه ، وروى عنه البخارى والحسن بن على المعمرى ، وموسى بن هرون الحمال ، وغيرهم .

(٧) « محمد » بن الحكم المروزى : جهله أبو حاتم ووثقه ابن حبان ، وروى عنه البخارى .

وبعد فما أدرى كيف يطعنون فى هذا الحديث بتلك العلة التى لا معنى لها بعد أن صرح حسين الجعفى بأنه راو عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر لا عن عبد الرحمن بن يزيد ابن تميم ، وليس من شأنه أن يروى عن الضعاف ، ولا يعقل أن يخفى ذلك عليه ، ولا أن يغلط فى شيخه : .

ولنذكر لك شيئا من ترجمته زيادة على ما تقدم فنقول : هو حسين بن على الجعفى مقرئ الكوفة وعابدها ومحدثها ، وشيخ أحمد وابن راهويه وابن معين وغيرهم ، وثقه العجلى وابن معين وابن حبان وغيرهم ، وكان فى الورع آية ، وقد خرج له الشيخان وأصحاب السنن الأربعة ، فلن يجد المتطلب مغمزا فيه .

لون آخر :

وقبل إلقاء القلم نتحفك بشيء طريف يدلك على علم الشيخ رشيد وتحريه وسعة اطلاعه ، وتقول : على عقله الكبير وعلمه الغزير :

جاء فى تفسير ابن كثير الذى طبعه الشيخ رشيد هذا الحديث الذى رواه الحاكم عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أيكم يتابعنى على ثلاث ؟ ثم قرأ قوله تعالى . (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) الى آخر الآيات الثلاث ، ثم قال : فمن وفى فأجره على الله » الخ . قال الحاكم : صحيح على شرط البخارى ومسلم ، ولم يخرجاه . فعلق عليه الشيخ رشيد بقوله : لكنه غير صحيح المعنى فإن الوصايا خمس لا ثلاث . ولم يبين حضرته فى الحديث علة تقدح فى صحته غيرما أبداه من فهمه السقيم ، فإنه فهم أن الثلاث هى الوصايا ، والنبي صلى الله عليه وسلم يريد بها الآيات لا الوصايا ؛ وقد جاء التصريح بذلك فى رواية غير الحاكم ، فقد رواه الترمذى و بن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت وفيه : « أيكم يتابعنى على الآيات الثلاث » ثم تلا : (قُلْ تَعَالَوْا) الى ثلاث آيات .

فانظر الى تسرع الشيخ واجتهاده الذى يبنيه دائما على شفا جرف هار ؛ وكم له ولأتباعه من أمثال هذه التعليقات الحمقاء . فرحم الله امرأ عرف قدره ، فلم يتعد طوره .

ولعلنا نذكر للقارئ ما يبين خطأه فى المحسوس ، ومقدار أمانته فى النقل بما لا يستطيع أن يمارى فيه . ولعمر الله ما قرأت عددا من أعداد المنار إلا وجدت فيه من الجهل والتناقض وقلة الذوق وسخافة التعبير ما لو أردت أن أكتب فيه لكان كثيرا وخطيرا ، ولكان التعليق على المنار أكثر من المنار ، ولكن نريك نماذج منها على سبيل الفكاهة ، وهى تنبئ عما وراءها ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالازهر

العـدوى

ورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر » فهل يفهم من قوله عليه السلام « لا عدوى » أنه لا يعدى شىء شيئا بمعنى أن المريض بمرض الجرب مثلا لا يعدى السليم بنقل جرثومة المرض ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فهل قوله عليه الصلاة والسلام «لا عدوى» يتعارض مع قوله : «فر من المجذوم فرارك من الأسد» ومع قوله أيضا : « إذ سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها » ؟ كل هذا ما نرجو شرحه حتى يتبين الرشد من الغى ، وتفضلوا بقبول تحياتى ؟

عبد السلام أحمد فضل
مدرس بمدرسة شبرا هارس الالزامية

الجواب

روى البخارى بسنده عن سعيد بن ميناء قال سمعت أبا هريرة يقول - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عدوى [1] ولا طيرة [2] ولا هامة [3] ولا صفر [4] وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » .

---

(١) العدوى : اسم من الاعداء كالرعوى والبقوى من الارعاء والابقاء . يقال : أعداه الداء يعديه إعداء وهو أن يصيبه مثل ما بصاحب الداء . (٢) الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء وقد تسكن : التشاؤم بالشىء . وهو مصدر تطير يقال تطير طيرة . (٣) الهامة : الرأس . واسم طائر من طير الليل . وقيل هى البومة . وقيل كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذى لا يدرك ثأره يصير هامة فيقول : اسقونى اسقونى حتى إذا ما أخذ أهله بثأره طارت . وقيل كانوا يزعمون أن روح الميت تصير هامة فتطير ويسمونه الصدى . (٤) الصفر : اسم لحية تزعم العرب أنها فى البطن تصيب الانسان إذا جاع وتؤذيه وأنها تعدى وقيل المراد به النسىء الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية وهو تأخير المحرم إلى صفر ويجعلون صفر هو الشهر الحرام .

وروى مسلم رضى الله عنه عن أبى هريرة حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاعدوى ولاصفر ولاهامة فقال أعرابى : يارسول الله فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء فيجىء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها ، قال : فمن أعدى الأول ؟ . وروى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « لا عدوى » وقال : « لا يورد ممرض [1] على مصح » . وروى مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الشؤم فى الدار والمرأة والفرس » وروى مسلم عن ابن عمر أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن يكن من الشؤم شئ حق ففى الفرس والمرأة والدار » .

هذا بعض ما روى فى هذا الباب . وقد رأى الذين لا يتدبرون ولا ينظرون فى الأمور إلا بما تمليه أهواؤهم أن بين تلك الأحاديث تعارضا ، وأن بين صدر الحديث الأول وآخره تنافيا ؛ ولو فقه هؤلاء الذين شغفوا بحب الاعتراض بغير حق إلى ما فى هذه الأحاديث من تثقيف وتعليم ، وما فيها من حكم ، وفطنوا لما كان عليه حال العرب حين بعثته صلى الله عليه وسلم من اعتقادات باطلة ، وجرى وراء أوهام ووساوس ما أنزل الله بها من سلطان ، لأعجبوا بتلك الحكم التى اجتثت من نفوس الصحابة والمسلمين سلطان الأوهام ، وأفهمتهم جميعا أنه لا مسيطر فى الكون إلا الواحد القهار سبحانه وتعالى ، وأنه يخلق ما يشاء ، وأنه بحكمته قد ربط الأسباب بالمسببات ؛ ولكن أنى لهم ذلك وقد ران على قلوبهم ما فيها من غل وحقد للدين الاسلامى وتعاليمه وإرشاداته ؛ وسنوضح لك فى هذه العجالة ما يزيح ستار الأوهام التى عساها تعلق ببعض الأفهام حتى يتجلى لك الحق ناصعاً :

بعث صلى الله عليه وسلم وحال الأمة العربية من أسوأ الأحوال : كان الفخر كل الفخر لديهم فى سفك الدماء ، وابتزاز القوى مال الضعيف ، وقد استحوذ عليهم

(١) الممرض بكسر الراء : صاحب الابل المراض . والمصح بكسر الصاد : صاحب الابل الصحاح .

الجهل فقست قلوبهم، وفسدت عقائدهم، حتى عبدوا الأصنام، واستباحوا المحرمات؛ وكانت لهم عادات مستهجنة مستقبحة تغلغلت فى نفوسهم، فكان طبيعياً أن النبي عليه الصلاة والسلام يزيل تلك العقائد الباطلة، ويزيح الشبهات الفاسدة، ويعلمهم ويرشدهم الى ما فيه خيرهم فى معاشهم ومعادهم. ولقد كان صلى الله عليه وسلم دائب الدعوة الى النجاة، وترك البغى والاستسلام للأوهام، لا يدع فرصة دون أن يعلم أصحابه أحكام الحنيفية السمحة، ويرشدهم الى ما هو مستقبح ومبتذل من عادات العرب، مبينا لهم أن بعض هذه العادات تتضمن الشرك والكفر، ومن أول واجب المسلم ألا يجعل لوساوس الشيطان الى نفسه سبيلا حتى لا يقع فى الشرك الخفى.

وكان مما يعتقده العرب — وهو كثير عندهم وشائع لديهم — اعتقاد أن المرض يؤثر بطبعه، وأن عدوى المريض للصحيح أمر ذاتى لا ينفك ولا يتأتى أن يتخلف؛ وذلك ناشئ من عدم فهم هؤلاء لربط الأسباب بالمسببات، وعدم إدراكهم لما يجب لله من كمال، فأرشدهم صلى الله عليه وسلم الى أن الواجب أن يعتقد المسلم أن الله سبحانه وتعالى بيده الخلق والأمر، لا مسيطر على الكائنات سواه، ولا فاعل غيره، وأن كل شىء بقضائه وقدره، وأن عدوى المريض لسليم ليست أمراً حتما، ولا لازما ضروريا لا ينفك، لأن الله سبحانه وتعالى قد يخلق فى السليم من المناعة والقوة ما يجعله بعيداً عن التأثر بمرض المريض.

جهل هؤلاء كل هذا، وجهلوا ما هو واقع تحت حواسهم كل حين، ومشاهد لكل إنسان: من أن المريض لا يلزم أن يعدى السليم، فكثيراً ما يصاحب السليم المريض ويمكث معه الأزمان الطوال ولا يصاب بأذى، وأن انتقال العدوى الى السليم أمر ممكن يجوز أن يكون وألا يكون، وأن ذلك منوط بقدر الله، فمن شاء الله أمرضه ومن شاء الله وقاه، كما أن من أراد هلاكه أهلكه ومن أراد شفاءه شفاه.

خفى هذا على العرب وعلى كثير غيرهم فأرشدهم صلى الله عليه وسلم الى كل ما قدمناه بقوله : « لا عدوى » فأبان لهم أن العدوى وإن حصلت غير لازمة ، وأن ذلك من صنع الحكيم ، ولما ناقشه الأعرابى الذى لم يدرك الحقيقة ووقف عند رؤيته بعض الحوادث بقوله : « فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء فيجىء البعير الأجرب فيجربها كلها » ألزمه صلى الله عليه وسلم الحجة وأبان له حقيقة ما التبس عليه بالدليل القاطع ، فقال : « فمن أعدى الأول » ؟ وهى حجة قاطعة لكل شبهة لا تدع للشك مجالا فى أن المرض وانتقاله بقدر الله الذى خلق الداء والدواء .

أرشد صلى الله عليه وسلم أصحابه الى أن العدوى ليست أمرا لا يمكن تخلفه ، وأرشدهم فى الوقت نفسه الى أن انتقال المرض من المريض الى السليم قد يكون وقد يحصل بفعل الله وقدره ، وأن الواجب هو اعتقاد أن العدوى ليست ذاتية ، وليس معنى هذا أنها لا تكون البتة ، بل إذا أراد الله كونها كانت ، ولما كانت مخالطة السليم المريض مما جرت عادة الله بخلق المرض عنده كخلقه الشبع عند الأكل والرى عند الظمأ ، هدى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه الى مجانبة ما يحصل الضرر عنده فى العادة بفعل الله وقدره . وبيان ذلك أن مخالطة المجذوم وغيره كالمسلول من أسباب العدوى عادة ، فربما حصل عند المخالطة أن يصاب السليم بالمرض فيظن أن ذلك ناشئ من مخالطته ، وأنه لولا المخالطة لما حصل له ما حصل ، فيقع فى الشرك ، وقد يدخل فى نفسه من الحفيظة على المريض وأهله ما يوجب شرا ، فأمرهم صلى الله عليه وسلم باجتناب ما قد يكون فيه الأذى لأن ذلك أسكن لقلوبهم وأطيب ، وأبعد لنفوسهم مما قد يستبق اليها من الفهم الخاطئ الذى يوجب الإثم أو الشرك . يرشدك الى هذا أنه صلى الله عليه وسلم مع تعليمه لهم ذلك أكل مع المجذوم فى إناء واحد وقال له : « كل ثقة بالله وتوكلا عليه » فأرشد بصنيعه صلى الله عليه وسلم الى أنه إنما أراد إرشاد الناس بقوله : فر من المجذوم الى الابتعاد عما عساه يكون سببا فى ضررهم ، وأن هذا السبب وهو المخالطة لا تأثير له بطبعه ، بل

بقدر الله وأنه سبحانه وتعالى وإن جعل المرض سببا للعدوى قد يخلق من الأسباب ما يعارض هذا السبب، كالمناعة فى الصحيح وعدم استعداد جسمه لقبول جراثيم المرض . ولقد أفاد صلى الله عليه وسلم بصنيعه وقوله للمجذوم : « كل ثقة بالله وتوكلا عليه » أن من أهم الأسباب التى تعارض السبب الأول التوكل على الله، إذ ببركة التوكل يبعد الله الضرر، بيد أن التوكل على الله الى الحد الذى يستطيعه رسول الله ليس فى إمكان سائر الناس، لذلك علمهم أن لهم أن يجتنبوا المجذوم ، وفعل ذلك بنفسه صلى الله عليه وسلم حيث أرسل الى المجذوم الذى أراد بيعته « أنا قد بايعناك فارجع » تشريعا منه لأصحابه وأتباعه .

من هذا يتبين بأجلى وضوح عدم التعارض بين قوله صلى الله عليه وسلم : لا عدوى ، وقوله : فر من المجذوم كما تفر من الأسد . ومن هذا الذى ذكرناه أيضا يتبين عدم التنافى بين قوله : لا عدوى ، وبين قوله : لا يورد ممرض على مصح . ومن هذا القبيل نهيه صلى الله عليه وسلم عن دخول البلد الموبوء والخروج منه ، فقصد بذلك إبعاد الناس عن الفتنة، حتى لا يظن أن هلاك القادم إنما حصل بقدومه، وسلامة الفار إنما كانت بفراره ، فعلمهم الاحتراز من المكاره وأسبابها، وأن الواجب هو التسليم لقضاء الله عند حلول الآفات . وقد صح عن ابن مسعود أنه قال : « الطاعون فتنة على المقيم والفار ، أما الفار فيقول : فررت فنجوت ، وأما المقيم فيقول : أقمت فمت ، وإنما فر من لم يأت أجله، وأقام من حضر أجله » .

قدمنا لك أن حال العرب كانت سيئة، وأن لهم من العادات ما هو قبيح ومذموم، فمن تلك العادات المرذولة (والتى هى من الشرك) زجرهم الطير والوحش، وركونهم الى جماعة العرافين ، وهم الذين اشتهروا بإحسان زجر الطير واستنفار الوحوش ، فكانوا يقصدونهم لعملية الزجر فيستنفر هؤلاء الوحش أو يزجرون الطير، فما تيامن منها سموه سانحا وتفاءلوا به ، وما تياسر سموه بارحا وتشاءموا به (وقد يعكس بعضهم الأمر)

وكان العراف يحتكم فيهم وهم يصغون لقوله ولا يصدرون إلا عن رأيه ، فيصدهم عن حوائجهم ، وقد يأمرهم باتباع غير ما عزموا عليه ، فيأمرهم بالسلم عند إرادة الحرب ، وبالحرب عند إرادتهم السلم ؛ وقد يقصد أحدهم الأمر لمصلحة فينهاه عنه .

اشتهر ذلك بينهم وكثر فيهم ، حتى صاروا يزجرون الطير بأنفسهم دون حاجة الى العرافين ، فكان الرجل منهم يخرج لحاجته فاذا عرض له طير أو شبح تشاءم وقعد عن حاجته ؛ وقد يقصد زيارة صديق فيسمع كلمة من رجل أو غثاء من شاة فيتشاءم ويقعد عن غرضه ؛ وقد يتوهم أن صديقه توفى .

استحكم ذلك فيهم و ستمروا يفعلونه حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فنفى الطيرة مثبتاً أن لا تأثير لها ، ولا هى موجبة شيئا مما يتوهمونه عندها ، وأن الأمر بيد الله يفعل ما يشاء ، فما أراده من خير كان وما لم يرده لم يكن ، وأن على المسلم أن يعتمد على الله فى كل أمره ، فلا يصد نفسه عن عمل أو قصد لمجرد وسواس ألقاه الشيطان فى روعه ، لأن اعتقاد أن ذلك مؤثر شرك مؤد بمعتقده الى غير طريق السلام .

أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا والى ما فى الطيرة من ضرر ، فنفى تأثيرها ، وقصد بذلك عليه الصلاة والسلام إفهام صحابته الى أن الطيرة مصدرها الشيطان ، إذ هو يلقى فى نفس المتطير أن ذلك مؤثر ، وأن ما ظنه حق لا شك فيه ، وما توهمه أمر لا بد واقع ، فأفاد صلى الله عليه وسلم أصحابه بنفى الطيرة فوائد جمة ، لأن من جعل للطيرة والتشاؤم سبيلا الى نفسه ، وطريقا الى قلبه ، لا يكاد يصل الى خير ، فإن الشيطان لا يفتأ يوسوس فى نفسه فيكدر عليه صفوه ، وينكد عيشه ، ويفسد دينه ، ويجعله تحت سلطان الحوادث ، فيقعده عن العمل رعبا وخوفا ، وتتجسم لديه الأوهام فتملك لبه ، فيصبح غير نافع ولا منتفع به ، وتكثر عليه المصائب والإحن ، وتصيبه البلايا ، فيعيش منكودا حزينا ، يعادى محبيه لقول عداته ، ويصبح فى ليل من الشك مظلم .

أما من لا يعبأ بالطيرة ولا يجعل للوساوس على نفسه سلطانا ، فلا يضره التطير ، لأنه لا يحجبه عن عمل ، ولا يصده عن قصد ، ولا يعوقه عن سير ، ولا يحول بينه وبين ما يريد أو يقصد ، وقد ورد فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله عنها (الطيرة): « ذاك شىء يجده أحدكم ، فلا يصدقه » وورد أيضا : « اذا تطيرت فلا ترجع » فعلمهم عليه الصلاة والسلام أنه لا تأثير للطيرة ، وأنها تضر من أشفق منها واستسلم لها ، أما من لم يبال بها فلا تضره ، لأن خالق الأشياء جميعها هو الخلاق العليم ، ولن يصيب المرء إلا ما كتب الله له ، وما يتوهمه المتطير إنما هو من كيد الشيطان يجب على المسلم أن يحذره .

اذا علمت هـذا وعلمت أن القصد منه هو إفهام الناس أن المؤثر فى الكائنات جميعها هو الله ، ولا تأثير لما عداه ، وأن التطير لا أثر له من ذاته ، أمكنك التقصى بسهولة عما يهول به من لا يفهم ، من قولهم : إنه قد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الشؤم فى الدار والمرأة والفرس » وفى لفظ آخر : « إن يكن من الشؤم شىء حق ففى الفرس والمرأة والدار » لأنه لا منافاة فى الواقع ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أضاف الشؤم الى هـذه الثلاثة على سبيل التوسع والتجوز ، لأن الشؤم يقع مقارنا لسكنى الرجل داراً ، أو اتخاذه حليلة ، أو شرائه فرسا ، فأطلق صلى الله عليه وسلم الشؤم عليها توسعا ، ولم يقصد أنها عينها توجب الشؤم ، بل أراد أن الله خلقه عندها ، وقدره فيها كما يخلق الموت عند القتل والرى عند الشرب من غير أن يكون لشىء منها تأثير ، حتى قال الامام مالك رضى الله عنه حين سئل عن الشؤم فى الفرس والدار : « إن ذلك كذب فيما نرى ، كم من دار سكنها قوم فهلكوا وأقام بها آخرون فملكوا ، ولكن الناس اعتادوا » وهذا منه رضى الله عنه جواب من تتبع الحوادث وعلم الحق فى المسألة ، وأيقن أن كل شىء بقضاء الله وقدره ، وأن من الناس الشقى ومنهم السعيد ، ومنهم الناجى والهالك ، دون تأثير لمكان أو زمان .

ولك أن تخرج عما يتوهم من تعارض فى الظاهر بما رآه بعض الأئمة من أن معنى أن الشؤم فى هذه الثلاثة أن شؤمها يدرك من تشاءم أو تطير بها، أما من توكل على الله ولم يبال بالوساوس فلا تكون شؤما عليه؛ ويقرب هـذا ما روى عن أنس رضى الله عنه « الطيرة على من تطير » ومعناه أن الله قد يجعل تطير من يتطير سببا لحصـول الضرر والأذى، كما أنه يجعل توكل العبد عليه وثقته به سببا فى نجاته وإبعاد المهالك عنه، كما أن لك أن تقول: إن النبى صلى الله عليه وسلم قصد بقوله أن يخبر عن الأسباب المثيرة للطيرة فأبان أن هذه الثلاثة هى المثيرة لها فى غرائز الناس وطبائعهم، وقصد صلى الله عليه وسلم أن يحذر أصحابه ذلك بعد أن قرر لهم نفى الطيرة وبطلانها؛ وقد أجاب بعض أئمتنا بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يجزم بالشؤم فى هذه الثلاثة، بل علقه حيث قال: « إن يكن الشؤم فى شىء ففيها » ومعلوم أنه لا يلزم من صدق القضية الشرطية صدق كل واحد من طرفيها، فقد يصدق التلازم بين المستحيلين؛ ويرى أصحاب هذا الرأى أن الراوى غلط وقال: الشؤم فى ثلاثة، وإنما الحديث: إن كان الشؤم فى شىء ففى ثلاثة. وهذا الرأى واضح لا أثر للإشكال فيه.

وعلى الجملة فليس فى شىء مما قدمناه لك تعارض أو تناف، وأن من عتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نسب الطيرة الى شىء معين على أنه مؤثر دون الله، فقد كذب وافترى وضل ضلالا بعيدا.

لم يقف جهد النبى صلى الله عليه وسلم فى نصيحة قومه عند النهى عن بعض عادات العرب، بل أراد أن يعرف أصحابه كل ما كان عليه العرب من عادات تقرب الى الشرك أو توقع فيه، فنفى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الهامة والصفر، وقد تقدم لك شرح كل منهما. والله أعلم ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

حكم رؤية الرقص والسماع

وورد من حضرة عبد الحفيظ إبراهيم اللاذقى ببيروت ما يأتى :

هل يجوز للانسان أن يرى ويسمع الرقص والغناء والآلات المطربة كالضرب على العود والبيانو والكامنجة والفنوغراف أوغيرها ، من الرجال أوالنساء، وتعليم ذلك فى المدارس أو غيرها للرجال والنساء أم لا ؟

الجواب

نص علماء الحنفية على أنه لا يجوز أن ينظر الإنسان من المرأة الحرة غير وجهها وكفيها، لقوله تعالى : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) لما فى إبدائها من ضرورة الحاجة الى المعاملة مع الرجال والمخالطة ، وذلك كله خوف الفتنة والوقوع فى المعصية ؛ وقد ورد « المرأة عورة مستورة » ونصوا أيضا على أنه لا يجوز التأمل فى جسدها المستور بالثوب اذا كان يبين حجمها فيه ، ولم يجيزوا النظر لأحد غير لزوج إلا للطبيب، فإنهم أباحوا نظره الى موضع المرض للضرورة ، حتى قالوا : إنه ينبغى للطبيب أن يعلّم امرأة لتنظر مواضع المرض من النساء لأن نظر الجنس أخف ، فإن لم يمكن تعليم المرأة وكان نظر الطبيب لابد منه ، ستر كل عضو منها سوى موضع المرض ، ثم ينظر الطبيب ويغض بصره عن غير ذلك الموضع ما استطاع ، لأن ما ثبت للضرورة يتقدر بقدرها

اذا علمت هذا يتبين لك واضحا جليا أنه لا يجوز أن يرى الانسان امرأة ترقص لأن ذلك فتنة وأى فتنة ، بل فى ذلك مفسدة للدين والخلق جميعا، لأن جسم الراقصة بيّن وواضح وهى تثنى أعضاءها وتظهر منها ما لا يجوز النظر اليه بحال ، وكما لا يجوز

رؤية الرقص لا يجوز للرجل بالأولى أن يرقص مع امرأة، لأن فى ذلك فوق ما سبق معانقة امرأة أجنبية، وهو أمر غير جائز قطعا .

وتعليم الرقص سواء فى البيوت أو فى المدارس لا يحل ولا يجوز، وهو منكر يجب على كل مسلم أن يعمل على منعه . أما الضرب على الآلات المطربة كالعود والبيانو والكمنجة وغيرها، فمذهب الحنفية فيه أنه لهو غير جائز . أما التغنى فجوابه ما يلى هذا، وأما سماع «الفونغراف» فسنفرد له كلمة خاصة موعدنا بها العدد الآتى، إن شاء الله ؟

حكم الغناء

الغناء إما أن يكون من رجل أو من امرأة، فإن كان من امرأة وكان بصوت غير مرتفع بحيث لا يسمعه الناس كما يفعله كثير من السيدات فى مداعبة أطفالهن ونحوه، فلا مانع منه إذا كان غير مشتمل على أوصاف مهيجة كتحسين خمر أو امرأة معينة حية أو رجل كذلك، وكان غير مشتمل على هجاء شخص معين يكون القصد من الإنشاد هجاءه، فإذا اشتمل على ذلك لا يحل ولو بصوت غير مرتفع، أما إذا كان تغنيها بصوت مرتفع بحيث يسمعها الناس، فحرام، سواء كان على آلة لهو أم كان بغيرها، وهذا مذهب الحنفية .

أما الرجل فإن كان تغنيه لدفع الوحشة عن نفسه فمباح، بشرط ألا يكون على آلة لهو، وألا يسمعه من يخشى عليه الفتنة من امرأة أو غيرها، وألا يسمعه من يستخف به ويسترذله، وبشرط ألا يغير اسما معظما عن أصل وضعه، وأن يكون ما يتغنى به غير محظور، فإن لم يكن غناؤه مستوفيا هذه الشروط كان مكروها تحريما . وكذلك تغنيه للناس فى حادث سرور : مباح إن استوفى ما قدمناه، وكان الاجتماع غير محظور، لا تختلط فيه الرجال مع النساء، وكان على غير آلة لهو وأمنت الفتنة .

أما غناؤه فى عرس أوغيره على آلة لهو فحرام وإن أمنت الفتنة ، وهو من الصغائر . وعلى الجملة إن كان غناؤه سببا لمحرم فحرام . وأما القراءة بالألحان فمباحة إن كانت الألحان لا تخرج الحروف عن نظمها وقدر ذواتها ، وإلا فغير مباحة .

قال فى فتح القدير : « إن الغناء فى حقهن مطلقا حرام لرفع صوتهن وهو حرام ؛ وأما الرجل فإن فى تغنيه لنفسه لدفع الوحشة عنه خلافا بين المشايخ — منهم من قال : لا يكره ، إنما يكره ما كان على سبيل اللهو ، احتجاجا بما عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه دخل على أخيه البراء بن مالك ، وكان من زهاد الصحابة ، وكان يتغنى . وبه أخذ شمس الأئمة السرخسى . ومن المشايخ من كره جميع ذلك ؛ وبه أخذ شيخ الاسلام ويحمل حديث البراء بن مالك أنه كان ينشد الأشعار المباحة التى فيها ذكر الحكم والمواعظ ، فإن لفظ الغناء كما يطلق على المعروف يطلق على غيره » إلى أن قال رحمه الله : « إلا أنا عرفنا من هذا أن التغنى المحرم هو ما كان فى اللفظ مالا يحل ، كصفة المرأة المعينة الحية ، ووصف الخمر المهيج اليها ، والدويرات والحانات ، والهجاء لمسلم أو ذمى إذا أراد المتكلم هجاءه ، لا إذا أراد إنشاد الشعر للاستشهاد به ، أو لتعلم فصاحته وبلاغته » ثم نقل رحمه الله أن أبا هريرة أنشد شعراً ، وقال : لولا أن إنشاد ما فيه وصف امرأة كذلك جائز ، لم تقله الصحابة . ومما يقطع به فى هذا قول كعب بن زهير فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت   كأنه منهل بالراح معلول

وكثير فى شعر حسان من هذا ، كقوله وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم منه ولم ينكره فى قصيدته التى أولها :

تبلت فؤادك فى المنام خريدة   تسقى الضجيع ببارد بسام

فأما الزهريات المجردة عن ذلك ، المتضمنة وصف الرياحين والأزهار والمياه المطربة ، فلا وجه لمنعه على هذا ؛ نعم إذا قيل ذلك على الملاهي امتنع ، وإن كان مواعظ وحكما ، للآلات نفسها لا لذلك التغني .

ثم قال : وفي مغني ابن قدامة « الملاهي نوعان : محرم وهو الآلات المطربة بلا غناء كالمزمار والطنبور ونحوه ، لما روى أبو أمامة أنه عليه السلام قال : « إن الله تعالى بعثني رحمة للعالمين ، وأمرني بمحق المعازف والمزامير » والنوع الثاني مباح ، وهو الدف في النكاح ، وفي معناه ما كان من حادث سرور ، ويكره غيره ، لما عن عمر رضي الله عنه أنه كان اذا سمع صوت الدف بعث ينظر : فإن كان في وليمة سكت ، وإن كان في غيره عمد بالدرة . وفي الأجناس : سئل محمد بن شجاع عن الذي يترنم مع نفسه قال : لا يقدح في شهادته . وأما القراءة بالألحان فأباحها قوم وحظرها قوم . والمختار : إن كانت الألحان لا تخرج الحروف عن نظمها وقدر ذواتها ، فمباح ، وإلا فغير مباح ؛ كذا ذكر ، وقد قدمنا في باب الأذان ما يفيد أن التلحين لا يكون إلا مع تغيير مقتضيات الحروف ، فلا معنى لهذا التفصيل ؛ ونقلنا هناك عن الامام أحمد رحمه الله أنه قال للسائل عن القراءة بالتلحين وقد أجاب بالمنع : ما اسمك ؟ قال : محمد ، قال : أيعجبك أن يقال لك : ياموحامد ؟ .

ومن قبيل ما ذكره صاحب الفتح ما قاله الامام عبد القاهر في كتابه دلائل الإعجاز : أما أمره (صلى الله عليه وسلم) به (أي بالشعر) فمن المعلوم ضرورة ، وكذلك سماعه إياه ، فقد كان حسان وعبد الله بن أبي رواحة وكعب بن زهير يمدحونه ويسمع منهم ويصغي إليهم ويأمرهم بالرد على المشركين ، فيقولون في ذلك ، ويعرضون عليه ، وكان عليه السلام يذكر لهم بعض ذلك ، كالذي روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب : ما نسي ربك وما كان ربك نسيا شعرا قلته ، قال : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أنشده يا أبا بكر فأنشد أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

وأما استنشاده إياه فكثير، من ذلك الخبر المعروف فى استنشاده حين استسق فسق قول أبى طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطيف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل (الابيات)

وعن الشعبى رضى الله عنه عن مسروق عن عبد الله قال: لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القتلى يوم بدر مصرّعين فقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه: لو أن أبا طالب حى لعم أن أسيافنا قد أخذت بالأنامل. قال: وذلك لقول أبى طالب:

كذبتم وبيت الله إن جدما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأنامل
وينهض قوم فى الدروع إليهم نهوض الروايا فى طريق حلاحل

ومن المعروف فى ذلك خبر عائشة رضوان الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول: أبياتك، فأقول:

ارفع ضعيفك لا يُحِرْ بك ضعفُه يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك لما فعلت فقد جزى

قالت: فيقول عليه السلام: يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده: صنع إليك عبدى معروفا فهل شكرته عليه؛ الحديث.

وفى رد المحتار على الدر المختار أن جواز ضرب الدف فى العرس خاص بالنساء، لما فى البحر عن المعراج بعد ذكره أنه مباح فى النكاح وما فى معناه من حادث سرور قال: وهو مكروه للرجال على كل حال، للتشبه بالنساء. وعن ابن مسعود أن المراد بلهو

الحديث فى قوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ): الغناء. وعن مكحول فى قوله تعالى: (مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ) قال: الجوارى الضاربات. وعن مجاهد أنه قال فيه: واشتراؤه المغنى والمغنية والاستماع اليه وإليها من الباطل. وعن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل» وعن يزيد بن الوليد الناقص: يا بنى أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء، ويزيد فى الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر.

وأنت خبير بأن هذا محمول على الغناء فى غير العرس، أو فيه ويؤدى الى مفسدة كاجتماع الرجال مع النساء دون أمن الفتنة. ويدخل فى هـذا تغنى بعض الصوفية فى هـذا الزمان فى المساجد والتكايا وغيرها، لأنهم يختلطون فيه اختلاطا قبيحا، ويفعلون ما يفعلون مما لا يجوز شرعا من رقص وتمايل ينبو عنه الدين ويأباه الذوق السليم. واذا أضفت الى هذا أنهم يفعلون ما يفعلون باعتقاد أنه عبادة، كان أشد تحريما من كل تغن. وروى أن مالكا رضى الله عنه نهى عن الغناء وعن استماعه، وأنه سئل عما ترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال: إنما يفعله عندنا الفساق. ونقل التحريم عن جمع من الحنابلة، كما نقل عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال: «الغناء لهو مكروه يشبه الباطل، من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته» وقد أنكر أصحابه على من نسب اليه حله.

وصفوة القول أن غناء الرجل للناس إن كان فى حادث سرور كعرس ونحوه، وكان ما ينشد من القول الجائز، وكان لا يؤدى الى فتنة من اختلاط رجال بنساء، ولا إلى خروج عن حشمة ووقار، كان مباحا. أما اذا كان على وصف مما ذكرنا، أو كان على آلة لهو، فمكروه تحريما غير جائز. والاستماع يأخذ حكم ما تقدم، فإن كان الاستماع لما هو مباح كان مباحا، وإلا فغير جائز.

هذا وللإمام الغزالى بحث جليل فى مسألة السماع ، وقد خصه فى الإحياء بكتاب هو كتاب آداب السماع والوجد ، بيّن فيه أقوال العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه ، وساق ما رآه هو دليلا على إباحته ، وناقش الأدلة المسوقة على التحريم ، وقطع رحمه الله بإباحته وندبه فى بعض المواقع ، وقال : إنه يحرم بخمسة عوارض :

العارض الأول : أن يكون المسمع امرأة لا يحل النظر إليها وتخشى الفتنة من سماعها ؛ وفى معناها الأمرد الذى تخشى فتنته ؛ وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة ، وليس ذلك لأجل الغناء ، بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها فى المحاورة من غير ألحان ، فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها فى القرآن أيضا ؛ وكذلك الصبى الذى تخاف فتنته . الى آخره .

العارض الثانى : فى الآلة ، بأن تكون من شعار أهل الشرب أو المخنثين ، وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة ؛ فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة ، وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة ، كالدف وإن كان فيه الجلاجل ، وكالطبل والشاهين ، والضرب بالقضيب ، وسائر الآلات .

العارض الثالث : فى نظم الصوت وهو الشعر ، فإن كان فيه شىء من الخنا والفحش والهجو ، أو ما هو كذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم أو على الصحابة رضى الله عنهم كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم ، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان ؛ والمستمع شريك للقائل ؛ وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال . وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز ؛ فقد كان حسان بن ثابت رضى الله عنه ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاجى الكفار ، وأمره صلى الله عليه وسلم بذلك . فأما النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء ، فهذا فيه نظر ، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ،

فإن نزله فلينزله على من يحل له من زوجته وجاريته ، فإن نزله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل وإجالة الفكر فيه ، ومن هذا وصفه فينبغى أن يجتنب السماع رأساً ، فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه ، سواء كان اللفظ مناسباً له أو لم يكن .

العارض الرابع : فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان فى غرة الشباب ، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم تغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد والفراق والوصال إلا ويحرك ذلك شهوته وينزله على صورة معينة ينفخ الشيطان بها فى قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتد بواعث الشر ، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان والتخذيل للعقل المانع منه ، الذى هو حزب الله تعالى . والقتال فى القلب دائم بين جنود الشيطان وهى الشهوات وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل — إلا فى قلب قد فتحه أحد الجندين واستولى عليه بالكلية ، وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان وغلب عليها ، فتحتاج حينئذ الى أن نستأنف أسباب القتال لإزعاجها ، فكيف يجوز تكثير أسلحتها وتشحيذ سيوفها وأسنتها ؛ والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان فى حق مثل هذا الشخص ، فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به .

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ولم يغلب عليه حب الله تعالى فيكون السماع له محبوبا ، ولا غلبت عليه شهوة فيكون فى حقه محظورا ، ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه اذا اتخذه ديدنه وهجيراه ، وقصر عليه أكثر أوقاته ، فهذا هو السفيه الذى ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جناية ، وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تصير كبيرة ؛ فكذلك بعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر الى لعبهم على الدوام ، فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا ، إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولابن حزم رأى فى الغناء لا يوافقه عليه كثير من الفقهاء ، لهذا لم نروجها لذكره ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

الربا

ورد المجلة من حضرة السيد مصطفى صبحى الورنه لى محسب الخزينة بوزارة المالية بإمارة شرق الأردن هذا السؤال :

أكتب إليكم لا بمجرد خاطر دار بخلدى ، ولا بمجرد هاجس قذفت به النفس أكتب عن أمر أكثر الناس فيه منغمسون ، وهم ما بين مستقبح له ومستحسن .

إن ما أخذتموه على عاتقكم من نشر المعارف الدينية والأحكام الاسلامية ، وتنازلكم لإجابة أمثالى ، شجعنى أن أكتب إليكم مستفتياً ، راجياً التفضل بالإجابة فى أول عدد يصدر بمجلتكم الغراء :

ما الحكمة فى تحريم الربا ؟ هل حرمت الشريعة عقود الربا لمعنى فى سم الربا فقط ، فلا يجوز لمسلم الإقدام على عقد يتناوله اسم الربا لغة وشرعا واستنبطا ؟ أم حرمت الشريعة تلك العقود لما فيها من الضرر اللاحق بالمدين وأخذ ماله بالباطل بتخيل منفعة وهمية ظنها الذين يتخبطهم الشيطان من المس منفعة حقيقية فقالوا : إنما البيع مثل الربا ، فكأن المدين يزيد فى المال والدائن يزيد فى الأجل معتقداً أن زيادة المال المتحققة المنفعة توازى الزيادة فى الزمن التى لا قيمة لها ثابتة يستحق بها سلب مال أخيه ظلما وعدوانا ؟

فإن كانت هذه هى علة تحريم الربا فلم أباح الفقهاء جميعا بيع الشىء بأكثر من ثمنه وقت البيع من أجل لدين ؟ أليست تلك الزيادة على ثمن المبيع كانت فى مقابل الزمن المحض وإنظار المشترى فى الثمن ؟ أليست علة الربا فى مثل هذا ظاهرة ؟ أليس بإمكان

المشترى لو كان معه مال أن يشتريه بقيمته الحقيقية حين العقد ؟ أيحق لنا أن نستقبح صنع من يتخذ من ظاهر بعض الأحكام معولا يهدم به الدين باسم الدين فيستحق واجبا ويحل حراما، غير ناظر لأسرار الشريعة وما ترمى اليه ؟ أليس هذا بابا عظيما يلجه نهمة الربا، ويوصدون من ورائهم باب الرأفة والشفقة وبرة الاقتراض ؟ أليس حديث من باع بيعتين فى بيعة فله أوكسهما أو الربا ، وحديث نهيه صلى الله عليه وسلم عن صفقتين فى صفقة ، وحديث : لا يحل سلف وبيع وشرطان فى بيع ، ونحوها بمجموع رواياتها صالحة لحظر مثل هذا العقد ؟ وإن لم تكن صالحة للحظر ، فهل مثل هذا الكسب يعد كسبا طيبا يقدم عليه من طلب البراءة لدينه ؟

الجواب

إن أحكام المعاملات فى الدين الحنيف جاءت متضمنة لمصلحة المجموع الانسانى على وجه العدالة والإنصاف ، بحيث تكفل دوام التساند والتعاون بين الأفراد والطوائف بعضهم مع بعض . ومعلوم أن الفرد الواحد لا يستطيع أن يقوم بتحصيل جميع ما يحتاجه بنفسه بلا معونة من أخيه الإنسان ، بينما يستطيع أن ينتج من بعض الشئون ما يربو على حاجته وحاجات كثير من أبناء نوعه ، فالزارع ينتج من محاصيل النبت ما يفى بطعامه وطعام الكثير ، بينما هو عاجز عن حياكة ملابسه وخياطتها ، وبناء داره وأمثال ذلك ، بل هو يقوم بإنتاج بعض المزروعات كالطعوم أو نباتات النسيج ، بينما يعجز عن نبات الفاكهة مثلا ، والصانع مثله : يحيك النساج أكثر مما يلزم لملابسه ، بينما هو عاجز عن إنتاج ما يطعمه ، وهلم جرا ، فكان لا بد للانسان من التعاون بأخيه الانسان ؛ وكثيراً ما يقضى النظام أن تكون كل طائفة منحازة الى ناحية ، متفرغة لإنتاج ما نيط بها من مرافق الحياة ، تنتج لغيرها شيئاً ، وينتج لها غيرها أشياء ، فمن يوصل تلك المنتجات للمحتاجين اليها ؟ تلك هى فئة التجار يجلبون من

هنا الى هناك ، ويوصلون لكل قوم ما يسد حاجاتهم ، فالتجارة عمل ضرورى من أعمال التساند الانسانى ، وإنها معرضة أكثر من غيرها للفشل ، كما أنها قد تؤدى بأسرع ما يمكن الى الثروة الطائلة ، ولعله كلما اتسعت ثروة التاجر اتسع نطاق تجارته ، وتمكن من تعميم نفعها لبنى نوعه ؛ وإن فشل التجارة ونجاحها منوط بالإقبال على معاماته والإعراض عنها ، والإقبالُ عليه وليد الحاجة الى ما لديه ؛ فأول واجبات التاجر أن يتعرف مواقع حاجات الناس فيجلب لهم ما يروج عندهم ، ويتحاشى ما لا حاجة لهم به ؛ ومن للتاجر بأن يوفق دائما الى اختيار ما يصادف إقبال المشترين ؟ إن التجربة دلت على أنه مهما أوتى من الحذق لا بد أن يخونه الحظ ويخطئه التوفيق فى بعض الحالات ، فيبور عليه تجارة ربما صرف فى سبيل تحصيلها أعز ما لديه ، فهو محتاج دائما الى أن يستعيض ما خسره فى هذه بربح فى تلك ، ربح ينقذه من كبوته ، ويعوض عليه بعض خسارته .

هـذا قانون محتوم لا يكاد يسلم التاجر من سريان حكمه ، فما من تاجر إلا وهو عرضة للخسارة والربح ، وللإفلاس والنجح ، وللارتفاع والانحطاط ، وللرواج والكساد . ولولا أن يفتح أمامه تعويض صفقة بأخرى ، وإنهاض من كبوة بحظ يؤاتى ، لقضى عليه لسنة أو لسنوات ، فلهذا أباح الشارع فى الاتجار ، الربح المبنى على اتجاه الرغبات ، متى خلا من الغرر والغش والتدليس . أباح أن يشترى التاجر شيئا بعشرة فيبيعه للراغب فيه بمائة أو بألف ، ذاك لأنه عرضة لأن يشترى بألف فينزل سعر ما اشتراه ، أو لا يجد له راغبا حتى يفسد عليه ويذهب هباء ، أو تجتاحه آفة سماوية فى نقله أو ادخاره ، وهلم جرا ، فلا بد فى قانون الإنصاف العام من أن تراعى هذه الاعتبارات التى تتعرض لهـا التجارة فى كل الأوقات .

كل هذا فى الشىء تتجه اليه حاجة قوم وتنصرف عنه رغبة آخرين ، وتتعلق به النفوس فى وقت وتنصرف عنه فى وقت آخر ، وينفرد بأداء منفعة فى حين ويطرأ ما يسد مسده فى حين غيره ، وذاك فى العروض التى ينتفع بها عينها .

أما الأثمان التى خصصت لجلب أنواع الحاجات ، الأثمان التى قصدت لتحصيل غيرها من المنافع لا لينتفع بها هى ، لأثمان التى لا تتعرض لانصراف الرغبات أو تجاهها أو ارتفاع قيمتها أو انحطاطها ، لأثمان التى يتساوى جميع الناس فى جميع الأوقات فى الاحتياج اليها ، الأثمان التى تشابه فى عمومها عموم الحاجة المطلقة ؛ وما من امرئ إلا وله حاجة ، وإن تنوعت الحاجات بتنوع المحتاجين ، نقول : أما الأثمان التى هى بالصفة التى شرحناها فليست عرضة لهذه التقلبات ، وليس جلبها من مكان الى مكان يسهل للمنافع والأغراض ، فهى فى كل وقت وفى كل مكان ولدى كل فئة قيمتها هى هى : لا ارتفاع ولا انخفاض ، ولا اتجاه ولا انصراف ، بل هى الميزان الذى يبين قيمة الشئ ارتفاعا وانخفاضا .

دعنا مما نسمعه الآن من مثل كلمات ارتفاع قيمة الجنيه أو المارك وانحطاطها ، فليس هذا من ارتفاع قيمة الأثمان أى النقدين ، وإنما هو من باب التعامل ، أصبح بأوراق مالية إذا تأملتها وجدتها وثائق بدين على جهة معينة ، فكلما كانت الثقة بالمدين كاملة كانت قيمة الوثيقة محفوظة ، فإن المدين الملئ المستعد للدفع متى طالبتَ منه يتساوى فى نظرك ما هو عليه لك وما هو معك فى يدك ، وبخاصة إذا كان الوثوق به مشتركا بينك وبين كل من تعامله .

واذا كانت الأثمان ليست عرضة لاتجاه الرغبات حينا وانصرافها أحيانا ، وليست حاجة فريق اليها بأشد من حاجة فريق آخر ، وليست مما يقصد للانتفاع به عينه ، بل ليتوسل به الى تحصيل المنافع بالذات ، لم يجعلها الشارع متجرا قابلا المرابحة ، بل أوجب أن تكون المبادلة فيها مبنية على التساوى ، فلا يبدل شئ منها بجنسه إلا متماثلا ، واذا احتاج بعض الناس اليها لتحصيل منافعه ، وكان لدى بعض آخر ما يفضل عن حاجته منها فقد رغب الشارع فى المعاونة بين الناس بالقرض البرئ من الربا ، فمن استخدم فيه

الزيادة فقد طغا على القانون الذى رضيه الحق جل وعلا لتسهيل منافع الناس، فاستحق أن يؤذن بحرب من الله ورسوله .

اذا تدبرت هـذا تجلت لك الحكمة الإلهيـة فى حظر الشارع المفاضلة فى مبادلة النقدين قرضا ، وإباحته الربح فى مبادلة العروض التجارية غير مقيد بحد .

بقى الكلام فى إباحة أن يختلف سعر الأشياء باختلاف حلول الثمن وتأجيله، والأمر فيها ظاهر جلى ، فإن التاجر الذى يبيع بثمن مقبوض يتمكن من تقليب تجارته بجلب بعض أصناف قد تدر عليه ربحا ينفعه أو يعوضه بعض خسارته ، أما الذى يبيع بثمن مؤجل فقد فات عليه هذا الغرض كما خرج من يده الصنف الذى كان ينتظر منه الربح ، وربما لو بقى لوجد من يشتريه بأكثر مما بيع به ، فلذا أباح الشارع أن يكون لتأجيل الثمن حصة من الزيادة فيه ، وهـذا بخلاف القرض ، فإنه جُعل بابا للتراحم والتعاطف بين الناس ، وإدخالُ الربا فيـه مقطعة لصلاتهم ، وموهنة لروابطهم . وإنك لتجد من غضاضة من يدفع الربا وتقزز نفسـه ما لا تجد شيئاً منه لدى مشترى صفقة بثمن غال ما لم يكن البائع قد غرر به وخدعه وغشه ، فهـذا باب فساد آخر حرمه الشارع . أما من اشترى بثمن غال وهو عارف بغلوه فلا يعتريه ما يعترى ذلك الذى شرحنا حاله فى الربا .

هذا هو القانون العم ، والتشريع فى المعاملات : يناط بما عليه الناس غالبا ، ولا يعتمد ما يتحايل به بعضهم فى شذوذ ، فيصرفون الأحكام العامة على وفق حالة خاصة كالصورة المسئول عنها ، فلو كان هذا مما يمنع أصل الحكم لكانت المفاسد التى تطرأ على كل المعاملات شذوذا مانعة من إباحتها ، فكان البيع يبطل لأنه قد يقصد به صرف الثمن فى بعض الأغراض السافلة أو الشهوات الدنيئـة ، والإجارة تبطل لأنها قد يراد منها وجود جار مضار لمن يجاور الدار أو الحقل ، وهلم جرا ، فما من معاملة إلا وهى عرضة لمقاصد غير مشروعة ، وذلك لا يؤثر فى مشروعيتها فى نفسها .

نعم تلك المقصد فى ذاتها ممقوتة فى نظر الشارع يجازى عليها الشارع الحكيم كما يجازى على كل سيئة وعلى كل حسنة، ولكن هذا لا يقدح فى مشروعيتها، فحكمة حل البيع بإطلاق صون باب عظيم من مرافق الحياة من أن يتدهور بالطوارئ والمفاجآت، وذلك الباب هو التجارة الضرورية للعمران، وقد قال تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ) قال ابن عباس: هو البيع.

وحكمة تحريم الربا ما شرحناه هنا وفى مقال سابق. وأما الأحاديث المشار اليها فى السؤال كحديث بيعتين فى بيعة أو بيع وسلف، فليست مما نحن فيه، فهذا بيع فحسب، إلا أنه مع تأجيل الثمن، أما اذا حل الأجل فاتفق المتبايعان على مدة لأجل آخر فى نظير ربح، فهو قرض جر نفعاً، وكل قرض جر نفعاً فهو ربا.

وخلاصة الجواب أن هذه المعاملة المسئول عنها صحيحة فى نظر الشارع، وإن كان استغلال حاجة المحتاجين، وابتزاز أموالهم، مع العلم بحاجتهم وأمانتهم، وأنهم أهل وفاء غالبا لما كان فى ذمتهم، أمراً لا يتفق هو ومحاسن الشريعة، ولا يرضاه الرحمن الرحيم. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» والله أعلم؟

ابراهيم الجبالى

الطرف والملح

قال الحسن وقد سمع متكلما يعظ فلم تقع موعظته من قلبه ولم يرق لها: يا هذا إن بقلبك لشراً أو بقلبي!.

الطيرة – والتوبة عن السيئات

وجاء أيضا من حضرة عبد الحفيظ ابراهيم اللاذقى هذان السؤالان :

(١) هل يجوز التشاؤم والوهم أو غيره من الاعداد والسنين والشهور والايام والأوقات أو غيرها ، ولبس ثوب أو دخول بيت أو قراءة سورة أو آية أو ورد أو فائدة أو غيرها بأن فاعل ذلك يصاب بضرر كمرض أو موت أو غيره أم لا ؟

(٢) هل تقبل توبة التائب اذا تاب من جميع الذنوب الصغيرة والكبيرة كالقتل والزنى واللواط وشرب الخمر والديون والسرقة والخيانة والكذب والغش والظلم أو غيره ولا يعذب فى القبر ولا فى الآخرة أم لا ؟

الجواب

الطيرة :

لا يجوز التشاؤم والوهم من الأعداد والسنين والشهور والأيام والأوقات ، لأن ذلك من الطيرة التى نفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لا طيرة » وقد أشبعنا الكلام عليها فى شرح حديث « لا عدوى ولا طيرة » فليرجع اليه من شاء . والإضرار بالناس حرام قطعا فلا يجوز ، سواء أكان ذلك بقراءة سورة أو آية أو ورد أو فائدة ، بل اعتقاد أن ذلك مؤثر شرك نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

التوبة عن السيئات :

التوبة لغة : الرجوع . وفى الشرع : الندم على المعصية مع العزم على عدم العودة إليها اذا قدر عليها ، فندم الشارب على شرب الخمر لما أصابه من صداع وطيش وإتلاف مال وعرض ليس توبة ، بل الواجب أن يندم على شرب الخمر لأنه معصية . ومن تاب عن معصية لمرض مخيف ، اختلف فى قبول توبته ، فمن رأى أن ذلك ليس باختياره فيكون ملجأ لتوبته كإيمان اليائس ، قال بعدم القبول ، ومنهم من رأى القبول .

والتوبة واجبة على العاصى من الكبائر والصغائر فورا ، ولا يجوز تأخيرها ، فمن أخرها تكررت معصيته . والجمهور على أن التوبة تصح إجمالا من غير تعيين الذنب المتوب عنه لإطلاق النصوص . وهى واجبة بالسمع لا بالعقل ، خلافا للمعتزلة ، فإنهم يقولون : واجبة بالعقل ، والسمع جاء مؤيدا لها ، على معنى أن العقل لو خلّى ونفسه لأدرك إيجاب الله تعالى التوبة على العاصى بدون توقف على ورود الخطاب اللفظى . والذنب المتوب منه إما أن يكون بين الله وبين العبد ، وإما أن يتعلق بحقوق العباد ، فالذنوب التى تتعلق بحقوق العباد كقتل النفس وغصب المال وشتم العرض ، لا بد لصحة التوبة فيها من رد المظالم الى أربابها أو استرضائهم عنها ؛ أما ما يتعلق بحقوق الله سبحانه وتعالى فلا يشترط فيه شىء سوى الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم على عدم المعاودة .

التوبة متى وقعت مستوفية شروطها قبلها الله سبحانه وتعالى تحقيقا لوعده ، لا فرق فى ذلك بين أن يكون الذنب المتوب عنه كبيرة أو صغيرة ؛ ولقد نصوا على أن توبة الكافر مقبولة قطعا بالسمع ، لوجود النص المتواتر بذلك ، قال تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) والآيات الدالة على أن الله يقبل التوبة من عبده العاصى كثيرة ، قال تعالى : (وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ) وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) وقال تعالى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْه نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) .

وعلى الجملة فالتوبة متى وقعت مستوفية لشروطها قبلت ، وهى تكفر الذنوب جميعها. وقد اختلف العلماء فى تكفير السيئات بالقربات ، فمنهم من يرى أن الصغائر هى التى تكفرها القربات دون الكبائر ، بشرط اجتناب الكبائر ، واستدلوا على ذلك بما فى الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم : «الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينها ما اجتنبت الكبائر» أما الكبائر فلا تكفرها إلا التوبة

ولا تكفرها القربات أصلا، للإجماع على أن التوبة فرض على الخاص والعام، لقوله تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ) ولأن الكبائر تشمل حقوق العباد، والإجماع على أن القربات لا تكفرها، وإنما تكفرها التوبة بشروطها.

ورأى بعض آخر أن القربة تمحو الخطيئة مطلقا، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة واستدلوا بقوله تعالى: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) وقوله عليه السلام: « أتبع السيئة الحسنة تمحها » وبما ورد في عدة أحاديث صحيحة: أن الله يغفر للعبد ذنوبه إذا فعل كذا أو كذا. والرأى الأول هو الراجح؛ وقد اختلف القائلون بتكفير الصغائر بالقربات في أن الشرط في ذلك اجتناب الكبائر أم لا — ذهب جمهورهم الى ذلك ورأى بعضهم أنه ليس بشرط. استدل الأولون بأن ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم: « ما اجتنبت الكبائر » يفيد الاشتراط، كما يقتضيه « إذا اجتنبت الكبائر » الوارد في بعض الروايات. وقال آخرون: الشرط في الحديث بمعنى الاستثناء، والتقدير: مكفرات لما بينها إلا الكبائر، قال الطبرى: وهو الأظهر. وقد صرح النووى بأن القربات لا تكفر الكبائر. وقالت المعتزلة: إن الصغائر تقع مكفرة بمجرد اجتناب الكبائر، ولا دخل للقربات في تكفير الصغائر أيضا، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) فجعل اجتناب الكبائر سببا في تكفير السيئات؛ والمراد بها الصغائر قطعا؛ وقد نوقش كل فيما ذهب اليه بما لا مجال لذكره.

ولما كان العبد لا يمكنه الجزم باستجماع توبته للشروط، واستجماع قربته لذلك، فلا يمكن جزمه بأن ذنبه قد محى، وأن سيئته قد زالت، فلا يمكن القول بأن مجرد التوبة تغفر ذنبه بحيث لا يعذب في القبر ولا في الآخرة، خصوصا إذا لوحظ أن قوله تعالى: (يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) يدل دلالة قاطعة على أن الله يجوز عقلا أن يعاقب على الكبيرة بعد التوبة؛ فالواجب على العبد هو التوبة، واستدامة خوفه ووجله حتى في حال التوبة والطاعة، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟ ط مبيب

رؤيا

الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية (١)

قبح الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم :

اتفق العلماء على أن الكذب من أعظم الذنوب وأشد المعاصى ، وأن من أفظعه الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، بل ذهبت طائفة منهم الى أن تعمد الكذب على الله ورسوله يخرج عن الملة — منهم الإمام الجوينى ، وهذا فيما لم يكن فى تحليل حرام أو تحريم حلال ، أما ما كان من ذلك فهو كفر محض بالإجماع ، لم يختلف فى ذلك أحد من أهل العلم .

قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) . وقال سبحانه : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ) . وقال جل اسمه : (وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) وقال صلى [٢] الله عليه وسلم : « إنّ كذبا على ليس ككذب على أحد فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » . وقال صلى [٣] الله عليه وسلم : « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » . وقال صلى [٤] الله عليه وسلم : « لا تكذبوا علىّ فإن الكذب علىّ يولج فى النار . وقال صلى [٥] الله عليه وسلم : « إياكم وكثرة الحديث

---

(١) تابع لما نشر فى العدد الرابع . (٢) أخرجه مسلم من حديث المغيرة رضى الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم وغيره عن سمرة بن جندب رضى الله عنه . (٤) أخرجه ابن ماجه . (٥) أخرجه ابن ماجه من حديث أبى قتادة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر ، وذكره .

عنى فمن قال عليّ فليقل حقا أو صدقا ، ومن تقوّل عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار » . وقال صلى[1] الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل عليّ ما لم أقل » .

قلنا : إن وصية هذا الأفاك الجديدة لم تخل مما يجب إنكاره وفضيحة صاحبه ، لئلا يشيع ضرره ، وتعم بين الناس إذايته ، فمن المنكرات فى هذه الوصية الجديدة : اشتمالها على أغلاط[2] يتحاشى عنها أصغر الكتاب ، والشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية ينسبها للنبي صلى الله عليه وسلم بغير حياء ولا خجل ، ومع ذلك يوجد فى جهال المسلمين من يذيع أمرها ويعلقها على الجدران ، ويقرؤها لغيره ، رغما عن تحذير العلماء لهم من تصديق أمثال هذه الخرافات وإشاعة هذه المخزيات . ومنها قوله : « هذه وصية من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية » الخ . وهو تعبير غاية فى البشاعة ، وأى بشاعة أفظع من أن يقال : إن الوصية من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فلان . نسأل الله العافية من الخزى والحفظ من الحرمان . ومنها قوله . « إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى يوم الجمعة يقرأ القرآن العظيم » لما فيه من التغرير والتضليل ، إذ لا يعلم على التحقيق من هو فاعل « يقرأ » أهو النبي صلى الله عليه وسلم أو هو الشيخ أحمد .

ومنها قوله : « يا شيخ أحمد وصية لك ثانية غير الوصية السابقة » لإيهامه أن هذه الوصية سبقتها وصية أولى وهى الثانية ، مع أنه سبقها عشرات أو مئات الوصايا كما هو مشاهد لعامة الناس وخاصتهم . ومنها قوله : « هذه آخر وصية لهم » لأنها جملة

---

(١) أخرجه الطبرانى عن واثلة رضى الله عنه . (٢) منها قوله : مات من الجمعة إلى الجمعة تسعون ألف . وقوله : منهم سبعون لف على الاسلام . وقوله : ونقصوا الكيل والميزان وكثرت المعاصى وقوله : وطلوع الشمس من الغرب لقريب . وقوله : والله العظيم ثلاثة . وقوله : ومن يصدق بها ينجو من عذاب النار . على اعتبار أن إن شرطية كما هو الظاهر .

يكررها هذا الرجل الكذاب فى كل وصية ينشرها بين الناس ، ثم لا يعتم بعد حين أن يعيد نشرها ويقول : هذه آخر وصية لهم . ومنها قوله : « قال الشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية الشريفة : قال عليه الصلاة والسلام : من قرأها ونقلها من بلد الى بلد كان رفيق فى الجنة ، وشفاعتى له يوم القيامة ، ومن قرأها ولم ينقلها كان خصمى يوم القيامة » لأن فيها إسناد حديث الى النبى صلى الله عليه وسلم كذب موضوع عليه لا أصل له فى الدين ، ولا يحل نقله عنه صلى الله عليه وسلم لأحد من المسلمين . فالعجب ممن يدعى أنه خادم الحجرة النبوية الشريفة كيف يجرؤ هذه الجرأة ، ويتقول على النبى صلى الله عليه وسلم ما لم يقله ، وما لا يجتمع مع أحكام دينه ، وقواعد شريعته : وهذا وأمثاله يحملنا على أن نظن بهذا الرجل أنه ليس من المسلمين ، بل هو عدو لهم متستر باسم خادم الحجرة الشريفة ، يستهزئ بدينهم وبأحكام شرعهم ، فيجعل جزاء نقل وصية من بلد إلى بلد مرافقة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة و ستحقاق شفاعته .

بخ بخ لهذا العمل العظيم الذى يستحق صاحبه عليه هذا العطاء العظيم ، وأهون بدين يكون صاحبه خصما للنبى صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لأنه قصر فى نقل هذه الأكذوبة ، ويكون طريق النجاة فيه ناشئا عن عمل تافه كهذا العمل : وأين هذا من قوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ) حيث جعل الحق تعالى ثمن دخول الجنة بيع النفس والمال فى سبيله ، وخادم الحجرة النبوية الشريفة جعل ثمن دخوله الجنة كما تقدم قراءة وصيته و نقلها ، بل زاد على ذلك فأنعم على قارئها وناقلها بمرافقة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة ، اللهم إن هذا هو الخذلان المبين ، والتلاعب بدينك القويم :

ومنها قوله : « ومن يصدق بها ينجو (كذا) من عذاب النار ومن كذب بها كفر » لأن هذا الوعيد لا يصح أن يكون إلا لكتاب الله تعالى ، وما علم من

الدين الاسلامى بالضرورة ، كأركان الإيمان و لإسلام ، أما غير ذلك مما لا يجب الإيمان به شرعا ، فالتكذيب به ليس كفراً ، كما أن التصديق به لا ينجى من نار ، ولا يمنع من عذاب . ومن هنا يعلم القارئ سخافة عقل هذا الرجل الذى يسمى نفسه بالشيخ أحمد خادم الحجرة النبوية الشريفة وجهله وقلة دينه وجرأته على الله تعالى وعلى شريعته ، وأنه — على ما نرجح — متلاعب مستتر بهذا الاسم لا يريد إلا الكيد للمسلمين وإيذاءهم وإعلام رجال الديانات الأخرى أن المسلمين تلاشى أمرهم من الوجهة الدينية بعد أن تلاشى من الوجهة السياسية ، وأن عوامهم بلغوا من الجهل الى حد أنهم يصدقون بكل ما يقال لهم ، بل يصدقون بمثل هذه الوصية السخيفة الكاذبة ، وبأن منزلتها منزلة كتاب الله تعالى ومنزلة ما يجب اعتقاده والإيمان به من الدين الاسلامى : من يصدق بها ينج من عذاب النار . ومن يكذب بها يكفر ويخرج من الملة .

ولست أدرى من أين استمد هذا الأفك هذه الآراء الفاترة ؟ وكيف يجسر أن ينشر فى بلاد الاسلام أمثال هذه الكفرات . وأعجب من هذا أن يجد لترهاته أنصاراً ، ولكفره رواجا ، وفى ظننا أن وصيته هذه لو لم يكن فيها غير هذه الأكذوبة الأخيرة لكانت شاهد عدل على فسقه ووجوب التحذير من شره ، وحمل الناس على الإعراض عن نصائحه التى يزعم أنه يريد بنشرها الخير للمسلمين ، وتخويف العاصين منهم ليرتدعوا ويدعوا ما هم فيه من الذنوب ، ولو تفكر لعلم أنه بذلك قد خبط خبط عشواء ، وترك المحجة البيضاء ، وقعد عن سلوك الطريق الواضح ، وتعامى عن اقتفاء أثر السلف الصالح فكان بذلك من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

إن فيما جاء فى كتاب الله تعالى ، وفيما صح من الأخبار عن رسوله صلى الله عليه وسلم غنية لكل صادر ، وماء عذبا لكل وارد ، فليدع الأفاكون تلقف الأخبار الكاذبة ، والأقوال الباطلة ، وليقبلوا على الأخذ بما صح من الأخبار الإلهية ، وثبت من الآثار النبوية ، فإن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

دمشق — محمود يس

البغاء الرسمى

وضع حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية الاسبق مذكرة بين فيها حكم الشارع فى البغاء وأوضح ضرره ووصف الدواء الناجع . وقد تفضل حفظه الله فأرسل إلى المجلة نسخة منها ننشر منها ما يلى :

البغاء الرسمى هو عبارة عن الزنى العانى المرخص به من الهيئة التنفيذية ، وهو محرم فى جميع الأديان ومستقبح عند كافة العقلاء ، وهو منكر من أكبر المنكرات إثماً ، وأخطرها أثراً ، وأعظمها مفسدة ، وأشدها ضرراً بالصحة والآداب والأخلاق والأموال والأديان والمجتمعات ، ولذلك كان الدين الاسلامى أشد الأديان إنكاراً له وتحذيراً من نتائجه ومقدماته ، قال الله تعالى فى كتابه الكريم : (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) فسماه فاحشة ، وهى أقبح الذنوب وأبشع المنكرات لما يترتب عليه من المفاسد الدينية والصحية والأخلاقية والاجتماعية التى أصبحت من الظهور بحيث لا يختلف فيها اثنان ، حتى تنبهت لها الحكومات الأجنبية المسيحية ، فأبطل أغلبها البغاء الرسمى وذلك النظام الفاسد الذى هو معرة فى جبين الانسانية ، وسبة فى حياة الأمم الرقية المتمدينة ، بل لقد أجمعت الأمم على اختلاف أجناسها وتباين نحلها وأقطارها على أن البغاء أيا كان نوعه عامل من عوامل الفناء ، ومعول من معاول الهدم والتخريب فى كيان الأمم وبناء المجتمع الانسانى .

ولقد تفطن الاسلام لأدواء هذه الفاحشة الكبرى فوضع لها علاجا ناجعا ، وسن لها بتشريعه الحكيم عقوبة رادعة للناس ، زاجرة لهم عن التفكير فيها والإقدام عليها

بجرأة وعدم مبالاة ؛ وتلك العقوبة التي تتناسب مع خطورة هذه الجريمة الكبرى إنما هي حد الزنى ، وهو إما مائة جلدة لكل زان غير محصن أو زانية كذلك ، وإما بالرجم بالطوب والحجارة لكل محصن من الزناة أو محصنة من الزانيات ، وذلك بحضور طائفة من المؤمنين تعاين عذابهما حتى الموت ، زيادة في التنكيل بهم ، وإرهابا لمن تحدثه نفسه الخبيثة باقتراف هذه الفعلة الشنعاء .

ولقد نهانا الله تعالى وهو أرحم الراحمين ، الغفور الكريم ، عن الشفقة والرأفة بكل من الزاني والزانية في حال إقامة الحد ، فقال تعالى : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) وذلك تشريع الحكيم بمصالح البشر ، الخبير بطبائع النفوس وميل الفطر ؛ ولا غرابة في ذلك لأن كلا من الزاني والزانية عضو في المجتمع الانساني ، مصاب بذلك المرض العضال المعدي ، فيخشى من بقائه أن ينتقل منه هذا الداء الى غيره ، فيجب بتره إن كان محصنا ، فيرجم حتى يموت ، ويجب أن يجلد مائة جلدة حتى يرتدع إن كان غير محصن كما يفعل مثل ذلك في أعضاء جسم الانسان ، فإنه إذا ابتلى في عضو من أعضائه بداء معد لم يفد فيه العلاج يجب طبا وشرعا بتره ، وإن أمكن علاجه عولج بما يستأصل هذا الداء .

هكذا وضع الله سبحانه وتعالى الحد الذي فصله في كتابه الكريم دواء لمرض الزنى ، وهو العليم بخلقه كما قال تعالى : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) فلا يسوغ لعاقل أن يعترض على الطبيب فيما يضعه للمريض من الدواء بنظريات عقلية ، بل يجب على المريض أن يسلم ويستسلم للطبيب يعالج الداء بما يعلمه من الدواء ، وإن خالف نظرياته العقلية .

ومن يوم أن ترك المسلمون هذا التشريع العادل ، المبني على الحكمة الشاملة والعلم المحيط الكامل ، اعتمادا على نظريات عقلية ما أنزل الله بها من سلطان ، وتقليداً

للتشريع الأجنبي ، واستبد لا للذى هو أدنى بالذى هو خير ، ساء حالهم ، واضطرب نظام حياتهم ، واختل ميزان تصرفهم ، وتدهورت أخلاقهم ، وضعفت قواهم ، وانحلت روابطهم ، وتعرضوا لغضب الله وحلول بلائه ، وشمول نقمته ، فقد روى البيهقى عن ابن عمر قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « كيف أنتم اذا وقعت فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم أو تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة فى قوم يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان ، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله إلا سلط عليهم عدوهم فاستنقذوا بعض ما فى أيديهم ، وما عطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم » . وروى ابن ماجه والبزار واللفظ له : «السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده ، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر ، وإن جارت الولاة قحطت السماء ، وإن منعت الزكاة هلكت المواشى ، واذا ظهر الزنى ظهر الفقر والمسكنة ، واذا أخفرت الذمم أديل الكفار » أى كانت لهم الدولة والغلبة على المسلمين .

وروى الطبرانى والحاكم عن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اذا ظهر الزنى والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » ذلك بأن سنة الله فى خلقه أن يعجل العقوبة فى الدنيا للأمم التى حادت عن صراطه المستقيم وتَعَدّتْ حدوده ، وظهرت فيها المعاصى ، وفشت فيها الفاحشة علانية دون مبالاة من مرتكبيها أو تغيير وإنكار من عقلائها ، إذ شأن المعصية التى تقع فى خفاء أن يقتصر ضررها على فاعلها وحده ، أما اذا ظهرت ووقعت علانية دون أن تغير ، فقد عم ضررها

جميع من وقعت فى بيئتهم ووسطهم ، مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذ أُخفيت الخطيئة فلا تضر إلا صاحبها واذا ظهرت فلم تغير ضرت العامة » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه فيدعو خياركم فلا يستجاب لكم » .

وها نحن أولاء نكاد نلمس بأيدينا ونشهد بأعيننا أثر غضب الله وسنته فى الأمة المصرية بشؤم تلك المنكرات الشائعة ، وفى مقدمتها البغاء الرسمى ، فقد انتشرت فيها الأمراض السرية المهلكة ، كالسيلان ، والزهرى ، والسل الرئوى ، والقرحة الدامية ، تلك التى قضت على حياة الكثير من الشبان وغيرهم ، والتى سوف تأتى على قوة الأمة الحيوية من القواعد إن لم يتداركنا الله بلطفه ، ويلهم المصلحين وذوى الغيرة الدينية وأولى النظر الثاقب والعزم الصادق أن يقضوا على البغاء الرسمى وغيره من سائر المنكرات الظاهرة كالربا وشرب الخمور .

أصل اسلام البوشناق

نشر فى الجزء التاسع من المجلد الثانى من هذه المجلة مقال تحت عنوان « المسلمون فى أوروبا الشرقية » معرب من كتاب « دليل العالم الاسلامى » المؤلف باللسان الفرنسى ، ولما اطلع على هذا المقال حضرة الكاتب القدير البحاثة الأمير شكيب أرسلان كتب مقالا ينبه فيه إدارة المجلة لخطأين وقع فيهما صاحب الكتاب ، وغفلت المجلة عند التعريب عن نقدهما ، وبعث بهذا المقال الى مجلة الفتح الغراء .

أما الخطأ الأول فى إحصاء مسلمى يوغوسلافيا ، فقد ذكر فى المقال المعرب أنهم مليون وثلاثمائة ألف نسمة أو أكثر قليلا ، والحقيقة أن مسلمى يوغوسلافيا بحسب الإحصاء الأخير يبلغون مليونا وسبعمائة وستين ألف نسمة .

وأما الخطأ الثانى فما جاء فى المقال من أن أجدادهم كانوا نصارى وأسلموا بحد السيف ، وقال حضرة الأمير : « أما أجداد أمة البوشناق المسلمين فلم يكونوا نصارى بالمعنى المعروف ، بل كانوا فئة يقال لها « بوغوميل » Bugomile كان منها طائفة فى بلاد البلغار ، وكان منها نفر فى ايطاليه ، ويقال لهم أيضا « باتارين » ومعناه « محبو الله » ولم يكونوا يعتقدون بالتثليث ولا بألوهية المسيح ولم تكن لهم كنائس . وقد رأيت فى سياحتى هذه كثيرا من قبورهم فهى ليس عليها صلبان ولا شىء من رموز النصرانية بل هى أشبه بالنواويس . وكانت هذه الفئة تأبى أن تترك عقيدتها هذه فشقّ ذلك على البابَاوات فأخذوا يضطهدونها بواسطة ملوك المجار ، وأخذ هؤلاء يضيقون على هؤلاء « الباتارين » ويجبرونهم على الكثلكة ، فنفروا وازدادوا تمسكا بعقيدتهم . ولما كانت هذه العقيدة تشبه الاسلام من جهة سيدنا عيسى عليه السلام مالوا الى الاسلام وأخذوا يدخلون فيه من قبل فتح الأتراك لبوسنه بمدة طويلة ؛ ثم لما جاء محمد الفاتح واستولى على مملكة بوسنه دخل سائر هذه الفئة فى الاسلام لأنها فئة كان فيه استعداد خاص للاسلام بسبب تشابه العقيدة ولكون سائر الأمم المسيحية التى كانت تحيط بها كانت تخالفها فى الاعتقاد وتضطهدها ؛ ومذ ذاك الوقت أسلم أجداد البوشناق بمقتضى وجدانهم وحسُن إسلامهم ، ويا ليت جميع المسلمين اليوم مثل مسلمى بوسنه والهرسك فى مجموع أحوالهم .

والمجلة تشكر لحضرة الأمير غيرته على الحقائق الدينية والتاريخية ؟

أسطورة داروين[1]

وبعدها عن الحقائق الثابتة فى التاريخ الطبيعى

يدعى أنصار داروين بأييد القواعد العلمية الثابتة لترهاتهم، وكثيرا ما ترتفع عقيرتهم بأن النتائج التى وصل إليها علماء التاريخ الطبيعى تثبت صحة ما ادعوه من أساطير وخرافات فى نشأة الأجناس النباتية والحيوانية وتطورها، زعما منهم أن الحفريات دلت دلالة واضحة على تسلسلها واشتقاقها من أصل وجنس واحد .

يزعمون أن حافر الحصان الذى يعيش بين ظهرانينا اليوم نشأ عن تحور فى الأصبع الوسطى من أصابع القدم الخمسة لحصان العصور الأولى، وإنى لمتحير فى تعليل هذا الاستدلال، فلم لا يكون ذلك هو عين الحقيقة، وأن الخيول السابقة فى العصور التاريخية الأولى كان لها فى كل من أقدامها الأمامية والخلفية خمس أصابع كانت تمس الأرض جميعها، وأنها على مرور آلاف السنوات انبطحت حتى اتصل بعضها ببعض واتخذت شكل الحافر الذى نراه اليوم فى خيولنا . ولكننا لا يمكننا بذلك أن نستدل على حل ما ذهب اليه أنصار داروين لأن الخيول السابقة التى يشيرون إليها لا تشبه بأى حال الخيول الحاضرة، فانها أصغر منها حجما وتختلف عنها فى شكل الأسنان وتركيبها إذ كانت أشبه بأسنان القردة، وكانت لا تزيد فى الارتفاع عن ٣٠ سم أى كمتوسط قامة الكلاب فى الأجيال الحاضرة، وإن الخيال الذى يتسع لاحتمال وجود صلة تربط هذه بتلك من حيث الجنس والنوع على بعد الشقة لخيال واسع .

---

(١) مترجمة عن الألمانية من كتاب الاستاذ الفاضل والعالم الكبير الدكتور « فان هوفنسفلت » فى تفنيد نظرية داروين .

وفى كتاب الأستاذ « Olhenio Abel » أستاذ علم الحفريات فى جامعة « فينّا » المسمى (صور حيوية عن العالم الحيوانى فى عصور قبل التاريخ) رسوم تخطيطية عن خيول أمريكا الشمالية المسماة «Equide» كما تخيلها العالم الكبير « أوسبورن » .

وقد عثر المنقبون فى طبقات الأرض التى يرجع عهدها الى عصر «Eocene» التاريخى ويقع فى العصر الثلاثى الجيولوجى - على بقايا حفرية من أنواع الخيول المسماة «Orohippus» و «Eohippus» لها فى كل من قدميها الأماميتين أربعة أصابع وثلاثة فى كل من قدميها الخلفيتين ، وكان أحد هذه الحيوانات فى حالة البلوغ والنمو الكامل لا يزيد ارتفاعه عن ٣٨ سم ، ولا تختلف أسنانها كثيرا عن أسنان أسلافها ذات الخمس الأصابع ، كما أنها تقارب فى الشكل أيضا أسنان خيول الوقت الحاضر .

وأما النوع المعروف باسم « Mesohippus » الذى وجد فى أمريكا أيضا ويرجع الى عصر «Oligocene» -- ويقع فى العصر الثلاثى الجيولوجى -- فله فى كل من قدميه الاماميتين والخلفيتين ثلاثة أصابع وكانت جميعها تمس الأرض عند المشى ، كما لوحظ أن الأصبع الوسطى كانت تفوق الأخرى نموا .

كما وجد أن النوع المعروف باسم «Meryohippus» ويرجع الى عصر «Miocene» — ويقع فى العصر الثلاثى الجيولوجى أيضا — لا يزيد ارتفاعه عن متر ، وله فى كل من قدميه الخلفيتين و الأماميتين ثلاثة أصبع ، ولم تكن الأصابع الجانبية تطأ الأرض بل ترتفع قليلا الى جانب الأصبع الوسطى .

ووجد فى طبقات الأرض التى يرجع عهدها الى عصر « Pliocene » — ويقع أيضا فى العصر الثلاثى الجيولوجى — بقايا حفرية لنوع من الخيول «Equis» يسمى «PLohippus» وله حافر واحد ، ولكنه يقل عن الخيول المعروفة الآن حجما .

وجدت جميع هذه الأنواع من الحيوانات فى أمريكا الشمالية ولم يثبت حتى الآن وجود أمثالها فى أوربا ، إلا أنه وجد فى سهول الإغريق القديمة نوع آخر من الخيول

يسمى «Hiparion» يرجع الى عصر «Pliocene» كثيرة الشبه بالنوع المسمى «Meryohppus» الذى وجدت حفرياته فى أمريكا باقية من عصر «Miocene» السابق ذكره .

ولا يسع الخبير المطلع على التاريخ الطبيعى وعلم الحفريات إلا أن يسلم بأن هذه الحيوانات التى وجدت فى طبقات مختلفة من الأرض وترجع الى عصور متباينة قبل التاريخ ، ما هى إلا أنواع متوسطة بين نوعين مختلفين ، ولا يمكن بأى حال اعتبارها حلقة من سلسلة حلقات متتابعة ومتوالية كما يتوهم داروين وأنصاره ، ولا يمكن اعتبار هذه الاكتشافات دليلا على ثبوت نظرية التطور المزعومة .

ولو أننا وجدنا عشرات الأنواع المتوسطة بين نوعى «Mesohippus» و «Meryohippus» لكنا أميل الى الاعتقاد برجحان اشتقاق النوع الثانى من الأول ، ولكن «الحلقات المفقودة» فى جميع أنواع الحيوانات لم توجد بعد ولن توجد ، فانها لو كانت مفقودة حقا لأمكن إيجادها والاهتداء اليها حتى الآن ، إذ أن جميع أنواع وأجناس الحيوانات تقريبا معروفة الآن للعلماء والباحثين . «يتبع»

تاريخ بغداد أو مدينة السلام

للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى

كتاب نفيس من أوسع ما كتب فى موضوعه . عنيت بطبعه مطبعة الخانجى بالقاهرة ، والمكتبة العربية ببغداد ، ومطبعة السعادة بمصر ، طبعا متقنا على ورق جيد والكتاب يحتوى على اثنى عشر جزءا ، ولتسهيل اقتنائه جعل قيمة الاشتراك فى كل جزء منه اثنى عشر قرشا ، فنلفت إليه أنظار أهل العلم ومحبى التاريخ م ؟

a message of Omar Ibn Al-Khattab to Amrou Ibn Al-Ass then viceroy of Egypt:

"There live with you non-Moslems who are given the pledge of faith and whom the Prophet (Peace be upon him) commended to our care, for thus saith the Prophet "whoso unfairly treateth a covenantor or imposeth too heavy a burthen on him, will I be his adversary on the judgment day". "Take heed therefore O' Amrou lest the Prophet becometh thy adversary for whoso contendeth with him will be overthrown".

An authentic Tradition in this connection is the saying of the Prophet (Peace be upon him) "Whoso revileth a non-Moslem (Zimmi), will he be flogged on the judgment day with lashes of fire".

Consider then the great eminence given to covenant by Islam and compare this with treaties in which some powerful nations take upon themselves before the whole world to respect the rights of a Moslem people but once they have reduced it to subjection and gained the upper hand in the administration of its affairs, they forbear not from the destruction of souls and the shameless misappropriation of its wealth. Not content with this, they try their utmost to turn the people from their faith and infuse heresy and disbedief among them. Yet dispite such monstrous behaviour, they feign indignation should they be called the enemies of humanity and oppressors of liberty.

The Moslem law-doctors have fully appreciated the great regard and solicitude which the law-giver has lavished on non-Moslem subjects under the protection of Islam.

Rules were elaborated from the fundamental precepts which rendered alike Moslem and non-Moslem. Note-worthy among these, is the institution that a Moslem could lawfully leave or bequeath unalienably a part of his proporty to a non-Moslem enjoying the protection of Islam. Such will or bequest is considered valid and binding. In interpretation of the Tradition "Man is not to outbid his followmen in purchasing or betrothal once an agreement thereto is concluded", they said that the tradition applies with equal force to the non-Moslem under the protection of Islam just as it applies to the Moslem. Outbidding a non-Moslem in a purchasing or a betrothal agreement are both forbidden.

In the consideration of the manners of fellowship, the Moslem law-doctors lay particular stress on the observation of the rights of non-Moslems under the rule of Islam. They urge to their kindly treatment, to bear patiently any harm on their account, defend them in their absence and repel whomsoever wishes to do them harm.

(to be continued)

other elements of the Moslem nation by bonds of amity, good—will and cooperation. These bonds are referred to in the Koran and the Tradition as well as in the sayings of the Prophet's companions and the learned men who followed them.

The pledge given to the Zimmis (those under the rule of Islam) implies that they should live under Moslem protection enjoying full religious liberty and complete security as regards their own persons, their property and their honour. The following quotation from the pledge of Omar Ibn Al-Khattab to the people of Elia is significant: "He gave them the pledge of security for their persons, their property, their churches and all followers of their creed. Their churches are not to be inhabited, diminished in number or revenue or crosses and they are not to be forced to renounce their faith or subjected to any harm".

As a constitution of Islam, the Koran has left no aspect of social and political life to which it did not ordain some principle to guide its followers in the details thereof. One may consider in this connection the great social and political aspect dealing with the treatment of non-Moslem communities who choose to live peacefully at our side and give no cause for strife and agitation. The Holy Koran may well be quoted here:

«لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Allah does not forbid you to be charitable and to deal justly with those (of the non Moslems) who have not waged war against you and have not driven you out of your homes; verily Allah loveth those who are just and equitable" (Baidawy's Commentary).

This verse clearly urges to the maintenance of the law of equity in treating the peaceful sections of the non-Moslem communities It further points to the merit of being charitable and kind to them.

In expressing this, the negative form of speech was purposely used in the verse as it was meant as an answer to whatl occurs first to the mind that their profession of a different religion detracts from showing kindness to them and respecting their rights.

The great Emirs of Islam have always followed the injunction enjoined by this verse. They were wont to counsel the viceroys to maintain justice in their provinces and they gave particular mention to the treatment of the non-Moslem subjects under their rule. Perhaps the best instance we can give in illustration of this is a quotation from

Islam, he is to be sent back in full security to his own abode of safety, as ordained by the following verse:

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

„Should a polytheist come to seek your protection in order to hear the Koran recited and acquaint himself with the truth thereof, grant him protection till he has heard it, then give him a safe conduct if he chooses not to profess Islam, to his abode of safety" (Baidawy's Commentary).

In case when Moslems capture a warrior proceeding from an enemy country and he asks to be given the pledge of security, Islam ordains that no harm should befall him and if it were thought that to interest of the country could be served by granting such pledge, he should be given a safe conduct to his country.

Again should Moslems come across a party of the enemy on the borders of the Moslem dominions and on being questioned they say that they have crossed the borders as traders thinking that as such they go unmolested, we should let them carry on their lawful pursuit or send them back to their own country, unless proofs are otherwise available to incriminate them and point to their evil intentions.

The pledge of security in Islam is a real one, no mere idle talk. It lays particular stress on the safe custody of the wealth and property of those to whom we are bound by treaty. Should the party to the treaty return to his country and leave behind in the dominion of Islam some trust or debt, it is incumbent upon the Moslem authorities to send such to him. Should he die these should be sent to his heirs, and should they not be known, it should be sent to the head of the deceased's community to dispose of it to the next-of-kin.

The sacredness in which the pledge of security was held in Islam is testified to by the saying of Omar Ibn Al-Khattab: "I have been told concerning some of you that on going in pursuit of an infidel warrior who flees to shelter in the mountain and there makes himself unassailable, one of you would shout ofter him "fear thou not" and as soon as he gets to him he would kill him. By Him in whose hands lieth my soul, should I know of any one who hath done so I would at once put him to death".

As to those who choose to live under the rule and protection of Islam, they are accorded such rights as warrant their complete freedom and render them a living element closely connected with the

forestall the breach of faith by hostile measures, Islam ordains in such case to publicly renounce the treaty and proclaim the termination thereof. The Holy Koran is quite clear on this point:

«وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الكشاف

"If you feel apprehension of betrayal on the part of the other party of the treaty through signs showing treachery, then repudiate the treaty in plain terms, and wage not war against them while they are under the impression that the treaty is still in force for this would be treachery and God hateth the treacherous" (Al-Kashaf's Commentary).

The pledge of security given to an enemy is not confined by Islam to the sovereign but it is the right of every Moslem whether man or woman. Should a Moslem, man or woman, give their pledge of security to an enemy, such pledge is considered binding and he could depend on the strength of it that no harm would befall him until he reaches his abode of safety.

Nor is it conditional that the pledge should be given by a major or even a Moslem. The pledge of a boy who knows what he says or a non-Moslem under the rule and protection of Islam is just as binding.

Indeed Islam has transcended the limits of tolerance in regard to the question of security so much so that should a Moslem make a hostile sign to warn an enemy of the impending attack and the latter took it for a sign of peace, it is imperative that full security should be vouchsafed him in accordance with what he understood the sign to mean.

Such is the rule in war-time. The security of the enemy who enters a Moslem country with the object of engaging in trade or business rests entirely in the hands of those in authority. Should a member of the public however give his pledge to an enemy who thereby gains admittance into the country for trade and the latter thinks such pledge is binding, full security should me accorded him and if the Wali does not deem it in the interest of the country that such security be given, he had to conduct the enemy back to safety.

Again should an enemy ask for security in order to have an insight into religion and it happens that he finds no satisfaction in

women, children, as well as the old, the insane, the blind, the cripple and the infirm. There are certain law-doctors of Islam who do not sanction the slaying of the blind and the cripple even though they have taken part in drawing the plan of campaign. Nor is the slaying of women permitted even though they were employed to guard fortresses or fling missiles such as stones. In this connection the Koran saith:

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الآلوسي

"Fight to exalt the Religion of Allah and uphold His word only with those who fight with you or are expected to do so, to the exclusion of all others, and transgress not by slaying those who fight not with you" (Alucy's Commentary).

Thus has fighting been ordained only against like fighting.

On finding a slain woman in one of the expeditions, the Prophet (Peace be on him) denounced the act saying "This would not fight, to be thus slain" and warned his followers against killing those who do not fight against them.

If the combatants place women and children in front of them, it is imperative to desist from fighting unless they are used as a means of strategy to overcome the Moslems and the defeat of Moslem arms be feared in consequence.

Islam does not sanction the mutilation of the enemy and the Prophet saith in this connection "Mutilate not the body of the enemy and slay not the child". It strictly forbids the carrying of decapitated heads from town to town or sending them to the Walis (governors) to display them as a sign of victory. Abu Bakr severely denounced the practice and called it "Persian" as being foreign to Moslem codes and traditions.

Provisions were also made for the prisoner of war. Islam ordained that the decision of his case should rest with the Emir who knows best the interest of his side and has the choice to set him free with or without ransom as he deems fit.

Islam resorts to no compulsion to force his enemies to profess it. This applies to both followers of revealed religions and others alike. Imam Malek says in this respect "Tribute should be taken from whomsoever professes a religion other than Islam".

As to those with whom we have entered into a treaty of peace, it is incumbent upon us to fulfil our obligations towards them and threat them fairly as long as they so treat us.

And though it be the practice of some powerful nations when they sense the desire of betrayal from the other party of the treaty, to

TOLERANCE OF ISLAM[1]

Should one make a serious study of the principles of Islam and thoroughly acquaint himself with the spirit of its laws, he would straightway realise with not the least shadow of doubt, that it is a divine religion revealed to diffuse true guidance throughout the world and initiate nations into the highest possible and most advanced social systems.

Indeed the banner of Islam continued to fly high in East and West when its fate rested in the hands of men who were imbued with its lofty ideals and sought the right means for its furtherance. I could scarce deal in this article with all the social systems promulgated by Islam, nor could I review all the fundamental precepts which serve to prove that this religion was subject to no human sentiment or racial traits or customs

I will therefore confine myself to a phase of Islam wherein its fair justice, tolerant attitude and high morals are eminently revealed. This phase is that of certain precepts pertaining to the treatment of non-Moslem communities.

According to Islam, non-Moslems are divided into three categories: belligerents, treaters and those under the rule and protection of Islam.

The belligerents are those who attack a Moslem nation, prepare to assail it or try to usurp some right belonging to it. The injunction of Islam in regard to those is that they should be repelled when they attack, forestalled when they make the move to assault and forced to surrender the usurped right when they transgress.

Yet in permitting to repel the attackers and check the activities of its assailants, Islam has ordained strict observation of the codes of mercy and justice.

The martial policy of Islam is pre-eminently established upon the codes of clemency and Islam forbids to do any harm to those who took no part in actual fighting such as monks, farmers, labourers,

(1) Translated from the Very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hussain's editorial in Nour El-Islam Review.

judgeship?" "No" said he "unless there be no other substitute in which case coercion should be resorted to". "Would beating and imprisonment be used to force him?" he was asked, "Yes" said he.

Ibn Al-Aghlab, Emir of Al-Qairwan desired Al-Imam Sohnoon to accept the judgeship of Al-Qairwan but he declined, nevertheless the Emir tried for a whole year to persuade him accept the post but still he declined Driven at last to exasperation by his constant refusal, the Emir sent for him and said "If thou wouldst not take it, I will nominate a non-follower of the Tradition to sit in judgment on the people", whereupon he had to accept the judgeship.

The story of Zaid Ibn Abdul-Rahman fully illustrates the great pride taken by righteous men in learning and their indifference to the high positions of the state. When Caliph Hisham succeeded to the Caliphate of Andalusia, he offered Zaid Ibn Abdul-Rahman a judgeship but he declined The Caliph then sent his ministers to try to persuade him accept. Zaid could not get rid of them until he said to them "I swear to walk the whole way to Mecca, if you give me the judgeship and any one complains of you, I would take the disputed property in your possession and give it unto him and put the burden of proof on you for what I know of your injustice!" They knew he would carry out his threat and left him alone thereafter.

The great attention given by Islam to the dispensation of justice has rendered it the highest of all ordained duties. Some of the learned people who accepted the office of justice have refused to take any remuneration therefor. Abul-Qasim Hammas Ibn Marwan was one of those. He was nominated by Ziadatullah Ibn Al-Aghlab to the judgeship of North Africa which he accepted but declined to be paid for his services. "His were the days in which truth prevailed, Tradition flourished and justice was truly upheld".

Sohnoon, another judge of North Africa, "took neither pay nor grant from state or sultan and paid his officers and clerks out of the tribute money of the people of the Scripture".

Those who decline to be paid for discharging the duties of justice, will the Lord fully repay them. Should the judge nominated be in good circumstances and no one else among the learned people be as capable as he is, then his appointment would be considered as an ordained individual duty which he has to discharge. Should a rich man be appointed to the office of justice, he is not entitled, as all the law doctors agree, to any remuneration therefor.

Thus has Islam founded its codes of justice upon efficient and sound basis and succeeded to produce judges who followed, in upholding its cause and enforcing the law, the best possible and most advanced system ever conceived by man.

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR

FAIR JUSTICE OF ISLAM[1]

(continued)

Sometimes one of the learned people would refuse the judgeship for which the sovereign rightly appreciates his qualities and deems him most capable to discharge its duties. The Emir is then obliged to threaten him with persecution and even inflict corporal punishment on him to force him into acceptance. There were others who have had to accept it under such circumstances. Of those, Issa Ibn Meskeen a learned law doctor of Al-Qairwan, is a prominent example. Emir Ibrahim Ibn Ahmad Ibn Al-Aghlab knew of his complete indifference to high positions even that of judgeship. He sent for him and said "What do you say of a man who is endowed with all good qualities whom I wish to nominate a judge to ameliorate the conditions of this nation thereby, yet he declines ?" "It is incumbentent upon him to accept the judgeship" said Ibn Maskeen, "But he tries to find excuses" said the Emir. 'Force him into it even if you have to flog him" retorted Ibn Maskeen. 'Up then, thou art the one!" said the Emir, "But I am not the man you describe" cried Ibn Maskeen and showed signs of reluctance whereupon they seized him by force and put the sword to his neck and thus he had to accept the judgeship.

As the well-being of the nation is closely connected with the right administration of justice, the sovereign may take all measures of coercion which he deems necessary to force the learned and capable ones to accept the office.

Imam Malek was once asked ' Should a man be forced to accept

(1) Translated from the Very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hussain's editorial in Nour El-Islam Review.

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

نُورُ الإسْلَام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء السابع | رجب سنة ١٣٥١ | المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف } سابقا
ومن اعضاء مجلس الازهر الاعلى }

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الإدارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	صـ
داخل القطر المصري	٤٠
خارج القطر المصري	٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمي المدارس الاولية والطلاب داخل القطر	٢٠
وللحضرات المذكورين في خارج القطر ...	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صـ ساغ داخل القطر و ٤ صـ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

طائفة القاديانية

أو غلام أحمد

بعث محمد صلى الله عليه وسلم بشريعة واضحة لا يحوم عليها لبس ، محكمة لا تدنو منها شبهة ، وتلقاها عنه رجال صفت بصائرهم ، وتناهت فى فهم سبل الخير عقولهم ، فبلّغوها كما أمروا ، وجاهدوا فى سبيلها حتى انتصروا ، وما زال الدين الحق - ولن يزال - رفيع الدعائم ، محفوظا من أن تلعب به يد الأهواء والمكايد ، والفضل فى هذا الحفظ للكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، فإنهما قد وجدا - وسيجدان - فى كل عصر عقولا تنظر فيهما وهى مبرأة من كل عوج ، بعيدة من كل هوى ، فسرعان ما تبصر الحقائق محفوفة بحجج تقطع لسان كل جهول ، وتفضح سريرة كل ختال فخور ، قال الله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

وقد دلنا التاريخ الصادق أن الدين الحنيف يبتلى فى كل عصر بنفوس نزاعة الى الغواية ، فتتنكب عن الحقائق ، وتمشى فى تحريف كلمه مكبة على وجهها .

وليس هذا الإغواء بمقصور على من يدعون التفقه فى الدين ولم يتفقهوا ، ككثير من زعماء الفرق المنحرفة عن الرشد ، بل يتعداهم الى فئة تسول لهم نفوسهم ادعاء أنهم مهبط الوحى ، وأنهم يتلقون ما يقولونه بأفواههم ، من الله تعالى بدون وسيلة كتابه الحكيم وحديث رسوله الكريم .

ومن مدعى النبوة من يذهب فينقطع دابره ، كالحارث بن سعيد الذى ظهر فى أيام عبد الملك بن مروان ، واغتر به خلق حتى وقع فى يد عبد الملك فقتله ، ولم يبق له فى الأرض أثر ، وكإسحاق الأخرس الذى ظهر فى خلافة السفاح ، واتبعه طوائف ، وقتل فانقطعت فتنته .

ومن مدعى النبوة من يبقى لدعوته أثر بعد موته ، كالحسين بن حمدان الخصيبى الذى نشر فى جبال حمه واللاذقية النحلة التى يتمسك بها طائفة النصيرية اليوم .

ومن هذا الصنف غلام أحمد مبتدع النحلة القاديانية .

كثيرا ما وردتنا رسائل من البلاد العربية وغيرها كأمريكا يسأل محرروها عن أصل هذه النحلة ومبلغ صلتها بالاسلام ، وبالأحرى بعد أن ظهر المقال الذى كشفنا فيه الغطاء عن النحلة البهائية ، ونشرناه فى الجزء الخامس من المجلد الأول من هذه المجلة . ووردتنا رسائل أخرى مطوية على ما يصرح به دعاة هذه النحلة من الآراء ، ويقترح محرروها نقد هذه الآراء ، وتحذير المسلمين من الوقوع فى مهالكها ، ولم نشأ التعرض للكتابة فى شأنها قبل اليوم ، إذ لم يكن لدينا من كتب أصحابها ما نطلع به على أساسها ، ونعرف منه حال واضعها .

وقد انساق الينا اليوم من كتب مبتدعها غلام أحمد وبعض دعاتها ما جعلنا على بينة من أمرها ، وها نحن أولاء نضع أمام حضرات القراء فصولا فيما تقوم عليه هذه النحلة من المزاعم الخاطئة ، ونلقى عليهم كلمات فى نشأة واضعها ، ليكونوا على بصيرة من أنها دعوة زائغة ، ولا يغيب عنهم أن دعاتها الذين يجوسون خلال ديار الاسلام إنما يثيرون فى نفوس شباننا فتنة ، والفتنة أشد من القتل .

غلام أحمد — أصله ، وولادته ، ونشأته :

ساق غلام أحمد نسبه ، فذكر أن آباءه كانوا يسكنون سمرقند ، ثم رحلوا الى الهند ، واستوطنوا « قاديان » وصارت لهم الرياسة فى تلك الناحية ، ثم دارت عليهم

الدوائر ، وانهالت عليهم المصائب ، وذهبت عنهم تلك الرياسة ، ونهبت أموالهم ، وقال : « ثم رد الله الى أبى بعض القرى فى عهد الدولة البريطانية » .

ولد غلام أحمد سنة ١٢٥٢ ، ولما بلغ سن التعليم شرع فى قراءة القرآن وبعض الكتب الفارسية ، ولما بلغ العاشرة من عمره ، تعلم اللغة العربية ، ولما بلغ السابعة عشرة اتصل بأستاذ ، فتلقى عنه النحو والمنطق والفلسفة ، وقرأ على أبيه كتباً فى علم الطب . أما العلوم الدينية فلم يدرسها على أى معلم ، وإنما كان له ولوع بمطالعتها [1] .

وعند ما قطع مسافة فى التعلم كانت السلطة البريطانية قد امتدت على الفنجاب ، وكان الشبان يطمحون الى المناصب ، فاندفع غلام أحمد يبحث عن وظيفة ، فذهب الى « سيلكوت » وتقلد وظيفة فى إدارة نائب المندوب السامى ، ثم استقال منها بعد أربعة أعوام إجابة لرغبة أبيه الذى رأى نفسه فى حاجة الى مساعدته له فى إدارة شئونه الخاصة .

وفى سنة ١٨٧٦ م [2] مرض أبوه ، فزعم غلام أحمد أنه نزل عليه وحى من الله بأن أباه سيموت بعد الغروب ، وكان هذا الإخبار فى زعمهم أول وحى نزل عليه ، وأخذ بعد هذا يصرح ببعض آراء زاعما أنه يتلقاها من طريق الوحى ، وكان المسلمون يلاقون هذه المزاعم بالإنكار الشديد ، فرحل الى بلدة « لودهيانة » وأذاع منشوراً أعلن فيه أنه المسيح المنتظر ، فقام فى وجهه علماء الشريعة بالإنكار ، ومن بين هؤلاء العلماء مولوى محمد حسين صاحب جريدة « إشاعة السنة » ودعا مولوى محمد حسين كثيراً من العلماء الى « لودهيانة » لمناظرة غلام أحمد ، ولكن الوالى « الكوميسر » فى هذه الناحية كان فى جانبه ، فمنع من عقد المناظرة ، وأرغم مولوى محمد حسين ومن معه من العلماء على مغادرة البلد فى اليوم نفسه .

(١) كتاب باللسان الانكليزى لمحمود بن غلام أحمد اسمه « أحمد رسول آخر الزمان » .

(٢) تستعمل التاريخ الافرنجى لأنه الوارد فى كتبهم التى تنقل عنها هذه الحوادث .

ثم انتقل غلام أحمد الى « دهلى » داعيا الى نحلته ، فواجهه العلماء بالإنكار ، وطلبوه للمناظرة فيما يدعو اليه ، وقرروا أن يتولى مناظرته مولوى نظير حسين أستاذ الحديث ، فلم يجب غلام أحمد للمناظرة ، ولكن — كما يقول أتباعه — دعا مولوى نظير حسين الى المباهلة : بأن يحلف هذا الأستاذ على أن عيسى بن مريم عليه السلام لم يزل حيا ، واذا حلف ولم ينزل عليه فى خلال سنة بلاء ، يكون غلام أحمد كاذبا فى نبوته ، ولكن مولوى نظير حسين ومن معه من العلماء أبوا أن يسلكوا مع غلام أحمد هذه الطريقة بدل ما دعوه اليه من المناظرة .

وبعد هذا دعا أهالى دهلى مولوى محمود بشير من مدينة « بهوبال » لمناظرة غلام أحمد ، حكى هذا محمود بن غلام أحمد ولم يزد على أن قال : وطبعت هذه المناظرة .

وفى سنة ١٨٩٢ ذهب الى «لاهور» أيضا ، فجرت بينه وبين مولوى عبد الحكيم مناظرة ، ذكر هذه المناظرة أيضا محمود بن غلام أحمد ، ولم يتعرض لوصفها أو لمن كان له الفوز فى نهايتها . وفى سنة ١٨٩٦ عقد مؤتمر الأديان فى « لاهور » وحضره ممثلو ملل كثيرة ، ويقول محمود بن غلام أحمد : إن غلام أحمد هو الذى اقترح عقد هذا المؤتمر وغرضه من هذا الاقتراح تعريف العالم بحقيقة رسالته ، وقالوا : إنه كان عند ما شرع فى كتابة المقال الذى أراد إلقاءه فى المؤتمر أخذه إسهال عنيف ، ثم أتمه ، وزعموا أنه أوحى اليه بأن مقاله سيفوق كل ما يلقى فى المؤتمر ، ولا ينتظر منهم بعد هذا إلا أن يقولوا : إن مقاله فى المؤتمر كان فوق كل مقال ، وذكروا أن أتباعه لذلك الحين لا يزيدون على ثلاثمائة شخص .

وفى سنة ١٨٩٧ دعا حسين كامى سفير تركيا فى الفنجاب غلامَ أحمد للاجتماع ، فلم يجب ، فذهب اليه بنفسه وسمع منه ما يدعيه من نزول الوحى ، وبعد انصرافه عنه نشر فى صحف « لاهور » مقالا أنكر فيه ما يدعيه غلام أحمد أشد الإنكار ، وكان لهذا المقال أثر فى ازدياد حنق المسلمين على غلام أحمد فى تلك البلاد

وفى تلك السنة نشر غلام أحمد تحت عنوان « الصلح خير » خطابا لعلماء الاسلام يدعوهم فيه أن يكفوا عن معارضته والتشنيع عليه مدة عشر سنين ، فاذا كان كاذبا فسيصادفه ما يظهر كذبه ، واذا تبين صدقه ، فستكون هذه الهدنة سببا لمعرفتهم للحق ونجاتهم من العقاب الذى ينزله الله على من يناوئونه .

ولم تجد هذه المكيدة عند علماء الإسلام غباوة ، فرفضوا هذا الاقتراح ، واستمروا على تفنيد آرائه ، وتحذير الناس من السقوط فى ضلالته .

وفى هذه السنة قصد غلام أحمد الى التخلص من حملة المنكرين عليه ، فلجأ الى حاكم الهند العام وقدم له مطلبا ، قال فيه : إن أصل اضطراب الهند هو المشاغبات الدينية ، فيجب وضع قانون يسوغ لأتباع كل دين إظهار حقائق دينهم ، ويحميهم من تعرّض غيرهم لهم .

وفى سنة ١٨٩٨ وضع لأتباعه قانونا هو أن لا يزوجوا بناتهم لمن لم يكن مصدقا بنبوته . وفى هذه السنة أسس مدرسة بقاديان لتعليم أبناء شيعته حتى يشبوا على مبادئ نحلته .

وفى سنة ١٩٠٠ بنى مسجدا بقاديان ، ولكن أقربه الذين سلّمهم الله من نزغاته بنوا أمام هذا المسجد جدارا جعل أشياعه لا يصلون الى المسجد إلا بعد أن يمشوا مسافة طويلة ، فرفع غلام أحمد عليهم دعوى ، فقضت المحكمة بإزالة الجدار .

وفى هذه السنة ألقى على طائفته الخطبة التى يسميها « الخطبة الإلهامية » وأتباعه يعدونها من معجزاته ، وسننقل فيما بعد شيئا من هذيانها وضلالاتها .

وفى سنة ١٩٠١ أمر أتباعه بإحصاء عددهم ، وتقييد أسمائهم فى سجل ، قال ابنه محمود بشير : وكانت هذه السنة مبدأ التفريق بينهم وبين المسلمين .

وفى سنة ١٩٠٢ أصدر مجلة لنشر مذهبه سماها مجلة « الأديان » وهى تنشر باللغتين ، الأوردية والانكليزية ، وكان يكتب فيها بعض مقالات بنفسه ، وفى هذه السنة أقام

عليه السيد كريم الدين قضية ادعى فيها أنه تناوله بالقذف، واستُدعى غلام أحمد الى المحاكمة ببلدة « جهلوم » وحضر لدى المحكمة فقضت ببراءته .

وفى سنة ١٩٠٣ قتل أحد دعاة مذهبه وهو سيد عبد اللطيف بمدينة « كابل » بحجة مروقه من الدين ، وفى هذه السنة كتب غلام أحمد مقالا خرج فيه الى شتم السيد كريم الدين حتى قال عنه : إنه كذاب لئيم ، فرفع عليه السيد كريم الدين قضية قذف ثانية ، واستُدعى غلام أحمد الى المحاكمة ببلدة « جُرْدَسْبور » فقضت عليه المحكمة بغرامة قدرها ٥٠٠ روبية ، فاستأنف القضية لدى محكمة « امرتسر » وكان القاضى انجليزيا ، فنقض الحكم الأول وقضى ببراءته .

وسافر بعدُ الى « لاهور » و « سيلكوت » ليخطب داعيا الى مذهبه ، فأصدر العلماء هنالك منشوراً ينصحون فيه للناس بأن لا يستمعوا الى خطبه ، وخطب مرة واحدة فثار الناس عليه بالإنكار وحاولوا رميه بالحجارة ، ولكنه كان كما هو شأنه فى هذه الموقع محاطا بالشُّرَطى (البوليس) تحموه حتى ركب القطار هاربا .

وفى سنة ١٩٠٥ أسس مدرسة دينية عربية فى قاديان لتخريج دعاة عارفين بمقاصد نحلته ، وفى هذه السنة سافر الى « دهلى » فقام العلماء فى وجهه ولم يتمكن من الخطابة فى محل عام ، إلا أنه دعا طائفة الى المنزل الذى يقيم فيه ليبث بينهم مبادئ مذهبه ، فلقى من بعض الحاضرين معارضة وإنكاراً ، فغادر المدينة خائباً .

وعند عودته من دهلى مر على بلد « امرتسر » وعزم على إلقاء خطبة فى قاعة المحاضرات ، وجاء العلماء يحذرون الناس من الاستماع إليه ، ولما دخل قاعة المحاضرات ، وأخذ يخطب ، قدم له أحد أتباعه قدح شاى ، وكان الاجتماع فى نهار رمضان ، فأخذ منه الرشفة الأولى ، فصاح الحاضرون بالإنكار عليه ، فأجاب بأنه مسافر وقد رخص للمسافر الفطر فى رمضان ، ووقع عقب هذا هياج ، فانقطع عن الخطابة ، وانصرف فى حماية الشرطى (البوليس) واضطر الى مغادرة المدينة .

وفى سنة ١٩٠٥ زعم أنه أوحى إليه أن أجله قد قرب، وكتب الكتاب المعروف عندهم بالوصاية، ولكن أجله امتد بعد هذا نحو ثلاث سنين. وفى هذه السنة زعم أنه أوحى إليه بإنشاء مقبرة خاصة لأتباعه، وفرض على من يريد الدفن فيها أن يهب لخزينتهم عُشر ماله.

وفى سنة ١٩٠٧ قامت حركة وطنية فى «الفنجاب» فانحاز غلام أحمد الى جانب الحكومة، وأذاع منشوراً دعا فيه أتباعه الى موالاة الحكومة ومساعدتها على إخماد الحركة الوطنية، ففعلوا.

وفى هذه السنة انعقد مؤتمر الأديان فى «لاهور» وحضره مندوبو الديانات، وبعث غلام أحمد مقالا ليقرأ فى المؤتمر، ولما قام أحد أتباعه لقراءته قابله جماعة من الحاضرين بالازدراء، ورموه بكلمات الاستهزاء.

وفى سنة ١٩٠٨ ذهب الى «لاهور» وعند ما وصل إليها أنكر المسلمون مجيئه، وصار العلماء يجتمعون كل يوم بعد صلاة العصر فى براح حول منزله، ويلقون خطبا يحذرون فيها الناس من الاغترار بمزاعمه.

وكان غلام أحمد مبتلى بإسهال مزمن، فاشتد عليه وهو بلاهور، ومات فى مايو من هذه السنة ١٩٠٨ الموافقة لسنة ١٣٢٦ هجرية ونقل الى قاديان ودفن بها، وانتخب أتباعه لرياسة المذهب حكيم نور الدين حتى مات سنة ١٩١٤ فانتقلت الرياسة الى بشير الدين محمود ابن واضع هذه النحلة غلام أحمد، وهو رئيسهم لهذا العهد.

ادعاء غلام أحمد الوحى والنبوة والرسالة:

يزعم غلام أحمد أنه ينزل عليه الوحى، ومما قال فى الخطبة الإلهامية: «هذا هو الكتاب الذى ألهمت حصة منه من رب العباد، فى يوم عيد من الأعياد» ثم قال:

« بل هى حقائق أوحيت الىّ من رب الكائنات » ثم قال : « وقد أوحى الىّ من ربى قبل أن ينزل الطاعون أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » .

ولم يدع أحد من الصحابة ولا من السلف الصالح أنه يأتيه الوحى من الله ، ولو اقتصر غلام أحمد على دعوى الوحى لقلنا : لعله يريد من الوحى الإلهام ، كما قال تعالى : (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا) ويبقى النظر فيما زعم من الإلهام ، فإن كان موافقا لنصوص الدين أو أصوله سكتنا عنه ، وإن كان مخالفا لشىء منه ، رددناه عليه ، ولكنه يصرح فى كتبه بأنه نبى ورسول ، قال فى الخطبة الإلهامية : « أرأيتم إن كنتُ من عند الله ، ثم كذبتمونى فما بالكم أيها المكذبون » وقال : « وإنكم ترون كيف تنصّر الناس وارتدوا من دين الله ، ثم تقولون ما جاء مرسل من عند الله ، مالكم كيف تحكمون » وقال : « فأنعم الله على هذه — يعنى أمة الإسلام — بإرسال مثيل عيسى وهل ينكر بعده إلا العمون » وقال : « وكان عيسى علما لبنى إسرائيل وأنا علم لكم أيها المفرطون » ! .

وفى منشور لأصحابه عنوانه « شرائط الدخول فى جماعة الأحمدية » ما نصه : « إن المسيح الموعود — يعنى غلام أحمد — كان مرسلا من الله تعالى ، وإنكار رسل الله تعالى جسارة عظيمة قد تؤدى الى الحرمان من الإيمان » وقال أحد دعاتهم أبو العطاء الجلندهرى : « كلم الله أحمد — يعنى غلام أحمد — بجميع الطرق التى يكلم بها أنبياءه ، لأن الأنبياء فى وصف النبوة سواء [1] » .

يدعى غلام أحمد النبوة والرسالة غير مبال بالقرآن والسنة وإجماع الأمة ، ففى هذه الأصول الثلاثة حجج على أن المصطفى صلوات الله عليه هو آخر النبيين والمرسلين . أما القرآن ففى قوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ

(١) البشارة الاسلامية الأحمدية .

وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ) فعلى قراءة « خاتِم » بكسر التاء يكون وصفا له عليه الصلاة والسلام بأنه ختم الأنبياء، أى لا ينال أحد بعده مقام النبوة، فمن ادعاها فقد ادعى ما ليس له به من سلطان، وقراءة « خاتَم » بفتح التاء ترجع الى هذا المعنى، فإن الخاتم بالفتح كالخاتم بالكسر يستعمل بمعنى الآخر، ذكر هذا علماء اللغة، وجرى عليه المفسرون المحققون وجاءت السنة الصحيحة مبينة لهذا المعنى، ففى صحيح الامام البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدى ».

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة » قال: « فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » وفى رواية مسلم عن جابر رضى الله عنه: « فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء » وروى الامام أحمد بسنده الى أبى الطفيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا نبوة بعدى إلا المبشرات » قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: « الرؤيا الحسنة » أو قال « الرؤيا الصالحة » الى غير هذا من الأحاديث وآثار الصحابة الصريحة فى أن النبوة انتهت بنبوته عليه الصلاة والسلام، وعلى هذا انعقد إجماع المسلمين، وأصبح بمنزلة المعلوم من الدين بالضرورة، قال الامام ابن كثير عند تفسير « وخاتم النبيين »: « وقد أخبر الله تعالى فى كتابه، ورسوله فى السنة المتواترة عنه، أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده، فهو كذاب أفاك دجال مضل » وقال الألوسى فى تفسيره: « وكونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة، وأجمعت عليه الأمة، فيكفر مدعى خلافه ».

وما كان لمسلم أن يؤول القرآن والسنة الصحيحة تأويل من لا ينصح لله ورسوله ليجيب داعية هوى فى نفسه، وانظروا الى غلام أحمد وطائفته كيف تخبطوا فى تأويل

« وخاتم النبيين » وما يبينها من الأحاديث المحكمة ، ولا داعى لهم الى هـذا التخبط إلا أن رجلا من « قاديان » استحب الهوى على الهدى ، فادعى أنه نبي مرسل ، وملأ فه باللغو وقول الزور والتملق لغير المسلمين .

وليس الوحى عند هذه الطائفة بمقصور على زعيم نحلتهم ، بل يدعون أن أتباعه أيضا ينزل عليهم الوحى ، ومما رأيناه فى منشور وضعه رئيسهم لهذا العهد ، وعربه عبد المجيد كامل ، وطبع فى مصر « أن طريق الوحى لا يمكن أن يسد فى وجوه الناس » وفى هـذا المنشور « أن المهدى والمسيح قد ظهر فى الهند بمحل يقال له « قاديان » وأنه يوجد الآن آلاف من حواريه يستمعون الوحى الإلهى » ومما زعم غلام أحمد أنه أوحى به اليه « وإنى جاعلك للناس إماما ينصرك رجال نوحى اليهم » .

بأىّ لسان يدعون الوحى وهذه مقالات غلام أحمد ورسائله طافحة بأقوال منقطعة عن الحكمة عارية عن الصدق ، والمعقول منها قد قاله أناس أو قالوا مثله أو خيرا منه ولم يخطر على بالهم ادعاء أنه وحى كلمهم به الله تعالى ، أو نزل عليهم به الروح الأمين : . ومن خطله المكشوف أنه يأتى الى آيات أو جمل من القرآن المجيد ، فينقلها كما هى ، ويضم بعضها الى بعض فى صحائف ، ويزعم أنها وحى نزل عليه .

ينكرون أن النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، ويوردون على هذا شبها لا تزن عند أولى العلم جناح بعوضة ، كما استدلوا بقوله تعالى : (ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ) متشبثين بأن قوله (يصطفى) فعل مضارع ، والمضارع للاستقبال. ودفع هذه الشبهة أن الفعل الواقع فى الماضى قد يعبر عنه بصيغة المضارع لمقتضيات بلاغية ، منها أن يكون المعنى موضع غرابة ، فإن المضارع من جهة دلالته على الحال يتوسل به المتكلم البليغ الى إخراج الحادث الغريب فى صورة الواقع فى الحال ، ليبلغ تعجب المخاطب من وقوعه مبلغ تعجبه من الصورة البديعة فى حال مشاهدتها ، وعلى

هذا الوجه ورد قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ ٱللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) قال: « فيكون » والموضع فى الظاهر الماضى، لأن وجود إنسان من غير أب حادث غريب، فحاله يقتضى أن يعبر عنه بالمضارع لإحضاره فى ذهن المخاطب حتى كأنه مشاهد له.

ومن دواعى التعبير عن الماضى بصيغة المضارع الإشارة إلى استمرار الفعل وتجدده فيما مضى حينا بعد حين، فإن الاستمرار التجددى يستفاد من المضارع على ما جرى عليه استعمال البلغاء، وصيغة الماضى لا تعرج على هذا المعنى، فالتعبير بصيغة المضارع فى قوله تعالى: (ٱللهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ ٱلنَّاسِ) يدل على معنى زائد على أصل الاصطفاء الذى يدل عليه الماضى ويقف عنده، وذلك المعنى هو أن اصطفاء الرسل كان يتجدد ويقع مرة بعد أخرى، والقرينة الشاهدة بأن (يصطفى) مراد منه الاصطفاء الواقع قبل نزول هذه الآية هى آية (وخاتم النبيين) والأحاديث المستفيضة فى إغلاق باب الرسالة والنبوة.

فاستعمال المضارع موضع الماضى فى كلام البلغاء خارج عن حد الإحصاء، وآيات الكتاب يفسر بعضها بعضا، كما أن السنة تبين الكتاب. ويزعم غلام أحمد أنه رسول وأنه هو المراد من الحديث الوارد فى نزول ابن مريم حكما عدلا، وأخذ يمشى فى تأويل ألفاظ الحديث على عوج، على أنه حاول فى الخطبة الإلهامية صرف الناس عن العمل بالأحاديث النبوية، وحرّف كثيراً من آيات القرآن المجيد على زعم أنها نزلت لتخبر بظهوره، وتنوه بشأنه، منها قوله فى آية (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا) : « هذه بشارة بأنه سيكون فى هذه الأمة الاسلامية رجل فى درجة مريم الصديقة ثم ينفخ فيه روح عيسى فاذا مريم يخرج منه عيسى، أى أن الرجل ينتقل من صفاته المريمية إلى صفاته العيسوية، فكأنما كينونته المريمية أنتجت كينونته العيسوية، وبهذا المعنى يسمى ذلك الرجل ابن مريم » !

ولا نريد أن نكثر فى هـذه المجلة من ذلك اللغو والهزل ، إلا أن تدعو الحاجة الى زيادة الكشف عن فضائح هذه النحلة من بعد .

زعمه أن له آيات على صدقه :

قال غلام أحمد فى الخطبة الإلهامية : « وإن تعدوا دلائل صدق لا تحصوها » ولم نقف على شيء من هـذه الدلائل ، إلا ما يشابه براءته من قضايا القذف التى كانت تقام عليه ، أو نجاته من أذى العامة حيث يكون محاطا بالشُّرطى محروسا من الحكومة بقوة الحديد ، وأراد أن يجعل دليل صدقه رواج دعوته عنـد طائفة من الغافلين عن سبيل الحق ، فقال فى الخطبة الإلهامية : « ولو كان هذا الأمر والشأن من عند غير الله لمزق كل ممزق ، ولجمع علينا لعنة الأرض والسماء ، ولأفاز الله أعـدائى بكل ما يريدون » .

وقد لقى كثير من الدعاوى المزوَّرة مثلما لقيت دعوته أفرادا ضربت فى نفوسهم الجهالة ، فلا يقدرون مقام النبوة والرسالة ، ولا يفرقون بين من يدعيها حق ومن يدعيها وهو لا يرجو لله وقارا ، ولو كان رواج الآراء بين طائفة من البشر دليلا على أنها حق ، لكانت البهائية من المذاهب الرشيدة ، والقاديانيون يعدونها كما يعدها المسلمون نحلة غاوية ، وإن للباطل لصولة ، حتى إذا أخذ أهل العلم بيد الحق ، وأحكموا أساليب الدفاع عنه ، تضاءل الباطل ، فإما أن ينقطع أثره ، وإما أن يبقى شعار فئة كان لله فى إيثارها الظلام على النور حكمة بالغة .

يذكر غلام أحمد فى مؤلفاته المباهلة ، ويزعم أنها تجرى بينه وبين بعض المنكرين عليه ، فيكون الظفر له ، ولسوء حظه سلك هذه الطريقة مع الأستاذ أبى الوفاء ثناء الله ، فخسرت مباهلته ، وتركها آية تنادى بخذلانه ، ولكن بعض المكبين على الباطل فى صمم فهم لا يسمعون . ضاقت الأرض على غلام أحمد عند ما نهض الأستاذ ثناء الله

لإبطال نحلته ، ورمى دعاويه بالحجج الدامغة ، فكتب دعاء طويلا خاطب فيه الشيخ ثناء الله ، ومما قال فيه « إن كنتُ كما تزعم كذابا مفتريا ، هلكتُ فى حياتك ؛ وإن لم أكن كذابا ومفتريا ، وكنت مخاطبا بكلام الله ، وكنت مسيحا موعودا ، فأرجو أن لا تنجو من سنة الله فى المكذبين » وصدر هذا الدعاء فى أول يوم من ربيع الأول سنة ١٣٢٥ (١٥ ابريل سنة ١٩٠٧) وقد مات غلام أحمد بعد هذا الدعاء بنحو سنة ، أما الأستاذ ثناء الله ، فهو ما زال يتمتع بالسلامة لهذا العهد ، وما زال يعمل للذود عن الدين الحنيف ، والكشف عن فضائح تلك النحلة المزوّرة .

غروره وتفضيل لنفسه على بعض رسل الله الأكرمين :

ملك غلامَ أحمد الغرور والتعاظم ، فانهل يحشو لنفسه من الإطراء ما شاء ، ومما أورده فى كتاب الاستفتاء على أنه خطاب له من الله تعالى : « أنت منى بمنزلة توحيدى وتفريدى ، أنت منى بمنزلة عرشى ، أنت منى بمنزلة ولدى » وقال فى مقال له ورد فى كتاب « أحمد رسول العالم الموعود » : « فالواقع أن الله القدير قد أبلغنى أن مسيح السلالة الاسلامية أعظم من مسيح السلالة الموسوية » ويعنى بمسيح السلالة الاسلامية نفسه ، فغلام أحمد يزعم أنه أفضل من عيسى عليه السلام ، ومما ادعى أن الله خاطبه به « إنى خلقتك من جوهر عيسى وإنك وعيسى من جوهر واحد وكشىء واحد[1] » .

ووقع فى يدى كتاب لغلام أحمد نقله أحد أتباعه إلى العربية فوجدته قد تحدث فيه عن الوحى ، ثم ذكر مقاما « يشافه الله فيه العبد بالكلام وينطق فى باطنه ويتخذ من جنانه عرشه ، ويعطيه كل نعمة مما كان قد أعطاها الأولين » ثم قال : « إننى لأكون قد ظلمت بنى نوعى إن لم أعلن لهم فى هذه الساعة أننى على ذلك المقام الروحى الذى وصفته هذا الوصف ، وأن الله قد أعطانى من المكالمة المرتبة التى ذكرتها بالتفصيل » .

---

(١) حمامة البشرى له .

وذكر الشيخ ثناء الله جملا صدرت من غلام أحمد مأخوذة من كتبه ، وله مؤلفات بالأوردية والفارسية ، ومن هذه الجمل قوله : « اتركوا ذكر ابن مريم فإن غلام أحمد خير منه » ومنها قوله : « ما أعطاه الله لكل نبي واحدا واحدا أعطاه لي جميعا » ومنها قوله : « قال الله لي إن أمرك اذا أردت شيئا أن تقول له كن فيكون » ومؤلفاته مملوءة بمثل هذه الجمل الطاغية .

تكفيره لمن لا يؤمنون برسالته :

يجعل غلام أحمد المسلمين الذين لا يقبلون دعوته كفارا ، ويمثلهم فى كتبه باليهود ، ومما قال فى الخطبة الإلهامية « فإن نبينا المصطفى كان مثيل موسى ، وكانت سلسلة خلافة الاسلام كمثل سلسلة خلافة الكليم عليه من الله السلام ، فوجب من ضرورة هذه المقابلة والمماثلة أن يظهر فى آخر هذه السلسلة مسيح كسيح السلسلة الموسوية ، ويهود كاليهود الذين كفروا عيسى وكذبوه » وكرر هذا المعنى وهو تمثيل نفسه بعيسى عليه السلام ، وتمثيل المسلمين الذين ازدروا دعوته باليهود فى كتبه كثيراً .

وفى نشرتهم « شرائط الدخول فى الأحمدية » التصريح بأن المسلمين الذين يكذبون غلام أحمد أحط درجة من المنافقين ، ونص عبارتهم : « وكذلك لا يجوز لأحمدىّ أن يصلى على غير أحمدى ، فكأنه بفعله يشفع الى الله لمن أصر على مخالفة المسيح وإنكاره ومات عليه ، مع أن الله يمنع أن يصلّى على المنافقين ، فكيف على من كفر بأمور من الله » وقد يصف غلام أحمد المسلمين بأنهم أعداء لأهل مذهبه كما قال فى مقال [1] يخاطب فيه أتباعه : « فاذكروا دائما أن الحكومة الانكليزية هى رحمة وبركة لكم ، فهى الدرع التى تقيكم ، إن الانكليز خير ألف مرة من المسلمين الذين هم أعداؤكم » . .

ويرى « رسول آخر الزمان » غلام أحمد بُعده من المسلمين نعمة تستحق التشكر ، كتب الدكتور زكى كرام من برلين الى جريدة حضرموت بجاوة مقالا تحدث فيه عن

(١) ورد هذا المقال فى كتاب لهم يسمى « أحمد رسول العالم الموعود » .

القاديانية فى برلين ، ونشرته فى العدد الصادر يوم السبت ٨ المحرم سنة ١٣٥١ ومما قال فى هذ المقال : أنه زار هو والأمير شكيب أرسلان إمام الجامع لذى بنته هذه الطائفة ببرلين ، فأطلعهم الامام على كتاب لغلام أحمد نفسه ، فنقل منه الأمير جملا ، ومن هذه الجمل أنه أى غلام أحمد «يحمد الله حيث ولد تحت راية انكليزية و بعيدا من المسلمين» ! .

القاديانية فرقتان :

كانت القاديانية فى أيام غلام أحمد وأيام خليفته نور الدين مذهبا واحداً ، غير أنهم فى آخر حياة نور الدين ابتدأ شىء من الاختلاف يدب فيما بينهم ، وعند ما مات نور الدين نقسموا الى شعبتين : شعبة « قاديان » ورئيس هـذه الشعبة محمود بن غلام أحمد ، وشعبة « لاهور » وزعيمها محمد على مترجم القرآن الى اللغة الانكليزية ، أما شعبة قاديان فأساس عقيدتها أن غلام أحمد نبى مرسل ، وأما شعبة « لاهور » فظاهر مذهبها أنها لا تثبت النبوة لغلام أحمد ، ولـكن كتب غلام أحمد مملوءة بادعاء النبوة والرسالة ، فماذا يصنعون ؟

ولشعبة « لاهور » ضلالة يبثونها فى كتبهم هى إنكار أن يكون المسيح عليه السلام ولد من غير أب ، وزعيم هـذه الشعبة محمد على يصرح بأن عيسى عليه السلام ابن يوسف النجار ، ويحاول تحريف بعض الآيات لتوافق هذه العقيدة [1] .

ونشرت مجلتهم « المجلة الاسلامية » التى تصدر فى « ووكنج » بانكلترة مقالا للدكتور « مركوس » وفى هـذا المقال « أن محمداً عليه السلام يصرح بأن يوسف أبو عيسى عليه السلام » ولم يعلقوا على هذه الجملة كلة لأنها جاءت على وفق نحلتهم .

وكذلك كان محمد على فى ترجمته للقرآن يذهب مذهب الترجمة الحرفية ، ثم يضع فى أسفل الصحيفة حواشى يؤول فيها ما ترجمه حرفيا ، ويرتكب فى تأويلها وجوها

(١) انظر كتابه « عيسى ومحمد » ص ٧٦

يحذو بها حذو نحلتهم ، كما فعل فى قوله تعالى : (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ) فقد نحا فى تأويلها نحو منكرى المعجزات ، وتصرف فى معانيها تصرف من لا يدرى أن القرآن قد نزل بلسان عربى مبين .

وجوب مقاومتهم والتحذير من دعاتهم

للقاديانية حركة نشيطة فى الدعوة الى نحلتهم ، ولما كانوا يقيمون هذه النحلة على شىء من تعاليم الاسلام ، أمكنهم أن يدعو أنهم دعاة للاسلام ، ولا سيما شعبة لاهور التى تعلن أن غلام أحمد مصلح ومجدد لا نبى ، وقد أصبح الناس الذين لا يعرفون هذه النحلة يعتقدون أنهم دعاة للاسلام بحق، وربما أثنوا على سعيهم، وعاتبوا من يكتب فى تحذير المسلمين من أباطيلهم ، ولو اقتصرت هذه الطائفة على نشر دعوتها بين قوم غير مسلمين ، لخف علينا خطرها ، وآثرنا الاشتغال بمجاهدة غيرها من المضلين والملحدين ، ولكنهم طمعوا فى أخذ الشعوب التى تدرس القرآن والسنة وتستضىء بهدايتهما ، وراموا صرفها الى الاعتقاد برسالة غلام أحمد وما يتبعها من ضلالات ، فبعثوا بدعاتهم الى سورية وفلسطين ومصر وجدة والعراق وغيرها من البلاد الاسلامية ، وقد وجدت دعايتهم على ما فيها من سخف أحداثا فرّط أولياؤهم فى تربيتهم على أدب الدين ، فقبلوها غرورا .

يذكر القاديانيون أن لهم دعاة فى الصين ، والهند ، والعجم ، والعراق ، وجدّه ، وسوريا وفلسطين ومصر ، وقرأنا فى كتاب لهم مطبوع سنة ١٩٢٢ أن داعيتهم فى مصر الشيخ محمود أحمد فى شارع كذا ، وقد رأيتم علماء الهند كيف قاوموا هذه الفئة ، وما زالوا يقاومونها ، وممن وصلتنا آثارهم فى مقاومتها علماء سوريا ، فقد كتبوا الرسائل فى الرد عليها وإيقاظ المسلمين لما يبثونه من آراء تقوض بناء العقيدة ،

وآراء تربى نفوس النشء على الرضا بالاستكانة، والانقياد لكل يد تقبض على زمامهم انقياد الأعمى .

وها نحن أولاء قد كتبنا هذا المقال ليحذر مسلمو مصر وغيرها من الأقطار الاسلامية فتنة هذه الطائفة حذرهم من فتنة الطائفة البهائية ، ولنا الأمل فى علمائنا ووعاظنا أن يقعدوا لدعاة هاتين الطائفتين كل مرصد ، ويعالجوا كل قلب اعتل بشىء من وساوسهما (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) .

محمد الخضر حسين

الطرف والملح

قيل للأحنف بن قيس : إن المختار بن عبيد يزعم أنه يوحى إليه ، فقال : صدق ، وتلا : وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم .

* * *

وقدم الأحنف الكوفة فى أيام مصعب بن الزبير ، فرآه رجل أعور قصيرا دميما أحنف الرجلين ، فقال له : يا أبا بحر بأى شىء بلغت فى الناس ما أرى ؟ فوالله ما أنت بأشرف قومك ، ولا أجودهم : فقال : يا ابن أخى بخلاف ما أنت فيه : قال وما هو ؟ قال : تركى من أمرك ما لا يعنينى ، كما عناك من أمرى ما لا تتركه ! .



سورة النور

٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وهذا حكم من أحكام صيانة الأبضاع ، وحفظ الأنساب ، وحياطة أواصر الأسرة من أن تلعب بها الأهواء ، وإحكام الروابط من أن تعبث بها يد الفساد .

أجل : فالنظر رسول الشهوة ، وبريد الزنى ، ورائد الفجور ، ورب نظرة كانت بذرة لأخبث شجرة ، ورب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا .

ولله من يقول :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها فى أعين العين موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر ناظره ما ضر خاطره لا مرحبا بسرور جاء بالضرر

لقد طال الجدال ، وكثر المقال فى هذا الموضوع ، حتى أصبح الكلام فيه كالحديث المعاد ، بل لقد ظفر نصراء السفور وأعداء الحجاب بنتائج خطيرة فى سنوات قليلة ما كانوا يحلمون بها . ولا غرو فقد نبهوا يقظا من الأهواء ، واستثاروا متلهفا متشوفا من نفوس متعطشة للشهوات ، فسرعان ما لبت النداء ، وهبت تتسابق ركضا لإجابة ذلك الداعى الذى يدعوها الى ما طال اشتياقها اليه ، فما هو إلا أن اخترقت أول حجاب حتى هوت فى أعمق هاوية ، فلما أحست شدة الانحدار أخذت تصيح مستغيثة ولا مغيث ، وتصرخ متندمة ولات ساعة مندم .

لقد زين أولئك الدعاة أمر السفور بشتى الوسائل ، حتى أخذوا يتلمسون له أدلة من الدين الحنيف ، وما كان أمر الدين فى الحقيقة ليشغل من بالهم كثيرا أو قليلا ، ولكن ليهونوا على البسطاء ممن لا يزال للدين أثر قوى فى نفوسهم أمر الانحدار معهم فيما انحدروا فيه ، وهم مهما لوّنوا فى دعايتهم وأكثروا من حججهم فلن تعدو داوعيهم أمرين :

الأول : تمكن حب التقليد للأمم الغربية من نفوسهم ، ذلك الحب الذى شوه فى نظرهم قديم مجدهم ، وزين لهم السوء فى قبح غيرهم ، وهذا داعية أصحاب النية الحسنة .

والأمر الثانى : إجابة نزعات نفوس نزاعة للشهوات ، فهى تريد أن تخترق تلك الحجب حتى لا يعوقها عائق عن نيل رغائبها والوصول الى مشتهياتها ، وذلك شأن الغالبية الكبرى من تلك الطائفة المارقة .

ويالشديد الحسرة من تلك الصيحات والولولات التى انبعثت هذا لعام من شواطئ رمل الاسكندرية ، وبخاصة تلك المنطقة المسماة « ستانلى باى » فلقد انفرط العقد وتردت الأسر فى قرار الهاوية ، وليت شعرى هل لهذه الهاوية من قرار تقف عنده : إن أكبر الظن أن لا قرار لها ، وأنها كبئر لا نهاية له ، فكلما انحدر الواقع فيه الى حد تطالبته حدود بعده هى أعمق منه ، ومتى وصل أحد أولئك المستهترين فى الشهوات الى درجة ، أصبحت عادية ، وأصبح طعمها تافها ، فتطلعوا الى طعم حريف مستغرب يرضون به شهواتهم المتعطشة دائما ، ويحيون بها أذواقا أماتها تدلى الطعوم الحريفة ، ولذلك لا يفتر دعاة تلك الشئون عن ابتكار أبواب جديدة من الفجور تعجز عنها الأبالسة .

سمعنا تلك الصيحات المنبعثة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، وضجت الجرائد اليومية أعلى ضجيج ، حتى أقضت المضاجع ، وأزعجت من بأقاصى البلاد ، منذرة بالويل والثبور ، وانحلال كيان الأمة إذا بقى شىء من هذه المنكرات العلنية ، والفضائح التى لا يستحى منها أصحابها .

تطالعنا صيف هـذا العام الجرائد اليومية ، والأنباء الشفوية ، بأخبار فى تلك الجهات تسيل من الغيورين أحر العبرات ، وما يدريك فلعلها تسيل لعاب الأهواء والشهوات من المستعدين لها من فتيان وفتيات ، فيطم الكيل ويعم السيل : اللهم رفقا بالأمة ، اللهم لطفا بالعباد ، فإنك لطيف بعبادك ! .

لقد بدأت تلك الطائفة الطاغيـة على محاسن العادات ومكارم الأخلاق ومحاسن الدين ، بدأت حملتها بهنات هينات ، فحملت على براقع كانت ضعيفة ضئيلة ، فشوهت أمرها ، واتخذت من ضعفها سلاحا لإزالتها ، وبينت أن تلك البراقع لا تستر زينا ، ولا توارى شينا ، فتجب إزالتها ؛ ثم قالت : إن عزلة الجنسين أحدهما عن الآخر مضيعة لكليهما ، مزيل لتمام التساند بينهما المبنى على التعرف والتآلف ، مزيح لنصف العالم عن

أن ينتفع به مجموع العالم ، وهكذا دواليك من سموم مغشاة بأنسجة من حلوى ؛ وأخذوا يقارنون بين المرأة الشرقية والمرأة الغربية ، مجردين الأولى عن كل صفة كمال ، مفرغين على الثانية كل حلل المجد والفخار ، فعموا أو تعاموا عن المهام التي تقوم بها المرأة الشرقية من الأمور التي لابد منها للحياة الاجتماعية : من تدبير منزل ، وتربية أطفال ، وعكوف على إصلاح شئون داخلية لا تستغنى لأسرة عن معالجتها والسهر عليها ، ناظرين بعين واحدة إلى الأناقة والرشاقة والمناظر الجذابة التي تتحلى بها المرأة الغربية ، معروضة للأنظار ، متفننة في اصطياد العقول والألباب ؛ فلم يحسوا أن للكرامة والصيانة والعفاف وحفظ الأنساب من تطرق الشكوك والريب أقل نصيب من العناية ، ولا أتفه حظ من الاهتمام . ولقد ساعد على ذلك ما وقر في نفوس البشر قاطبة من تطلع المغلوب لمحاكاة الغالب ، وولع النفوس وبخاصة نفوس المترفين بالاستغراق في الملذات والمشتهيات فبحت أصوات المحذرين والمنذرين ، وتعرضوا للشتائم والتبكيت ، والرمى بالجمود ، ومعاوقة الإصلاح ، والوقوف في سبيل الترقى ، وهلم جرا ، حتى انتهى الأمر بهم أن يقول قائلهم : اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد : واليوم وقد تبينت العاقبة الوخيمة فصح أن يقول :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وما كان يروع إذ ذاك إلا زعم زاعميهم أنه لا حجاب في الاسلام ، فكأنما ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فلم يفقهوا ولم يسمعوا الآيات والنذر ، ولم يبصروا ذلك النور المتلألئ الذي بثه الله في سوره ، فلم يقرأ أحد منهم قوله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) الخ .

ولنبدأ ببيان الحكم الشرعى فى عورة الرجل والمرأة فى الصلاة وخارجها حسبما استنبطه الأئمة من الكتاب والسنة ، ومراعاة المعنى الذى من أجله شرع الله الحكم ليقاس عليه ما شاركه فى معناه ، ثم نعود الى تفسير الآية الكريمة ببيان ما فيها من دلالة وإرشاد ونور يضىء لمن كان له عينان يرى بهما ، أو قلب يفقه به ، والله ولى التوفيق :

أما عورة الرجل فى الصلاة التى يجب سترها متى قدر عليه وتبطل الصلاة بتركه فهى ما بين السرة والركبة ، ومثله فى ذلك الأمة . وأما عورة الحرة فما عدا وجهها وكفيها . ويرى مالك أن قدمى المرأة فى الصلاة ليستا بعورة . وأما خارج الصلاة فإما أن يكون الكشف مدعاة للفتنة مثيرا للشهوة فهو حرام ، والنظر اليه محرم كذلك لمن خشى الفتنة أو أثيرت بالنظر شهوته ، ما لم تكن النظرة الأولى التى تجىء عفوا بلا قصد فلا حرج فيها ؛ ولا فرق فى الحرمة حينئذ بين عورة المرأة مع الرجل أو مع المرأة ، وعورة الرجل مع المرأة أو مع الرجل .

وأما اذا أمنت الفتنة فالعورة أربعة أقسام ، لأنها إما عورة المرأة بالنسبة للرجل أو بالنسبة للمرأة ، وإما عورة الرجل بالنسبة للمرأة أو بالنسبة للرجل ، فأما عورة المرأة بالنسبة للرجل ، فلمرأة إما أن تكون أجنبية ، أو ذات رحم محرم ، أو محل استمتاع أى زوجة أو أمة ، فالأجنبية عورتها جميع بدنها إلا الوجه والكفين ، حيث أمنت الفتنة كما سبق ؛ ومع كون الوجه والكفين ليسا بعورة ، فإنه لا يجوز تكرار النظر إليهما اذا لم يتعلق بالنظر غرض صحيح ، كالمبايعة ، وتحمل الشهادة ، والخطبة ؛ فاذا تعلق بالنظر غرض من تلك الأغراض ، جاز النظر بقدر تحصيل ذلك الغرض ؛ واذا لم يكن غرض جازت النظرة الأولى ولم يجز التكرار ؛ ومع كون ما عدا الوجه والكفين عورة ، يجوز النظر اليه اذا دعت الضرورة ، كإنقاذها من غرق ، أو كنظر الطبيب للعلاج ؛ فإنه يجوز ويتقدر بقدر الضرورة .

هذا كله اذا كانت المرأة حرة ، فإن كانت أمة فعورتها ما بين السرة والركبة ، وقيل عورتها ما لا يبدو عند مزاولة الأعمال المنوطة بها كالساقين والساعدين ، أما البطن والظهر على هذا فهما عورة منها ، بخلافهما على القول الأول اذا كانا فوق السرة وما يسامتها .

وأما عورة المرأة مع الرجل المحرم فهى ما بين السرة والركبة ، وقيل ما لا يبدو عند المهنة ، وأما مع الزوج أو السيد الذى له حق الاستمتاع بأن كانت أمة مملوكة له وحده غير متزوجة ، فلا شىء من بدنها بعورة — إلا أنه يكره النظر الى الفرج ، بل يكره نظر المرء الى فرج نفسه .

وأما عورة الرجل مع المرأة ، فإن كان محرما فعورته ما بين السرة والركبة ، وإن كان زوجا أو سيداً له حق الاستمتاع ، فلا شىء من بدنه بعورة إلا كراهة النظر الى فرجه كما مر فى عورتها معه ؛ وإن كان أجنبيا فقيل عورته ما بين السرة والركبة ، وقيل ماعدا الوجه والكفين ، كعورته فى الصلاة — إلا أنه لا يجوز لها تكرار النظر اليه بدون حاجة ، لما قد ينشأ عنه من فتنة لم تكن فى حسابها . والفرق أن الرجال منوط بهم من الأعمال ما يشق معه الاحتجاب ، بخلاف ما يناط بالنساء .

أما عورة الرجل مع الرجل والمرأة مع المرأة ، فما بين السرة والركبة فى الأجانب والعورة المغلظة وهى الفرجان فى المحارم . وحيث قلنا : لا يجوز النظر ، فلا يجوز اللمس أيضا من باب أولى ، لأن الضرر فى الملامسة أشد منه فى النظر ، ولذلك حكموا بأن الإنزال بمجرد النظر لا يفطر الصائم ، بخلاف الإنزال بالملامسة فإنه يفطر ؛ وكذلك تحرم المضاجعة فى فراش واحد ، ولو بين رجلين أو امرأتين ، لقوله صلى الله عليه وسلم : «لا يفضى الرجل الى الرجل فى ثوب واحد ، ولا تفضى المرأة الى المرأة فى ثوب واحد» .

هذا وللحكم تفصيلات واختلافات بين الفقهاء محل استيفائها كتب الفقه ، وقد بسط الكلام فيها فضيلة الأستاذ الشيخ طه حبيب فى موضع آخر .

وبعد هذا نرجع الى تفسير الآية الكريمة :

قال تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ).

قد عرفت ما بين هذا الحكم والأحكام السابقة من سبب متين وصلة قوية ، فلا يزال الكلام فيما يكفل صون الأنساب وحفظ الأعراض ، وفى توسيع الحرم الذى يصون تلك الحُرم المقدسة عن أن تمتهن أو تقترب من الامتهان ، وكلما عظم خطر الشئ حسن توسيع حرمه وتقوية حماه . وقد شرحنا لك ما يترتب على النظر من عظيم الضرر .

وتوجيه الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه من باب هيمنة المربى على المربى ، فقد يفرط من المرء من ذلك بعض المنهيات وهو غافل ، فالهوى يقظان دائما ، والعقل قد تغفله الشهوات ، فكأن الأمر بحاجة الى هيمنة البعض على البعض ، وبخاصة متى كان للبعض حق الهيمنة العامة ، وذلك شأنه صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ؛ ويلحق به كل من له الإشراف ، بل المؤمنون فى مثل هذا بعضهم على بعض رقيب ، فذلك من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فهذا من الأساليب المقوية للتماسك بين جماعة المؤمنين ، وكأنها تجعل بعضهم فى كفالة بعض .

وتخصيص الحكم بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين ينتظر منهم الامتثال تدينا ، وللإشارة الى أن وصف الإيمان من حقه أن يحمل على اتباع هذا الهدى ، وليكون لقوله : « ذلك أزكى لهم » موقع المناسبة التامة ، وإلا فالكفار اذا وقع منهم هذا ، استوجب ذلك عقوبتهم فوق عقوبة الكفر ، على رأى من يقول إنهم مخاطبون بفروع الشريعة ، وإن كان لا يقبل منهم الامتثال المثاب عليه إلا بعد الإيمان .

وقوله : (يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) مجزوم فى جواب الأمر ، كأنه قيل لهم : غضوا يغضوا ، أى إن قلت لهم ذلك غضوا من أبصارهم ، كما تقول : علّمه يستفد ، وأكرمه

يتبعك . والغض : الكف ، ودخول «من» المشعرة بالتبعيض ، لأن غض البصر جملةً متعسر شاق ، فالمراد أن يكفوا من أبصارهم ما يتجاوز حد الإباحة ، لا أن يغضوا أعينهم تماما . وتقديم الأمر بغض البصر على المقصود بالذات من الأمر وهو حفظ الفرج ، من باب تقديم الوسيلة على المقصود ، وفيه فضل تقرير للأمر بحفظ الفرج ، فإنه حيث علم أنه قد أمر قبل حفظ الفرج بسد الطريق التى قد تفضى الى امتهانه ، علم أن له فضل عناية عند الآمر . وحفظ الفروج : أى عن أن تقع فى الفجور والمنكر . وقيل: المراد هنا سترها ، وأن هذا المعنى خاص بهذه الآية ، وأن كل ما ورد فى القرآن من الأمر بحفظ الفروج معناه حفظها من الزنى ، إلا هذه الآية فالمراد الستر ، ولكن الظاهر أن المراد فى الجميع واحد ، وهو حفظها من الوقوع فى منكر : من كشف ، أو لمس ، أو زنى ، أو ما ماثل ذلك ؛ وكأن تلك المنكرات متلفة لها ، فصونها عنها حفظ لها من التلف والفساد .

وقوله تعالى : (ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ) أى أوجب لطهارتهم من دنس الريبة ، أو أنفع لهم فى الدين والدنيا . والإتيان بصيغة أفعل قد يكون للمبالغة فى الطهارة أو النفع ، لا على معنى التفضيل على شىء آخر فيه ذلك ، بل على معنى أنه يوجب من الطهارة حظا وافرا .

وقوله جل شأنه : (إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ) من أحسن الاختتامات وأنسبها بهذا المقام ، فإن جولات الأبصار لا يحيط بها إلا من لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ؛ وقد يسارق الشخص النظر الى ناحية وهو متظاهر بالتوجه الى غيرها ، وكذلك أمر الفروج لا يخفى أن من يريد مخالفته يعمل كل جهده فى إخفاء ذلك عن جميع الناس ، فجاء قوله جل شأنه : (إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ) ليسد طرق الحيلة على من تحدثه نفسه أن يتحايل على إخفاء شناعته عنه ، بتفهيمه أن الله خبير بكل ما يصدر

منه وإن خفى يقال : إن رجلا راود امرأة فلما اقترب منها انتفضت ، فقال لها : مم تخافين ولا يرانا إلا الكواكب ؟ فقالت له : فأين مكوكبها ؟ : ففر منها . وحقا قال الله تعالى : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) .

وأما قوله تعالى : (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) فإنه أعيد الحكم مع المؤمنات مع أن أغلب الأحكام ترد فى شأن المؤمنين فتشمل المؤمنات تغليبا ، أو مقايسة ، لأمرين : (الأول) أن خطر الأمر فى هذا الموضوع بالنسبة الى النساء أشد ، فهن أصل البلاء فى هذا الباب . و (الثانى) أن الحكم يستدعى مزية تفصيل هو الآتى بعد ، وهو قوله : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) الخ .

والزينة المراد بها ما تتجمل به المرأة مما يتصل بجسمها أتم اتصال ، كالتكحل والاختضاب ، أو ما يلابسه ، كالحلى ، والثياب . وقال بعضهم : بل هو كل ما عاد عليها بالحسن والجمال حتى خلقتها ؛ وسواء أكان هذا أم ذاك فالزينة قاصرة على ما اتصل بجسمها ، فلا حرج فى الزينة أن ترى إذا لم تكن ملبوسة ، وإذا كانت متصلة بجسمها فالحرمة فى الحقيقة واردة على جسمها لا على نفس الزينة ، وإنما أوردها على الزينة للمبالغة فى صون محلها عن أن يرى ، فكأنه قيل : اذا كانت الزينة قد نهى عن إبدائها ، فكيف الحال فى المزدان بها ؟ أو هو من باب الكناية ، وهو الشأن فى المواضع المبنية على الستر ، فقد جرت العادة أن يكنى عنه لا أن يصرح به ، وكأن ذلك من باب ستره أيضا حتى عن السمع أن يطرقه ، فما بالك بالبصر أن يلمحه ؟

والمراد بما ظهر منها ما جرت العادة بكشفه لاقتضاء الضرورة ذلك ، وذلك هو الوجه والكفان ، لأنه لا غنى عن كشفهما غالبا ، ويلتحق بهما القدمان عند بعضهم .

وقيل المراد بها الثياب و الجلباب ، ويشهد له قوله تعالى : (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) فإن المراد ما يستتر به من الثياب .

وقد اختلف فى هل المراد نفس الزينة أو محلها ، ولكن لم يقل أحد إن الزينة المنفصلة عنها يحرم النظر إليها ، وإنما الكلام فى المتصلة كما سبق ، فمن قال: إن المراد المحل ، يكون المراد : ولا يبدين شيئا من جسمهن مما هو موقع للزينة . واختيار هذا الأسلوب فى التعبير للتنبيه على علة الحكم وهو لصون لما ينبغى أن يضن به . وأما من قال : المراد نفس الزينة ، فيقول : إن الأمر بسترها مبالغة فى الأمر بستر المواضع ، فإنه إذا أمر بستر ما يتصل بالشىء ، كان ذلك أبلغ فى الدلالة على الأمر بستر نفس الشىء وأيا ما كان فالذى يظهر عادة هو ما اتصل بالوجه أو باليد : من نحو كحل ، أو خاتم ، وخضاب ؛ والذى لا يظهر عادة ما اتصل بعضد أو ساق ، كدملج وخلخال .

وقوله تعالى : (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ) إرشاد الى كيفية إخفاء بعض المواقع التى كانت العادة جارية بظهورها ، فتخصيصها بالذكر مع دخول المستور بالخمر حينئذ فى قوله : ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، لاقتلاع تلك العادة التى كانت متفشية فيهم ، فكأن الآية تشير الى أن النحور والصدور وإن كانت مما اعتيد ظهوره عندكم ، ولكنهما ليسا مما تقضى الضرورة بكشفه كالوجه واليدين ، فلا يدخلان فى قوله : إلا ما ظهر منها .

والخُمُر : جمع خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها ، مأخوذ من الخمر بمعنى الستر ، وكان من عادتهن أن يضعن الخمر على رأسهن ويسدلنها على ظهورهن فتبقى نحورهن وصدورهن عارية . والجيوب : جمع جيب ، وهو فتح فى أعلى الثوب يبدو منه بعض الصدر . والضرب بالخمر على الجيوب معناه إلصاقها بهذه المحال وجعلها ملازمة لها كضرب الخيمة فى المكان .

قال تعالى : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ) الخ .

هذا إعادة للحكم ، زيادة فى تقريره بالتكرير وتربية العناية ، وتوطئة للاستثناء ، استثناء آخر ، وذلك أن المستثنى فى الأول كان من جنس المستور ، والمستثنى فى هذا من جنس

من يطلب الستر عنهم، فالمستثنى منه هنا محذوف، وفيما سبق مذكور، كأنه قيل هنا: ولا يبدين زينتهن لأحد إلا لبعولتهن. وقد بدأ بالبعولة أى الأزواج لأنهم أحق الطوائف ألا يستر عنهم شيء، ولأنه يباح لهم النظر لجميع البدن، والماسة كذلك، وإن كره بعضهم النظر الى الفرج فليس لأنه عورة فى حقه، بل لأن محسن الآداب تنبو عنه، والنفوس ينبغى أن تصان عن مثل هذا التغلغل فى الشهوات البهيمية، وقد قيل إن النظر إليه يورث الطمس، والعياذ بالله.

وقوله: (أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ) المراد به ما يشمل الأجداد، سواء أكانوا أجدادا لأب أم لأم. وقوله: (أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ) كذلك: المراد به ما يشمل الابن وابن الابن وابن البنت وإن نزلوا.

وقوله: (أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ) الإخوان والأخوات لا فرق فيهم بين الأشقاء، وأولاد العلات أى الإخوة لأب، وأولاد الأخياف، أى الإخوة لأم، وبنوهم وبنوهن يشمل الابن المباشر وابن الابن أو ابن البنت وإن نزل. ولعل فى مغايرة التعبير فى الأبناء تارة بلفظ الأبناء وتارة بلفظ بنى، أن لفظ الأبناء يقال فى الكثير للأشخاص الذين يتفقون فى صنف القرابة، ولفظ بنى يقال فيما هو أوسع من ذلك، فيقال مثلا: بنى تميم ولا يقال أبناء تميم، فلما كانت الإخوة والأخوات فيها من السعة ما ليس فى أبنائهن ولا فى أبناء بعولتهن لأن تعدد الإخوة والأخوات أكثر عادة من تعدد البعولة، عبر بالأبناء فى الأول، وببنى فى الثانى.

ولم يذكر فى الآية الأعمام والأخوال، وألحقهم أكثر الفقهاء بالمذكورين لأنهم محارم. وقيل: بل الأحوط إلحاقهم بالأجانب. وهذا الحكم كما يجرى فى محارم النسب يجرى فى محارم الرضاع، فلها أن تبدى زينتها لأبيها من الرضاع، أى زوج مرضعتها، وكذا ابنه، وأخوها من الرضاع، وهلم جرا.

وقوله تعالى : (أَوْ نِسَائِهِنَّ) المراد به النساء الحرائر المؤمنات ، فهن اللاتى يسمين نساءهن، أى المختصات بهن من النساء ، أما الإماء فسيأتى دخولهن فيما ملكت أيمانهن. وأما المرأة الكافرة فقيل : هى من المسلمة كالأجنبى ، وقيل : تنظر ما يبدو عند المهنة ، وقيل : بل هى معها كالمسلمة ، وعلى هذا يكون تخصيص النساء بهذه الإضافة ، كأنه لما أن الحل فى النظر أولا وبالذات إنما يصح أن يختص بالمؤمنات ، فإذا أبيح شىء من ذلك للذميات فمن باب رفع الحرج أو نحوه ، أو الإضافة ليست للتخصيص ، بل هى معممة ، وكأنه قيل : النساء اللاتى هن من جنسهن ، فلا حرج .

وقوله : (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) قيل إن ذلك خاص بالإماء ، فلا يحل للعبد أن يرى من سيدته ، وقيل بل لعبدها أن يرى منها ما يراه محرمها . واستدل أصحاب هذا القول بأن عائشة رضى الله عنها كانت تمتشط بحيث يراها عبدها ، وبأنه صلى الله عليه وسلم أهدى غلاما لفاطمة رضى الله عنها فأخذت تستتر فقال عليه السلام : ليس عليك من بأس إنما هو أبوك وغلامك . أى إنما الحاضر أو الناظر هما الاثنان ، ولا بأس عليك من رؤية أبيك ولا من رؤية غلامك . واحتج الآخرون بقوله عليه السلام : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث إلا مع ذى محرم . والعبد ليس بذى محرم منها أيضا ، فلك المرأة للعبد ليس كالك الرجل للأمة ، فلا يحلل ما كان محرما قبل الملك .

وقوله تعالى : (أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ) هم المسنون الضعفة الذين يتبعون الناس ليصيبوا من فضل طعامهم ، أو البله الذين لا يفهمون من أمور النساء شيئا ، أو الممسوحون الذين قطعت مذاكيرهم جميعها .

وقوله جل شأنه : (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ) فيه كلمة يظهروا ، إما بمعنى يفهموها ويعرفوا من أمرها ما يعرف الرجال ، من قولهم : ظهر على كذا أى اطلع عليه وعرفه ، وإما بمعنى يقدروا عليها ويصلوا الى درجة معالجتها

من قولهم : فلان ظهر على فلان أى تفوق عليه وقدر عليه ، ومعناه الذين لم يقدروا على الجماع ، فالمعنى الأول يقتصر على من لم يميز ، والثانى يشمل ما عدا المراهق المشتهى .

قال تعالى : (وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) ما أجمل إتباع هذا الحكم لما قبله ؛ فقد سد على المتصنعات طريق الحيلة ، وأبان لهن أن الله محيط بما يحاولن من التطلع لخرق هذا الحجاب الذى هو فى مصلحتهن ، وبه صونهن ، وعليه يتوقف أمر الرغبة فيهن ، والاتجاه الصحيح نحوهن ، وأنهن اذا تعجلن الوصول الى الرجال باختراق هذا السياج ، حرمن من غايتهن التى سعين لها ، وانقلب سعيهن وبالاً عليهن .

ولا يفوتنا أن نشير الى ما ابتليت به الأمة فى زماننا هذا من إعراض الرجال وبخاصة الشبيبة المتعلمة عن الزواج ، بل تحاميهم الوقوع فى هوته السحيقة ، مما ضج بالشكوى منه كل ذى أسرة .

وإن السبب فى هذه النكبة التى حلت بالأمة لا يعدو ما تدهور فيه النساء من ذلك التبرج الممقوت ، الذى جر الى ما لا تستبيح الأقلام أن تخوض فيه ، فكان أن ساءت ظنون الرجال بأغلب النساء ، وكان أن خف ميل الرجال إليهن ، وصدق عليهن قول الشاعر :

عرضنا أنفساً عزت علينا ... عليكم فاستخف بها الهوان
ولو أنا منعناها لعزت ... ولكن كل معروض يهان

قال جل شأنه : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

هذا أحسن ما يختم به مثل هذا الحكم الذى مهما بالغ المرء فى امتثاله فلا يكاد يسلم من مقارفة شىء منه ، ولو فى حال الذهول عن نفسه ، وداعى الهوى يقظان دائماً ، فقد يفرط من المرء فى غفلته ما يفرط ، فلا يتنبه إلا وقد سبق السيف العذل ، وهذا شأن النفس البشرية ، ولا سيما فى مثل هذا المقام ، فجاء الأمر بالتوبة للمؤمنين جميعاً تلافيا لما عساه أن يفرط ، وعقب بأن التوبة مما يرجى معه الفلاح الذى هو نهاية المقاصد ، وبالله التوفيق .

ابراهيم الجبالى

السُّنَّةُ

بسم الله الرحمن الرحيم

عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَهُمْ أَمَرَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ ، قالوا : إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَغْضَبُ حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا) رواه البخارى .

تقدم فى الأعداد الماضية شرح الحديث الجامع لأصول الدين : من عقيدة ، وأعمال ، وإتقان لها ، وذلك هو الإيمان والإسلام والإحسان ؛ وسبق فيه أن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ وقد بينّا هذه الحال وما تستدعيه من صاحبها من المواظبة على مراقبة الله عز وجل فى السر والعلن ، فإنه جل شأنه لا ينام ولا يغفل (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) وهو دائماً أقرب الى المرء من نفسه التى بين جنبيه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه قد أحاط العبد بقدرة مرهوبة ، ونعمة تتوالى عليه كل آن ، وتحيط به من كل نوحيه (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) فمن كان هذا شأنه لو أنفق العبد من قواه ما لا مزيد عليه ، واستغرق كل أوقاته فى شكره والتقرب اليه ، وانقطع اليه عن كل شأن من شئون حياته ، ما كان ذلك بكثير ، بل كان ذلك نعمة جديدة هى نعمة الشكر ، وهى أيضاً تستوجب الشكر ، ولله من قال :

اذا كان شكرى نعمة الله نعمة علىّ له فى طيها يجب الشكر
فكيف وفاء الشكر إلا بفضله وإن طالت الأسباب واتصل العمر

ومع هذا فقد اقتضى لطفه ورحمته ، وهو اللطيف بعباده ، الرءوف الرحيم ، أن يجعل عبادتهم له على قدر ما تطيقه قواهم ، ولا تنقطع بهم دونه الأسباب ، فكان صلى الله عليه وسلم اذ أمرهم بعمل — وهو لا يأمرهم إلا عن أمر ربه — أمرهم من الأعمال بما يطيقون المداومة عليه ، ولا يصل بهم الى الإرهاق والسآمة ، وكان هذا مظهرا من مظاهر استجابة دعاء المؤمنين الذى حكاه عز وجل عنهم فى خواتيم سورة البقرة بقوله جل شأنه : (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .

فمع كون درجة الإحسان التى أثنى عليها الحق فى غير مكان ، تستدعى أن يراعى المرء ما هو حق ومعلوم يقينا من رؤية لله إياه ، وتكون مراعاته له أقوى مراعاة ، بمنزلة الشهود و لرؤية الحسية ، وإن هذه الحالة من شأنها ألا تجعل للمرء مفرا عن دوام الطاعة وملازمة العبادة — مع هذا كله كانت الحكمة التشريعية سالكة السنن الذى يضمن الدوام ، وذلك هو سنن اليسر والسماحة ، وعدم الإرهاق والإعنات (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) .

قد كان الصحابة رضى الله عنهم ممتلئى القلوب بنور الإيمان ، متعطشى النفوس الى ما يضمن لهم رضا الرحمن ، يستسهلون كل صعب ، ويستحلون مر المذاق فى سبيل إحراز هذه المنزلة السامية ، منزلة أن يكونوا ممن يحبهم الله ويحبونه ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وكانوا ينظرون الى ما يفرط منهم من هفوات أو تقصير نظر الحذر الخائف ، يتعلق خوفه وحذره بأقدس مقصد وأعظم مطلوب ، فكانوا يريدون أن يعوضوا ذلك بالإيغال فى صنوف العبادات و لطاعات ، فمنهم من كان يريد أن يظل

دهره صائما ، ومنهم من كان يحاول أن يقوم الليل كله ، ومنهم ومنهم ، ولكن للنفوس حد فيما تطيق المداومة عليه ، وقليل دائم خير من كثير منقطع ، فليس أضر على النفوس السائرة من أن تسأم السير فتنقطع عنه ، فاقتضت حكمة العليم الحكيم أن يجعل أمر التكليف أمما ، وجاء (إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لا أَرْضاً قَطَعَ وَلا ظَهْراً أَبْقَى) ومعنى المنبت : الذى يكلف مطيته من السير ما لا تطيق ، فيضربها وهو فى وسط طريقه فيهلكها قبل الوصول الى مقصده ، فيخسر الظهر الذى يركبه ، ويضيع عليه الوصول الذى يطلبه .

فلما دفعهم الحرص على إحراز أعظم منزلة فى الزلفى الى الله ، وأحاط بهم الخوف من أن يحيق بهم جرم تقصيرهم وهفواتهم ، استأذنوه صلى الله عليه وسلم فى الزيادة على ما أمرهم به من صنوف الطاعات ، محتجين بأنهم عرضة للعقاب ، ولم يحوزوا تلك الفضيلة العظمى التى أنعم الله بها على نبيه ، وذلك غفران كل ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، حسبما ذكر الله فى كتابه الحكيم (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فكأنهم يرون أنه قد وصل الى حالة لا يخاف فيها على نفسه ، فقد ضمن الله له المغفرة فيما سبق وفيما يأتى ، فكان صلى الله عليه وسلم يغضب لذلك والغضب معنى يداخل النفس لحصول ما تكرهه ، وليس كل الغضب مذموما ، بل متى كان غضبا للحق لم يسرف صاحبه فى متابعة ثورانه فهو غضب محمود ، ومنه ما هنا ، وقد كان غضبه عليه السلام من عدم مسارعتهم للامتثال ، والوقوف عند الحد الذى حد لهم ممن هو أعلم بمصلحتهم منهم ، ومن توهمهم أنه عليه الصلاة والسلام قد اطمأن الى هذا الوعد الكريم اطمئنانا يؤثر فى تقواه وخشيته أمر ربه ؛ كيف ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؛ فأرشدهم عليه الصلاة والسلام الى أن شأنه من ربه أنه أتقاهم له ، وأحذرهم من بطشه ، وأنه أعلمهم بجلاله وعظمته ، وما يجب له ، وبحقوقه عليه ، وأن المغفرة الموعودة لا تخل بتقواه ، ولا تطغى على علمه بحقوق سيده ومولاه .

ومن هنا تعلم فساد تلك النزعات التي يأوى اليها بعض الملحدين الذين نزع الله من قلوبهم الايمان والاذعان لأحكام الشريعة الغراء، ممن يزعمون أنهم دخلوا فى التصوف وتصفية القلب الى حيث تنقطع عنهم التكاليف، تلك التكاليف التى ما كانت إلا لغاية توصيل قلب العبد الى ربه ليعرف له حقه، فمتى وصل المرء الى عرفان ربه حق معرفته فقد حصل المقصود من التكاليف، فلا حاجة للعبد بها.

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا: فلو أن قرب العبد من ربه يسقط عنه التكليف لكان أحق الناس بهذا المقام، المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالأعمال الصالحة ترقى بصاحبها الى الدرجات العلى، وما من كمال إلا وعند الله أكمل منه، وغاية أمر هؤلاء أنه خذلان زينه لهم الشيطان فغرقوا فى بحر العصيان، وهم يحسبون أنهم أوغلوا فى الايمان والاحسان.

وإن من عرف قدر الصحابة وما بشروا به من دخول الجنة، ورأى حرصهم هذا يستصغر ما يكون منه من طاعة، وكذلك من علم أن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أفضل خلق الله وأكرمهم عند الله، لا يزال هو الأتقى والأشد حذراً والأكثر عملا لما يقيه غضب ربه، يجب أن يحذر الغرور، وما غرور الانسان إلا من الشيطان.

وقوله: «أتقاكم» راجع الى معنى العمل «وأعلمكم» راجع الى صفة العلم.

وقبل أن نختم هذه الكلمة الوجيزة ننبه الى أن الحديث ورد بروايتين — الأولى: بتكرار لفظ أمرهم، والثانية: بالاتيان بها مرة واحدة، فعلى الرواية الأولى تكون «أمرهم» الثانية جواب إذا، ويكون لفظ قالوا مستأنفا، فالمعنى كان اذا أمرهم بأمر، أمرهم بالمقدار الذى يطيقونه، فلما رأوا ذلك قالوا الخ. وعلى الرواية الثانية يكون لفظ قالوا جواب اذا، أى أنهم كانوا اذا أمر بعمل يطيقونه، رأوا فى أنفسهم أنهم أحوج للمزيد فقالوا الخ.

هذه حالهم فهل نحن منها فى شىء؟ : اللهم إنا نسألك التوفيق لصالح العمل، والمعونة على عمل الخير، فإن الأمر منك وإليك، والخير كله بيديك: ؟ ابراهيم الجبالى

شبهة ملحد

ورد إدارة المجلة الخطاب الآتى :

حضرة صاحب العزة مدير مجلة نور الاسلام الغراء .

أرجو تبليغ تلك الشبهة لى صاحب الفضيلة الشيخ يوسف لدجوى ، ونشر ذلك المقال بأول عدد يصدر من مجلتكم نظرا للأهمية :

يا صاحب الفضيلة ! بينما أنا جالس فى المسجد قرب صلاة العصر أعظ الحاضرين وأذكّرهم بالكثير من أحكام الدين حسب قوتى ، إذ حضر رجل فى أثناء ذلك وقال : أيها الشاب ! فسّر قول الله : (يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ) فقلت له : يخرج الحى وهو الانسان ، من الميت وهى النطفة ، فقال : أربّك يكذب ؟ فقلت : حاش لله ، فقال : وما تعمل اذا ظهر كذب تفسير هذه الآية ؟ فقلت له : أنا رأيت ذلك التفسير فى كتاب الجلالين وغيره من كتب التفسير ، فقال : ليس هذا بكلام الله وإنما هو من افتراء نبيكم محمد ! فاقشعرت يا صاحب الفضيلة أجسامنا عند سماع تلك الكلمة وهذه الإهانة لنبينا فى أثناء وجودنا فى بيت من بيوت ربنا ، وتصبب العرق من وجوهنا عند سماع تلك الإهانة من رجل كنا نعتقده حسب ادعائه مسلما ، وعمدنا الى ضربه وأردنا إخراجه بالقوة من المسجد ، ولكن كان معه رجل آخر قال لنا انتظروا فسيفسر لكم أخى محمد تلك الآية تفسيرا متقنا ، وقال له : يا محمد قم وبيّن لهم هذه الآية فقال : إخوانى : من منكم يخدم الانسانية ويتبرع بإحضار نطفته ويأخذ مبلغ خمسين قرشا ، وأعطى ذلك المبلغ الى رجل ، وقام الأخير وغاب مدة وجيزة وحضر بالنطفة فوضعها محمد هذا فى كأس نظيف غسلناه بأيدينا وطهره بالكحول ، وأخرج من بين

ملابسه منظارا معظما ونظر النطفة فى الكأس ، ثم أخذنا المنظار ونظرنا فيه فوجدنا فى الكأس دودا يسبح فى النطفة ، فدهشنا أى دهش عند سماعنا من هذ الملحد عبارات التكذيب لقانوننا السماوى .

والحق أن الحظ ساعده لعدم وجود أمثالكم بالمسجد حتى يفسر له الآية تفسيرا يلائم أفكاره ، ولم يعثر على مناقش أثناء ذلك إلا من طالب فى ابتدائى بمعهد طنطا ، فتشكك الحاضرون فى المسجد ، وعهدوا الى أن أبلغ هذا الحادث الى أكبر عالم يجيد الإفتاء ، فوقع اختيارنا على فضيلتكم نظرا لما عرفتم به من أصالة الرأى وحسن الدراية والقيام بالواجب نحو الاسلام ، فأرجو أن تتفضل بالرد فى أول عدد يصدر من مجلة نور الاسلام . والاسلام يا صاحب الفضيلة يرجوك الرد حالا .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟ السيد محمد متولى حماده

بمعهد طنطا

الجواب

يحزننا كثيرا انتشار أولئك الملحدين الذين تزيوا بزى الاسلام وما هم منه فى قليل ولا كثير ، وأكبر ظنى أن هذا الغمر الوقح من المبشرين الذين افتنوا فى وسائل التبشير وإن لم يكن منهم فهو صنيعتهم يحزننا أن يعيثوا فى الأرض فسادا بلا زاجر من حياء ولا احترام للأمة التى يعيشون بين أظهرها ، ولا خوف من الحكومة التى دينها الإسلام . وإنى أعتب كل العتب على أولئك المسلمين الذين كانوا مجتمعين عند ما قال كلمته الشنعاء أمامهم ، محتقرا إياهم ، هازئا بدينهم ، مكذبا لنبيهم ، ولو كان للدين فى تلك النفوس الضعيفة الخوارة ما للوطنية أو الحزبية ، لكان منهم ما يقمع أمثال أولئك المارقين الذين أصبحوا يهاجمونهم فى مساجدهم طمعا فيهم واستهانة بهم ، مع أن القانون يحظر ذلك ويعاقب عليه لو أبلغوا ذلك لأولى الأمر ، ولكن ما تفعل القوانين اذا

فسدت النفوس ، وضعفت القلوب ، وقصرت العقول ، وتفككت عرا الوحدة الاسلامية ؛ ولعمر الله لقد ذهب أولئك الذين يحبهم الله ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وخلف من بعدهم خلف كغثاء السيل أعزة على المؤمنين أذلة على الكافرين ؛ ولندع هذا كله آسفين باكين :

وليـل طال بالأنكاد حتى ظننت الليل ليس له نهار
لما لا والتقى حلت عراه وبان على بنيه الانكسار
ليبك معى على الدين البواكى فقد أضحى مواطنه قفار

ولنشرع فى الجواب مستعينين بالله فنقول : إن هذا الملحد من أجهل الجاهلين فإن الحى لا بد أن يخرج من الميت بالبرهان العقلى ، لأن أول حى قد خرج من الميت لا محالة ، وإلا لم يكن أول حى ، وقد فرضناه أول حى (هذا خلف) . أو نقول : لو كان كل حى خارجا من حى للزم الدور أو التسلسل ، وهما محالان كما هو معروف ، وقد كان ذلك العالم الطبيعى الذى يقول : « إن الحياة فلتة من فلتات الطبيعة ، ولا بد أن يرد الحى الى أصله الميت » أعقل من هذا الأحمق ، فإنه لم يسهل عليه أن يقول بالتسلسل الى غير النهاية ، بل جعل لها أولاً هو ذلك الأصل الميت ، فلم يقل بالتسلسل غير المعقول ، وإن كان ما قاله أيضا فلتة من فلتات العلم .

ثم نقول : إن صح ما زعمه هذا الملحد فى الانسان (مع أنه غير صحيح فى الانسان الأول كما عرفت ، ولا فى الانسان المتولد من النطفة كما ستعرف) فماذا يصنع فى حبة القمح أو نواة النخلة ، والنخل أقرب أنواع النبات الى الحيوان ، بل كاد يصل الى أفقه ؟ فهل يقول : إن فيه شيئا حياً يرى بالمكرسكوب فيه خصائص الحياة ومميزاتها ؟ وإنى أخشى أن يقول كما قال بعضهم : إن الحبة أو النواة حية بالقوة ، فليعلم هو وأمثاله

أن معنى الحياة بالقوة هو الاستعداد للحياة ، وأن الحى بالقوة ميت بالفعل كما قرره العلماء ، وأن الاستعداد للشيء والإعداد له ينتهيان بوجود ذلك الشيء ، فهذا طور وذاك طور آخر ، ومن الذى تشتبه عليه الوسيلة بالغاية والمقدمة بالنتيجة ؟ فهذا ما يقرره العلم ويقتضيه العقل ، فلا بقاء للوسيلة مع الغاية ، ولا وجود للغاية مع الوسيلة ، فإن قال : إن النواة مستعدة للحياة التى ستحلها وتخرج منها شجرة حية وثمرة شهية ، كان ذلك صحيحا ، وليست تحل الحياة إلا فيما هو مهيأ لها ومستعد لظهور آثارها ؛ وإن قال : إن النواة حية أو فيها شيء حى بالفعل ، كان ذلك جهلا وكذبا .

ثم نقول بعد ذلك : إن ما زعمه من أن الانسان هومن الحيوان المَنوى الحى الذى يرى فى منى الرجل — باطل من وجوه عديدة :

أولا — أن ذلك الحيوان الذى اغتر به لا بد أن يرجع الى أصل ميت ، وإلا لزم الدور أو التسلسل كما قلنا .

ثانيا — أن هذا الحيوان لا بد أن يموت قبل خلق الانسان ، فالانسان إذاً ما خرج إلا من ميت ، وذلك أنهم صرحوا بأن التلقيح إنما يكون برأس الحيوان فقط ، وهو لا يبقى حياً عند انفصال رأسه ، فسُنّة الحيوان جارية فيه ، فمتى انفصل رأسه مات ، وقد حصل المقصود من حياته وحركته وهو الوصول الى البييضة التى يلقحها ذلك الرأس عند وصوله اليها .

ثالثا — أنه يمتزج بهذه البييضة امتزاجا يجعلهما شيئا واحدا ، فلا معنى لبقائه حياً تلك الحياة الحيوانية مع هذا الامتزاج والاتحاد .

رابعا — أن هذه البييضة قد يتولد منها جنينان أو أكثر ، والمرأة لا تفرز إلا بيضة واحدة فى كل شهر ، والمعروف أن التلقيح إنما يكون بحيوان واحد ، وقد صرح بذلك بعض الاختصاصيين ، فكيف يكون الحيوان حيا باقيا على حالته المرئية

التى شبه بها الملحد على الناس ، ثم يتولد منه جنينان أو أكثر؟ ! وكأن ذلك الجاهل يظن أن هذا الحيوان المنوى قد كبر ونما حتى صار إنسانا ، وما أجهل من يظن ذلك وما أغباه !

خامسا — على أن الانسان لم يخلق من هذا الحيوان فقط ، بل خلق من أشياء كثيرة ، وتغذى بأشياء كثيرة يعسر تبيينها على الحقيقة ، وقد قال بعضهم : إن علم الأجنة لا يزال جنينا حتى الآن ، ولا يزال سبب انقطاع الحيض زمن الحمل مجهولا ، وإن كانوا يتكلمون فى غايته لا فى سببه ، ولذلك ترى كثيرا منهم يعدون الثديين من أعضاء التناسل ، ويقولون : اذا قطع ثديا المرأة لم تلد ، ولا يستطيعون أن يعللوا ذلك تعليلا شافيا ، الى غير ذلك مما لا يمكننا شرحه ولا الإفاضة فيه ، فليرجع الى الاختصاصيين المبرزين فى هذا . فإن اعتبر الاستعداد للحياة والتهيؤ لها حياة ، كان الخلاف بيننا وبينه لفظيا ، وكذلك النمو والانقسام ، فإننا لا نعتبر الحياة إلا بالحس والحركة ، ولا فرق عندنا بين كلمة حى وكلمة حيوان ، والحيوان هو الجسم النامى الحساس المتحرك بالإرادة ، فإن اعتبر الحياة أوسع من ذلك كان اصطلاحا ، ولا مشاحة فى الاصطلاح ، فيكون الخلف بيننا وبينه فى العبارة لا غير .

وإن شئت قلت : إنها حياة تشبه حياة النبات ، ونحن نريد الحياة الحيوانية لا النباتية ، ولو أخرج الله من الشجرة إنسانا لقلنا : إنه أخرج الحى من الميت ، وليس يقلّ ما بين الانسان والشجر من الفرق عما بين الشجر والحجر من الفرق ، وقد رأينا المعادن تتربى وتنمو فى بطن الأرض ولها مدد مختلفة فى نموها وتربيتها ، فالملح والشب والكبريت لا تحتاج إلا لمدة سنة أو أقل ، والحديد والرصاص والفضة تحتاج الى مدة طويلة ، والعقيق والياقوت يحتاجان الى مدة أطول من ذلك كله ، مع أنها لا تعتبر أحياء بذلك النمو ، فإن قالوا : إن هذه حياة ، كانت تسمية اصطلاحية ، وكلامنا معهم فى معان لا فى ألفاظ .

وبعد فالأمر وضح لا مرية فيه ، ولكنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون ، اللهم فانصر دينك ، وقوّ حزبك ، واكبت أعداءك الضالين المضلين ، فإنك على ذلك قدير ! اللهم إنا نعلم أن ذلك لا يضرك شيئا ، ولكن نسألك أن تخذلهم بقوتك القاهرة رحمة بنا يا أرحم الراحمين :

الخلاصة :

(١) والخلاصة أن لك أن تقول : إن المراد الحى الأول ، والحى الأول خارج من الميت لا محالة ، ولا بد أن تنتهى سلسلة الأحياء ، وإلا لزم الدور أو التسلسل .

(٢) ولك أن تقول : إذا شاهدنا الحيوان المنوى فى امنى فإننا لم نشاهد شيئاً حياً فى النواة مع خروج النخلة منها ، وهم يعترفون بحياتها لا محالة ، فقد خرج الحى من الميت لا محالة .

(٣) ولك أن تقول : إن المراد فى الآية الانسان المتولد من النطفة ، وما تخلق الانسان من ذلك الحيوان المنوى إلا بعد انفصال رأسه وامتزاجه بالبييضة ، فهو إذ ذاك ليس حياً ، فما خرج الانسان إلا من شىء ميت .

(٤) ولك أن تقول : إن الانسان قد تخلق من أشياء كثيرة من الأب والأم بل غالب تغذيته وتكونه من الأم بواسطة أشياء عديدة ، ومنها دم الحيض ، وهذه الأشياء التى تكوّن منها ليست حيونات بالضرورة ، فاذاً يكون قد خرج الحى من الميت ، فإن هذه أشياء ميتة لا محالة .

(٥) لو تنزلنا غاية التنزل وقلنا : إنه خلق من ذلك الحيوان ، وإن الحيوان لم يمت وإنه ليس هناك أشياء ميتة أخرى يخلق منها الانسان ، لو قلنا ذلك كله وافترضنا صحته مع أنه غير صحيح ، لكان ذلك الحيوان نفسه خارجا من الميت لا محالة ، فإنه متخلق من الأغذية الميتة لا محالة ، أو راجع الى أصل ميت لا محالة .

ولنقتصر على هذا ، وقد فرغنا من الايمان بصدق لرسول وعصمته التى قامت عليها الآيات البينات والبراهين الواضحات (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) .

وطالما سمعنا أمثال هـذه الترهات والتمويهات ، فلما عرضناها على محك النظر الصحيح وجدناها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا . وكثير من الناس عندنا لم يأخذوا من العلم إلا قشوره ، ولا من الأشياء إلا ظواهرها ، بلا بحث ولا تمحيص ، فهم يتبعون كل ناعق ، ويسيرون وراء كل داع ، ولو دعا الى خيال أو خبال ؛ ولست فى اضطرار بعد ما سمعت ذلك كله الى أن نقول ما يقول بعض المجددين : إن المراد بالحى : العالم ، أو الميت : الجاهل ، الى أمثال تلك التأويلات التى هى شعبة من شعب المادية .

وبهذه المناسبة نقول لمن يريد من المجلة أن تترك خطتها فتؤول ما ورد فى الكتاب والسنة من النصوص الصريحة لأقل هيعة تسمعها من مخرف فى الغرب أو الشرق : لا سبيل الى هذا ، والمجلة لا تنفك تصدع بالحق حتى يرجع الناس الى دينهم الصحيح الذى بدّله هؤلاء المتشدقون اتباعا لأهوائهم ، ومن اتبع هواه ضل عن سبيل الله وكل ميسر لما خلق له .

وما أنشئت المجلة إلا لمحاربة هؤلاء وأمثالهم ، فكيف نوافق آراءهم أو نتابع أهواءهم ، وفى الحديث « لا تقوم الساعة حتى يتكلم الرويبضة [1] » وقد وطّنّا أنفسنا على ذلك عالمين به من يوم إنشاء المجلة ، ومحال أن يجتمع الضدان ، أو يتفق النقيضان ، فليكتب الجاهل ما شاء ، أو فليمدد بسبب الى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ؟ ! وأكبر ظنى أن هؤلاء لا يؤمنون بحياة الأنبياء ولا بما ورد

(١) الرويبضة : الرجل التافه الحقير يتكلم فى أمر العامة .

فى عالم البرزخ، وإلا لم يكونوا عصريين ولا مجددين، فإن التجديد عندهم هو رد ما جاء فى الشريعة الى ما تعرفه العلوم الطبيعية، ولكنهم يخافون من الإنكار الصريح فيدورون هذا الدوران.

وإنى أستحقهم بشرفهم الذى زعموه لأنفسهم، وحريتهم التى يتبجحون بها أن يصارحونا القول فيما يعتقدون من حقائق ما ورد فى عالم البرزخ وعالم الآخرة حتى نشهد لهم بالشجاعة والصراحة، وإلا فلا يغشوا الناس ولا يلبسوا عليهم بهذه الشقاشق الباطلة وذلك العلم المزيف (إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالازهر

الطرف والملح

قال أبو زيد: دخلنا على أبى الدُّقَيش وهو شاك فقلنا له: كيف تجدك؟ قال: أجدنى أجد ما لا أشتهى، وأشتهى ما لا أجد، ولقد أصبحت فى شر زمان وشر أناس: من جاد لم يجِد، ومن وجد لم يجُد!

***

وقال بعض الأجواد: إنا لنجد كما تجد البخلاء، ولكننا نصبر ولا يصبرون.

الفتاوى والأحكام

ورد من حضرة صاحب التوقيع الأسئلة الآتية :

(١) هل يجوز شرب الخمر على سبيل التداوى أو لا ؟ وهل الصرف منه والمخلوط سواء أو لا ؟

(٢) هل (السبرتو) نجس أو طاهر ؟ وإذا كان الأول فهل يعفى عنه لكثرة الحاجة الداعية الى استعماله ، ولأنه مما يشق الاحتراز عنه ؟ وما حكم الكولونيا والروائح العطرية الأفرنكية استعمان على صنعها (بالسبرتو) هل متنجسة أو طاهرة ؟ وإذا كان الأول فهل يعفى عنها أو لا ؟

(٣) ما حكم النظر الى المرأة الأجنبية بواسطة المرآة ؟

(٤) ما حكم قراءة القرآن والأذكار أمام الجنائز وخلفها ؟ وما الذى كان عليه العمل فى تشييع الجنائز فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى عهد الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين ؟ وهل ذلك جائز أو لا ؟

(٥) هل يجوز بيع وشراء الصور المصنوعة من الحلوى فى أيام المولد النبوى الشريف أو لا ؟

(٦) هل أطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على الغيب ؟ وهل كان صلى الله عليه وسلم يعلم الخمس المذكورات فى قوله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ) الآية ؟ .

(٧) اعتاد بعض أهل الطريق الذكر بلفظ « أه » ويسمونه اسم الصدر ، فهل هذا اسم من أسمائه تعالى أو لا ؟ وما حكم الذكر بهذا اللفظ ؟ وهل أسماؤه تعالى توقيفية أو لا ؟ .

(٨) هل فيه تفاضل بين آيات القرآن وسوره أو لا ؟ واذا كان فيه تفاضل فما حكمته ؟

(٩) يتضمن الاستعلام عن اجتماع الناس ليلة النصف من شعبان فى المساجد والمنازل ، وعن حكم تلاوة الدعاء فى تلك الليلة ، وهل ثبت نسبة الدعاء الى عبد الله ابن مسعود أو لغيره من الصحابة ، وهل المراد بأم الكتاب علم الله القديم أو اللوح المحفوظ ، وعلى كل فهل يتعلق بهما أو بأحدهما المحو والإثبات من حيث السعادة والشقاوة وزيادة الرزق والعمر أو لا ، واذا كان الجواب بالإيجاب فكيف التوفيق بين ذلك والأحاديث الواردة فى الصحيحين بأنه لا محو ولا إثبات ، واذا كان بالسلب فكيف التوفيق بين ذلك وما أورده السيوطى عند قوله : (يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ) ؟ .

(١٠) هل الحقن داخل الجلد وفى عرق الشريان تفطر الصائم أم لا ؟ .

محمد أحمد عمارة
تلا — منوفية

الجواب عن السؤال الأول

الخمر : العصير من ماء العنب اذا غلى واشتد وقذف بالزبد . وهى حرام لعينها ، قليلها وكثيرها سواء فى الحرمة ، وهى نجسة نجاسة مغلظة يحد شاربها ويكفر مستحلها ، ويحرم الانتفاع بها على أى صفة كان الانتفاع ، ولا يجوز شربها إلا لمن ظمئ ظمأ شديدا وخاف الهلاك من هذا الظمأ ولم يجد ما يزيله به غير الخمر ، ومثله من غص ولم يجد

ما يزيل الغصة إلا الخمر ، فني هذه الحالة يجوز أن يتناول منها بقدر ما يزيل عنه الهلاك لأن ذلك ضرورة ، حتى لو زاد على ما تندفع به الضرورة كان ذلك غير سائغ .

ولو خلطها بالماء ، فإن كان الماء مساويا أو أقل ، حد بالشرب ، وإن غلب الماء لا يحد إلا ذا سكر ، ومن هـذا يعم أن الصرف منها والمخلوط سـواء فى التحريم . ولا يجوز التداوى بها على المعتمد من مذهب الحنفية ، ويرى بعضهم جواز التداوى اذا أخبره طبيب مسـلم أن شفاءه فيه ولم يجد من المباح ما يقوم مقامه . وقد علمت المعتمد .

والفرق بين حالة الاضطرار وحالة التداوى حيث سوغوا فى الأولى دون الثانية أنه فى حالة الظمأ المتلف للنفس والمهلك لها يكون نفع الشرب محققا ، ولذا يأثم بتركه لأنه إهلاك للنفس . وأما حال التداوى فحالة ظن لا قطع فيها . ومذهب المالكية والحنابلة يوافق مذهب الحنفية ، وقد أفتى الامام الحافظ ابن تيميه حين سئل عن جواز التداوى بالخمر بما نصه : وأما التداوى بالخمر فإنه حرام عند جماهير الأئمة ، كمالك وأحمد وأبى حنيفة ، وهو أحد الوجهين فى مذهب الشافعى ، وانه قد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه سئل عن الخمر تصنع للدواء فقال : إنها داء وليست بدواء . وفى سنن أبى داود عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه نهى عن الدواء الخبيث (والخمر أم الخبائث) وذكر البخارى وغيره عن ابن مسعود أنه قال : « إن الله لم يجعل شفاء أمتى فيما حرم عليها » والذين جوزوا التداوى بالمحرم قاسوا ذلك على إباحة المحرمات كالميتة والدم للمضطر . وهذا ضعيف لوجوه ، منها أن المضطر يحصل مقصوده يقينا بتناول المحرمات ، فانه اذا أكلها سدت رمقه وأزالت ضرورته ، وأما الخبائث بل وغيرها فلا يتيقن حصول الشفاء بها ، فما أكثر من يتداوى ولا يشفى . الى آخر ما قاله .

وتتميما للبحث نقول : إن نجاسة الخمر اتفق عليها الأئمة الأربعة رحمهم الله ، ولم يخالف فيها إلا بعض المحـدثين وبعض الفقهاء والظاهرية وشيخهم داود . وقد ذهب

الشوكانى من المتأخرين الى القول بطهارتها ، كما ذهب الى ذلك صديق حسن خان فى كتاب « الروضة البهية » ذاهبا الى أن الأصل الطهارة فلا ينقل عنها إلا ناقل صحيح . الى آخر مقالته . وقد انبرى للرد على القائل بعدم النجاسة العلامة المرحوم السيد أحمد بك الحسينى فى رسالته « إعلام الباحث بقبح أم الخبائث » ولولا خشية الإطالة لنقلنا ما ذكره .

وأما باقى الخمور الأخرى وهى المتخذة من غير العنب كالشعير والتين والعسل ، فالمذهب المفتى به عند الحنفية ، وعليه الأئمة الثلاثة — أن قليلها وكثيرها حرام ، وأنها نجسة .

ومن هذا يتبين حكم استعمال (السبرتو) ، وقد رأى بعضهم أنه قاتل لا مسكر ، فيكون كبقية السموم : غير نجس . والله أعلم .

الجواب عن السؤال الثالث

لا يجوز للرجل أن ينظر من المرأة الحرة الأجنبية إلا وجهها وكفيها ، وهذان لا يجوز النظر اليهما بشهوة ، فمن نظر اليهما كذلك كان آثما . أما النظر الى المرأة الأجنبية بواسطة المرآة ، فالذى يؤخذ من كلام الفقهاء عند الكلام على حرمة المصاهرة أنهم فصلوا بين ما إذا كان المرئى فى المرآة هو مثال الأصل وهو ما يعبر عنه بالانطباع ، وبين ما اذا كان المرئى هو الأصل ، ففرعوا على الأول أن النظر الى موضع العفة فى المرآة لا يثبت حرمة المصاهرة .

قال الكمال رحمه الله ما خلاصته : كأن العلة — والله أعلم — أن المرئى فى المرآة مثال لا أصل ، وهذا ينفى كون الإبصار من المرآة بواسطة انعكاس الأشعة ، وإلا لرأى الأصل ؛ بل الإبصار بانطباع مثل الصورة ، بخلاف المرئى فى الماء ، فإن البصر ينفذ فيه اذا كان صافيا ، فيرى نفس ما فيه ، وإن كان لا يراه على الوجه الذى هو

عليه . ويتفرع على الرأى الثانى وهو أن المنظور هو الأصل عكس الحكم السابق بناء على أن الرؤية تكون بواسطة الشعاع الخارج من الحدقة الواقع على سطح الصقيل ، وأنه ينعكس من سطح الصقيل الى المرئى ، فيكون المرئى حينئذ هو الأصل لا المثال . وعلى هذا الأساس إن قلنا بأن المرئى فى المرآة هو الأصل ، كان حكم النظر الى المرأة الأجنبية من المرآة هو حكم النظر المباشر من غير مرآة ، وقد عمته ، واذا كان المرئى هو المثال لا الأصل يكون النظر والحال هذه ليس للمرأة بل للمثال والصورة .

والذى تسكن اليه النفس ويطمئن له القلب هو أن النظر الى المرأة الأجنبية إنما كان محرما بسبب أنه داع وذريعة الى الوقوع فيما هو أشد منه حرمة ، وهو الوقوع فى المعصية الكبرى . وعليه فالنظر الى المرأة الأجنبية المعينة بواسطة المرآة بقصد الشهوة غير جائز ، لأنه ذريعة الى محرم ، وكل ما كان كذلك فهو حرام ، سواء أكان ذلك مباشرة أو بواسطة المرآة .

الجواب عن السؤال الرابع

كان العمل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى تشييع الجنائز أنه عليه الصلاة والسلام يحمد الله ويسترجع ، وكان من هديه تغميض عينى الميت ، وتغطية وجهه وبدنه والإسراع بتجهيزه الى الله ، فيغسل ويكفن فى الثياب البيض . ومن هديه ترك المغالاة فى الكفن ، وكان يصلى على الميت خارج المسجد إلا لعذر ، واذا أخذ فى الصلاة عليه كبر وحمد الله وأثنى عليه ودعا للميت . ومما حفظ من دعائه للميت : « اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه ووسع مدخله وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار » وكان يصلى على الطفل ويقول : « صلوا على أطفالكم فإنهم من أفراطكم » .

وكان اذا صلى على ميت تبعه الى القبر ماشيا أمامه ، وسن لمن تبعها إن كان راكبا أن يكون وراءها ، وإن كان ماشيا أن يكون قريبا منها ، وكان يأمر بالإسراع بها ، واذا

تبعها لم يجلس حتى توضع على الأرض ، وأمر بذلك ، وكان إذا وضع الميت فى القبر قال : « بسم الله وعلى ملة رسول الله » فاذا فرغ من دفنه قام هو وأصحابه وسألوا له التثبيت ، وكان يعزى أهل الميت ، ولم يجتمع لقراءة قرآن لا عند القبر ولا غيره ، وأمر الناس أن يصنعوا لأهل الميت طعاما يرسلونه اليهم ، ونهى عن النعى ، وقال : هو من عمل الجاهلية .

هذا ما كان عليه هدى الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده رضوان الله عليهم . أما ما نراه اليوم فى تشييع الجنائز : من اتخاذ من ينشد أمامه ، أو من يقرأ قصيدة البردة أو الثمانية ، أو يصيح بالذكر ، وما الى ذلك مما نراه من اتخاذ بعضهم بيارق ورايات ، فلا أصل له فى الدين ، ولا هو جائز شرعا ، بل هو بدعة غير حسنة تنافى الخشوع الذى ورد أنه مطلوب ، وتنافى العظة والاعتبار بالموت . أما ما يفعله فوق هذا جهلة الناس : من إحضار موسيقى تعزف ، والسير بالإبل أو البقر والجاموس ، والتفنن فى تزيين جنازة الميت وهى الخشبة ، فكلها أمور منكرة يجب على كل مسلم العمل على منعها ، حتى لا تفشو البدع ، ويكون المسلمون سخرية تضحك عليهم الأجانب ، وقد ورد « إن الله يحب الصمت عند الجنازة » .

الجواب عن السؤال الخامس

نص علماء الحنفية على أن اقتناء صورة ذى الروح الكبيرة التى تبدو للناظر بدون تأمل ، وهى كاملة الأعضاء التى لا تعيش بدونها . مكروه تحريما ، فيجب إزالتها شرعا . ومن هذا يعلم أن بيع وشراء الصور التى تباع فى الموالد بقصد إدخال السرور على الأولاد ، لا مانع منه شرعا ، لأن هذه الصور وإن بدا بعضها للناظر بدون تأمل ، إلا أنها ليست كاملة الأعضاء ، لأن أغلبها مثقوب ثقبا لا يعيش معه ، ولأن مثل هذه الصور لا تعبد ولا تعظم ، ولأن القصد منها إدخال السرور على الصبية ، وهو أمر سائغ ، والله أعلم .

الجواب عن السؤال السادس

اعلم أن مما يجب اعتقاده على المسلم أن الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة يعلم كل شيء: من عظيم ومقابله، ودقيق وجليل، وصغير وكبير، جزئي وكلي، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السموات، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأن علمه سبحانه بالأشياء كلها علم إحاطة وشمول، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وأن أحدا من خلق الله لا يعلم شيئاً من الغيب إلا أن يعلمه الله تعالى به ويطلعه عليه، قال تعالى: (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ) وقال تعالى: (عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ).

ومما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى أطلع أصفياءه وأولهم رسله على بعض الغيب، وأطلع حضرة المصطفى صلى الله عليه وسلم على ما لم يطلع عليه غيره من الغيب. ولقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الغيب فكان كما قال صلى الله عليه وسلم.

اذا تقرر هذا فاعلم أن من جملة الغيب الأمور الخمسة المبينة في قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ) الآية، وهذه الخمس قد ورد في الآية الكريمة ما يفيد استئثار الله بعلم بعضها، قال تعالى. (يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) أي خفيت على أهل السموات والأرض، وقال تعالى: (إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا) وقال تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) وتدل الأحاديث على استئثار علم الله تعالى بهذه الخمس، فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: متى الساعة، فقال للسائل: ما المسئول عنها

بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها : اذا ولدت الأمة ربها ، واذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله تعالى ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ) الآية . ووردت أحاديث كثيرة تدل على مثل ما دل عليه هذا الحديث من استئثار الله سبحانه وتعالى بعلم هذه الخمس .

غير أنه قد ورد ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم علم شيئاً من الخمس ، وهو وقت قيام الساعة ، كما يدل عليه ظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : « بعثت أنا والساعة كهاتين » لأن هذا ظاهر فى أنه صلى الله عليه وسلم علم وقت قيامها . وقد نوقش هذا القائل فى استدلاله بأن الحديث إنما يدل على علمه صلى الله عليه وسلم بقرب الساعة ، وفرق بين معرفة أن الشيء يكون قريبا ومعرفة وقته على التحديد . وقد قال بعض المحدثين : إنه لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تحديد وقت الساعة نص أصلا . على أن من لاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد اصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سائر الخلق ، وأطلعه على ما لم يطلع عليه غيره من باقى الأنبياء ، لا يعتوره شك فى إمكان أن الله يطلع رسوله عليه الصلاة والسلام على بعض الخمس أو كلها إجمالا ، ووقوع هذا الممكن على هذا الوجه لا ينافى ما تقدم من دلالة الأحاديث على أن الله استأثر بعلم هذه الخمس ، لأن ما استأثر الله بعلمه هو العلم على وجه الإحاطة والشمول لأحوال كل منها على الوجه التام ، وما يعلمه لرسوله من ذلك يكون على وجه الإجمال .

هذا ومن المعلوم أنه لا يصح الاستدلال على شيء من العقائد الدينية إلا بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قرر علماء الصوفية أنفسهم أن كل شيء لم يستند الى الكتاب والسنة فهو باطل ، وقرروا أن كشف الولى اذا لم يستند الى الكتاب والسنة فهو كشف غير صحيح ، لأن الولى غير معصوم ، وقد علمت ما يدل عليه الكتاب وما تفيده السنة . والله أعلم ؟

الجواب عن السؤال السابع

المختار أن أسماء الله تعالى المأخوذة من الصفات والأفعال ، وهى ما دل على ذات كلفظ الجلالة ، أو دل على الذات باعتبار الصفة كالعالم والقادر — توقيفية ، أى تعليمية يتوقف جواز إطلاقها عليه تعالى على الإذن من قبل الشارع للاحتياط ، احترازا عما يوهم باطلا ، خلافا للمعتزلة حيث قالوا : اذا دل العقل على اتصافه تعالى بصفة وجودية أو سلبية ، جاز أن يطلق عليه اسم يدل على اتصافه بها ، ورد إذن أو لم يرد . والمراد من إذن الشارع إذنه فى خصوص الاسم ، فلا تكفى المادة ، فلا يلزم من جواز إطلاق « وهاب » جواز إطلاق « واهب » .

ويرى بعض أهل السنة أن كل لفظ دل على معنى ثابت لله تعالى يجوز إطلاقه عليه بغير توقيف ، ما دام إطلاقه لا يوهم ما لا يليق به سبحانه وتعالى . ومن هنا منع إطلاق لفظ مثل عارف وفقيه ، لأن المعرفة قد يراد بها علم تسبقه غفلة ، والفقه فهم غرض المتكلم من كلامه ، وهذا يشعر بسبق الجهل . وقد علمت أن المختار أنها توقيفية للاحتراز عما يوهم باطلا ، لعظم الخطر فى ذلك ، ولا يجوز الاكتفاء بمداركنا فى عدم إيهام الباطل ، بل لا بد من الاستناد الى إذن الشارع ، وقد اشتهر من أسمائه تعالى تسعة وتسعون اسما ، كما ورد التوقيف بغيرها فى الكتاب والسنة .

أما الذكر فهو لغة : الحفظ ، والشئ يجرى على اللسان ، والدعاء ، والصلاة لله تعالى . وقد ورد الأمر به فى الكتاب العزيز ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) وقال : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً) ووعد الله الذاكرين بحسن الجزاء ، فقال تعالى : (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) وتوعد من لها عنه فقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وحض عليه النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم فى كثير من الأحاديث، وقد عنى كثير من الصوفية ببيان آدابه من خشوع وخضوع، وأنواعه وما كان يذكر به صلى الله عليه وسلم.

قال ابن القيم: إن الذكر ثلاث درجات، أعلاها ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، ويليه الذكر بالقلب وحده، ويلى هذا الذكر باللسان المجرد، وهو فى الدرجة الثالثة. وقد اختلف العلماء فى جواز الذكر بالاسم المفرد: فذهب كثير منهم الى أنه لا بد فى الذكر من الجملة لأنها هى المفيدة، ولا يصح الذكر بالاسم المفرد مظهرا أو مضمرا، لأنه ليس بكلام تام ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهى، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأئمة، ولا شرع ذلك رسول الله، والشريعة إنما ورد بها من الأذكار ما يفيد بنفسه، فقد ورد «أفضل الذكر لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير» وأطال أصحاب هذا الرأى فى الاحتجاج برأيهم وتزييف رأى غيرهم.

ورأى آخرون من العلماء أن ذكر الله كما يكون بالجملة يكون بالاسم المفرد، قال العلامة البنانى فى شرحه على صلاة القطب ابن مشيش: اعلم أن ذكر الاسم المفرد المعظم مجردا عن التركيب بجملة، وهو قول «الله الله» مما تداولته السادات الصوفية واستعملوه بينهم. الى أن قال: وفى الصحيح «لا تقوم الساعة حتى لا يبقى من يقول: الله الله» وهو شاهد فى الجملة بذكر هذا الاسم وحده، لا سيما على رواية النصب، ولا نزاع فى التلفظ بالاسم الكريم وحده (أى فى جوازه) فأى مانع أن يكرره الانسان مرات كثيرة؟ وكونه لم ينقل عن السلف لا يقتضى منعه ولا كراهته، وكم أشياء لم تكن فى عهد السلف مع أنها جائزة. الى أن قال رحمه الله: فلا ينبغى التوقف فى ذلك ولا التشغيب بإنكاره.

ومن هـذا يتبين أن الذكر باللفظ المفرد لا مانع منه شرعا ، اذ لم يرد نهى عنه من الشارع يفيد كراهته أو تحريمه .

وأما لفظ « أه » فلم يثبت بسند صحيح أنه اسم من أسمائه تعالى ، وقد علمت أن أسماءه سبحانه وتعالى توقيفية ، فلا يجوز الذكر به ، وما يروى من أن النبي صلى الله عليه وسلم زار مريضا كان يئن ، وأن أصحابه عليه الصلاة والسلام نهوه عن الأنين ، وأنه عليه السلام قال لهم : دعوه يئن فإنه يذكر اسما من أسمائه تعالى ، لم يرد فى حديث صحيح ولا حسن كما قرره الثقات . وما قيل فى بعض الحواشى من أن لفظ « أه » هو الاسم الأعظم لاسند له . وقد أفتى المرحوم فضيلة الشيخ الجليل محمد أبو الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الأزهر فى هذه المسألة فقال رحمه الله ما نصه : « إن هذا اللفظ المسئول عنه «أه» بفتح الهمزة وسكون الهاء ليس من الكلمات العربية فى شىء ، بل هو لفظ مهمل لا معنى له مطلقا ، وإن كان بالمد فهو إنما يدل فى اللغة العربية على التوجع ، وليس من أسماء الذوات ، فضلا عن أن يكون اسما من أسماء الله الحسنى التى أمرنا أن ندعوه بها » الى أن قال رحمه الله : ولا يجوز لنا التعبد بشىء لم يرد الشرع بجواز التعبد به ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » الى آخر ما قرر رحمه الله .

الجواب عن السؤال الثامن

إن ظاهر الأحاديث يدل على التفاضل بين آيات الكتاب العزيز ، ولكن هذه المفضلة إنما هي باعتبار عظم الثواب ومضاعفته ، ويرى بعضهم أنها باعتبار ما يتضمنه اللفظ ، فإن ما تضمنته سورة الإخلاص مثلا — من الدلالة على الوحدانية والصفات الإلهية ليس موجودا فى سورة « تبّت » مثلا .

ومذهب الحنفية فى هـذا هو ما نص عليه الامام الأجل الزاهد شمس الأئمة وفخر الاسـلام أبو بكر محمد بن أبى سهل السرخسى من كتاب الحيل حيث قال : إن

مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من تفضيل آية أو سورة على غيرها هو الثواب عند التلاوة ، فإن القرآن كله كلام الله تعالى ، غير محدث ولا مخلوق ، ولا تفاوت بين السور والآى مع هذا ، ولكن يجوز أن يقال إن القارئ ينال من الثواب على قراءة سورة ما لا يناله على قراءة سورة أخرى . بيانه : أنه بقراءة سورة الإخلاص يستحق من الثواب ما لا يستحق بقراءة تبّت ، من حيث إنه فى قراءة سورة الإخلاص قراءة القرآن ، و لإقرار بوحدانية الله تعالى ، والثناء على الله تعالى بما هو أهله ، وفى قراءة سورة تبّت قراءة قرآن ، ولكن ليس فيها ما بينا من المعانى الأخر . وما نقل فى هذ الباب من الآثار من نحو ما روى أن من قرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات فكأنما ختم القرآن ، ومن قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن ، تأويله ما بيّنا . انتهى .

ولا تفاوت بين آى القرآن وسوره فى البلاغة ، لأن القرآن بلغ حد الإعجاز لما اشتمل عليه من حسن التأليف والفصاحة ووجوه الإيجاز ، لأن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، ومعلوم أن الاطلاع على كمية الأحوال وكيفيتها ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات لا تمكن الإحاطة بها على وجه التمام لغير علام الغيوب . وبديهى أن كل آية أو سورة قد روعى فيها الاعتبارات المناسبة على وجه التمام ، فلا يمكن والحال هذه أن تكون آية أبلغ من آية أو سورة أبلغ من سورة ، لأن كل آية بلغت حد الإعجاز ، لما قدمنا من أن كل آية من آيات الكتاب المجيد روعى فيها المطابقة لمقتضى الحال ، وأن كتاب الله بلغ من علو درجة البلاغة وسمو مكانتها حدا لا يستشرف اليه إنسان كائنا من كان ، ولا يستطيع معارضته إنس ولا جان ، لأنه كما يقول الامام عبد القاهر الجرجانى : بهر العرب أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشرا عشرا ، وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا

اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما لم يدع فى نفس بليغ منهم — ولو حك بيافوخه السماء — موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول ، وخلدت القرون فلم تملك أن تصول .

الجواب عن السؤال التاسع

سبق أن أجاب فضيلة رئيس تحرير المجلة عن احتفال المسلمين بإحياء ليلة النصف من شعبان ، وبما يتلى من الدعوات ، ويصلى من الركعات بين المغرب والعشاء بنية طول العمر ودفع البلاء والاستغناء عن الناس ، فى العدد السابع من المجلد الثانى الذى صدر فى غرة رجب سنة ١٣٥٠ هـ فيمكنكم الرجوع اليه .

أما الدعاء المعروف وهو ما يدعو الناس به فلم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فضلا عن أن فيه جملا لا يجوز الدعاء بها ، لأن فيها ما يفيد تجويز البداء على الله ، والبداء عليه سبحانه وتعالى محال ، لأنه عليم بالكائنات : عظيمها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها كليها وجزئيها ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وما علمه لا يتبدل ، وإلا انقلب العلم جهلا ، وهو محال . وأما المراد بأم الكتاب فهو أصل الكتب وهو اللوح المحفوظ ، إذ ما من كائن إلا وهو مكتوب فيه . والحكمة فى هذا أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالما بجميع المعلومات على سبيل التفصيل . واللوح المحفوظ ليس محلا للمحو والإثبات ، إنما محل المحو والإثبات هو الكتاب الذى يكتبه الملائكة على الخلق . وقيل المراد بأم الكتاب هو علم الله تعالى ، وليس هو أيضا محلا للمحو والإثبات ، لأن علمه تعالى منزه عن التغيير .

من هذا يتبين أنه سواء أريد بأم الكتاب اللوح المحفوظ أو علم الله — أنه لا شىء منهما محل للمحو والإثبات ، وأنهما فى ديوان الحفظة ، وهو الكتاب الذى يكتبه الملائكة فى ديوان الخلق . وبما أنه قد تبين أن اللوح المحفوظ ليس محلا للمحو

ولا للإثبات ، فهو محل الأحاديث التى وردت بنفى المحو والإثبات ، وأن الذى هو محل المحو و لإثبات هو كتاب الملائكة ، وهو محمل ما أورده السيوطى وغيره من أن هناك محوا وإثباتا ، يعلم أنه لا تنافى ولا تعارض ، لأن من نفى المحو والاثبات فقد نفاهما عن علم الله أو اللوح المحفوظ ، ومن قال بالإثبات والمحو إنما أراد أن الله يمحو ويثبت من كتاب الملائكة (راجع الألوسى والفخر) .

الجواب عن السؤال العاشر

قال فى الهداية : ومن احتقن أو استعط أو أقطر فى أذنه أفطر لقوله صلى الله عليه وسلم : الفطر مما دخل . وفى فتح القدير عليه ما نصه : روى أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا أحمد بن منيع حدثنا مروان بن معاوية عن رزين البكرى قال حدثتنا مولاة لنا يقال لها سلمى من بكر بن وائل أنها سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : « دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عائشة هل من كسرة ؟ فأتيته بقرص فوضعه على فيه فقال : يا عائشة هل دخل بطنى منه شيء ؟ كذلك قبلة الصائم ، إنما الإفطار مما دخل وليس مما خرج » ولجهالة المولاة لم يثبته بعض أهل الحديث ، ولا شك فى ثبوته موقوفا على جماعة ، فى البخارى تعليقا : وقال ابن عباس وعكرمة : الفطر مما دخل وليس مما خرج . وأسنده ابن أبى شيبة فقال : حدثنا وكيع عن الأعمش ، عن أبى ظبيان ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : الفطر مما دخل وليس مما خرج ، وأسنده عبد الرازق الى ابن عباس رضى الله عنهما وقال : إنما الوضوء مما خرج وليس مما دخل ، والفطر فى الصوم مما دخل وليس مما خرج . وروى أيضا من قول على رضى الله عنه ، قاله البيهقى .

وقال فى الهداية : ولو داوى جائفة أو آمة بدواء فوصل الى جوفه أو دماغه أفطر عند أبى حنيفة رحمه الله ، والذى يصل هو الرطب . وقالا : لا يفطر لعدم التيقن بالوصول لانضمام المنفذ مرة واتساعه أخرى كما فى اليابس من الدواء . وله أن رطوبة

الدواء تلاقى رطوبة الجراحة فيزداد ميلا الى الأسفل فيصل الى الجوف بخلاف اليابس لأنه ينشف رطوبة الجراحة فينسد فمها قال فى الفتح . قوله : فوصل أى الدواء الى جوفه ، يرجع الى الجائفة ، لأنها الجراحة فى البطن ، أو دماغه ، يرجع الى الآمّة ، لأنها الجراحة فى الرأس ، من أممته بالعصا ضربت أم رأسه وهى الجلدة التى هى مجمع الرأس ، وحينئذ فلا تحرير فى العبارة لأنه بعد أن أخذ الوصول فى صورة المسئلة يمتنع نقل الخلاف فيه ، إذ لا خلاف فى الإفطار على تقدير الوصول ، إنما الخلاف فيما اذا كان الدواء رطبا ، فقال : يفطر ، للوصول عادة ، وقالا . لا ، لعدم العلم به ، فلا يفطر بالشك . الى أن قال : وأكثر مشايخنا على أن العبرة للوصول ، حتى اذا علم أن اليابس وصل فسد ، وإن علم أن الطرى لم يصل لم يفسد الخ ما قاله .

وفى البدائع ما خلاصته أن ما وصل الى الجوف أو الى الدماغ من المخارق الأصلية كالأنف والأذن بأن استعط الصائم أو احتقن أو أقطر فى أذنه فوصل الى الجوف أو الى الدماغ ، فسد صومه . وأما ما وصل الى الجوف أو الى الدماغ عن غير المخارق الأصلية بأن داوى الجائفة والآمة بدواء يابس ، لا يفسد ، لأنه لم يصل الى الجوف ولا الى الدماغ ، ولو علم أنه وصل يفسد الخ ما قاله .

من هذا يتبين أن المناط الذى ينبنى عليه الحكم بالفطر هو وصول الشىء الى الدماغ أو الجوف ، فمتى تحقق الوصول أفطر الصائم ، ولا شك فى أن الحقنة التى تعطى تحت الجلد أو فى العضلات أو فى الوريد أو فى قناة النخاع الشوكى تصل الى الجوف ، لأنها تصل عند إعطائها الى الدورة الدموية ، وهذه توزعها أجزاء الى الجسم كل بحسب طبه .

وعلى هذا يتبين أن الحقن التى يعطيها الأطباء للصائمين فى نهار رمضان مفسدة لصومهم ، واذا لوحظ أن إعطاءها قد يكون للتغذية وللتقوية ولإكثار الدم ، ولتخدير الأعصاب ، وأن الأطباء أنفسهم يقررون أن هذه الحقن تمتصها الأوعية اللمفاوية

ومنها الى الدورة الدموية ثم توزعها هذه الأخيرة الى أجزاء الجسم كل بحسب طلبه ففى حقن التقوية ينال الكبد الجزء الأوفر، وهكذا ينال الجزء المصاب أكبر مقدار من الأملاح العلاجية، ويقررون أيضا أن حقن الزرنيخ محقق إفرازها بالأمعاء، وأن حقن الكافيين والاستركنين والمورفين والكوكايين والهورين مؤكد وصولها الى المخ، يتضح جليا أنها مفسدة للصوم. هذا ما يمكن أخذه من مذهب أبى حنيفة فى هذا الموضوع. أما مذهب المالكية والشافعية فهو ما يأتى :

أما مذهب المالكية فهو أن الصوم يفسد عندهم بوصول مائع الى الحلق من الفم أو الأنف أو الأذن أو العين، وإن لم يصل الى المعدة. وبوصول جامد الى المعدة من منفذ عال، فلو ابتلع الصائم حصاة ووصلت الى المعدة، فسد الصوم، ويفسد بوصول دواء الى المعدة أو الأمعاء بواسطة الحقنة اذا جعلت فى منفذ واسع. أما اذا كان المنفذ غير واسع لا يمكن وصول شيء منه الى المعدة فلا.

ومن هذا يؤخذ أن الحقنة تحت الجلد إن وصل الدواء المجعول فيها الى المعدة أو الحلق أو الأمعاء أفطر الصائم، وإلا فلا، والمعدة عندهم ما تحت منخسف الصدر الى السرة.

وأما مذهب الشافعية، فوصول عين الشيء قليلا كان الواصل أو كثيرا، مأكولا أو غير مأكول الى الجوف من منفذ مفتوح كحلق ودماغ وباطن أذن وبطن وإحليل ومثانة، مفسد للصوم، ومنه يعلم حكم الحقنة تحت الجلد، وقد علمت أنها تصل الى داخل الجوف قطعا، والله أعلم ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً

فى كلية أصول الدين

فضيلة شيخ الكلية يلقى خطاب الافتتاح

افتتح العام الدراسى بكلية أصول الدين ، فاجتمع بساحة الكلية حضرات أساتذتها وطلابها ، وألقى عليهم فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الجيد اللبان شيخ الكلية الكلمة الآتية مؤذنا بافتتاح الدراسة ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلىّ الأعلى ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ، وآله وصحبه الهداة المطهرين .

إخوانى وأبنائى :

أحييكم أطيب تحية من قلب عرف الجميل فأخلص لكم ، وبلسان صدق أنطقه بالثناء عليكم شريف خلالكم ؛ وأحيي فيكم صفات العلماء العاملين ، والطلبة النابهين والتلاميذ المجتهدين . يسرنى أن أصارحكم القول شكراً لكم وتشجيعاً :

جاء فى كلمة افتتاح العام الدراسى الأول لهذه الكلية المباركة التى سمعتموها منى فى هذا المكان يوم الافتتاح — أن الغاية التى من أجلها أنشئت هذه الكلية هى مهمة القيام على أصول الدين وآدابه ؛ ولقد طلبت إليكم أن تجعلوها نصب أعينكم وتتخذوها دليلا فى سيركم نحو غرضها الأسمى ، وأن تفهموا أن هذه المهمة ليست مقصورة على أداء عملنا بين جدران هذا المكان ، بل إنها أوسع من ذلك نطاقا

وأبعد مدى وقد سرنى أن حققتم الظن بكم ، فوفقتم للغرض بما قمتم به من جلائل الأعمال وأداء الأمانة على الوجه المطلوب منكم طلابا وعلماء .

أما الأساتذة فقد داوموا العمل ، وحرصوا على نفع طلابهم ، فاستخلصوا الموضوعات العلمية من مصادرها المعتمدة ، كما علمت ذلك جليا من زيارتى المتتابعة لفصول الدراسة . ومن اطلاعى على المذكرات التى جمعت بإخلاص فى شتى العلوم ، فجاءت من خير التآليف التى أخرجت للناس فى مختلف الفنون قديمها وحديثها . وزاد اغتباطى ما شاهدته من الاتحاد الذى يبشر بحسن العاقبة ، عاقبة النجاح الذى هو ثمرة الاعتصام بحبل الله القوى المتين ، فأحمد الله على ذلك .

قلنا فى تلك الكلمة : إن الجهل والدعاية الى الخروج على أصل الدين هما أصل الفساد وشيوع الرذيلة التى لم تكن معروفة بين المسلمين بسبب عقيدتهم الحقة ، واستنهضنا هممكم للعمل على تثقيف العقول ونشر الفضائل فى الخارج ، فلبى ندائى منكم حضرات الأساتذة الذين نهضوا لإرشاد العامة بإلقاء المحاضرات الدينية الإصلاحية فى د ر جمعية نشر الفضائل الاسلامية التى أشرف عليها ، والتى أرجو أن تكون نواة صالحة للدعاية الدينية .

وإنى أؤمل أن يكون لنا فى هذا العام داخل مكاننا هذا متسع لإلقاء المحاضرات النافعة فى كل العلوم ، فوق ما نقوم به من الأعمال الدراسية ، وأرجو أن يكون من هممكم خير معين على هذه الفكرة الإصلاحية المباركة إن شاء الله ، فتنتفع بكم الأمة ويظهر لعملكم الإصلاحى أثره فى الداخل والخارج .

وأما الطلاب فقد كانوا فى سيرتهم على أكمل ما يرجى أن يكون عليه طالب العلم خلقا وعملا ، فما رفعت الىّ شكاة من أحدهم فى حق أخيه ، وما سمعت عنهم من الناحية الأخلاقية إلا ما أقر عينى ، وحقق عندى اليقين بحسن مستقبلهم . ولقد كانوا

من حيث الطلب وواجب التلميذ على خير ما يرجى من طالب علم في أي مدرسة نظامية دينية وغير دينية . كانت تخلفاتهم عادية تكاد لا تكون إلا لضرورة ، وكان حرصهم على كرامة أنفسهم واحترامهم لأساتذتهم مما يغتبط به بدرجة أرجو الله أن يكونوا فيها على الدوام قدوة حسنة لغيرهم .

وأما العمل الإدارى فقد كان على ما شاهدتم من النظام ، بقدر المستطاع ، بفضل الله ، وإخلاص العاملين ، وصدق معونتكم ، حيث عرفتم الواجب فأديتموه بنية صادقة دون أن تجعلوا للأحقاد على نفوسكم سلطانا ، أو أن تتخذوا الشهوات والشخصيات غماما عليها تحول بينكم وبين الحق والإنصاف ، فرضيتم بما وجه إليكم تنفيذه من الإجراءات عن طيب خاطر ، وكنتم في سماء النصح هداية . فلكم جميعا مني الثناء ، ومن الله الثواب .

لي كلمة أقولها الآن فاسمعوها وعوها ، واذا وعيتم فاعملوا بها :

أطلب اليكم دوام تلك الصفات ، وأنبهكم الى زيادة الجد في العمل . ظن بعض لناس أن الجديد هو كل شيء في حياة الأمم ، وأنه لا نفع للقديم فيها ، فقطعوا الصلة بينهما ، وعارضهم آخرون فنصروا القديم بما أوتوا من قوة ، وأخذ الجدل بين الفريقين مأخذاً ذهب بالحقيقة وأضاع المصلحة ، لذلك نرى أن الإنصاف في التوسط بينهما .

نحن نرحب بالحديث ، ونحترم القديم ، ونربط بينهما ، فنغذى تراث القدماء بما ابتكرته عقول أبنائهم ، من تجارب ساقها اليهم رقى الفكر ، وتطور الحال ، وكثرة الحاجة لنستخلص من القديم والحديث عملا صالحا للحياة والبقاء معاً .

لدينا ثروة علمية يقرب أن تكون مفقودة عند غيرنا ، فما بالنا لا نتخذ منها عدتنا للحياة ، وكلها سلاح لمحاربة الفساد ، وفيها الهداية والصلاح في كل مكان وزمان ؛ مالنا لا نضم الى كنوزها نفائس الحديث على ضوء العقل والروية ، دون ميل الى

الغرض والشهوات التي زين للناس حبها ، فنخرج من بينهما مزيجاً إصلاحياً خالصاً سائغاً شرابه !

أطلب إليكم أن تحققوا تلك الغاية فتكونوا فى قديمكم أزهريين، وبحديثكم عارفين وللحقيقة من بينهما مستخصين ، حتى لا يوجه الينا سهم الملام ، ولا نرمى بالجمود ، وما كنا لنجمد ودينا هو دين العدل الذى فك عقال الفكر ، وملتنا هى الحنيفية السمحة ، وهى لصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم . وإنكم ستجدون منها فى كل شيء ما يثبت أن الدين الاسلامى هو أخو العلم ، فهو تنزيل الحكيم العليم بأسرار كونه . ولو شئت لضربت لكم الأمثال ، ولكنى أدعها لعلمكم ، فأنتم وأنا فى هذا المضمار سواء . إنما رجائى منكم أن يكون عملكم فى هذا الضوء ، وفى ظل القانون الذى وضع لتحقيق تلك الغاية . طلبي اليكم أن تكونوا فى الحق بناة لاهادمين ، وهداة لامضللين ، وبذلك يرضى عنكم خالقكم ، وتتحقق فيكم رغبة جلالة مليكنا المحبوب مولانا الملك المعظم **أحمد فؤاد** الأول ، حامى حمى العلم والدين .

وإنا لنختتم القول برفع أكف الضراعة الى الله أن يحفظه نصيراً لدينه ، وأن يديمه ملجأ يأوى اليه القانع والمعتر من رعيته ، وأن يفسح له فى أجله ، مع تمام الصحة وعز الملك وقوته ، وأن يقر عينه بحضرة صاحب السمو الملكى الأمير فاروق ، ولى عهد الدولة المصرية المحبوب ، وباقى حضرات أصحاب السمو أنجاله الكرام : م



الاسلام (١)

حاضره ومستقبله

المحاضرة الاولى

أهمية المسائل الاسلامية — احصاء المسلمين — انتشار الدين الاسلامى

إن جمعية الأساتذة « فى كلية فرنسا » عند ما أولتنى عظيم الشرف بدعوتها لى الى الكلام عن الاسلام فانما كلفتنى أن أحادثكم فى موضوع من أهم الموضوعات فى الوقت الحاضر .

وفى واقع الأمر قلما توجد مسائل لها من الأهمية والجاذبية بقدر ما للمسائل التى تمس الاسلام — ونستطيع أن نقول — ولا سيما فى دولة عظمى مثل فرنسا التى تعتبر من أكبر الدول المستعمرة للبلاد الاسلامية ، فبريطانيا العظمى وهولانده والمانيا (سابقا) هن الدول الوحيدة والجمهورية الفرنسية اللائى تضم مستعمراتهن كثيرا من السكان الذين ينتمون الى الاسلام ويعدون بالملايين من الرعايا — إلا أن اهتمام حكومات تلك الدول برعاياها المسلمين يظهر بمظاهر مختلفة ، فمسلمو الهند الانكليزية ومسلمو الهند الهولاندية ومسلمو المستعمرات الفرنسية الافريقية المختلفون ، كل أولئك يمكن تقسيمهم إجمالا الى ثلاثة أقسام : الهنود والمالايويين ، والأفريقيين ، ويمتاز كل قسم

(١) مترجم عن الفرنسية من مجموعة المحاضرات التى القاها الأستاذ ادوار مونتيه مدير جامعة جنيف أمام جمعية الاساتذة «فى كلية فرنسا» فى باريس سنة ١٩١٠

منهم بصفات مختلفة ، والاسلام الذى يدينون به جميعا يمتاز فى كل قسم بمميزات خاصة ، ويترتب على ذلك أن العلاقات التى تنشأ بين الأهالى المسلمين وبين الحكومات الحاكمة تكون متباينة وتثير مشاكل مختلفة تتطلب حلولا خاصة .

ولن نتكلم فى هذه المحاضرات إلا عرضا فى المسائل الحكومية التى يثيرها الاسلام فى الهند وجاوه وصومطرا أو فى غيرها ، ونقصر بحثنا من الوجهة الاستعمارية الفرنسية على المسائل التى يثيرها الاسلام فى داخل المستعمرات والبلاد التى تحت الحماية والمناطق التى ليس بها سوى نفوذ فرنسى وحيث يظهر عمل فرنسا . وهذه هى الوجهة التى لا تزال حاضرة فى ذهننا الى الآن منذ أن كلفنا منذ سنين قليلة برحلة لدراسة جماعات الطرق الدينية الاسلامية حيث جلنا فى قسم من مراكش تحت رعاية الحكومة الفرنسية .

وقد عقدنا العزم على أن نأتى فى هذه المحاضرات على بيان حال الاسلام الحاضرة من الوجهة الدينية على الأخص ، ونبحث فى حدود الممكن أى مع كثير من الحيطة والتحفظ عما سيؤول اليه فى المستقبل . وعلى ذلك ترانا مضطرين لى أن ندرس الاسلام ككتلة واحدة ، وإثبات هذا القول — الذى هو ضرورى فى مثل هذا البحث الذى آلينا على أنفسنا أن نعالجه اليوم — هو نظرى بحت ، إذ الاسلام فى الواقع — كما سنرى فى محادثتنا القادمة — هو أبعد شىء من أن يكون كتلة واحدة ، فاسلام البربر مثلا له مميزاته وصفاته الخاصة به ، وكذلك الحال فى إسلام العرب وإسلام الفرس وإسلام الهنود وإسلام الصينيين وإسلام الملاويين . وكذلك نرى هذا الاختلاف فى المسيحية التى تعتبر نظريا ككل لا يتجزأ ولكنها فى الواقع تتباين تباينا غريبا حسب المناطق فى أوربا وأمريكا وأفريقية وآسيا .

وإننا اذا أخذنا الاسلام فى جملته نرى أنه يحتل بلادا شاسعة الأرجاء ، إذ يحتل جزءا عظيما جدا من آسيا ، وكذلك جزءا عظيما مثله فى أفريقية وقسما من مساحة

عظيمة جدا من بلاد الملايو، ذلك هو حصر إجمالى للبلاد التى تسود فيها سلطة الاسلام الدينية فى أنحاء العالم، مع أننا لم نذكر ضمنها أوربا التى سلطة الاسلام فيها أبعد من أن تكون مهملة، كما أننا لم نذكر أمريكا

وهل فى الاستطاعة معرفة عدد المسلمين المنتشرين فى أقسام المعمورة الخمسة؟ إنه من الصعب جدا الاجابة على هذا السؤال مع شىء من الدقة. يكاد يكون الاخصائيون فى فن الاحصاء متفقين على جمل تعداد المسلمين فى أنحاء العالم من ٢٠٠ الى ٢٥٠ مليونا تقريبا، ونرى هذا العدد يتراوح عادة فى النشرات ذات المصادر والميول المختلفة جدا والتى يكتبها الاخصائيون فى المسائل الاسلامية وفى كتب المبشرين المسيحيين. وعلى أى الوثائق تستند تلك التقديرات؟ إنها ترتكن الى معلومات متباينة وذات قيمة متغيرة. فعندنا معلومات رسمية دقيقة كفاية عن المستعمرات الفرنسية والانكليزية، وقد حصلت عليها من تقويم «جوتا» لسنة ١٩١٠ وهى نشرة كما تعلمون تستقى أخبارها بطريقة شبيهة بالرسمية.

أما سكان أفريقيا الفرنسية فانا نجد عدد سكانها يبلغ بمجموعهم ٢٣،١٠٨٠٠٠ نسمة واذا طرحنا من هذا العدد العناصر الغير الاسلامية الموجودة فى جزيرة مدغشقر وجزيرة ريئيون وغيرهما والموجودة فى القسم الأوربى من بلاد الجزائر وتونس، وكذلك عبدة الأصنام الموجودين فى أفريقية الغربية — اذا طرحنا كل هذه العناصر من ذلك المجموع يمكن تقدير عدد المسلمين — على ما أعتقد - بنحو ١٤ الى ١٥ مليون نسمة

أما الهند الانكليزية فقد دل آخر إحصاء حصل فى سنة ١٩٠١ (ويرجع قدمه الى نحو ١٠ سنوات ماضية) على أن عدد المسلمين بها يبلغ ٦٢ ٤٥٨ ٠٠٠ نفس، والتعداد الذى سبقه بعشر سنوات دل على أنهم كانوا يبلغون ٥٧ ٣٢١ ٠٠٠، فمن المحتمل أن عددهم يبلغ فى إحصاء سنة ١٩١١ المقبل من ٦٧ الى ٦٨ مليون نسمة.

وأما بلاد الهند الهولندية فيبلغ مجموع سكانها على العموم ٣٨،٩٣٨،٠٠٠ نفس منها ٣٠،٠٩٨،٠٠٠ ببلاد جاوه ، ويقدر عدد المسلمين فيهم بنحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ نسمة ، وقد يكون هذا المجموع أقل من الحقيقة فان هارتمان قد قدر عددهم فى كتابه بنحو ٧٠٠ ٠٦١ ٣٣ مسلم . هذا وقد أكد لى عالم شاب أقام أخير مدة طويلة فى جاوه بأن عدد المسلمين فى جاوه وحدها بلغ فى سنة ١٩٠٥ نحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ نسمة .

أما بلاد الصين فيقدر عدد المسلمين بها بنحو ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ ، أما «دابرى ده تيرسان» فقد ذكر فى أبحاثه القيمة التى ظهرت فى سنة ١٨٧٨ بأن عدد المسلمين فى داخل بلاد الصين يبلغ ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ مليون نفس ، وذلك حسب أقوال مسلمى الصين أنفسهم .

أما الممالك الاسلامية مثل تركيا ومصر وبلاد العجم فان المعلومات التى لدينا عن عدد المسلمين بها فتباينة كثيرا ، فقد أحصى عدد المسلمين بدقة عظيمة إذ يبلغ عددهم ٠٠٠ ٢٦٩ ١٠ من مجموع السكان البالغ عددهم ٠٠٠ ١٨٩ ١١ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٠٧

أما فى تركيا فان بعض التقديرات بعيدة عن الدقة الى درجة لا تعتبر معها إلا أنها تخمينات تلقى جزافا ، فمثلا يقدرون عدد سكان طرابلس الغرب بمليون نسمة ، وسكان كل بلاد العرب بنحو ٠٠٠ ٠٥٠ ١ ، فما قيمة هذه الأرقام ؟ لا أدرى ، لكنها لا تبعث فى نفسى أية ثقة بها . إن مثل هذه الارقام الاجمالية ليس لها قيمة كبيرة فى موضوع الاحصاء ، فمجموع عدد سكان دولة تركيا يبلغ على ما يقال ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤ نسمة أغلبيتهم العظمى من المسلمين . وأما فى بلاد العجم فيبلغ عدد سكانهم ٠٠٠ ٠٠٠ ٩ نسمة ، منهم أغلبية كبيرة جدا من المسلمين .

وأما البلاد الاسلامية الأخرى فإن المعلومات عنها لا تنقصنا بالكلية فحسب بل إننا لا ندرى على أى ساس نستطيع أن نبنى تقديراتنا كما هى الحال فى مراكش مثلا .

فراكش كما تعـرفون بلاد شاسـعة الأرجاء تعادل فى مساحتها ثلاثة أرباع مساحـة فرنسا، وحدودها الجنوبية متزعزعة كل التزعزع حسب امتداد هذ القسم الجغرافى بين وادى درعة والساقية الحمراء، واذا اطلعتم على تقويم جوتا لسنة ١٩١٠ لوجدتم أن قسما عظيما من هذه البلاد تعلوه جبال شامخة (كجبال الألب فى اوربا) يبلغ ارتفاع ذرواتها من ٤ الى ٥٠٠٠ متر تخترقها وديان عديده، وأن قسما آخر منها لا يقل عنه اتساعا تكتنفه عدة هضبات وسهول، الكثير فيها غنىّ بخصوبة أرضه، ويبلغ عدد سكانها من خمسة ملايين الى ثمانية ملايين نسمة، وبعض النشرات الاخـرى تقدر عددهم بأحد عشر مليونا، وذهب البعض الى أن عددهم يبلغ ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٥ ان لم يكن ٠٠٠ ٠٠٠ ٤٠ عند حلول القرن المتمم للعشرين، إلا أن كل تلك الاحصاءات من أقلها الى أكثرها لا تستند الى أى أساس للتقدير، فحكومة المخزن المراكشية ليست على بينة من عدد رعاياها، حقيقة ان هذا العدد يتغير تغيرا مدهشا فى كل سنة، بل وفى كل شهر حسب السلاطين الذين يتولون عيها

ولما تجولت فى تلك البلاد فيما بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩٠١ لم أستطع قط أن أحصل من السلطة المراكشية على أية معلومات خاصة بسكان مديرية أو مدينة، وفى مراكش العاصمة التى أقمت بها أمكننى بالسـؤال من اليمين ومن الشمال وبالتقاطى المعلومات من بعض الأهلى الموثوق بهم والاوربيين لمقيمين بالبـلاد منذ عدة سـنين فى تلك العاصمة، أمكننى أن أصل الى فرض مقبول وهو أن عدد سكانها يبلغ ٠٠٠ ٥٠ نسمة، وقد يبلغ عدد سكان فاس الضعف. ومن بين القواد الذين كنت أستعلم منهم وجدت واحدا فقط وهو قائد مازاغان، استطاع أن يعطينى معلومات محتملة عن عدد سـكان ولايته وهم الدوكالة. وهذه المقاطعة التى تجولت فيها من جميع جهاتها ولاحظت أنها آهلة كثيرا بالسكان وأنها كثيرة الخصوبة، يقول عنها ذلك القائد: إن بها من الخيام ٩٠،٠٠٠ أى نحو ٣٠٠،٠٠٠ نسمة، ويخيل الىّ أن هذا التقدير قريب من الحقيقة.

والنتيجة التى نستخلصها من كل تلك الملاحظات أنه — عند القول بأن عدد مسلمى العالم يبلغ من ٢٠٠ لى ٢٥٠ مليون نسمة — قد يكون هذا العدد أقل من الحقيقة، كما يكون أكثر من الحقيقة، لكنى بالأحرى أميل من جانبى الى الاعتقاد بأن هذا التقدير أقل من الواقع. هذا ومن جهة أخرى فانه مهما يكن أمر هذه المجهودات التى تبذل لوضع إحصاء جدّى فانه لا يزال من المؤكد أن الاسلام قد احتل بلادا شاسعة الأرجاء ما فتئ ينتشر لا فى أنحائها فحسب، بل ويتدفق منها ويفيض كما يفيض وعاء الزيت اذا أفعم

ولقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة، وقلما توجد ديانات كانت تنتشر ولا تزال تنتشر بمثل هذا الانتشار، وإن ما صادفه من النجاح من أول عهده كان عظيما وباهرا حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التى وطدت سلطة محمد (عليه السلام) وإصلاحه بعيدا عن حدود بلاد العرب. لقد كرروا ولا يزالون يكررون الى الآن أن نجاح العقيدة الاسلامية يرجع الى العنف والى قوة السيف فى عهد محمد وعهد الخلفاء الأولين. لكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع، فهى لا تضع موضع الاعتبار العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها.

ويلوح لى أن لا شك فى أن الاصلاح الاسلامى كان فى أول عهده دينيا محضا ومحمد كان نبيا بالمعنى الذى كان يعرفه العبرانيون القدماء، ولقد كان بدافع عقيدة خالصة أن قطع كل صلة بالوثنية، وأخذ يسعى لانتشال مواطنيه من ديانة جافة لا اعتبار لها بالمرة، وليخرجهم من حالة من الأخلاق والمدنية المنحطة كل الانحطاط، ولا يمكن أن نشك لا فى إخلاصه ولا فى الحمية الدينية التى كان قلبه مفعما بها، فتلك هى الافكار والعواطف التى أثارت فى نفسه حب الدعوة الى الاصلاح التى قام بها فى مكة ثم فى المدينة. ولكن عند ما انتقل مركز دعوته الى هذه المدينة الأخيرة لم يلبث أن دخل

عنصر جديد فى رغبته الاصلاحية ، وهـذا العنصر الجديد كان الشـعور الوطنى العربى وفـكرة الوحدة السياسية لبلاد العرب التى كانت ابتدأت تتولد فى ذهنه ، ومن ذلك الحين كانت عنده فكرة الاصلاح الدينى مرتبطة تمام الارتباط بفكرة جمع قبائل العرب تحت نفس سلطة واحدة دينية وسياسية ، ومن هذا نرى أصل اتحاد السلطتين الدينية والمدنية الذى كان من مميزات الحضارة العربيه والذى كان سبب عظمتها ومجـدها ، كما كان فى نفس الوقت داعيا ومفسر لسقوطها وانهيارها .

ونستخلص من هذه الملاحظات أنه فى أول عهد انتشار الاسلام يجب علينا أن نفرق بين الدعوة الى القرآن والانقلاب الدينى وبين الفتح الحربى وتوحيد العالم العربى سياسيا ، وهـذا التفريق الأساسى والضرورى لا يدهش من يتعمق فى دراسة تاريخ الديانات . فالمؤرخون الذين كتبوا عن إصلاح لوتر وكالفان يستطيعون أن يبينوا لنا هنا الدور العظيم الذى لعبته السياسة فى انتشار البرتستانتية . حق إن كبار مصلحى القرن السادس عشر كانوا من ذوى الضمائر والأخلاق القويمة والأفـكار الدينية من الصنف الأول إلا أنهم كانوا مدفوعين بالتيار السياسى الذى كان سائد فى زمانهم وعملوا على أن يدفعـوه فى اتجاه يساعد على نجاح عقائدهم الدينية . وإننا نجـد فى تاريخ البابوية كثيرا من الأمثلة الظاهرة والشواهد القاطعة - فى طريق تطورالإنسانية — على ارتباط المصالح الروحية بالمصالح السياسية ، والاعتبارات الدينية بالاعتبارات ذات الصبغـة العملية والمادية ، وقد أورد بعضهم تفسيرات أخرى لهـذه الحقيقة وهى سرعة انتشار الاسلام فى أول عهده ، إلا أنهم ذهبوا على ما نظن الى البحث عنها بعيداً ، بينما أنه يكفى - كما سبق أن أوضحنا - أن ننظر إلى الظروف العامةوالطبيعية إلى حياة كل هيئة إنسانية ، فقد ظن البعض أن انتشار الاسلام بمثل تلك القوة يرجع الى مهاجرة الجنس العربى أخيرا للخروج من بلاده التى لم يجد فيها جميع الاسباب متوفرة لرقيه وتقدمه .

ويزيد البعض الآخر على هذه الاعتبارات زاعمين أن السبب الأول لمهاجرة العرب الذى أدى فى القرن السابع المسيحى الى اعتناق قسم كبير من الشرق للدين الاسلامى — أن السبب الأول لا بد وأن يبحث عنه فى التحول البطىء لبلاد العرب فى خلال آلاف السنين، ذلك التحول الذى كان من نتيجته الجفاف التدريجى لشبه جزيرة العرب الذى تعادل مساحته ثلاثة أرباع أوربا، إلا أننا نخشى كثيرا أن يذهب بنا هذا التغيير الجوى التام الى ماقبل التاريخ ؟ (يتبع)

منتهى آمال الخطباء

هو الديوان الثالث لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ المرشد الشيخ مصطفى أبى سيف الحمامى خطيب المسجد الزينبى ومدرسه . وهو مشتمل على أكثر من مائتى خطبة جامعة لشتات الفضائل كاشفة عن مساوىء الرذائل .

وقد تعرض فضيلة المؤلف لموضوعات شتى ، وعالج بحكمته أمراضا خلقية عديدة ، فكان الديوان مجموعة خطب قيمة نادرة المثال . وهو مطبوع طبعا متقنا على ورق جيد .

فنحث أهل العلم ولا سيما الوعاظ والخطباء على اقتنائه ، ويطلب من مكتبة الشيخ مصطفى والسيد عيسى الحلبى ومن فضيلة المؤلف ، وثمن النسخة ذات الورق الجيد ١٠ قروش وذات الورق الأجود ١٢ قرشا.

they scattered and he said: "Who hath done this? Cursed he be who hath done it for the Prophet (Peace be on him) had cursed whoso seteth a living thing for a target."

Other traditions are cited of the Prophet (Peace be on him) relating to the credit accruing from feeding and watering animals Such acts are regarded as acts of charity that merits the favour of the Lord. The Prphet (Peace be on him) says :

"No Moslem is there who soweth a plant or tree from which eateth bird or man or beast but will he be rewarded the reward of charity."

The Prophet (Peace be on him) is cited in an authentic Tradition to have related the following story :

"As a man was going along a road he became thirsty and finding a well, he descended it and quenched his thirst. On climbing out of it, he found a panting dog that was licking the dust out of thirst. The man said : "This dog has suffered as much as I did" and down the well went he again He filled his shoe, held it by the mouth till he clambered out and gave the dog to drink, whereupon the Lord did praise him and forgave his trespasses."

On being asked by some of his followers : "O, Messenger of God, are we recompensed for (treating) animals ? the Prophet replied : "A recompense there is for (treating) every tender liver" (i.e animals).

Their question as to whether there was a recompense for treating animals shows how little they thought of animals and how they believed that charity thereto is not equivalent to charity to man on which recompense is merited Unfortunate indeed is the lot of an animal that has fallen in the hands of those who believe there is no recompense or punishment for kind or cruel treatment thereof

The Prophet (Peace be on him) is cited in an authentic Tradition to have said :

"A woman is chastised in hell-fire on account of a cat which she fed or watered not, nor did she leave to eat of the insects of the earth "

The threat of hell-fire for so doing shows that ill-treatment of animals is strictly forbidden. Indeed no one would have imagined ere this that the ill-treatment of a mere cat could involve such a sin that whoever commits it will be liable to hell-fire.

The Moslem law-doctors have declared it obligatory to attend to the watering and feeding of an animal by supplying it with fodder and giving it personal care or trusting the care thereof to someone else even though he has to be paid. On this point, they all concur A party of them declared however that a man should be forced by law to do so and if he would not carry out the ordinance of the law, the animal should be sold and should not be allowed to suffer the pangs of starvation at its cruel owner's hands.

(to be continued)

them away from the truth and rouse in them vain desires and bid them slit the ears of animals, and most assuredly I will bid them alter the creation of Allah and render it different from its original form."

(Alucy's Commentary).

Animals are treated still by their owners just like any other chattel which they are free to do what they like with. Should any kindness be accorded them, it would be merely the outcome of the human instinct to keep what one possesses and derive benefit therefrom for as long as possible. But Islam has pointed out that the animal is in itself worthy of compassion, and has inspired general kindness to it in the hearts of men. Such kindness Islam regards as a truly good act with which wrongs are expiated and the favour of the good Lord secured.

Islam has permitted killing harmful animals as rabid dogs and vermin, it has ordained such killing to be done in the best and least painful manner.

The Prophet (Peace be on him) says in his connection

"Allah hath ordained the good performance of everything, if ye therefore kill animals, then do ye the killing well."

The slaughter of particular animals is permitted by Islam so that men may enjoy the good meat thereof and the Prophet (Peace be on him) says :

"If ye slay then do ye the slaughter well and whet ye your knife and spare the slaughtered animal all unnecessary pain."

It mgiht occur to some that the permission to kill or slaughter animals leaves it to man's discretion to use whichever way he chooses to kill the animal, but the Lord ordains the adoption of the best and least painful way to kill or slaughter an animal It is not permitted to burn or mutilate animals even though we are permitted to destroy them.

The learned people cite certain manners elicited from the fundamental principles of Islam relative to animals.

Omar says :

"It is charity not to drag the slaughtered animal to its slayer.'

Rabiah says :

"It is charity not to slay an animal with another looking on."

It is also said : "It is desirable for him who slayeth an animal not to whet his knife before its eyes and not to throw it violently down to the ground."

The hunting of animals by falconry, arrows or nets is also permitted. Isalm forbids to set an animal as a target for arrows or the like. A tradition of the Prophet (Peace be on him) says :

"Set ye not for target anything in which a spirit abideth."

In Sahih Muslim, the following incident is cited :

"Ibn Omar once passed by some Koreishite youths who have set a bird for target and were aiming their arrows at it. On seeing Ibn Omar

Another is the "Wasilah" which means that when a ewe produces twins a maleand a female, the female is said to have joined the male and the latter was not to be slain out of regard to the female.

Another is the "Hami" which is a he-camel whose offspring proves fruitful ten times. Such a camel is said to have protected its back and Arabs were forbidden to ride or make use of it in carrying loads.

Yet another is the "Bahirah" which is a she-camel that had produced five young ones, the last of which being a male. Arabs used to have the mother's ear slit and were forbidden to ride or milk it

On the advent of Islam, such idleness of otherwise fit and strong animals was forbidden as the outcome of ignorance and superstitious beliefs :

« مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ »

ترجمة تفسير هذه الاية نقلا عن البيضاوى

"Allah hath not ordained anything concerning a Bahirah (she-camel with the ear slit), a Saibah (she-camel vowed to be set free), a Wasilah (the female twin of a ewe), and a Hami (camel whose offspring is fruitful ten times), but those who disbelieved invent falsehood against Allah by forbidding the use of these animals and ascribing the ordinance to Him, and most of them do not understand the lawful and the unlawful, the permissible and the forbidden."

(Baidawy's Commentary).

Among other evil practices which the Arabs used to the great suffering of animals, was to tie down the camel of a departed chief by his grave and there leave it without food or drink till it dies out of thirst and starvation.

Another evil practice of the Arabs was the slitting of animals' ears as they were wont to do with the "Bahirah" described above.

The Koran has pointed out the evils of these practices and regarded them as the bidding of satan

« وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"And satan said most assuredly I will tempt a certain assigned portion of Thy servants who worship Thee and most assuredly I will lead

« وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And Allah hath given you tents of the hides of cattle, which is different to your usual places of abode, and which you will find light and easy to carry on the day you depart and the day you halt for a stay. And of the wool of sheep and hair of camels and goats hath He given you household articles and goods which will endure for your lifetime."

(Baidawy's Commentary).

Thus has the Lord bestowed upon men such goods as were made of the wool, hair and skins of cattle and food stuffs made of their milk and flesh and has given them animals for carrying their loads. All of these advantages are essential for the well-being of man.

In another verse, the Lord saith :

« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"God hath created among other animals, horses, mules and asses that ye may ride and make use thereof for pageantry, and other things which ye know not doth He create."

(Alucy's Commentary).

In this verse the purposes for which horses, mules and asses were created are detailed. Riding and the attendant comfort thereof as well as the speedy travelling from place to place are no doubt great advantages which contribute to the maintenance of good health and the saving of time.

In granting men the use of cattle, horses and other animals, God has called the attention to their beauty and pleasing appearance. This signifies that the enjoyment of these advantages could only be possible through kindness and good treatment as their abuse whether by overworking or giving them insufficient food would naturally render them of little use and rob them of their beauty and pleasing appearance.

In pre-Islamic days Arabs had certain customs which deprived them of making use of some particular animals that were well-fitted for service. Of these, the "Saibah" is an instance. It is a she-camel which a man vows to set free should he come safely back from a journey or recover from an illness. It was set at liberty to pasture on its own and was not to be ridden or milked.

ISLAM AND KINDNESS TO ANIMALS [1]

The guidance of Islam is established on a solid foundation of mercy and judiciousness. While mercy inspires the souls of men to kindness and charity, judiciousness keeps it within reasonable bounds which, if over stepped, will turn mercy into weakness or even stupidity. And thus steering a middle course, has Islam established the manners and rules pertaining to the treatment of animals.

It has permitted the eating of certain animals and has, through this permission, called the attention to the mistaken notion of those who refrain from slaying or eating it out of compassion or self-denial.

It has also permitted the employment of animals in such purposes as riding, tillage and carrying of burdens. In the Holy Koran men were granted the benefit of all these kinds of reasonable enjoyment as detailed in the verse :

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"God hath created camels, cows, sheep and goats for your benefit, from them you procure clothings and coverings to give you warmth; and you derive from them many advantages including milking, riding and tillage and of them do you eat meat and fat. And withal they are pleasing to you when you drive them back home in the eventide and when you send them forth to pasture in the morn. And they carry your heavy loads to such places which you could never reach, had it not been for them, except with great difficulty and distress of soul. Verily your Lord is merciful and compassionate to thus bestow upon you His great favours and render the difficult tasks easy unto you."

(Alucy's Commentary).

---

(1) Translated from the very Reverend Al Sayyed Mohammad Al-Khidr Hussain's editorial in Nour-El-Islam Review

that Islam is by no means a religion which induces to antagonism and debars kindly intercourse and co-operation in life

Islam totally disapproves of a Moslem adopting, in addressing non-Moslems, the attitude of those fanatics who revile whomsoever question the truth of their beliefs. In this connection, the Lord's sayings are significant :

" وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الالوسى

"Dispute ye not with the Jews and Chrisitians except in a better manner, meeting their rudeness with kindness, their passion with patience, their clamouring with good counsel and their violence with tolerance."

(Alucy's Commentary).

and

" وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"Argue with their disputants in the best and kindliest manner of argument and chose the easiest way unto thee to subdue their passion, for the Lord knoweth him best who hath deviated from the path which He ordainend, and He knoweth best those who were guided thereto."

(Alucy's Commentary).

In fine, Islam has been instrumental in the enlightenment of its followers through the spirit of tolerance which pervades its teachings. They have learned from its kindly manners how to treat amicably the followers of other religions and live with them in peace and harmony co-operating to serve the national interests of the country they live in.

Often on reading the news of those whom Allah has pleased to guide into Islam, we find them give particular mention to the spirit of forebearance, kindliness and charity of this Faith towards non-Moslems, among the reasons of their guidance.

The Moslem law-doctors differ however as to whether the Moslem governor should judge between the litigants if the case is submitted to him, or whether he should refer it to the head of their creed. The Malikites say that should the case involve a sin which all laws agree to forbid such as assault or murder, the Moslem governor should settle it according to the dictates of justice, but should the laws differ on the point, the litigants are given the choice of having the case judged according to the Moslem Law or referring it to the head of their creed for judgment. The Malikites give the following Koranic verse to substantiate this view :

« فَإِنْ جَاءُوكَ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الكشاف

"Should the followers of the Scriptures come to thee for settlement of differences which arose between them then judge thou between them according to the Law of Islam or send them away to the head of their creed for judgment."

(Al-Kashaf's Commentary).

Imam Abu Hanifa on the other hand says that should the litigants submit thier case to the Moslem governor he had to judge between them and he is not free to decline the case. In proof of this view, the Imam cites the following Koranic verse :

« وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ »

ترجمة تفسير هذه الاية نقلا عن الألوسى

"Judge thou between the followers of the Scriptures according to what the Lord hath revealed unto thee for it is the truth and follow thou not their false desires."

(Alucy's Commentary).

And asserts that the decisive injunction contained in this verse abrogates the choice permitted in the previous one

« فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ »

Islam has permitted the marriage of a Moslem to a Jewish or a Christian provided the observance of Moslem rites and laws It conferred upon her the same matrimonial rights as those of the Moslem wife and as established by the Moslem Law. Such marriage constitutes a bond of affinity and this in its turn involves a tie of sanguinity. This in itself amply shows

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

TOLERANCE OF ISLAM [1]

(Continued)

In the consideration of manners of fellowship, the Moslem law - doctors lay particular stress on the observance of the rights of non-Moslems under the rule of Islam. In his book "Al-Furouq," Shehabuldine Al-Qarafy says :

"The pledge of faith made to non-Moslems involves certain obligations towards them as our neighbours and protégés and as being in the trust of God, His Holy Prophet and Islam. Whoso wrongeth them be it by evil word or slander or any other sort of injury, or by abetting in so doing, will he betray the trust of God, His Prophet and Islam."

In his book "Maratebul Ijmaa," Ibn Hazm says :

"Should the enemy come to attack those under our protection, it is incumbent upon us to set out in full arms to repel them and even die in the attempt to protect those who are in God's trust and His Prophet's for it would be a breach of faith on our part to surrender them to the enemy."

Islam has further made binding the judgment of their chiefs. They are free to submit their cases for judgment before the heads of their creeds.

---

(1) Translated from the very Reverend Al-Sayyed Mohammad Al-Khidr Hussain's editorial in Nour El-Islam Review.

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الثامن	شعبان سنة ١٣٥١	المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف
ومن اعضاء مجلس الازهر الاعلى } سابقا

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٢٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	ص
داخل القطر المصرى	٤٠
خارج القطر المصرى	٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمي المدارس الاولية والطلاب داخل القطر	٣٠
وللحضرات المذكورين فى خارج القطر ...	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ ص داخل القطر و ٤ ص خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الشريعة الاسلامية (1)

صالحة لكل زمان ومكان

سد الذرائع

من أعمال الانسان أو أقواله ما يشتمل على المفسدة بنفسه ، كالغصب يحرم الإنسان من الانتفاع بماله ، وكالقذف يلوث عرض البرىء ، ويسقط مكانته من النفوس .

ومن الأعمال أو الأقوال ما لا تنشأ عنه المفسدة مباشرة ، بل يكون وسيلة الى عمل أو قول فيه مفسدة ، كمناولة السكين لمن يسفك بها دما معصوما ، فالمناولة فى نفسها عارية عن المفسدة ، وإنما هى وسيلة الى ما فيه المفسدة ، وهو سفك لدم بغير حق ، وكدلالة لظالم على مكان شخص برىء يريد الظالم أن يناله بأذى ، فليس فى نفس الدلالة مفسدة تقع بوقوعها ، وإنما المفسدة فيما كانت الدلالة وسيلة اليه ، وهو إصابة النفس البريئة بالأذى . ويدلك على أن مثل مناولة السكين ، ودلالة الظالم على مكان البرىء لا تحمل فى نفسها مفسدة ، أنها توجد فى بعض الأحيان دون أن ينشأ عنها

(1) هذا مقال سابع يتصل بست مقالات نشر خمس منها فى الاجزاء : 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 7 من المجلد الاول ونشر سادسها فى الجزء الثالث من المجلد الثالث .

فى الخارج فساد ، كأن يقوم مانع من استعمال السكين فى معصوم لدم ، أو ينصرف الظالم عن أذية من دل على مكانه ؛ وتخلُّفُ المفسدة عن الوسيلة لعارض لا يرفع الإثم عن فاعلها ، لأن الإثم منوط بفعل الوسيلة مع العلم بما شأنها أن تفضى اليه من فساد .

ومن حكمة التشريع الاسلامى أنه لم يقصر النظر على ما يحتوى المفسدة بنفسه ، بل وجّه نظره الى وسائل ما فيه المفسدة ، فنعها ؛ والنصوص الواردة فى الكتاب والسنة للنهى عن وسائل ما تقع المفسدة بوقوعه ، غير قليلة . ومن شواهد هذا قوله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) فالأمر بغض البصر من ناحية أنه يثير الهوى ، والهوى يدفع الى ارتكاب مفسدة هتك الأعرض و ختلاط الأنساب .

ومن هذه الشواهد قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا) : منع المسلمين من أن يقولوا (راعنا) مع قصدهم الى طلب الرعاية ، سدًّا لباب كان اليهود يدخلون منه الى سب النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ يستعملون هذه الكلمة ، ولا يقصدون منها طلب الرعاية ، وإنما يقصدون بها معنى اسم الفاعل المأخوذ من الرعونة .

ومن هذا الباب قوله تعالى : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) فقد نهى عن سب معبودات المشركين وهم يسمعون ، وأشار الى أن وجه النهى عن هذا السب إفضاؤه الى ما فيه المفسدة ، وهو إطلاق ألسنتهم بسب الله تعالى . ويضاهى هذا الشاهد قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه [1] » فجعل الرجل شاتما لوالديه وهو

(١) صحيح الامام البخارى

يصدر منه شتمهما ، وإنما تعاطى وسيلة هذا الشتم ، وهو شتمه لأبى الرجل الأجنبي أو أمه ، فدل على أن فاعل الوسيلة بمنزلة فاعل ما يتبعها .

وفى الشريعة أحكام كثيرة تقوم على إعطاء الوسائل حكم ما من شأنه أن يوجد بعدها من ضروب الفساد : تراها قد منعت نكاح المرأة قبل أن تنقضى عدتها حذرا من اختلاط الأنساب ، ثم منعت خِطبة المعتدة باللفظ الصريح لأنها تفضى الى تسرع المعتدة بالإجابة وادعاء انقضاء المدة قبل انتهاء أجلها ، وقبولُ الهدية مأذون فيه ، ولكنه يحرم على المقرض قبول هدية من المقترض كراهة أن تتخذ الهدية طريقا للربا ، وكذلك القاضى لا يجوز له قبول الهدية حذرا من أن تتخذ وسيلة لموبقة الارتشاء ، قال ربيعة : « إياك والهدية فإنها ذريعة الرشوة » .

واذا أقبل القاضى على أحد الخصمين دون الآخر وبشّ فى وجهه ، انكسر قلب خصمه ، وضعف بيانه عن إقامة الحجة ، فيضيع حقه ، فيحرم هذا الإقبال لأنه وسيلة الى ضعف البيان الذى هو سبب ضياع كثير من الحقوق .

وقد تلقى تبعة الضمان على فاعل الوسيلة اذا أفضت الى ما فيه المفسدة ، كربّان السفينة يخرج فى تصريفها عن المعتاد ، ويسير بها فى خطر وهو قادر على اجتنابه ، فإنه يضمن ما يضيع بغرقها من الأموال والنفوس وإن لم يقصد الى إغراقها . وجاء فى فتاوى علمائنا أن من حفر بئرا فى طريق شخص قاصدا هلاكه ، فوقع فمات ، كان جزاؤه القصاص .

ولا تختص الذرائع التى يجب سدّها بالأفعال ، بل يعدّ فى قبيلها ترك الأفعال التى تحمى بها نفوس أو أموال ، فمن وجد رضيعا بمكان خال ، وتركه بحاله وهو قادر على إنقاذه عالم بأن تركه يفضى الى موته ، فمات ، عدّ تركه للطفل فى موقع التهلكة جريمة ، إذ كان من وسائل الفساد التى يجب سدها ومعاقبة من يرتكبها . وجاء فى فتاوى

الفقهاء أن من منع فضل مائه مسافرا وهو عالم أنه لا يحل له منعه ، وأنه يموت إن لم يسقه ، فمات حقت عليه عقوبة القصاص ؛ وكذلك الحارس ينام اختيارا فى غير الوقت الذى اعتاد فيه النوم ، فيضيع شىء مما أقيم لحراسته ، فانه يضمن ما ضاع ، وليس نومه إلا تركا للحراسة ، وكان هذا الترك وسيلة الى ضياع المال .

لم يختلف العلماء فى أن سد الذرائع من أصول الشريعة ، وإنما يختلفون فى بعض الفروع يذهب بها بعضهم نحو سد الذرائع ، ويرجع بها آخرون الى أصل غير هذا الأصل ، قال أبو إسحاق الشاطبي : « إن سد الذرائع أصل شرعى قطعى متفق عليه فى الجملة وإن اختلف العلماء فى تفاصيله ، وقد عمل به السلف بناء على ما تكرر من التواتر المعنوى فى نوازل متعددة دلت على عمومات معنوية ، وإن كانت النوازل خاصة ولكنها كثيرة » يريد الشاطبي أن السلف جروا فى تفصيل بعض الأحكام على أصل سد الذرائع ، ومستندهم فى تحقيق هذا الأصل ما ورد فى الكتاب والسنة من الأحكام العائدة الى هذا الأصل ، وهذه الأحكام وإن كان كل واحد منها متعلقا بنازلة خاصة ، قد بلغت من الكثرة مبلغ ما يدل على قصد الشارع الى سد ذرائع الفساد ، فتكون هذه الأحكام الكثيرة بمنزلة قول عام يرد فى القرآن أو السنة مصرحا ببناء الأحكام على سد الذرائع .

والذرائع ثلاثة أقسام :

(أحدها) ما أجمع العلماء على سده ، وهى الوسيلة التى تفضى الى ما فيه مفسدة على وجه القطع أو الظن القريب منه ، كإلقاء السموم فى الأطعمة ، وحفر الآبار فى الطرق ؛ فإلقاء السم فى الطعام يفضى على وجه القطع أو الظن القريب منه الى موت من يتناول الطعام ، كما أن حفر الآبار فى الطرق يفضى الى وقوع السائرين بها فى غفلة أو ظلام .

ومن هذا القسم صنع الخمر والاتجار بها ، فانه يفضى الى مفسدة تعاطى شربها قطعا أو ظنا غالبا . ويدلكم على وجوب سد هذه الوسائل حديث أنس فيما رواه الترمذى (لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخمر عشرة : عاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقيها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ، ومبتاعها ، وواهبها ، وآكل ثمنها) وللحاكم المسلم أن يمنع بمقتضى هذا من زرع المخدرات والاتجار بها ، ويضع على ذلك عقوبة رادعة .

(ثانيها) ما أجمعوا على إلغائه وعدم الالتفات اليه ، وهى الوسائل التى يكون إفضاؤها الى المفسدة نادرا ، ومثال هذا زرع العنب ، فإنه يكون وسيلة الى اتخاذ الخمر وتناولها شربا ، ولكن هذه المفسدة نادرة بالنسبة الى الانتفاع بالعنب من حيث إنه ثمرة طيبة ، فلا تمتد الحرمة من تعاطى الخمر الى وسيلته التى هى زرع العنب ، بل تبقى منوطة بنحو تحويله الى خمر أو تعاطى ما أسكر من عصيره .

وقد يكون اتخاذ الخمر من العنب فى بعض البلاد كثيرا ، ولا تقتضى هذه الكثرة المنع من زرع العنب ، فإن فى هذا المنع حرمانا للناس من منافعه الطيبة ، وقد جعل الشارع لموبقة الخمر عقوبة متى تولى القيامَ عليها حازم رشيد ، طهرت البلاد من خبث المسكرات ، وباهت سائر البلاد برجال لا يخالط عقولهم كدر ، ولا يمس نشاطهم كسل ، ولا يدنو من جدهم هزل .

واذا فرض أن أمة تبلغ فى السفاهة أن يكون اتخاذ الخمر هو الغالب على أعنابها بحيث يكون انتفاعها من العنب فى غير هذا الوجه نادرا ، كان للعارف بأصول الشريعة وسياستها النظر فى هذه الحالة ليقرر لها حكما مطابقا لها .

وفى صناعة الطب مصلحة الشفاء من أمراض كثيرة ، وقد تكون المداواة وسيلة الى إتلاف بعض النفوس ، وهذه الحالة نادرة بالنسبة الى ما تفضى اليه من الصحة والسلامة ، فتلغى الحالة النادرة ، وتبقى المداواة مأذونا فيها بإطلاق ، وليس على الطبيب ضمان ما أتلف إلا أن يتبين تفريطه وعدم نصحه فى العلاج .

وفى تسيير السفن فى البحر منافع لا تحصى، وقد يفضى تسيير السفينة الى غرقها وهلاك ركابها، ولكن الغرق نادر بالنظر الى السلامة، فتلغى الحالة النادرة، ويبقى تسيير السفن مأذونا فيه بإطلاق، وليس على ربّان السفينة متى غرقت من ضمان، إلا أن يتصرف فيها على وجه يتبين فيه تفريطه.

ويلحق بهذا الضرب اتخاذ السيارات والطيارات والغواصات، فإنه قد ينشأ عن استعمال هذه المخترعات إتلاف بعض النفوس البريئة، ولكن هذا الضرر قليل بالنسبة الى ما يترتب عليها من نحو مصلحة الدفاع وقطع المسافات البعيدة فى أقرب زمان، فلا تمتد الحرمة من إتلافها لبعض النفوس الى أصل استعمالها، بل تبقى الحرمة مقصورة على استعمالها بدون رويّة واحتراس، وهو المفضى الى نحو إهلاك النفوس أو الأموال.

(ثالثها) ما يتردد بين أن يكون ذريعة الى مفسدة، وبين أن لا يكون، وهذا موضع اختلف فيه أهل العلم، فمنهم من قال بالمنع من هذا القسم نظرا الى ما قد يفضى اليه من المفسدة، ومنهم من ذهب الى الإغماض عنه وعدم عده فى الذرائع التى يجب سدها، ومثال هذا استناد القاضى فى الحكم الى ما يعلم من حال القضية ترفع اليه، فمن أهل العلم من منعه، وأوجب على القاضى الرجوع الى البينات والوقوف عندها، مخافة أن يتخذ القضاة الذين لم تشرب قلوبهم التقوى الاستناد الى العلم ذريعة الى الجور فى القضية، فيفصل فيها اتباعا للهوى، بزعم أنه يعلم منها ما لم تعلمه البينة.

فاستناد القاضى الى علمه متردد بين أن يكون وسيلة الى حفظ الحق، وأن يكون ذريعة الى مفسدة الجور فى القضاء، والمحققون على سد الذريعة فى مثل هذا الفرع؛ والقاضى الذى يعلم من القضية خلاف ما قامت عليه البينة، يصرف الحكم فيها الى غيره، ويشهد لديه بما يعلم، فتجرى عليه أحكام الشهادة، فإما أن يقبل وإما أن يلغى.

ومما يساق فى الحديث عن هذا القسم أن الشريعة تحرم على الانسان أن يقرض آخر عشرة دنانير — مثلا — على أن يردها اليه خمسة عشر دينارا، فإن هذه العقدة

هى لربا بعينه، ولو باع زيد سلعة لعمرو بخمسة عشر مؤجلة، ثم اشتراها منه بعشرة نقد، لكان مآل هذا البيع والشراء الى أن زيدا دفع الى عمرو عشرة نقدا، وأخذ منه بعد أجل مسمى خمسة عشر؛ ومثل هذه الصورة قد يقصد فيها زيد وعمرو الى البيع والشراء على وجه البت، ثم يبدو لزيد أن يشترى ما باع، فيكون هناك عقدان كل منهما مستقل عن الآخر، فيفارق هذا البيع والشراء عقدة لربا.

فإن قصدا من البيع والشراء إعطاء عشرة ليؤخذ بدلها خمسة عشر عند الأجل فقد جعلا هذه المعاملة وسيلة الى ما حرم من الربا، لأنها وإن جرت بألفاظ البيع والشراء، تشتمل على معنى لربا من جميع أطرافه.

ومن كبار الأئمة من يمنع هذه المعاملة حيث يكثر قصد الناس فيها الى القرض بمنفعة؛ ويستند فى هذا المنع الى قاعدة سد ذرائع الفساد.

وقد بلغ بعض الفقهاء فى مراعاة سد الذرائع أنه كره فعل بعض المندوبات إذا كان إظهارها والمواظبة عليها وسيلة الى اعتقاد العامة سنيّتها أو وجوبها، وكان الإمام مالك رضى الله عنه يكره المجىء الى بيت المقدس خيفة أن يتخذ الناس ذلك سنة؛ وقال سعيد بن حسان: كنت أقرأ على ابن نافع فلما مررت بحديث التوسعة ليلة عاشوراء، قال لى: حرّق [1] عليه، قلت: ولِمَ ذلك يا أبا محمد؟ قال: خوفا من أن يتخذ سنة؛ وقد ذكرنا فيما سبق أن الامام مالكا كره إتباع رمضان بصوم ستة أيام من شوال مخافة أن يعتقد العامة أنها فى حكم صوم رمضان؛ ومن لا يجيزون ترك المندوب لخوف اعتقاد وجوبه أو سنيته، يعتمدون على أن من واجب العلماء تبيينَ أحكام الشريعة وآدابها للناس، وإزاحةَ ما يحوم بأذهانهم من الأوهام الباطلة؛ وهذا هو الوسيلة التى يكتفى بها شر اعتقاد العامة لسنية الأمر المندوب أو وجوبه.

وكما نظر الشارع الى وسائل الفساد فسدّها، نظر الى وسائل ما فيه صلاح ففتحها بالإذن فيها والحث عليها؛ ومثال هذا تسعير ما يباع فى الأسواق من نحو الأقوات

(١) كذا فى الاعتصام للشاطبى. ويطلق التحريق بمعنى الحك والبرد بالمبرد.

فإنه ذريعة الى حماية العامة من أن يغبنوا ويُغلى الباعة عليهم ما يحتاجونه فى كل يوم ، فالإذن فى التسعير فتح ذريعة الى مصلحة اقتصادية لا يستهان بها ، فلولىّ الأمر أن يجمع وجوه أهل السوق ، ويحضر غيرهم استظهارا على صدقهم ، فيسألهم كيف يشترون ، وكيف يبيعون ، ويضع للحاجيات أثمانا محدودة ، فيها ربح للباعة ، ولا تُجحِف بالعامة .

ونرى الشريعة تأتى الى الأمر يكون له وجه من الضرر ، فتأمر به حيث يكون ذريعة الى ما فيه مصلحة أكبر من ذلك الضرر ؛ ومن هذا القبيل بذل المال لفداء الأسرى ، فالمال المبذول للعدو يزيده قوة ، وحرام على المسلمين أن يمدوا عدوّهم ولو بوزن ذرة من ذهب أو فضة ، ولكن هذا البذل ذريعة الى مصلحة يصغر فى جانبها ضرر البذل ، والمصلحة هى إنقاذ المسلمين من أيدٍ تسومهم سوء العذاب أو الهوان .

وفى حلف الشخص بالله كاذبا إثم كبير ، ومقتضى هذا أنه لا يجوز لصاحب الحق — متى أنكر المدّعَى عليه — أن يطالبه باليمين ، لأنه يدفعه الى ارتكاب الإثم الكبير ولكن الشارع الحكيم أذن لصاحب الحق فى تحليف المنكِر ، مع علمه بأنه سيحلف بالله كاذبا ، إذ كان التحليف ذريعة الى ظهور الحق فى كثير من الأحيان ، حيث يحمل المدعَى عليه على الإقرار لأول الأمر ، أو على الرجوع إليه بعد الإنكار . فهذه المسئلة من المواضع التى أغمض فيها الشارع عن وجه الفساد ، وفتح بها الذريعة الى مصلحة ذات شأن خطير .

وملخص المقال أن الشريعة الاسلامية قد بنت كثيراً من أحكامها المنطوق بها فى الكتاب والسنة على رعاية سد الذرائع ، وقد استخلص الفقهاء من هذه الأحكام الكثيرة أن من أصول الشريعة سدَّ ذرائع الفساد ، واستمدّوا من هذا الأصل أحكاما حالوا بها بين الناس وبين ما يفضى الى كثير من مواقع الفساد . فقاعدة سد الذرائع قاعدة محكمة ، وفيها شاهد واضح على أن الشرع الإسلامى صالح لكل زمان ومكان .

محمد الخضر حسين



سورة النور

١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ. وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ).

لقد مضى الكلام آيات تلو آيات فى التحذير من قربان الزنى وشرح مضارّه، وما يتصل بذلك من الأحكام اتصالا قريبا أو بعيدا: من الأمر بغضّ البصر، وإخفاء الزينة، والاستئذان عند دخول المنازل، ومن صون الأعراض عن أن تنالها الألسنة بسوء من هذا القبيل؛ فأُخذ من مجموع ذلك أن لهذه الفاحشة من الآثار السيئة ما لا يقبل الهوادة فى العلاج، ولا التسامح فى المظان؛ فطبع له بذلك فى النفوس صورة من

أقبح الصور وأوجبها للبعد . ولا تكاد تجد الشارع الحكيم حظر على الناس أمرا مما تميل اليه الطباع البشرية إلا عوضهم عنه ما هو خير منه ؛ فبعد إشباع القول فى الزجر عن الزنى يجىء الكلام فى العوض الذى هو خير منه استمتاعا ، وأثبت أصولا ، وأنمى ثمرة ، ذلك هو النكاح ، إذ يصل المرء الى بنيته المنشودة وهو هادئ النفس مستريح البال لا يزعج ولا يزعج ، ولا تحدثه نفسه بأنه آذى أو تعرض للأذى ؛ وتجد الحياة بينهما مستقرة مبناها تبادل الحب الصادق ، وتعاون الطرفين على مصلحة الطرفين ، فينتج من بينهما بنون وبنات يقدمون على أبويهما بالسعادة والهناءة ، فيتلقيانهم بالبشر والترحاب والفرح العظيم ، لا كذلك القادم على المسافحين نذيرا بهدم اللذات ، وتفريق الجماعات ، وتنغيص العيش ، والتذكير بعقبي الطيش ، فيتلقى كما يتلقى الغريم ، بل ينظر إليه كأنه الشيطان الرجيم ، وكأنه يقول لهما : فضحتكما وهتكت ستركما ، فأين تفران منى اليوم ولات حين مناص ، ولا ينفعكما الندم ؛ وهنا تدور تلك المعركة الطاحنة المشئومة ، وكثيرا ما تقضى على ذلك النذير الضعيف ، فيقتلانه عمدا وهو فلذة كبدهما ، وقطعة من حشاشتهما ، فيالهول المنظر ، ويا لبؤس تلك النفوس ، ويا لوخز الضمير !

وتصور كيف ينقلب النعيم إذ ذاك جحيما ، وكيف يتحول ذلك القلب الرحيم شيطانا رجيما ، وأى مظهر من مظاهر الشيطان أشنع من أن يبطش المرء بنفس منفوسة لم تجن ذنبا عليه ولا على غيره فتقتلها ، وتراها صريعة أمام عينيها تسألها : ما ذنبي الذى استحققت به بطشك ، ثم تذهب الى ربها بريئة مظلومة ، تشكو اليه ظلم أقرب الناس اليها ، ومن كان طريق اندراجها فى هذه الحياة مكتفية بترديد قول القائل :

هـــذا جناه أبى عـــلىّ م وما جنيت عـــلى أحد !

وفكّر بعد ذلك فى لحظات يقوم ذلك الجانى من نومه مذعورا ، إذ يبدو له شبح جريمته ، ويتمثل له شخص فريسته ، يذكّره بما صنع به ، فيشرّد عنه النوم ، ويمزق عنه

لباس الراحة والهدوء، ويطرده عن مخيلته فلا يطرد، ويبعده عن ذاكرته فلا يبتعد — أفتراه بعد هذا كله تتجه نفسه الى تلك النفس التعسة التى شاطرته هذه الجريمة فيحبها ويتصل بها؟ أم أنه يراها مبعث الشقاء وأصل الداء، فيصب عليها اللعنات وهى تقابله بالمثل، فما أشبههما بأهل النار : كلما دخلت أمة لعنت أختها ؛ ومن يكون من أهل النار اذا لم يكن هذان المجرمان أحق بها وأهلها؟ : فلا معنى للشبه هنا، وإنما هما من عماد أهلها .

هذا اذا قويا على الفتك بمهجتهما وثمرة قلبهما . فإذا أدركهما الخور واكتفيا بإبعاده عنهما، فقد عرّضاه للعار والشنار والاحتقار، وتربى سبة على نفسه وعلى شقيّين متواريين تنزل عليهما اللعنات وهما يستمعان ولا يجرؤان أن يعترضا على لاعنهما، ولا أن يقتصا لأنفسهما ؛ كلا، بل لا يقدران على التظلم والشكوى . وقد يريانه ويعرفانه كما يعرفان أبناءهما، ولكنهما يفران منه أشد الفرار .

تأمل هذا، وما خفى فهو أعظم، وقارنه بما تقرأه فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فجعل الصلة بين الزوجين وما تضمنت من أسباب السعادة آية من آيات الله، إذ ضمنت حكمة أنها من أنفسهم، وأنها تطمئن إليها النفوس وتسكن الخواطر، ويزول عن المعيشة أسباب الاضطراب والتقلقل ؛ وقد حفهما جل شأنه بشعار المودة والمحبة، وقرّب بين نفوسها بالمحبة الصادقة الثابتة، وأسدل عليهما ستائر الرحمة تكتنفهم، فيحوط كل منهما صاحبه بما يحوط به نفسه، ويرى حياته رهن حياته، وسعادته صنو سعادته، وهناءته قرين هناءته، صدق الله العظيم : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

من هذا يتجلى لك بأعظم وضوح تناسق هذه الآية الكريمة مع ما سبق. يقول تعالى: (وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ) — النكاح: هو عقد بين الزوجين يحل به الاستمتاع بينهما. وهو حقيقة في العقد مجاز في الوطء. وأصله بمعنى الضم، يقال نكح النعاس عينه إذا أغمضها. والأيامى: جمع أيّم؛ فقيل أصله أيايم على وزن فياعل كما هو قياس جمع فيعل، فدخله القلب المكاني، أى قدمت الميم على الياء وفتحت لتصير ألفا. وقيل وزنه فعالى من أول الأمر، وهو جمع شاذ ولا قلب فيه. والأيّم من لا زوج له ذكرا كان أو أنثى، سبق له زواج أم لا، كان خلوه من الزواج بموت أو غيره. وقيل من فقد زوجه بموت أو طلاق؛ فلا يقال للبكر أيم. وقيل خاص بالأنثى. واستدل له بما روى: «الأيّم أحق بنفسها والبكر تستأذن». والمعنى: زوّجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر (وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ) والمراد بالصلاح الصلاح الشرعى، وهو القيام بحقوق الله الواجبة عليه: من امتثال أوامره، واجتناب منهياته. وإنما خص بالصالحين فى الأرقاء وأطلق فى الأحرار لأن الصالح من الأرقاء هو الذى يستحق أن يطلب من سيده تزويجه، على ما فيه من تفويت بعض منافع السيد والتزام بعض النفقات. وأما الأيامى من الأحرار فنفقاتهم على أنفسهم، فالترغيب فى تزويجهم محمول على إطلاقه، وكثيراً ما يحملهم الزواج على استقامة السير وتعديل العوج.

والأمر هنا لمطلق الطلب لا للوجوب، إذ لم يقل أحد إنه يجب على السيد أن يزوج عبده، فلا وجوب فى الثانى اتفاقا، فلو حمل الأول على الوجوب لكان اللفظ الواحد مستعملا فى معنيين متغايرين دفعة واحدة، وهو مما لا يقول به الكثير من أئمة اللغة. وأيضا فقد استفاض فى عصره صلى الله عليه وسلم ومن بعده وجود الأيامى بدون نكير. نعم قد يجب فيما إذا تاقت نفسه، ووجد مئونة النكاح، وظن الوقوع فى لزنى لو لم يتزوج، فهذا من الوجوب لعارض. أما إذا لم تتحقق هذه الصفات فقد

يكون مندوبا، كما إذا تاقت نفسه ووجد مشقة فى زجر نفسه ووجد النفقة؛ وقد يكون مكروها كمن خشى التفريط فى بعض ما يجب عليه بالزواج، أو تفويت غرض صحيح تعيّن عليه القيام به؛ وقد يكون حراما كمن تحقق بالزواج ارتكاب محرم كسرقة نفقته أو تضييع زوجه، أو نحو ذلك؛ وقد يكون مباحا فيما إذا تعادلت المقتضيات والموانع، أو فيمن يقدر على النفقة ولا يجد عنده توقانا له، ولكنه قادر على القيام بحقوق الزوجة. أما العاجز فقد قيل بكراهة التزوج له، لأنه قد يمسك الزوجة ولا يعفها فربما تعرضت للمعصية. وعلى الجملة فاستيفاء الأحكام الشرعية فى هذا الباب، وبيان أيهما أفضل: التزوج، أو التخلى للعبادة، موضعه كتب الفقه.

والأمر هنا موجّه للأولياء والسادة بالنسبة للأرقاء، أو موجه لجميع الأمة ويكون معنى الأمر بالإنكاح الأمر بالمعاونة عليه، والتمكين منه، والتوسط فيه، كأنه أمر للأمة بمجموعها أن تسهل طريق أمر الزواج فى بنيها. وهذا هو الأظهر.

قال تعالى: (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) - سدّ لباب التعلل فى تعطيل النكاح، ولا تكاد تجد معطلا للنكاح إلا وهو يتعلل بضيق ذات اليد، فردّ عليهم هذا التعلل بأن الغنى والفقر بيد الله، فلا خوف من التزوج، فقد يكون الزواج مدعاة للغنى كما وعد جل شأنه. وإن فيما تجرى به العادة من حث الزوجة زوجها على السعى والعمل، ونفخها فيه روح الهمة والعزيمة، وشعوره من ناحيته بأنه صار مكلفا بغيره ومسئولا عن رحة ومئونة من معه، وأنه على وشك أن يكون له أولاد يتطالبون كلفا كثيرة، وما يملأ قلبه بعد التزوج من النخوة والحمية، واستنكاف التضعضع والانهزام، كل أولئك ينأى به عن الكسل والبطالة، ويدفعه طوعا أو كرها لأن يغامر فى سبيل الحياة ويكدح لها كما يكدح أمثاله وهو طريق عادى من طرق تحقيق الله وعده بالغنى لمن يتزوج. ولقد كان يلتمس الغنى بالزواج، ويلتمس المجد بالزواج، وتلتمس الاستقامة

بالزواج . ولقد يُضيع الأيم من المال ومن فرص إحراز المال بسبب الانغماس في شهواته الدنيئة مالو احتفظ به لكان من الموسرين .

وقوله تعالى : (وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) تقرير لهذا الوعد الكريم ، فسعة فضل الله لا تضيق برزق هذين بعد اجتماعهما وقد وسعتهما حال افتراقهما ، فلا نفاد لنعمته ، ولا حدّ لقدرته ، وإنما اختير الوصف « بعليم » دون كريم مثلا — ليبين لنا أن ما يجريه جل شأنه على الزوجين من غنى أو فاقة إنما هو بحسب مشيئته وواسع حكمته ومقتضى علمه ، فهو مدبر الكائنات بعلمه ، ومنظمها بمشيئته ، وسع كل شيء علما . فربما كان من مقتضى حكمته أن يبقيا على فاقتهما ، أو أن يشتد فقرهما ، فلا اعتراض على حكمه ، ولا تعرض لمشيئته ، ولا نقض لما أبرم ، ولا دفع لما حكم ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

لا يقال : إن الغنى بالمشيئة للأيم والمتزوج ، فما الذى أفادته هذه الآية ؟ لأنا نقول : إذا لا تخش من الزواج فقرا ، ولا تبتعد عنه لهذا السبب فلا يصلح مانعا ، بل اذا جعلته سببا لسعة الرزق على ما فصلناه فذلك صحيح منك ، غاية الأمر أنك لا تغالى فى سببيّته وتجعله وحده الكفيل بجلب الرزق ، فإن ذلك منوط بعلمه تعالى وحكمته ، فاسلك سبيل العمل المتقن ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولا فرق بين عمل الدنيا وعمل الآخرة .

وإذ كان تسبب الغنى عن الزواج هو بهذه المثابة من أنه مظنة لمن سلك سبيله لا أنه من الموصل جزما ، فلا تعارض بين الآية وبين قوله تعالى : (وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ) فلكل حالة حكمها فى علم الله تعالى ومشيئته ، ويتبين أيضا حسن موقع قوله تعالى : (وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ) فإنها لدفع غرور من يتوهم أن هذا هو الباب المضمون الموعود به الوعد الجازم ، كلاّ فذلك إنما هو المظنة ، أو على الأقل إزاحة التعلل به فى طريق إيقاع الزواج لمن يجد أصل المكنة .

ومعنى وليستعفف : ليطلب العفة بالعمل على ما يحققها : من ضبط النفس ، وحفظ الجوارح والحواس عن الاسترسال فى طريق الشهوات ، ومنعها من الاشتغال بتذكر تلك اللذات ؛ وقد جاء « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى من وجد ما يقدر به على تحصيل المستمتع فليتزوج فإنه أحصن لدينه ، ومن عجز عن وجدان وسائله فليقطع عنه شواغل الشهوة بالصوم ، فإنه بتواليه مضعف لهذه الشهوة التى لا يثيرها إلا الامتلاء . ومعنى « لا يجدون نكاحا » لا يجدون وسائله الموصلة اليه ، فعبّر بعدم وجدانه وأراد عدم وجدان الوسائل الموصلة اليه .

وقوله : (حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ) فيه وعد لمن كفّ عما يحب امتثالا لأمر ربه أن يمكنه الله من نيله متى صدقت نيته ، وذلك من فضله لمن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ومن هنا أخذ بعض الفقهاء أن الاشتغال بالعبادة لمن تاقت نفسه للزواج ولم يجد ما ينفقه ، أفضل . ورأى بعضهم أن الكدّ لتحصيل أقل ما يلزم للزواج أفضل . وليس هذا محل استيفائه .

هذا وليس من الاستعفاف المطلوب فى الآية ما يفعله بعض الحمقى من استعمال أدوية تزيل عنهم هذه القوة ، فذلك غير جائز ؛ وقد تزول الأسباب الداعية اليه فيحاول عودة ما ذهب فلا يجد اليه سبيلا .

قال الله تعالى : (وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ) .

تقدم فى الآية السابقة الأمر بتزويج الأيامى الأحرار ، والصالحين من العباد والإماء ، وجاء فى تلوها ما يفيد أن الله تكفل لهم بالغنى ، وشرحنا فى وجه ذلك الأسباب العادية التى تصل بالمرء متى سلكها سلوكا صحيحا الى باب الغنى وسعة الرزق ،

وهذا أمر خاص بالأحرار جزما ، ومسدود فى وجوه الأرقاء ، إذ العبد وما ملكت يداه لسيده ، فهو ما دام رقيقا لا سبيل له الى الغنى ، ولكن تلك الأسباب التى قدمناها : من حفز الهمة ، وإحياء الشعور ، وتقوية العزيمة ، واستنهاض المواهب الكامنة فى النفس ، أمر لا يخص الأحرار وحدهم ، بل مثلهم فى ذلك الأرقاء ، فالناس متساوون فى أصل الخلقة ، وما كانت الظروف التى قضت على واحد أن يكون رقيقا لتغير من جبلته ولا أصل خلقته ، فلماذا تعطل فى العبد مواهب قد تكون ذات أثر محمود ؟

إن الشريعة التى جاءت لإصلاح شئون البشر عامة ما كانت لتهمل هذا القانون الإلهى فى خلقة البشر ، وما كانت لتزيل سنة الله فى خلقه ، بل تؤيدها وتنميها ، ولكن هل معنى ذلك أن يجبر السيد على ترك حقه فى رقبة العبد بلا مقابل لأنه زوّجه ، فيكون قد جنى على نفسه بتزويجه إياه ؟ كلا لا شئ من ذلك ، إنما هو العدل فى المعاملة ، والفضل فى المعاشرة ، والإحسان فى العمل ، وبين العدل والفضل والإحسان لا يضيع حق ولا تهمل مواهب . فيأيها السادة : ستجدون فى بعض عبيدكم من تتوسمون فيهم الخير ، وترون أنفسهم تتحفز لأرقى مما هم فيه ، فيدتفع بهم انتفاعا أوسع ، فيطلبون منكم أن يشتروا أنفسهم منكم بمال تمكنونهم من جمعه ، فتطلقون أيديهم فى الكسب مع امتلاك رقابهم — وأكثر ما يكون ذلك اذا شعر العبد بنوع سيادة ، وذلك عند تزوجه ، أو شعرت الأمة بنوع استقلال فى الحياة عند تزوجها ، ولعل هذا هو السر فى الإتيان بالآية الكريمة المتعلقة بأمر الكتابة بين هذه الآى المتعلقة بأمر الأبضاع — فاذا وجدتم فيهم ذلك وجاءكم مما ملكت أيمانكم من يبتغى الكتاب منكم ، فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا . والكتاب والمكاتبة : مصدر كاتبه اذا عقد بينه وبين عبده ذلك العقد ، وهو أن يتعاقدا على أن يؤدى له مالاً فيعتقه على هذا المال ، فقد ضمن للسيد عوضا عن ملك يده ، وهو ما يؤدى اليه . وليفرض

أنه باعه وضمن للعبد خلوص رقبته من الرق متى جدّ فى الاكتساب حتى حصّل ما يطلب منه .

ولحرص الشارع الحكيم على تحرير الرقب أمر أن يعطى المكاتب مالًا يستعين به على أداء ما عليه ليحرر رقبته . والتعبير عنه بمال الله لتقرير الباعث على الامتثال ، أى فذلك مال الله ، وهو الذى رزقكم إياه ، وقد طلب اليكم أن تؤتوا بعضا منه شكرا له على إيتائه إياكم كله . وهل لو أنعمت على واحد بمائة وطلبت اليه أن يعطى فلانا منها عشرة ، يسعه أن يتأخر عنك ؟ هذا فى إعطائك وهو إعطاء مجازى ، فكيف بأمر من له النعمة والفضل ، وهو وحده المعطى الوهاب ؟

والآية لتقرير حكم المكاتبة كما علمت ، وقد اتفق على طلبها ، واختلف فى وجوبها إذا طلبها العبد وكان أهلا للوفاء فى نظر السيد والأمر بالإيتاء فى قوله : (وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى آتَاكُمْ) قيل موجّه للسادة فيجب على السيد أن يحطّ عن عبده شيئا من المال المتفق عليه ، فقيل : الربع ؛ وقيل . العشر ؛ وقيل غير ذلك ؛ وقيل موجّه لجماعة المسلمين ، أى عاونوا المكاتبين على تحصيل مال المكاتبة تحقيقا لمراد الشارع من تحرير الرقاب ؛ وقد فرض لهم نصيب فى الصدقات فى قوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ) .

ومعنى « إن علمتم فيهم خيرا » أى أمانة وقدرة على أداء ما كاتبتموهم عليه وللفقهاء كلام فى وجوبها حينئذ أو ندبها . وفى وجوب تنجيمها أى تأجيلها على نجوم وأقساط ، أو جواز تعجيلها ، وفى وجوب حطّ شىء عنهم من مال الكتابة أو عدم وجوبه ، وليس هنا محل استقصائه .

قال تعالى . (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) .

هذا كلام عن حال كانت دائمة فى الجاهلية وحصلت فى الإسلام ، ولكن على يد

من ادّعى الإسلام وهو منه براء، ذلك عبد الله بن أبىّ ابن سلول رأس المنافقين. وقيل حصلت من اثنين أحدهما هو. وتلك الحال كانت فى نظرهم من فروع العلاقات بين السيد وما ملكت يمينه، وهى عائدة على أمر ملك اليمين مما يرجع الى التصرف فى الأبضاع وهى أشنع ما كانوا يعملون فى هذا الباب. فلما قرر أمر تزويج لصالحين من العباد والإماء، وأتبعه بأمرهم بالإفضال على الأرقاء بالعتق ولو فى مقابلة امال اذا أنسوا منهم الخير، وذلك يكون غالبا عقب زواجهم، وإن كان الحكم فيه أعم، أردف ذلك بالزجر عن تلك العادة القبيحة التى كانت موجودة فى الجاهلية وتسربت بعض تسرب الى جماعة ممن انتسب الى الإسلام، فعبّر فى النهى عنها بعبارة تبرزها فى أشنع صورة وأقبحها وأبعدها عن الذوق الصحيح والطبع السليم، فقال: (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَاءِ). روى أن عبد الله بن أبىّ — قيل: وآخر — كان له إماء يكرههن على البغاء ابتغاء أخذ الأجر على عهرهن، وابتغاء امتلاك من يلدنه من هذا السفاح، فلما نزل تحريم الزنى امتنعت إحداهن فضربها فشكت للنبى صلى الله عليه وسلم، وقيل لأبى بكر، فأبلغ شكواها للنبى صلى الله عليه وسلم، فنزلت الآية. وروى أنه صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر بقبضها إليه فقبضها، فصاح ابن أبى: من يعذرنا من محمد (صلى الله عليه وسلم) يغلبنا على مماليكنا، فنزلت الآية.

وترى فى أسلوب الآية ضروبا من التشنيع على سوء فعالهم، فقد نهاهم عن الإكراه والإكراه أكبر شناعة من الإباحة لهن ومن أمرهن، وعبر عنهن بالفتيات وهنّ فى هذه السن أميل للفجور، وأبعد عن تقدير محاسن الأمور، وأضافهن إليهم، وإن من عنده أدنى ذرة من مروءة ونخوة لا يرضى أن يمس هذا الفحش أحدا ممن يحويه بيته، فكيف يأمر به ويكره عليه؟ والتعبير بالبغاء الذى هو زنى النساء خاصة — لمزيد الشناعة، فلا يدعو أحد امرأة تنتسب اليه لأن تزنى بغيره إلا اذا عدم حاسة الشرف بالكلية.

وقوله : (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) أكبر وأعظم فى التشنيع ، فاذا كنّ هنّ وهنّ نساء ناقصات لا يقدرن الشرف والمروءة والغيرة قدرها ، وفى سن الشباب حيث تشتعل الشهوة ويهيمن الطيش على الجوارح ، قد أردن التحصن ، فكيف بكم وأنتم رجال تزعمون أن لكم مجدا وكرامة ، تكونون أنقص منهن ، وليس بعائد عليكم شىء مما يشعرن به من لذة ضحينها وأعرضن عنها ؛ وفى التعبير عن رغبتهن بالإرادة التى هى الميل المصمم الجازم مزيد تنويه بمسلكهن . ثم فى كلمة التحصن مغزى دقيق ، وهو إبرازهن بصورة من يحاصكم حصنا لهن يدرأن به عن نفسهن العوادى ، فهل يكون حصنهن هو الذى يجنى عليهن ويسلمهن لما يكرهنه ؛ وهو استفزاز للنخوة والحمية لا نجده فى التعبير بدلها بكلمة «تعففاً» مثلا . ثم قوله بعد ذلك : (لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ) كشف للقناع عن غايتهم من التدهور فى هذه المخازى ، وذلك أخس غاية وأحقر غرض . وهل يبلغ امرؤ بالقدح فى آخر أكثر من أن يقول عنه : إنه قوّاد ليأخذ دريهمات ؟ فى التنصيص على غرضه من تلك السوأى أكبر تقبيح وتعيير فظيع .

وإذ قد علمت أن الآية مسوقة للنعى عليهم ، وتقبيح فعلتهم ، والمبالغة فى تفظيع مسلكهم ، وتصويرهم بأشنع الصورة ، علمت فساد مايتوهم من أن الآية خصت النهى عن الإكراه بحالة ما إذا أردن تحصنا . فلو كان مفهوم المخالفة معمولاً به لاقتضت قصر النهى على هذه الحال ، وذلك لأن من يقول بمفهوم المخالفة يخصه بما إذا لم يكن للقيد المذكور فائدة إلا إخراج الصورة التى فقد فيها القيد عن الحكم ، أما إذا كان للقيد فائدة كما هنا وهى مزيد التشنيع على عملهم ، فلا يعمل بمفهوم المخالفة .

ومعنى مفهوم المخالفة أن يأتى المتكلم بحكم يقيده بحالة ، فيكون من ليس فيه هذه الحالة خارجا عن الحكم ، كما إذا أعطيت مالاً لأحد ليتصدق به على الفقراء ، وقلت له على المرضى منهم ، فليس له أن يعطى فقيرا سليما . وللمسألة مزيد بسط فى كتب الأصول .

ومحصل معنى الآية : أيها السادة الرجال ، المالكون لرقاب العبيد و الإماء ، كيف قبلت نفوسكم أن تقبلوا ذلك العار الكبير والدنس العظيم على من تحويه بيوتكم ويخالط نساءكم، ولا تنفروا منه ، مع نفرة أولئك الضعاف الأذلاء المحقورين منه ، على صغر نفوسهن وصغر سنهن ؟! ثم هل تقبلون هذه المخازى من أجل عرض لحياة الدنيا والعرض ظل زائل ومتاع ذاهب ! بل هذه الحياة دنيا بالقياس الى الحياة الحقيقية العليا ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان .

(وَمَنْ يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فالوبال بعد هذا الإكراه قد حاق بالمكرِهين، وسلم من شره أولئك المكرَهات، فقد باءو بإثمهن وتجون من سوء فعلهن ، فالتقدير : غفور رحيم لهن لا لهم . ولما كان هذا المقدر ظاهرا واضحا ، وهو « لهن لا لهم » استغنى عن ذكر الضمير العائد من جملة الجزاء ، وهى جملة « فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » على اسم الشرط وهو من فى قوله . « ومن يكرههن » . ويرى بعضهم أن هذا ليس جواب الشرط ، بل الجواب محذوف والمذكور علة له دالة عليه، والتقدير: ومن يكرههن فقد باء وحده بإثمهن ونجون هن من العذاب ، فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم . وقيل للجميع بعد التوبة .

وتعليق المغفرة والرحمة بالإكراه فى قوله : «من بعد إكراههن» حيث لم يكتف بقوله : « ومن يكرههن » لدعوة أولئك الفتيات الى التمسك بما أردن ، وألا يقعن فيما أكرهن عليه إلا كارهات ، وذلك أنهن عرضة الميل أثناء هذا الفجور الى مطاوعة الرغبة البشرية .

هذا والإكراه فى الزنى متصور فى المرأة قطعا ، وأما فى الرجل فقد قالوا لا يتصور وقوع الزنى من الرجل إلا عن انجاه رغبة ، والإكراه لا يحرك من نفسه تلك الداعية التى يقوى بها على الزنى .

قال تعالى : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) أى والله لقد أنزل الينا آيات مبينات : والآية هى العلامة فكل آية نزلت فهى ناطقة بأنها تنزيل من حكيم حميد ، شاهدة بصدق من بلغها وهو الرسول الكريم ، متضمنة من المنافع والإرشاد ما يدعو سامعها الى أخذها بقلب سليم ، فهى آيات ، وهى بينة واضحة ، وهى مبينة للمصالح والأحكام . فلفظ مبينات إما مأخوذ من بيّن اللازم بمعنى تبين ، كقولهم : قد بيّن الصبح لذى عينين ، وإما من بيّن المتعدى لأنها بينت لنا الحدود والأحكام ، وأنارت لنا طريق السعادة فى الحياتين ، وهدتنا إلى مالو اتبعناه حق اتباعه لعشنا فى أسرنا وفى جيراننا ومعاشرينا وأمّتنا أهنأ معيشة ، وحيينا أهدأ حياة ، فلقد بينت الآيات السابقة أحكام الحياة البيتيّة ، والعشرة بين الناس وحددوها على أكمل وجه وأجمله .

وقوله : (وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ) — المثل القصة العجيبة التى تماثل غيرها ، وذلك متجلٍّ فى آيات الإفك السابقة ، فإنها تماثل ما حصل ليوسف عليه السلام إذ رمته امرأة العزيز بتلك الخيانة الشنيعة ، فبرأه الله ، وكان فضل الله عليه عظيما ، فقد رمته بأنه خان من اشتراه ومن هو فى بيته ؛ ودعوى النساء فى مثل هذه يكاد يصدقها الناس بمجرد ادعائها : لا يطلبون عليها بينة ولا شهودا . وكذلك تماثل ما حصل لمريم عليها السلام حين جاءت به قومها تحمله ،فقالوا ما قالوا ، ورموها بالإفك حتى برأها الله تعالى وكانت من القانتين .

وقوله : (وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) هى ما تجلّى فى تضاعيف تلك الأحكام من الحكم البالغة والآداب الجمة . أجل : لقد منّ الله علينا بهذه الآيات والأمثال والمواعظ ، وذكرها امتنانا ليبين مقدار النعمة فيها ، وأكد ذلك بالقسم فى قوله : (ولقد) فاللام لام القسم ، كل ذلك لنعرف قدر نعمته ، فنقوم له بحق شكرها . نسأله تعالت قدرته أن يوفقنا لواجب الشكر ، فالأمر منه واليه ، وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

ابراهيم الجبالى

السُّنَّة

بسم الله الرحمن الرحيم

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ٱلْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَٱلْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى ٱللَّهُ عَنْهُ) رواه البخاري . وفي رواية (قَالُوا : أَيُّ ٱلْإِسْلَامِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : مَنْ سَلِمَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ) .

ما أكثر ما يدعى الانسان ما ليس فيه ، ويظهر بغير ما يبطن ؛ بل ما أكثر ما يخدع المرء نفسه فيزعم لها ما لم تتحقق به على الوجه الأتم ، فيرضى عنها وهي ليست أهلا للرضا ، ومن رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه ؛ وإن أكثر ما يصاب الناس بذلك من اكتفائهم بالمراسم والحدود الشكلية ، وغفلتهم عن مراقبة بواطنهم ، وامتحان سرائرهم ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، والصحيح من الزائف ، قال تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) وما كان الله بحاجة في العلم الى الابتلاء ، وما كان علمه حادثا عن جهالة ، حاش لله : وإنما هو أنه يتبين الأمر لذى عينين ، فلا يخدع امرؤ نفسه ، ولا يبقى لمخدوع أو خادع حجة . ومثل ذلك قوله تعالى : (الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) أي فما كانت دعوى الإيمان وحدها مقبولة حتى تؤتى ثمرها ، وتستتبع أثرها ، وهذا إنما يكون في حال المحنة واشتداد الفتنة ، كما يقول القائل :

اذا شتبكت دموع فى خدود تبيّن من بكى ممن تباكى

ولقد عرفت أركان لاسلام ، وأصول الايمان ، ومراتب الإحسان ، فى شرح الحديث الذى سبق لمجلة شرحه ؛ وتبيّن من حديث بعده ما كان يتوخاه صلى الله عليه وسلم فى أمر المسلمين بالأعمال : من أنه لا يعمد لى العنت والمشقة ، ولا يخرج بهم عن حـدود الطاقة ، فإن الأعمال يقصـد منها تهذيب النفوس وتربيتها ، لتبلغ فى الكمال والفضيلة المرتبة اللائقة بها .

وإن هذا الحديث لذى سقناه باب من أبواب الامتحان واختبار النفس فى قولها : « أسلمت وجهى لله رب العالمين » أى تركت هوى نفسى وميولى وما أحب ، وجعلت ذلك كله تابعا لمرضاة الله الذى أسلمت له وجهى وذاتى ؛ وإن رضاه أحب الىّ من والدى وولدى ومن نفسى التى بين جنبىّ . اذا تم للمسلم ذلك فقد تم له أنه أسلم وجهه لله رب العالمين إسلاما صادقا لا مواربة فيه ولا خداع .

وإن من أجلى مظاهر ذلك ضبط نفسه حين يثور غضبها ، وتمكنها الفرصة من البطش بخصمها ، وتستطيع إزال الأذى به وهو غير قادر على دفعها . فاذا استطاع المسلم ضبط نفسه فى هذه الحال حقيقة ، فقد أتى إسلامه ثمره ، واستتبع أثره ، وصح أن يوصف بأنه مسلم حقا . فالمسلم الذى أثمر الاسلام فى نفسه وأينع ، هو من ملك الاسلام عليه جوارحه ، وقيّد بأحكامه تصرفاته . هو من لا يطاوع نزعات نفسه ، ووساوس شيطانه ، وثوران غضبه ، بل يطرح كل ذلك تحت قدميه ، ويقول : قد أسلمت نفسى وقواى لسيدى ومولاى ، لله رب العالمين ، فلا أتصرف فيها إلا بما يرضى مالكها ، وقد كبحنى وزجرنى ونهانى أن أقترف مع مسلم أذى ، فاذا لم أقف عند حدود أمره ونهيه فما أنا بصادق فى دعواى أنى أسلمت نفسى له .

على هذ تعرف أن ما أفادته الجملة من حصر المسلم فيمن هذه صفته وإفادتها نفى الاسلام عمن لم يتحقق بهذه الصفة ، هو من باب الحكم بنفى الحقيقة التى تنتج ثمرتها

المقصودة منها. وأمثال ذلك في الكلام الفصيح كثير — تقول: ليس برجل من لم يدفع الضيم عمن التجأ إليه، وليس بعالم من لم يعمل بعلمه، وليس بابني من لم يقم بواجب برّى وليس بمسلم من لم يكفّ أذاه عن المسلمين، وليس من الأسرة من يسعى في ضرر أفرادها، وهلم جرا. وعلى هذا لا يقال: هل من آذى المسلم يكفر؟ ولا يقال: هل من سلم المسلمون من لسانه ويده ولو لم يأت بأركان الاسلام يعدّ مسلما؟ لا يقال هذا ولا ذاك، لأن الكلام ليس في تحديد معنى المسلم وبيان الضابط الذي يجمع أفراده ويستوفى ماهيته ويخرج ما عداه، كلّا، بل المعنى: أيها المسلمون: إن بكم أن تختبروا نفوسكم وتتهموها فيما قد تلبس عليكم فيه، وذلك بأن ترقبوها حين يتعارض هواها مع رضا ربها وأخص ذلك حال الغضب وثوران النفس مع إمكان القدرة على الأذى، فإن وجدتموها كفّت عن شرها وكظمت غيظها ابتغاء مرضاة ربها، فقد سلمت لها دعواها، فاشكروا لله نعمته؛ وإن رأيتموها تمادت في الطغيان ومتابعة الشيطان، فتنبهوا لما أصابكم في أعز ما تقصدون، فالدين المعاملة، والصلاة عادة، والصوم جلادة، فلا تثقوا بمجرد ذلك حتى يكون هوى نفوسكم تابعا لما جاء به نبيكم.

وإلى هذا ينحو ما جاء في الرواية الأخرى، وهي سؤال «أيّ الاسلام أفضل قال من سلم المسلمون من لسانه ويده» فكلتا الحالتين حالة إسلام، ولكن هذا إسلام أثمر وهذا إسلام أخلف وأجدب، ولا يسوى بين المثمر والمخلف. والسلامة من اللسان هي السلامة من الهمز، والاستهزاء، والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، وغير ذلك من المضار التي قد تأتي على الحرث والنسل، وتهلك النفوس، وتخرب البيوت.

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

فربّ كلمة أهلكت قبيلة، ودمرّت مدينة؛ بل رب كلمة أفسدت ملكا كبيرا. وبهذا يتبين سر تقديم اللسان على اليد، فخطره أشد، والتحذير منه آكد. والسلامة

من اليد يدخل فيها السلامة من القتل ، والسرقة ، والنهب ، والضرب ، وأمثالها .
وعلى العموم فإن أنواع الأذى قد تعورف فيها أنها دائرة بين القولى والفعلى ، ومظهر القولى غالبا اللسان وإن جرت به اليد ، كالكتابة والإشارة ، ومثلها العين فى إشاراتها وغمزاتها ؛ ومظهر الفعلى غالبا اليد ، فهى مظهر القدرة عادة ، وإن جرت الأذية الفعلية فى بعض الأحيان بغيرها ، كالركل بالرجل . ومن الأذى الفعلى استيلاء اليد المعنوية ، كغصب الدور والعقار ، بمظهر القوة بلا استعمال يد ، بل بنحو إصدار أمر لأتباعه ، وأمثال ذلك ، فذلك كله من الأذى الفعلى الداخل فى قوله : «ويده» .

والتعبير بالمسلمين ليس بقيد ، بل مثلهم المسلمات ، ومثلهم الكتابيون الذين لهم مالنا وعليهم ما علينا ، إنما التعبير به لأنه الغالب الذى يعتبر مظهرا لتأثير الاسلام فى تربية النفس وتهذيبها ، وتعويدها الضبط على مقتضى أحكام لدين . ومن كفّ عن أذى المسلمين الذين تكثر المعاملة معهم عادة — وهى مدعاة التعديات — وكان كفّه امتثالا لحكم إسلامه ، فهو كافّ أيضا عن غيرهم ، حيث نهاه دينه عن أذاهم . والمراد الأذى بغير حق ، فليس من الأذى المنهى عنه إقامة الحدود والتعزيرات ، فهى نفع وإرشاد لا أذى .

قال صلى الله عليه وسلم : (وَٱلْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى ٱللهُ عَنْهُ) .

لقد كان للهجرة فى صدر الاسلام مقام رفيع عظيم الخطر ، وكانت عنوان شرف ومجد لمن هاجر من المسلمين ، نوّه بها القرآن الكريم فى غير ما آية . فلما فتحت مكة وأمن الناس فى ديارهم على الاستمساك بدينهم ، لم يبق موجب لتحصيلها ، فجزع لذلك المسلمون الذين فاتهم تحصيل هذه الفضيلة فى وقتها ، فجاءت هذه الجملة الجامعة مبينة أن الفضل فى الحقيقة ليس راجعا الى مغادرة مكان الى مكان ، وإنما المقصد الحقيق

هو الفرار من الافتتان ، والهرب من لوقوع فى مخالب الشيطان ، بمعاشرة من تغلّب فيهم الكفرُ والعصيان ، فلا يزال هذا الباب بحسب سره ومقصده الحقيق مفتوحا ، وإن فات مظهره المحسوس ، فالمسلم فى كل حالاته عرضة لفتنة الشيطان ، ووسوسة النفس ، ومنازعة الهوى ، وكل هذه جنود سوء تحاول أن تستولى عليه حتى تفسد عليه دينه ، فمن انتزع نفسه من تلك الجنود المحيطة به تحاول أن ترديه وتهلكه ، وفرّ منها الى ربه ، فقد هجر ما أحاط به مما ألفه ألفة المرء لوطنه وخلانه . وهل ترى فرقا بين انتزاع المرء نفسه من هوى متغلب عليه و نفس متسلطة وشيطان متحكم ، وبين انتزاع جسمه من الأوطان والأتراب والخلان ؟ إن المجاهدة هى المجاهدة ، والمشقة فى الحالين واحدة ، والمقصود الحقيق هو السعى لسلامة النفس مما يوقعها فى غضب الله وسخطه .

وأصل المهاجرة من الهجر ، وهو الترك ، فهى إما على غير بابها ، لأن الهجر من جانبه وحده ، وإما مفاعلة من الجانبين ، كأن وطنه وخلانه ومعاشريه قد هجروه كما هجرهم أو قد هجرهم هجرا يحملهم على أن يقابلوه بهجر مثله . وكذلك فيما معنا هنا قد هجر دواعى هواه وبواعث شهواته هجرا قطع فيه كل سبب يوصل ما بينه وبينها ، حتى كأنه حمل تلك البواعث على أن تغادره وتقطع صلتها به كما قطع صلته بها .

إخالك بعد أن تنعم النظر فيما جلوناه لك من محاسن هذا الحديث الشريف قد تجلّى لك ما فيه من جوامع الحكم ولوامع الهدى . نسأله تعالى أن يحقق نفوسنا بهداه وألا يجعلنا ممن اتخذ إلهه هواه — إنه سميع مجيب .

ابراهيم الجبالى

حديث

ما من مولود إلا يولد على الفطرة

جاءنا هذا السؤال من حضرة الفاضل صاحب التوقيع :

سيدى الأستاذ الجليل صاحب الفضيلة الشيخ **يوسف الدجوى** .

السلام عليكم ورحمة الله — لم يسبق لى شرف التعرف بكم ، ولكن سبق لى كثيرا الانتفاع بآثاركم وبقلمكم فى كل ما هو دينى اجتماعى . لذلك أتقدم اليكم الآن راجيا الانتفاع بكم وبعلمكم الغزير واطلاعكم الشامل فى ذلك الموضوع الذى يهمنى كثيرا ، وكذلك كل من يعنى من أساتذة علم النفس بمعرفة إحساسات الطفل . وأملى كبير أن أجد روح الدين الاسلامى فى الخلقة وفى طبيعة البشر حينما أهتدى بواسطة جوابكم الشافى الى أن الاستعداد الموجود فى الطفل يتفق كليا أو جزئيا مع تعاليم الإسلام الحنيف . لذلك أرجو التكرم ببيان هذا الحديث (كل ابن آدم يولد على الفطرة وأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه) من غير أن يذكر الحديثُ « أو يسلمانه » . فمنطوق الحديث يفيد أن الاسلام أصل وطبيعة وأن ما عداه طارئ ، فما وجه ذلك وما سره ؟ أرجو أن تبينوا ذلك بيانا شافيا يتفق وما نعرفه من علم النفس مما تهدى إليه التجربة وترشد له المشاهدة .

ثانيا : ما المراد بالفطرة هنا : هل الفطرة هى الاسلام أم هى الاستعداد لقبوله ؟
ثالثا : أمجرد أن الانسان إنسان أو ابن آدم كاف فى أن يعرف الاسلام بحيث لو نشأ فى شاهق جبل — كاصطلاح الفقهاء — أو بعيدا عن كل تعليم ، أمكنه أن يتوصل

الى دين والى دين هو الاسلام بنوع خاص ؟ أو أنه لابد من التعليم والتهذيب ، وإذاً يكون الدين أو الخلق من تأثير الوسط وتأثير الجماعة ؟

أرجو أن تفيض فى الموضوع بما يشفى الغليل ، حتى يلتقى البحث العملى بالبحث الدينى ، ويصدّق الأول الثانى أو يهدى الثانى الأول . وإنى منتظر جواب فضيلتكم ؟

ابراهيم سلامه
مفتش بالمعارف وعضو بعثتها بفرنسا

الجواب

مقدمة :

إن هنالك أموراً بدهية لا يختلف فيها الصغير والكبير ، فهى عند الطفل كما هى عند الرجل ، وإن ما جاء به الاسلام من وجود الصانع ووحدته وعدم مماثلته لخلقه هو من وادى هذه البدهيات التى توجد فى كل فطرة إنسانية ، وليس المراد تفاصيل الشريعة ، بل المراد الأصل الأصيل الذى يتحقق به الاسلام . ولنبين هذا الإجمال فنقول : إن الطفل لديه علوم ضرورية غرسها الله فى فطرته لحكمة كبرى .

ولنذكر لذلك أمثلة :

(١) فمن ذلك أنه يدرك بالفطرة أن الجزء أقل من الكل ؛ ولذلك إذ أعطيته نصف تفاحة مثلا فبكى فأعطيته النصف الثانى ، سكت ورضى ، وما ذاك إلا لكونه يعلم علما فطريا أن الجزء أقل من الكل ، وأن الكل أعظم من الجزء ، وإن لم يتنبه لذلك تنبهاً فكريا ، ولا يمكنه الإفصاح عنه ، فان البدهيات مركوزة فى الفطرة فلا تحتاج الى عمل من العقل ولا حركة من الفكر ، فلذلك تصدر منه هذه الأشياء فى حين أنه لا يعرف تحديدها .

(٢) ومن ذلك علمه بأن النقيضين لا يجتمعان، ولذلك تراه يبكى إذا رأى حيوانا أو طفلا دخل البيت لا يحب وجوده فيه، فإذا أخرجت الحيوان أو الطفل سكت واطمأن، وما ذاك إلا لكونه يعلم علما فطريا أن الحيوان أو الطفل لا يكون داخل البيت وخارجه فى وقت واحد، فالعلم اذاً بأن النقيضين لا يجتمعان، أو تقول بعبارة أخرى: انّ الشىء لا يوجد فى مكانين فى آن واحد، هو علم بدهى مركوز فى فطرة الطفل غير محتاج الى نظر وفكر.

(٣) ومن ذلك اذا أمرته مداعبا أن يأتى بشىء من نافذة مثلا وهو قصير لا يصل إليه، قال لك بلسان حاله أو مقاله: إنه لا يدركه، أو طلب منك شيئا يطول به ككرسى مثلا، وذلك مبنى على إدراك فطرى هو الفرق بين الطويل والقصير.

(٤) ومن ذلك أنك إذا قلت له: هات كذا، ذهب مسرعا إليه، فكأنه يعلم أن المسافات المحدودة ذات النهاية تقطع بالعدو، وأن الذى لا يقطع إنما هو غير المتناهى.

(٥) ومن ذلك تفرقته بين الحق والباطل، والصدق والكذب، فإنك إذا أخبرته بشىء تريد أن تخدعه، فتراه لا ينخدع ولا يسارع الى التصديق، فاذ أخبره شخص آخر بذلك وتضافرت لديه القرائن على صدق الخبر، قبل وصدّق، وما ذاك إلا لتفرقته بين الصدق والكذب، والحق والباطل، فهو يسكن الى الحق دون الباطل، والى الصدق دون الكذب.

(٦) ومن ذلك علمه أن الحوادث لا تكون إلا فى زمان، فاذا أخبرته بشىء قال لك: متى كان هذا؟ وإن قلت له: لِمَ قلت هذا؟ قال لك: متى قلتُه؟ علما منه بأن الحوادث لا بدّ لها من وقت تقع فيه.

(٧) ومن ذلك أنه يعرف أن للأشياء طبائع وحقائق تقف عندها ولا تتجاوزها، فتراه إذ رأى شيئا لا يعرفه قال: أىّ شىء هذا؟ فاذ عرّفته به سكن واطمأن وفرح بذلك.

(٨) ومن ذلك علمه بأنه لا يكون فعل بلا فاعل ، فإنه إذا رأى شيئا مع طفل آخر قال له : من أعطاك هذا ؟ وإذا ضربه شخص من ورائه التفت : فهماً منه أن الفعل لا يكون بغير فاعل ، وأن الأثر لا يوجد بدون مؤثر .

(٩) ومنها إدراكه أن هناك أشياء قبيحة وأشياء حسنة ، وأن ما يعود على النفس بالثناء والمدح ينبغي فعله ، وما يعود عليها بالنقص والذم ينبغي تركه ، ولذلك تشجع الأطفال وتثار فيهم رغبة فعل الحسن بمدحهم والثناء عليهم ، وينفرون من فعل القبيح بذم من يفعله وتهجينه عندهم .

فهذا كله ونظائره مشاهد فى الأطفال من أول نشأتهم ؛ وهذه الأشياء الفطرية كلها صحيحة مركوزة فى أفراد النوع الانسانى صغيرهم وكبيرهم ، ولا يشك أحد فى شئ منها ، إلا من أصيب عقله بآفة غيرت فطرته . وقد قال بعض الحكماء : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان » وفساد الانسانية إنما هو بفساد هذه الفطرة .

المقصود :

إذا تمهد هذا فاعلم أن الاعتراف بالصانع وتوحيده هو من تلك الأمور الفطرية فإنه راجع الى أن الأثر لا يوجد بدون مؤثر ، وأن الفعل لا يحدث بدون فاعل ، وهو مركوز فى نفس الطفل كما بينا . فالاسلام يقول للناس : آمنوا بأن لكم إلهاً واحدا عظيما ، ويستدل على ذلك بهذا الدليل الفطرى ، فيقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) فها أنت ذا ترى هذا الدليل فطريا يعرفه كل أحد ، فإن وجود الأثر بدون مؤثر محال فى إدراك الفطر الانسانية ، حتى عند الطفل كما شرحنا (وكذلك يستحيل عندها وجود النظام بدون منظم) كما أن إيجاد الانسان نفسه محال فى الفطر ، فإن الصانع لا بد أن يكون متقدما على صنعته ، ولا يصح فى بداهة العقول أن يتقدم على نفسه .

ثم نقول : إن من تلك العلوم الفطرية أيضا أن المثلين لا بد أن يثبت لأحدهما ما ثبت للآخر ، وإلا لم يكونا مثلين ، وبذلك العلم الفطرى .

نقول : إن الله تعالى مخالف لنا ، لأنه لو ماثلنا لكان حادثا مثلنا ، وعاجزا مثلنا ، ومتغيرا مثلنا ، وفانياً مثلنا ، الى آخر ضروب المماثلات ؛ وهو دليل واضح لا يحتاج لى كبير تأمل ، لأنه راجع الى ما هو مركوز فى الفطر من أن ما ثبت لأحد المثلين ثابت للآخر . فهذا هو ما جاء به الاسلام فى أبسط تعاليمه وأول أصوله . وقد علمت أن الفطرة تشهد له وتنطق به ، إلا أن تصاب بآفة تغيّرها عن خلقتها فتنحرف بها عن الجادة ، وتميل بها الى مُنعرِجات الطريق ، وملتويات الشعاب ، وسحيقات الأودية .

ولتلاحظ أن لفطرة الانسانية فى غاية الصفاء واللطافة ، فلأجل لطافتها المتناهية ، واستعدادها الواسع ، وقابليتها غير المحدودة بمقتضى إنسانيتها وما أراد الله بها ، لأجل ذلك تراها قابلة للخير والشر ، والنفع والضر ، والكمال والنقصان ، والكفر والإيمان ، والجهل والعلم ، والضلال والهدى ، الى آخر المتضادات والمتقابلات . وبهذا صار الانسان قابلا لأن يكون أرفع المخلوقات على الإطلاق ، وأحطها على الإطلاق . وقلّما يوجد فى باقى الحيوانات إلا استعداد محدود ، فلا تراه مبرّزا إلا فى شىء واحد بخلاف الانسان . فاذا اشتاقت نفسك أن ترى مخلوقا يمثل الأسود فى سطوتها ، والأرانب فى ضعفها ، والعقارب فى أذيتها ، والخنازير فى دنسها ، والدّب فى شهوتها ، فذاك هو الانسان .

فاذا نظرنا الى الاسلام وجدناه جاء بتلك الأصول التى تشهد لها الفطر قبل فسادها ، والبصيرة قبل انطماسها بسبب وجود الانسان فى تلك البيئات الفاسدة ، وهاتيك الأجواء الموبوءة . فاذا وُجد الانسان بين أبوين غير مسلمين ، انحرفا به عن الجادة ، وأخرجاه عن حدود الفطرة ، وأبعداه عن حرمها المقدس ، ووضعها الإلهى ،

فنقشا فى نفسه أن الله يماثل خلقه : فله زوجة أو أم تسمى مريم ، وله ولد يسمى المسيح كما تقول النصارى ، أو عزيراً كما تقول اليهود ، وأنه يحل فى البشر كبقية الأشياء المادية التى يجوز عليها الحلول و لاتصال و الانفصال ، فهو إذاً كغيره لا محالة ، فإن ما ثبت لأحد المثلين يثبت للآخر (ولذلك أثبتوا له القتل ، والصلب ، والتحقير والتسمير ، وكل أنواع الإهانة ، على نحو ما يذكره النصارى) وأن اليهود فعلوا ذلك مع إلههم (إله الكل ، ضابط الكل ، خالق الكل ، الى غير ذلك) :

فانظر رعاك الله هل ترى الفطرة السليمة تسلم هذا فى رب العالمين ، وإله الأولين والآخرين ، الذى يجب أن لا يماثله أحد من مخلوقاته ، كيف ولو ماثلها لكان حادثا مثلها (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) ولكن الاسلام يقول فى وصفه تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ) (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) ويقول نبيه صلى الله عليه وسلم : (لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) فقل لى بعيشك أىّ دين من الأديان الثلاثة جاء بما تقتضيه الفطرة قبل أن يفسدها الأبوان وتقضى عليها (الأوساط) الموبوءة ؟ أهو الاسلام ، أم اليهودية والنصرانية !

هذا والحديث مروىّ فى صحيح البخرى فى مواضع متعددة ، ولفظه من رواية أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جَمْعاء هل تحسون فيها من جَدْعاءَ) ؟ ثم يقول أبو هريرة : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) و « جمعاء » فى الحديث : معناها تامة الخلق . و « جدعاء » معناها مقطوعة الأذن والأنف . والحديث انتهى عند كلمة « من جدعاء » أما ذكر أبى هريرة للآية فهو استشهاد لما فى الحديث .

والفطرة فى الحديث وفى الآية المستشهد بها معناها قبولهم للحق واستعدادهم للدين الصحيح متمكنين من إدراكه على وجهه . أو هو الاسلام ، فإنهم لو تركوا وما خلقوا عليه من سلامة لفطرة لاختاروا الاسلام على غيره من بين الأديان ، لأن نقاء هذا الدين وحسنه يتلاقى مع الفطرة السليمة ، ويتلاءم هو وطهارتها ، ولا يعدل عنه الانسان إلا بآفة من الآفات البشرية كالتقليد للأبوين ، والتأثير للبيئة التى يعيش فيها . وتجد هذين المعنيين فى تفسير الفطرة قد ذكرهما كثير من العلماء .

فصاحب الكشاف قال فى تفسير الآية (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا) ما نصه : الزموا فطرة الله أو عليكم فطرة الله . . . أى خلقهم قابلين للتوحيد ودين الاسلام لكونه على مقتضى العقل والنظر الصحيح حتى إنهم لو تركوا وطباعهم لما اختاروا عليه دينا آخر اﻫ .

والقسطلانى شارح البخارى ذكر فى معنى الفطرة أنها الجبلّة السليمة والطبع المتهيّء لقبول الدين ، فلو ترك عليها لاستمر على لزومه ، لكن تطرأ على بعضهم الأديان الفاسدة اﻫ تجد هذا فى شرحه للبخارى فى كتاب التفسير من هذا الصحيح فى باب « لا تبديل لخلق الله » . وذكر هذا المعنى فى شرحه أيضا للبخارى فى كتاب الجنائز فى باب « إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه » وكذلك فى كل موضع من البخارى يذكر فيه الحديث تجد الشراح يذكرون هذا المعنى .

والمعنى الثانى للفطرة الذى هو الاسلام هو رأى كثير من السلف ، وهو ليس ببعيد من الأول ، لأنه كنتيجة لازمة له .

وهناك معنى ثالث للفطرة ، وهو العهد ، أى عهد (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ) المذكور فى سورة الأعراف . وأظنك تعرف أن كثيرا من العلماء قرروا فى معنى هذا العهد أنه عبارة عن الأدلة التى أقامها الله فى أنفسنا وفى الآفاق ، والتى تدل على وجود الله

وربوبيته ، مع ما وضع فينا من الاستعداد والتمكن التام لفهمها (إذ لا يمكن الاستدلال إلا مع سلامة الفطرة ونقائها ثم يفسد طرق الاستدلال) فهذا المعنى هو والمعنيان السابقان يلتقيان فى نقطة واحدة .

أما كون الحديث لم يذكر «أو يسلمانه» فيمكنك أن تجيب عنه بما قدمناه من أن الاسلام جاء بما هو مركوز فى الفطر ، فهو غنى عن التعليم والتلقين ، بخلاف تلك التعاليم المعوجّة التى تنحرف بصاحبها عن الطريق السوى لى تلك الوساوس والخيالات . ولذلك قال كثير من علمائنا : إن الانسان مكلف بالتوحيد وإثبات الصانع ولو لم ترسل الرسل لأن العقل كاف فيه ، والفطرة شاهدة به ، والآثار دالة عليه . وقد يقول قائل : إن اليهودية والنصرانية فى نقائها وسلامتها هى الاسلام الذى جىء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من حيث العقائد والأصول العامة ، كما قال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) وكما فى النداء الذى خاطب به الرسل كل فى زمنه وحكاه إجمالا فى قوله تعالى : (يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) وفى كثير من آيات القرآن ما يدل على هذا .

والجواب عن ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما يحدث فى هذا الحديث عن هذين الدينين بعد أن تقطعت الأمم أمرهم بينهم زبرا ، وبعد أن اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، وبعد أن آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ، وبعد أن كتموا الحق وهم يعلمون ، وبعد أن شتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وبعد أن حرفوا الكلم عن مواضعه ، وبعد أن قالوا فى الإله ما شاءت لهم أهواؤهم : من أنه ثالث ثلاثة ، وأن المسيح ابن مريم إله أو ابن إله ، حتى كان رسولنا مأمورا بأن يدعوهم الى كلمة سواء بيننا

وبينهم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .
ويؤيد هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أو يمجّسانه) فقرن اليهودية والنصرانية مع المجوسية فى سلك واحد هو سلك الانحراف والزيغ ، ولو بقيا على طهارتهما الأولى لما ساغ أن يسوّى بين هذين الدينين ولوثنية ، على أنهما قبل التبديل هما الاسلام بعينه فى أصوله (إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ) .

وقد سألت عن كون الحديث يفيد أن الاسلام أصل وطبيعة وما عداه طارئ ، فيستطاع أن يجاب على هذا السؤال بما قدمنا ، فإن الاسلام لما كان مرادفاً للحق الذى تهيأت له الفطر واستعدّت لقبوله ، كان أصلا وغيره طارئا . وكذلك كل الأديان فى سلامتها الأولى تسمى إسلاما ، والفطر متهيئة لها قابلة لمبادئها بخلافها على صورها الأخيرة المتبدلة، فإنها طارئة على الفطر متنافرة معها .

وقد سألت : ماذا يعنى الحديث بالفطرة : هل هى الاسلام أو الاستعداد لقبوله ؟ فاختر ما تشاء منهما فإن المعنيين يتصالحان .

وسألت ثالثا : هل مجرد كون الانسان إنسانا كاف فى أن يعرف الاسلام بحيث لو نشأ فى شاهق جبل أمكنه أن يتوصل الى دين والى دين هو الاسلام بنوع خاص ؟ ولقد لفتنك الى هذه النقطة أولاً ، وقلنا : إن بعض علمائنا يقررون أن وجود الصانع وتوحيده ، وكذلك كل العقائد العامة ، يكفى فيها العقل ، ولا يخرج من عهدة هذا التكليف مثل الناشئ فى شاهق جبل (وأصحاب هذا الرأى المعتزلة والماتريدية) . ورأى الأشاعرة أنه لابد فى التكليف بالأصول والعقائد العامة من رسالة رسول يلفتهم الى هذه العقائد على وجهها الصحيح ، وإن كان هذا الرسول غير مرسل الى الأمة التى منها الشخص الذى يكلف بالعقائد ، فيكفى سماعه برسالة أىّ رسول ولو غير مرسل اليه والى أمته ، وأنت خبير بأنه يوجد فى الغالب علم برسالة رسول . وهذان الرأيان يختلف

أصحابهما فى فهم قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً) ، فالرأى الأول يقول بكفاية رسالة العقل والفطرة ، أو يقول : إن المراد عذاب الاستئصال فى الدنيا لا عذاب الآخرة . والآخرون يفهمون الرسالة والرسول على الاصطلاح المعروف ، وأن الرسول هو المرسل بالوحى . وهذا الخلاف إنما هو بالنظر للعقائد والأصول العامة ، كوجود الصانع ووحدته وعلمه . أما الفروع وما هو ليس من العقائد فلا بد فيها من التعليم والتهذيب بالإرشاد والأسوة الحسنة .

والخلاصة أن هناك أمورا عامة يكفى فى الوصول اليها سلامة الفطرة واستعدادها الذى خلقت عليه ، وأن ما عدا هذه الأصول لابد فيها من تعلم وتهذيب وبيئة صالحة . وبهذا الفرق يمكن الجواب عن باقى سؤالك الثالث . « ونسأل الله تعالى أن يزيدك هدى » .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالأزهر

طائفة البهائية

وصل الى ادارة المجلة خطاب من أحد أهالى الاسكندرية ، يذكر فيه أن طائفة تدعى « البهائية » لها اجتماع خاص ، وذكر الساعة واليوم والمنزل الذى يقع فيه الاجتماع ، وأورد شيئا من مزاعمهم الفاسدة ، وطلب تحذير الناس من تضليلهم . ونحن نجيب حضرة الكاتب الفاضل بأن هذه الطائفة من الطوائف الخارجة على الاسلام ، العاملة على هدمه وإفساد عقائد المسلمين . وقد كتبنا فى شأنها مقالا بسطنا فيه أصل نشأتها ، والغرض من دعايتها ، وما تشتمل عليه من ضلالات وإلحاد ، ونشر هذا المقال بالجزء الخامس من المجلد الأول من هذه المجلة .

الفتاوى والأحكام

ترتيب القرآن

ورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :

نزلت آى القرآن الكريم بمناسبة الحوادث ، وكان بعضها مكيا وبعضها الآخر مدنيا . هذا أمر معلوم ، ولكن كيف رتب القرآن على صورته الحالية ؟ وما أساس هذا الترتيب ؟ ومتى كان ذلك ؟ وما السر فى جمع آيات ذات مناسبات مختلفة لتكوّن السورة الواحدة ؟ ومن الذى قام بهذا الترتيب ؟ وما الحكمة فى وجود آيات مدنية فى بعض السور المكية وبالعكس ؟

كفر شكر — جوده محمد السمدنى
المدرس بالمدرسة الالزامية

الجواب

قال السيوطى رحمه الله فى الإتقان ما خلاصته : إن الإجماع منعقد على أن ترتيب الآيات توقيفى ، وكذلك النصوص متضافرة على ذلك ؛ أما الإجماع فنقله غير واحد — منهم الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر بن الزبير فى مناسباته ؛ وعبارته : ترتيب الآيات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره من غير خلاف فى هذا بين المسلمين . وأما النصوص فنها حديث زيد : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن

من الرقاع . ومنها ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهى من المثانى والى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما فى السبع الطول ؟ فقال عثمان . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد ، فكان اذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا — الحديث .

ومنها ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال قلت لعثمان : (وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا) قد نسختها الآية الأخرى فلِمَ تكتبها ؟ أوَ تدعها : قال : يا بن أخى لا أغيّر شيئا منه من مكانه . ومنها ما أخرجه أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله إذ شخص ببصره ثم صوّبه ، ثم قال : أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذ الوضع من هذه السورة : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ) الى آخرها .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورا عديدة كسورة البقرة وآل عمران والنساء والأعراف وقد أفلح والروم والٓمٓ تنزيل وهل أتى على الإنسان وقٓ والرحمن والنجم واقتربت والجمعة والمنافقون والصف . فكل هذه الأحاديث تدل على أن ترتيب الآيات توقيفى ، وأن الصحابة لم يرتّبوا شيئا من آيات الكتاب باجتهادهم ، وإنما رتبوها حسبما سمعوها أو علموها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال بعض الأئمة : إن كلمة الأمة مجمعة على أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله ، هو هذا الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان ، وأنه لم ينقص منه شىء ولا زيد فيه ، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ورتّبه عليه رسوله من آى السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا أخر

منه مقدم، وأن الأمة ضبطت عن النبي صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة.

أما ترتيب السور فقد اختلف العلماء فيه، والمذهب المنصور أنه توقيفي كترتيب نفس آيات السورة، لأن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن كله الى سماء الدنيا، ثم فرق فى بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة، فاتساق السورة كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن قدّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن. ونقل السيوطى عن الكرمانى ما نصه: ترتيب السورة هكذا هو عند الله فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان صلى الله عليه وسلم يعرض على جبريل كل سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه فى السنة التى توفى فيها مرتين، وكان آخر الآيات نزولا: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدَّين.

ومن قال بأن ترتيب السور باجتهاد الصحابة وإجماعهم، لم يرد أن ذلك بمحض رأيهم، بل أراد أن ذلك كان منهم برمزه إليهم حيث علموا أسباب النزول ومواقع الكلمات، فليس اجتهادا، لأن الاجتهاد الاستنباط من الأدلة، وأما هنا فبحث عن الدليل وهو إشارته، فرجعهم فيه رمزه وإشارته، فالترتيب توقيفى. وبهذا لا يخالف صاحب الرأى الأول. وعلى الجملة فترتيب الآيات وترتيب السور توقيفى كما قدمنا.

وننقل لك هنا ما قاله المؤرخون والمفسرون فى كيفية جمع القرآن:

قال العلامة النيسابورى فى تفسيره: روى عن زيد بن ثابت أنه قال: أرسل الىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وإذا عنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتانى فقال: إن القتل قد استمر بقرّاء القرآن يوم اليمامة، وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء فى المواطن

كلها فيذهب قرآن كثير ، وأرى أن تأمر بجمع القرآن . قال : فقلت : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لى : هو والله خير ؛ فلم يزل عمر يراجعنى فى ذلك حتى شرح الله صدرى له فرأيت فيه الذى رأى عمر . قال زيد بن ثابت : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، قد كنت تكتب الوحى لرسول الله ، فتتبّع القرآن فاجمعه ، فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والعسب واللحاف ، ومن صدور الرجال ؛ وكانت الصحف عند أبى بكر حتى مات ، ثم كانت عند عمر حتى مات ، ثم كانت عند حفصة مدة ، الى أن أرسل عثمن الى حفصة : أن أرسلى الىّ بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردّها عليك ، فأرسلت الى عثمان ، فأرسل عثمان الى زيد بن ثابت ، والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فأمرهم أن ينسخوا الصحف فى المصحف ، ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم . قال : ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف بعث عثمان فى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن أن يحرق . قال زيد بن ثابت : فرأيت أصحاب محمد يقولون : أحسن والله عثمان أحسن والله عثمان ؛ وقال على : لو وليت لفعلت فى المصاحف الذى فعل عثمان . الى أن قال : فكان أول من أمر بجمع القرآن فى الصحف أبا بكر ، مخافة أن يضيع منه شيء ، غير أنه لم يجمع الناس عليه . وكان الناس يقرءون بقراءات مختلفة على سبيل ما أقرأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى وقت عثمان ، ثم إن عثمان جمع الناس على مصحف واحد وحرف واحد ، ولذلك نسب المصحف اليه ، وجعل ذلك إماما ، وأعلموا أن القرآن كان مجموعا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما أنزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يكتب له أن يضمها فى موضع كذا من سورة كذا ، ولا نزلت سورة إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

الكاتب أن يضعها بجنب سورة كذا . روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال : ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا . وعن أنس قال : جَمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من الأنصار : أبىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد . قيل لأنس : مَن أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى . غير أنهم لم يكونوا جمعوا لها فيما بين الدفتين ، ولم يلزموا القراءة تو لى سورها ، وذلك أن الواحد منهم اذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ثم خرج فى سرية فنزلت فى وقت معين سورة ، فإنه كان اذا رجع يأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، ويتتبع ما فاته على حسب ما يتسهل له ، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه ، وقد كان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب على ما كان من عادة العرب فى حفظ أنسابها وأشعار شعرائها من غير كتابة ، ومنهم من كان كتبها فى مواضع مختلفة من قرطاس وكنف وعسب ، ثقة منهم بما كانوا يعهدون من جد المسلمين فى حفظ القرآن ، فلا يرون بأكثرهم حاجة الى مصحف ينظر فيه ، فلما أن مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبيله ، وجند المهاجرون والأنصار أجنادا تفرقوا فى أقطار الدنيا ، واستمر القتل فى بعضهم كما مر ، خيف حينئذ أن يتطرق اليه ضياع ، فأمروا بجمعه فى المصحف . انتهى من النيسابورى .

مما سبق يتبين :

١ — أن ترتيب القرآن على صورته الحالية توقيفى بتعليم جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتعليم المصطفى لكتبة وحيه وأصحابه رضوان الله عليهم .

٢ — اذا علمت أن الترتيب توقيفى من عند الله سبحانه وتعالى لم يبق محل للسؤال عن أساس الترتيب ، لأن الأساس هو أمر الله سبحانه وتعالى : (إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وليس فى إمكان أحد أن يدرك ما أراده الله من المناسبات لهذا الترتيب قطعا ، وكل ما يمكن هو إدراك بعض المناسبات فى أسباب النزول من الحوادث على ما يرى مفصلا فى كتب التفسير .

٣ — كان الترتيب فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أنه لما كان رسول الله موجودا لم يكن هناك حاجة إلى كتابة القرآن جميعه فى صحيفة واحدة ، لأن الكل يرجع الى الرسول عند النسيان أو الاختلاف فى القراءة . أما بعد أن انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى وجاور ربه فقد كان الحفظة من الصحابة كثيرين ، وما كان ليخشى من ضياع شىء من القرآن — غير أنه حدث بعد ذلك أن تفرق المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، والتحم القتال بينهم وبين من يعارضون دعوتهم الى التوحيد ونشر الاسلام ، وكان كثير من الحفظة ممن خرجوا للقتال ، وقد حمى وطيس الحرب ، وكثرت القتلى منهم فى الواقعة التى ذكرت قبل ، وهى واقعة اليمامة ، لما وقع ذلك خشى عمر رضى الله عنه فرأى — ورأيه الموفق — أن يجمع القرآن المحفوظ فى صحيفة واحدة ، فأشار على أبى بكر بما سبق بيانه ، وكتب القرآن وجمع فى صحيفة واحدة ، وبقى عند أبى بكر مدة خلافته ، وبعده عند عمر ، وبعده عند حفصة ، الى آخر القصة السابقة .

هذا وقت الترتيب للناس جميعا : الحافظ منهم وغير الحافظ ، وهو ترتيب توقيفى . ومن هذا يعلم الجواب عن سؤال (ومن الذى قام بهذا الترتيب ؟) .

أما السؤال عن السر فى جمع آيات ذات مناسبات مختلفة لتكوّن السورة الواحدة ، فلا محل له بعد أنّ الترتيب من عند الله ، وأنه هو الذى علمه الرسول بالوحى ، وأن الرسول علّمه لأصحابه كما أنزل عليه . وقد سبق القول بأن المناسبات بيّنها بقدر جهدهم المفسرون . كما أن السؤال عن الحكمة فى وجود آيات مدنية فى بعض السور المكية

وبالعكس ، لا محل له أيضا . على أنك اذ علمت أن المكى هو ما كان قبل الهجرة والمدنى ما كان بعدها ، وعلمت أن القرآن نزل منجّا حسب الحوادث ، لم يصعب عليك أن تفهم أن السورة مكية ، أى نزل أغلبها قبل الهجرة ، أو أن تلك مدنية أى نزل أغلبها بعد الهجرة . ولا خفاء فى أن العبرة للغالب ، وأن للأكثر حكم الكل .

والله أعلم ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً

شد الرحال
لزيارة قبر رسول الله
صلى الله عليه وسلم

وورد من حضرة صاحب التوقيع عدة أسئلة منها السؤال الآتى :

هل تشد الرحال لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عدم نية زيارة المسجد النبوى ؟

مصطفى احمد الرفاعى اللبان
مراقب جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية باسيوط

الجواب

اعلم أن زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو زيارة قبره عليه السلام مستحبة بإجماع الأئمة ومن بعدهم ، قال الكمال ابن الهمام فى شرح فتح القدير ما نصه : المقصد

الثالث فى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم — قال مشايخنا رحمهم الله تعالى : من أفضل المندوبات .

وفى مناسك الفارسى وشرح المختار أنها قريبة من الوجوب لمن له سعة . وقال أيضا : والحج وإن كان فرضا فالأحسن أن يبدأ به ثم يثنى بالزيارة ؛ وإن كان تطوعا كان بالخيار ، فاذا نوى زيارة القبر الشريف فلينو معه زيارة المسجد أى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه أحد المساجد الثلاثة التى تشد اليها الرحال ، والأولى فيما يقع عند العبد الضعيف تجريد النية لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم . الى أن قال : وإذا وصل الى المدينة اغتسل بظاهرها قبل أن يدخلها ، أو توضأ ، والغسل أفضل ، ولبس نظيف ثيابه والجديد أفضل ، وما يفعله بعض الناس من النزول بالقرب من المدينة والمشى على قدامه الى أن يدخلها حسن ، وكل ما كان أدخل فى الآداب والإجلال كان حسنا ، وإذا دخلها قال : بسم الله رب أدخلنى مدخل صدق — الآية — اللهم افتح لى أبواب رحمتك وارحمنى ياخير مسئول وارزقنى من زيارة رسولك صلى الله عليه وسلم ما رزقت به أولياءك وأهل طاعتك . وليكن متواضعا متخشعا معظما لحرمتها ، لا يفتر عن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، مستحضرا أنها بلدته التى اختارها الله تعالى دار هجرة لنبيه ، ومهبطا للوحى والقرآن ، ومنبعا للايمان والأحكام الشرعية .

وقال رحمه الله : فاذا دخل المسجد فعل ما هو السنة فى دخول المساجد من تقديم اليمين ، ويقول : اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ، ويدخل من باب الميمين أو غيره ، ويقصد الروضة الشريفة وهى ما بين المنبر والقبر الشريف فيصلى تحية المسجد مستقبلا السارية التى تحتها الصندوق ، بحيث يكون عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن إن أمكنه ، وتكون الحنية التى فى قبلة المسجد بين عينيه ، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قيل قبل أن يغير المسجد ، ويسجد لله شكراً على هذه النعمة

ويسأله تمامها، ثم يأتى القبر الشريف فيستقبل جداره ويستدبر القبلة على نحو أربعة أذرع من السارية التي عند رأس القبر فى زاويته، ثم يقول فى موقفه : السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك ياخير خلق الله. الى آخر ما قاله رضى الله عنه.

وقال الحافظ المحقق أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادى الحنبلى ما خلاصته : إن الحاج إذا أشرف على مدينة النبى قبل الحج أو بعده استحب له أن يغتسل، فاذا دخل المسجد بدأ باليمنى وقال : باسم الله والصلاة على رسول الله اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك. ثم يأتى الروضة بين القبر والمنبر فيصلى بها ويدعو بما شاء، ثم يأتى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويقف متباعدا كما يقف لو ظهر فى حياته : بخشوع وسكون، منكس الرأس، غاض الطرف، مستحضرا بقلبه جلالة الموقف، ثم يقول : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. الى آخر ما نقله من قوله : إن سائر كتب شيخه ابن تيميه ذكر فيها ابن تيميه استحباب زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وسائر القبور ولم ينكر زيارتها فى موضع من المواضع ولا ذكر فى ذلك خلافا إلا نقلا غريبا ذكره فى بعض كتبه عن بعض التابعين. وقال فى موضع آخر : إن شيخ الاسلام ابن تيميه لا ينكر الزيارة الشرعية ولم يكن ما سئل فيه وأجاب عنه خاصا بالسفر الى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم، فإن هذا السفر على هذا الوجه مشروع مستحب باتفاق المسلمين، ولم يقل أحد من المسلمين إن السفر الى زيارة قبره محرم أو مكروه مطلقا.

وقد نص علماء الحنابلة على أن المسافر فى زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم يقصر الصلاة، وما ذاك إلا لأن سفره لا معصية فيه. وقال القاضى عياض فى الشفا : زيارة قبره صلى الله عليه وسلم سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها. ونقل عن أبى عمران أن الزيارة مباحة بين الناس، وواجب شد المطى الى قبره صلى

الله عليه وسلم ، قال القاضى : يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد لا وجوب فرض ، وحديث « لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى ، والمسجد الأقصى » لا يعارض ما قلناه ، ولا دلالة فيه على منع شد الرحال ، لأن الحديث — كما قال الحافظ فى الفتح — معناه لا تشد الرحال الى مسجد لذاته إلا الى الثلاثة مساجد ، لأنه ليس فى الأرض بقاع لها فضل بذاتها شهد الشرع باعتباره ورتب عليه حكما شرعيا حتى يسافر اليها غير تلك المساجد ، أما غيرها فلا تشد اليها لذاتها بل للزيارة أو غيرها من المقاصد الفاضلة ، لأنه لاسبيل الى المنع لإفضائه الى سد باب السفر لطلب العلم وصلة الرحم وغيرها من مهمات الأمور . وقد التبس ذلك على البعض فزعم أن شد الرحال لزيارة من فى غير تلك الأماكن داخل فى المنع مع أن المقصود المزور لا المزار .

من هذا الذى ذكرناه لك تعلم أنه لا نزاع فى استحباب زيارته صلى الله عليه وسلم وأنها — كما قال القاضى عياض — سنة من سنن المسلمين مجمع عليها وفضيلة مرغب فيها . وغير خاف أن من سافر لتحصيل الأمر المندوب اليه المستحب يكون سفره طاعة وقربة ، سواء أكان ذلك السفر سعيا على الأقدام أو بشد الرحال والمطى ومن الذى ينكر على المسلمين شد الرحال لقيامهم بأعظم قربة ، وهى زيارة أعظم الخلق على الإطلاق ؟!

من هذا يظهر جليا جواز شد الرحال لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم وقد علمت أن ابن الهمام — وقد بلغ مرتبة الاجتهاد — يرى أن الأولى تجريد النية لزيارة قبره صلى الله عليه وسلم . وما كان إنكار ابن تيميه شد الرحال لزيارة القبور إلا انكارا على من يقصد زيارة القبور قصد حج وعبادة . أما زيارة القبور للقيام بشعيرة وسنة فبعيد كل البعد أن ينكره ابن تيميه ، والله أعلم ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقا

القـــرآن

وورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

ما الدليل العقلى على أن القرآن نازل من عند الله ؟

المغربلين — محمود محمود

الجواب

القرآن كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه ، وهو المعجزة الكبرى على صدق رسالته صلى الله عليه وسلم . ولا يخفى أن المعجزة هى ما يقصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول من عند الله ، وأن من شروطها أن تكون فعلا لله أو ما يقوم مقامه ، لأن التصديق به تعالى لا يكون بشىء ليس من قبله ، وأن المعجز ينزل من الله منزلة قوله : صدق عبدى فيما أخبر به عنى . ودلالة المعجزة على صدق مدعى النبوة هى إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقيب ظهور المعجزة ، وهى دلالة قطعية يشهد بها الوجدان ولا يمكن للعقل إنكارها .

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده . أما أنه أرسل وادعى النبوة فلا مجال للشك فيه ، بل هو معلوم علما يقينا لتواتره تواترا ألحقه بالعيان والمشاهدة .

وأما ظهور المعجزة ، فمعجزاته صلى الله عليه وسلم كثيرة ، أهمها القرآن ، فقد تحدّى به ولم يعارض ، فكان معجزة ، ولاشبهة فى أنه تحدى العرب بالقرآن ، وأن ذلك متواتر ، وآيات التحدى كثيرة ، مثل قوله تعالى : (فَأْتُوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) وقوله :

(فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) وقوله : (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ) الآية . وأما أنه لم يعارض فلأنه لو عورض لتواتر لتوافر الدواعي على نقله .

قال القاضي عياض في الشفا : فلم يزل يقرّعهم صلى الله عليه وسلم أشد التقريع ، ويوبخهم غاية التوبيخ ، ويسفه أحلامهم ، ويحط أعلامهم ، ويشتت نظامهم ، ويذم آلهتهم وإياهم ، ويستنتج أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته ، محجمون عن مماثلته ؛ يخادعون أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب ، والإغراء بالافتراء ، وقولهم : إن هذا إلا سحر يؤثر ، وسحر مستمر ، وإفك افتراه ، وأساطير الأولين ، والمباهتة والرضا بالدنيئة كقولهم : قلوبنا غلف ، وفي أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ، ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ؛ والادعاء مع العجز بقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا ؛ وقد قال الله لهم : ولن تفعلوا ، فما فعلوا ولا قدروا ؛ ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كسيلمة كشف عواره لجميعهم ، وسلبهم الله ما ألفوه من فصيح كلامهم ، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم ، ولا جنس بلاغتهم ، بل ولوا عنه مدبرين وأتوا مذعنين ، من بين مهتد وبين مفتون ؛ ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) الآية ، قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر ؛ وذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلا يقرأ (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) فسجد وقال : سجدت لفصاحته . وسمع آخر رجلا يقرأ (فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام . الى أن قال رحمه الله : وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك : فقالت : أو يعدّ هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) الآية ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين ؛ الخ ما قاله رضي الله عنه .

أما وجوه إعجازه فكثيرة ، وقد اختلف الناس فيها على مذاهب : فقيل : هو ما اشتمل عليه من النظم الغريب والأسلوب العجيب المخالف لنظم العرب ونثرهم فى مطالعه ومقاطعه وفواصله ، أى أواخر الآية التى هى بمنزلة الأسجاع فى كلامهم ، فإن هذه الأمور المذكورة وقعت فى القرآن على وجه لم يعهد فى كلامهم وكانوا عاجزين عنه .

وقيل : إن وجه إعجازه كونه فى الدرجة العالية من البلاغة التى لم يعهد مثلها ، لأن من تتبع القرآن وجد فيه فنون البلاغة بأسرها : من إفادة المعانى الكثيرة باللفظ القليل ومن ضروب التأكيد وأنواع التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة ، وحسن المطالع والمقاطع وحسن العوامل ، والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل اللائق بالمقام ، وخلوه عن اللفظ الركيك والشاذ الخارج عن القياس ، والشارد النافر عن الاستعمال ، الى غير ذلك من أنواع البلاغة ، بحيث لا يرى المتصفح للقرآن وتراكيبه نوعا من تلك الفنون إلا وجده فيه أحسن ما يكون ، ولا يقدر أحد من البلغاء الواصلين الى ذروة البلاغة من العرب العرباء وإن بذل طاقته فى تزيين كلامه إلا على نوع أو نوعين من فنون البلاغة ، ولو رام الزيادة عنهما لا يوفق . يعرف ذلك من كان أعرف بالعربية وفنون البلاغة .

ويرى بعضهم أن وجه الإعجاز مجموع الأمرين المتقدمين : أى النظم الغريب ، وكونه فى الدرجة العليا من البلاغة . وقيل : وجه إعجازه إخباره عن الغيب نحو (وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) وذلك كثير يعرف بتتبع القرآن ، وإخباره عن الأمور المستقبلة الكائنة على وفق ما أخبر .

وصفوة القول أنه ما من وجه من أوجه الإعجاز التى تقدمت إلا وهى موجودة فى ذلك الكتاب العزيز الذى (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) وإن إعجازه دليل ساطع على أنه من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً ، والله أعلم ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية سابقا

حكم التلهى ببعض الالعاب

وجاء من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتى :

ما حكم لعب السيجة ، والطاولة ، والدمنيو ، مع مراعاة أن لعب كل ذلك للتسلى فقط ؟

قوص — الخطارة　　محمود خليفة سعد الله

الجواب

قال الحنفية : كره تحريما اللعب بالنرد والشطرنج ، وكره كل لهو وعبث ، فلا يجوز لعب السيجة ولا الطاولة ولا الدومينو ، كما لا يجوز تضييع الوقت فى غير الشىء النافع . وأجاز الامام الشافعى وأبو يوسف رحمهما الله اللعب بالشطرنج بشرط ألا يكون للهو وألا يقامر عليه . وقد نصوا أيضا على عدم جواز الرقص والسخرية والتصفيق وضرب الأوتار : من الطنبور ، والبربط ، والرباب ، والقانون ، والمزمار ، والصنج ، والبوق . هذه الأمور جميعها مكروهة تحريما ، والمكروه تحريما كالحرام يستوجب فعله العقوبة بالنار . وإنما كان الحكم كذلك لأن هذه الأمور من شأنها أن تلهى الانسان عن العبادة والطاعة ، وأن تمنعه عن مباشرة عمله مباشرة دقيقة .

ولو فقه الذين يلعبون هذه الألاعيب الى ما فيها من ضياع وقت كبير يستطيع أن يتعلم فيه الانسان علوما جمة ، وأن يستفيد فوائد عظيمة ، ما وسعهم أن يفعلوها . على أن فى فعل البعض منها ما هو مسقط للمروءة ، كالرقص والسخرية والضرب بالدف دون حاجة الى ذلك ، وفيما أباحه الشارع من الأفعال الموجبة للسرور ، والمفيدة

للشجاعة، كركوب الخيل، والسباحة، والفروسية، وتعلم ضرب السلاح، وما الى ذلك مندوحة عن هذا الصنيع الذى لو تأملت بعض التأمل فيه لوجدت حكمة الشارع فى كراهيته واضحة جلية.

أنظر أنت الى ما تجده فى الأسواق الآن من جماعات يجتمعون زرافات مكبين على لعب الطاولة والدومينو مضيعين أثمن الأوقات فى ذلك، وقد يكون أحدهم أحوج ما يكون الى جزء من هذه الأوقات يسعى فيه لتحصيل رزقه ورزق عياله. وتأمل قليلا فيما تجده بين هؤلاء من مشاحنات ومشاجرات تنجم عن هذه الألاعيب الخبيثة التى قد تدعو لاعبيها الى أن يقامروا بها فيخسروا أموالهم فوق خسران أوقاتهم.

على أن الذى يدعى أنه إنما يلعب للتسلى لو فطن الى أن التسلية بالمباح وبما يجلب النفع خير ألف مرة من التسلية بأمثال هذا الذى يطلبه، لما قال ما قال: من أنه يلعب للتسلية. ولو أن هؤلاء عملوا فى تلك الأوقات لتكميل أنفسهم ولما ينفع أمتهم، لما كان هذا حالنا اليوم من تأخر عن بقية الأمم الناهضة: فليتق الله المسلمون، ويستيقظوا ويعملوا على ما فيه خيرهم، خير من ضياع الأوقات فى مثل هذه السخافات التى لا تجدى نفعا، بل تجلب ضررا.



قيل لأبى عمر بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم ليسمع منها. قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها.

اسلام أميرة انكليزية

نشر بعض الصحف فى القاهرة خبر اسلام الأميرة الانجليزية ديانج مودا أميرة سرواك من بضعة شهور ، وقد أرسل الى مجلة نور الاسلام حضرة الدكتور خالد شلدراك الذى كان إسلام هذه الأميرة على يديه عدةَ نسخ من رسالة انجليزية تضمنت سبب إسلام هذه الأميرة وبعض مقالات أخرى ، ومما جاء فيها عن سبب إسلامها ما ترجمته :

لماذا اتخذت الاسلام دينا ؟

يقول ناشر الرسالة : إن صاحبة السمو الأميرة الانجليزية ديانج مود أميرة سرواك زوجة ولى عهد الراجا بروك دخلت فى الاسلام يوم ١٩ فبراير الماضى (سنة ١٩٣٢) أثناء سياحتها فى طيارة فى منتصف الطريق أثناء اجتياز البوغاز الانجليزى ، وقد أبانت فى خطابها المذاع فى أجواز الفضاء باللاسلكى بيانا واضحاً السبب الذى دعاها الى اتخاذ الاسلام دينا قالت :

سئلت مرارا عن سبب مفارقتى الكنيسة الكاثوليكية والدخول فى الاسلام وها أنا ذا اليوم أتحدث إليكم عنه بواسطة اللاسلكى بناء على طلب شركة الراديو الاستعمارية فأقول :

لما زرت بلادى سرواك لأول مرة منذ عدة سنين ، وهى بلاد تبلغ مساحتها ٥٢,٠٠٠ ميل مربع أو مثل مجموع مساحة انجلترا وويلز تقريبا ، أتاحت لى هذه الزيارة فرصة لدراسة معيشة الطوائف الدينية المختلفة المقيمة فى هذه البلاد ، فإن فى سرواك

٨٠,٠٠٠ مسلم ضمن سكانها الذين يبلغ عددهم ٦٠٠,٠٠٠ ألف نفس يوجد بينهم أيضا بوذيون وبرهانيون ووثنيون ومسيحيون . وقد جذبتني كثيراً لرعاياي المسلمين أحوالهم الخلقية ، وأدركت لأول مرة جمال هداية الاسلام .

ليس فى الدين المسيحى عماد للروح من الوجهة الخلقية

إنى ولدت بروتستانتية ، غير إنى لم أجد لنفسى عمادا خلقيا فى هذه العقيدة الباردة وبعد أن درست علم الديانة المسيحية مدة ، خطوت خطوة جريئة ودخلت فى المذهب الكاثوليكى ، ومنحنى قداسة البابا جلسة خاصة ، ولكننى ما لبثت أن شعرت بأنى لم أخلق لهذه الديانة ، ولو أنى كنت كثيرة الإعجاب بالعمل العظيم الحسن الذى قامت به كنيسة رومة للحضارة ، ذلك لأن فيها أمورا يصعب على نفسى كثيراً قبولها ، ولبثت فى الكثلكة سنتين بذلت فى خلالها جهودا صادقة تتفهم تعاليمها الشاق .

على أنى شعرت بأن المسيح لم يحرم على أحد مطلقا أن يناجى ربه بلا واسطة ، ولا أمر أحدا أن يجثو فى قفص لاعتراف حيث لا يقول الحق من المعترفين إلا قليل .

وفى أثناء ذلك الزمن كان لى اهتمام كبير بالأبحاث العظيمة التى كان يباشرها الأستاذان : فصطان ، ودوباطو ، من أجل تجديد وتمحيص تاريخ الأثر الاسلامى البديع الذى فى حيازتى ، والذى قد عرف أمره فى جميع أنحاء الدنيا ، وأنه من المؤكد أنه قميص النبى صلى الله عليه وسلم نفسه . فهذه الأبحاث البالغة من الأخذ بالألباب مبلغا عظيما حدتنى الى دراسة تاريخ بلاد الاسلام والهداية العظمى لمحمد عليه الصلاة والسلام دراسة أدق مما سبق .

القرآن دعانى لاتباعه

قد دهشت لما فى هذا الدين من الطهارة والحكمة واليسر ، وشعرت بأن قلبى كله وروحى جميعها مغموران بهذه الهداية التى هى فى غاية الملاءمة للبشر وللمعقول . وقد

دعانى القرآن لاتباعه باعتبار أنه خطاب الله الصادر منه مباشرة الى رجل هو خاتم الأنبياء، وإننا لعلى علم بحياة هذا الرجل من أولها الى آخرها، وبمقدار الخير الذى أداه دينه الى العالم. وقلّ من الناس من يعلم أنه بينما كانت أوربة غارقة فى ظلمات القرون الوسطى المخيفة، كانت الحضارة الاسلامية تنشر نورها فتتقدم به العلوم والفنون والآداب تقدّما مجيداً. وإذا كانت أوربة قد استطاعت أن تجد لها طريقا الى التجديد فانما الفضل فى ذلك يرجع الى خلفاء أسبانية المسلمين المستضيئين بنور العرفان. ومن المؤسف أن لا يعلم برقى الشعوب الاسلاميه فى بلادها إلا النزر اليسير بين غيرهم وإنى آنس من نفسى الثقة بأن هذه البلاد سيكون لها فى المستقبل القريب عمل ذو شأن فى التاريخ وهذا السبب مشفوعا بميلى الى البلاد الاسلامية هو الذى دعانى الى إصدار مجلة فى مدينة باريس تسمى مجلة الأخبار الاسلامية « Information Musulmanes » .

هذه هى المجلة الوحيدة المستقلة الموجودة التى تخبر عن رقى البلاد الاسلامية وحياتها أخبارا صادقة، وقد تلقاها بالترحاب الشديد جميع الذين يعنيهم العلم بأحوال هذه البلاد الحقيقية .

ورجائى أن هذه الصحيفة المتجردة للمعنويات ستؤدى خدمة كبرى لا للمسلمين وحدهم بل للعالم كله .

مجاهدة الإلحاد

كلنا يعلم أن أسس الحياة الخلقية قد تداعى لتأثير الإلحاد الشديد، ولهذا كان حقا علينا من أجل التمكن من وقف تأثيره المفسد أن نقيم فى وجهه مثلا أعلى من الأخلاق العالية والآداب الراقية. وسينقل الشرق الى بلاد الغرب قبس الاسلام الذى يؤسفنا أننا كدنا أن نطفئه، وعلينا أن ندرس هدايته الحسنة. وقد قال برنارد شو وأنا موافقة له تمام الموافقة فيما قال : إن الاسلام هو دين المستقبل .

وقبل أن أختم مقالى أود أن أقول : إنى اغتبطت بإعلان إسلامى فى طيارة تسبح فوق متن الرياح أمام الدكتور خالد شلد راك رئيس الجمعية الغربية الاسلامية المعروف بجهوده الذى قضى عمره كله فى خدمة هـذا الدين الذى هـو المثل الأعلى المجيد للأديان كلها .

وأرجو أن أسافر الى ألمانية بعد بضعة أسابيع لورود عدة كتب منها تتضمن ما يشعر به أهل هذه البلاد من الاهتمام بالأثر المقدس للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد طلب منى أن أذهب الى انجلتره فى الشهر الآتى ، وفى آخر فصل الصيف أرجو أن أذهب الى أمريكة مع الدكتور خالد لبيان هداية النبى صلى الله عليه وسلم البالغة فى الحسن مبلغا عظيما ، وسآخذ معى أثره المقدس الذى سأريه لكل من تتطاب نفسه الاطلاع عليه . وإنى مرسلة أحر تحياتى لجميع إخوانى وأخواتى فى الاسلام الذين يستمعون قولى خصوصا أهل سَرَواك .

الظرف والملح

ذكر عتبة بن أبى سفيان كلام العرب فقال :

إن للعرب كلاما هو أرق من الهـواء ، وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مروق السهام من قسيها ، بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عطلت ، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طلبت . هم اللطيف فهمهم ، النافع علمهم ، بلغتهم نزل القرآن ، وبها يدرك البيان ، وكل نوع من معناه مباين لما سواه ، والناس الى قولهم يصيرون ، وبهديهم يأتمون . هم أكثر الناس أحلاما ، وأكبرهم أخلاقا .

الاسلام (١)

حاضره ومستقبله

المحاضرة الاولى

— ٢ —

أهمية المسائل الاسلامية — اعداء المسلمين — انتشار الدين الاسلامي

فاذ كنا رأينا من المفيد أن تأتى بهذا البيان الوجيز عن أسباب سرعة انتشار الاسلام فى اوائل زمن الهجرة فذلك لأن هذا الدين ما فتئ ينتشر فى الوقت الحاضر ولأنه فى حركة تقدمه المستمرة هذه التى تسوقه دائما الى الأمام نجد أن السببين الجوهريين اللذين بيناهما فى أول نشأته لا يزالان العاملين القاطعين لدواعى نجاحه .

وإنا لنجد فى سير الإسلام الممتد وانتشاره فى خلال القرن العشرين هذين النوعين من الأسباب مجتمعة : الأسباب الدينية البحتة ، والأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولنتكلم أولا عن الأسباب الدينية :

ولنبدأ بالتساؤل عما اذا كان فى الإسلام إرساليات تبشير حقيقية كما هو الحال فى المسيحية . إن المسيحية تنتشر فى الخارج بواسطة جمعيات تبشيرية وبواسطة أفراد

---

(١) مترجم عن الفرنسية من مجموعة المحاضرات التى ألقاها الاستاذ ادوار مونتيه مدير جامعة جنيف أمام أساتذة « كلية فرنسا » بباريس سنة ١٩١٠

مبشرين عند البروتستانت ، وبواسطة أعضاء الا كليروس (آل الـكهنوت) العلمانيين وأعضاء الجمعيات الدينية عند الـكاثوليك ، فهل يوجد شئ من هذا القبيل فى الاسلام ؟ نعم ، ولا .

يوجد بعض المرابطين (مشايخ الطرق) — فى أفريقية مثلا — الذين هم فى الواقع مبشرون ، ويوجـد كذلك جمعيات دينية من برنامجها الدعوة لانتشار الاسـلام (وسنتكلم عن هذه الجمعيات فى غير هذا المكان) ولـكن الاسلام فى واقع الأمر ينتشر نوعا ما من تلقاء نفسه . أريد أن أقول إنه ينتشر بواسطة المسلمين أنفسهم ، لأن كل مسلم فى البلاد الوثنية هو مبدئيا رسول لدينه .

فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، وربما كان أقوى إيمانا كلما كان أقل تعليما بله جاهلا ، وتلك خاصية من خاصيات الاسلام : أن يستحوذ تماما على نفس المؤمن بكليته وجزئيته . وإنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المبالين فان الحمية من الصفات المميزة للدين الاسلامى ؛ وإنى أكرر أن المسلم غالبا يحمل فى جسمه أنسجة المبشر، فهو يقوم بالتبشير الاسلامى كما كان يبشر بالمسيحية فى القرون الوسطى أهالى « البجوا » و « فوه » فى نفس الوقت الذى كانوا يقومون فيه بصناعاتهم أو بيع تجارتهم ، إلا أن الفرق بين أولئك الهراطقة الأقدمين وبين مسلمى اليوم هو أن الأول وإن كانوا يلجأون كذلك الى هذه الطريقة الملتوية لنشر مذاهبهم ، إلا أن اضطرارهم للتستر خشية ما كانوا معرضين له من الاضطهاد كان يحملهم على إخفائهم كتبهم المقدسة ومؤلفاتهم الدينية فى صناديق بضائعهم .

فالاسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التى تذهب للتجارة فى البلاد الوثنية أو التى تعبد فيها الأصنام .

فرسل الاسلام تدفعهم الغيرة للتبشير الى الالتجاء الى الوسائل المختلفة والملائمة لكل حالة خاصة فى البلاد وفى الشعوب التى يقومون فيها بأداء عملهم الدينى ، وهنا نرى العامل الدينى يعمل عمله بجانب العاملين الاجتماعى والاقتصادى .

وهكذا أنشأ المبشرون المسلمون القرى التى أسكنوها من أدخلوهم فى دين الاسلام واستحضروهم اليها من الخارج ، إذ قد انتهزوا فرصة القحط الذى كان يفتك بمقاطعة الوانيكاس على حدود الزنجبار ليعرضوا دينهم تحت اسم الاحسان وعمل الخير ، وبذلك استفادوا مرات عديدة من تحرير الرق لنشر مذاهبهم كما حصل فى واداى ، فقد حدث أن قافلة من الرقيق من أهل واداى انقض عليها رحالة من البدو فسلبوها متاعها على حدود طرابلس الغرب ومصر ، فأمر سيدى محمد بن على السنوسى بشراء رجالها وإعطائهم التعليم الضرورى فى زاويته وأعتقهم ، ثم لما وجدهم أهلا للقيام بالتبشير أعادهم بعد بضع سنين من تعليمهم الى بلادهم لنشر الاسلام بها .

أما فى البلاد المتحضرة ولدى الشعوب المتنورة فإن دعاة الاسلام يقومون بنشر دعايتهم بشكل آخر ، اذ يحاولون بفضل تعليمهم الراقى وبواسطة علومهم أن يكتسبوا ودّ الشخصيات ذات المراكز البارزة وبواسطة هذه الشخصيات يؤثرون على الرأى العام ، حتى إنهم يخضعون بمهارة الى بعض العادات المحلية ولبعض النزعم الدينية وإقامة الشعائر الوثنية ، ففى الصين مثلا حيث يستطيع المسلمون أن يتطلعوا الى الوظائف العامة تجدهم لا يشيدون مساجد أعلى من بقية المعابد الأخرى فلا يقيمون عليها المآذن ، وينصحون الى مشايعيهم بالاختلاف الى الحفلات الشعبية التى لها دائما صيغة دينية قومية ، وهم أنفسهم إذا ما التحقوا بالوظائف العامة تراهم يؤدون الشعائر الدينية المقررة قانونا ، وإذا ما تناقشت مع المتعلمين منهم تجدهم يعرضون عليك الاسلام بأن هو دين الفطرة المتفق مع تقاليد آبائنا الأولين والمجرد من المغالاة والمستحدثات المزعومة التى أغدقتها عليه ديانة « كونفشيوس »

وهناك وسيلة فعالة (جدا) لنشر الدعاية الاسلامية وهى « المدرسة » فالمسلمون عند ما يدخلون بلدا جديدا ويقيمون به يكون أول عمل يوجهون اليه اهتمامهم هـو تشييد مسجد ويلحقون به مدرسة ، فى البلاد الأفريقية التى تعبد فيها الأصنام نجد المسلم الذى يأتى اليها من الخارج فيه من الكفاءة والتفوق ما يجتذب به الأهالى الى مدرسته ، فهم يريدون أن يكونوا مثله فى التعليم والتربية والنظام .

وترى كذلك أن المسلمين القائمين بالدعوة الى الاسلام يلجأون لدى بعض العشائر (مثل عشيرة البيجا) التى تقطن فيما بين النيل الأزرق والجبال التى تمتد من الهضبة الحبشية حيث المرأة هناك تفوق الرجل ذكاء وتفكيرا ، فى تلك البقاع يلجأ دعاة الاسلام الى تعليم المرأة على وجه الخصـوص ، وهذا ما فعله كذلك السنوسيون إزاء زنجيات طوبو ، وهذه الطريقة فى التبشير تستلفت النظر كثيرا بقدر ما نرى تعليم المرأة فى البلاد الاسلامية مهملا على وجه العموم .

والاسلام ينتشر كذلك بواسطة التزاوج ، فالمسلم يتزوج بسهولة من الأجناس الأخرى : الافريقية و الصينية وغيرها ، إلا أن المسلم فى الصين إذا رغب فى التزوج من امرأة صينية فانه يأبى أن يزوج بناته من رجال صينيين غير مسلمين .

وأيضا ينتشر الاسلام بشراء أبناء الوثنيين الذين يربون فى حضانة الديانة المحمدية فقد رأينا فى الصين بعض المسلمين المتحمسين للاسلام يشترون من الأطفال الى ما يبلغ ١٠,٠٠٠ طفل ويدفعون ثمنهم نقداً إبان القحط الذى اغتال مديرية شان تونج الصينية .

وإننا إذا بسطنا هنا الاسباب الدينية لانتشار الاسلام فاننا ندخل فعلا فى شرح الاسباب ذات الصبغة الاجتماعية والاقتصادية وحتى الاسباب ذات الصبغة السياسية ، وكل هذه الاسباب مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا محكما ومتصلة كذلك اتصالا تاما بقدر ما أن كل شئ فى الاسلام مصبوغ بصبغة دينية .

ولنبحث الآن على حدةٍ هذه الاسباب من الوجهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ولابد لنا هنا أن نقف لنستعرض أولا بعض الملاحظات العامة التي يخيل الينا أن لها أهمية كبرى .

فالاسلام في البلاد الشاسعة التي ينتشر فيها ويمتد نفوذه — وإني أقصد بها أفريقية — ينم لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية من أرقى الحالات ، وتباعا يعتبر من أولى وسائل التقدم والرقي .

والاسلام في الواقع هو — كما هي الحال في المسيحية — حضارة قائمة بنفسها ، حضارة ترجع أصولها الى قديم الزمن ، ومعنى ذلك أنه تدرج طويلا ومضى بعهد تطور بطيء .

وبلغت تلك الحضارة أوج مجدها في الشرق والغرب في الزمن الغابر ، ثم أخذت في الهبوط والانحطاط ولكنها لم تنعدم قط في وقت ما ، بل وسنرى في قسم آخر من هذه الأبحاث ، كيف أن هذه الحضارة أخذت تستعيد نضارتها وتسترد نشاطها فهذه الحضارة في المقاطعات الأفريقية الوطنية التي دخلت فيها قد ظهرت بدرجة عالية من الرقي والتقدم من الوجهة الادارية والاجتماعية كما هي كذلك من الوجهة الفكرية والخلقية والدينية .

وهذا صحيح حتى إن أحد النقاد المحايدين استطاع أن يجاهر بالقول — عند المفاضلة بين نتائج الاسلام في أفريقية الغربية وبين نتائج تنصيرها أو بالأحرى بين نتائج صبغها بالصبغة الأوربية ، وهو يريد أن يقول : بين تأثير عمل الاسلام وتأثير عمل المسيحية في تلك البلاد من جميع الوجهات — استطاع أن يجاهر بقوله : « اننا بمقارنة بمجموع النتائج التي تسببت عن دخول الاسلام وبين نتائج النصرانية ، ليس فقط من وجهة عدد المعتنقين للدين — لأنه من هذه الوجهة نجد ضعف عمل المسيحية واضحا

كل الوضوح — بل ومن جهة التأثير الفكرى والخلقى والاجتماعى على الجماعات وعلى الأفراد، إذا قارنا بين كل تلك النتائج نجد بدون أى شك أن المقارنة فى مصلحة الاسلام.

فاذا كان لاسلام بداعى سموه له تأثير راجح فى أفريقية فانه يجب علينا أن نثبت كذلك — وهذه هى ثانى ملاحظاتنا العامة — أن الاسلام يمتاز بخاصية الملاءمة لذكاء الشعوب الأفريقية (الشعوب السودانية) ذلك الذكاء الوقاد.

وفى الواقع يشتمل الاسلام على بعض المبادئ التى تتفق تمام لاتفاق مع أصول المبادئ الضرورية للحالة الاجتماعية التى يعيش عليها الشعوب السودانية. وأريد أن أتكلم هنا عن تعدد الزوجات والرق، وعلى الأخص عن بساطة المعيشة، تلك البساطة المدهشة عند كثير من المسلمين.

فهذه البساطة فى المعيشة هى قوة للاسلام، هى قوة تشبّه له تأثيره على السود، قوة شخصية لتربية النفس بالنفس، ولتقوية الارادة والشجاعة عند المسلم الذى يختار لنفسه تلك الحياة البسيطة، وهذه البساطة فى الحياة يعجب بها حقا وهى الى حد عظيم تحققٌ لذلك المثل الأعلى للحياة البسيطة التى اقترحها علينا أخيرا بعض المسيحيين البارزين فى أوربا وأمريكا.

وإن من بين الأسباب المميزة للباعث الدينى والتى سردناها سببا خاصا بأفريقيا يستحق الاهتمام به ألا وهو السبب السياسى، فهذا الباعث لاعتناق الاسلام يختلط فى أكثر من حالة بضرورة المحافظة على المركز أو على النفوذ أو على السيطرة سواء أكان ذلك خاصا بفئة ذات مركز اجتماعى أو بقسم من عشيرة أو من قبيلة أم خاصا بالأفراد على حدتهم.

وهذا السبب السياسى الذى كان داعيا قاطعا لاعتناق لاسلام، كان حقيقة أكثر تأثيرا قبل التقسيم النظرى والفعلى لبلاد أفريقية بين دول أوربا العظمى؛

ولما كان الاسلام عبارة عن نظام سياسى وإدارى فمن السهل أن ندرك لماذا أن الشعوب السوداء أو قبائل بحذافيرها ارتضت الاسلام دينا ذلك الدين الذى أتاها به المسلمون القادمون من الخارج فجاء لها بقوة قيمة لا يستهان بها لحفظ كيانها بصفتها حكومات مستقلة أو هيئات اجتماعية حية وغنية ، وبذلك توطد الاسلام بلا نزاع فى عدة مواقع من أفريقية الوسطى والغربية .

وإن تاريخ المامى ساموري يبين لنا بوضوح جلى الدور الذى كانت تلعبه المصلحة السياسية لاعتناق الاسلام ، فقد كان ساموري فى العهد الأول من حكمه أى فى العهد السابق لاستيلائه على مدينة «فنقان» يتذبذب من الوجهة الدينية حسبما تقتضيه مصالحه السياسية ، فقد كان أولا من عبدة الأصنام ثم اعتنق الاسلام مدة خدمته عند صوري ابراهيم تميذ « محمدو » مؤسس مملكة طيديان التى استقلت وأبقت تحت إمارتها القونيا والجنقوما والطوروقوتو ، ثم عاد بعد ذلك يعبد الأصنام ، وانتهى باعتناق الاسلام إبان حرب القونيا ، وقد كان يحضر على ألفا عثمان أحد مرابطى جلو فوتا جالون والمنتمى للطريقة القادرية والذى على أثر سماعه للمواعظ التى كان يلقيها الحاج عمر جاء وأقام فى هذه البلاد بمدينة ليلينكو ، ومنذ ذلك الحين كان يتبعه فى جميع فتوحاته ، وقد كان — بناء على إيعازه — أن تلقب ساموري بلقب « المامى » بعد حصار فنقان .

ولكن من الواضح جدا أن المصلحة السيسية التى كانت تدفع الوطنيين الى اعتناق الاسلام كانت تقاوم بشدة من جانب استقرار سلطة الدول الأوربية ، فلم يجد السود أنفسهم فى حاجة بعدُ للاعتماد على الاسلام لمقاومة أسباب التلاشى التى كانت ترمى الى إفناء قبائلهم وإضعافهم أمام خصومهم — لم يجد السود أنفسهم فى حاجة لذلك — عند ما رأوا أنفسهم قد أصبحوا ضمن ممتلكات الدولتين المستعمرتين العظيمتين : فرنسا وانجلترا .

وهـذا الواقع أى دخـول الأوربيين فى أفريقيا كان من نتائجه حسب بعض المناطق إبطاء فتوحات الاســلام وإطالة بقاء الديانات الوثنية ، وكذلك العـودة فى بعض الأحوال من الاسلام الى عبادة الأصنام . فقد حـدث أن قسما أصله من مقاطعة قايس من السوننكه أو المـاركا ، الذى كان يدعو الى الاسلام وجاء الى هـذه البلاد حوالى سنة ١٨٣٠ وأقام فى شمال باما كو اغتنى واقتنى عددا عظيما من الرقيق — ان هذا لقسم أخذ يهجر الاسلام ويعبد آلهة بامبارا ، وعلى أثر الاحتلال الفرنسى وعنـد إلغاء الرقيق لا سيما فى سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦ عاد عبيد السو ننكه أو المـاركا الى بلادهم الأصلية ، وهذا ما حمل جـزءا من المـاركا على أن يهجروا المدينة ويأووا الى الريف للاقامة به وفلاحة الأرض بأنفسهم التى كانوا يأمرون عبيدهم بزراعتها واستغلالها ، ومن هنا رأينا عددا من بينهم يعود الى عبادة الأصنام على ما يظهر .

ويذكرون أمثلة أخرى من هذا القبيل فى العودة الى الوثنية حيث كانت المصلحة السياسية — ويجب ملاحظة ذلك تماما — التى أشرنا إليها آنفا بأنها كانت من أسباب اعتناق الاسلام ، ان هذه المصلحة كانت كذلك عاملا عكسيا فى دفع الناس الى عبادة الأصنام ، وفى الواقع أنها هى نفس المصلحة التى كانت تعمل فى طريقين متضادين ، وهى مصلحة المحافظة على حقوق وامتيازات الجنس .

ويخيل إلينا كثيرا أن الدافع السياسى لا يعمل عمله فى أفريقيا اليوم فى مصلحة انتشار الاسلام إلا من الوجهة المحلية البحتة ، فاننا نرى مثلا فى بعض العشائر الوطنية غير الاسلامية التى يوجد بينها بعض المسلمين الذين هم من أصل أجنبى وقد يكونون كثيرى العدد ولهم من حسن السمعة وعلو الجاه إن لم يكن من النفوذ مالا يحملهم أن يخضعوا بسهولة لزعمائهم — إننا نرى فى بعض تلك العشائر أنه ليس من النادر أن يعتنق هؤلاء الزعماء الاسلام علنا وبصفة رسمية : ومن الجلى أن هذا اعتراف بعلو كعب الاسلام بصفته دينا وبصفته عاملا من عوامل الحضارة .

ونستخلص من الوقائع التى أسلفناها : الاحصائيات ، ووسائل الدعاية ، والأسباب المختلفة لاعتناق الاسلام — أن الاسلام ينتشر ويتقدم وحتى يشغل المكان الأول بين مجموعة الديانات التبشيرية ، وهذا الاثبات هو خلاصة بحثنا الأول .

إن أمثلة العود الى الوثنية والردة من الاسلام التى أشرنا اليها ليس لها إلا أهمية ضئيلة ، فالتلك الأمثلة شبيه فى الديانات الأخرى ، وهذا لا يمنع من أن الاسلام كالمسيحية لا يزال منذ عدة قرون فى عهد تقدم مستمر . بل ومن الجائز أيضا أن يأتى زمن وبتأثير أحوال لا نستطيع أن نتنبأ بها نرى أن أحد تلك الأسباب التى دعت الى اعتناق الاسلام وسبق أن نوهنا عنها — أن أحد تلك الأسباب يقوى ويتسع بشكل غير عادى حتى يعجل باستيلاء الاسلام على بعض أنحاء الكرة الأرضية كما حصل ذلك فى خلال تاريخ الاسلام ، ومهما يكن من أمر ما يخبئه لنا المستقبل فنه مما لا شك فى ثبوته أن الاسلام فضلا عن أنه بعيد عن حالة الركود والجمود فانه فى تقدم مستمر ويزداد دائما عدد معتنقيه .

ويروى عن عقبه بن نافع أنه فى سنة ٦٢ من الهجرة (٦٧٨ م) عند ماقام بتجريدة جديدة فى المغرب الأقصى وبعد أن اخترق بلاد مراكش ووصل الى شاطئ بحر الظلمات ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده فى لجة اليم ، ولما بلغ الماء صدر جواده نادى ربه قائلا : « يا إله محمد إن لم تكن أوقفتنى أمواج هذا البحر المتلاطمة لكنت ذهبت الى أقصى البلاد فأحمل ذكر اسمك المجيد لى ممالكة ذى القرنين ، وأحارب فى سبيل الدين وأقضى على من لا يؤمنون بك » .

إلا أن عمل الاسلام وتأثيره كان أعظم مما قال هذا القائد المتحمس المختال الذى فاه بتلك الأقوال السالفة . فالاسلام قد عبر المحيطات ونشر فى كل مكان العقيدة المحمدية .

(يتبع)

العلوم والآداب

أسطورة داروين[1]

وبعدها عن الحقائق الثابتة فى التاريخ الطبيعى

سبق لنا التنويه فى الجزء السادس من المجلد الثالث من هذه المجلة عن مبلغ ما وصل اليه أنصار داروين فى نظرية النشوء والتطور من سخف القول وبطلان الدليل ، حتى فى أبسط الأمثال التى اتخذوها لإقامة دعامة صرحهم ، وكشفنا عن لغوهم فسقطت حجتهم بانهيار بنائهم المتداعى الأركان الضعيف الأساس .

وهكذا يدعون فى أجناس الحيوانات الأخرى المختلفة ما سبق أن تقوّلوه فى الخيول وأمثالها ، ولو أنهم فى هذه الحالة أو تلك لم يستندوا الى أدلة أو براهين قائمة يقبلها المنطق السليم أو يؤيدها العلم الصحيح الثابت . ومما يستدعى العجب ويوجب التشكك أن « الحلقات المفقودة » التى يزعمونها لم يُهتدَ إليها حتى الآن فى جميع عشرات آلاف الحيوانات المعروفة لنا ، كأن القاعدة التى جرى عليها التطور والنزوع التسلسل فى نظرهم الأخرق هى أن تبقى تلك « الحلقات المفقودة » مفقودة الى الأبد

ولعمرى فإنه لو لم يكن لدينا دليل موجب آخر سوى سقوط هذا الزعم وعدم ثبوت هـذا الافتراض لكفى ذلك لإسقاط حجتهم وزلزلة أركان بنائهم المتداعى ،

(١) مترجمة عن الألمانية من كتاب الاستاذ الفاضل والعالم الكبير الدكتور « فان هوفنشتات » فى تفنيد نظرية داروين .

وأصبحنا على بينة من عقيدتهم الزائفة المزعزعة وتفكيرهم الضعيف، وأقمنا بذلك دليلا لا يخالطه الريب فى أن الخالق سبحانه وتعالى هو وحده المسيطر على الإيجاد والإعدام.

وقع أمثال هؤلاء العلماء فى خطأ فى التقدير أدّى بهم الى طريق سُـدت عليهم فيه جميع السبل والمسالك، فلم يهتدوا الى ملجأ يأوون اليه أو منفذ يخرجهم من الظلمات الى نور الهدى واليقين، وهم فى إقامة حججهم يتخبطون فى طرقهم الملتوية على غير هدى فيعودون الى حيث يبدأون: فيفترضون المطلوب إثباته ثم يحاولون إقامة البرهان على سابق فروضهم.

إن الاستكشافات الأخيرة على كثرتها وتعدد أنواعها لآلاف فصائل الحيوانات الحفرية كانت كفيلة بأن تربك أذهان العلماء والمفكرين فى العصر الحديث وتخالط عليهم الأسيب بالنتائج وتدفعهم الى الاعتقاد فى نظرية النشوء والتطور، فداخلتهم الوساوس فى أن عدم الاهتداء الى «الحلقات المفقودة» بعدُ لا يحتم فناءها، ووجدوا أنه من السهل الأخذ بالرأى القائل بأن حافر الحصان نشأ فى آلاف السنين المديدة عن تحوير فى الأصبع الوسطى فى كل من نوعى «Eohippus» و«Erohippus»، ولكن ذلك يمكن قبوله كتفسير منطقى، ولا يمكن اعتباره برهانا ثابتا بأى حال من الأحوال.

يذهب الدارونيون فى غلوائهم الى أن التطور جرى فى المملكة الحيوانية من حيوانات ذات خلية وحدة (أميبيا) لحيوانات متعددة الخلايا (ميتازون) لحيوانات نباتية، ثم الى ديدان لحيوانات ذات جلود شوكية لحيوانات رخوة، ثم أخيرا الى الحيوانات ذات الأعضاء المختلفة والحيوانات الفقرية. ثم قسموا الحيوانات الفقرية الى سبعة أقسام أهمها الأسماك والطيور والحيوانات الثديية، ويفترضون أن لطيور نشأت من الزواحف الطائرة وأشباهها، وأن مبدأ التطور كان الطائر الأول المسمى «Archaeopteryx lithografica» الذى كان له فى كل من جناحيه مخلب وله ذنب طويل مثل أذناب الزواحف مغطى بريش الطيور، ولا بد أن هذا الطائر الأول كان

من الحيوانات ذات الدم الساخن . ومما لا يمكن تفسيره أن أحد الحيوانات ذات الدم البارد مثل الزواحف يتطور على مدى الأحقاب حتى يصير من الحيوانات ذات الدم الساخن . وقد عثر المنقبون حديثا فى تراكيب الأرض التى يرجع عهدها الى العصر الثلاثى الجيولوجى على بقايا حفرية لأحد أنواع الطيور المنقرضة المسماة «Pseudosuchier» وهو من أسرة الطائر الأول ، «Archaeopteryx» ولكننا لم نتمكن حتى يومنا هذا من إقامة الدليل الكافى على أن هذا الطائر الأخير يمت بأى علاقة — من حيث الاشتقاق — للطائر الأول .

يتقولون على إحدى أنواع السحالى المائية المعروفة باسم «Ceratodus» بأنها إحدى حلقات التسلسل بين الحيوانات المائية والحيوانات التى تعيش على اليابس ولكنها فى الحقيقة — كما ثبت ذلك حديثا لكبار علماء الحفريات — نوع قائم بذاته مستقل بكيانه يتوسط نوعين مختلفين فى طبيعتهما . ولو أن هذا النوع المذكور من السحالى المائية الذى كان يعيش فى أقدم عصور قبل التاريخ كان أحد حلقات التطور كما يدعى داروين وأصحابه ، فلم لا نراه اليوم يعتريه أى تغيير فى شكله أو ظاهره وما زلنا نجده فى بعض نهيرات استراليا ؟ ولم لا يزال محافظا تمام المحافظة على نوعه المتوسط بين الأسماك والأمفيبيا (الحيوانات التى تعيش فى الماء واليابس) ؟ .

فلو أن هناك تطورا كان وما زال يسيطر بأحكامه على المملكة الحيوانية ، لكان من المنتظر أن يعترى مثل هذا الحيوان الدنىء أى تغير بالغا ما بلغ من التفاهة ، إلا أن هذه الأحياء البسيطة أمثال «Amoeba» (الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة) و «Ceratodus» (السحالى المائية) و «Drosophila» (نوع من أنواع الذباب) أبت أن تكون عمادا لأصحاب أسطورة النشوء والتطور الحيوانى .

عجز الداروينيون عن إيجاد أى دليل بسيط فى المخلوقات يستندون اليه فى إثبات التطور ، بعد أن أعوزتهم الحيل المنطقية فى تمويه حججهم الواهية فى إثبات

« الحلقات المفقودة » . ويوجد على ظهر الأرض حتى الآن أنواع وأجناس عديدة من الحيوانات التى يمكن وضعها فى عداد أنواع وأجناس حيوانية ونباتية أخرى كانت تعيش فى العصور التاريخية الأولى ولم يطرأ عليها أى تغيير أو يعتريها تطور ، مثل أشجار الماموث التى توجد بكاليفورنيا ، والسحالى الضخمة فى الصين واليابان ، والسحلية ذات الخياشيم التى تقطن مغار « Adelsberg » وغيرها .

كما ثبت لجهابذة علماء النبات أن أنواع الأزهار وأوراق الشجر والفواكه والحنطة والحشائش التى وجدت بداخل مقابر الملوك المصرية بأهرام الجيزة لم تتغير عن نظائرها فى الزمن الحاضر بعد انقضاء ما لا يقل عن ٤٠٠٠ سنة .

وفى العصر الجليدى كانت تقطن أوربا وآسيا (خصوصا فى سيبيريا) حيوانات الماموث وانقرضت جميعها ، إلا أننا تمكنا من استخراج ما يقرب من عشرين جثة فى حالة جيدة بقيت محفوظة بالأراضى المتجمدة فى سيبيريا ، وهى من أسرة الفيلة التى تقطن أفريقيا وآسيا فى الوقت الحاضر ، ولو أنها تختلف عنها كثيرا فى تركيب جسمها وأسنانها وشعرها ، ولم يتمكن أحد من أتباع داروين من إثبات اشتقاق النوع الثانى من الأول ، أو أن حيوانات الماموث انحدرت من الحيوان المعروف باسم « Mastodon » ولم يتمكنوا من إيضاح نوع الحيوان الذى تطور منه هذا الأخير .

كذلك الحال فى كل من الدب والنمر والأسد الأول التى كانت تقطن المغارات فى العصور التى قبل التاريخ ، فكان دب الغار « Ursus spelaeus » يزيد حجما عن الدب العادى « Ursus arctus » ويختلف عنه فى تكوين الجمجمة ، وكذلك أسد الغار « Felis spelaea » كان يزيد فى الحجم عن الأسد المعروف لنا الذى يقطن غابات أفريقيا بمقدار مرة وثلث ، وبالرغم من عدم وجود أى تماثل يحمل الإنسان على الاعتقاد بأن هذه الحيوانات التى تعيش اليوم على ظهر الأرض ترتبط بصلة ما من وجهة نظر التطور الصحيح بتلك التى كانت تقطن المغارات فى العصور التاريخية الأولى ، فإن أتباع داروين ما فتئوا يرددون أسماءها على ألسنتهم من أمثلة التطور المزعوم .

وفى الفترة الأخيرة من العصر الثلاثى الجيولوجى كانت تعيش بعض أنواع النمور المنقرضة المسماة « Smilodon Californicus » وكانت ذات أنياب جانبية طويلة حادة ولذا أطلق عليها اسم (النمور السيفية) لشدة شبه أنيابها بالسيوف التى كان يبلغ طولها ثلاثة أضعاف أنياب النمور الحالية التى تقطن هضاب آسيا، ويضع علماء الحيوان تلك النمور المنقرضة فى مرتبة الحيوانات المعروفة علميا باسم « Machairodontinae » ولكنه لم يثبت لأحد مبلغ صحة اشتقاق تلك النمور المنقرضة أو الأخرى التى لا زالت عائشة حتى الآن من أسرة النمور « Felinae » من الفصيلة الحيوانية المعروفة باسم « Machairodontinae » ولكن المعروف أن جميع هذه الحيوانات إنما هى أنواع متوسطة مستقلة من فصيلة واحدة، ولا يمكننا عدها حلقات فى سلسلة واحدة حيث لم يقم الدليل الكافى لإثبات اتحادهم فى الأصل والنشأة.

وفى العصر الطباشيرى والعصر الجوراسى (وهو العصر الذى تكونت فيه جبال الجورا وبعض البحيرات العذبة) وكذلك فى العصر الثلاثى الجيلوجى كانت توجد الزواحف على اختلافها بكثرة فائقة وكانت مقسمة الى أسر عديدة مثل « Chelonier » و « Ichthyosaurier » و « Dinosaurier » و « Pareisaurier » وخلافها، وكانت هذه الأسر يختلف بعضها عن بعض اختلافا بينا حتى إنه لا يمكن لانسان ذى بصيرة وعقل راجح أن ينسب إحدى هذه الأسر الى الأخرى، كما أنه يتعذر تصور اشتقاق أو تطور أحد فروع الأسرة الواحدة من فرع آخر.

اتفق علماء الحفريات من أتباع داروين على أن الحشرات التى تمتص المواد السكرية كانت معدومة فى العصر الجوراسى بانعدام الأزهار المعسولة، وليس هذا القول ببعيد فإنه وجدت بطبقات الأرض الجوراسية بقايا حفرية لاحدى أنواع الفراش المسماة « Limatotidus mesosoicus » لم يكن لها أداة لامتصاص المواد السكرية النباتية،

ولكن هذا النوع من الفراش لم ينقرض ، فكثيرا ما نصادف اليوم من هذه الفصيلة عددا ليس باليسير ، فمن المحتمل جدا أن ذلك العصر الجيولوجى كان خلوا من الأزهار السكرية ، ولكن ذلك لا يكفى للاستدلال على أن سنة التطور هى التى جعلت من النباتات زهورا تحمل مواد سكرية وللحشرات أعضاء لامتصاص السكر النباتى ، كما يتوهم داروين وأصحابه بالرغم من ضعف الدليل ووهن الحجة .

كان الأحرى بجماعة المفتونين لو أنهم استعملوا الحكمة والمنطق السليم وبعدوا عن أهوائهم وطرقوا السبيل المستقيم أن يعلموا أن العناية الإلهية هى التى خصت كلا من المملكة الحيوانية والنباتية بخصائص ومميزات تختلف باختلاف الأقاليم والعصور التاريخية المتباينة .

....

المرجو من القارىء الكريم تصحيح الكلمات الآتية :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٣٠	٩	أنه يثير	أن النظر يثير
٥٢٨	٨	المسفاحين	المسافحين
٥٢٨	٢٠	يقوم ذلك	يقوم فيها ذلك
٥٣٩	١٠	وحددوها	وحدودها
٥٥٧	٢١	قد استمر	قد استحر
٥٥٧	٢١	أن يستمر	أن يستحر
٥٥٩	١٤	واستمر	واستحر

It is significant that societies of prevention of cruelty to animals were founded in Europe a little over a century. Many ignorant people who are wont to judge religions rather by the conduct of those who profess it than by the intrinsic value of its precepts, have deemed Islam oblivious of the claims of animals to kindness and wrongly accord the honour to Europe for the institution of those charitable codes. Suffice it to say that the first society of prevention of cruelty to animals was founded in England in 1824 while Islam has urged to kind and merciful treatment of animals thirteen and half centuries ago.

In concluding this article, it should be pointed out that if man, despite his ability to express himself and defend his own rights, stands in need of protection, the dumb animal stands, in this respect, in a far greater need of someone to solicit mercy on its part and defend it against the cruel treatment of people.

It is earnestly hoped that societies of prevention of cruelty to animals, should be established throughout Moslem lands to carry on the great traditions of Islam and supervise the conduct of people as regards the treatment of animals so that they may do all that lie within their power to put an end to the abuse and cruelty which dumb animals suffer at the hands of their cruel owners.

NOTICE

Readers are kindly requested to make the following corrections in the previous issue of this Review :

Page 17	line 10	be should read he
Page 18	line 27	And should read He
Page 19	line 2	debars should read debars from
Page 19	line 4	question should read questions
Page 24	line 21	animals should read animal
Page 24	line 33	forbiden should read forbidden

camel, felt annoyed with it and cursed the animal. The Holy Prophet (Peace be on him), who happened to overhear the woman's curse said :

'Unharness the camel and set it free for it is a cursed one."

The Prophet (Peace be on him) had ordered this as a punishment to the woman.

In another citation of the Tradition, the Prophet is cited to have said : "No cursed camel should accompany us."

It may thus be seen that the way adopted by the Holy Prophet, constitutes a severe warning against the cursing of animals. For it was his practice to point out something which the people thought to be of no consequence and forcibly warn against it until they leave it off altogether. Tho prohibition of cursing animals has a healthy and purifying effect upon men inasmuch as it preserves the tongues from the utterance of evil. When men refrain from cursing dumb animals to which curses are meaningless and unintelligible, they are more likely to refrain from so doing to their fellow-beings.

These are only a few instances of what Islam has ordained as regards kindness to animals That these precepts had a far-reaching effect on the souls of faithful followers, is abundantly shown by the following incident :

Sheikh Abu Ishaq Al-Shirazy (1) was once on a journey in company of one of his friends. As they were going along a road, a dog crossed their path and the friend shouted at it in an attempt to drive it away. The Sheikh severely censured the act and said :

"Are you not aware that the road is common unto us both" meaning thereby that it is as much the dog's as it is his !

Thus has Islam striven hard against cruelty to animals and ordained such laws relating to the treatment thereof as were established on a basis of mercy and kindness. It may be seen from what has already been detailed in this article that Islam has given the lead to the societies of prevention of cruelty to animals and has supplied a sound basis on which they can build up their charitable work. Indeed, there could be no soul or society which preaches a certain aspect of good but will it find in this Religion a strong support and true guidance to help it through when turmoil and confusion prevail

---

(1) Sheikh Abu Ishaq Al-Shirazy is a famous Moslem Law-doctor.

Prophet (Peace be on him) has forbidden the incitation of animals against one another.

Nor is this all. The following incidents will convince the reader of the true love and kindness which Islam bears for animals.

Abu Daoud cites on the authority of Abdul-Rahman Ibn Abdullah (1) who, in his turn, cites on the authority of his own father the following incident :

"We were in company of the Prophet (Peace be on him) on a journey. The Prophet had gone in search of something and we caught sight of a lark with its two young ones which we managed to take from the mother. The lark hovered round us beating its wings frantically against its sides. On coming back and realising what had taken palce, the Prophet (Peace be on him), said : "Who hath bereft this mother of its young ones ? Give them back to her."

Once on the same journey, he came across an anthill which we had burnt down, "Who hath burnt this" ? inquired the Prophet. "We did," we answered. "No one is entitled to chastise with fire save the Lord of fire Himself" (2) said he.

The learned people have declared it a sin to allow a child to play with a bird in such a way as to cause it pain.

As to what is cited in the Tradition concerning a weaned child of Ommou Saleim (3) playing with a bird, it is presupposed that such play involved no torture to it as in the case of the bird being inside a cage or in the case of such play being in the presence of one of the child's parents who knows full well the sin involved in the abuse and torture of animals.

The least that could be said as regards abusing and cursing animals, is that it is definitely a folly which could only be committed by someone who is in the habit to hurl curses and abuses without stopping for a moment to think of their meaning or the purpose that they could possibly serve

Traditions are cited which strongly warns against the cursing of animals. It is cited in "Sahih Muslim," "that a woman who was riding a

---

(1) Abdul-Rahman Ibn Abdullah, a Moslem Traditionist.

(2) Cited by Abu-Daoud.

(3) Ommou Saleim is the mother of Anas Ibn Malek one of the Prophet's companions

The Prophet (Peace be on him) says in this connection :

"If you journey through fertile land, let ye the camels graze thereof" and in another citation of the Tradition : "And pass ye not the halting places."

It is cited in the authentic Tradition that the Prophet (Peace be on him) said :

"No band of bowstring or otherwise should there be round camel's neck but should it be severed and dispensed with."

Some of the learned people have rightly interpreted this Tradition as conducive to kindness to animals. Their argument was that the bands round the camel's necks were ordered to be cut and dispensed with for fear that the animal might, when ridden at full gallop, be strangled thereby as such bands make it inconvenient for it to breathe or graze freely. Moreover it may be feared that the band round the animal's neck might get entangled in a tree and possibly cause the animal to choke or hinder it on its onward career.

It is forbidden to stand upon the back of an animal as this is inconvenient to the animal and necessarily entails a good deal of pain. In this connection, the following Tradition is cited :

"Beware of making use of the backs of your animals as platforms to stand thereon for Allah hath only given them unto you in order to convey you to a place which you could never have reached except with strife and distress of soul." (1)

Al-Ghazali mentions that the pious people of old, never stood upon the backs of animals for any length of time to spare them the pain and inconvenience involved in such act.

Among the ways adopted by the cruel-hearted to torture animals, is the incitation of one animal against another such as takes place between rams, cocks, etc. This so-called sport is forbidden by the Moslem Religion as it involves a great deal of torture and exhaustion to the animal for no useful end whatsoever.

In "Sunnan Abu Daoud and At-Termethy," (2) it is cited that the

(1) Cited by Abu-Daoud.
(2) At-Termethy, a famous Traditionist.

on one occasion three people riding a mule. "Let one of you dismount for the Messenger of Allah (Peace be on him) hath cursed the third," said he.

At-Tabary (1) cites regarding Ali Ibn Abu Taleb that he said :

"If you see three people riding an animal, stone ye them until one dismounteth." This is in case the weight of the three persons overburdens the animal but if it can stand it as for instance when a camel is ridden by a man and two boys, then it is permissible particularly if it is ridden over a short distance.

This was done by the Prophet (Peace be on him) when he came to Mecca mounting a mule and was met by some boys of Beni Abdul-Muttalib. He permitted one to ride in front of him and another behind.

It is kindness to animals not to hurt them with severe beating or inflict wounds upon them.

The mark made on camles meant to be given away to the poor at pilgrimage time, was no more than a small incision made in the hump of the camel with a lancet or the like to mark it off as one of the camels given away to the poor.

The stabbing of a camel with spears or other implements which pierces the skin of the animal to the flesh is only done by ignorant folks and all learned people are unanimous in the condemnation thereof.

Castration of animals is forbidden. Ibn Omar (2) cites that "the Prophet (Peace be on him) had forbidden the castration of camels, oxen, rams and horses." (3)

On the strength of this Tradition, some of the learned-people definitely forbid the castration of any male animal. Others however, hold such castration to be permissible when it is deemed beneficial as for instance when the animal is given to biting But should there be a way other than castration to bring about the desired change in the animal, the learned people do not differ as to forbidding it on account of the pain involved.

It is kindness to the animal not to continue riding it on a long journey which is bound to exhaust it.

---

(1) Ibn Jarir At-Tabary the famous Moslem historian and Commentator.

(2) Ibn Omar, son of Omar Ibn El-Khattab.

(3) Given in Al-Tahawy's "Maâni Al-Aathar."

only when they are sound of body and eat them only when they are fit for eating." (1)

Islam forbids the ill-treatment of animals by overloading them with heavy burdens which they are unequal to carry. The companions of the Prophet knew from their constant association with him that "whosoever overloadeth an animal will he be called to account on the Judgment Day".

It is related of Abul-Dardaa, a companion of the Prophet that he addressed a dying camel of his thus :

"Complain me not to thy Lord, for I have never overloaded thee beyond what thou couldst bear."

In speaking of kind treatment of animals and urging to avoid overloading them beyond their endurance, al-Ghazali (2) says :

"The howdah (3) of two equal sides is beyond what animals could bear and sleeping on their backs is both painful and heavy for them."

In another part Al-Ghazali says :

"Never did the pious people sleep on animals' backs except for a doze while sitting up."

The loading of animals is only permissible when the animals loaded are meant for carrying burdens as in the case of camels, asses and mules. It is not permissible to load animals which are meant to serve other purposes such as the cow. In this connection, Ibn Al-Arabi (4) says :

"There is no difference of opinion as regards the cow being exempt from carrying loads. Several learned people have even forbidden its being ridden on the ground that it is unequal to such a task. But cows could be made use of in such purposes as tillage and watering of plants for which purposes they are well-fitted."

It is kindness to the animal not to be ridden by three persons whose weight will overburden it.

Ibn Abu Shaiba (5) cites on the authority of Zathan (6) that he saw

---

(1) Cited by Abu Daoud.

(2) Al-Ghazali is the famous Moslem philosopher.

(3) A howdah is a seat fastened to the animal's back said to be first used by Al-Hadjaj Ibn Youssef Al-Thaqafy.

(4) Abu Bekr Ibn Al-Arabi was a famous judge of Seville, Andalusia.

(5) Ibn Abu Shaiba, a famous Moslem traditionist.

(6) Zathan was a contemporary of certain companions.

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR

ISLAM
AND KINDNESS TO ANIMALS [1]

(Continued)

The Moslem law-doctors have declared it obligatory to attend to the watering and feeding of an animal by supplying it with fodder and giving it personal care or trusting the care thereof to someone else even though he has to be paid for his services. On this point, they all concur. Some of them however, declare that a man should be forced by law to do so and if he would not carry out the ordinance of the law the animal should be sold and should not be allowed to suffer the pangs of starvation at its cruel owner's hands.

We read in the authentic Tradition that on passing once by an emaciated camel whose back almost touched its stomach, the Prophet (Peace be on him) said :

"Fear ye Allah in the treatment of these dumb animals, ride them

(1) Translated from the Very Reverend Al Sayyed Mohammed Al Khidr Hussain's editorial in Nour-El-Islam Review.

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم *

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء التاسع	رمضان سنة ١٣٥١	المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف } سابقا
ومن اعضاء مجلس الازهر الاعلى }

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون ٨٤٣٣٢

الرسائل تعنون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	ص
داخل القطر المصرى	٤٠
خارج القطر المصرى	٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمي المدارس الاولية والطلاب ... ... — داخل القطر	٢٠
— خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل شهر رمضان

كان هذا الشهر مظهر الكتاب الذى هو منار الهداية ومطلع السعادة ، كما قال تعالى : (شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ) وإن شهرا ينزل فيه كتاب يملأ العقول حكمة ، والقلوب طهارة ، لذو طلعة مباركة ومقدم كريم .

ومن مزايا هذا الشهر أنه الشهر الذى فتحت فيه مكةُ المكرمة ، ذلك الفتح الذى علت به كلمة الاسلام فى البلاد العربية ، وعلى أساسه قامت الفتوح الاسلامية فى الشرق والغرب .

فقد جمع هذا الشهر بين مزيتين عظيمتين : (أولاهما) أنه الزمن الذى أنزل فيه القرآن الى سماء الدنيا جملة ، أو ابتدىء فيه نزوله الى الناس ، ثم تواردت آياته على حسب ما تقتضيه الحكمة ، و (ثانيتهما) أنه كان مظهر الفتح الذى استوثقت به عرى دولة الإسلام حتى مدت سلطانها العادل ، وساست الأمم بشريعة تلائم مصلحة كل زمان ومكان .

واقتضت حكمة الله تعالى أن يكون للناس من بين سائر الشهور شهر يقضون بياض نهاره فى عبادة الصوم ، واختار أن يكون شهر رمضان هو الشهرّ الذى تؤدى

فيه هذه العبادة ذات الحكمة السامية والثواب الجزيل ، ولعظم ما يترتب على الصيام من إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق ، جعلت فريضته فى القواعد التى يقوم عليها الاسلام ، والدليل على أن القصد من الصيام الإصلاح والتهذيب ، لا تعذيب النفوس بنحو الجوع والعطش قوله صلى الله عليه وسلم : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه[1] وشرابه) ، وليس معنى هذا الحديث أن من يقول زورا ويعمل به ، ليس له من صيام ، وإنما القصد منه التنبيه على أن الصيام لا يتقبله الله تعالى بقبول حسن إلا إذا اجتنب صاحبه قول الزور والعمل به .

أمر الشارع بالإنفاق فى وجوه البر ، وورد فى السنة ما يدل على أن للإنفاق فى هذا الشهر فضلا على الإنفاق فى بقية الشهور ، يظهر هذا من حديث ابن عباس قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان[1]) وفضيلة التأسّى به عليه الصلاة والسلام تدعو الى بسط اليد بالمعروف فى هذا الشهر أكثر من بسطها فيما عداه من الشهور ، حتى يجد الفقراء من إحسان الأسخياء راحة بال ، فيقبلوا على الصيام والقيام بنشاط .

أمر الشارع بتلاوة القرآن تمكينا لحجته ، واستضاءة بنور حكمته ، وجاء فى السنة ما يرشد الى الاستكثار من تلاوته ، يظهر هذا من حديث ابن عباس فى لقىّ جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفى هذا الحديث (وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن[1]) والدراسة القراءة ، وما زال أولو الألباب من الناس يجعلون لشهر رمضان نصيبا من تلاوة القرآن أكثر من نصيب كل شهر .

والتهجد فى جزء من الليل ، قربة يبعث عند الله مقاما محمودا ، ونبّهت السنة على أن من جزاء القيام فى ليالى رمضان غفرانا يمحو الذنوب السالفة ، قال صلى الله عليه

---

(١) صحيح الامام البخارى .

وسلم : (من قام رمضان إيمانا واحتسابا، غفر له ما تقدم من ذنبه) وظاهر الحديث أن هـذا الغفران المترتب على قيام رمضان ، يأتى على الذنوب السالفة جميعا فيسقطها ، ولـكن أهل العـلم قصروه على صغائر الذنوب دون كبائرها ، ورأوا أن فضل العمل الصالح لا يبلغ أن يسـقط الـكبائر من المعاصى وصاحبها لم يتب عنها ، أو لم تُقَم عليه العقوبة المقررة على من يرتكبها . يقولون هذا وهم يُسلِّمون أن لمشيئة الله تعالى سلطانا قد يفعل فى كبائر الذنوب ما تفعله التوبة الخـالصة ، أو إقامة الحدود .

ومما استندوا إليه فى تقييد المغفرة فى هـذا الحديث بصغائر الذنوب أحاديث وردت فى فضل أعمال أخرى وقيدت فيها مغفرة الذنوب باجتناب كبائرها .

وكان صلى الله عليه وسـلم يتهجد فى ليالى السنة بأسرها ، وورد فى الصحيح أنه خرج فى إحدى ليالى رمضان من جوف الليل ، فصلى فى المسجد، وصلى رجال بصلاته جرى هذا ثلاث ليال ، ولم يخرج فى الليلة الرابعة ، وقد ضاق المسجد على الحاضرين ، حتى خرج لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ، ثم قال : (أما بعد فإنه لم يخف علىّ مكانكم ، ولـكنى خشيت أن تفترض عليـكم ، فتعجزوا عنها [1]) والخوف من افتراض هـذه الصلاة قد يكون من جهة أن الله تعـالى جعلها فى حقهم من الأمور المندوب إليها ، ولم يأمرهم بفعلها فى جماعة على نحو الصلوات المفروضة ، رفقا بهم ، فاذا تظاهروا بالقوة عليها ، وساروا بها سيرة ما افترضه الله عليهم من الصلوات ، كانوا قد شددوا على أنفسهم فى أمر جعل الله لهم فيه يسرا ، فمن المحتمل أن يكون ما أخذوا به أنفسهم من الشدة سببا لأن ينزل الوحى بفرض هذه الصلاة ابتلاء لهم حتى يظهر عجزهم عن إقامتها ، ويدركوا العسر الذى راعاه الشارع فى عـدم إيجابها والتأكيد فى الاجتماع لها ، ومتى كان القصد من فرضها تنبيههم لوجه الرفق بهم فى عدم فرضها

(١) صحيح الامام البخارى .

أولاً ، لم يلزم استمرار هذا الفرض حتى يقال كيف يأمر الشارع الناس بما يعجزون عن المداومة عليه ، وقد رأينا الشارع يسن أحكاما لمقاصد سامية حتى إذا أحس الناس بما فيها من عسر عاد الى ما يقتضيه أصل التشريع من الرفق والتيسير ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قصد بعدم خروجه لصلاة التراويح فى المسجد قطع أمر من المحتمل أن يكون وسيلة لتكاليف يثقل عليهم القيام به ويظهر عجزهم عنه .

وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن الناس يجتمعون فى صلاة القيام برمضان على إمام واحد ، وبقوا على هذا الحال الى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأقام أبيّ بن كعب إماماً لهذه الصلاة ، وجمع الناس على الائتمام به ، قال عبد الرحمن القدرى : « خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليلة فى رمضان الى المسجد فاذا الناس أوزاع متفرقون ، يصلى الرجل لنفسه ، ويصلى الرجل فيصلى بصلاته الرهط ، فقال عمر : إنى أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد ، لكان أمثل ، ثم عزم فجمعهم على أبيّ بن كعب ، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم ، قال عمر : نعم البدعة [1] هذه » .

فالذى فعله عمر بن الخطاب إنما هو جمع الناس على إمام واحد بعد أن كانوا يصلونها فرادى وجماعات فى المسجد متفرقة ، فعلَ هذا لأن الأمر الذى ترك من أجله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إقامتها بالمسجد فى جماعة ، وهو خوف الافتراض قد انقطع بالوحى ، فعمر بن الخطاب استند فيما فعل الى عمل النبى صلى الله عليه وسلم مع تحقيق النظر فى الوجه الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم قد تركها من أجله ، وأراد بالبدعة هيئة اجتماع الناس على إمام واحد ، وسماها بدعةً تشبيها لها بعد أن تركت سنين ، بما أحدث على غير مثال سابق .

(١) صحيح الامام البخارى .

وتفضل الله تعالى بليلة جعل العمل فيها خيرا من العمل فى ألف شهر ، وهى ليلة القدر ، وجمهور أهل العلم على أنها تكون فى رمضان ، أخذاً بظاهر أحاديث أرشدت الى التماسها فى هذا الشهر ؛ ومن ذهب من السلف الى أنها تكون فى ليلة من السنة غير مقيدة بشهر ، حمل تلك الأحاديث على التماس ليلة القدر فى رمضان من تلك السنة خاصة .

وهذه الأعمال الصالحات التى جعلها الشارع عمارة شهر رمضان من نحو الصيام ، والقيام ، وتلاوة القرآن ، وبسط اليد بالمعروف ، شأنها أن تهذب النفوس ، وتحبّب اليها التقوى ، وتعوّدها على السماحة واحتمال المكاره ، وتهيئها للثبات والمواظبة على صالح الأعمال فى سائر أيام السنة ، فمن اتقى فى شهر رمضان بعض المحارم ، ورأيته يصوم مع الصائمين ، ويصلى مع المصلين ، حتى إذا انقضى هذا الشهر ، جعل يتباطأ عن أداء الواجبات ، ويبادر الى ما كان يتقيه من المحرمات ، فذلك الذى أقام أعماله على غير إخلاص ، ولم يخالط قلبه بشاشة الاستقامة على ما أمر الله .

فضَل شهر رمضان بما وصفناه من المزايا ، فاستحق اليوم الذى يلى آخر يوم منه أن يُتَّخذ عيدا ، لأنه يوم تمتلئ فيه قلوب الناس ابتهاجا بما عملوا فى هذا الشهر من خير ، وأىّ نعمة يصيبها الإنسان فى هذه الحياة تساوى نعمة أداء ركن من أركان الاسلام محفوفا بضروب من أجَلّ الطاعات وأشرف الآداب ، وأىّ ارتياح يساوى فى نظر أولى الألباب ارتياح النفس عندما تشعر بأنها اتّقت الله ما استطاعت ، وإنما ارتياحها لما ترجوه من رضا الخالق وما يتبعه من عزة فى الدنيا ، وسعادة فى الأخرى ؟

محمد الخضر حسين



سورة النور

١١

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

إن من يقرأ الآيات السابقة ويتأمل ما فيها من المواعظ البالغة، ويستجلى ما تضمنته من حكم صادقة، ويكرر النظر فيما احتوته من مصالح عظمى وإرشادات نافعـة، ويرى مساس ذلك بحياة الأسرة التى هى أول مراتب الاجتماع وأساس درجات الارتباط، سيجد نفسه وقد انطلق لسانه ممتلىء القلب باليقين (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

أجل: فلقد شرع لنا فى تلك الآى المتقدمة من الأحكام الرشيدة والحكم البالغة ما لو استضأنا بمصباحه فى سبيل حياتنا البيتية لسلكنا أقوم سبيل، وحيينا حياة هى المثل الأعلى فى راحة النفوس وطمأنينة القلوب. شرع لنا هذه الأحكام على يد رسول

منا، نشأ حيث نشأ قومه، تحيط به وبهم عادات منكرة، وتتحكم فيهم مألوفات شنيعة من شأنها أن تحول بين النفوس وتلمس الطرق النيرة، فانبثاق هذا النور الصافى من نفس واحد منهم دليل بنفسه على أن مصدره هو القوىّ الأعظم المهيمن على كل ما فى الوجود علوى وسفلى. هذا الإرشاد العظيم إنما هو صنع الإله الحكيم العليم، فهو نور يصح أن يقول فيه من أشرق على قلبه بعد تلك الظلمات المستحكمة: الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، فمن ذا الذى يهدى لهذا النور إلا الله.

ترى بهذا مواقع الحسن فى اتصال هذه الآية الكريمة بمجموع الآيات السابقة وبخاصة بعد أن أردفت تلك الآى بما يرجع النظر اليها جملة من قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) فإنها من شأنها أن تدعو الى استحضارها جملة، وتمثل ما احتوت عليه من فوائد وإرشادات وأحكام وحكم، فتتجلى أنوارها دفعة وحدة، وتظهر منافعها جملة، فتنطق الألسنة بالحمد، وتهز القلوب والجوارح بالشكر، وتحمل على الاعتراف بأن هذا النور والهدى إن هو إلا نور إلهى مصدره هو من بسط النور العام فى أرجاء السموات والأرض.

والنور هو هذه الظاهرة الفائضة على الكون التى يكون بها الإبصار والاهتداء والإدراك. وكما تطلق على هذا النور الحسى الذى هو واسطة الإدراك بالبصر، قد تطلق على النور المعنوى الذى هو واسطة الإدراك بالبصيرة، كظاهر الإتقان والإحكام الشاهدة بعظيم اقتدار الصانع. وكذا تطلق على القوة التى فى العين والتى فى القلب، كما يقال: ازداد نور عينيه أو نقص نور عينيه، وكما يقال: فلان بصيرته نيّرة، وهو نير العقل ونور عقله صاف، وهلم جرا، وعلى العموم قد تعورف فيما به الاهتداء والإدراك، وإن كان أصله اسما للنور الحسى. ولعلك ترى أن الاهتداء الذى سببه النور هو الأصل

الأصيل فى تصحيح كل عمل من الأعمال وإيتائه ثمره ، وكل عمل على غير هدى ولا نور فلا صحة له ولا ثمرة ولا اعتداد به ، حتى لو فرض أن عملا عمله صاحبه جزافا على غير بصيرة منه فاتفق أن ترتّب عليه ثمرة لم تكن له على بال ، ما زاد ذلك من قيمة العمل ولا شرف صاحبه ، بل كانت تلك الثمرة من باب ما يخلقه الله بلا واسطة من ناحية العبد ولا مدخلية له . وإذ كان النور والهدى أصل الاعتداد بالأعمال كلها جليلها وحقيرها ومنشأ إيتائها ثمرها ، وجب أن يجعل فى الصف الأول فى كل باب من أبواب الحياء وكل أثر من آثارها ، وما عداه تابع له فى النتيجة والاعتداد . من أجل هـذا اتسع الاستعمال فى لفظ النور وأطلق على كثير من المعانى التى تعتبر أساسا لغيرها فى الثمرات وإيتاء النتيجة ، فيقال : فلان نور البلد ، إذا كان مدبّر نظامها ومرتب شئونها على وجه تام ، ويقال للنظام نفسه والتدبير المحكم ، نور ، فتقول : قد بنى هذا العمل على نور ، وهذا الأمر يتجلى نوره واضحا ، وذاك الأمر لا نور فيه ، تشير بذلك الى ما حوى من نظام وإحكام .

وعلى هـذا تجد التعبير فى الآية الكريمة (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) من التعبير المستفيض فى مجارى العقول ، ولا يمكن أن يفهم منه أن الله هو النور الحسى الذى هو واسطة الإبصار ، بل إما أن يكون معناه مدبرهما على هذا النظام والإحكام والمفيض عليهما من كمال الصنعة وإتقانها ما به يصح أن يقال عنه إنه نورهما ، وإما أن يكون نور بمعنى منوِّر أو ذو نور ، كما يقال : فلان كرم وجود ، وكما قال القائل : « وأنت لها نور وغيث وعصمة » . والإخبار عن الشىء بمصدر الصفة كثير مبالغة فى اتصافه بها كأنه صار إياها . ويستأنس لهذا بقراءة : « الله نوّرَ السموات والأرضَ » بصيغة الفعل الماضى ومعنى تنويره لهما إما إفاضة النور الحسى عليهما ، وإما إتقان صنعتهما وإكمال نظامهما حتى صارا يشهدان شهادة نيرة لا لبس فيها ولا غموض أن مبدعهما كامل

القدرة والعلم والحكمة ؛ وإما نور السموات بالملائكة ونور الأرض بالأنبياء والشرائع . وإذ لا تضاد بين هذه المعانى فالأكمل أن يكون المراد بالنور ما يشمل هذه الأمور كلها ، فقد أنار السموات والأرض بالنور الحسى ، وبث فيها من كمال النظام ما يجعلها منيرة السبيل لمن تفكر فيها ، وأكمل ذلك بالنفوس العالية وما آتاها من شرائع وهداية ، وقطر السموات والأرض لأنهما هما المخلوقان العظيمان اللذان يملآن قلوب المخاطبين روعة وجلالا ، وتناولها مداركهم حسا ومعنى ، وإلا فهو نور لجميع العلم مما رأينا ومما لم تر .

هذا وقـد حاول الامام الغزالى رحمه الله أن يحمل النور فى الآية الكريمة على حقيقته فقال ما ملخصه باختصار : إن النور اسم لما يكون ظاهرا بنفسه مظهرا لغيره ، وتقابله الظلمة ، فهى الأمر الخفى المخفى ، وأحق الأشياء بالظهور الوجود ، وأحق الأشياء بالخفاء العدم ، فكلما كان الأمر أكمل وجودا كان أظهر وأجلى ، والممكنات إذا نظرت إليها فى ذاتها لا تجد لها وجودا إلا ما تستمده من المبدع الأعظم ، فهو صاحب الوجود الذاتى وما عداه عدم لولاه ، فأحق المعانى بأن يسمى نورا هو أدخلها فى الوجود ، وذلك هو الموجود لذاته ، فهو نور الأنوار جميعها ، ومظهر الكائنات كلها ، ولولاه لكانت مطموسة فى ظلمات العدم ، فهو النور على الإطلاق .

وإنك لتلمح فيه المسلك الصوفى أكثر مما ترى فيه التفسير اللغوى العربى ، إلا أن أرجعته الى معنى مفيض الوجود والنظام والإتقان وباسط النور فى أرجائهما ، فحينئذ يرجع الى ما قدمناه .

والخلاصة أن النور هنا لا يصح أن يراد به تلك الظاهرة المحسوسة التى هى واسطة الإبصار ، فالمراد بالنور إما الهداية ، والمعنى أنه صاحب النور والهداية : هدى أهل السموات والأرض بما أودع فى نفوسهم من قوة وبما نصب لهم من أدلة ؛ وإما بمعنى

التدبير وإجراء سننهما فى شئونهما على مقتضى الحكمة ؛ وإما بمعنى إبداعهما فى خلقهما على أكمل صفة ؛ وإما بمعنى منيرهما بالكواكب نورا حسيا ، وبالشرائع نورا معنويا ، أو منير السموات بالملائكة والأرض بالأنبياء ؛ وبكل معنى من هذه قال فريق . ولك أن تجمع المعانى كلها فى كلمة نور كما سبق ، فهو المدبر لما يجرى فيهما ، وهو المبدع لخلقهما ، وهو باث النور الحسى والمعنوى فى أرجائهما ، وهو منزل الشرائع ، وباعث الملائكة بوحيه ، وهاديهم لعبادته ، جل شأنه ، وتبارك اسمه ، ولا إله غيره .

وبعد فهذا انتقال من تقرير الأحكام الفرعية التشريعية الى تقرير حكم الإيمان بالله ودينه ، وبيان شأن الدين فى ظهوره واستنارته ووضوحه ؛ وسيأتى إردافه بصفة الأديان الباطلة وأنها خيال لا قرار له ولا حقيقة فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) وهذا الأسلوب العجيب مما يكاد يكون مختصا بالذكر الحكيم ، فان بيان الفروع على وجه يحل فى النفس خير محل ويتمكن منها فضل تمكن ، مما يصح أن يعتبر نبراسا يهتدى به الى أن مصدر هذه الإرشادات لا يكون إلا الحق المبين . والتمهيد له بقوله : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ) مما يهيئ العقول لقبوله والاعتراف به ، مع أن المعتاد أن يؤخذ صحة الأصل دليلا على صحة الفروع ، ولكنه لتنويع فى الهداية الربانية ، كأنه يقال لك : إن كل المسالك أمامك نيرة ، فاذا نظرت الى فروع الأحكام وما فيها من صحة وسداد وفائدة ورشاد ، عرفت أنها لم تنبت إلا من شجرة طيبة ، فطيب الثمر دليل على طيب الشجر . وإذا نظرت الى أصل الإيمان وما قام عليه من متين البرهان ، علمت أن الأحكام المتفرعة عن هذا الأصل الصحيح لا تكون إلا خيرا عظيما ونفعا عميما .

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ) .

المثل معناه الصفة ، ولا يكاد يستعمل المثل فى الصفة إلا حين إرادة التنويه بشأنها وتفخيم أمرها . ولذا يقولون : المثل الصفة العجيبة ، كأنهم أبرزوها فى ثوب ما يتمثل ويتخذ مثلا يضرب لغيره . ومنه قوله تعالى : (مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) ويصح أن يلاحظ فيه معنى التمثيل والتصوير ، كأنه يقال : إن تصوير نوره بمثال يجلوه لك وتتمثله به هو كمشكاة فيها مصباح الخ .

والنور هنا هو الهداية التى بسطها للعالمين من أدلة عقلية وسمعية ، وأحكام صحيحة وإرشادات نافعة . والمشكاة : الكوة غير النافذة . والمصباح . السرج الضخم الثاقب . كأن أصل أخذه من الصبح لما فيه من الضوء . والزجاجة : القنديل الشفاف الصافى . والكواكب : الأجرام السماوية المضيئة والدرّى : قرئ بالضم والتشديد نسبة الى الدر لصفائه وتلألئه ، وقرئ بالكسر والهمز على وزن سكين ، من الدرء بمعنى الدفع ، كأن نوره يدفع بعضه بعضا لشدة لمعانه وتألق نوره . والمباركة : النامية . والزيتون معروف . ومعنى لا شرقية ولا غربية أنها ليست شرقىّ شىء كجبل أو حائط يحجب عنها ضوء الشمس آخر النهار ، ولا غربىّ شىء كذلك يحجب عنها شمس أول النهار ، فهى ضاحية لضوء الشمس ومرور الأهواء ، وذلك أكمل لنضجها وأطيب لثمرها ، فإن الشجر المحجوب عن الشمس والهواء يكون ضعيف عادة .

وقد ترى ما فى هذا التصوير من إبراز النور على أكمل وجه وأشده أثرا فى النفس ، فقد جعل النور نور مصباح ، وذلك أشد أثرا فى النفس وتمثلا لمعنى النور وتقديرا له من كل أنواع النور ، ذلك أن نور الشمس وإن كان أقوى الأنوار المعروفة المألوفة إلا أنه لعموم بسطه على الأرجاء لا تجد له فى النفس من تمثل معنى النور ما تجده للمصباح يوقد فى وسط الظلام فيبدده فى مقره مع بقاء الظلام فى غير هذا المكان يذكر بمعنى النور ويشيد بشأنه . وإنك لتجد لنور المصباح فى الظلام من التمثل

أمام العين وانجذاب البصر إليه ما لا نجده فى الضوء العام الشامل ، فإنه بشموله يصير كأنه أمر طبيعى مفروغ منه لا يحرك من النفس ما يحركه النور الخارق للظلمات . وإن شئت أوضح من هذا فعتبر بلمعان البرق فى وسط دجى الظلمات كم يكون لمفاجأته من روعة وتمثيل لا تحسه النفس فى ضوء الشمس وهو أشد منه . والسر أن وجوده فى وسط الظلام الشامل يرفع من قيمته باعتباره نورا ويجعل له فى النفس قيمة كبرى . ومن جهة أخرى فإنه أشد انطباقا على نور الهدى وسط ظلمات الشك التى تحيط بنفوس الكثير من الناس . وأما ذكر المشكاة فلأنه كلما كانت الأشعة منعكسة عن قرب كان ضوءها أشد ، وكأن جوانب المشكاة تعكس الأشعة بعضها على بعض عكسا متكررا فيزيد فى مضاعفة النور . وكذلك جعل السراج فى زجاجة مما يزيد لمعانه وصفاءه ، وكيف وقد وصفت الزجاجة بما يدل على مزيد صفائها وقوة تألقها فى ذاتها ، وذلك أنها كالكوكب المتلألئ الذى ينسب الى أصفى ما عهدوا وهو الدر واللؤلؤ ، أو الكوكب المتألق الذى يتموج شعاعه فيدفع بعض نوره بعضا . وبعد أن استوفى تصويره باعتبار ما يحيط به أخذ فى صفة مادته التى تغذيه ، وكان أعظم ما يعرفون من مادة الاستصباح الزيت ، وأجوده زيت الزيتون ، فوصف الشجرة بالنمو والبركة وان منبتها يساعد على ذلك إذ لم يحجبها حاجب عن شمس أو هواء ، ثم عاد الى وصف الزيت بأنه قد صفّى حتى كاد يضىء بدون مس النار .

تأمل فى هذا التصوير تجد نفسك أمام نور قد استجمع كل مظاهر النور ، وتجلى فى وسط ظلمة زادته بهاء وظهورا ، فإن شأن المصباح لا يشعل عادة إلا فى الظلام وبضدها تتميز الأشياء . ثم انظر الى سلاسة التعبير ورقته وسهولة التصوير تجد أنك قد تجلى أمامك نور على نور ، وهذا شأن هداية الله لعباده ، فإنك من أى النواحى أتيتها ، وجدت نورها ظاهرا ، وضوءها باهرا ، فلا يسعك إلا أن ينطلق لسانك بالحمد لله والشكر للمنعم .

والموصوف بأنه نور على نور هو نور الهداية الممثل بذلك النور الحسى ، فإنه هو ما سيق الكلام لبيان صفته . والمراد بقوله : نور على نور ، أنه نور متضاعف يزداد كلما نظرت فيه وتأملته ، وليس المراد أنه نوران ، بل المراد المضاعفة السائرة مرارا وتكرارا ، فما أشبهه بقول القائل :

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظـــــرا

وكأن هذه الجملة خلاصة للوصف والتصوير السابق .

هذا وإذ عرفت أن هـذا من باب التمثيل الذى هو تشبيه هيئة مركبة بأخرى كذلك ، بدون التفات الى الأجزاء التى حصل منها التركيب ، عرفت أن لا داعى الى ما يسلكه بعضهم من التفصيل فى التشبيه ، كأن يقال : شبه صدر المؤمن بالمشكاة وقلبه بالمصباح ، والمعارف التى تغدق عليه بالزيت ، وهكذا . فإن هذا إنما يكون فى التشبيه المفرد لا فى التمثيل الذى يراعى فيه الهيئة المركبة .

(يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) :

بعد أن صور النور الإلهى والهدى الدينى بهذه الصورة الآخذة بالأبصار التى لا يجهلها من عنده أقل ذرة من إدراك وبصيرة ، كان هنا محل سؤال واستشراف البتة : إذا كان النور الإلهى فى أمر الايمان والدين بهذه المثابة من الظهور والوضوح فما بالنا نرى الكثير من الناس قد ضل سواء السبيل ولم يهتد الى هذ النور الباهر ؟ فكان الجواب تقرير هذه الحقيقة الساطعة ، وهى أن المرجع النهائى إنما هو مشيئة الله وإرادته ، فمن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصّعّد فى السماء . فعماية بعض الناس حتى لم يبصروا هذا النور البالغ الغاية فى الظهور لم يكن

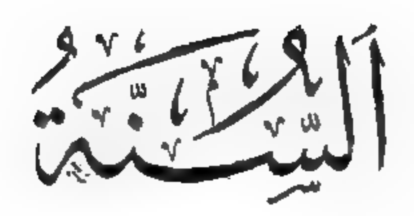
منشؤها نقصا فى نفس النور ، وإنما هو نقص فى المدارك واعوجاج فى الفطر وطمس فى البصيرة ، وهو غير ناقص من وضوح النور شيئا .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

قل إن الهدى هدى الله ، والأمر كله لله . وليس هذا بمقتاع للاختيار الذى منحه الله للانسان ، فإن الكافر ما كفر قهرا عنه ، ولكنه اختار الكفر على الايمان ، والمؤمن ما آمن مكرها ، وإنما اتجهت نفسه الى اختيار الايمان ، فكل يعمل باختياره ، وذلك تنفيذ لإرادة سابقة أزلية لا تعلم للناس ولا يشعرون بها ولا يبنون أعمالهم عليها ، ولكن بعد حصول الشيء نعلم بالبرهان أن هذا الذى حصل فى الكون ما كان مجهولا للمكوّن ، ولا كان قهرا عن المدبر ، فلا يقع فى ملكه إلا ما يشاء ، ومن ضمن ما يشاء أن يقع إيمان هذا المؤمن عن إرادة ورغبة منه ، ويقع كفر هذا الكافر عن إرادة ورغبة منه ، وكل ميسر لما خلق له .

(وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) : يبصرهم بما خفى عليهم بإظهاره فى صوره ما عرفوا وما عهدوا حتى يتبين لهم الأمر جليا ويلتحق المعقول بالمحسوس ، فلا يبقى شيء من الدين خفيا ، لكى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

(وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) من معقول ومحسوس ، من ظاهر وخفى ، من نفوس يليق بها الكرامة فيهديها الى الايمان ، ونفوس علم فيها غير ذلك نخصها بما شاء ، فهو أعلم حيث يضع هدايته ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو العليم بطرق الهداية وأفانينها المختلفة ، فيخاطب المكلفين بما ينفعهم منها ويفيدهم ، ويحذرهم مما يهلكهم أو يضرهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . والله أعلم ؟ ابراهيم الجبالى



بسم الله الرحمن الرحيم

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) رواه البخارى .

لقد سبق لنا فى شرح حديث (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) أن هذه وسائل لاختبار المرء نفسه فى دعواها الايمان ، فكثيرا ما تكون النفس خدعة لصاحبها تصرف نظره عن مواطن النقص منها حتى يرضى عنها وينصرف عن معالجة أمراضها ومن رضى عن نفسه كثر الساخطون عليه . فى هذا الحديث الذى نسوقه اليوم كما فى الحديث المتقدم إرشاد للمرء الذى يعنيه تقويم معوجّه والتحرى عن عيوب نفسه ، وامتحان صدق دعاويه ليعلم الصادق الواضح من الكاذب المدلس ، ويتبين الصحيح من الزائف .

ذلك أن المرء مولع بحب نفسه ، مفطور على الميل لنفعها ، بل الميل الى الاستئثار بكل ما هو حسن جميل ، وبكل ما هو خير ونافع . وإذا ما شاركه فى صنوف الخير أحد تطلعت نفسه الى أن يكون هو صاحبَ الحظ الأوفر والنصيب الأكبر .

هكذا شأن النفوس التى أرسلت على سجيتها ، وتملكتها نزعات الأهواء ونزوات اللذائذ والشهوات ، وأهملت تربيتها وتهذيب ملكاتها .

ولو عقلت الأمور على وجهها لوجدت أن خيرها الصحيح هو فى مشاركة غيرها ممن تجمعها بهم جامعة لتعاون على الخير، والتساند فى أسباب النفع. ذاك أن الفرد مهما أوتى من قوة وإحاطة علم بصنوف ما يحتاج اليه، فمحال أن يستكمل شئون حياته بنفسه، سواء فى ذلك شئون الحياة الدنيوية وشئون الحياة الدينية، فهو فى كل باب من أبواب الحياة محتاج الى من يعينه ويساعده. واذا كانت الحياة مقتضية للتساند والتساعد، فالنظر الصحيح قاض بأن الواجب على كل فرد أن يسعى فى تقوية من يساعده ويسنده، ليتكون من بينهما جسم كامل الاتصال، متين الأوصال، قوى الحياة فى الأجزاء التى منها تركيبه، محكم الارتباط بين تلك الأجزاء.

ليس كل النفوس بواصلة الى إدراك هذا المعنى على أتم وجوهه، وإن كان منها ما يسمو الى أن يدرك أن معزته مرتبطة بعزة أبيه أو أخيه أو ابنه أو قريبه، أو أفراد أسرته وعشيرته، أو من يجمعه به جامعة بلد أو إقليم، أو أمثال ذلك من روابط قريبة أو بعيدة، لا تخرج عن الأنانية الضيقة أو الواسعة كبير خروج. أما أن تسمو النفس الى إدراك الأخوة والتساند بأوسع معانيهما، وتفهم حقيقة احتياج كل فرد الى أخيه فيما يسنده فى حياتيه الدنيوية والدينية، فقليلا ما يكون.

ولقد جاء الدين يجمع الى تربية الفرد تربية المجموع، ويضم الى تكوين النفوس تكوين الأمة، فجاء قوله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ). وجاء قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ). وجاء قوله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين فى تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى». وجاء قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».
وعلى هذا النسق جاء هذا الحديث الشريف الذى هو رأس مقالنا هذا يقرر أن الايمان الذى هو كالشجرة المثمرة إنما يكون قد ثبت أصله، وزكا فرعه، واطمأنت النفوس الى أنها أخذت حظها منه اذا كان قد آتى ثمره وأنتج أثره، وأنه ينبغى لكل مؤمن

أن يتحن إيمانه فيما عسى أن تكون النفس لم يدركها التهذيب فيه، وأخص ذلك ما رجع الى أهوائها وميولها وغرائزها الوحشية، وطبائعها البهيمية، وكان لا يزال خاضعا للنظر القاصر الذى لم يفتق الدين بصيرته، ولم يصقل التهذيب قوته، وأخص مظاهر ذلك الأنانية الممقوتة، فمن شاء أن يختبر إيمانه ويتحن نفسه، فيعرض عليها محابها، وليتأمل فى ميولها نحو نفسها ونحو إخوتها، فاذا كانت لا تزال قصيرة النظر تود الاستئثار بما يمكنها الاستئثار به، فيرجع اليها يحاسبها فى دعواها، ويردها عليها حتى يرجعها الى صوابها، وليعرض عليها حكم الايمان ومقتضاه، وليأخذها بآدابه، وليشعرها بحكمه ومزاياه وفوائده، فاذا ما وصلت الى إدراك هذه الحقيقة الناصعة وعلمت أن حياتها وسعادتها منوطة بحياة بقية من شاركها فى وصف إيمانها، وأنها بانضمامها الى بقيتهم وارتباطها المتين بهم تكون كتلة قوية وتربى أسرة واحدة متينة، بل تربى جسدا واحدا يشعر كل عضو منه بما يشعر به غيره من لذة وألم، فقد آتى الايمان ثمره، وكان غرسا صالحا، وإن لم يصل الى هذه الرتبة، عاد اليها بالعلاج الناجع حتى تطمئن اليه النفس.

هذا وغنى عن البيان أن المعنى: يحب لأخيه مثل ما يحب لنفسه من صنوف الخير، لا أن ينقل شخص المنفعة الى أخيه مع حرمانه منها، فان هذا وإن دخل فى باب الايثار المذكور فى قوله تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) فليس هو المراد من لفظ الحديث، وإنما المقصود أن ما يكون فيه من نعمة، يجب أن يكون لأخيه مثلها، أو أن يكون نوع النعمة العام مشتركا بينهما. وظاهر كذلك أن ليس بداخل فيه أن المرء يحب أن يكون ممتازا عن غيره، فاضلا عليه فى المحاب، فكيف يحب لأخيه مثل ذلك، مع أن التفوق على الغير مما لا يقبل التماثل، فانه لو ماثله فى ذلك ما كان متفوقا، ظاهر دفع ذلك، لأن الغرض محاربة مثل هذه الأحوال، ونهى المؤمن عن أن يحب لنفسه أن يكون متفوقا على كل الناس.

وليتنبه الى أنه ليس المعنى دف النفوس عن الإغراق فى طلاب الخير والنفع وبذل ما لديها من قوة فى إعلاء شأن نفسها ، لا ، وإنما المراد أنك أيها المؤمن مهما بلغت مما تريد فاحذر أن يدركك ما يدرك تلك النفوس ، التى يسوءها أن ترى أحدا فى نعمة ، وتود أن تزول عنه لكى لا يمتاز عليها أو يشاركها فيما وهبها الله من نعم . بل احرص على أن يكون حب الخير للغير فى نفسك كحبك الخير أن يصل اليك فاذا استطعت أن تعاونه فيه وتساعده على إدراكه ، فقد قمت بما يجب عليك نحوه .

بهذا وبما سبق فى شرح الحديث الذى يماثله تعلم أن الكلام من باب تنزيل الشىء الذى لم يثمر ثمرته المنتظرة منزلة العدم ، حثا على أن تكون الصفات الخيرية منتجة للخير ، وأن يكون الغرس مثمرا حقا ، حتى يكون الدين كما قالوا فى تعريفه : « الدين وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة الى ما هو خير لهم بالذات » والله أعلم .

وبعد فلقد منّ الله على المؤمنين بنعمة الايمان ، ووحّد بين قلوبهم بشعار الأخوة الذى أفاضه عليهم ، ووجّههم الى وجهة واحدة رمز لها بتوجيههم فى العبادة الى قبلة واحدة ، ودعاهم جميعا الى التماسك والتساند ، فلو أنهم قدروا هذه النعمة واستشعروا أحكامها وواجباتها وتمسكوا بحقوقها ، لكان لهم من القوة ما يرفع الرأس ويعلى الشأن ، ولكنهم استبدلوا بها ألقابا أشعرتهم بالفرقة بدل الاجتماع ، وبالتشتت بدل الوحدة والانضمام . فلولا حل مؤمن ومؤمن محل شامى ويمنى وحجازى وعراقى ومصرى وأمثال ذلك ؛ اذاً لسادت بينهم المحبة ، وكملت لهم الرابطة ، واستغنوا عن ابتكار علاج يزيلون به هذا التناكر والتباعد ، وكانوا إخوانا متساعدين ، وكان حقا مثلهم فى تعاطفهم وتوادهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، وكانوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . نسأل الله أن ينعم على المؤمنين بهذه النعمة حتى يعزوا فى الوجود ، وينتفع بعضهم ببعض فى هذه الحياة والحياة الأخرى ، إنه سميع مجيب ؟

ابراهيم الجبالى

الصــــوم

الصوم لغة : الإمساك عن الطعام أو الكلام أو غيره . وفى لسان الشرع : الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر الى الغروب مع النية . وهو فرض قطعى لازم على كل مكلف ومكلفة . وهو أحد أركان الاسلام الخمسة . وقد فُرض على المسلمين فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة . وتأخير فرضه الى ما بعد الهجرة لأنه من أشق العبادات وأصعبها ، لأنه منع النفس عن مألوفاتها وشهواتها . وابتداء الناس بما هو شاق يدعو الى النفرة ، فلما توطنت النفوس على التوحيد وألفت الأوامر والنواهى ، وتدرجت فيما علّمها الله على لسان رسوله ، شرع الله الصوم بعد ذلك ليكون تلقيه سهلا على النفوس .

والأصل فى فرضه قوله تعالى : (يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) فرض الله على الناس الصيام بهذه الآيات وأبان أهم أحكام الصيام ، ولنبين ذلك على وجه الإجمال : قال تعالى : (يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ) أى فرض عليكم الصيام كما فرض على

الذين من قبلكم من أهل الملل السابقة ، فلم يفرض عليكم وحدكم بل أنتم ومن سبقكم سواسية فى أصل الوجوب . فرض عليهم كما فرض عليكم هـذا النوع من العبادة ، وهذا منه سبحانه وتعالى تسهيل لأمر الصوم على المسلمين ، لأن الأمر الشاق اذا كان عاما سهل تحمله . ولم يقص الله علينا ماذا كان صيام من قبلنا ، ولا عدد الأيام التى كانوا يصومونها ، وهل كانوا يمسكون عن الشهوات التى أوجب الله علينا الكف عنها أو كانوا يمسكون عن أمور معينة .

وقد ورد فى كثير من الكتب الدينية مدح الصوم والصائمين وورد أن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام صام أربعين يوما كما ورد أن السيد المسيح عليه السلام صام نفس الأيام التى صامها السيد الكليم وروى : خير الصيام صيام داود عليه السلام وصفوة القول أن الصوم معروف لدى الأمم السابقة على الاسلام وقد ندبت إليه جميع الديانات وجاء الدين الإسلامى فأقر مديح الصوم وفرض على كل مكلف صيام أيام معدودات هى شهر رمضان وندب الى صـوم غيره من الأيام وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام لا يمضى عليه شهر غير رمضان دون أن يتقرب الى ربه بصوم أيام منـه .

وقد أبان القرآن أن القصد من الصوم هو نفع الصائم بإعداد نفسه للتقوى ، وأن الله غنى عن الناس صومهم وصلاتهم ، فقال تعالى : (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) أى تعدون أنفسكم للتقوى بالصوم الذى هو ترك محبوب النفس من الشهوات ، لأنه يردع النفوس عن الفواحش ، ويهوّن لذات الدنيا ، ومتى هانت لذة الدنيا تحققت أسباب التقوى .

(أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) هى شهر رمضان على ما بينه سبحانه وتعالى فى الآية الثانية ، وقد أبهم الأيام أولاً ، ثم أبان أنها شهر رمضان ثانيا ، لحكمة عظمى هى أن الإبهام اذا صادف النفس أولاً شعرت بالقلة فتخف عليها مشقة التكليف ، ولم يقف الأمر

هنا عند الإبهام بل صحبه ذكر حكمة الصـوم من الإعداد للتقوى . وحيث استقر فى النفوس أنه خير ، وأن من شأنه ما وصفه الله ، جاء البيان بعد هذا والنفس متشوقة اليه ، راغبة فيه ، فلا جرم أنها تتلقاه بالقبول والرضا .

ثم قال : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) بين الله فى الآية الأولى أن المقيم الذى لم يعرض عليه سفر ولا مرض حكمه لزوم الصوم عليه فى الأيام التى ألزمه الله بصومها ، ثم شرح فى هـذه الآية حكم بعض العوارض التى تعرض للانسان ، فبين حكم عارض المرض كما بين حكم عارض السفر ، فقال تعالى : (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) والمرض معروف ، وقـد اتفق الفقهاء على أن المرض المبيح للفطر هو الذى يؤدى الى ضرر فى النفس أو زيادة فى العلة ، إذ لا فرق فى الفعل بين الشىء الذى يخاف منه والشىء المؤدى الى ما يخاف منه ، فالمحموم اذا خاف أنه لو صام تشتد حماه ، جاز له الفطر وعليه القضاء .

أما المريض الذى لا يضره الصـوم فقد اتفقت كلمة الأئمة على أنه لا يرخص له فى الإفطار ، فالرخصة إنما هى لمن خاف المرض المؤدى الضرر أو زيادته أو تأخر البرء . ولا يمكن القول بأن كل مرض يترخص به ، لأن من الأمراض ما ينقصه الصوم ، ومنه الحمل والإرضاع ، فـكل من الحامل والمرضع اذا خافت على نفسها الهلاك أفطرت وعليها القضاء ، فقد روى أن الامام مالـكا رضى الله عنه قال : إن أهل العـلم يرون فى الحـامل اذا اشتد عليها الصيام الفطر والقضاء ، ويرون ذلك مرضا من الأمراض ، ومثلها المرضع . هذا حكم المرض الذى رخص الله من أجله الفطر والقضاء . وأما المسافر فقال أصحابنا (أى الحنفية) : إنه من قصد مسيرة ثلاثة أيام بسير متوسط وهو سير الإبل وسير الأقدام فى أقصر أيام السنة . وعند الامام الشافعى يوم وليلة . والمعتبر فى البحر أن ينظر كم تقطع السفينة الشراعية فى ثلاثة أيام اذا كانت الرياح مستوية معتدلة ، فيجعل

ذلك هو المقدار ، كما أن المعتبر فى الجبل أن ينظر الى كم يقطع المسافر بالسير المعتاد فى ثلاثة أيام ، فمن قطع هذه المسافة (أى التى تقطع فى ثلاثة أيام) فى يوم أو ساعة أو أقل كمن سافر فى قطار سريع أو فى طائرة ووصل الى المقصود فى ساعة أو أقل من ساعة ، كان له أن يترخص . كما أن من سافر فى محفة ووجد من أسباب الراحة والرفاهية شيئا كثيرا له أن يترخص ، لأن لله سبحانه وتعالى أناط الرخصة بالسفر ، لأنه الوصف المناسب المنضبط الذى يصلح معرفا ، والحكمة هى ما ينطوى عليه السفر من المشقة ، وغير خاف أن المشقة يعسر ضبطها لاختلاف مراتبها بحسب الأشخاص والأحوال والأمكنة والأزمنة ، وليس كل قدر منها يوجب الترخص ، وتعيين القدر الذى يوجبه متعذر لعدم ظهوره وانضباطه ، فجعل الله سبحانه وتعالى رحمة منه وفضلا أمر الرخصة منوطا بالسفر ، حتى ولو كان المسافر عاصيا بسفره . ولبعض الناس آراء فى السفر غير هذا ، غير أن المعتبر هو ما قدمناه لك ، والضابط فيه أن كل إمام من الأئمة رضوان الله عليهم قال : إن السفر الذى يبيح فيه الفطر هو السفر الذى يجوز فيه قصر الصلاة . فوضح بهذا قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ لأن معناه من كان مريضا أو مسافرا فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام أخر إن ترخص .

والخلاصة أن من صام فقد قام بالواجب عليه ، ومن ترخص وأفطر جاز له ذلك ووجب عليه القضاء . وهذا ما كان عليه النبي وأصحابه ، فقد ورد أنهم كانوا يسافرون معه صلى الله عليه وسلم ومنهم من يترخص فيفطر ، ومنهم من يأخذ بالعزيمة فيصوم . ولا عبرة بغير ذلك لأنه مخالف لما كان عليه النبي وأصحابه .

أما قوله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فقد بين به سبحانه الحكم فيمن لا يستطيعون الصوم إلا بمشقة وعسر شديدين وهم الشيوخ الفانون والشيخات الفانيات ، فأبان سبحانه وتعالى أن هؤلاء حكمهم جواز الفطر

والفدية ولا قضاء عليهم ، لأن الطاقة اسم للقدرة مع الشدة والمشقة ، كما أن الوسع اسم للقدرة على الشيء على وجه السهولة ، فالمعنى : وعلى الذين يصومونه مع الشدة والمشقة فدية . أو أن الفعل من أطاق الشيء اذا بلغ غاية طوقه ، قال شيخنا : الإطاقة أدنى درجات المكنة والقدرة على الشيء ، فلا تقول العرب أطاق الشيء إلا اذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف بحيث يتحمل به مشقة شديدة ، فالمراد بالذين يطيقونه الشيوخ الضعفاء . وقد روى البخارى أن ابن عباس حمل الآية على الشيخ والشيخة ، فقد روى عنه أنه قال : رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم ولا قضاء عليه . وقد روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قرأت « وعلى الذين يطوقونه » وهو ظاهر فى أن المراد لذين لا يستطيعون الصوم إلا بمشقة وعسر شديدين وقد جرت أئمة الحنفية (والسادة الشافعية) على هذا فقالوا إن الآية مسوقة لبيان حكم الشيخ الفانى وهو الذى لا يستطيع الصوم إلا بجهد ومشقة ، فإن له أن يفطر ويفدى ولا قضاء عليه ، غير أن الحنفية شرطوا استمرار عجزه عن الصوم الى الممات ، أما لو قدر واستطاع قبل الموت فإن عليه قضاء ما قدر عليه . أما أصحاب المهن الشاقة وهم الذين لا يستطيعون الصوم ، فهم من أصحاب العوارض التى تبيح الفطر ، وعليهم القضاء بعد زوال العذر لظهور الفرق بينهم وبين الشيخ الفانى . ثم قال تعالى : (فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى حكم من عرض لهم المرض أو السفر من المكلفين وحكم الشيخ الفانى ، أفادنا سبحانه وتعالى حكما آخر فقال : (فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا) من المرخص لهم مرضى كانوا أو مسافرين أو شيوخا عاجزين بأن زاد المريض والمسافر أياما أكثر من الأيام التى لزمه قضاؤها ، أو زاد الشيخ الفانى على القدر المذكور فى الفدية ، أو أطعم مسكينين أو ثلاثا ، فهذا الصنيع من كل منهم خير له ، لأن فيه زيادة الثواب ،

أما اذا تحمل هؤلاء جميعا المشقة وأخذوا بالعزيمة وصاموا ، فالصيام خير لهم ما لم يكن فيه إهلاك محقق ، لما فيه من مضاعفة الثواب للصائم الذى هذ حاله ، لأن عمله يدل على قوة الايمان (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ما فى الصوم من فضيلة ولا تصوموا لمجرد الجوع والعطش أو اتباعا لعادات اعتدتم عليها .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ) : قد أوضحنا فيما تقدم الحكمة فى إبهام الله الأيام أولاً ، ثم بيان أنها شهر رمضان ثانيا ، ونزيد أن الله سبحانه وتعالى أراد — والله أعلم — بيان الحكمة فى وجوب شهر الصوم بأنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن الذى هو هدى للناس ، فلا عجب أن يمتاز بالصوم الذى هو من أفضل العبادات ، لأنه الشهر الذى بدأت فيه الفتوحات الإلهية والفيوضات الربانية حيث كان مبدأ نزول القرآن فيه ، فتذكاراً لهذه النعمة الجليلة ، وشكر لتلك المنة العظمى والهبة السامية ، أوجب الله الصوم على عباده . قال الأستاذ الإمام : وصف الله القرآن بأنه هدى فى نفسه لجميع الناس ، وأنه من جنس الكتب الالهية ، ولكنه الجنس العالى على جميع الأجناس ، فانه آيات بينات من ذلك الهدى السماوى ، وكتب الله كلها هدى ، ولكنها ليست فى ضيائها كالقرآن ، إذ ضياء الحق والهداية فى غيره ليس ساطعا سطوعه من القرآن .

(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) : من الشهود وهو الحضور ، إما ذاتا أو علما . والمعنى : فمن حضر فى الشهر ولم يكن مسافراً فليصم فيه ، أو من علم هلال الشهر وتيقن به فليصم ، فلا وجوب على من شك فى رؤية الهلال . (وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) : إعادة منه سبحانه وتعالى لبيان حكم الرخصة خوف أن يتوهم من تعظيم أمر الصوم فى نفسه أن صوم الشهر حتم لا تتناوله الرخصة التى سبق

بيانها، وأراد من الإعادة تمكين أمر الرخصة حتى لا يتقيها أحد. (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) رأفة منه ورحمة حيث شرع لكم من الرخصة ما سمعتم.

حكمة مشروعية الصوم :

قهر النفس بمنعها عما تشتهيه وتحبه، سواء فى ذلك الأكل والشرب وغيرهما من بقية الشهوات المنافية للصوم، فترتاض النفس ويصفو القلب من الكدر، وتستمد النفس للتقوى التى هى المقصد الأسمى من شرعية الصوم، حيث قال تعالى : (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) إذ لا يخفى أن الصوم يعد النفوس للتقوى، لأن من راض نفسه على ترك الشهوات المحببة إليه بالطبع امتثالا لله وخضوعا لسلطانه، راغبا عن أعز الأشياء وأحبها إليه، مع أنه حر فى نفسه ليس عليه رقيب إلا مولاه الذى يلاحظ فى تركه ما يتركه الخوف من بطشه، ويراقب أن من لا يعزب عن علمه شىء رقيب عليه بصير به، فإذا هو باشر شهوة من الشهوات لا بد مطلع عليه عالم بما يعمله سراً كان أو جهرا — من لا حظ فى صومه وعبادته هذا لا شك تنمو عنده ملاحظة مولاه العليم الخبير، وتكبر لديه مراقبة سيده الرقيب البصير، فلا يلبث إلا والمراقبة ملكة له فى الصوم والحج والصلاة وغيرها من العبادات وسائر المعاملات. ومن كان هذا شأنه أهلته هذه الملكة لكل أعمال الخير، وأبعدته عن الشرور صغيرها وكبيرها عظيمها وحقيرها، فلا يخدع ولا يغش ولا يكذب ولا يمارى ولا يرئى، ولا يظلم ولا يهضم حقا ولا يقول إلا صدقا، وبفضيلة الصدق لا ينم ولا يسعى فى الفساد بين الناس، ولا يؤذيهم. وصفوة القول أنه يسعى جهده للفضائل وينأى بكل قواه عن الرذائل، ويصبح وقد تخلق بأخلاق صاحب الرسالة واهتدى بهديه.

ومن الحكم التى شرع لها الصوم أنه يربى فى الإنسان ملكة الصبر وقوة الإرادة والوفاء بالعهد، كما ينمى فيه عاطفة الرحمة، فإن من ذاق ألم الجوع فى بعض الأوقات

ذكر من هذا حاله فى عموم الأوقات فرقّ عليه بسرعة، وواسيه بما أمكنه من المواساة.

ومن السهل عليك بعد الذى تقدم أن تفهم أن من صام رمضان على هذا النوع من الرقابة، وعلى هذا الوصف من الرعاية، بالقيام بما هو مأمور به حق القيام، يكون قد قام رمضان إيمانا واحتسابا. وقد ورد أن من قامه كذلك غفر له ما تقدم من ذنبه. وأنت خبير بأن الصوم على الوجه الذى ذكرنا لا يمكن أن يتحقق بمجرد الجوع والعطش، بل لا بد فى تحققه من الإمساك عن الشهوات ظاهرة وباطنة، بغض البصر عن كل ما يذم ويكره، وعن كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله، ولا يكون هذا عادة إلا بحفظ اللسان عن الهذيان، والبهتان، والغيبة، والفحش، والخصومة بغير حق، وكف السمع عن الإصغاء الى المحرم والمكروه، وكف بقية الجوارح عن الآثام، وكفها عن النهم فى الطعام، محافظا ذلك جميعه برجاء الله فى قبول العبادة علّه يتقبل صومه فيجزيه به الجزاء الأوفى.

ولا يخفى عليك أن الصوم لا يترتب عليه هذا الأثر من الإعانة على التقوى وغيرها من الفضائل إلا بالنية، حتى يكون العمل على قصد العبادة، تمييزا له عن العادة لتتحقق الرغبة فى الخير، وعن هذا قال الأئمة رضوان الله عليهم: إنه لا بد فى الصوم من النية وبدهى أن حسن النية فى العمل وقصد الله به يجعله سببا فى العادة لفتح أبواب السعادة، وبه ينال العابد ثواب عمله لأن الأعمال بالنيات. ولما كان الصوم ترك الشهوات من أجل المعبود جل شأنه، وكان ابتعادا عن محبوب النفس من اللذائذ محبة فى الله ورغبة فى مرضاته، وهذا أمر خفى لا يطلع عليه إلا علام الغيوب، كان الصوم لرب العالمين، وهو الذى يجزى به وهو معنى قوله جل شأنه فى الحديث القدسى: « الصوم لى وأنا أجزى به ».

هدى الرسول فى الصوم :

لما كان هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصوم أكمل هدى ، وكان السير على هديه يحصل المقصود إن شاء الله ، أردنا أن نلم فى هـذه العجالة بشىء من هديه صلى الله عليه وسلم ، ليكون نهجا وسننا نسير عليه ، لنأمن زيغ الشيطان فنقول :

كان من هديه صلى الله عليه وسلم فى رمضان الإكثار من العبادات ، فكان جبريل يدارسه القرآن ، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة ، ومع أنه عليه السلام كان أجود الناس ، كان أجود ما يكون فى رمضان : يكثر فيه من الصدقة والإحسان ، وتلاوة القرآن ، والذكر ، والاعتكاف ، وكان يواصل الصوم فيه أحيانا ، حتى إن بعض أصحابه اقتدى به فنهاهم عن الوصال رحمة منه بهم ، وأفهمهم فى لطف أنهم ليسوا مثله ، لأنه عند ربه يطعمه ويسقيه ، أى يغذيه بالمعارف ، ويفيض على قلبه من لذة المناجاة والقرب منه التى هى غذاء القلوب ونعيم الأرواح .

وكان من هديه أن لا يدخل فى صوم رمضان إلا برؤية هلاله رؤية محققة ، أو بشهادة ولو كانت شهادة واحد ، فقد صام صلى الله عليه وسلم بشهادة ابن عمر رضى الله عنه ، وصام مرة بشهادة أعرابى ، ولم يكلف الشاهد لفظ أشهد ، واكتفى فى رمضان بخبر واحد ، فاذا لم تكن رؤية ولا شهادة ، أكمل عدة شعبان ثلاثين يوما ، ولم يكن يصوم يوم الشك ولا أمر به ، بل أمر أن يكمل عدة شعبان ثلاثين يوما ، وعن هذا قال الحنفية : ينبغى للناس أن يلتمسوا الهلال فى اليوم التاسع والعشرين من شعبان ، فإن رأوه صاموا وإن غم عليهم أكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما . وينبغى لمن رأى الهلال أن يسارع الى القاضى ليخبره بما رأى ، فاذا كان بالسماء علة اكتفى بخبر الواحد العدل رجلا كان أم امرأة حرا كان أم عبداً دون اشتراط لفظ الشهادة ولا مجلس القضاء ، وإذا لم يكن بالسماء علة لا تقبل شهادة الواحد إلا إذا أتى من خارج البلد أو كان على مكان مرتفع

فيه، فاذا لم يكن الأمر كذلك اكتفى بشاهدين خصوصا فى هذا الزمن الذى قعد الناس فيه عن التماس الأهلة . ولما كان المفهوم المتبادر من رؤية الهلال هو الرؤية ليلا أى عند عشية آخر كل شهر ، كان المعتمد عند الحنفية أن لا عبرة برؤية الهلال نهاراً يوم الشك .

هذا وقد اختلفت أقوال العلماء فى الأخذ برأى علماء الفلك فى ثبوت الأهلة . وقد نقل صاحب القنية من الحنفية أقوالا منها ما نقل عن القاضى عبد الجبار من أنه لا بأس من الاعتماد على قولهم ، ومنها ما نقل عن ابن مقاتل أنه كان يسألهم ويعتمد على قولهم إذا اتفق عليه جماعة منهم ، وهذا القول وجيه خصوصا إذا لاحظنا أن نظريات علم الفلك قلما تخطىء فى الحساب ، ولوحظ مع هـذا أن الصوم فرض على من لا يرى الهلال عدة أشهر وهم القاطنون فى الجهات التى تمكث فيها الشمس ستة أشهر أو أقل من ذلك ، لأن سقوط العلامة لا يوجب سقوط نفس الأوقات على ما رآه المحققون من الحنفية .

وكان من هديه عليه السلام أنه حين سافر فى رمضان صام وأفطر وخيّر أصحابه بين الأمرين ، وكان يأمرهم بالفطر إذا دنوا (قربوا) من عدوهم ، ليكون الفطر أقوى لهم على القتال ، ومن هديه صلى الله عليه وسلم اسقاط القضاء عمن أكل أو شرب ناسيا لأن الله سبحانه هو الذى أطعمه وسقاه . والله أعلم ؟ طه حبيب

حكمة الصوم

كان من عادة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ القاضي الشيخ محمد سليمان وهو يقضي في الأقاليم أن يحتفل بمجلس الشرع ينظمه لاثبات هلال رمضان ، وفيه يخطب الحضور خطبة مناسبة للمقام ، ففي سنة ١٣٣٧ هـ ألقى خطبة جامعة بدأها بحكمة الصوم وتطرق منها الى الكلام في حال المسلمين الاجتماعية التي كانت وقتها ، فرأينا أن نثبت الشق الاول من خطبة القاضي هنا في حكمة هذا الركن العظيم من قواعد الاسلام — قال :

أيها الاخوان :

نحتفل اليوم برؤية الهلال هلال رمضان المبارك كي نبتدئ نحن المسلمين صومنا الواجب المقدر في هـذا الشهر المفضل ، وهكذا يتناوب عباد الله صومهم له تعالى خاشعين خاضعين متبتلين إليه بقهر النفس البشرية التي طغت وبغت وكادت من كبرها تنسى أصلها حتى قلبت العالم رأساً على عقب . كذلك وقـد فرض الله الصوم على من كان قبلنـا من لدن آدم الى عهدنا ، حتى روى المفسرون أنه لم تخـل أمة من افتراض الله الصوم عليها ، قال تعالى : (يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ) . وقد فرض الله على المسلمين صوم رمضان في الآية الشريفة (شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) الخ . وكان ذلك لعشر خلون من شعبان في السنة الثانية من الهجرة بعد أن تدرج بهم في فروض الاسلام من الصلاة الى الزكاة الى الصيام ، لأن الصوم أشق التكاليف على النفس ، إذ هو منع لها

عن طبيعتها، وكبح لشهواتها ورغباتها، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يبدأ فى التكاليف بالأخف وهو الصلاة تمرينا للمكلف ورياضة له، ثم يثنى بالوسط وهو الزكاة لأنها فى المال، ويثلث بالأشق بعد ذلك وهو الصيام.

والصوم عندنا ربع الايمان بمقتضى قوليه عليه الصلاة والسلام: «الصوم نصف الصبر» و «الصبر نصف الايمان» وهو الركن الرابع من قواعد الاسلام الخمس التى ترمز لها دوله على راياتها وشاراتها بالنجمة ذات الأطراف الخمسة. ولو كان هذا الدين من أديان الرموز لقال الربانيون فيه إن تقويم الانسان بأطرافه الخمسة رمز لتلك القواعد المقدسة. واختص من بين العبادات بباب فى الجنة يقال له الريّان لا يدخل منه إلا الصائمون، فاذا دخلوا منه أغلق فلم يدخل منه أحد. وميزه الله تعالى بنسبته إليه فى الحديث القدسى عن سيد البشر: يقول الله تعالى: «كل عمل ابن آدم فهو له: الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف إلا الصيام فانه لى وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه وشرابه لأجلى، للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه» وبلغ من فضل رتبته وعظيم منزلته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقسم بالذى نفسه بيده لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. وقال وكيع فى قوله تعالى: (كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ) إنها أيام الصيام، إذ تركوا فيها الأكل والشرب، وفى قوله تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) قيل كان عملهم الصيام لأنه من الصبر، وقد قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا لا يدخل تحت وهم ولا تقدير. وهذا شأن العطاء الإلهى إذا أضيف الى جانبه الكريم، لأنه تعالى نسب الصوم له وجعل جزاءه من عنده خارجا عن جزاء الحسنات. ومع أن العبادات كلها لله إلا أن الصوم تميز من بينها بهذه المناسبة القدسية تشريفا له عليها. وقد بين الامام الغزالى حكمة هذا النسب

فى معنيين قال : « أحدهما أن الصوم كفٌّ وترك ، وهو فى نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد ، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصـوم لا يراه إلا الله عز وجل ، فإنه فى الباطن بالصبر المجرد . وثانيهما أنه قهر لعدو الله عز وجل ، فإن وسيلة الشيطان — لعنه الله — الشهوات ، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع » وقال عليه السـلام لعائشة رضى الله عنها : داومى قرع باب الجنة ، قالت : بماذا ؟ قال : بالجوع . فلما كان الصوم على الخصوص قمعا للشيطان وسدا لمسالكه وتضييقا لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة الى الله عز وجل . . . الخ »

وقد قسم الأستاذ الصيام الى ثلاثة أقسام : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصـوم خصوص الخصوص ، فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة البهيمية ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجـل بالكلية اهـ . وإذا لم نطمع فى صوم خصوص الخصوص — وندعو الله تعالى ألا يحرمنا منه — فلا أقلّ من الوسطى ، لأن صـوم العموم لا قيمة له مع الحديث الشريف « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » تفسيره أنه صام عن الطعام وأفطر على الآثام . وقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

الصوم — أيها السادة — تخلق من العبد بخلق من أخـلاق الرب تعالى وهو الصمدية التى يلزم من معناها الاستغناء ، لأنه إذا امتنع عن أسباب الشهوات من المآكل والمشارب والمناكح فقد استغنى عن جل أسباب الدنيا ، وهو اقتداء بالملائكة

فى الكف عن الشهوات بقدر الإمكان ، إذ أن مرتبة الانسان بين البهائم والملائكة رفعه عن الأولى نور العقل ، وحطه عن الثانية ظلمة الشهوة ، وقد ابتلى بمجاهدتها فكلما انهمك فى الشهوات سفل والتحق بغمار البهيم ، وإذا قمعها علا وتعلق بأفق الملائكة وهم من الله مقربون ، فمن اقتدى بهم وتشبه بأخلاقهم قرب من الله قربهم ، فان الشبيه من القريب قريب . وهـذا سر من أسرار الصـوم أوضحه الغزالى فى ربع المهلكات من كتاب الإحياء ، قال : « أما بعد فإن أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذل والافتقار ، إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، إذ يتبعها شهوة الفرج وشهوة الشبق الى المنكوحات ، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شـدة الرغبة فى المال والجاه اللذين هما وسيلة الى التوسع فى المنكوحات والمطعومات ، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ، ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك الى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضى ذلك بصاحبه الى اقتحام البغى والمنكر والفحشاء ، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء . ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ولم ينجرّ به ذلك الى الانهماك فى الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ولم يتكالب كل هذا التكالب على الدنيا » اهـ .

وهذا التناسق الأخلاقى الإيجابى فى الشرور الذى بناه الامام الغزالى على الشبع جمعه الله تعالى فى كلمة واحدة (كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ) وعلماء النفس يقولون إن الأخلاق بنات الأخلاق ، وإذا كانت الأشياء التى فى الدنيا محدودة

معروفة بفواصل مبينة ، فإنه لا حدود بين الأخلاق التى من شاكلة واحـدة ولا فواصل ، فالحقد والبغض والحسد والنفاق والرياء أخلاق لا يمكن أن تفصل بينها وتقيم لكل منها حد ، بل هى متداخلة بعضها فى بعض كما نشأ بعضها من بعض وسرى منه ووجدبه ، فليس بعجيب ولا غريب هذه النظرية الحقة ، ولـكنها الواقع المذهول عنه . ولهذا المعنى العظيم قال صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » إذ منه تنجت هذه الشرور الكبار .

يقابل الشبع وما نتج عنه من الشرور الجوعُ وما ينتج عنه من الفضائل ، فمن أعظم مزاياه كسر النفس وذلها ، وزوال بطرها وأشرها ، وهو مبدأ طغيانها واتباعها فى جرائمها ولا تذل النفس بشىء بمثل ما تذل بالجوع وتقعد منه عن المظالم التى إن همت بها فلا تجد فيها قوة عليها ولا منّة لإتيانها ، وإذ ذاك تسكن لربها وتخشع له بعـد أن وقفت على عجزها من لقمة طعام فاتها وشربة ماء ما أتتها . وما لم يشاهد الانسان ذل نفسه لا يشاهد عز مولاه ، لأن الاضطرار يلجئه إليه ويقفه ببابه ويذكره به ، فاذا تذكر ربه انتهى عن الفحشاء والمنكر ، وانبعث لما يرضيه ويأمر به . وأقل ما يندفع بالجـوع شهوة الفرج وشهوة الكلام ، فان الجائع لا تتحرك عليه شهوة فضول الكلام ، فيتخلص به من آفات اللسن ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم . وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها ، والجوع يكفى شرها لأنها من بنات شهوة البطن . تلك فضيلة الجوع عمود الصيام ، وهى أسمى الفضائل لأنها سلب الشرور وتذكرة العبد بالرب ، منهاة عن المنهيات ومبعثة للواجبات ، وهو تعالى لا يأمر بالفحشاء إنما يأمر بالعدل والإحسان (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ) (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا) الى آخر الآيات الشريفة فى هذا الباب . ولفضيلة الجوع هذه كان مطلب الأنبياء والصـديقين والشهداء ومدار وصاياهم لتلاميذهم وأوامرهم لأتباعهم ، حتى

روى أنه ما لاقى نبي ربه إلا على جوع . وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلئ قط شبعاء ، وربما بكيت رحمة له مما أرى به من الجوع » وقال سيدنا عيسى عليه السلام : « يا معشر الحواريين ، أجيعوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل » . وفى التوراة : « اتق الله ، وإذا شبعت فاذكر الجياع » وقال سهل بن عبد الله التسترى : « لم ير الأكياس شيئا أنفع من الجوع للدين والدنيا » . وقال : « وضعت الحكمة والعلم فى الجوع ، ووضعت المعصية والجهل فى الشبع » وقال أبو طالب المكى : مثل البطن مثل المزهر — وهو العود المجوف ذو الأوتار — إنما حسن صوته لخفته ورقته ولأنه أجوف غير ممتلئ . فكذلك الجوف إذا خلا كان أعذب للتلاوة وأدوم للقيام ، وأقل للمنام .

للصوم — أيها الإخوان — فوائد شخصية وفوائد اجتماعية . والشخصية تعم الأدبية والجسدية ، فقد انتظمها قوله عليه السلام : «صوموا تصحوا» إذ أن الأمراض من كثرة الأكل وحصول فضلات الأخلاط فى المعدة والعروق . ولذلك جاء فى الأثر « البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء » وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت من طريق وهب بن منبه قال : «أجمعت الأطباء على أن رأس الطب الحمية وأجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت » فالصوم يذهب الرو سب العصبية والفضلات المعدية والأخلاط المعوية ، وهو يطيل العمر ويقوى الجسد ويريح الآلات الجسمية من عناء أعمالها فى عامها ، إذ كل آلة لا بد لها من راحة ، فالصوم فى العام راحة الآلات ، وهذا معنى الحديث « لكل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الجوع » أى انه مطهرة للجسد وعون له على البقاء .

أيها الإخوان :

لم نر طبيبا فيما وصف إلا ويقدم فى وصفته الحمية ويجعلها أصل التذاكر المحفوظة . ماذا كم إلا أنه تطابقت حكمة الأديان مع طب الأبدان .

ومن أعظم الفوائد الشخصية أدبا وسموًّا أن الصوم يصفى الفكر ويوقد القريحة وينفذ البصيرة وينير النفس البشرية لتتلقى الفيوضات القدسية والإشراقات الربانية. ولهذا المعنى اللطيف كره العارفون أن يفسد الصائم فى ليله ما استفاده فى نهاره، يشبع بالليل فيضيع ما انتفع به من جوع النهار، إذ الشبع يورث البلادة ويعمى القلب ويكثر البخر فى الدماغ حتى يحتوى على القوى المفكرة فيثقل العقل عن الجريان فى الأفكار وسرعة الإدراك، بل جرب ذلك فى الصبيان إذا أكثروا الأكل قل حفظهم وبطؤ فهمهم.

فالصوم مرقاة نورانية، ومشكاة لمن أراد أن يستنير عوالم الملكوت. ولما واعد الله موسى ثلاثين ليلة كان الأجل لكى يصفو موسى للقاء ربه بالصوم، قال البيضاوى: « إن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل بمصر أن يأتيهم — بعد مهلك فرعون — بكتاب من الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين، فلما أتم أنكر خلوف فيه فتسوك، فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرا » وطوى بعض الزهاد الإشراقيين ستين يوما، وهذا من الرياضة وحمل الجسم على الروح، وتغذيته بقوتها وإرادتها أن يعيش معها، وان هذ الإشراق مدرك عال جداً فيما وراء المادة ثابت بالقطع لا ينكر، يضاف الى تلك الصحة وهذا الصفاء فضل الاقتصاد، فبالصحة استغنى عن الأدوية والأطباء، وبكف النفس توفرت حاجياتها، وأثمان الزائد عن ضرورياتها، واكتسب من هذا الاقتصاد ثواب البر بما يضمه فى وجوه الخير إن كان من الموسعين، أوعز القناعة إن كان من المعوزين.

ومن فوائده الأدبية أيضا إحساس النفس بألم الصوم، فتتذكر به ألم العذاب فترتدع عن المعاصى، وألم الناس فتنبعث الى ما يخففه، وكل غريب للغريب نسيب.

وأكبر فوائده كسر شهوات المعاصى كلها ، و لاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ، فإن منشأ المعاصى الشهوات والقوى ، ومادتها بإعطاء النفس رغباتها ، فإذا صمت عنها أضعفها فملكت نفسك ، وإن واتيتها قويت فملكتك .

وفوق هذه الفوائد الفائدة الاجتماعية العظمى : من إحساس الصائم بإحساس الفقراء والمساكين ، والقانعين والمعترّين ، فيتذكرهم ويتعهدهم ، ويعلم أن ما بهم به ، وأن ما فيهم عيبه زوله ، فلا يعلم الشوق إلا من يكابده ، و لا أسى يبعث الأسى ، وفى هذا مادة الزكاة والصدقة ركن الاجتماع الأعظم . أما فائدة الفوائد فهى أن الصائم الكامل المتمسك بالصوم الحقيق الجزئ ، إنما هو فرد فاضل ، والمجتمع من أفراد ، فإذا كانوا فضلاء كان بلا شك فاضلا ، وهذه غاية الغايات ، وكل هذه المعانى والحكم التى يستطاع الزيادة فيها جمعها القرآن فى كلمة ختم بها آية الصوم (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) فالصوم لحكمة اجتماعية عظيمة مقصود بها تكون هيئة فاضلة خيرة . ولعل من ألطف المناسبات لتخصيصه برمضان ، أن هذا الشهر أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان وقد أنزل من بيت العزة ، ومهبط الحكمة ، ومشرق النور الصافى . والصوم يصعد بالصائم الى هذا المستوى العالى القدسى ، فكان من المناسب أن هذا الشهر النورانى فى علوه ، ينبغى أن يكون نورانيا فى سفله أيضا ، وأن يصعد بالسفل الى العلو فيكون الكمال الكامل والصفاء النورانى الشامل .

الفتاوى والأحكام

الرضــــاع

ورد ادارة المجلة السؤال الآتى :

ما قولكم دام فضلكم فى رجلين تزوجا ورزقهما الله بولدين يكبر أحدهما عن الآخر بسنة ، ورزق الله هذين الرجلين بنات ، ويريد لولد الصغير أن يتزوج بأخت الكبير الصغيرة ، ولكن أم الولد الكبير التى هى أم للصغيرة قالت إنها أرضعت الولد الصغير ليلة كاملة مع ابنها الكبير ، مع العلم بأن فى الدار معها ناسا من أقربائها لا يعلمون بهذا الرضاع أصلا وينكرونه على تلك المرأة التى هى أم الولد الكبير وأم البنت الصغيرة . فما هو الحكم الشرعى مفصلا فى هذا الباب ؟ .

(أحد القراء)

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فإن الرضاع يحرم ما حرم النسب ، قال صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » . والرضاع عند المالكية يتحقق بوصول لبن المرضعة لجوف الرضيع ولو مصة اذا كان فى مدة الحولين من ولادته ، قال تعالى : (وَالْوَالِدَاتُ

يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ) فمدة الرضاع الكامل سنتان ، وألحق المالكية بهما شهرين من السنة الثالثة لأن ما قارب الشيء يعطى حكمه . ومن أرضعت ولدا فبناتها و بنات زوجها ما تقدم وما تأخر أخوات له ، ويثبت الرضاع عندهم بإقرار أم لولد غير الرشيد ذكرا كان أو أنثى على الراجح فى المذهب اذا كان إقرارها بالرضاع قبل العقد . وعلى ذلك فإقرار أم البنت فى الحادثة المسئول عنها معتبر عند المالكية متى كانت البنت غير رشيدة بأن كانت صغيرة أو سفيهة ، فإن كانت رشيدة فإقرار الأم بالرضاع لا يحرمها على من يريد تزوجها . نعم يندب له أن لا يتزوجها احتياطا وتورّعا ، كما أنها اذا أقرت بالرضاع ثم رجعت عنه فلا عبرة بإقرارها . والله ولى التوفيق .

يوسف الدجوى

الصلاة خلف جزار

وورد أيضا السؤال الآتى :

ما حكم صلاة من صلى خلف جزار يزاول المهنة بيده ويقوم بعلف البهائم وخدمتها فيصيبه رشاش الدم وفلذات الدهن وقذارة الأرواث ويتصاعد من مجموعها رائحة كريهة تؤذى القريب منه والبعيد ؟ وهل يصلى بالناس من يجهل مع حضور من يعلم ؟ وهل يصلى بالناس من يبغضه الناس ؟ إنا منتظرون إماطة اللثام عن حكم من نصب مثل هذا الرجل إماما .

محمد الشريف كساب

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد : فاعلم أيها المستفتى أن الجزار ونحوه من أصحاب المهن التى لا تخلو عن مباشرة النجاسة يعفى عما يصيب ثيابهم منها متى كانوا يجتهدون فى درئها لعسر التحرز ، وقد يشهد لذلك قوله تعالى : (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) وقوله عليه الصلاة والسلام : « بعثت بالحنيفية السمحة » ويستحب لهم إعداد ثوب خاص للصلاة به . وعلى ذلك فصلاة الجزار بثيابه التى يباشر فيها المهنة صحيحة والنجاسة معفو عنها . وأما إمامته فمكروهة لمن ليس مثله ، أما مثله من ذوى الأعذار المقتضية للعفو عن النجاسة فلا يكره أن يكون إماما له . وأما رائحة ثيابه فهى مانعة من حضوره الجماعة متى كانت تؤذى غيره ، فعليه أن يخلعها قبل الذهاب الى المسجد وإلا حرم عليه دخوله فضلا عن أن يكون إماماً للناس ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

وأما إمامة الجاهل ففيها تفصيل : فإن كان جهله يؤثر فى صحة صلاته بأن كان لا يحسن قراءة الفاتحة أو لا يحسن الوضوء أو الاغتسال من الجنابة ، أو ترك فرضا من فروض الصلاة كالطيا نية فصلاته باطلة فضلا عن إمامته ، وإن كان جهله لا يؤثر فى صحة الصلاة فصلاته وإمامته صحيحتان ولو لم يميز الفرائض من السنن إذا كان يعتقد أن فى الصلاة فرائض وغير فرائض ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » فمتى كانت الصلاة مستوفية لجميع ما يعتبر فى صحتها شرعا فهى صحيحة والاقتداء أيضا صحيح . نعم الفقيه أحق بالإمامة من الجاهل الذى تصح إمامته .

وإما إمامة من يكرهه أهل بلده ففيها تفصيل أيضا : فإن كانت الكراهة لأمر دينى فإمامته مكروهة حيث كرهه النفر اليسير الذين ليسوا من ذوى الفضل والعلم ، فإن كرهه أهل البلد كلهم أو أكثرهم أو كرهه أهل الفضل وإن قلوا ، حرمت إمامته ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله من أمّ قوما وهم له كارهون » والله أعلم .

يوسف الدجوى

صلاة جار المسجد

فى بيته مع زوجه

وورد ادارة المجلة السؤال الآتى :

رجل بجوار المسجد يتخلف عن صلاة الجماعة مكتفيا بأنه يصلى فى بيته مع زوجه جماعة ، فهل عليه فى تخلفه شىء (أم أن جماعته فى بيته كجماعته فى مسجده) ؟ نرجو من فضيلتكم التكرم بالجواب ولكم الشكر ومن الله الأجر .

سعد السيد الدمنهورى

الجواب

إن صلاة الرجل مع زوجه يحصل بها فضل الجماعة الوارد فى قوله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بسبع وعشرين درجة » وأقل الجماعة اثنان ولو رجلا وامرأة ، ولذلك نص المالكية على أن من صلى إماما لامرأة فلا يطلب منه إعادة الصلاة فى جماعة لحصول فضلها بصلاته مع المرأة . نعم صلاة الفرائض فى المساجد أفضل ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصلاة صلاتكم ببيوتكم إلا المكتوبة » يعنى الفريضة ، وما كانت الصحابة رضوان الله عليهم يتركون الجماعة فى المساجد اكتفاء بالصلاة مع أزواجهم .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

عذاب القبر

وورد من حضرة الشيخ مصطفى أحمد الرفاعى مراقب مكارم الأخلاق بأسيوط السؤال فى عذاب القبر .

الجواب

اتفق أهل الحق على أن للنفس الناطقة حياة بعد هذه الحياة تنال فيها ما أعده الله لها من ثواب أو عقاب ، وأن الله يخلق فى الميت نوعا من الحياة قدر ما يحس به الألم ويستشعر به النعيم ، أما كنه هذه الحياة وحقيقتها على أى وجه تكون ، فلم يقصه الشرع علينا . والواجب اعتقاده على كل مسلم هو اعتقاد أن الميت يسأل فى قبره ، وينعم إن كان من أهل النعيم ، ويعذب إن كان من الفاسقين أو الكافرين . وليس بلازم أن يكون ذلك بإعادة الروح الى الجسد فى القبر على الوجه المعهود فى الدنيا . وما يتوهم من أن الحياة لا تتصور بدون رد الروح الى الجسد على ما نعهد فى هذه الحياة لا أصل له ، وإنما ذلك فى الحياة الكاملة التى يكون معها القدرة على الأفعال الاختيارية ، وحياة القبر لا يلزم أن تكون كذلك ، بل هى نوع من الحياة على الوجه الذى قدمناه .

وهذا القدر من ضروريات الدين التى لا يجوز للمسلم إنكارها ، لأنه أمر ممكن فى ذاته ، وقد نطق به الكتاب ، وأخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ) وعرضهم على النار إحراقهم بها ، من قولهم : عرض الأسارى

على السيف ، أى قتلوا به . وقوله : « ويوم تقوم الساعة » دليل على أن العرض قبل ذلك اليوم ، وليس غير عذاب القبر بالاتفاق على ورود الآية فى حق الموتى .

وقال الله تعالى فى حق قوم نوح : (أُغْرِقوا فَأُدْخِلُوا نَاراً) وقال تعالى : (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ) وهى الإماتة الأولى قبل مزار القبور ، ثم الإحياء فى القبر ، ثم الإماتة فيه ، ثم الإحياء للحشر ، فإحدى الحياتين هى حياة القبر على الراجح . وقال تعالى : (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) الآية .

والأحاديث الصحيحة الدالة على عذاب القبر كثيرة ، فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم رضى الله عنهما عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار » الحديث . ومنه ما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشى : إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار — يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيامة » وروى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول ، وأما الآخر فكان لا يمشى إلا بالنميمة » .

وروى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد اذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل — لمحمد ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً

من الجنة ، فيراهما جميعا ويفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرة الى يوم يبعثون ، وأما الكافر أو المنافق فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ولا تليت ، ثم يضرب بمطراق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين ويضيق عليه فى قبره حتى تختلف أضلاعه » .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن قوله تعالى : (يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ) نزلت فى عذاب القبر » الحديث .

وعلى الجملة فإن الأحاديث الواردة فى عذاب القبر متواترة المعنى ، فالآيات والأحاديث متفقة على أن عذاب القبر حق . وقد أنكر عذاب القبر الروافض وقوم من السفهاء المعاندين للحق ، متمسكين بشبه لا قيمة لها ، مثل قولهم : إن الميت جماد لا حياة له ولا إدراك فتعذيبه محال . ومثل قولهم : إن اللذة والألم والمسألة والتكلم ونحو ذلك لا تتصور بدون العلم والحياة ولا حياة مع فساد البنية ، وإنا نرى الميت أو المقتول يبقى مدة من غير حركة وتكلم ولا يُرى عليه أثر التلذذ والتألم ، وقد يدفن فى صندوق أو لحد ضيق لا يتصور فيه جلوسه ، وقد تأكله السباع أو يحرق بالنار فيصير رماداً ، فكيف يعقل حياته وعذابه وسؤاله وجوابه ؟ وهى شبه كما ترى لا قيمة لها ، أما على أن العذاب للروح فلا إشكال فيه أصلا ؛ وكذلك لا إشكال على القول الأول وهو أن ذلك للبدن مع الروح ، لأن هذا الاتصال أمر ممكن ، فيجوز أن يخلق الله تعالى فى جميع أجزاء الانسان أو بعضها نوعا من الحياة قدر ما يدرك الألم ؛ وهذا لا يستلزم إعادة الروح الى بدنه الإعادة المعهودة فى الدنيا ، ولا أنه يتحرك أو يضطرب أو يرى أثر العذاب عليه ، حتى إن الغريق فى الماء أو المأكول فى بطون

الحيوانات أو المصلوب فى الهواء يعذب وإن لم نطلع عليه ؛ وعدم مشاهدته لا ينفيه ؛ وقد أخفاه الله تعالى لحكمة لا اطلاع لنا عليها ، وما تعلمه أنت فى أمر النائم من أنه قد يرى فى نومه أنه فى معركة يضرب ويشج رأسه ويرى قوما يسبونه ويشتمونه ، كما أنه قد يرى أنه فى مزرعة أو بستان ومع قوم يكرمونه ويبجلونه ويتحدثون اليه ويتحدث اليهم ، كل ذلك يدركه النائم من نفسه وينعم أو يتأذى به كما يتأذى به اليقظان ، وأنت ترى ظاهره ساكنا لا يجعلك فى شك من أن شبه القوم لا قيمة لها .

وصفوة القول أن جميع ما ذكره المنكرون استبعادات لا تنفى الإمكان ولا خوارق العادات ، قال السعد : « ومن تأمل فى عجائب ملكه تعالى وملكوته وغرائب قدرته وجبروته ، لم يستبعد أمثال ذلك فضلا عن الاستحالة ، كيف وقد دلت عليه الآيات والأحاديث الصحيحة ؟ والله أعلم ؟

طه حبيب
عضو المحكمة العليا الشرعية
سابقاً

الطرف والملح

قال الحسن البصرى رحمه الله فى يوم وقد رأى الناس وهيآتهم :

إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً لخلقه ، يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن باحسانه ومسىء باساءته ؛

دفع شبهة عن مقال الزار

سبق أن بيّنا فى مبحث الزار تعريف الجن والجان ، وأن منهم العاصى ومنهم المطيع ، ونزيد على ما تقدم أن المؤمن منهم يثاب ، وأن العاصى يعذب فى جهنم كما يعذب العاصى من الإنس ، قال الله تعالى : (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا . وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) فأبان الله فى هذه الآية ثواب المؤمنين بقوله : (تَحَرَّوْا رَشَدًا) أى توخوا رشدا عظيما لا يبلغ كنهه إلا الله تعالى ، ومثل هذا لا يتحقق إلا فى الثواب ، وذكر عقاب القاسطين بقوله : (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا) .

ويظهر أن الأمر اشتبه على كثير من الناس فأخذوا يسألون : اذا كان الجن مخلوقين من النار فكيف يعذبون بالنار ، وكيف يكونون حطبا للنار ؟ وهذا اشتباه لا محل له ، لأن خلقهم من النار وكون النار عنصرا أصليا فيهم لا ينافى أنهم تغيروا عن تلك الكيفية وصاروا على كيفية أخرى تشعر باللذة والألم والعذاب والنعيم ، فيعذبون بالنار كغيرهم من بقية الخلائق . ومن هذا الاشتباه ما اشتبه على بعضهم من أن كون الجن أجساما نارية ينافى أن يمس الجن الآدمى إذ لومسّه لاحترق ، وهو سهو عن أن العنصر الأصلى المكون منه الجن أو الآدمى لا يجعله نارا تتأجج ، كما أن كون الانسان من طين لا ينافى أنه على تلك الصورة العجيبة من لحم ودم وعظام وعروق وما الى ذلك من بقية أجزاء الجسم .

ولو تفطن المشتبهون لأنفسهم لما وقعوا فى هذا الاشتباه ، إذ أنهم لو سمعوا من شخص أن كون الانسان من طين يجعله ملوّثا لما يمسه من أجسام أخرى

لضحكوا من هذا وظنوه سخرية ؛ ولقد يكون ضحكهم أكثر اذا قيل لهم : كيف يكون الانسان من طين وهو يستحم بالماء ويغمس نفسه فيه ومع ذلك لا يذوب ولا يتأثر الماء بأثر من آثار الطين : ولو أن شخصا قال لآدمى : جعلت عقوبتك أن أركسك فى الطين ؛ هل يكون غير معاقب له بناء على أن أصل لآدمى من طين فلا يتأثر من أن يدسّ فى الطين ؟ : .

والحاصل أن كون الانسان من طين وكون الجن من نار لا ينافى أن كلا منهما أصبح على حال أخرى غير الطين والنار ، وأن كلا منهما يتأثر بالطين وبالنار وغيرهما ، ويكفى لهؤلاء المشتبهين نظرة واحدة فيما يقع تحت حواسهم من المركبات الكيمائية فإن الجسم المركب من جملة عناصر يكون له من الصفة والأحكام ما ليس لكل جزء مما هو مؤلف منه . ولقد أخفى لله كيفية خلقه لما خلق سبحانه عن عباده ، فقال تعالى : (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) ومن هذا يتبين أن كون الجن من النار فى لأصل لا ينافى أن يعذب بالنار ، كما أن كون أصله من النار لا ينافى أن يمس الآدمى على أى نوع من أنواع المس ولا يحترق الآدمى من ذلك ، فلا محل بعد هذا البيان الى التمسك بتلك الشبهة . والله أعلم ؟

ط حبيب

الطرف والملح

قيل لبعض الحكماء : أى وقتٍ الطعام فيه أفضل ؟ قال : أما لمن قدر فاذا جاع وأما لمن لم يقدر فاذا وجد .

العلوم والآداب

الشعر (١)

حقيقته — وسائل البراعة فيه — الارتياح له
تحلى العلماء به — التجديد فيه

الـكلام إما نثر ، وهو ما يلقى من غير قصد الى تقييده بوزن ، ولا يلزم بناؤه على حرف معين تنتهى به جمله ، وإما منظوم ، وهو الـكلام الذى يصاغ فى أوزان خاصة ، وتُبْنَى قطعه على حرف خاص يختاره الناظم ويلتزمه فى آخر كل قطعة منه ، وهذا هو فن الشعر .

ورأى بعض الأدباء أن من المنظوم ما لا يختلف عن الـكلام العادى إلا بهيئة الوزن والتزام القافية ، فلا يحسن أن تجعل ميزة الشعر شيئاً يعود الى مقدار الحروف وأشكالها والتزام حرف منها فى آخر كل قطعة منه ، دون أن تـكون له خاصة تميزه عن غيره من جهة المعنى ، فزادوا فى بيانه قولهم : من شأنه أن يحبّب الى النفوس ما قصد تحبيبه اليها ، ويكرّه اليها ما قصد تكريهه اليها ، وتحبيبه الأشياء أو تـكريهها بوسيلة ما يشتمل عليه من حسن التخييل .

فالـكلام الموزون المقفى الذى يحبّب الى النفوس شيئاً ، أو يكرهه اليها ، بوسيلة الحجة التى يصوغها العقل ، وتجرى عليها قوانين المنطق ، لا يسمى شعراً على وجه الحقيقة ، لأنه خال من روح الشعر الذى هو حسن التخييل .

---

(١) ألقى محاضرة فى نادى جمعية الهداية الاسلامية .

والحق أن الشعر ما يقصد به حمل النفوس على فعل الشيء أو اعتقاده ، أو صرفها عن فعله أو عن اعتقاده ، من جهة ما يشتمل عليه من حسن التخييل أو براعة البيان ، ومن هنا دخل فى الفنون الجميلة ، ولا جمال فى المنظوم إلا أن يكون فى معناه غرابة ، أو فى تركيب ألفاظه براعة . فالكلام الموزون المقفى إنما يكون حقيقا باسم الشعر متى بدا فيه وجه من حسن الصنعة ، بحيث يكون هذا الحسن زائدا على أصل المعنى الذى يقصد بالإفادة أولاً ، ولا فرق بين أن يكون أثر البراعة فى التخييل أو أثر البراعة فى ترتيب المعانى وإيرادها فى ألفاظ مؤتلفة سَنِيّة .

ولا ننسى أن للنفس عند سمع الكلام الموزون حالا من الارتياح غير حالها عند سماعه منثورا ، يدل لهذا الجملُ البيّنة المرسلة إذا تُصرف فيها بنحو التقديم والتأخير حتى وافقت وزنا من الأوزان المألوفة ، فإن ارتياح النفس لها بعد هذا التصرف يكون أوفر .

ومن أمثلة ما جرى فيه التخييل البارع قول أبى زيد عبد الرحمن الفنداقى الأندلسى من قصيدة ألقاها بين يدى إدريس بن يحى أحد أمراء الأندلس :

ومصابيح الدجى قد طفئت … فى بقايا من سواد الليل جون
وكأن الظل مسك فى الثرى … وكأن الطل در فى الغصون
والندى يقطر من نرجسه … كدموع أسكبتهن الجفون
والثريا قد هوت من أفقها … كقضيب زاهر من ياسمين
وانبرى جنح الدجى عن صبحه … كغراب طار عن بيض كنين

فلو تحدث الشاعر عن انجلاء الليل ، وطلوع الصبح ، وانبساط الظل ، ونزول الطل وتساقط الندى ، وهوى الثريا من أفقها ، بالعبارات المجردة عن مثل هذا التخييل ، لما اهتزت النفوس لها هذا الاهتزاز البالغ .

ومن أمثلة الشعر الذى جاءه الجمال من حسن ترتيب معانيه وبراعة نسجه ، قول أبى العلاء المعرى :

كم بودرت غادة كعوب وعُمّرت أمها العجوز
أحرزها الولدان خوفا والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تبطئ المنايا والخلد فى الدهر لا يجوز

فمعانى هذه الأبيات يستوى فى معرفتها القروىّ والبدوىّ ، ومن الذى لا يدرى أن داعى الموت كثيرا ما يبادر الفتاة ، ويدع أمها وهى عجوز ، وأن المنايا قد تبطىء عن بعض الأشخاص فتطول أعمارهم ، وأن الخلود فى الدنيا غير مطموع فيه ؛ ولكن الشاعر صاغ هذه المعانى فى سلك التناسب ، وأبرزها فى ثوب قشيب من الألفاظ العذبة والنسج الحكيم ، فكان لها وهى فى ائتلافها ، وزخرف أثوابها ، وقعٌ ما تبتهج له النفوس ابتهاجها لمعان جديدة لم تخطر لها من قبلُ على بال .

ومن الشعر ما هو باطل ، وهو الذى وصف الله تعالى أصحابه بقوله : (وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) الآية . ومنه ما هو حق ، وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم : (إن من الشعر حكمة) وسنخص البحث عن تأثير الشعر فى الأخلاق والاجتماع بإحدى محاضراتنا الآتية ، إن شاء الله تعالى ، وكل آت قريب .

وسائل البراعة فى الشعر :

لا يطوع الشعر البارع إلا لمن يردد نظره على كثير من الأشعار البليغة ، ويملأ منها حافظته ، ثم يأخذ قريحته بالتمرين على النظم الفينة بعد الفينة ، فهذان ركنان لتربية ملكة الشعر وترقيتها ، فاذا أتيح للشاعر مع هذا جودة هواء المنازل التى يتقلب فيها وحسن مناظرها ، ووثق بأن فى قومه من يقبل على الشعر ، ويقدر مراتب الشعراء ، لم يلبث أن يأتى بما يسترق الأسماع ، ويسحر الألباب .

وشأن من يزاول العلوم ذات المباحث العميقة ، والقوانين الكثيرة ، أن لا يبلغ الذروة فى صناعة القريض ، ذلك أن الناشىء الذى يقبل على طلب العلوم إقبال من يروم الرسوخ فى فهمها ، والغوص على أسرارها ، لا يجد من لوقت ما يصرفه فى حفظ المقدار الكافى من أشعار البلغاء ، وفى تمرين قريحته على النظم تمريناً يصعد بها الى الذروة ، وإذا صرف من وقته فى الحفظ والتمرين ما فيه الكفاية ، وجد من قريحته المعنية بالبحث عن الحقائق العلمية ما يبطىء به عن اختراع معان خيالية بديعة .

ونظر ابن خلدون فى وجه قصور العلماء عن التناهى فى صناعة الشعر ، وأبدى أن السبب ما يسبق إليهم من حفظ المتون العلمية ، فان عبارات هذه المتون وإن كانت على وفق العربية ، لا يراعى فيها قانون البلاغة ، وامتلاء الذهن من الكلام النازل عن البلاغة ، لا يخلو من أن يكون له أثر فى النظم ، فيقصر به عن الرتبة العالية من الفصاحة ، فلو انبعثت قريحته فى فضاء واسع من الخيال ، واستطاعت اختراع صور غريبة ، لخدشت تلك المحفوظات ملكة فصاحته ، فيخرج الشعر وفى ألفاظه أو فى نسج جمله ما يتجافى عنه الذوق ، فلا تتلقى تلك الصور بالارتياح وإن كانت فى نفسها غريبة .

فالتوغل فى العلوم يضايق ملكة الشعر ، وأشد ما يضايقها العلوم النظرية ، كالمنطق ، والكلام ، والفلسفة ، والفقه ، ولا سيما ما يعنى صاحبه بالبحث فى طرق الاستنباط ، ويتعلم كيف يطبق الأصول على الوقائع الخارجية .

وعلوم النحو والصرف والبيان ، معدودة فى وسائل إحكام صنعة الشعر ، ومتى درست على طريقة التوسع فى مسائل الخلاف ، ومناقشة الآراء والأدلة والعبارات ، أصبحت فى خدش ملكة الشعر كالمباحث الفلسفية أو الفقهية .

وقد يكون فى الرجل قوة الشاعرية فيهجرها ، فتضعف حتى لا تواتيه عند ما يهم باستدرارها ، قال أبو القاسم الأندلسى : جرى ذكر الشعر بحضرة أبى على

الفارسى وأنا حاضر ، فقال : إنى أغبطكم على قول الشعر ، فإن خاطرى لا يوافقنى على قوله ، على تحقيق فى العلوم التى هى موادّه ، فقال له رجل : فما قلت قط شيئا منه ؟ قال : ما أعلم أن لى شعرا إلا ثلاثة أبيات فى الشيب ، وهى قولى :

خضبت الشيب لما كان عيبا ... وخضب الشيب أولى أن يعابا

ولم أخضب مخافة هجر خل ... ولا عيبا خشيت ولا عتابا

ولكن المشيب بدا ذميما ... فصيّرت الخضاب له عقابا

فهذه الأبيات تدل على أن فى أبى علىّ الفارسى مبدأ نظم الشعر ، وعدمُ مواتاة الشعر له عند ما يهم بنظمه ، ناشئ من عدم إقباله على هذه القوة بالتربية والتهذيب .

الارتياح للشعر :

ترتاح النفس لصور من المعانى يصنعها الخيال ، أو تخرج فى ثوب قشيب من حسن البيان ، ذلك الارتياح لذةُ الشعر الذى هو صنع الألمعية المتلألئة ، والتخيل الواسع ، والذوق الصحيح . ولا أظن أن فى الناس من لا يلذ الشعر البديع متى أحسّ معانيه ، ووقعت فى ذهنه باديةَ الوجوه كما كانت فى ذهن مصوّرها ، وإنما المشاهد أن الناس يتفاوتون فى الارتياح للشعر على قدر تفاوتهم فى صفاء الذوق ، وتقدير ما فى معانيه من غرابة وحسن التئام ، أو تقدير ما فى ألفاظه من حسن السبك وجودة التركيب .

فاذا رأيت الرجل يسمع الشعر البارع ، ولا تلوح عليه أمارة الارتياح لسماعه ، فلأنه لم يحسّ ما فيه من إبداع وجودة صنعة ، وكثيرا ما يعيب الناقد صورة معنى خيالى حيث لا يحس الناحية التى فعل فيها الخيال البارع فعلته . أورد بعض الكاتبين فى الأدب قول الشاعر :

كالطيف يأبى دخول الجفن منفتحا ... وليس يدخله إلا إذا انطبقا

وعا به بقوله : إن الطيف لا يدخل الجفن ، وإنما يتخيل الى النفس . ولو اعتاد هذا الكاتب النظر الى الصور الخيالية من مسالكها اللطيفة ، لما اتعب فكره فى البحث عن الباب الذى يدخل منه الطيف المتخيل للنفس فى صورة المرئى رأى العين .

يصفو الذوق فيحس براعة الشعر ولطف مسلكه ، فتأخذ النفس من شدة الاعجاب به حالة ربما عبروا عنها بالإغماء ، أنشد أبو عمرو بن سالم المالقى فى مجلس أبى محمد عبد الوهاب أبياتا لبعض الأندلسيين ، منها :

ورأوا حصى الياقوت دون نحورهم فتقلدوا شهب النجوم عقودا

فأخذ أبا محمد حال من الإعجاب بهذه الأبيات حتى تصبّب عرقا ، وقال : إنى مما يقهرنى ولا أملك نفسى عنده الشعرُ المطبوع . وروى حماد بن إسحاق أن أباه قال له : كان العباس بن الأحنف إذا سمع شيئا استحسنه أطرفَنى به ، وأفعل معه مثل ذلك ، فجاءنى يوما ووقف بين البابين ، وأنشد لابن الدمينة :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادنى مسراك وجد على وجد

الخ الأبيات ، ثم ترنّح ساعة وقال : أنطح العمود برأسى من حسن هذا ؛ فقلت : لا ، ارفق بنفسك .

وكان سعيد بن المسيب مارًّا ببعض أزقة البصرة فسمع منشدا ينشد قصيدة لمحمد بن عبد الله النميرى ، يقول فيها :

تضوّع مسكا بطن نعمان إذ مشت به زينب فى نسوة خفرات
يخبّئن أطراف البنان من التقى ويخرجن جنح الليل معتجرات

فضرب سعيد برجله الأرض ، وقال : هذا والله يلذ سماعه .

وصام أبو السائب المخزومى يوما ، فلما صلى المغرب وقدمت له المائدة خطر بقلبه بيتا جرير :

إن الذين غدوا بلبّك غادروا وشلاً بعينك لا يزال مَعينا

غيّضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فاشتد ارتياحه لهما ، حتى حلف أن لا يفطر فى تلك الليلة إلا على هذين البيتين .

وكثيرا ما يكون ارتياح الأمير لبيت واحد سببا فى إغناء الشاعر ودفع مظلمته ، نقرأ فى أخبار ابن شرف أن أحد عمال المعتصم ناقشه فى قرية له ، فورد ابن شرف على المعتصم شاكيا هذا العامل ، وأنشد بين يديه قصيدة فى الغرض ، ولما بلغ قوله :

لم يبق للجور فى أيامهم أثر غير الذى فى عيون الغيد من حور

قال له المعتصم : كم فى القرية التى تحرث فيها من بيت ؟ قال : فيها خمسون بيتا ، فقال له : أسوغك جميعها لهذا البيت الواحد ، ثم وقّع له بها ، وعزل عنها كل وال .

وكيف نرى ابتهاج أبى عمرو بن العلاء حين سمع قول بشار :

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

روّحى عنى قليلا واعلمى أننى يا عبد من لحم ودم

إن فى بردىّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

لا شك أن ابتهاجه لسماعه كان بالغا ما يمكنه أن يبلغ ، ينبئك بهذا أنه سئل عن أبرع الناس بيتا ، فقال : الذى يقول « لم يطل ليلى » وأنشد الأبيات الثلاثة .

العلماء والشعر :

فى العلماء من يبلغ استطلاع الحقائق الى حد أن يستغرق أوقاته فى البحث العلمى ويرغب عن أن يعرف فى صناعة الشعر أو تذوّق بلاغته ولو ساعة من شهر ، حكى المقرى أنه أنشد بحضرة العلامة محمد بن ابراهيم الأبلى قول بن الرومى :

أفنى وأعمى ذا الطبيبُ بطبه وبكحله الأحياء والبصراء

فاذا مررت رأيت من عميانه جمعا على أمواته قرّاء

قال : فاستعادني الأبيات ، حتى عجبت منه مع ما أعرف من عدم ميله الى الشعر ، ثم قال : أظننت أنى استحسنت الشعر ؟ إنما تعرفت منه أن العميان كانوا فى ذلك الزمان يقرءون على المقابر ، فانى كنت أرى ذلك حديث العهد ، فاستفدت التاريخ .

وفى العلماء من يأخذ الشعرُ البارع بمجامع قلبه ، ويجد فى نفسه قوة على نظمه ، فيضرب مع الشعراء بسهم ، ليزين علمه بهذا الفن الجميل ، وسبْقُ الشعراء المتجردين للشعر وحده فى هذه الحلبة ، لا يثنى العلماء عن تعاطيه ، نظرا الى أنه فن من فنون الأدب الجميلة ، وقد يتخذ وسيلة الى جلب خير أو دفع أذى .

والتاريخ يحدثنا أن فى أعلام العربية من كانوا يجيدون صناعة القريض ، كابن دريد الذى كانوا يصفونه بأنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، ومن مختارات شعره الأبيات العينية التى يقول فيها :

ومن لم يزعه لبّه وحياؤه فليس له من شيب فوديه وازع

ومثل الامام النحوى أبى الحسين على بن أحمد بن حمدون ، ومن جيد شعره :

تناءت ديار قد ألفتُ وجيرة فهل لى الى عهد الوصال إياب
وفارقت أوطانى ولم أبلغ المنى ودون مرادى أبحر وهضاب
مضى زمنى والشيب حل بمَفْرِقى وأبعدُ شىء أن يُردّ شباب

ويحدثنا أن فى رجال الفقه من يجيد التخيل ، ويحسن صياغة الكلام المنظوم ، كالقاضى عبد الوهاب بن نصر المالكى الذى قال فيه أبو العلاء المعرى :

والمالكى ابن نصر زار فى سفر بلادنا فحمدنا النأى والسفرا
اذا تفقه أحيا مالكا جدلا وينشر الملك الضليل[1] إن شعرا

---

(١) امرؤ القيس .

ومن نظم هذا القاضى:

متى تصل العطاش الى ارتواء ... اذا استقت البحار من الركايا
ومن يثن لأصاغر عن مراد ... وقد جلس الأكابر فى الزوايا
وإنّ ترفّع الوضعاء يوما ... على الرفعاء من إحدى البلايا
إذا استوت الأصاغر والأعالى ... فقد طابت منادمة المنايا

ويحدثنا بأن فى علماء الحديث من يجيد صنع الشعر، مثل الحافظ سليمان بن موسى الكلاعى، فان له من الشعر ما يشبه أن يكون عربيا مطبوعا، ومما قال:

أحنّ الى نجد ومن حل فى نجد ... وماذا الذى يغنى حنينى أو يجدى
وقد أوطنوها وادعين وخلفوا ... محبهمُ رهن الصبابة والوجد
وضاقت علىّ الأرض حتى كأنها ... وشاح بخصر أو سوار على زند

ونجد للقاضى عياض وهو من علماء الحديث والفقه شعرا ذاهبا فى التخيل الى حد بعيد، ومما قال:

انظر الى الزرع وخاماته [1] ... تحكى وقد ماست أمام الرياح
كتيبةً خضراء مهزومة ... شقائق النعمان فيها جراح

ويحدثنا أن فى علماء المنطق والرياضيات من يصنع صورا خيالية، ويبرزها فى ألفاظ عذبة رقيقة، مثل أبى بكر بن الصائغ الأندلسى، ومن نظمه البديع قوله:

ضربوا الخيام على أقاحى روضة ... خطر النسيم بها ففاح عبيرا
وتركت قلبى سار بين حمولهم ... دامى الكلوم يسوق تلك العيرا
لا والذى جعل الغصون معاطفا ... لهم وصاغ من الأقاح ثغورا
ما مرّ بى ريح الصبا من بعدهم ... إلا شرقت له فعاد سعيرا

(١) الخامة: الشعبة الرطبة من النبات.

يبرع بعض العلماء فى الشعر ، ولكن فحول الشعراء من غير العلماء يكون جيد أشعارهم أكثر ، ونفَسهم فى الشعر أطول ، وقرائحهم الى المعانى الغريبة أسرع .

التجديد فى الشعر :

يجرى على ألسنة المعاصرين ، وأقلام الكتاب حديث التجديد فى الشعر ، ولسنا ممن يتجافى عن رأى التجديد ، إذ التجديد سنة من سنن الشعراء النابغين ، ولا سيما شعراء ينشئون أو ينزلون فى بلاد عامرة بمظاهر المدنية ، وإنما نريد بحث ما يعنى بكلمة التجديد ، حتى نصل الى ما فيه إصلاح الشعر ، ونتحامى هدم ناحية من نواحى اللغة الفصحى .

للشعر مقاييس ، وقواف ، ومعان ، وألفاظ ، وأساليب ، وفنون .

أما المقاييس فقد نظم العرب فى ستة عشر مقياسا ، وهى المدونة فى كتب العروض وما زال الشعراء يصوغون أشعارهم على هذه المقاييس الى عهد الدولة العباسية ، وفى ذلك العهد حدثت موازين خارجة عن الموازين السالفة ، ووجدت كما تجد الأزجال فى هذا العهد من يعجب بها ، ويلذ سماعها . ومن الموشحات الأندلسية ما يختلف فيه أشطار القصيدة بالطول والقصر اختلافا بيّنا ، كقول أبى الحسن بن سهل :

كحّلُ الدجى يجرى   من مقلة الفجر   على الصباح
ومعصم النهر   فى حلل خضر   من البطاح

ومن هذا القبيل موشحة ابن لوكيل التى دخل بها على أعجاز قصيدة ابن زيدون :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومما يقول فى الموشحة :

يا جيرة بانت   عن مغرم صب

لعهده خانت من غير ما ذنب
ما هكذا كانت عوائد العرب

لا تحسبوا البعدا يغير العهدا إذ طالما غير النأى المحبينا

وإذا كان الأدباء فى العصور الماضية لم يقصروا شعرهم على المقاييس المعروفة فأحدثوا مقاييس جديدة ، فلا نكره لأديب أن يصوغ الشعر فى مقياس محدث متى وثق من موافقته لأذواق الناس وارتياحهم لحركاته وسكناته .

وأما القافية فقد التزمها العرب على النحو المعروف فى أشعارهم ، حتى اخترع الأدباء الموشحات ، فأخذت القافية هيئة غير هيئتها الأولى ، كما رأيتها فى المُثل التى أوردناها آنفا .

وفى التزام القافية على الوجه الذى اختاره العرب سابقا ، أو على نحو ما أحدثه الأدباء من بعد ، دلالةٌ على البراعة ، ومحافظةٌ على وجه من الوجوه التى يمتاز بها المنظوم على المنثور .

وأما المعانى فللشاعر أن يذهب فيها كل مذهب ، وله أن يأخذ فى نحو التشبيه والاستعارات كل مأخذ ، فيرسل خياله فيما احتوته الحافظة من المعانى القديمة والحديثة والطبيعية والصناعية ، ويؤلف منها ما شاء من الصور الخيالية ، مراعيا أذواق الطوائف التى يريد إثارة عواطفها نحو الشىء أو صرفها عنه .

وما زال فحول الشعراء فى كل عصر يبتكرون المعانى ، وينتزعون من مظاهر المدنية المتجددة صورا يبرعون فى صنعها ، فلشعراء العصر العباسى بالشرق ، أو شعراء الأندلس بالغرب ، معاني وتخيلات لم يطارقها الشعراء فى الجاهلية ، أو فى صدر الاسلام ، أو فى عهد الدولة الأموية . وقع هذا التجديد من فحول شعرائنا ، وكانوا على شعور من الحاجة اليه ، ونبه أدباؤنا على هذا الشعور فيما كتبوا قديما ، قال ابن سعيد يفاخر

أهل القيروان بشعراء الأندلس : « وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخدود بالشقائق ، فتلطف لذلك فى أن يأتى به فى منزع يصير خلقه[1] فى الأسماع جديدا ، وكليله فى الأفكار حديدا ، فأغرب أحسن إغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب » ؟ .

وإذا لم تجُد قرائح شعراء عصر أو بلد بمعان جديدة ، ورأيناهم لا يزيدون عن أن يرددوا معانى أسلافهم ، فلضعف ملكاتهم الشعرية ، وقصورها عن أن تخرج للناس ثمرا جديدا .

وأما الألفاظ ، فحقها أن يراعى فيها ما ثبت عن العرب ، وما تقتضيه قوانين الصرف ، وما تضعه المجامع العلمية على حسب ما تدعو اليه حاجة التعبير عن المعانى المحدثة .

والألفاظ الجديرة بأن يصاغ منها الشعر هى الألفاظ التى لا يخفى المراد منها على أكثر من يقصد استمالة عواطفهم الى الشىء أو صرفها عنه ، ولا يكفى لجواز استعمال اللفظ فى القصيدة خلوُّه من تنافر الحروف ، وموافقتُه للوضع العربى ، ووجوده فى كتب اللغة القريبة التناول ، إذ ليس كل لفظ يتحقق فيه شرط الفصاحة ، يصلح للشعر ، بل وراء الفصاحة شىء آخر هو مراعاة حال قراء الشعر ، فيصاغ لهم فى ألفاظ تطرق أسماعهم ، فتحضر معانيها فى أذهانهم ، فلو هجرت ألفاظ فى عصر من العصور أو قلّ استعمالها بحيث لا يصل السامع الى معانيها إلا بعد الرجوع لى كتاب من كتب اللغة ، وشاعت ألفاظ ترادفها ، بحيث تكون أسرع بالمعنى الى ذهن المخاطب ، كان من حق الشاعر اختيار الألفاظ التى يكون بها المعنى أقرب الى الذهن ، ولا سيما ألفاظ تساوى الألفاظ المهجورة أو النادرة الاستعمال فى خفة النطق بها ، وحسن تأليف حروفها .

---

(١) بالية .

فطبيعة الشعر تستدعى التجديد فى الألفاظ على النحو الذى وصفنا، فالشاعر المجيد لا يجمد على الألفاظ التى استعملها الشعراء فى عصور ماضية، ثم قل دورانها فى كلام البلغاء من بعد.

وإذا لم يكتف الشاعر فى خدمة اللغة بحفظ مذهب بلاغتها، وفنون بيانها، وأراد أن يكون له نصيب فى إحياء ما هجرته الألسنة من كلماتها العذبة السائغة، ففى استطاعته أن يأتى الى الكلمة التى تخفى معانيها على أكثر القراء، ويوردها حيث لا يفوتهم فهم المراد من البيت، والارتياح لما فيه من حسن التخييل.

فلو أصبحت كلمة «امتشق» مثلا — غير جارية فى استعمال الشعراء فى عصر، لما كان على شاعر أراد إحياءها من حرج فى استعمالها حيث ينبه مساق الكلام على المراد منها، كما استعملها الغزازى فى قوله:

والبدر نحو الغروب أسرع كهارب ناله فرَق
والبرق بين السحاب يلمع كصارم حين يمتشق

ومن ذا يسمع هذا البيت ولا يفهم أن القصد تشبيه حال البرق عند لمعانه بحال السيف عند تجريده من قرابه؟

وأما الأساليب فيراعى فيها قوانين النحو والبيان المسلَّمة، فلا نقبل من الشاعر أن يقدم خبر «إن» مثلا — عليها، فيقول «كاتب إن زيدا» بدعوى التجديد فى الأسلوب، ولا يحسن منه أن يتكئ على علة التجديد، ويسقط حرف العطف فى نحو «لا ورحمك الله» أو يدع الكلمات والجمل التى توضع فى أثناء الكلام فتكسو البيت لطفا، وتدفع عنه أوهاما يفقد بها المعنى قوته، أو ينقلب بها الى غير مراد، الى ما يشا كل هذه التصرفات التى تخرج بالشعر العربى عن حدود البلاغة وحسن البيان.

وللشاعر أن يتخذ من الأساليب بعد رعاية قوانين النحو والبيان ما يشاء، وقد اختلفت أساليب الشعراء فى دائرة قانون اللغة الصحيح اختلافا واضحا، حتى إن الأمىّ

الدارس لأشعار الفحول من الشعراء فى عصور متعددة ، يكاد يعرف من أسلوب القصيدة الشاعر الذى قالها ، أو العصر الذى قيلت فيه .

وأما فنون الشعر أعنى الأغراض العامة التى يتوجه إليها الشاعر بالنظم ، نحو تهذيب النفوس ، وإصلاح الاجتماع ، والحماسة والفخر ، والمديح ، والهجاء ، والوصف ، والنسيب ، والاستعطاف ، والاعتذار ، فقد نظم فيها العرب كثيرا ، وسلكوا فيها طرقا بديعة . ومن الشعراء من يبرع فى فن أو فنون ، كما برع عمر بن أبى ربيعة فى فن الغزل ، والمتنبي فى إرسال الحكمة . ومن العصور ما يشيع فيه بعض فنون الشعر أكثر مما سواه ، كالعصر الذى يحمى فيه وطيس الحروب ، فإنه يغلب فيه الحماسة والفخر ، والعصر الذى يشيع فيه الفسوق يغلب فيه النسيب ووصف الخمور . وإذا غلب فن من الفنون وجد رواجا حتى عند من لا نافة له فى ذلك الفن ولا جمل ، فتسمع الحماسة مثلا — فى شعر الجبان الذى « إذا رأى غير شىء ظنه رجلا » وتسمع الغزل ممن لم يحمل قلبُه صبابة ، ووصفَ الخمر ممن لا يعرف للخمر رائحة .

أما عصرنا هذا ، ففيه إباحية وإلحاد ، فلا عجب أن نرى من الشعر الرقيع ما تنبذه مجالس أهل الفضل ، ولا عجب أن نرى من الشعر المارق من الدين ما يلقى بالمستضعفين فى تهلكة ، وإننا اليوم فى حركة علمية اجتماعية ، تنادى كل طائفة منا لأن تسعفها بما لديها من قوة ، ولكثير من شعرائنا فى تقوية هذه الحركة مواقف محمودة ، وأملنا أن يكون الفن الذى يُعرَف به الشعر فى هذا العصر ، فنَّ استنهاض الهمم والصعود به الى ذروة العزة والمجد ، فنَّ تقويم الأخلاق ، وإصلاح الحياتين : العلمية والمدنية .

محمد الخضر حسين

رد فرية قاديانية

نشر أحد الأحداث التابعين لمذهب القاديانية ورقات يحاول بها ترويج هـذا المذهب الخارج عن الاسلام ، وذكر فيها أن حضرة الأستاذ الشيخ أحمد الفاروقى الملقب بالمجدد للألف الثانية رحمه الله ، يقول بصحة نزول الوحى وظهور نبى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما اطلع على هذه الورقات حضرة صاحب السعادة الاستاذ محمد صادق المجددى الوزير المفوض لدولة الأفغان ، كتب لنا كتابا ينكر فيه ما نسب الى جده الاستاذ الفاروقى من القول بنزول الوحى وظهور نبى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وينفى عنه هذا القول نفيا قاطعا ، وأورد فى الكتاب عبارات للشيخ الفاروق صريحة فى إنكار ظهور نبى بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، منها قوله : « وبما أن شريعة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلوات والتسليم ، مصونة من النسخ والتغيير ، جعل الله تعالى علماء أمته بمثابة الأنبياء ، وفوض إليهم الأمر فى تقوية الشريعة وتأييد الأمة » ومنها قوله : « فأول الأنبياء هو آدم عليه السلام ، وآخرهم وخاتم نبوتهم هو رسول الله سيدنا محمد عليه وعليهم الصلوات والتسليم » وقال معترفا بنزول عيسى عليه السلام « وحين ينزل عيسى من السماء على نبينا وعليه الصلوات والتسليمات يتابع شريعة خاتم الرسل عليه وعليهم الصلوات والتسليمات » . نعم يعترف السيد المجدد بالإلهام وهو إلقاء الكلام فى روع الأولياء العظام ولكن لادخل له فى الحل والحرمة أو إثبات الفرض والسنة .

ونحن نقدم لسعادة وزير الأفغان المفوض خالص الشكر على هـذا الرد الذى كشف عن تزوير ذلك الحدث القاديانى ، ونصر الحق على الباطل (وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) .

الاسلام فى السودان[1]

تقتصر الأبحاث الآتية على الاسلام فى بلاد السودان الممتدة من الصحراء وسواحل غيانا العليا الى سواحل الكرون ومنها الى الحدود الغربية للوادى فى اتجاه شمالى شرقى ، أو بعبارة أوضح على مناطق نفوذ قبائل « الماندينجو » و « الهوسا » و « الفولبا » السياسية والاقتصادية ، ولو أن نفوذ قبيلتى « الهوسا » و « الفولبا » فى شمال بحيرة تشاد أقل أثرا ، إلا أن اتصال هذه المنطقة بالجهات الغربية وثيق ومتعدد النواحى بحيث لا يمكن التفريق بين مقاطعتى « بورنو » و « باجيرى » وبين المقاطعات الأخرى الغربية .

يصعب جدا تقرير درجة انتشار الاسلام على وجه التحديد فى بلاد السودان ، من حيث مساحة الأراضى أو من حيث عدد المسلمين ، فان عدد السكان على العموم لم يحص إحصاء دقيقا للآن فى هذه الجهات ، هذا علاوة على عدم إحصاء عدد التابعين لكل دين بالمرة ، وذلك لصعوبة التفرقة فى كثير من الأحوال لانتشار الجهل وتعدد النحل والمذاهب المختلفة ، إذ أنه توجد درجات دينية كثيرة بين المسلم المتعلم المتمسك بدينه مثل قبائل « تيمبوس » و« كانوس » وبين عبيد الغابات التى تقتصر معارفهم الدينية على تقليد بعض العادات السطحية دون أن يكون لهم بأبسط قواعد الاسلام أى معرفة ، إلا أنه يمكن التنبؤ بأن مستقبل هذه الجهات فى صالح الاسلام وليس فى صالح الوثنية أو الأديان الأخرى .

---

(1) مترجمة من الالمانية عن مقال للأستاذ « ديريش وسترمان » فى مجلة « العالم الاسلامى » الالمانية .

وبما أن الاسلام دخل الأراضى السودانية من الشمال فاننا نجد جهاته الشمالية أكثر وأشد إسلاما من باقى البقاع ، ويحتل المسلمون أغلب هذه المساحات حتى حدود الغابات ، ولو أنهم جاسوا خلالها فى كثير من الجهات ووصلوا بطريق المواصلات الحديثة حتى السواحل ، ويعتبر العرب فى هذه البلاد أشد القبائل إسلاما وغيرة على دينهم ويليهم مباشرةً الحاميون : المغاربة «والفولبا» و «التواريج» و «الهوسا» ، ولو أننا نسمع من حين لآخر عن وجود بعض الوثنيين فى قبيلة « الفولبا » ولكن ذلك يرجع فى الغالب الى مصادر غير موثوق بها ، ويوجد كذلك القليل من الوثنيين الآزبين من يتكلم بلغة « الهوسا » ولكنهم ليسوا من أفراد « الهوسا » الحقيقية .

أما فى أفريقا الغربية الفرنسية فيمكننا أن نعتمد على إحصائيات دقيقة ، ففى السنغال مثلا يعيش ٧٨٥٠٠ من «الفولبا» و ١٥٨٠٠٠ من «الدكرور» وكل من الفريقين فخور معتز بأصله ومتعلق بالديانة الاسلامية جدا ، وأما « الولوف » و « اليولوف » وهم أكبر عنصر فى المستعمرة الفرنسية فأكثرهم من المسلمين وتكاد تختفى الوثنية بينهم على عكس قبيلة « السيرر » وعددهم ١٩٠ الفا وهم خليط بين « الفولبا » و « الولوف » فأكثرهم بقى على الوثنية ، أما قبائل « السوننكه » التابعون « للماندينجو » فشديدو الغيرة على إسلامهم . وكذلك أصبح عدد الوثنيين قليلا جدا بين قبائل «المالنكه» .

أما فى غيانا الفرنسية فيبلغ عدد المسلمين « الفولبا » حوالى ٦٧٠ ألف نسمة و ٤٩٢ ألف من « المالنكه » وغالبيتهم الساحقة من المسلمين ، وأما باقى السكان فنهم ٣٨٥ ألفا من « الجالونكه » وكانوا فى الأصل يقطنون فى الجهات الشمالية فى « فوتاجالون » فأغلبهم من الوثنيين ، إلا أن الاسلام يتقدم بينهم تقدما سريعا بفضل مجهود قبائل « الفولبا » ، وباقى الأهالى من قبائل « تمنا ومندا ونالو وتوما وكيسى » يكادون يكونون جميعا وثنيين .

ويبلغ عدد سكان ساحل العاج حوالى ٢ مليون نسمة ، منهم ٢٤٢ ألف « ماندا جولا » من المسلمين « والسينوفو » وأغلبهم وثنيون ، وباقى الأهلين يكاد لا يكون للإسلام بينهم أثر ، وكذلك الحال فى « داهـومى » التى يبلغ عدد سكانها ٦٥٥ ألفا ، ولا يزيد عدد المسلمين بها عن ٧٠ ألفا ، وأما المقيمون على شواطىء نهر « نيجر » ويطلق عليهم اسم « دندى » فهم شديدو التمسك بالدين الاسلامى ، وكذلك قبائل « الفولبا » الرحل الذين يقيمون فى مقاطعة « باربا » بجوار قرى الوطنيين ، وأما الأهالى الوطنيون فلم يبلغ الاسلام بينهم مبلغا بعيدا ، ففى سنغال الأعلى لا يوجد أكثر من ٢٠ ألف مسلم بين قبائل « البامبارا » الوثنية البالغ عددهم ٤٧٧ ألف نسمة ، إلا أن الاسلام يتقدم بينهم بسرعة فائقة بعد زوال الفوارق السياسية بين السكان على وجه العموم . وكذلك الحال فى مقاطعة « موسّى » التى يمكن الآن اعتبار الاسلام فيها هو دين المستقبل ، بالرغم من أن معظم سكانها الآن يتبّعون العادات والتقاليد الوثنية .

ويبلغ عدد سكان سنغال الأعلى من ٥ الى ٥ ونصف مليون لا يقل عدد المسلمين به عن ٢ مليون .

وعلى العموم يمكن القـول بأن الاسلام يتقدم بين الوثنيين فى ساحل العاج « وداهومى » وكذلك فى غيانا الفرنسية وسنغال الأعلى بخطوات بطيئة لأن الأهالى فى هذه الخطوات يعدون من الوثنيين العنيدين فى تقاليدهم وعباداتهم .

وأما فى المستعمرات الانجليزية فلا نكاد نحصل على معلومات بالمرة عن عـدد المسلمين ، ويضطر الباحث أن يكتفى ببعض المعلومات التى يحصل عليها عرضا .

ويبلغ عدد سكان « سيراليونا » مليونا و ٣٠٧ آلاف أغلبهم وثنيون ، لا يتبع الاسلام فيها غير القليل من « الفولبا » من سكان الجهات الشمالية وغالبية « الماندنيجو » ، وأما قبائل « تمنا ومندا » فأغلبهم وثنيون ولو أن الاسـلام يتقدم بينهم بسرعة عظيمة أيضا .

وفى المدن الساحلية يغلب عدد الأهالى لمسلمين ، ففى « بورت لوكوه » سنة ١٩٠٣ كان جميع السكان تقريبا من المسلمين ، وفى « فريتون » توجد ه مدارس إسلامية حكومية بها ما لا يقل عن ٧٦٠ تلميذا مع أن عدد السكان لا يزيد عن ٣٤ ألف نسمة .

فالحال إذن فى «سيراليونا» هى أن الاسلام جاءها من داخل البلاد الى الشواطىء حتى عمّ جميع المدن الساحلية فى حين أن سكان القرى الداخلية بقيت على وثنيتها .

وأما فى ساحل الذهب فيبلغ عدد السكان مليونا وستمائة ألف نسمة كانت غالبيتهم وثنية ، إلا أن الاسلام تقدم بينهم تقدما سريعا ، فانه لا توجد ناحية تجارية هامة تخلو من جامع ومدارس إسلامية ، ولو أن المسلمين ليسوا من الأهالى الوطنيين بل من الأجانب النازحين الى البلاد من جهات مختلفة ، فأصبح بمدينة « تامالا » وهى عاصمة المقاطعات الشمالية ما لا يقل عن ألف مسلم من ٦٠٠٠ عدد السكان ، وكذلك يتقدم الاسلام يوما بعد يوم فى المقاطعات الأخرى وعلى السواحل الهامة ، وأكثر عناصر القبائل الاسلامية انتشارا هى «الهوسا» و «الماندينجو» الذين كثرت مهاجرة التجار منهم الى هذه البلاد .

وقد قدرت جريدة « الجمعية الافريقية » المسلمين فى جميع نواحى ساحل الذهب فى عام ١٩٠٩ بما لا يقل عن مائة ألف نسمة ، وقد أصبح الآن بدون مغالاة لا يقل عن ضعف هذا العدد ، وأكثرهم فى المقاطعات الشمالية .

وقد لا توجد جهة أخرى فى البلاد السودانية انتشر فيها الاسلام فى الفترة الأخيرة مثل « نيجيريا » ويبلغ عدد سكانها حوالى ١٦ مليونا ، خصوصا فى الأقاليم الجنوبية التى كانت حتى زمن قريب تعتبر موطنا للوثنيين ، وأما فى شمال نيجيريا وهى البلاد التى فتحتها قبائل « الهوسا » و « الفولبا » فان الاسلام هو الدين الغالب .

وأما القبائل التى تقطن جنوب نهر « النيجر » « والبنوى » وعلى امتداد الشواطىء الشمالية والشرقية من نهر «النيجر» فأغلبها من الوثنيين . وفى شمال « نيجيريا » ما لا يقل عن ٢ أو ٣ ملايين وثنيين من عدد السكان وهو عشرة ملايين نسمة ، إلا أنهم فى طريقهم الى الدخول فى الدين الإسلامى بفضل مجاورتهم للأغلبية الإسلامية الساحقة هذا فضلا عن أثر ثقافة الاسلام فيهم .

وأما فى جنوب « نيجيريا » فان المسلمين لا يكونون شعبا موحدا رغما عن التقدم الباهر الذى أحرزه الاسلام بين الأهلى فى السنوات الأخيرة ، خصوصا فى المدن الكبيرة حتى أصبحت للأئمة المسلمين القيادة الفكرية فى هذه النواحى ، حتى إن سكان مدينة « لاجوس » — وهى مركز رئيسى للتبشير المسيحى — يدين الآن أكثر من نصفهم بالدين الاسلامى ، وكذلك يتقدم الاسلام فى باقى البلدان الأخرى الشرقية والساحلية بسرعة غريبة . وفى مستعمرة « غامبيا » أصبح الآن من يدين بالاسلام أكثر من ٩٠٠٠ ولا يزيد عدد سكانها عن ١٦ الف نسمة .

أما الحال فى المستعمرات الألمانية السابقة فان «توجو» تكاد تكون كلها وثنية ، فلا يكاد يزيد عدد المسلمين بها عن ١٤ الفا من تعداد يبلغ المليون ، وهو عدد يكاد لا يذكر بجانب الأغلبية الوثنية الساحقة وفى « الكمرون » يوجد شعب إسلامى موحد لا يستثنى منه غير سكان جبال « المندرا » الوثنيين والذين هم فى عزلة تامة عن كافة المواصلات الحديثة ، ولو أن سكان بلادهم الكبيرة يدينون بالاسلام أيضا بالرغم من ذلك . وفى «اداماوه» تدين البقاع التى احتلتها قبائل «الفولبا» كذلك بالدين الاسلامى ولو أن الوثنية تعم النواحى الجنوبية .

ويلاحظ أن تقدم الاسلام قد وقف قليلا فى هذه النواحى منذ زالت دولة « الفولبا » ، وإن كانت التقاليد التى ورثها رؤساء القبائل الوثنية عن أسيادهم المسلمين

لا زالت متبعة ومحبوبة عندهم ، وقد تقدمت قبائل « الهوسا » المسلمين نحو مناطق الغابات والشواطىء فى المدة الأخيرة ولو أنهم لم يتمكنوا من مساعدة انتشار الاسلام هناك كثيرا ، وعلى الجملة فإن الاحصائيات الأخيرة تدل على أن ما يقرب من ثلث سكان الكمرون يدين بالديانة الاسلامية .

الاسلام دين البشر

جاء فى رسالة انكليزية مطبوعة صدرت فى رجب سنة ١٣٥١ (نوفمبر سنة ١٩٣٢) عنوانها « الاسلام دين البشر » ما ترجمته :

« الاسلام وحده هو الدين الحق »

كتب حضرة الشاب المسلم خالد (كونراد) سمبسون وهو ابن أخى صاحبة السمو الأميرة ديانج مودا أميرة سراواك الذى دخل فى الاسلام حديثا يقول : « إنى لسعيد ومغتبط أن أجدنى قادراً على القول بأنى مسلم ، فإن مخالطتى للدكتور خالد شلدراك لم تلبث أن أقنعتنى بأن الاسلام وحده هو الدين الحق ، وأن رسالته بسطت للبشر رواق الأمل فى الحياة على حين أن غيره من الأديان ينهار اليوم ويتداعى للسقوط ، وقد اغتبطت صاحبة السمو عمتى الأميرة ديانج مودا أميرة سراواك لما علمت أنى تأسيت بها فى الدخول فى الاسلام على يد الدكتور خالد شلدراك ، وإنى آمل أن أصحبه فى طوافه المقبل فى بلاد الشرق ، وأن أتمكن بذلك من لقاء إخوانى مسلمى هذه البلاد » .

الكهرباء

في المقاومة :

قد رأينا فيما تقدم أنه إذا أمطرت السماء انحدر المطر على جانب التل وتهافت الى خنادق صغيرة يتصل بعضها ببعض فتستحيل خنادق كبيرة، ويتكون من الخنادق الكبيرة خنادق أكبر منها يجرى فيها الماء بدلا من جريه على سطح الأرض، لأن الخنادق لا ترده بل تكون مجرى له .

كذلك الشأن فى التيار الكهربائى، فبعض المعادن أو المواد تمكنه من الجريان فيها أيسر من غيرها . على أن فى كل معدن أو مادة ميلا لمقاومة مروره فيها أو ردّه الى حد ما كما تقاوم حافات الخنادق ميل الماء الى الخروج منها .

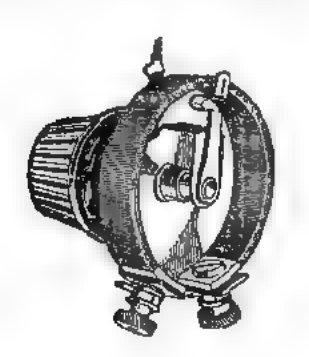
فى الاوم :

من الضرورى للتمكن من المقارنة بين مقاومة معدن أو مادة لجريان التيار الكهربائى بمقاومة معدن آخر أو مادة أخرى أن يوجد لفظ يعبر به عن هذه الخاصة كما يستعمل لفظ إبهام أو قدم فى التعبير عن طول شىء من الأشياء .

واللفظ المصطلح عليه فى علم الكهرباء المقارنة بين مقاومة مادة لجريان التيار الكهربائى فيها، وبين مقاومة مادة أخرى له هو «الأوم» .

وعلى ذلك نقول إن المقاومة فى آلة تنويع المقاومة (ريوستات) فى عدة التراسل الفضائى (الراديو) المرسومة فى الشكل (٦) هى ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ أوماً، ومعنى هذا

أن الآلة التي من هذا النوع إذا كان فيها من المقاومة لجريان التيار الكهربائي بمقدار ٢٠ أو ٣٠ أوماً، تكون مقاومتها له ضعف مقاومة آلة أخرى أو ثلاثة أضعافها اذا كانت قوة مقاومتها عشرة أومات فقط . فاذ رأينا في مؤلف كهربائي كلمة « أوم » حضر في ذهننا معنى المقاومة لأن هذه الكلمة تستعمل في التعبير عما في أية مادة أو شيء من الأشياء من القابلية لمقاومة التيار الكهربائي أو منعه ، وكلما اشتدت المقاومة اشتدت قوة المنع .



شكل : (٦)
علبة تنويع المقاومة للترسل الفضائي تلطفت شركة هربرت وفروست بشيكاغو بهدائها الينا

في العوازل والموصلات :

إذا سكبت سجلا [1] من الماء في فجوة من كوم قطع صخرية أو حصاً كبيرة كالمرسوم في الشكل (٧)، رأيت الماء يتسرب رويدا خلال الشقوق الصخرية ثم يغيض سريعا جدا . فاذا سكبت السجل في نقرة من كثيب رمل رأيت الماء يغيض بطيئا



شكل : (٧)
سكب الماء في كوم صخر



شكل : (٨)
سكب الماء في كتلة طين

فأما إذا سكبته في فجوة من كتلة طينية كالمرسومة في الشكل (٨) فانك تراه يمكث

(١) السجل : الدلو الكبير .

فيه يوما أو يومين قبل أن يغيض فى الطين ، ويتضح لك من ذلك أن الطين يبدى من المقاومة لمرور الماء خلاله أكثر مما يبديه الحصى والرمل . «يتبع»

استحالة المعية بالذات

وما يضاهيها من متشابه الصفات

تأليف فضيلة الأستاذ المحدث الشيخ محمد الخضر الشنقيطى .

وهى رسالة جليلة تكلم فيها المؤلف على الآيات والأحاديث المتشابهة ببيان مذهب السلف والخلف فى التأويل والتفويض ، والرسالة فريدة فى بابها وفيها فوائد جمة ، وتشتمل على مقدمة عظيمة ذات أربعة فصول قيمة وعلى عشرة أبحاث مهمة وخاتمة .

قام بتصحيحها فضيلة الأستاذ الفاضل الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى المدرس بكلية أصول الدين ، وتباع بمكتبة محمود صبيح وثمن النسخة ذات الورق الأبيض ١٢ قرشا وذات الورق الأصفر ١٠ قروش .

رجاء

ترجو إدارة المجلة من حضرات المشتركين الذين لم يدفعوا قيم الاشتراك المستحقة فى ذمتهم الى الآن أن يبادروا الى دفعها لحضرات وكلائها فى الجهات أو لحضرات أصحاب الفضيلة الوعاظ الرسميين بالمراكز واعتماد الوصول غير الرسمية التى يسلمونها إليهم موقتا حتى تصلهم القسائم الرسمية أو إرسالها الى إدارة المجلة مباشرة ، ورجاؤنا فى أريحيتهم أن لا يحوجونا الى تكرار المطالبة ، فان السنة الثالثة للمجلة قاربت الانتهاء .

This fact has been admitted by many European writers some of whom we quote below acknowledging their sense of fairness and equity.

Doctor Maurice of France writes in a laudatory article on the Koran published in « La Presse Française Romane » :

« We venture to say that the Koran is the greatest book which eternal Providence has revealed to a prophet of mankind. It contained songs for their happiness far sweeter than those of the philosophers of Greece, and included praise to the Creator of heavens and earth, and glorification of a beneficient God ».

"The Koran may well be regarded as an academy of science for scientists, a lexicon for etymologists, a grammar book for grammarians, a prosody book for poets and an encyclopædia of laws and legislation. Indeed no other book anterior to the Koran could be held equal to a single chapter thereof."

In his book "Islam and Mohammad," De la Vinisette writes :

"The Koran is the basis on which devolves the affairs of this world and the hereafter. Jurisprudence, oneness of God, principles of rights and retribution, social systems and codes of justice are all detailed in the Koran. In other words, the Holy Koran is the charter and constitution of the Moslem Faith which affords the most adequate means for securing the welfare of men in this world and ensuring their salvation in the next."

Many are the testimonies volunteered by European writers in favour of the Koran and it would indeed be a lengthy process should we wish to quote such testimonies in detail.

In fine, there could be no more fitting description of this Holy Book than the Lord's saying concerning it :

« وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

« It is an incomparable Book which yield to no abrogation or distortion, and unto which no falsehood could find a way from whatever side be it of the past or future events mentioned therein. It is the word of the Wise Lord to whom praise is due for the bounties He bestowed upon men."

(Baidawy's Commentary)

This may perhaps be the significance of the Prophet's saying (Peace be on him) that "the Koran has an apparent as well as an inner meaning ». It should be remembered however, that both apparent and inner interpretations include an indication of the Lord's greatness, His oneness and the marvels of His creation, whatever the interpretation may be

It is for this reason that people of all times have benefited in varying degrees of the Koran. For indeed it is impossible for any one, no matter how learned or skilled he may be, to interpret rightly the whole text of the Koran. At most he could give the right interpretation so far as the subject in which he excels is concerned, but he would fail to do so as regards other subjects in which he does not reach the same standard of excellence. The spiritualist will deal fully with it from the spiritual standpoint while the writer will elucidate its fine points of style and eloquence. The physician will deal with its medical verses and disclose the secret of what was made lawful and unlawful of foods and drinks

The jurist will interpret the laws and principles given therein while the moralist will deal successfully with the verses of conduct and so on, to every scientist or man of learning his alotted sphere.

The fair critic will therefore reject the idea that this incomparable book in the effort of a genius or the work of a talented writer For man could only excel in but a single art or subject particularly if the subject happens to be one of those which the Koran has treated at length and of which the backward Arab nation was in absolute ignorance.

It is not conceivable that the Arabs should inquire, at the time, into such subjects, much less that they should excel in them.

The uncivilised and backward state of the Arabs then is too well-known to dwell upon The sphere of description in the Arab environment was necessarily a very limited one Indeed the wild imagination of the Arab could only find expression in such themes as a large beautiful eye, a fierce raid, a deep thrust or a piled-up trencher, etc

How far removed these themes are from the subjects discussed in the Koran which include such themes as the oneness of the Creator, investing Him with attributes of greatness and perfection, preaching indifference to the world and urging to kind treatment and the purging of souls of the taints of wickedness, etc., etc.

The votary of this Book had been brought up under the least favourable circumstances in a beckward state of civilisation and among a people who were steeped in stygian darkness of ignorance and superstitions. The effect of environment could not be overestimated. In the ordinary way, no mortal could have escaped the dire influence of such environment but Mohammad's soul remained uncontaminated throughout.

To the sound reason, this could only have been due to a benign influence from on high; and the Koran which Mohammad gave to the world could be no other than the word of Allah revealed to him for the salvation of mankind.

The Koran has inculcated all manners of social behaviour and encompassed every human concern. It has set before us the last word compatible with sound reason in matters of beliefs, in dealing with men, in conduct and in matters of private and public life. Indeed it left no single concern of man without dealing with it in full detail and prescribing the right means for the conduct thereof.

The culture of the Koran is by far the best culture the world has ever known since the beginning of creation. Every good feature of the Western civilisation has long been inculcated by Islam Those features of the Western civilisation which were not taken from Islam are of indifferent value and Islam could offer higher and better codes in comparison thereto.

One may easily put this theory to the test and he is sure to find that it holds good in every instance he may choose to take.

It will be sufficient for the critic to read the history and civilisation of Islam in its early days to be convinced of the truth of this assertion. The behaviour of the Moslems and their fair dealing at the time, leave no room for improvement so much so that they were thus addressed in the mankind."

« كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"You are the greatest people that were ever raised for the benefit of men."

(Alucy's Commentary).

I would like to say here that the translations of the Koran into foreign languages should not be considered dependable nor be regarded in any way as a true representation of the Koran. They fall ignominously short of the original and at best, they are no more than a mere approximation thereto. The eloquence and style of the Koran are inimitable and no translation could ever convey the same impression to the reader's mind and soul as the Koran does. It is even the case with commentators on the Koran to fail, as they do in many instances, to give all the possible meanings of certain verses. This may be due to the fact that the verses dealing for instance with medicine, astronomy and other subjects could only be rightly interpreted by those who are well versed in these matters provided they are not swayed by commentators' opinions or by what they heard from the learned people regarding the verses in question.

It is natural that every one can discuss a given subject only to the extent to which his knowledge permit, or to which contemporary sciences has reached.

Suffice in this connection to quote his description of Zulqarnain (1) and the regions which he invaded, a description which tallies with the geographical description of those regions.

The Holy Koran says :

« حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"Until when Zulqarnain reached a westward point of the earth he found the sun goes down into black muddy waters."

(Alucy's Commentary)

Geography gives the meaning of "Tundra" as muddy tracts of water which, in summer, covers the lower parts of the basins of the rivers Ob, Yenisei and Lena in Siberia and are transformed in winter into a great ice plain. No other region in the world is kown to answer this description except that one, nor of this magnitude which reaches such an extent that the sun appears to the onlooker to sink there save that part of the world.

The eloquence and beautiful style in which the Koran was couched captivated the senses of the Arabs who were the acclaimed masters of eloquence and resulted in the conversion of many of them, a fact which is no less than a miracle in itself.

The Koran says in this connection :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"Were men and djinn, those supernatural beings who have the power to perform wonders, assemble to produce anything equal to the Koran in eloquence, rhyme and superb meaning, they could not, under my circumstance, produce anything like unto it even though they may include in their numbers the purest Arabs of the progeny of Ishmael who are masters of rhetoric and oratory Nay, they could not do it even though they unite together for the purpose and support one another all they can."

(Alucy's Commentary).

---

(1) Zulqarnain a great prince of the pre-Christian era whose conquests extended far east and west. Commentators differ widely as to his proper identity but they all agree that he was a true believer.

bidden, and the teachings concerning certain devotional rites followed by our forefathers, have been provided, thanks to the progress of medicine, with a clear and reasonable explanation.

No less amazing are the astronomic facts contained in the Koran, facts which only expert astronomers could hope to know, but are necessarily beyond the ken of commentators.

Again the establishment by the Koran of a spiritual world which was once regarded by the enemies of Islam as mythical and absurd, has now become, through the development of science ,an established fact.

Nor do ethical, social, philosophic questions lack corroboration. Recent researches have fully borne out the concepts of the Koran.

From the ethical point of view the Koran inculcates the noblest trans of conduct which are held to be the acme of human perfection.

As far as the social side is concerned, the Koran offers its followers the most efficient social systems which are only now being expounded by the philosophers of Europe, who strongly urge their people to its adoption thus unconsciously coming nearer and nearer the True Faith every day.

It is a wonderful feature of Islam that there is not a single controversial question arising between sociologists as for instance the question of marriage and divorce, or between moralists as the question of independence and freedom of woman, or between economists as the question of usury, or between jurists or historians, but has Islam given the last word on the subject and the learned people have to revert in the end to the ruling of Islam after long controversy and research.

Should one take into consideration the era of the Prophet (Peace be on him), the condition of his country and the people to whom he was sent and compare this with the great mass of knowledge and information contained in the Koran, one would be strongly impelled by both reason and conscience, not to regard the foretelling by the Prophet (Peace be on him) of future events as the only miracle testifying to the truth of his prophethood. One would be compelled to admit that the principles of civilisation expounded by him is no less than a social miracle, that the noble conduct which he preached is equally an ethical miracle and that the establishment of scientific facts by him who was no psychologist, physicist or explorer that he would thus establish the fertilisation of plants by the wind, or the classification of plants into male and female species where these facts were only lately discovered, is no less than a scientific miracle.

The astronomic facts which he established and was taken by some to point to the rotation of the earth and other planets, is no less than an astronomic miracle.

The true history which he revealed, yet he was illiterate and never read a book nor had a tutor is no less than a historical miracle.

medium of speech and through which thoughts could be expressed; and so too has birds as the Lord saith through the Prophet Solomon in the following verse :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"O men ! we have been given the knowledge of the significance of birds' voices as a miracle to urge you believe."

(Baidawy's Commentary)

Commentators, despite their great precision and meritorious efforts, could only establish such natural phenomena referred to in the Koran as were only in accordance with the knowledge and scientific standards recognised in their times. They could only reveal very little of the mysteries contained in the Koran. Their efforts were mainly directed to showing the flawless style and eloquence of the book thinking that this constitutes its inimitability and provides the proof of its authenticity and truth, yet the inner meanings of the Koran are even far greater and more stupendous than the outer form. The following verse is an example :

« وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"And that He (Allah) is the absolute Lord of the Sirius (1) worshipped in the days of yore to the exclusion of the Lord."

(Alucy's Commentary).

We were not aware of the magnitude of the Sirius to which the Koran refers in this verse until the natural sciences have disclosed that the sun is greater than the earth a million and three hundred thousand times and that the Sirius is many times greater than the sun and that the light of the sun is but one fiftieth of the light of the Sirius. But owing to the great distance which separates it from the earth we could hardly see it except with powerful telescopes.

Thus is it that the progress of science has provided an interpretation of the Koran and incidentally a fresh proof of its divine origin and truth.

The medical miracles of the Koran concerning the lawful and the for-

---

(1) The Dogstar or Canicula, the brightest star in the heavens, situated in the constellation of Canis Major or the Great Dog.

"We will shew the unbelievers Our signs in remote regions of the earth through the conquests and victories achieved by the Prophet, the Caliphs and their companions as well as in themselves through the wonders wrought in the creation of man which imply perfect omnipotence on Our part. That We will shew them till it becomes clear unto them that the Koran is the truth."

(Baidawy's Commentary)

Some commentators interpret certain verses of the Koran as merely metaphorical. The following verse was so treated :

« حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"Until when the hosts of Solomon came to the Valley of Naml (1), an ant felt them coming and hissed something which Solomon understood to be a warning to other ants to enter their dwellings lest he and his hosts unknowingly crush them."

(Alucy's Commentary)

We are told by the entomologists of the ingeneous and ordered ways of ants and of astounding feats which they perform, facts which highly delight the heart of every Moslem to thus find them established in his Holy Book long before science had revealed them to the world.

Another verse is :

«وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"No kind of beast is there living on the surface of the earth in any region thereof nor bird that flieth with its wings in any clime, but are communities like unto you, whose functions and conditions of life are ordained from on high, and whose interests are maintained and controlled by judicious laws in accordance with the Lord's ministrations."

(Alucy's Commentary)

Every community has necessarily a language which is used as a

---

(1) The Valley of Naml is a valley abounding in ants and is situated between Jibrin and Asqalan in Syria.

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

THE HOLY KORAN [1]

The Holy Koran is the word of Allah revealed to His Prophet Mohammad to proclaim unto the world and lead mankind to salvation in this world and the hereafter. It is a standing miracle which will never cease to provide wonders to amaze the keenest intellects of the world nor fade away as time goes by. Some book there may be that does not fit with the modern ideals of civilisation or touch, even incidentally, on new discoveries avoiding the treatment of social sciences and throwing no light upon modern philosophy.

Not so the Koran, but clearer and clearer it becomes with the development and progress of science while new discoveries pile proof on proof in testimony of its divine origin and truth, that thus saith the Lord :

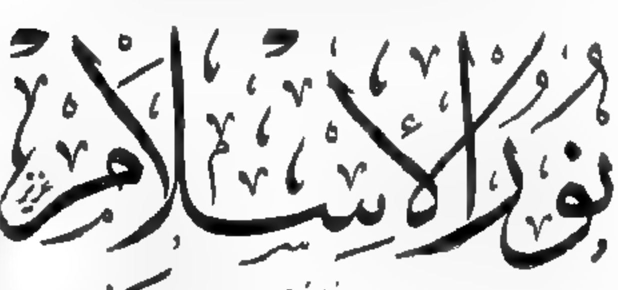
« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

---

(1) Translated from the very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's Book "Messages of Peace."

قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم



نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء العاشر	شوال سنة ١٣٥١	المجلد الثالث

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف } سابقاً
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى }

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الإدارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٣

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

		صـ
داخل القطر المصري		٤٠
خارج القطر المصري		٥٠
للعلماء غير المدرسين وأئمة المساجد والمأذونين ومعلمي المدارس الأولية والطلاب	داخل القطر	٢٠
	خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ صـ صاغ داخل القطر و ٤ صـ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الإسلامية

١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

الاجتماع - والعزلة

خلق البشر لحكمة سامية ، هى عبادة مبدع الكائنات وحده ، والعبادات عقلية كالإيمان بالخالق ، وبدنية كالصلاة ، ومالية كالزكاة ، ومركبة من مالىّ وبدنىّ كالحج والجهاد ، فالعبادات لا تقام على وجهها إلا بوسائل هى صحة الفكر ، وسلامة البدن ، وذات اليد ، ولهذه الوسائل وسائل تسبقها ، كالزراعة والصناعة ، والتفقه فى الدين ، وبعض العلوم النظرية كالمنطق ، أو الكونية كالطب ، وليس فى استطاعة الفرد أو الرهط من الناس الاستقلال بهذه الوسائل ، فاحتاج الناس بمقتضى فطرتهم وما خلقوا من أجله الى التعارف والتعاون ، ولا تعارف ولا تعاون إلا بالاجتماع .

فالاجتماع هو الذى تقتضيه الفطرة ، وبه تنتظم العلوم ، وتبلغ المدنية الفاضلة أشدها ، فيتهيأ للناس أن يعبدوا الله على بصيرة ، ويتقربوا اليه بضروب من الأعمال الصالحة لا تحصى .

يظهر إيثار الاسلام للاجتماع على العزلة فى كثير من الأحكام والآداب ، فانظروا الى ما دعا اليه على وجه التوكيد من إقامة الصلوات الخمس فى جماعة ، ثم ما فرضه من الاجتماع لصلاة يوم فى الأسبوع ، وهى صلاة الجمعة ، وعين للحج وقتا فى السنة ، فكان من حكمة هذا التعيين التقاء أمم من بلاد وأقطار مختلفة على صعيد واحد ، وشرع ليوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى صلاة تؤدى فى جماعة ، وتوصل بوعظ وإرشاد .

وشرع إقامة الولائم فى مثل عقد النكاح ، أو البناء ، ويوم سابع الولادة ، وحثّ على إجابة الدعوة ، حتى إن عبد الله بن عمر كان يجيب الدعوة فى العرس وغيره وهو صائم .

دعا الى الاجتماع فى أوقات السرور كأيام الأعياد ، ودعا الى الاجتماع فى أوقات المكاره والشدائد، كالاجتماع لصلاة الكسوف، والاجتماع للصلاة على الميت وتشييع جنازته ، حتى يكون الاجتماع مالئا لمواطن السرور والحزن ، ولا يبقى للعزلة الجافية مظهر فى حال .

ومما يومئ الى اختيار الاجتماع قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فان من مقتضى الأخوة الائتلاف والاجتماع فى أوقات كثيرة ، وقال تعالى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ) وكيف يتسنى للمبتعد عن الجماعة فى ناحية أن يعرض عليهم آراءه ، أو يستطلع منهم أمثالها ، فضلا عما تقتضيه الشورى من مناقشة الآراء ، وقال تعالى فى وصف مايدعو به المؤمنون الفائزون : (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) وكيف يصلح المفارق للجماعة أن يكون مثلا كاملا للهداية ، يشهد الناس سيرته فيما يفعل أو يذر ، فيسيرون على أثره مقتدين . ومما يومئ الى اختيار الاجتماع من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا [1]) وليس المعتزل من الناس باللبنة المرصوفة فى الجدار تمسك لبنة ، وتمسكها لبنة ، وما مثله إلا اللبنة تخرج عن الصف المستقيم فى البناء ، ولا يزال انفصالها بالبناء يضعف حتى تهوى ساقطة الى الأرض .

دعا الاسلام الى الاجتماع ، وشرع للاجتماع أحكاما عادلة ، وآدابا فاضلة ، كالحث على القرض ، والمهاداة ، وقضاء الحاجات ، والإحسان لأولى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وتحريم الربا والميسر ، ووضع عقوبات للاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض ، الى ما يشاكل هذا من الأحكام القضائية والنظم السياسية ، والآداب التى تحمى الاجتماع من كل نقيصة ، وتجعله مصدر خير وسعادة .

---

(١) صحيح الامام البخارى .

فشريعة الاسلام مُشْرَبَةٌ روح الاجتماع ، ومن ثَمَّ ترى علماءها يخوضون في المجامع يقولون طيبا ، ويعملون صالحا ، وهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : « خالط الناس ودينك لا تَكْلِمَنَّه » وإذا نقل عن بعض من عرفوا بالتدبر في القرآن والسنة آثار تدل على إيثارهم العزلة على الاجتماع ، فانما هى حال خاصة تعرض للشخص ، فتجعل الاعتزال فى رأيه أرجح من الاجتماع ، ولا يصح حملها على أنهم يقصدون الى جعل العزلة مذهبا يسع كل الناس ، و نظر الى ما يحكى عن الامام مالك من أنه كان يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ، ويعطى الإخوان حقوقهم ، ثم ترك ذلك فى آخر حياته ، وإنما ترك مالك هذا النوع من الاجتماع لحالة خاصة عرضت له ، ويدلك على أنه رأى العذر فى ترك تلك الحقوق قائما ، قوله حين سئل عن ذلك : لا يتهيأ للمرء أن يخبر بكل عذر له . فانظر كيف جعل العزلة من الشئون التى لا يجنح لها الانسان إلا لعذر ، ولكنه كره ذكر العذر الذى حمله عليها ، وإذا ثبتت استقامة رجل كالامام مالك ، وعرف بالمحافظة على آداب الشريعة ، ثم روى عنه ترك شىء من هذه الآداب الثابتة ، حمل تركه لها على قيام عذر ، ولا يكون هذا الترك موضعا للاقتداء ، وكيف يرى مالك للرجل — ولا سيما العالم — أن يخلد الى العزلة ، وهو الذى يقول : « حق على كل مسلم أو رجل جعل الله فى صدره شيئا من العلم أن يدخل على كل ذى سلطان ، يأمره الخير ، وينهاه عن الشر ، حتى يتبين دخول العالم على غيره » .

فى الاجتماع مزايا دينية ومدنية لا يدركها المعتزلون ، فالمعتزل للناس يفوته العلم إن كان فى حاجة الى أن يتعلم ، ويفوته فضل التعليم إن كان فيه كفاية لأن يعلّم غيره من الجاهلين ، والمعتزل يفوته ما يقف عليه المشاهد لأحوال الناس من التجارب التى يبلغ بها العقل أشده ، ويفوته كسب المال أو نماؤه ، والمال وسيلة العفاف وصيانة ماء الوجه ، وهو المرقاة التى تصل بها الأمة الى قمة المنعة والعزة والسيادة ، وفى الاجتماع

لذة روحية هى الاستئناس لمحادثات المصطفَيْن من العلماء والأدباء ، والى هـذا الاستئناس يشير القائل :

وما بقيت من اللذات إلا مجالسة الأديب الى الأديب

ثم إن معظم خصال الشرف والحمد التى يفضل بها الانسان على سائر الحيوان ، إنما تبلغ كمالها ، ويعظم أثرها فيمن سيرته الاجتماع ، فسيرة الاجتماع هى التى يتجلى فيها خلق السخاء إذ يشهد صاحبها حاجات الأفراد أو الجماعة ، فتثور فى نفسه الشفقة أو الاشفاق فيبسط يده الى سدها جهد المستطاع . وسيرة الاجتماع هى التى يظهر بها خلق الحلم والأناة حيث يصادف صاحبها طبقات من غير أولى الكياسة ، فيقابل خشونة ألسنتهم باللين ، وغلظة قلوبهم بالرفق ، وسيرة الاجتماع هى التى يستبين بها فضل الشجاعة الأدبية ، وهى خلق يُهوّن عليك أن تقول للمخطئ : إن الصواب فى غير ما نطقت ، أو تقول للمبطل : إن الحق فى غير ما رأيت ، أو تقول للمفسد : إن الخير فى غير ما أتيت . وسيرة الاجتماع هى التى يتبين بها الناس كيف تُحدّث فتصدق ، أو كيف تعِد فلا تخلف ، أو كيف تُؤتمن فلا تخون .

قد يخطر بالبال أن فى العزلة تخلصا من نحو القدح فى الأعراض ، والسعى بالنميمة ، والتنابز بالألقاب ، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة ، والواقع أن الذى يعلم عاقبة وزر الغيبة والنميمة وما يشاكلها من الأوزار التى قد يسوق اليها الاجتماع ، يجد فى نفسه زاجرا عن ارتكاب شىء منها ، وفى يده أن يُسدى النصيحة لمن يحوم بها ، أو يلوث صحيفته ببطخ من أقذارها ، فإن لم يجد للنصيحة فى مجلس سامعا ، تركه الى مجلس أبعد عن اللغو ، وأبرأ من الاثم ، وأما مسارقة الطبع ، فمن الاجتماع ما يقتبس منه الطبع آدابا سامية ، ومن الاجتماع ما يمكنك أن تفيض عليه من حكمتك نورا ، ومن إرشادك ماء طهورا ، فينقلب ليله صبحا ، ورجسه طهرا .

ومن ذا يرضى لك وأنت سليم القلب نقى العرض أن تتردد على مجامع بضاعتها أقوال لا خير فى سماعها ، أو تكثر من لقاء وجوه لا يغبطك أهل الفضل على لقائها ، ومن ذا يجهل أن الوقت ذهب ، فيزين لك أن تبذله فى غير حق ، أو تشترى به ما ليس بحمد .

واذا قلنا : إن الاجتماع خير من العزلة ، لا نقصد الى أن يصرف الانسان أوقاته فى التردد على البيوت ، وغشيان المجالس ، والتعرض للقاء كل من يجرى اسمه على الألسنة ، كما يفعل بعض من لم يقدروا الوقت حق قدره ، فيبذرونه تبذيرا ، فانه لابد للانسان من أوقات يخلو فيها بنفسه ، ليؤدى واجبا أو يتقرب الى الله بنفل ، أو يحفظ علما ، أو يحقق مسألة ، وذلك معنى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « خذوا حظكم من العزلة » ونقرأ فى تراجم كثير من أهل العلم أنهم كانو يجعلون من اليوم والليلة نصيبا للتقرب من الخالق بصلوات أو ذكر أو تلاوة قرآن ، ويقبلون فى جانب عظيم منهما على العلم تأليفا ودراسة ، ويصرفون طائفة من الوقت فى قضاء حقوق اجتماعية ، فإن قال الراغب فى العزلة : أريد أن أقضى أوقاتى فى عبادة ، قلنا : فى حضور مجالس العلم مفيدا أو مستفيدا ، عبادة ، وفى عيادة المريض عبادة ، وفى زيارة الإخوان تأكيدا لمودتهم ، أو تهنئة بنعمة ، أو تعزية على مصيبة ، عبادة ، وفى إرشاد الناس الى الخير عبادة ، وفى مدّ يد المعونة على ما يسد حاجتهم أو تقوى به شوكتهم عبادة .

وليس ببعيد أن يكون ما يعزى لى بعض أهل العلم من إيثار العزلة مرادا به صرف معظم الوقت فى علم أو عبادة خالصة ، حتى اذا أحس واجبا يدعوه الى الاجتماع أجاب داعيه فى نشاط ، ووضع يده فى أيدى العاملين بإخلاص .

وقد يخطر بالبال أن الشر فى هذا العصر أصبح مستطيرا ، وأن للضلال والفساد دعاة لا يملون ، وجنودا لا يتقهقرون ، فمن فئة غلبت عليهم أهواؤهم فاتخذوا اسم

الدين وسيلة الى ما تهوى أنفسهم، ومن قوم نبذوا الدين وخرجوا يدعون الى الإباحية والإلحاد علانية ، ومن جماعات يرسلون الى بلادنا ، ويقيمون معاهد ليتصلوا فيها بأبنائنا ، ويحاولوا صرفهم الى ملة غير ملتنا ، ومن طوائف ابتدعوا نحلات خاسرة ، وانتموا بأفواههم الى الإسلام وقلوبهم تجحده ، ولا شأن لهم إلا اصطياد الغافلين ومن لم تسبق لهم تربية رشيدة ، كما يصنع الفرقتان المدفوعتان الى تقويض أركان الاسلام واستدراج شعوبه الى احتمال الذلة والهوان ، وهما البهائية والقاديانية ، ومن فِرَقٍ لا شأن لها سوى أن تضع أمام أعين الشبان مناظر اللهو والخلاعة ، فتصرفهم عن الطريق السوىّ ، وتمشى بهم فى عوج ، فلا يدركوا ما يدركه أولو الجد والعفاف والشهامة من مجد وكرامة . قد يخطر كل هذا ببال الرجل فينحدر فى غم ويضل سُبلَ التفكير ، فلا يرى طريقا للخلاص من هذا الغم سوى البعد عن المجتمع والعيش فى عزلة لا يَسمع فيها صوت الباطل ، ولا يبصر فيها منظرا من مناظر الإباحية المتهتكة .

ربما نسمع مثل هذا الخاطر من بعض من نشأوا فى رشد وصلاح ، وقد يكون هذا الخاطر وليد سريرة طيبة ، ولكن العمل عليه يزيد الضلال صولة ، والفساد جولة ، ويجعل المجتمع الذى تستمد منه الأمة حياتها ، ظلاما لا يخلفه ضياء ، ودنسا لا يغسله ماء .

أما أصحاب الأهواء والدعايات الزائغة ، ففى أيدينا مقاومتهم بالحجج التى تكشف عن تمويههم ، وتنقذ الناس من مصارع باطلهم ، وأما المحترفون بترويج الخلاعة ، فمتى قامت التربية على دعائم الحكمة والحزم ، خملت سوقهم وكسدت بضاعتهم ، ومن أبقى يده فى أيدى الجماعة قام بنصيبه من الجهاد فى هذا السبيل ، ومن خطر على باله العيش فى عزلة ، فليستعذ بالله من اليأس ، ويدع العزلة الى اليوم الذى يلتحق فيه بأصحاب القبور .

وإذا هان اعتزال من لا يرجوه الناس لعلم أو رأى أو معونةٍ على عمل اجتماعى ، فان عزلة العالم أو المجرب للأمور أو المستطيع لأن يعمل مع الجماعة خيرا ، ذاتُ خطر كبير ، وبالأحرى حيث تظهر المنكرات ، أو تكون الأمة غارقة فى جهالة ، أو تبتلى بعلات اجتماعية .

واعتزال العالم للجماعة قد يكون له أثر فى قلة إصابته فيما يتعرض له من الفتاوى فان للنظر فى الوقائع من ناحية ما يترتب عليها من خير أو شر ، دخلا فى إصابة الحق .

ولا يستقيم النظر فى الوقائع من تلك الناحية إلا لمن يتصل بالناس ويرسخ فى معرفة أحوال المجتمع ، وكيف يدرى هذه الأحوال من هو غائب عنها ، بعيد من مصادرها ومواردها .

وإذا انصرف بعض أهل العلم أو الرأى عن الاتصال بالجمهور أيام كانت راية الاسلام تخفق فى الشرق والغرب ، وكانت النفوس فى اطمئنان سائد ، فان الحال فى هذه العصور يدعو الى بذل كل عناية فى التعارف والبحث عن علل ضعفنا ، ثم عن الدواء القاطع لهذه العلل ، وماذا ينفع البحث عن العلل وأدويتها إذا لم ننهض الى تركيب الأدوية وتناطاها على الوجه الذى يُوفّر نشاطنا ، وتشتد به سواعدنا ، ويجرى به دم الحياة والحماسة فى صغارنا وكبارنا .

لا يليق بالفرد أن يعتزل الجماعة ، ولا يليق بالجماعة أن ترى نفسها فى غنى عن الاتصال بباقى جماعات الأمة ، وإذا كان اتصال أفراد الجماعة باللقاء والتعاون على حاجات بلدهم ، فاتصال الجماعات المتباعدة الأوطان يكون بوسيلة أفراد يرحلون فيدلّون على مبلغ ثقافتها ويستطيعون أن يصفوا كمالها أو حاجاتها ، وهؤلاء هم الذين يصلحون لأن يؤكدوا الروابط بين الجماعات حتى تكون كالبنيان يشد بعضه بعضا .

محمد الخضر حسين



سورة النور

١٢



قال الله تعالى : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

لله ما أبدع وما أروع : لقد تسلسل النظم الكريم على أقوى ارتباط وأمتن إحكام ، فتراه على تنوع فوائده وتعلقها بشئون شتى من فنون الهداية قد ارتبطت أجزاؤها بعضها ببعض ، حتى لتكاد تراها كوّنت هيكلا سوياً قد أخذ أعضاؤه بعضها بسبب من بعض ، فقد بنيت السورة على إفادتنا الأحكام التى تحيا باتباعها حياة سعيدة سواء فى حياة الأسرة المنزلية أو حياة العشرة والمخالطة المدنية واتصال الناس بعضهم ببعض اتصالا طاهرا صافيا غير منغص ولا مبغض ، وأعطانا التعليم الإلهى من ذلك ما اذا تأملناه علمنا يقينا أن مصدره لا يكون إلا النور الالهى ، وأن هذا الهدى الكامل ناطق بمنشئه شاهد على مبعثه ، فكان حقا أن تردف تلك الأحكام بما ينوّه

بعظيم قدرها ويوجه النظر الى استجلاء محاسنها واغتنام فوائدها ، وذلك قوله : (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ) حتى إذا أخذت النفس حظها من استجلاء تلك الأنوار وشملها ضوءها وكانت جديرة بأن تتعرف مصدر ذلك النور الأعظم ، أردفت بتلك الآية التى ترشدها الى ما تبتغيه ، وتبيّن لها مصدرهذه النعمة الكبرى لتزداد النفس لها إكبارا وإجلالا ، ولتمتثل تعاليمها امتثالا ، فقال جل شأنه : (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ومثّل لنوره المعنوى بأقوى مايعرف إذ ذك من مظاهر النور الحسى ، فجعل ذلك النور فى منزلة أقوى الأنوار التى تجذب الأبصار ، ثم أردفها بمايفيد أن النور وقوته والضوء وسطوعه والأمر وظهوره لا يغنى عن المرء شيئا إلا أن يشاء الله ، فالنور متحقق للجميع ولكن الاهتداء لا يكون إلا لمن شاء الله ، فقال جل من قائل : (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) فهو الفعال لما يشاء (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) والله بكل شيء عليم ، وهو العليم الحكيم ، فيضع الأمور فى نصابها ، ويزنها بمقتضى حكمته ، وهو أعلم حيث تكون الهداية صالحة ، وأعلم حيث تكون النفس التى لا يليق بها إلا الغواية والضلال . نظام وحكمة ، هو العليم بحسن مواقعها ، وهو السيد المالك ، لا يسأل عما يفعل .

وعلى حسب كمال ملكه وإطلاق تصرفه فى خلقه انقسم الناس الى قسمين : فمنهم كافر ، ومنهم مؤمن ، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة .

وبهذا يتبين حسن الموقع وجمال الأسلوب فى هذه الآيات التالية ، وهى قوله : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) الى آخر الآية ، ثم قوله : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) الى آخر الآية .

من هذا تعرف أن الجار والمجرور فى قوله : « فى بيوت » متعلق بقوله « يسبح » الآتية ، وإعادة ذلك بقوله « فيها » لا يمنع منه ، فهى للتوكيد كقوله تعالى :) فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ويصح أن يتعلق بمحذوف يؤخذ مما بعده ، أى سبحوا فى بيوت والجملة استئناف يشرح هو وما بعده مقتضى المشيئة التى فى قوله تعالى : (يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) .

وذكر بعض المفسرين أنه متعلق بقوله « يوقد » السابق أو صفة لقوله « كمشكاة » معللين بأن المشكاة التى فى بيوت بهذه الصفة تكون عادة أضوأ وأضخم ، أو بأنها فى تلك البيوت ضمت انشراح النفوس بطهارة تلك الأمكنة الى ما حوت من نور حسى وأمثال ذلك ، ولكننا نراه بعيدا ، فقد انتهى المثل المضروب للنور وتم عند قوله « نور على نور » ثم أردف بما ينشأ عنه ويترتب عليه ، وأخذ الكلام شأنا آخر ، فتعليق قوله « فى بيوت » بهذا يدعو الى تفكيك النظم الكريم ، ولو وقع مثل هذا فى كلام الناس لعدّ مفككا ، فكيف وهو فى أبلغ كلام وأحكمه ؟ !

والبيوت التى أذن الله أن ترفع هى المساجد وما يلتحق بها من دور العلم والذكر ، وكل ما ينبه القلوب الى عظمة الله تعالى . والإذن أصله الإباحة فى مواضع يظن فيها المنع ، والمراد هنا الأمر ، وإنما عبر عنه بالإذن لتصوير المأمور به بصورة أن المأمور اتجه اليه ، وتطامنت نفسه اليه ، مترقبا التصريح له به والإذن فيه . ومعنى ذلك أن رفعة البيوت وذكر الله فيهن من حقه أن تتشوف اليه النفوس وتتطلع ، فاذا جاء الأمر فكأنما هو إذن منتظر .

ومعنى « تُرفع » تعظم ويُعلَى قدرها ، وذلك بصونها عن الامتهان واللغط ، وتجنيبها الصبيان ومن فى حكمهم ممن لا يميز ولا يضبط أمره ، واجتناب الجنب ومن فى معناه دخولها ، وعدم تنجيسها أو تلويثها بمستقذر ولو طاهراً ، وعدم اللغط فيها أو اتخاذها

محلا للهو ولو مباحا، أو غشيانها بثياب ذات رائحة كريهة يتأذى بها من فيها، وأمثال ذلك مما ذكر فى كتب الفقه مما حكم بعضه الكراهة وحكم بعضه التحريم. ومن رفعها صونها عن التصوير وما يشغل العابد عن عبادته. ومن رفعها إضاءتها وفرشها بما يحبب فى التردد اليها والمكث فيها.

وقوله تعالى: (وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ) — المراد ما يعم جميع أنواع الذكر: من الصلاة، وقراءة القرآن، والوعظ، والإرشاد، والتعليم الذى يعود على المتعلم بتمجيد ربه وإدراك آثار رحمته فى خلقه، فكل ذلك مما يجعل الألسنة تلهج بذكر ربها، والقلوب تتذكر عظمته وجلاله.

وقوله: (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ) — التسبيح: التنزيه والتقديس، يتعدى بنفسه كقوله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) وباللام كما هنا، وكقوله تعالى: (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وأصله من سبح فى الماء إذا عام فيه وأبعد، ومنه قولهم: فرس سبوح: سريعة الجرى سهلته، وقوله تعالى: (إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا) أى متصرفا ومتقلبا لا تتقيد بشىء، وكأن المسبح يبعد بربه عما لا يليق به من ضد ونِد أو شريك أو شبيه. والمراد هنا كل أنواع التنزيه سواء أكانت فى صلاة أو فى اتعاظ أو ذكر أو تفكر فى الملكوت أو غير ذلك. وتقييده بالغدو والآصال لا يقصره على الصلاة كما قال بعضهم زاعما أن ذلك فى صلاة الغداة وصلاة العشى وكانتا مفروضتين قبل الصلوات الخمس وزيد عليهما. كل ذلك لا نراه، بل لا نرى ذكر الغدو والآصال من باب التقييد، بل من باب الدلالة على تكرار التسبيح منهم بتوالى الأوقات، فهو كقولك: أزوره صباحا ومساء أى متواليا.

هذا وقد قرئ «يسبح» فرجال فاعل، وقرئ «يسبَّح» بصيغة المبنى للمفعول فنائب الفاعل هو الجار والمجرور فى قوله «له» أو «فيها». وقوله «رجال» الخ جملة

مستأنفة ، كأنه قيل : من الذى يسبح ؟ فقيل رجال ، أى يسبح رجال ، أو المسبح رجال . وفضل هذا التعبير أنه ذكر فيه التسبيح مرتين تنويها بشأنه ، فكأنه قيل : يقع فى تلك البيوت التسبيح لله بالغدو والآصال ، والمسبح هم رجال الخ ونظير ذلك فى استعمال التخاطب الجارى قولك : اذا وصلت الى جهة كذا أكرمت أبلغ إكرام ، ثم تقول : أصدقاؤك وزملاؤك والذين سمعوا بفضلك وكثير ما هم . ألا ترى فى هذا التعبير تقرير الإكرام بما ليس فى قولك : أكرمك أصدقاؤك وزملاؤك ؟

والغدو هنا : جمع غداة وهى أول النهار . والآصال : جمع أصيل وهو آخر النهار ، أو جمع أُصُل كعنق ، وأُصل جمع أصيل عند من يرى أن فعيلا لا يجمع على أفعال . وأصحاب القول الأول يقولون إنه كشريف وأشراف . ولعل فى تقديم صفة البيوت على صفات المسبحين أى الرجال مع أنها هى المقصود بالذات حكمة الحث على التوجّه الى تلك البيوت وحفز النفوس الى غشيانها فتقبل على العبادة والتأسى بمن فيها . وغير خاف ما للبيئة من التأثير القوىّ فى عامة الناس ، وإن الرجل يكون متراوح النفس بين الخير والشر فاذا صادفته بيئة صالحة انتفع بها ، واذا غمرته بيئة خبيثة أفسدت عليه أمره ، وهذا لا يمنع أن بعض النفوس توغلت فى الخير أو فى الشر حتى لا يكاد يثنيها أمر عن غيها أو رشدها . قال بعضهم : الناس أربعة : اثنان قد تبين أمرهما وكفيت تجربتهما ، واثنان أنت منهما على تجربة ، فأما اللذان تبين أمرهما وكفيت تجربتهما فصالح بين فجار وفاجر بين صلحاء ، فلو كان للصلاح أو للفجور الى نفس هذا أو ذاك سبيل لكان فى بيئته ما يساعده ، وأما اللذان أنت منهما على تجربة فصالح بين صلاح ، وفاجر بين فجار ، فامل أحدهما لو نشأ فى بيئة غير بيئته لكان غير ما تراه .

وقوله تعالى : (لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ) صفة مدح لرجال أكد ما فى التنوين من التعظيم والتفخيم المستفاد من السياق والمعنى أنهم اتجهوا

بقلوبهم الى عبادة ربهم فلا يلويهم عن ذلك شاغل ولا يلهيهم مقصد ، وقد أتى بأهم ما يشغل الناس عادة وهو التجارة والبيع ، ذلك لأن ذا العمل المستقل الذى لا يرتبط بغيره يجد نفسه حراً فى تقسيمه على زمنه ، ولكن التاجر عرضة لأن يخطر الشيطان بين جوانحه فيوسوس له بأنك اذا انصرفت عن تتميم صفقتك ضاعت فرصتك ، فهو يتلهى بعمل يتلوه عمل حتى يضيع عليه وقته . وذكر البيع بعد التجارة وإن كان داخلا فيها ، لأنه أهم ما يحرص التاجر على إنجازه ، فقد تحدثه نفسه بأن يرجئ أمر الشراء ليتروى ، ولكن إذا حانت له فرصة البيع التى يتيقن فيها الربح حرص على المبادرة اليها حتى لا تفلت منه ، أما الشراء فانه تحدثه نفسه أنه ربما كان فى الارجاء والمهلة شيء من هزّ أعصاب البائع فيتسامح فى بعض الثمن أو نحو ذلك . يعرف ذلك من راقب نفس من يزاول البيع والشراء .

والمراد بذكر الله كما سبق جميع أنواع الذكر . وتخصيص إقام الصلاة بالذكر بعده مع دخولها فى ذكر الله لزيد الاهتمام بشأنها ، فهى كقوله تعالى : (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ) ويصح أن يكون المراد بذكر الله تحميده وتمجيده ، فيكون مغايرا لإقام الصلاة ، وهو ظاهر . وإنك لتجد أكثر ما ترد الصلاة فى القرآن معبرا عنها بلفظ الإقامة ، وذلك لبيان أنه ينبغى فى أداء الصلاة أن تقوّم أركانها وتوفّى ما يطلب فيها . وقوله : (وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ) ذكر هنا مع أن الزكاة ليست مما يطلب فيه أن يفعل فى المساجد ، لأن الشارع الحكيم قد راعى أن تكون الزكاة من الصلاة بمنزلة الثمرة من الشجرة ، حتى لا تكاد تذكر الصلاة إلا ويذكر معها الزكاة ، وكأن الصلاة فى نظر الشارع اذا لم تؤثر فى قلب المصلى حتى تهون عليه أن يتخلع عما أحرزته يده — وهو فى الحقيقة مستحق لمن فرضت له الزكاة — كانت صلاته شبحا بلا روح ، وكان ساهيا عن صلاته التى فعلها رياء ومجرد حركات وسكنات ، وكان مستحقا للويل

فى قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) .

وقوله تعالى : (يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ) انتقال فى الوصف من شرح أعمالهم وحركات جوارحهم الى شرح صفات قلوبهم وخواطر نفوسهم ، فقال : إنهم يفعلون ما يفعلون اتقاء ليوم يجعل الولدان شيباً ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحْضَراً وما عَمِلت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، يوم تتردد فيه النفوس بين الخوف والرجاء فتتقلب القلوب متجهة الى الرجاء تارة والى الخوف تارة أخرى ، وتتقلب الأبصار متجهة الى اليمين وإلى الشمال لا تدرى من أين تؤخذ أو من أين تؤتى كتبها أباليمين أم بالشمال . أو المعنى تتقلب فيه القلوب والأبصار أو تهلع القلوب وتزيغ الأبصار فلا يستقر منها شىء فى مكانه ، كقوله تعالى : (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) فكيف لا يخاف هول هذا اليوم من يؤمن تمام الإيمان بهذا اليوم ؟! وإنما كان من شأن هؤلاء الرجال ما كان (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) هذا تعليل لقوله « يسبح » أو قوله « لا تلهيهم » أو قوله « يخافون » أو هو تعليل لفعل محذوف جامع لهذه كلها وهو : يفعلون ما ذكر من التسبيح والخوف وعدم اللهو ليجزيهم الله . وفعل « يجزى » يتعدى للشخص المجزى بنفسه ، وللفعل المجزى عليه بعلى أو عن ، وللأمر المجزى به بالباء أو بنفسه ، تقول : جزيته على عمله وعن عمله وبعمله أحسن جزاء أو بأحسن جزاء ، وقد وقع هنا متعديا فى الظاهر للفعل المجزى عليه بنفسه ، إذ يقول : (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا) فمن المفسرين من يرى أنه على حذف الجار ، والمعنى ليجزيهم على أحسن ما عملوا أو بأحسن ما عملوا ، ومنهم من يرى فى الكلام حذف مضاف بتقدير أحسن جزاء ما عملوا ، فالمعنى على الأول أنه يجزيهم على أحسن أعمالهم

ويتجاوز عن سيئاتهم ، فان الحسنات يذهبن السيئات ، ولو شاء لحاسبهم حسابا عسيرا فأحصى عليهم سيئاتهم ، بل لأحصى عليهم لهوهم المباح وغفلتهم عن ذكر ربهم ، ولكنه — فضلا منه ورحمة — إنما يجزيهم على أحسن الأعمال ويعفو عن السيئات.
والمعنى على الثانى : ليجزيهم أحسن جزاء أعمالهم ، وذلك بالمضاعفة حيث يجزى على الحسنة بعشر أمثالها . وإن المكافأة ولو بالمثل فضل من الله ، إذ ما كانت الطاعات من العبد إلا بإقدار الله وتوفيقه ، فما بالك بالمضاعفة والمضاعفة الى عشر أمثال كما فى قوله تعالى : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) والمضاعفة الى سبعمائة ضعف كما فى قوله تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) ! اللهم إن هذه هى التجارة الرابحة ، وهذا هو الجزاء الأوفى ، بل الفضل العظيم ، فكانوا بذلك يجزون أحسن جزاء لما عملوا .

وانظر الى آثار رحمة الله : لم يقصر الأمر على الجزاء وأنه أحسن الجزاء ، بل زاد عليه الفضل بقوله : « ويزيدهم من فضله » فجعل الأمر مكافأة ومجازاة مع أنه هو صاحب الفضل والتوفيق فى الأولى والآخرة ، وزاد فى الجزاء تلك المضاعفة العظمى ، ثم وعد بالمزيد من الفضل والله ذو الفضل العظيم . والفضل هنا : الإعطاء بلا مقابل ، كأن ما عملوا أصغر من أن يقع موقعا ما مما ينالهم من رحمة ربهم ، فاذا صح أن بعض ما نالهم يسمى جزاء مستحقا فان بقيته أعظم من أن ينسب اليها ما قاموا به من عمل مهما شق . وماذا يقع عمل العبد مع ضعفه وعجزه من ثواب الله مع قدرته وسعة رحمته ، وبخاصة اذا روعى أن الشكر ليس إلا بتوفيقه كما سبق ! ولله من قال :

اذا كان شكرى نعمةَ الله نعمةً ... علىّ له فى مثلها يجب الشكر
فكيف ينال الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الآجال واتصل العمر

ولقد أردف هذا الوعد الكريم بما يقرره فى النفس فضل تقرير ، ولا يسع نفسا تؤمن بالله وقدرته أن تنكره ، وهو قوله : (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

فقد وقر فى النفوس التى تتقلب فى طلب وجوه الرزق أن سعيهم وتقلبهم ليس وحده مناط ما يرزقون مهما أوتوا من الحذق والمهارة ، بل كل امرئ يشعر بأن هناك أسبابا للتوفيق والنجاح يصادفها من يشاء الله ويخطئها من يشاء ، فلا تكاد تجد ساعيا مهما كابر وعاند إلا وهو خاضع من قرارة نفسه لهذا الحكم إن طوعا وإن كرها ، فمن شذّ وملكه الغرور والاعتداد بقوته وحدها لا بد أن تصدمه الكوارث صدمة يفيق بها من غفلته ويعترف قهرا عنه أن الأمر كله بيد الله ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

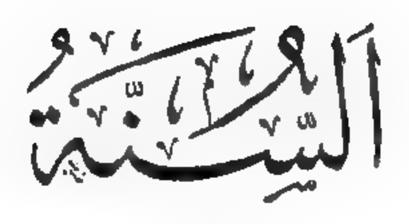
نسأل الله تعالى أن يرزقنا التوفيق بطاعته ، وأن يجزينا أحسن ما عملنا ، ويتجاوز عن سيئاتنا ، ويزيدنا من فضله — إنه سميع مجيب كريم رحيم . إبراهيم الجبالى

الطُّرف والمُلَح

قال الأصمعى : مررت بأعرابية وبين يديها فتى فى السّياق [1] ثم رجعت ورأيت فى يدها قدح سويق تشربه ، فقلت لها : ما فعل الشاب ؟ فقالت : واريناه ، فقلت : فما هذا السويق ؟ فقالت :

على كل حال يأكل القوم زادهم على البؤس والبلوى وفى الحَدَثان

(١) السياق : نزع الروح ، كأن روحه تساق لتخرج من بدنه .



مثل البخيل والمنفق

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ [1] مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوسِعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ) رواه البخارى .

تمهيد :

أشربت النفوس حب المال وتعلقت به تعلقا تغلغل فى جميع مشاعرها فلا يكاد يشذ من ذلك أحد ، ذلك لأنه الباب الموصل الى نيل الحاجات وإحراز الرغبات مهما تنوعت (وحاجات من عاش لا تنقضى) .

ولا تكاد تجد حاجة تعاصت على الدينار والدرهم إذ يدعوانها ، وقد قال بعض الظرفاء مشطرا البيت المشهور :

---

(١) الجبة من أسماء الدرع من الحديد . وقد روى جنتان .

(إذا كنت فى حاجة مرسلا) وأنت بها هائم مغـــرم
(فأرسل حكيما ولا توصه) وهـذا الحكيم هو الدرهم

أسباب الشح :

غير أن الناس فى حبهم المال قد يتطوحون فيتجاوزون العلة التى من أجلها غرس حب المال فى النفوس ، وهى أنه الباب الموصل الى نيل الرغائب ، وينتقلون الى حب المال لذاته فيشغلهم جمعه ويؤلمهم صرفه ولو فى الإنفاق على أنفسهم ، وفى إدراك ما هم إليه بأشد الحاجة ، وفى تحصيل أهم ما يعود عليهم بالنفع ، فهؤلاء يقضون حياتهم فى جمعه وادخاره وكنزه لا يبالون بما فاتهم فى طريق جمعه من عظيم الفوائد ، ولا يعبأون بما حرموا فى سبيل ادخاره و كتنازه من جليل المنافع ، هؤلاء قد التوى عليهم القصد وضل بهم الطريق فحسبوا الوسيلة غاية والمقصد الحقيق أمرا تافها ، فتراهم يتهافتون على إحرازه وا كتنازه ، ناسين فى سبيل ذلك كل مقصد ، ومفوتين على أنفسهم كل منفعة ، ومحرومين من كل لذة ، ومضيعين كل سعادة وهناءة ، أفتراهم يصنعون كل ذلك حرصا على المال وخوفا من الفقر فهم من خـوف الفقر فى الفقر ، أم هم صرعوا بحبه حتى لا يلذ لهم إلا مشاهدته وعدّه وإحصاؤه وعبادته ، فتكون قد أصابتهم حمى لذهب كما يقولون ؟ ! أولئك قوم طمس الله على بصائرهم فأشقاهم بما جعله سببا فى سعادة الناس ، وحرمهم النعيم فى الحياتين بالسبب الموصل الى نعيم الحياتين . هذا هو الضلال المبين ، بل هو عمى القلوب وهو العمى الحقيق ، كما قال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ) .

شبهة الأشحاء واقتلاعها :

وإن من أعجب شأن هؤلاء أنهم يزعمون أو يزعم الناس فيهم غالبا أنهم من أهل الكياسة والحزم ، ويبررون ما طبعوا عليه بل ما طبع على قلوبهم به بحجة هى عليهم

لو عقلوا لا لهم حسبما غفلوا ، ترى لسان حالهم يقول : إن هـذا مال جمعته وحدى وبذلت فيه جهدى وكدى ، فمن العدل أن أنعم به وحدى ؛ ونحن نجاريه فى استدلاله ونقول : نعم تعبت فى جمعه وحدك فمن العدل أن تنعم به وحدك ، ولـكنك بعملك هذا قد عمدت أن تتعب بجمعه وحدك وتشقى به بعد ذلك وحدك وينعم به غيرك بعدك ، ذلك أنا إذ ندعوك الى الإنفاق لا ندعوك أن تحـرم نفسك من نعيم أباحه الله لك لا فى مأكل ولا ملبس ولا مسكن ولا مركب ولا ما يتصل بها (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ) وإنما ندعوك أنك كما انتفعت به فى هذه الحياة تنتفع بجزء منه قليل جدا فى حياة هى أرقى وأدوم ، ونعيمها أو عذابها أكبر وأعظم ، ذلك الجزء هو ربع العشر أو ٢٫٥ ٪ كما يقول أهـل الحساب ، فإن زدت فذاك خير لك ، ستجده البتة يوم تجد كلُّ نفس ما عملت من خير مُحْضَراً ، وإن نقصته أو منعته فستلقى الجزاء العادل يوم يجاء بالذين يكنزون الذهب والفضة فيلقون العذاب الأليم الذى بشروا به وهم مالـكون أمر أنفسهم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتـكوى بهـا جباههم وجنوبهم وظهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون .

وقد يكون وارثك من بعدك نعم به حيث تشقى أنت ، وربما كان ألدَّ أعدائك فى حال الحياة ، وقد يكون وارثك من بعدك قد شقى بها وعادت عليه بأفظع المصائب وتعس أنواع الشـقاء ، وربما كان أعز النـاس عليك فى حياتك . فانظر أيها المحتج بالسخف كيف انقلبت عليك حجتك فكنت بهذا الجمع والاكتناز سببا فى حرمان نفسك فى الدنيا والتعذيب الشديد فى الآخرى ، ونعيم من يكون لك عدواً بانفراده بما تعبت فى جمعه وحدك ، أو تعاسة من قد يكون عزيزا عليك فتكون قد ضاعفت السيئات ؛ وإنك لو نظرت يمينا وشمالا لما يجرى حولك من حوادث لامتلأت اقتناعا

بتكرر هذه النتائج العاجلة ، وأما الآجلة فى كتاب الله تعالى ما يكفيك إذا كنت من المؤمنين .

قارن هذا الحرمان وشدة بطشه بمظم الإحسان فى الإنفاق ، وانظر الى قوله جل شأنه : (مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ) أليس معنى هذا أن ربح هذه التجارة يصل الى أن تربح المائة سبعين ألفا ٧٠٠٠٠٪ وما موعد الدفع؟ هو أشد أوقات اضطرارك الى ماقدمت يداك ، يوم يعض الظالم على يديه ، ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ، يوم يقول المفرط حسرة وندما : « رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت » أفترى أصلح من هذا موعدا للدفع حيث يتحقق النفع ؟ إن أعجب العجب أن يزعم الرجل أنه يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأنه من أهل الكياسة والحزم ، وأنه حريص على نفع نفسه بل استئثاره بالنفع وحده ، ثم هو يوقعها فى أشد الوبال ويفوت عليها أعظم المنافع . أفنلحق هذا بالصبي الساذج تصل يده الى بيضة الدجاجة فيحرص عليها وتحاول أمه أن تأخذها من يده لتنضجها له فيشح عليها بها حتى تنكسر فى يده فتلوث ثيابه وتضربه أمه وقد فاتت عليه منفعة ما كان يحرز ؟ أما إنه لأشبه شيء به ، لولا أن الصبي يعترف بقصور عقله وهذا يشمخ بالمباهاة بأصالة رأيه وبعد نظره .

أما أن المال نعمة من الله فنعم ، وأما أنه يجر الى نعم فى الدنيا والآخرة فنعم ، وأما أن النعم تنقلب فى يد الأحمق نقما تعود عليه بالوبال فنعم ، وأما أن المال من حيث هو مال يجمع ويكنز نعمة فلا ولا .

تصوير الحديث لهذه الحال :

لقد صور لنا الحديث الشريف حال الرجلين ينعم الله عليهما بنعمة المال لينتفعا به فيعود على أحدهما بالخير وعلى الثانى بالضرر : فضرب لذلك مثل الرجلين يلبسان جبة

أو جنة من حديد ليقيا بها أنفسهما من الضرر ويحمياها من الأذى فتتسع لأحدهما وتسبغ عليه حتى تستره وتتجاوز أطرافه فتسبغ على بنانه وهى أطراف أصابعه أى أطراف أطرافه وتمحو أثر سيره لأنها تجر وراءه فتستر حتى أثر مسيره فينتفع بها أيما انتفاع ، والآخر تلصق جبته أو جنته عليه ما بين ترقوته وثدييه فتكون حينئذ قد غلت يديه وحبستهما عن أن يدافع بهما عن نفسه ، واليدان مصدر القوة والدفاع عن النفس فضلا عن أنها أبقت سائر جسمه ومقاتله عرضة للأذى والفتك به ، فلا هى التى سترته وحمته ولا هى التى أبقته طليق اليدين يستطيع بعض المدافعة عن نفسه ، فكان ضررها الذى أتت به فوق نفعها الذى كان ينتظره ، فلو لم يلبسها لكان على الأقل قادرا على الدفاع عن نفسه بيديه المطلقتين ، وقد زاد فى تصوير ذلك بما شغله من شأنها فهو يريد أن يوسعها فلا تتسع ، فهو منها فى علاج ومشاغل ، بينما صاحبه قد استكمل بها الستر وأطلقت منه اليدان وسهل باتساعها انزلاقها وجمعها فنشرها كيفما أراد .

وقد روى «جبتان» و «جنتان» و الجُنة بالضم : هى ما يجتن به ويستتر ، وعرفت فيما يتحصن به من الضرر . والجبة : الثوب المعروف ، ووصفها بأنها من حديد يرجعها الى معنى الجنة . وكلتا «سبغت أووفرت» متقاربتا المعنى ، فمعنى سبغت امتدت وغطت وسترت ، ومعنى وفرت انبسطت واتسعت . وأو للشك من الراوى ، وتلك عادتهم فى تحرى اللفظ الذى نطق به المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فلا يكتفون بلفظ يؤدى معناه ، إذ قد يستفاد حكم من لفظ يقصر عنه لفظ آخر ، ولذلك جاء الحث على تحرى الأداء مثل ما سمع فى قوله صلى الله عليه وسلم : « نضّر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » أو « فرب حامل فقه الى من هو أفقه منه » وقوله « تعفو أثره » مضارع من عفاه يعفو إذا محاه وستره ، وقد يأتى عفا لازما فيقال عفت الديار وعفا الأثر .

وقوله : « وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها » روى بدل لزقت غاصت ؛ وروى قاصت ، والمعنى متقارب ، وهو انقباض حلقاتها ووقوف كل حلقة مكانها . وتصوير البخيل بأنه يريد أن ينفق فلا ينجز هو التصوير الصحيح ، فإن البخيل مهما اشتد بخله يريد أن يتمتع بلذة المحمدة وحسن السمعة ، ويدرك ما فى الإنفاق من مجد وفخار ، ولكنه حين تمتد يده الى المال ليحرز به ذلك الفخار تغلبه شقوته ويتمثل له المال محبوبا لا يعوض فترجع يده مغلولة الى عنقه ، فهو يهم ولا يفعل ويكاد ولا ينجز كما قال القائل :

يحب المديح أبو مالك ويفرق من صلة المادح

وكما قال الآخر :

أهم بشىء والليالى كأنها تطاردنى عن كونه وأطارد

وما الذنب لليالى ولكن الطباع هى المذنبة :

اذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

وفى الحقيقة المرجع كله الى توفيق العزيز الحكيم . نسأل الله أن يمن علينا بتوفيقه لعمل الخير وخير العمل إنه سميع مجيب !

ابرهيم الإبيارى

الطرف والملح

نظر الحسن البصرى الى قوم منصرفين من صلاة الفطر يتدافعون ويتضاحكون ، فقال : الله المستعان : إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد تقبل ، فما هذا محل الشاكرين ، وإن علموا أنه لم يقبل ، فما هذا محل الخائبين .

ذكر
قصص الانبياء فى القرآن

قصة يوسف عليه السلام وما يؤخذ منها

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

بيّنا فيما كتبناه فى قصة آدم عليه السلام أن الله يريد بما يقصه علينا من قصص الأنبياء أن نعتبر بما فيها من حكم جليلة ، وفوائد رفيعة ، وتعليم إلهى ، وإرشاد ربانى ، ينير لنا طريق الهدى ومنهاج السعادة فى الدارين ، بحيث يكون للناس نبراسا يستضيئون به فى كلتا الحياتين ، وما أكثر ما استخرج الحكماء الربانيون من أسرار القرآن مما ابتهج به علماء الاجتماع ودهش له أساتذة علم النفس وأساطين علم الأخلاق . والقرآن هو الصراط المستقيم الذى ارتفع به سلف الأمة الى أوج العز والفخار ، فكانوا أرفع الأمم وأعزها على الإطلاق بما أفادهم من تعاليم أورثتهم عزة الملوك وطهارة الملائكة .

ولنقص عليك اليوم شيئا مما تضمنته قصة يوسف عليه السلام من علم جم وحكمة عالية وسنن كونية وأسرار روحانية . ولتعلم أن الناس مختلفون جد الاختلاف فى فهم القرآن على حسب استعدادهم (والإمداد على قدر الاستعداد) وأن من النفوس من لا يعرف إلا الشر ولا يفهم إلا الشر فهى تقلب كل شىء الى الشر كالإناء الخبيث الذى اتخذ من معدن خبيث فانه يقلب كل ما يوضع فيه من الماء الصافى الى طبعه الخبيث

(وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ) وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ، وكأن الله يشير الى ذلك بقوله : (لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِى ٱلْأَلْبَابِ) فجعل ذلك لأرباب العقول السليمة لا لغيرهم .

فوائد القصة وما يؤخذ منها :

(١) يؤخذ من عموم القصة بالإجمال أن من صبر على القضاء كان له أحسن العواقب وأعظم المثوبات ، وفى ذلك الحث على انتهاج سبيل المتوكلين والاقتداء بزهد الزاهدين ، والدلالة على الانقطاع الى الله تعالى والاعتماد عليه عند نزول الشدائد ، كما يؤخذ منها الكشف عن أحوال الخائنين وقبح طرائق الكاذبين ، وابتلاء الخواص بأنواع المحن ، وتبديلها بأنواع الألطاف والمنن ، مع ذكر ما يدل على سياسة الملوك وحالهم مع رعيتهم ، الى غير ذلك .

(٢) يؤخذ من قوله تعالى : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ) التنبيه على ما للأرواح الانسانية من الاستعداد للاطلاع على عالم المغيبات وما يكون فى المستقبل بواسطة مالها من الصفاء الذاتى والفيض القدسى والإلهام الربانى . وقد ذكروا أن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات ، فاذا قوى الحال تصير الرؤيا كشفا ، فيكون عليه السلام قد سُلِك به نحو ما سُلِك برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) (قَالَ يَا بُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) :

يؤخذ منه أن الحسد متأصل فى الانسان ، فهو غريزة لا يكاد يخلص منها أحد حتى الصالحون ، وأن الشيطان واقف للانسان بالمرصاد ، فمتى وجد نفسه تحركت بمقتضى غريزة من غرائز الشر تجده يخب ويضع ويسرع فى كل ما يوقد النار ويجلب الدمار .

(٤) ثم نأخذ من القصة وما صنعوه من الكيد الذى تفننوا فيه وما كان بعد ذلك من العاقبة الحميدة ليوسف عليه السلام أن ما أبرمه الله تعالى لا بد منه ، فقد ذهب كيدهم هباء ، وتم له من الرتب القعساء ما جعلهم يخضعون له خجلين معتذرين .

(٥) (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ) : يؤخذ منه عظيم احتيال الإنسان على ما يريد ، فإنهم جاءوا عشاء لئلا يظهر أنه تباكٍ كاذبٌ وليس بكاء حقيقيا ، فكانوا أجرأ فى الظلمة على الاعتذار لأبيهم ليوهموه أن ذلك بكاء حقيقى لا تباك ، فإنهم لو جاءوا ضحى لافتضحوا . فلنحذر من أفراد نوع الانسان الذى يتلوّن تلون الحرباء ، ويتفنن فى أنواع المكر والدهاء .

(٦) يعلمنا قوله تعالى : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) حكاية عن يعقوب عليه السلام أنه يلزم الإنسان السكون تحت مجارى الأقدار سرا وعلنا وإن فدح الخطب وعظم المصاب ، تسليما لله وثقة بحكمته وخضوعا لربوبيته .

(٧) (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) : يؤخذ منه وجوب اليقظة والاحتياط فى خلطة الرجال بالنساء ، ولزوم تنبه السادة لبيوتهم وخدمهم ، وفيه تنبيه على أن الخلطة غير مأمونة ، وأن من النساء من لا يحفظن العهود ولو كان لزوجها من النعم عليها ما يجعلها فى أكرم منزلة « إنهن يكفرن العشير » .

هذا ويؤخذ من امتناع يوسف عليه السلام وهو شاب له من قوة الشباب ما للشبان ، وأمامه امرأة حسناء مهدت له السبيل ، فغدت تطالبه لنفسها وتلح عليه وهى فى محل السيادة والعز ، وقد استعملت معه كل أنواع الترهيب والترغيب والوعد والوعيد ثم يمتنع منها ويفر هاربا الى الباب — ما يعرفنا مبلغ النفوس الشريفة من الطهر ورفعة الإحساس ، وما تثمره التقوى لذويها من مخافة الله فى الخلوات والجلوات ،

ففى القصة حثٌّ على الاقتداء به عليه السلام، وإرشادنا الى الاحتياط فى أمر النساء، وبيان مكرهن وكيدهن، ووصول الأمر الى غايته فيهن مهما كان حالهن:

فلا تحسبا هنداً لها الغـدر وحدها سجية نفس كل غانية هنـــد

وبعد: فمن الآثار السيئة للمدنية قلة الغيرة، وقد كانت الحضارة فى مصر بالغة حدها، فكان للنساء فيها شأن وخطر، حتى إن بعضهن تولت الملك مثل نيوتوكريس وغيرها، وكل أمة تساوى رجالها بنسائها فى جميع الشئون فلا بد أن يخرجن عن حدودهن ويتخطينها ولا يقمن للرجال وزنا كبيرا، فهذا من مساوئ المدنيات القديمة والحديثة، حيث يسود الترف وينغمس أهلها فى الشهوات واللذائذ. وإنك لتلاحظ فى غالب الأحوال الخنوع من الرجال الذين أثرت فيهم المدنية غير الاسلامية أثرها الخبيث، فترى قلة غيرتهم على النساء وسلطان النساء عليهم، كما هو مشاهد الآن فى أولئك المقلدين للأوربيين بلا عقل ولا بصيرة.

الخلاصة:

وخلاصة المقام أن محبة الرجال للنساء والنساء للرجال أمر غريزى متغلغل فى طبيعة تكوين الفريقين، لأمر اقتضته حكمة الحكيم العليم: من بقاء النوع، وسوق كل منهما بذلك السائق القاهر الى الازدواج، وتحمل مايترتب على ذلك الازدواج من أثقال يطول شرحها وأعباء ينوء المرء الشديد بحملها، ولا يكاد يضبط نفسه عند ثوران ذلك الميل الغريزى القوى السلطان إلا من عصم الله وقليل ما هم. ولهذا حرمت الشريعة الغراء خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية وسدت هذا الباب سدا محكما، علما منه تعالى بما جبلت عليه النفوس (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ) ومع هذا فلا ننكر أن أفاضل الرجال وفضليات النساء لا يستطيع سلطان ذلك الميل مهما كان قويا أن يستعبدهم، فالحكم لدى أرباب الكمال من الجنسين إنما هو للدين والعقل والآداب.

وانظر الى السيدة سارة زوجة إبراهيم عليه السلام وما كان منها مع ذلك الجبار الذى أراد منها السوء فارتد خاسئا يكاد يتميز من الغيظ ، وقد وهب لها السيدة هاجر إذعانا بفضلها وكمالها .

وانظر الى السيدة مريم حيث تقول : (إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا) . وقد قالت السيدة هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبى سفيان : « هذا شىء نستقبحه حلالا أفنفعله حراما » ؟ ! فما أرفع ذلك الإحساس وما أرق ذلك الوجدان ! فكلامنا السابق إنما هو فى تقرير قواعد عامة نريد أن يأخذ بها الجمهور الذى ينقاد لسلطان النفوس ويخضع لسيطرة الشهوات ، وأما أولئك الذين تربوا فى حجر الآداب العالية والفضائل السامية ، وفى حمى الشريعة الغراء من أرباب العقول الكبيرة وذوى النفوس الفاضلة ، فهم فى محل الاستثناء من الرجال والنساء ، وكم من سيدة بذت الرجال ووصلت الى محل الكمال حتى قيل :

ولو كان النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجال

(٨) يؤخذ من قوله : (لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ) أن الإنسان لا يثق إلا بمن كان مراقبا لله عارفا بالله خائفا من الله ، وأما سواه فيجب أن يحذر منه كما يحذر من الأفاعى .

(٩) (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ) : يؤخذ منه أنه يجب الفرار من محل الخطر ومواطن الهلكة ، فلا يتريث ولا يقتصر على المدافعة النفسية وإقامة الأدلة النظرية والبراهين المنطقية ، فإن ذلك لا يفيد عند ثوران الشهوة الطبيعية واستحكام الأهواء البشرية ، فلا بد من الفرار الحسى وعدم الاقتصار على الحوار النفسى .

(١٠) (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الى قوله : (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) :

يؤخذ منه شدة حرصهن على ما يُردن من الرجال و حتيالهن فى هذا الموضوع بكل ضروب الحيلة ، فإنهن إذا ابتلين بالحب أظهرن ما يعجز عنه إبليس ، مع مساعدة الطبيعة لميل إليهن ، وقوة المناسبة بين الرجال وبينهن ، كما يشير إليه قوله تعالى : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا) ، فما فى العالم فتنة أضر على الرجال من النساء ، فلنعرف ذلك ولنحذر منه .

(١١) (وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) : يؤخذ منه أن الانسان قد يصل من المحبة الى مقام لا يحس فيه بألم ، استغراقا فى المحبة ، فلنحذر من تلك المحبة التى تصيرنا عبيداً ، ولنجتهد فى محبة الله ورسوله التى تصيرنا ملائكة أطهارا .

(١٢) (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) :

يعلمنا سبحانه وتعالى أن طريقة عبد الله المخلصين الذين يلزمنا الاقتداء بهم تعظيم أمر الله ، والتضحية بكل شىء فى سبيله ، ولو أدّى ذلك الى السجن والهوان . وقوله : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) يغرس فينا ملكة الرجوع الى الله فى كل شىء ، موقنين أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهذا هو شأن العارفين بنفوسهم ، الحذرين منها المراقبين لها ، العارفين بربهم وإحاطته التى لا يخرج عنها شىء .

(١٣) (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) : يؤخذ منه أن أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمنة لا تحت ظل العمل والسعى .

(١٤) (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) :

دعوة للتوحيد على أتم وجه وأحسن أسلوب ، فعلينا أن نسلك ذلك فى الإرشاد والدعوة وإقامة الأدلة .

(١٥) (فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) :

يعلمنا التأنى فى الأمور وعدم العجلة فيها مهما كان أمرها ، فإنه عليه السلام لم يحمله الفرح بطلب خروجه من السجن الذى لبث فيه بضع سنين أن يبادر الى ذلك قبل أن تظهر براءته على أتم الوجوه ، حتى لا يكون هناك شك ولا ريبة .

(١٦) (إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ) :

إشارة الى أن النفس بطبعها كثيرة الميل الى الشهوات ، وقد قال بعضهم : النفس ظلمة كلها وسراجها التوفيق .

(١٧) وبعد : فيؤخذ من القصة بيان سنة من سنن الله تعالى ، وهى امتحان من يريد اصطفاءهم واجتباءهم حتى يخلصهم من وضر النفوس وظلمة الهوى الذى يضل عن سبيل الله وينحرف بهم عنه الى ما سواه ، فإنه يريد منهم أن يلتجئوا إليه ولا يعولوا إلا عليه ، وقد قال بعض عشاق الجمال الطبيعى :

أبى القلب إلا حب ليلى فبغّضت الىّ نساء ما لهن ذنوب

فما بالك بأولئك الروحانيين الذين محبتهم أرق وأصفى ، ومحبوبهم أعلى وأسمى ! وقد قالوا : إن النعيم الروحانى يفوق النعيم الجسمانى ، كما أن العذاب الروحانى أشق من العذاب الجسمانى .

(١٨) (إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ) :

يعلمنا أن الانسان إذا ضاقت به الأحوال وجب أن يفزع الى الكبير المتعال ، وألا يعول على شىء سواه ، وأن يفرغ قلبه من جميع ما عداه ، كما يشير إليه الإتيان بأداة الحصر ، فكل من انقطع إليه كفاه ، ومن أناخ ببابه أعطاه وأرضاه ، وما أحسن قول بعضهم :

فإن رحالنا حطت رضاء بحكمك عن حلول وارتحال

وقول الآخر :

إذا ما تمنى الناس روحا وراحة تمنيت أن أشكو إليه فيسمعا

(١٩) (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) : يعطينا درسا من مكارم الأخلاق ، فالكريم إذا قدر عفا « والعذر عند كرام الناس مقبول » قال بعض المحققين : من نظر الى الخلق بعين الحق لم يعبأ بما يكون منهم ، ومن نظر إليهم بغير ذلك أفنى أيامه فى مخاصماتهم ، ألا ترى يوسف عليه السلام لما علم مجارى القضاء كيف عذر إخوته وقال لا تثريب عليكم !

(٢٠) (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً) :

يفيد أن أسرار الله لا غاية لها ، وليس الأمر موقوفا فيها على تلك النواميس المادية التى قدسها الجاهلون ووقف عندها الجامدون ، وكيف يعلم ذلك أو يفهمه أولئك المتشدقون الواقفون عند الظواهر وبينهم وبين تلك اللطائف ما بين الجسوم الكثيفة والأرواح اللطيفة ؛ فهو يفتح لنا بابا من العلم ، ويعرفنا أن العلم ليس له غاية .

(٢١) (قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) :

الأصفياء تارة يكشف لهم عن اللوح المحفوظ ، وتارة لا يعرفون ما تحت أقدامهم ، وانظر كيف وجد يعقوب ريح يوسف من مسيرة أيام ولم يجد ذلك عند ما كان فى الجب وليس بينه وبينه إلا ساعة من نهار ، ولكن المسألة موقوفة على الإذن الإلهى والحكمة الربانية .

(٢٢) (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) :

يعلمنا أنه ينبغى للداعى الى الله تعالى أن يكون عارفا بطريق الهدى وسبيل

السعادة ، ونعرف من هذا حال أولئك الجاهلين المتشدقين الذين هم فى ضلالة مدلهمة ومهامه يحار فيها الخريت وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وربما عدنا الى القصة مرة ثانية إن شاء الله ، فإن فيها عبرا وحكما تنفع فى الدين والدنيا ، لما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ، ومكر النساء ، والصبر على أذى الأعداء ، وحسن التجاوز عنهم بعد القدرة عليهم ، وغير ذلك مما سمعت وستسمع .

(٢٣) وفيها فوق ذلك كله بيان كثير من الأسرار الروحانية التى لا تجرى على هذه النواميس الطبيعية ، مثل المنامات الثلاثة : منام يوسف عليه السلام ، ومنام صاحبى السجن ، ومنام الملك ، ومثل وجدان ريح يوسف من مسيرة عشرة أيام أو ثمانية أيام ، وردّ بصر يعقوب بإلقاء القميص على وجهه ، وما أجدرها أن توصف بأنها سورة الروحانيات ، أو سورة الصبر والتقوى . ونرجو أن نوفق لبيان ذلك على ما نحب ويحب القارىء الكريم إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى

ترجمة
مقال « حقوق الزوجين »
الى اللغة الماليزية

نشرت هذه المجلة فى الجزأين ٩ و ١٠ من المجلد الثانى مقالا فى حقوق الزوجين لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود ياسين أحد العلماء الفضلاء بدمشق ، ولما اطلع على هذا المقال حضرة الأستاذ السيد على بن عبد الله السقاف العلوى المقيم بجاوة ، نقله من العربية الى اللغة الماليزية ليطلع عليه الشعب الأندونيسى ، وليدرس بالأقسام المخصصات للبنات بالمدارس الجاوية ، واستأذن فضيلة الأستاذ صاحب المقال فى طبع الترجمة ونشرها فأذن له بذلك ، والمجلة تشكر لحضرة السيد على السقاف على هذا العمل الجميل .

الحـــج

الحج لغة : القصد الى معظم ، وهو فى الشريعة : قصد البيت الحرام (الكعبة) لأداء ركن من أركان الدين هو الطواف والوقوف بعرفة بما يلابسهما من إحرام وسعى وما الى ذلك من بقية الأعمال المكملة للحج . وقصد البيت الحرام للزيارة والطواف قديم فى الناس ، فقد كانت العرب تحج الى الكعبة قبل الاسلام لاعتقادهم أنها بيت الله ولقد كانوا يعظمونها لذلك فلم يعبدها منهم أحد ، كما أن أحدا منهم لم يعبد الحجر الأسود مع اشتهار الوثنية وكثرة عبادة الأصنام قبل البعثة ، بل كان تعظيمهم للحجر لأنه منسوب لله ، حتى اعتقد كثير منهم أنه نزل من السماء .

وقد أوجب الله الحج على المسلمين الأحرار العقلاء البالغين الأصحاء القادرين على الزاد والراحلة متى كانت تلك المقدرة بعد أداء ما لا بد لهم منه لنفقة عيالهم ومساكنهم وكان الطريق الى البيت مأمونا . وقد فرضه الله على كل مسلم على الوصف الذى سبق فى العمر مرة . وفرضيته ثابتة بالكتاب العزيز ، قال تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) وثبتت الفرضية بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « بنى الاسلام على خمس » الحديث . وقد حج صلى الله عليه وسلم . أما أن الحج فرض مرة واحدة فلما أخرجه الامام أحمد فى مسنده والدار قطنى فى سننه والحاكم فى المستدرك عن ابن عباس ، ولفظه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يأيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج . فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ قال : لو قلتها لوجبت ولم تستطيعوا أن تعملوا بها ، الحج مرة فمن زاد فتطوع . وقد اشتمل الحج على جملة أعمال سنبينها ونبين حكمة مشروعيتها .

الحكمة فى وضع البيت واتخاذه قبلة — نفى الشرك والزور والبهتان والالحاد :

إن من تدبر فيما يحيط به من الكائنات العلوية والسفلية لا شك يشعر بروعة تقع فى قلبه كل موقع وتملك عليه حواسه ولبه ، فالجبال الراسيات والأنهار الجاريات والبحار العظام وقبة الفلك وما هى عليه من نظام ، والسحاب بين الأرض والسماء يحمل من ماء يرسل الى الأرض للموات فيحييها والى الأنفس فيرويها والى النباتات فينميها ، والرياح العواصف تدفع الماء آونة والصواعق أخرى ، كل هذا يدفع بالانسان الى التفكير فى ذلك النظام البديع المرتب أحسن ترتيب وأحكمه ، يدفعه الى البحث فى أن ذلك النظام لا يتصور أن يكون موجودا مصادفة بل لا بد له من مبدع أنشأه وأبدعه ، وأن ذلك المسيطر لا بد أن يكون ذا قدرة فوق القدر وعلم لا يوازنه علم ، وألا يكون له شريك يدانيه أو يقرب منه ، إذ لو كان ذلك ممكنا لما كان هذا النظام الذى وضع فيه كل شىء موضعه ، فالكواكب تسير على نسب معينة ونظام محكم لو خرجت عنه لاختل نظام العالم ، والحيوانات أعطى كل منها ما يحتاج اليه فى تقويم وجوده ، ووهب له من الأعضاء ما لا بقاء له بدونه ، ووضعت الأعضاء فيه على ترتيب لو وضعت على غيره لهلك ، وقد ألهم استعمال تلك الأعضاء فيما يجلب نفعه ويدفع ضرره (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) .

وإذا كان التفكير الصحيح يهدى الى الرشد والى الإيمان بواجب الوجود و لى أنه الخالق الرازق المعطى الوهاب المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، فهو أيضا يهدى المتأمل الى أن ذلك الخالق البارىء يستوجب الشكر ، وأن على الانسان أن يعبده شكرا له على تلك النعم الباطنة والظاهرة ، غير أن العقل اذا اهتدى الى ذلك يحار فى كيفية عبادة الرحيم الرحمن ، إذ لا يستطيع أن يدرك ما يليق به من تعظيم ، إذ كيف يستطيع العبد الضعيف المحتاج الى مولاه فى وجود وبقائه إدراك ما يناسب ذلك المنعم من خشوع وخضوع ،

والى ما يناسب العظمة التى لا نهاية لها من تعظيم وثناء ، الى ما يصح فى حقه من توسل ومناجاة ، كيف يستطيع أن يصل الى شيء من هذا والمولى جل وعلا وجوده مطلق لا يتقيد بمكان ولا ينحصر فى جهة ولا يحده زمان ، فالى أى جهة يتوجه فى عبادته لا شك تعتور الانسان الحيرة فى أداء ما هو واجب عليه نحو الذى خلقه فسواه وأنشأه وعلمه وهداه وأرشده ، ولا يخفى مع هذا أن الانسان عاجز عن التوجه الى موجود لا يستطيع إدراكه

فخروجا من تلك الحيرة منّ الله على عباده فعين لهم مكانا سماه بيته وأضافه الى نفسه تتنزل فيه رحمته ويتجلى فيه رضاه ، وجعل التوجه اليه كافيا فى عبادته ، بعد أن طهر مكانه من الرجس والأوثان ، وطلب اليهم التوجه فى عبادتهم اليه ، وأن يقصده من استطاع اليه سبيلا فى العمر مرة ، وكان ذلك منه سبحانه دفعا للحرج عن الخلق لأنه لو كلفهم بعبادته وقد دلهم بالعقل والشرع على أنه ليس كمثله شيء دون أن يجعل لهم مكانا يكون توجههم إليه كتوجههم الى ذاته ، لتحيروا كيف يتجهون .

ولا يخفى عليك أن القصد الأول من إرسال الرسل هو دعوة الناس الى الايمان بأن الله واحد لا شريك له ، وأن ذلك هو المقصد الأعظم من بعثتهم صلى الله عليهم وسلم ، وإذا كان من أول تعاليمهم هذه الدعوة ومن تعاليم ديننا الحسن أن الله تنزه عن المكان والجهة ، فلا خوف بعد ذلك على المؤمن من توهم حلول ذات الله فى مكان ، لأن ذلك محال عنده ، فنسبة البيت إليه وطلب التوجه الى ذلك البيت المعظم لم يكن إلا لما قدمناه : إخراجا للناس من الحيرة ، وجمعا لقلوبهم فى التوجه الى جهة واحدة ، توحيدا للقصد وإفرادا للغاية وإرشادا لهم الى أن المراد التوجه الى الله لا الى ذات المكان . وإذا كان الإيحاء الى ابراهيم عليه السلام باتخاذ البيت كان مقيداً بنفى الشرك ، قال تعالى : (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) وكان أول

ما طلب إليه هو تطهيره ليكون معبدا يعبد الله فيه عبادة صحيحة : (وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) كان توهم الحلول أو تعظيم غير الله بعيدا كل البعد لا يخطر ببال ، وكيف يتوهم هذا والله سبحانه وتعالى يقول : (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) أى معبدا تعبدون فيه ربكم ورب البيت ، ويقول : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَلَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) ويقول فى آية أخرى فى محكم كتابه : (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) وفى آية أخرى (فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) .

إذا كان وضع البيت قد أحيط بكل هذا فوضع أساسه على نفى الشرك واجتناب الرجس وعبادة الأوثان والإقلاع عن قول الزور ، فكيف يكون بعد هذا محل لتوهم متوهم أن فى الحج أو فى بعض أفعاله أو فى التوجه الى الكعبة شائبة لغير طهر أو عبادة ؟ إن هذا لا يختلج فى نفس إنسان ، وإذا أنت وقفت على ما كان عليه الناس وقت وضع البيت وأنهم لطول الفترة التى كانت بين الرسل خلطوا ابتداء بين عمل سيء ، وآخر صالح : فكان منهم من تمسك بتعاليم الدين ، ومنهم من مال الى الزيغ ، ناسيا أو متناسيا ما أمر به وكلف باجتنابه ، وما زال ذلك حالهم حتى تفشت فيهم أضاليل وأباطيل الوثنية وخيمت ظلماتها على العقول ، فأخذت نرهاتها بالألباب ، وتغلغلت سخافاتها فى نفوس

كثير من البشر ، والتوى بهم جميعا القصد ، فكان فريق يعبد الشمس لما يراه فيها من نظام بديع ، وآخر يعبد النار لزعمه أنها مدبرة ، وفريق ثالث يعبد الأحجار لزعمه أنها مادة هذا الوجود ، اذا أنت وقفت على ذلك جميعه لم يعتورك شك فى أن الله سبحانه وتعالى أراد تطهير الخلق من أدران الوثنية ، فأرسل الخليل عليه السلام . ولقد قص الله علينا ما كان منه عليه السلام مع من أرسله الله إليهم : من دعوتهم الى نبذ ما يعبدون من الأوثان ، وأنه عاب آلهتهم وكسر أصنامهم ودعاهم الى عبادة الواحد الذى لا شريك له ، وأنه ترك قومه وهاجر الى مدين ، ومن ثم أمر بالهجرة بولده إسماعيل الى بلاد العرب ، الى واد غير ذى زرع ، وهناك أمره الله باتخاذ بيته فيه ، وأنه جعل ذلك البيت مثابة للناس وأمنا وهدى للناس ورحمة ، إذا أنت وقفت على هذا لم يعتورك شك فى أن أساس وضع البيت هو نفى الشرك وإبادة الوثنية .

ولا أدل على أن وضع البيت إنما كان لما قدمناه من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخوله الكعبة ، حيث أمر بإزالة ما عليها من الأصنام ، وهوى بقضيبه على ما صادفه منها . ولقد كان للنصارى ومشركى العرب صور وتماثيل وأصنام بالكعبة خارجها وعلى سطحها ما يبلغ ثلاثمائة وستين أزالها كلها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة فاتحا .

عظمة البيت :

حسب المرء فى عظمة البيت قول الله سبحانه وتعالى فى شأنه : (وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ) فأضافه سبحانه الى نفسه ، والتابع يشرف بشرف المتبوع ، والمضاف يشرف بشرف المضاف إليه ، وقد جعله الله مثابة للناس وأمنا ، وذلك بأن خلق فى قلوب الناس ميلا الى حجه والتوجه

إليه آونة بعد أخرى ، وبث فى نفوسهم من احترامه وتعظيمه وعدم سفك الدماء فيه ما كان به أمنا لهم من المخاوف التى يتخطف الناس فيها من كل جانب ، وعهد الى ابراهيم واسماعيل ومكانتهما مكانتها فأوصاهما وكلفهما باتخاذ البيت ، وجعلهما إياه مكانا للعبادة الصحيحة ، ولا تنس ما قدمناه لك من أن نسبة الله هذا البيت الى نفسه إنما كان لجعله إياه معبدا يعبد فيه وهو المنزه عن صفات الأجسام ، ليس لخصوصية فى موقعه ، ولا فى أحجاره ، وإنما كان لجعله رمزا للمعبود بحق وهو الله ، فالإضافة لهذا لا لشيء سواه .

وحسبك أيضا فى تعظيمه أن الله أمر رسولين من رسله برفع القواعد ، وما ذاك إلا تشريفا لهذا البيت الذى بنياه لعبادة الرحيم الرحمن فى هذه البلاد التى كانت الوثنية منتشرة فيها . ولمناسبة ذلك البناء نذكر لك أن الكعبة ما زالت على بناء إبراهيم عليه السلام حتى بنتها العماليق ثم جُرهم ، ولما آل أمر البيت الى قصى بن كلاب هدمها وبناها فأحكم بناءها وسقفها بخشب الدوم وجزوع النخل . ولقد حصل قبل بعثته صلى الله عليه وسلم بخمس سنين أن هدم السيل الكعبة فبنتها قريش ، فلما انتهوا الى وضع الحجر الأسود اختلفوا فى أى القبائل تختص بشرف وضعه فى محله ، وكاد الأمر يفضى الى القتال ، فارتضوا رسول الله عليه الصلاة والسلام حكما ، نطلب رداء وضع الحجر فيه وأمر القبائل فأخذت كل قبيلة بطرف من الرداء ورفعوه حتى إذا وصل الى مكانه وضعه بيده الشريفة ، وهذا أيضا من تشريف الله للبيت وتعظيمه .

وقد قصرت بقريش النفقة فبنوا الكعبة على ما هى عليه الآن ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضى الله عنها : لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر[1] ولقد بناها ابن الزبير بعد ذلك على قواعد إبراهيم ، ولما فرغ من بنائها طيبها بالمسك والعنبر داخلا وخارجا من أعلاها الى أسفلها وكساها بالديباج ، غير أن

---

(١) صحيح مسلم .

عبد الملك بن مروان لما ولى الخلافة هدم ما جدده ابن الزبير وأمر بإعادتها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد كانت الكعبة قبل الاسلام ذات منزلة سامية عند جميع العرب لا فرق بين أهل الكتاب منهم والوثنيين ، وقد تجاوزت مكانتها جزيرة العرب الى بلاد الهند حتى اعتقد بعضهم تقديس الحجر الأسود ، وكانت الصابئة (عباد الكواكب) يعتقدون أن الكعبة من البيوت السبعة المعظمة عندهم . ومما يدل على عظمتها فى نفوسهم أنهم جميعا يعتقدون أنها بيت الله المقدس ويحترمونها لهذه النسبة ، وكانوا يحجون إليها من جميع أنحاء البلاد العربية وغيرها فى أشهر الحج وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة ، وكانوا يحرمون الشهر الذى فيه الحج وهو ذو الحجة ، والذى قبله لأنه وسيلة إليه ، والذى بعده لأنه تابع له ، ولم يرد أن أحدا من العرب عبد الكعبة أو عبد الحجر الأسود مع أنهم عبدوا النجوم فى أشخاص أصنام . ويروى بعض المؤرخين أن العرب كانت تحترم مكان الكعبة قبل بناء ابراهيم لها ، وعلل ذلك بعضهم بأنه ربما كان هناك معبد قديم تلاشى أمره قبل وصول ابراهيم عليه السلام الى تلك الجهة ، ومن هذا الاحترام الذى كان لمكان الكعبة ذهب بعض المؤرخين الى أن سيدنا ومولانا آدم عليه السلام بناها قبل ابراهيم ، وذهب قوم الى أن الملائكة بنتها قبل آدم ، والذى نجزم به هو ما قصه الله علينا من أن الذى وضع قواعد البيت هو ابراهيم واسماعيل ، أما ما حكاه المؤرخون فالله أعلم به .

ومما يدل على سمو مكانة الكعبة أن الفرس قبل الاسلام والاسرائيليين أيضا كانوا يعتقدون حرمة الكعبة ، وكذلك المسيحيون ، وهذا لم يقع له نظير فى الوجود وهو برهان ساطع على الشرف والعظمة ، لأن إجماع الناس على اختلاف نحلهم ومللهم على عظمة هذا المكان دليل حى على شرفه وعلو منزلته . وحسبك دليلا على شرفه أيضا ، أن الله سبحانه وتعالى جعله حرما آمنا يأمن فيه الانسان والحيوان بل والنبات ،

وجعل له مواقيت [1] لا يجوز لمسلم أن يجاوزها إلا محرما ، وهى المواقيت التى وقتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوجب الدينُ على من يصل الى هذه المواقيت أن يتق ما نهى الله عنه من الرجس ، والفسق ، والجدال ، وقتل الصيد والإشارة اليه ، بل والدلالة عليه .

ومن دلائل عظمة البيت (الكعبة) اهتمام الملوك من قبل البعثة بقرون بكسوته فقد كساها (تبع) ملك حمير قبل الهجرة بمائتين وعشرين عاما ، كساه بالبرود المقصبة وعمل له بابا ومفتاحا ، وكان خلفاؤه من بعده يكسونه بالجلد والقباطى المصرية ، وتبعتهم الناس فى ذلك حتى كثرت الكساوى وصارت توضع فوق بعضها . وفى زمن قصى كانت القبائل تكسوها ، وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها سنة وقبائل قريش تكسوها ، وكستها والدة العباس بن المطلب ، وقد كساها أشرف الخلق على الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام بالثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان وابن الزبير وعبد الملك بن مروان ، والخلفاء العباسيون كانوا يبالغون فى كسوتها ، وكساها ملوك اليمن كما كساها ملوك مصر .

حكمة مشروعية الحج :

علمت مما قدمناه لك عظمة البيت وأنه موضع الشرف والعظمة ، وقد فرض الله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا فى العمر مرة واحدة ، وهذه الفرضية لحكم عدة ترجع للحاج من أول الشروع فيه الى أن ينتهى منه — منها السفر ، ولا يخفى ما فيه من الفوائد الجمة ، وما يترتب عليه من المعارف ، وما يصحبه من الربح والكسب الماديين والأدبيين ، فقد يكسب مريد الحج اذا هو اتجر مكاسب لا يحصل عليها فى وطنه ومحل إقامته ، ولم يحظر الشارع الاتجار ما دام القصد الحج وقد جاء هو تبعا وقد يكون مريضا فيشفى بتغير المناخ وما يحصل له من الأنس والانشراح بما يقع

(١) المواقيت جمع ميقات . والميقات : الوقت المضروب للفعل والموضع وهو المراد هنا .

نظره عليه من بلدان وبحار وخلجان ، ويكون السفر سببا فى ذهاب وحشة لحقته بموت قريب أو زوج أو ولد ، وناهيك بما يستفيده من يقصد الاستفادة العلمية ، فقد يلقى من يفيده علما وأدبا فينزل له عصم العلوم ويبين له ما شرد عنه من منطوق أو مفهوم ، وقد يروى عنه فى سفره كتابا أو كتبا سواء كانت فى الحديث أو فى غيره من علوم الرواية ، وقد يفيد هو غيره مسائل لم يكن ليستطيع إفادتها للناس لولا سفره للحج ، وقد يطلع على نظم فى التدريس أو فى القضاء أو فى جباية الخراج تفيده وتفيد أمته فوائد جمة لم يكن ليحصل عليها لولا الحج ، وقد يشيد الناس الذين يلقونه بذكره فيعظم شأنه وشأن البلاد التى أنجبته ، وقد يترتب على هذا من الفوائد المادية والأدبية الشىء الكثير ، أضف الى ذلك ما يستفيده من تجارب الأمم حيث يلقى أشخاصا عدة لهم من سعة الاطلاع والعلم الشىء الكثير . واذا حسبت المسافر قائدا من القواد العظام أو عالما من علماء تقويم البلدان أو عالما من علماء النجوم (الفلك) سهل عليك فهم مقدار ما يجنيه لأمته ووطنه من الفوائد العظمى التى نجمت عن سفره للحج ، وما السفر للحج إلا سياحة وضرب فى أرض معينة يستفيد السائح فيها ما يستفيده السياح ، وفوائد السياحة أظهر من أن تذكر . هذه إحدى حكم فرضية الحج الظاهرة والتى كادت تكون محسوسة ، أما الفوائد الدينية فإليك بعضا منها ، وسنذكرها مرتبة على الأفعال التى رأى الشارع أنه لا بد منها فى الحج :

الاحرام :

قال بعض المؤرخين : إن سليمان عليه السلام لما بنى هيكل بيت المقدس أحاطه بحرم ، وقضى بألا يدخله أحد غير قوم معينين ، وقال أيضا : إن الناس فيما تقدم من الزمن كان يحيطون معابدهم بحرم لا يطؤه الغرباء ، وكانت العرب تضرب الحمى لمراعيها وتجعل له حدودا لا تتعداها القبائل الأخرى ، وكان العزيز منهم يتخذ له متسعا من الأرض

يجعله حمى له ، الى أن جاء الاسلام فأبطل عليه الصلاة والسلام كل حمى إلا حمى الله ورسوله . ولقد علمت مما سبق شرحه أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لبيته حرما ومواقيت لا يتعداها من يريد الدخول الى الحرم إلا اذا كان على وصف معين وهو أن يلبي ناويا الحج ، والتلبية أن يقول : لبيك اللهم لبيك ، الى آخر الذكر المعروف ، ويأتي بالأفعال التي تكفلت كتب الفقه ببيانها .

أما حكمة مشروعية الإحرام فتظهر مما يلي ، ذلك أن الحج عبادة الغرض منها القرب الى الله والوصول الى ما أعده سبحانه وتعالى للنفس المحسنة من حسن الجزاء ، ولا يكون ذلك عادة إلا بتجريد النفس عن شهواتها ، وخروجها عن مألوفاتها ، وكفها عن لذائذها ، وقطع علائقها بالأغيار ، وابتغائها حمى مولاها الواحد القهار . ومظهر هذا الاقتصارُ على الضروريات للحياة والتجرد لله سبحانه وتعالى في جميع الحركات والسكنات ولا يخفى أن الشأن في كل من أراد الإقدام على ملك من الملوك أن يجتهد فيما يوصله الى مقصده من الوصول الى حضرة الملك والمثول بين يديه ، فمن أراد الوصول الى علام الغيوب بزيارة بيته ودخول حرمه ، وجب عليه أن يتجرد عما سواه من نعيم الحياة إلا بالقدر الذي يستطيع به مواصلة العمل الذي قصده ، فينخلع مدة الزيارة عن كل أنواع الزينة ، ويندرج في سلك المنقطعين لله انقطاعا تاما ، فيترك الجدل والخصومة ، وينتهي عن كل مانهى الله عنه ، مجتنبا كل ما من شأنه أن يبعده عن الحظيرة القدسية ، مؤاتيا كل عمل يقربه من الحضرة الإلهية .

وبدهي أن من قصد شيئا قصده من الطريق الموصل اليه ، وبما أن قصد الحاج زيارةُ بيت الله فعليه أن يأتي البيت من بابه ، ولا يتأتى له ذلك إلا بكونه على ما شرطه الله لزيارة بيته ، وذلك بموالاة التلبية والدعاء والخضوع لمولاه الذي يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء عمن قصده ، وبما أنه قادم على بيت الله العزيز الذي ذلت له الجبابرة ،

وخضعت له الأكاسرة ، فعليه أن يستكين ويخضع ويذل ذل العبيد ، ليكون ذلك أدعى الى قبوله وإجابة سؤله ، لأن عطف الملوك إنما ينال بعمل ما يطلبون ، والانصياع الى ما يأمرون ، والطاعة والخضوع الى ما به يشيرون .

الطواف — السعى — رمى الجمار :

قدمنا أن القصد من الحج نيل رضاء الله والتمتع بنعيمه والعمل على كل ما يوصل الى تلك الغاية العظمى ، ولا يخفى أن نيل الدرجات لدى الملوك والحصول على عطفهم إنما يكون بامتثال أوامرهم والابتعاد عما يبغضونه ، وأن الحظوة عندهم تتفاوت مراتبها بحسب طاعة العبد وعمله على رغبات مولاه ، فمن امتثل مجانبا البحث وقام بما أمر به دون جدل وبغير بحث فى الأسباب والعلل التى دعت الى الأمر ، كان أقرب من غيره وأكثر حظوة عند سيده ، وكلما بالغ فى الإخلاص نال من الدرجات أسماها ، واذا أمر بأمر ولم يعرف حكمته ولا السبب الباعث اليه فامتثل ، كان مثالا أعلى فى الخضوع ونال رضاء مليكه ، كذلك — من غير تمثيل — يأمر الله عبيده بأنواع من العبادات لا يعقلون كنهها ولا يمكنهم الاهتداء الى معانيها ولا الى فهم الحكمة الداعية لشرعيتها لضعف مستواهم العقلى عن فهم الحكمة ، فمن امتثل وأطاع وذل وخضع واستكان لمولاه واسترقّ لمن أنشاه ، استحق الرضاء التام ، وينال العفو الشامل ، ويبلغ منزلة المصطفين الأخيار ودرجة المقربين الأطهار ، ومن أعرض ونأى بجانبه وتوانى ، كان من المبعدين عن الحضرة ، المحرومين من الحظوة ، واستحق السخط .

هذا النوع من الأوامر يشرع اختبارا للناس ليكونوا شهداء على أنفسهم بأن من خالف نفسه وهواه وخضع لأوامر مولاه استحق رضاه ودخل حظيرة قدسه ، فنال من حسن الجزاء ما كتبه الله للعابدين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، ومن ملكته شهوته وغلبت عليه شقوته واستولى عليه الشيطان واسترق لنفسه

الأمارة بالسوء ، باء بالخسران وكان حقيقا بالحرمان . هذا النوع من العبادات معيار الطاعة ، ومنه أكثر أفعال الحج كالطواف والسعى ورمى الجمار ، شرعها الله ولم تقف على حكمة مشروعيتها ، ابتلاء لعباده واختبارا . فمن جد فى القيام بما أمر به وعمل صالحا كانت له حظوة قبـول ضيافته على مولاه بدخول بيته ، وجوزى الجزاء الحسن وأكرمت وفادته ، ومن قصر أوتوانى عن العمل لم يك فى عداد المحظوظين ولم ينل رضاء رب البيت وشيع باللامنة والسخط (وهذا معنى معروف لدى البشر أنفسهم فى معاملة ملوكهم وكبرائهم) فان من دخل بيت الملك فلم يعمل بالنظام الموضوع للمقابلات أو اعترض على نظام التشريفات ، كان من المغضوب عليهم ولم يفلت من العقاب ، ومن قام بما فرض من النظام وحافظ على تنفيذها بدقة ، نال العطف وحظى بالمكافأة .

على مثال هذه المثل التقريبية شرعت أعمال الحج . واذا كان هذا حال العبيد مع ملوكهم فأحرى بالجميع أن يكون هذا حالهم مع سيد الجميع وملك الملوك ، العزيز القدير ، عالم الغيب والشهادة ، القاهر فوق عباده ، الذى من عرفه حق معرفته أيقن بأن كل فعل من أفعاله جل وعلا للحكمة ، وأن العجز عن إدراكها لا ينافى ثباتها وتقررها ، ومن فطن لهذا فقد فطن للخير أجمع ولم يجعل للشيطان عليه سبيلا يحسّن له الوقوع فى المهواة بدعوته الى البحث عن علل وحكم لا يصل مستوى عقله الى درجة فهمها ، يسول له ذلك ليكون ذريعة لدعوته الى ترك ما يؤمر والوقوع فيما يجب عليه اجتنابه ، حتى اذا وقع قال إنى برىء منك ، وكانت النتيجة المحتمة استحقاقهما معا عذاب النار .

شرع الله الكثير من أفعال الحج ، وأمر الناس بها أمرا تعبدياً لحكمة علمها جل شأنه ، وقد جهد الناس فى تلمس حكم لهذه العبادات فقالوا عن الطواف وقد سماه رسول الله صلاة غير أنه أباح الكلام فيه : إن السر فيه التشبه بالملائكة الحافين حول العرش ، وكانت الأشواط سبعا لما فى السبع من الحكم التى لا يحيط بها إلا علام الغيوب ،

فقد جعل الله الأيام سبعا ، والأفلاك سبعا ، والسموات سبعا ، والأرضين سبعا ، كما التمسوا حكما لغير ذلك من أفعال الحج تعلم من مراجعة كتب الفقه .

الهدى — القربان :

التقرب الى الله بقربان القرابين أمر معروف لدى البشر من وقت بزوغ فجر التاريخ فقدى قرّب ولدا أبي البشر عليه السلام قربانا فتُقبِّل من أحدهما ولم يُتقبَّل من الآخر وكان ما كان بينهما بما قصه الله علينا ، وقد جرى الناس على أثرهما فقربوا القرابين الى الله فى معابدهم . وقد قص علينا القرآن ما كان من أمر الله لخليله بذبح ولده وفدائه إياه بعد بذبح عظيم ، وقد عرضت الديانات المعروفة جميعها للقربان واستقرفيها ، وجاء الاسلام فأقرّ أمره وأبان أنه مشروع ، قال تعالى : (وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ) أى من أعلام دينه ، وبين أن من يعظم شعائر الله كان له أجر كبير ، لأن منشأ تعظيمها ومصدره تقوى القلوب . وقد أرشد الاسلام الى أن الغرض من الهدايا ما يترتب على نحرها وذبحها من نفع الفقراء البائسين ، تسد خلتهم ، ويكفون حاجتهم ، ويشاركون أولى النعمة فيما أنعم الله عليهم ، وأما الحضرة العلية والذات الصمدانية فهى غنية عن العالمين لا ينالها منها شىء ، وإنما تجازى المحسن بقدر ما يحسن من عمل ويقدم من طاعة وعبادة ، قال تعالى : (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ) وقال تعالى : (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَائِسَ ٱلْفَقِيرَ) وفى الآية الأخرى : (لَنْ يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِنْ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنْكُمْ) ولعلك بعد هذا فهمت الحكمة فى مشروعية الهدى والأضحية ، وأن الغرض منه نفع الفقراء وسد حاجة المحتاجين . ولقد أهدى رسول الله الى الحرم مائة من الإبل نحر بعضها بنفسه وأناب عليا كرم الله وجهه فى نحر الباقى ، كما أنه صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين ذبحهما بنفسه .

الوقوف بعرفة :

الركن الثانى من أركان الحج هو الوقوف بعرفة فى التاسع من ذى الحجة، وحدّث عن مزايا هذا الوقوف ما شئت أن تحدث، فهو المؤتمر العام لجميع المسلمين من أى مكان يجتمع فيه الهندى والسندى والعراقى والجاوى والمكى والمدنى والشامى والمصرى، تجتمع فيه سائر وفود الأقطار الاسلامية فيقفون فى صعيد واحد كأنهم بنيان مرصوص يدعون الله ويجأرون بالتلبية، هذه الطوائف من الخلق مع اختلاف مشاربهم وتباين لغاتهم واختلاف أجناسهم اتحدت وجهتهم فوقفوا يسألون الواحد التواب غفران الذنوب وستر الخطايا والعيوب. هذا الموقف الذى يتساوى فيه العظيم مع الحقير والكبير مع الصغير كلٌ يسأل الرحمة ويطلب المعونة. هذا الموقف الذى تظهر فيه المساواة بين الناس أعظم مظهر، ويمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها، تقف فيه الوفود خاضعة خاشعة ذليلة تستدر الرحمة وتستندى البركة فى لباس أقرب الى لبس الأموات منه الى لباس الأحياء، خرجوا وقد جردوا نفوسهم من أردية الباطل وثياب التمويه وأخلصوا النية لربهم. قوم هذا شأنهم وذاك وصفهم جديرون بأن الله يتقبل دعاءهم وينيلهم مبتغاهم، ونادوه جميعاً مخلصين له الدين بصوت يصعد من القلب الى عنان السماء : لبيك اللهم لبيك، قوم يقصدون واجب الوجود الملك المعبود فينفرون وهم جازمون بقبول سؤلهم ونيلهم متمناهم، فتستقر الفضيلة فى نفوس من وقف لقبول الحج.

وحسبك هذه الفضائل فى مشروعية الحج وفائدته، فاذا أضفت الى هذا أن اجتماع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها فى مكان واحد أمر فيه المصلحة كل المصلحة لهم لأن التفاهم بيعضهم يقربهم من بعضهم، وبه يتعرف كل منهم حاجيات صاحبه وما هو عليه فان كان خيراً استزدوا منه وإن كان الثانى عملوا على إزالته وفكروا فى الخروج منه. وبهذا تصلح الأمم الاسلامية وتتوحد كلمة المسلمين فى العمل للخير وخير العمل، وتلك فضيلة كبرى من فضائل الحج لو لم يكن إلا إياها لكفت فى حكمة مشروعيته.

وحسبنا هذا، فان هذه العجالة لم تتسع لأكثر منه، والله اعلم ؟ طه حبيب

رابطة الثقافة الاسلامية

بفيـــــــــــنا

ورد إدارة المجلة ما يأتى :

تأسست رابطة الثقافة الاسلامية فى فينا فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٣٢ بعد تصريح الحكومة النمسوية بإنشائها طبق للقانون المدنى النمسوى . وتتلخص أغراض الرابطة فيما يلى :

(١) نشر الثقافة الاسلامية وبث الدعاية لها فى الغرب .

(٢) حماية الاسلام والدفاع عنه ضد المطاعن التى يوجهها اليه المتعصبون وغير المنصفين من الكتاب الغربيين ، وتفنيد مزاعم دعاة الاستعمار .

(٣) تنوير أفكار الأوربيين عن حقيقة الاسلام وثقافته ومدنيته .

(٤) توثيق عرى الإخاء والمودة وتبادل المنفعة بين الجاليات الاسلامية فى مختلف الأقطار الأوربية ، والعمل على صون حقوقهم وترقية شئونهم الدينية والاجتماعية .

وقد انتخب البارون عمر رولف أيرنفلز المسلم النمسوى والكاتب الشهير رئيسا للرابطة ، والأستاذ أحمد الحفنى بك وكيلا ، والدكتور زكى على مؤسس الرابطة سكرتيرا عاما ، والسيد محمد على البنى من التجار أمينا للصندوق . وكذلك انتخب المسلم المجاهد الدكتور خالد شلدريك رئيس الجمعية الغربية الاسلامية بانجلترا رئيس شرف للرابطة ، وكان ذلك فى اجتماع الرابطة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٢

« مجلة نور الاسلام » :

يسرنا أن تتألف فى فينا رابطة إسلامية تعمل لهذه الأغراض النبيلة ، ونذكّر حضرات رئيسها وأعضائها بالاحتراس من الفرقتين الخارجتين على الاسلام : البهائية والقاديانية ، فان اتصال الرابطة باحدى هاتين الفرقتين ، يفسد عليها أمر دينها ، ويزرى بمكانتها ، وينحرف بها عن سبيل رشدها ، ونرجو للرابطة بعد هذه النصيحة التوفيق والنجاح .

الاسلام فى السودان[1]

انتهينا فى الجزء الماضى من المجلة بإيراد الإحصائيات الأخيرة عن المسلمين فى البلاد السودانية ، كما كشفنا عن مستقبل الديانة الاسلامية فى هذه النواحى النائية من المعمورة . ونحصر اليوم أبحاثنا فى أسباب انتشار الاسلام فى هذه الجهات وأثره فى حياة أهلها من النواحى الاجتماعية والأدبية والاقتصادية .

لا يحتاج الباحث الى جهد أو عناء كبير لاكتشاف المزايا العديدة التى أوجدها الاسلام فى سكان هذه البقاع التى جعلت من يدينون به من أصحاب السلطان والنفوذ فى الهيئة الاجتماعية ، هذا وإن القبائل الأكثر حضارة واستعدادا للثقافة هى التى تُقبِل على الدخول فيه ، فاننا نرى جميع الحاميين من أنصار الديانة الاسلامية بدون استثناء ، ولا زالت الأخبار ترد عن إسلام الأذكياء من غيرهم الذين بدخولهم يكونون قدوة للقبائل الأقل حضارة والبعيدة عن العالم المتمدين .

إن مزايا الإســلام واضحة أمام الأهالى الوطنيين وضوحا تاما ، كما أن هناك عوامل كثيرة مختلفة ساعدت على تمهيد طريق انتشاره ، بل كان من المنتظر أن تلاقى من النجاح أضعاف ما تراه اليوم .

انتشر الإسلام فى الأراضى السودانية من تلقاء ذاته وبدون أى مجهود يذكر ، ويكاد يكون انتشاره فى جميع الجهات والأزمان نتيجة تطورات أخرى رئيسية ، إما سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، هذا الى أن فتح الاسلام كان فى آونة نهضة فكرية

(١) مترجمة عن الالمانية نقلا عن مقال للاستاذ « ديدريش وسترمان » فى « مجلة العالم الاسلامى » الالمانية .

اتجهت فيها الأذهان الى المطالبة بديانة ثابتة لدعائم صحيحة الأصول ، ولم يتمكن الباحثون من معرفة أصل نشأة هذه الحركة الفكرية ، ولكن التطورات المستمرة كانت تدل دلالة واضحة على أغراضها .

وكانت غالبية غزاة السودان من البربر والفولبا المسلمين الذين ساعدوا على انتشار الاسلام بين قبائل السود الوثنية بفتوحاتهم الباهرة ، حتى تجلت الأهالى الامتيازات الكثيرة التى يتمتع بها المسلمون من حرية وإخاء ومساواة ، فكانت سببا فى أن نفر أغلبهم من عبادة غير الله ، ولكن لسوء الحظ كانت هناك بجانب تلك الفتوحات العظيمة بعض الحروب الدنيوية تشن على الأهالى الوطنيين الوثنيين باسم جهاد دينى ولكن الدافع الأصلى لها هو الحصول على العبيد للاتجار فيهم ، فمثل هذه الغارات كانت تنفر الأهالى من الاسلام حتى إنها لو خضعت له فى كثير من الأحوال هربا من الوقوع فى تجارة الرقيق ، فانهم لا يلبثون أن يعودوا الى وثنيتهم فى أول فرصة تسنح لهم ، كما أنها كانت سببا فى تقوية العقيدة الوثنية فى كثير من القبائل الوثنية القوية القائمة على نظام وتاريخ قديم ، خصوصا وأن قوة الفاتحين كانت تضعف أمام تلك الأغراض الدنيوية حيث تتفرق وحدتهم طمعا فى المال وحبا فى الاستئثار بفوائد تلك التجارة الرابحة ، فكان كل كبير من الفاتحين ينتهز فرصة لانسلاخه من الوالى حتى يستقل فى عمله غير مبال بنشر الدين الذى قد يكون عائقا له فى عمله من حيث تحريم تجارة الرقيق بين المسلمين .

أما فى الجهات الأخرى التى دخلها الاسلام بقواعده الصحيحة وتعاليمه الدينية العالية ونظمه الاجتماعية الثابتة وظهرت ميزاته العقلية والسياسية ، فكانت قوة تأثيره فى الأهالى بالغة حتى لقد دخل فيه لوثنيون والكفار بإيمان صحيح وعقيدة ثابتة لا تتزعزع ، فنهضت العزائم واستنارت العقول وظهر طور تقدم فى كل شئون الحياة

مثل ما تم فى سكان الماندينجو القدماء وأهالى بورنو وباجيرمى ، ولو لم تقع تلك الأقاليم بعد ذلك تحت حكم الاوروبيين لما عاق انتشار الاسلام عائق ولكان للاسلام شأن آخر فى البلاد السودانية أكثر وأقوى مما هو عليه اليوم .

ومن العوامل السياسية التى ساعدت على انتشار الاسلام وتقوية دعائمه فى تلك الأقاليم تدخل القبائل الاسلامية فى الأوساط الوثنية بطرق سلمية ، كما تم لهم ذلك فى السودان الغربى حيث دخل المهاجرون البربر من الشمال وأقاموا شعائرهم الدينية وتقاليدهم الاسلامية فى روعة وبهاء ، حتى دخل الأهالى الوثنيون فى دين الله أفواجا . وبنفس الطريق دخل الاسلام فى كثير من الجهات الأخرى بواسطة أعراب التوارج والفولبا وخصوصا بواسطة الأخيرين فإنهم بذلوا مجهودا كبيرا فى الدعاية للاسلام ونشر تعاليمه .

أما العوامل الاجتماعية التى ساعدت على نشر الديانة الاسلامية فى تلك الأقاليم فكانت أقوى حجة وأنجح أثراً ، إلا أنها لا تعتبر سببا أوليا مثل العوامل السياسية حيث إنها كانت تعمل على انتشار الدين بطرق بعيدة ، ولكنها كانت فى كثير من الأحوال تأتى بنتائج أنجح من العوامل السياسية الأولى ، فان الاسلام كان ولا يزال فى نظر أهالى السودان يعتبر مرتبة عالية من الثقافة والتحضر بالنسبة لعباداتهم القديمة ، حتى من جهة الاعتبارات الجنسية ، فان رافعى لواء الاسلام من أصل أقدم حضارة من الجنس الأسود ، فإنهم قدموا الى بلادهم ولهم دراية بفنون الحرب والزراعة وتربية المواشى والطرق التجارية ، ومن خصالهم الشجاعة والكرم والأمانة ، ومن عوائدهم النظام وسياسة البلاد والعدل بين الناس ، والكثير منهم يجيد الكتابة والقراءة ، وآخرون جابوا البلاد الأجنبية ، وعلى اتصال وثيق بتجار أجانب يتبادلون معهم البضائع الغريبة التى لم يسبق لهم بها معرفة ودراية ، فزادت بها خيرات

البلاد وساعدت على زيادة الرخاء والرفاهية واستكمال أسباب الراحة والطمأنينة . كل هذه الميزات جعلت المسلمين هناك مثال التقدم والحضارة ، فارتاحت إليهم الأهالى ، وأحبت معاشرتهم ، وأخذت عنهم الكثير من تقاليدهم وعوائدهم ، وتعلموا عنهم فرائض الدين بعد أن احتقروا عباداتهم القديمة .

وكان من طبيعة التجارة فى قلب أفريقا أن التاجر المسلم من الماندينجو أو الهوسا الذى يتعامل مع الأهالى لا بد له من الإقامة فى أوساطهم والاختلاط الكلى بهم فيظهر تفوّقه عليهم من نواحٍ حيوية متعددة فى مأكله وملبسه ومسكنه وطرق عبادته مما جعل الأهالى ينظرون إليه نظرة احترام ويحسبون حسابه فى كل مقام ، فكان التاجر الفطن والعالم الدينى يلقى الإكرام الزائد فى بيوت رؤساء القبائل الوثنية ، وكانوا يظهرون علمهم وتجاربهم فى الحياة لتعزيز شوكتهم وتقوية مراكزهم ، فأصبح وجودهم فى تلك الديار مما يعود على أهلها بالمنفعة العظيمة ، وبذا تمكنوا من مساعدة من يلوذ بهم ويلجأ الى حمايتهم ويشاركهم فى عقيدتهم الدينية ، فعلت كلمتهم وزادت سلطتهم وارتفعت منزلتهم وخشيهم الصغار والكبار وخجل الأهالى من القيام بشعائر دياناتهم الوثنية أمامهم ، وبدءوا يشعرون بميل وعطف نحو الديانة الاسلامية خصوصا بعد زيادة اختلاط المسلمين بهم بالتزاوج والمصاهرة مما جعل كثيرا من أُسَر الوثنيين وأقاربهم وأولادهم من بعدهم يدخلون فى الديانة الاسلامية بعد أن ظهرت لهم محاسنها وتجلت أمام ناظرهم أغراضها ، فانتقلوا الى طور جديد من الحضارة بدأ بتغيير أزيائهم ثم باتباع بعض قواعد الديانة وأصول العبادة .

كثر التزاوج بين رجال المسلمين والنساء الوثنيات فى كل النواحى التى زحف إليها الفاتحون للتجارة ، خصوصا وأن أغلب المهاجرين كانوا من الرجال ، ولو أنه بادىء ذى بدء كانت تقوم بعض الصعوبات أمام إتمام مثل هذا الزواج ، إلا أنها أخذت

تتضاءل وتزول بعد فترة قصيرة من المعاشرة ، وبسبب رغبة الأسر الوثنية فى تحسين حالتها المادية والاجتماعية .

وقد ساعدت الفتوحات العظيمة كذلك فى انتشار الاسلام بسرعة فائقة فى داخلية البلاد ، حيث كان الوالى يقسم الأراضى على الضباط الفاتحين والموظفين المالكيين لزراعتها وإدارة شئونها الداخلية وجمع الخراج ، كما كان يخص كلا من هؤلاء الضباط والموظفين بعدد كبير من الأهالى الوطنيين للقيام بخدمة الأرض واستغلال مواردها الطبيعية ، فكان شأنهم مع كبيرهم شأن الوالى مع سيادهم : يتزلفون إليه ويتقربون منه جهد طاقتهم ولا سبيل لهم فى ذلك إلا بدخولهم فى دينه . ولقد تمكن ٥٠ ألفا من الفولبا المسلمين من جعل مالا يقل عن ٢٤٥ الفا من العبيد الوثنيين يدخلون فى الاسلام فى فترة قصيرة ، لتسلطهم عليهم فى الحكم من جهة ، وطمعا من الآخرين فى تحسين أحوالهم المادية والاجتماعية من جهة أخرى .

على أن الاسلام كان له اليد الطولى فى تحرير قبائل كثيرة وتخليصهم من الرق والاستعباد ، فان التنازع بين الطبقتين : طبقة العمال ، وطبقة أصحاب الأعمال قديم فى أفريقيا مثل قدمه فى الممالك المتحضرة ، وكثيرا ما أفاد إرشاد الوعاظ المسلمين فى الطبقات العاملة فى إطاعة أولى الأمر منهم ، وفى رد الملاك عن غوايتهم ، وقد كللت أعمالهم فى كثير من الجهات بالنجاح ، فتمكنوا من توحيد كلمة المزارعين من قبائل اليولوف لمقاومة المتعسفين من الطبقة المالكة ، وأحدثوا انقلابا اجتماعيا خطيرا ، وتولوا الزعامة فيهم ، وقادوا الفلاحين المهضومى الحقوق ، حتى تمكنوا من تحسين أحوالهم واستعادة حقهم من رؤسائهم الوثنيين الذين ضاعت سلطتهم وقلت مواردهم وزالت دولتهم ، وبذا كسبوا محبة الأهالى الزراع واستمالوا قلوبهم ، فزاد بهم عدد المسلمين زيادة مطردة ، واضطر الرؤساء الباقون الى الدخول فى الدين الاسلامى خوفا من انقراض سلطانهم ونضوب موردهم .

وقد نسج الوعاظ المسلمون على هذا المنوال فى نواح متعددة لإرشاد الطبقات المهضومة الى حقوقها الاجتماعية ، وأوضحوا لهم السبل بالتعاون والإخاء ، فاكتسبوا بذلك جماهير غفيرة لدينهم ، وساعدوا فى توطيد حياة اجتماعية راقية .

أما الدعاية الدينية البحتة للاسلام فلم يكن لها نصيب كبير فى السودان مثل ما كان للعوامل السياسية والاجتماعية ، فانها كانت نادرة فى أحوال وجهات كثيرة ، واذا وجدت فانها كانت غير منظمة وعلى غير اتصال مركزى وثيق ، ولا يمكن اعتبار ما يصادفه الانسان من حين لآخر من وعظ وإرشاد حركةَ دعايةٍ منظمة للاسلام مثل حركات التبشير المسيحية بأى حال من الأحوال ، ولقد بدأ بعض أقطاب المسلمين هناك منذ بضع سنين فى تنظيم الدعاية لدينهم ، ولكن الهيئات المشرفة على هذا العمل الكبير يعوزها التجربة والمال بحيث لا يرجى لعملهم التوسع ، بل يخشى عليه فى جهات متعددة من عدم الاستمرار والبقاء .

وقد يصادف الانسان من وقت لآخر بعض أغنياء المسلمين المهتمين بنشر الدين ، فيقومون بالوعظ فى الجماعات الصغيرة فى مناسبات مخصوصة ، أو يهتمون بتشييد مسجد جديد أو تعمير آخر قديم أو انشاء مدرسة لتعليم القراءة والكتابة العربية وتحفيظ القرآن ، ولكن ذلك لا يتعدى المجهودات الفردية ، فلا ينتظر لها ثمر كثير .

وأما التوسع فى الفقه وأحكام الشريعة فيكاد لا يخرج عن المنتديات الضيقة على شكل مناقشات وجدل بين العلماء ، ولا يتعدى ذلك الى الكتابة والنشر مثلا ، ولذا كانت معلوماتهم وثرواتهم الأدبية من هذه الناحية قليلة ولا تقاس بها فى البلاد الاسلامية الأخرى .

وقد يكون لمركز المسلمين الاجتماعى من حيث نفوذهم عند رؤساء القبائل وعند الأوربيين المستعمرين الفضل الأكبر فى دخول الكثير من الأهالى فى دينهم ،

لأن المجهود الذى يبذلونه للدعاية الدينية البحتة لنشر الاسلام يكاد لا يذكر له أثر فى إقناع الوثنيين للأسباب لسالف التنويه عنها، بعكس ما يظهر لهم من مركز اجتماعى سام وجانب سياسى عزيز يترك أثراً ظاهراً فى الوثنيين ويحملهم على تقليدهم والدخول فى زمرتهم .

ولقد نشطت أخيرا حركة الدعاية الدينية للإسلام عند بدء الاستعمار الأوربى فى السودان ، الذى قضى على العوامل السياسية فى نشر الإسلام وأصبحت الدعاية الدينية والعوامل الاجتماعية هى الوسائل الوحيدة التى يمكن أن يجاهر بها المسلمون فى أعمالهم لتوسيع مدى سلطانهم الدينى ، بله ما يقومون به سرا من أعمال سياسية لنشر ديانتهم .

ولقد قضى الاستعمار الأوربى على التنازع الدائم بين الملاك والمزارعين العمال الذى كثيرا ما استغله المسلمون لمصالحهم فى نشر الدين ، فانه جعل الجميع سواء أمام القانون وأزال امتيازات أصحاب الأعمال والملاك ، ولقد عرف المسلمون كيف ينتفعون من هذه الحال بأن بدءوا دعايتهم للدين فى السلم والسكون ، وساعدهم على ذلك تحسن حالة التجارة منذ ذلك الحين على يد الأوربيين ، فكانوا أول من انتفع بالمزايا الإدارية التى أدخلها المستعمرون .

ولقد عُنى المستعمر الأوربى بالمسلمين عناية خاصة من هذه الوجهة ومنحهم امتيازات عديدة لمساعدتهم له فى تنفيذ الأحكام وضبط الإدارة ، فكان ذلك مما حبب الكثير من الأهالى فى الدخول فى الدين الإسلامى .

كما أن اعتراف الحكام الأوربيين بالدين الاسلامى والسماح لأهله بالقيام بشعائر ديانتهم واحتقارهم للوثنية وإغفالهم شأنها : كل ذلك جعل الأهالى يقبلون على الاسلام ليتمتعوا بامتيازاته الكثيرة ، ونرى أثر ذلك فى ظاهرتين هامتين ، هما أولاً — اعتبار

أعياد المسلمين أعيادا وطنية . وثانيا — تشييد المدارس الإسلامية والصرف عليها من الايرادات العامة ، يشترك فيها الوثنى مع المسلم فى دراسة الديانة الاسلامية ويتلقن تعاليمها فلا يلبث أن يهجر ديانته القديمة البالية وينضم الى الدين الإسلامى الممتاز .

يتضح لنا من كل ما سبق ذكره أن أهم العوامل التى ساعدت على نشر الدين الاسلامى بين الأهالى الوطنيين فى الاقاليم السودانية فى أواسط أفريقيا هى العوامل الاجتماعية ، فان الأهالى كانت تعقد الآمال الجسام على التحرير السياسى والائتلاف بدخولهم فى الاسـلام ، إلا أن السبب المهم والدافع الأول لهم على ذلك كان طمعهم فى تحسين حالتهم الاجتماعية ، وهـذا الرجاء كان ولا يزال أهم العوامل التى تساعد على حمل الأهالى على تغيير عقيدتهم الدينية خصوصا بعد عهد الاستعمار الأوربى الذى جعل الأمل فى ذلك كبيرا كما سبق لنا تفسيره .

وقد ظهرت منذ عهد الاستعمار الأول حركة جديدة بين الأهالى ترمى الى طموحهم الى تغيير حالتهم بعد أن ظهر لهم تفوق الأجناس الأخرى عليهم ، فبدءوا يتعلمون من تلك الأجناس الممتازة ، حباً فى مجارات التيار العالمى الحديث والانتفاع به .

وبديهى أن أول من اتجهت اليه أنظارهم للأخذ عنه كانوا هم الأوربيين الذين هم أصل نشأة الانقلاب والتطور الجديد ، فعملوا جهد طاقتهم للاتصال بهم والأخذ عنهم وتقليدهم فى كثير من أمور الحياة ، ولذلك كان الطابع الأوربى ظاهر فى الجهات التى لم يتمكن الاسـلام منها مثل المقاطعات الساحلية فى الكمرون ونيجيريا وتوجو وساحل الذهب ، وكذلك فى بعض جهات سيراليونا وغامبيا ، فقويت هناك حركة التبشير المسيحى وزاد أتباعه ، خصوصا وأن حكومات الاستعمار ساعدت فى تقدم الدعاية والتبشير ، وفى تلك النواحى بدأت تذبل الثقافة الاسلامية ويضعف أثر الاسلام أمام المزاحم الجديد .

أما فى الجهات التى تقدم فيها الاسلام تقدما محسوسا وزاد عدد أتباعه ووصل الى درجة من السلطة والنفوذ يصعب لديانة جديدة مزاحمته فيها ، فإن الحال لم تتغير فى تلك المناطق بالرغم من الاستعمار الأجنبى ، خصوصا وأن الدول الحاكمة كانت تعنى بالمسلمين فى هذه البلاد عناية خاصة لأنهم يكوّنون الطبقة المتعلمة التى كانت تساعدهم فى إدارة الشئون الداخلية والتجارة والتعليم كما سبق لنا ذكره آنفا ، وكان ذلك من دواعى تعلق الأهالى بالاسلام والمسلمين والإقبال على دينهم للتمتع بالمزايا العديدة مثل التعليم فى المدارس الدينية والانتفاع بالقضاء العادل والمساواة فى المعاملة والاشتراك فى الأعياد الأهلية الاسلامية .

ومما ساعد على انتشار الاسلام فى بلاد السودان بهذه السرعة الفائقة أن هذه الديانة دخلت الى بلادهم وهى ليست غريبة عنهم ، دخلت اليهم فى ثوب إفريقى لا يستهجنونه ، فالأعراب حاملو لواء الاسلام أقرب اليهم من الأوربيين بمراحل ، خصوصا وأن طرق معيشة المسلمين وحالتهم الاجتماعية وديانتهم توافق فطرتهم تمام الموافقة .

هذا فضلا عن أنهم بدخولهم فى الدين الاسلامى يصبحون مباشرة أعضاء فى الهيئة الاجتماعية الراقية ، مثلهم مثل المسلمين الأصليين سواء بسواء : لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما للآخرين وعليهم بدون تفرقة ، فيشعرون بدخولهم فى طور جديد من حياة راقية ، ويزدادون ثقة واحتراما لأنفسهم ، لانضمامهم الى ديانة عالمية لها مركز يباهون به أمام الأوربيين ، وهذا ما لا يصلون اليه إذا هم اعتنقوا الديانة المسيحية الغريبة عنهم من المبدأ الى النهاية ، فانهم لا يشعرون بانضمامهم الى الغربيين كأعضاء أسرة واحدة ، بل يبقون غرباء مهما طال عهدهم بديانتهم ، لأن المبشرين المسيحيين لا يعرفون كيف يدخلون عليهم العقيدة الجديدة بانسجام يوافق فطرتهم وطبيعة أميالهم ، بل إنهم يجتهدون فى استئصال القديم من جذوره وغرس الجديد على علاته ، وبذا يجعلون منه

صورة ممسوخة للأوربى الذى لن يتيسر له الاندماج معه فى الحياة الأدبية والاجتماعية ، فى حين يعمل الاسلام على ترقية مداركه ورفع مستوى تفكيره مع محافظته على إفريقيته، ولهذه الأسباب كلها فاننا نجد اليوم أن أغلب الأهالى الذين اعتنقوا النصرانية ، يميلون بفطرتهم الى العادات الاسلامية ، أو يهجرون دياناتهم المسيحية للدخول فى الدين الاسلامى ، لشعورهم بالمساواة فى الحياة الاجتماعية مع المسلمين ، ولن يجدوا تلك المساواة والاعتبار فى الأوساط الأوربية المسيحية . «يتبع»

شكر عالم غيور

وردت إدارة المجلة رسالة من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ أبى النصر مبشر الطرازى[1] الموظف بالترجمة والتأليف فى دار التحرير الشاهى (الديوان الملكى) والعضو الافتخارى للجمعية الأدبية فى « كابل » عاصمة الأفغان ، وضم فضيلته الى الرسالة قصيدة بليغة ، وعزز القصيدة بكلمة فى الثناء على خطة مجلة « نور الاسلام » واستنهاض العلماء للقيام بمهمتهم الدينية وهى إرشاد الأمة الى ما فيه عزها فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة ، فنشكر فضيلة الأستاذ على غيرته الخالصة ونصيحته الغالية .

(١) كان الأستاذ عضوا للوفد الافغانى الى الحجاز سنة ١٣٤٩ ومدرسا فى المدرسة ﻻ كانية للحديث والعقائد والمحاورة العربية ، والتفسير والادبيات العربية .

كتاب جديد عن الاسلام[1]

أهدانا حضرة الأستاذ الدكتور « ج . كامبفماير » المستشرق الألماني الشهير كتاب « مصير الاسلام » . عني بجمعه لأستاذ « هـ . ا . ر . جيب » أستاذ اللغة العربية بجامعة « لنـدن » . وهو بحث في اتجاه الأفكار الحديثة في العالم الاسلامي . ويشتمل على مقدمة وخمسة فصول : (الأول) عن أفريقية : للأستاذ «لويس ماسينيون» بجامعة باريس . و(الثاني) عن مصر وآسيا الغربية : للأستاذ الدكتور « ج . كامبفماير » بجامعة برلين و (الثالث) عن الهند للقائمقام « لفتننت كيرنل » م . ل . فيرار . من كبار ضباط الجيش الهندي المتقاعدين . و(الرابع) عن أندونسيا : للأستاذ «س س . بيرج» بجامعة ليدن . و(الخامس) عن مصير الاسلام للأستاذ «هـ . ا . ر . جيب» بجامعة لندن .

وهي محاضرات قام حضرات الأساتذة المشار إليهم بإلقائها بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن في نوفمبر سنة ١٩٣١ . وقد رأينا أن ننقل لقراء « مجلة نور الاسلام » بعض ما جاء في هذه المحاضرات ، ونبدأ اليوم بمحاضرة الأستاذ الدكتور « كامبفماير » عن مصر وآسيا الغربية :

قامت في العالم الاسلامي أخيرا حركات أخذت في الانتشار لم تكن معروفة بتاتا حتى السنوات الأخيرة ، فقد تنبهت به عوامل خلقية ودينية كثيرة لا ندحة من الوقوف عليها والإحاطة بها . وإننا كلما أمعنا في استكناه حقيقة هذه العوامل وقوتها بعد درس الحقائق المتعلقة بها دراسة تفصيلية ، كلما زدنا أهلية للحكم على التطور

---

(١) مترجمة من الانجليزية .

الذى يحتمل أن تبلغه والأثر الذى قد يكون لها فى المستقبل . وان بحثا علميا من هذا القبيل لا يخلو فى الوقت عينه من فائدة عملية .

أما البلاد التى سيشملها بحثى فهى :

مصر ، وبلاد العرب ، والعراق ، وفلسطين ، والشام ، تركيا ، فارس ، الأفغان ولكل من الثلاثة البلاد الأخيرة صفات خاصة يختلف فيها بعضها عن بعض وعن باقى البلاد المذكورة من قبل ، فالفة كل منها قلّما تفهم فى الأخرى أو فى باقى بلاد العالم الاسلامى ، كما أنه ليس بهذه البلاد نهضات إسلامية تجتذب إليها البلاد الأخرى أو أى بلد من بلاد الاسلام ؛ والحال على النقيض من ذلك تماما فيما يختص بمصر وبلاد العرب والعراق وفلسطين والشام ، فهذه البلاد لها صفة هامة تشترك فيها جميعا .

فالعربية هى لغة التخاطب فيها كلها ، كما أنها اللغة التى يتكلمها سكان شمال أفريقية وكثير من الجاليات العربية المنتشرة فى أنحاء العالم . هذا الى أن العربية من حيث هى لغة الاسلام الخاصه تدرس فى العالم الاسلامى ، وتفهم فى بلاده من الاطلانطيق الى الهند وجاوة الى حد كبير مما يسهل انتشار الأفكار الروحية الى ما وراء حدود البلد التى نشأت بها .

ويساعد على انتشار الأفكار الروحية هذه عوامل مختلفة ، وأقوى هذه العوامل الصحافة العربية الراقية ، وعلى الخصوص صحافة القاهرة المركز الفكرى للعالم الاسلامى . كذلك يقوم الحج بنصيبه فى الاتصال الروحى بين بلاد الاسلام المختلفة . وفضلا عن نشاط الصحافة فما يساعد بصفة خاصة على نمو التطور الاسلامى العام والأمانى الاسلامية فى بلاد الشرق الأدنى المتكلمة بالعربية : أو على التحديد — المساحة التى تشغلهامصر ، وبلاد العرب ، والعراق ، وفلسطين ، وسوريا — مجاورةُ هذه البلاد بعضها لبعض ، وتقدم طرق المواصلات . فاذا ما قامت بإحدى هذه البلاد حركات إسلامية خطيرة ، فمن السهل أن يتصور الانسان مبلغ أثرها وما قد يكون لها من أهمية .

وإنى أريد بادئ ذى بدء توجيه النظر الى الحركة التى قامت بمصر وهى تصور الحالة الفكرية الحاضرة — ليس فى مصر فحسب — بل وفى جزء كبير من العالم المتكلم بالعربية، خير تصوير.

وقد بدا لى أنه من المجدى أن أقف الجانب الأكبر من كتابتى على بيان مختصر شامل بقدر الإمكان عن جمعية الشبان المسلمين لما يلقيه ذلك من النور على المسألة التى نحن بصددها، وهنا أتى الأستاذ الكاتب على نظام هذه الجمعية وشروط العضوية العاملة بها، وتكلم عن رئاسة الجمعية ومجلس إدارتها وأعضائه، وأشار الى المنزلة الكبيرة التى لأعضاء مجلس الإدارة، وأنهم يمثلون نواحى هامة من نواحى الحياة المصرية القومية: فبينهم موظف بوزارة المعارف، وممثل للصحافة المصرية، ومدرسون من مدرستى المعلمين والحقوق وجامعة الأزهر الشهيرة، وثلاثة من الشبان يعرفهم الكاتب معرفة شخصية تلقوا العلم بجامعات أوربية: أحدهم بلندن، والثانى بجنيف، والثالث بفينا، ويمثلون العلم الانجليزى والفرنسى والألمانى. ثم تكلم الكاتب عن أغراض الجمعية وأشار الى التقدم العظيم الذى بلغته والى أثر هذه الحركة وأهميتها فى الوقت الحاضر والمستقبل ثم عطف على مجلة الجمعية التى تعبر عن آرائها، وأتى على بعض مقالاتها، وأفاض فى ذكر أعمال الجمعية ونشاطها فى مصر وخارجها، ثم تساءل الكاتب عما إذا كانت الجمعية حركة فردية أو أن هنالك اتجاها قويا يتفق ونزعات الجمعية ويتيح له (للكاتب) الكلام عن الاتجاه العام للأفكار الاسلامية بمصر، وقال فى النهاية: إن ذلك هو الواقع.

ثم انتقل الكاتب الى الكلام عن الاسلام بمصر فقال:

إن الاسلام محتفظ بمنزلته الكبيرة فى مناحى الحياة العامة بمصر، وفى أحكام القانون الأساسى للدولة (الدستور)، وفى الحياة النيابية، وفى التشريع، وفى التعليم وفى كل مظاهر الأميال الاجتماعية — ومن خاصيات هذا التطور — إذا اعتبرناه

بجملته – أنه قد توفر به شيئان : أحدهما التمسك بكل ما هو أساسى فى الاسلام ، والآخر اتساع فى مدى الأفكار يسلم بضروريات الحياة الحديثة ويكشف عن استعداد لقبول الإصلاح المعقول .

فقد نصت المادة ١٤٩ من القانون الأساسى المصرى بتاريخ ١٩ إبريل سنة ١٩٢٣ على أن الاسلام دين الدولة ، وقد غير هذا القانون واستبدل به آخر بتاريخ أكتوبر سنة ١٩٣٠ ، ولكن المادة ١٤٩ لم يتناولها التعديل كما حصل لمثل هذه المادة بالقانون الأساسى التركى .

وقد ناقش أعضاء مجلس النواب المصرى فى تعديلات بعض جزئيات الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالأوقاف ، وقررت الحكومة البعض الآخر بطريق التشريع ، ومن هذا التعديل قانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ الخاص بإعادة تنظيم الأحكام بالمحاكم الشرعية وتحديد اختصاص القضاة ، والاقتصار على قضايا الأحوال الشخصية والمواريث ، كما سنّت الحكومة بعض نظم فيما يتعلق بالزواج كرفع سن الزواج للزوجات الى ١٦ سنة وللأزواج الى ١٨ سنة ، ولكن على الرغم من هذه الإصلاحات فإن نظام الأحكام الدينية (الشرعية) محتفظ به كما هو محتفظ باليمين الشرعى الذى يرجع الى التنزيل السماوى .

وقد لقيت مبادئ الإسلام فى مناقشات مجلس النواب عن نظم الإسلام الشرعية كل تجلة واحترام من النواب ، وقد انبرى من بينهم مدافعون متحمسون عن هذه المبادئ كلما أتاحت لهم الفرص ذلك .

هذا وهناك دائرة التعليم العام ، فقد عنيتُ عناية خاصة حينما كنت بمصر عام ١٩٢٨ بنوع التعليم ، واطلعت بوزارة المعارف على مناهج المدارس العامة ، وزرت شخصيا أنواع هذه المدارس : من روضة الأطفال ، وابتدائى ، وثانوى للبنين والبنات ، وحضرت

الدروس التى تلق ، وقد أعجبت كثيرا برقى مستوى هـذا التعليم وبالغيرة التى تبذلها الحكومة والأساتذة والطلبة فى هذا التعليم وبالنتائج التى وصلت اليها .

كذلك أفرد جزء من التعليم للألعاب الرياضية ليشب الجيل الجديد قويا سليما . ويجدر أن نلاحظ أن الحكومة تعمل تدريجيا على تعميم التعليم الإجبارى فى أنحاء البلاد .

فليت شعرى ماذا تكون حالة الحية القومية المصرية عندما يزداد نشاط العقول الذكية المواهب الأدبية التى أوتيها المصريون برقى التعليم العام على النحو الذى وقفت عليه عام ١٩٢٩ .

وفوق ذلك فثمت الحركة الخاصة بتعليم المرأة وحقوقها ، يستعمل القائمون بها كل حصافة وفطنة . ثم استطرد الكاتب الى الكلام عن أهمية تعليم المرأة فقال : إن أهمية تعليم المرأة من الأمور المسلم بها بمصر لما لها من الأثر فى العائلة ، وقد بحثت جمعية الشبان المسلمين هذا الموضوع كثيرا ؛ على أن هناك معارضة لقيام التنافس بين الجنسين ولاختلاطهما المطلق صونا للآداب .

وقد سمح للبنات بالدراسة بالجامعة المصرية ، ولكن لا يصرح للجنسين أن يتلقيا الدروس سوية أو يختلط كل منهما بالآخر سواء فى الجامعة أو فى المدارس العليا الأخرى .

فنحن نرى من ناحية أن التعليم تحثه عناصر الأمة الرشيدة الى المحافظة على الدين والآداب وصحة الأبدان ، ومن ناحية أخرى نرى أن المعاهد الدينية آخذة فى توسيع نطاق أعمالها ومناحى نشاطها ، فهناك إصلاح جامعة الأزهر الشهيرة ، وهناك مجلة « نور الاسلام » التى أنشأها الأزهر منذ سنتين لغرض درس تعاليم الاسلام والمسائل العلمية والخلقية والتاريخية والحكمية المتعلقة بهذه التعاليم دراسة جدية للوصول الى حكم صحيح فى هذه المسائل . وقد أنشىء لهذا الغرض قسم خاص لتتبع تقدم العلوم والفنون

والقيام بترجمات للمجلة من اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية . وبهذه الطريقة تقوم المجلة بتبادل الآراء مع العالم الإسلامى .

ونحن اذا ألقينا النظر على المؤلفات العربية المصرية فى وقتنا هذا وجدنا كتابات كبار المؤلفين خالية من السفاسف خلوا تماما ، ووجدنا أذهانا متفتحة للثقافة الغربية كثيرا ما تكون مقرونة بالعاطفة الدينية ، وشعورا عميقا بالحاجات والمطالب الخلقية والاجتماعية ، وإحساسا متزايدا بالشخصية المصرية والشرقية .

وهنا تناول الكاتب بعض الكتاب المصريين بالبحث ، وأشار الى نزعات كل منهم ، ثم استطرد الى الكلام عن الروح الاجتماعية فقال : « ليست الروح الاجتماعية — وهى إحدى مظاهر جمعية الشبان المسلمين الهامة — قاصرة على الجمعية فحسب ، بل لقد عم انتشارها اليوم فى مصر وفى بلاد أخرى من الشرق الأدنى المتكلم بالعربية » وهنا ساق الكاتب الحادثة الآتية تبيانا لانتشار هذه الروح :

بعد وفاة الملك حسين (الذى توفى فى ٦ يونيه سنة ١٩٣١) جمعت أموال لإقامة نصب بعمان عاصمة شرق الأردن لزعيم الاستقلال العربى المتوفى ، ونشر رئيس تحرير جريدة بالقاهرة — وهو مسلم غيور ومؤيد لاستقلال العرب — نبذة من خطاب تلقاه من عمان جاء فيها :

ولكن يا إخوانى هل يرضى شيخ قريش فى لحده بإقامة نصب له بينما هناك فى الأمة العربية أناس يمشون حفاة الأقدام ولا يجدون الى دخول المدارس والتعليم سبيلا لفقرهم المدقع ، وبينما تدخل الآلاف مستشفيات المبشرين لعلاجهم من الأمراض ؟ لماذا لا يكون تذكار فقيدنا العظيم مستشفى فى عمان أو مدرسة فى القدس الشريف ينتفع بها الناس ؟!

ونحن كثيرا ما نأتى على أمثال هذه الآراء فى الصحافة العربية اليوم .

ثم تكلم الكاتب عن المجلات والجمعيات الخيرية فقال :

وهناك مجلات مختلفة وجمعيات خيرية تشترك فى الحركة الدينية الخلقية الاسلامية بمصر ، فمن المجلات : « الفتح » و « الزهراء » و « المنار » ومن أهم الجمعيات « جمعية الهداية الاسلامية » و « بعثة الفيضيين الاسلامية » وقد ترى أعضاء الجمعية الأخيرة فى عربات السكة الحديد بين مصر والاسكندرية وغيرها يوزعون على المسافرين من أهالى البلاد نشرات دينية تنشرها الجمعية بالعربية . هذا الى أن المجهودات لترقية الصناعات والمشروعات الوطنية التى يمثلها بنك مصر خير تمثيل سائرة بكل نشاط .

وهناك أمثلة عديدة لمظاهر هذه النهضة يستغرق سردها وقتا طويلا .

وفى غضون العشرين السنة الماضية كان يخشى أن يفقد المصريون شخصياتهم لاحتكاكهم بالمدنية الغربية ، ويصرموا ما بينهم وبين ماضيهم ، وما بينهم وبين الدين والأخلاق ، ويستسلموا لمساوئ المدنية الغربية بغير استفادة من محاسنها ، ولكن يظهر أن هذا الخطر قد زال ، فقد قويت الروح الوطنية وبَعُد غورها ، وقويت مع هذه الروح معرفة مطالب الأمة والشرق الحقيقية .

الطُرف والمُلح

هرب أعرابى ليلا على حمار حذارا من الطاعون ، فبينا هو سائر إذ سمع قائلا يقول :

لم يُسبق الله على حمار ... ولا على ذى منعة طيار
أو يأتيَ الحتف على مقدار ... قد يصبح الله أمام السارى

فكرّ راجعا وقال : إذ كان الله أمام السارى فلات حين مهرب :

كيف انتشر الاسلام[1]

إن جماعة المسلمين فى عهد الخلفاء الذين جاءوا بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) مباشرة كانت سائرة فى طريق انتقالها من جماعة دينية مؤلفة بمكة (المكرمة) ثم من هيئة سياسية قائمة بالمدينة (المنورة) الى دولة عالمية، وذلك بسبب توطد مركزها فى الداخل وامتداد سلطانها بالفتوحات فى الخارج. فقد كانت تنشأ فى موطن الاسلام الأصلى وفى الولايات التى افتتحها المسلمون أحوال جديدة تستدعى تنظيمها وكان لا بد من وضع أصول للحكم.

وسنبحث هنا أولا فى بعض المقتضيات العملية الخاصة بالحياة المادية: فما لا شك فيه أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه وضعوا من التعاليم ما كان وافيا بالحاجات الملاسة، ولنا أن نصدق بالحديث القائل بأن النبى (عليه السلام) قد وضع فى حياته أساسا لجباية الأموال، إذ فى زمنه قد أظهرت الأحوال أنه كان لا بد من رفع قيمة الزكاة من حالتها الأولى التى كانت عليها من حيث هى صدقة مستحقة لجماعة المسلمين الى جعلها ضريبة حكومية منظمة ومحددة بقيمة مفروضة.

وكانت توضع مثل تلك النظم تدريجيا حتى أخذت المكان الأول بعد وفاة النبى (عليه السلام) وذلك بسبب ضرورتها الذاتية. أما المحاربون الذين تشتتوا فى الولايات النائية ولا سيما الذين لم يكن أصلهم من المدينة (المنورة) ذلك المركز الدينى فانهم لم يكونوا على دراية تامة بالواجبات الدينية فى أول الأمر.

---

(1) عن الفرنسية من كتاب « العقيدة والشريعة فى الاسلام » لمؤلفه جولدتزيهر والمترجم الى الفرنسية لفيلكس أران.

فالحروب المستمرة والفتوحات التى كانت تمتد شيئا فشيئا كانت تتطلب وضع قواعد للقانون العسكرى ووضع أحكام تتعلق بضمان الحقوق العامة للشعوب التى أخضعت ، وللمحافظة على الحالة الإدارية التى نشأت عن الحكم الجديد .

وكان أول من وضع النظم الثابتة للمسائل السياسية والاقتصادية هو الخليفة المقدام عمرو بن العاص (رضى الله عنه) الذى يعتبر بحق مؤسس الدولة الاسلامية بسبب فتوحاته العظيمة فى سوريا وفلسطين وفى مصر .

وليس مما يعنينا أن نتوسع فى سرد هذه النظم للوصول الى غرضنا ، إذ يكفينا أن نعلم على الجملة أنه بسبب الحاجات العامة أخذت الشريعة الاسلامية تنتشر عقب وفاة النبى (صلى الله عليه وسلم) مباشرة ، على أنه لا بد لى أن أبين جانبا من تلك التفاصيل لما له من الأهمية فى توضيح حالة ذلك العهد الأول ، إذ لا يسع أحدا أن ينكر أن أول الأوامر التى فرضت على المسلمين الفاتحين إزاء الأمم المغلوبة والتى كانت تدين بديانات أخرى لم تكن مصبوغة بصبغة التسامح فى العهد الأول لانتشار الشريعة .

والذى نره أيضا فى أيامنا هذه قريبا من خلق التسامح الدينى ، العادات السياسية للحكومات الاسلامية ، وهى مظاهر من القانون العام فى الاسلام التى كثيرا ما يرد ذكرها فى مؤلفات السائحين فى القرن الثامن عشر ، وهذا منشؤه المبدأ الذى وضع منذ النصف الأول من القرن السابع (الميلادى) وهى حرية الاعتقاد لغير الموحدين .

وإن فكرة التسامح فى العهد الأول للاسلام مبنية على قوله تعالى : (لَا إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ) (سورة البقرة آية ٢٥٦) وهى فكرة استند اليها فى الأزمنة المتأخرة وفى بعض الحالات لإيقاف تطبيق العقوبات الصارمة ، حماية لمن ارتدوا عن الاسلام وقد كانوا أكرهوا على اعتناقه .

وإن المعلومات التي لدينا عن الاسلام في سنيه الأولى تورد لنا كثيرا من الأمثلة عن التسامح الديني عند الخلفاء الأولين في حق أبناء الديانات الأخرى . ولقد كانت التعليمات والنصائح التي كانت تسدى لقواد الجيوش قبل قيامهم للحرب من أبلغ النصائح وأفضل مايقتدى به ، ومثال ذلك المعاهدة التي عقدت بين النبي (صلى الله عليه وسلم) ومسيحي نجران التي ضمنت احترام الأوضاع المسيحية . وكذلك كانت خطته لمعاذ ابن جبل عند ذهابه الى اليمن : ففيها جاء بألا يزعج يهودي في يهوديته، وفي هذا المستوى عقدت جميع معاهدات الصلح التي منحت للمسيحيين الخاضعين للدولة البيزنطية ، الاهم إلا أن إقامتهم عدنا لحفلاتهم الدينية كانت مقيدة بعض التقييد .

وعلى العكس من ذلك فانه مما يجب ملاحظته ما جاء في بعض النقد التريخي لبعض المصادر أن طائفة من القيود المنسوبة لتلك الأزمنة القديمة لم تنفذ إلا في العصور المتأخرة التي كان تسب اليها التعصب الديني .

وكما أن المسلمين استرشدوا في اتباع دينهم بروح التسامح كان حتما عليهم أيضا فيما يتعلق بمعاملتهم لغيرهم في المسائل المدنية والاقتصادية أن يعاملوهم بالرفق والإنصاف ، فكان كل ظلم يقع على غير المسلمين الخاضعين للحكم الاسلامي (أهل الذمة) يعتبر في نظر المسلمين ذنبا يعاقب عليه . ومن أمثلة ذلك : أنه لما عامل والي لبنان الأهلين بالقسوة حينما ثاروا بسبب ظلم محصل الضرائب ، أرسل الى ذلك الوالي الإنذار التالي الذي نقل أنه حديث شريف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو : « إن من ظلم ذميا خاضعا لحكم الاسلام وكلفه بما لا طاقة له به فإني خصيمه يوم القيامة » (أو كما قال)

وفي أيامنا هذه أيضا قد اطلعنا بالقرب من « بوسترا » على المكان الذي كانت مشيدة عليه «دار اليهودي» الذي روى عنه « بورتر » (Porter) في كتابه المعنون باسم « خمس سنين في دمشق » القصة التالية :

« إن فى هـذا المكان كان بنى مسجد فأمر عمر بهدمه لأن عامله كان استولى على دار اليهودى قسرا ليبنى المسجد مكانها » .

وإن تـكوين الآراء القانونية الخاصة بعلاقات المسلمين الفاتحين مع الأمم المغلوبة كان لها المكان الأول فى وضع القوانين الجديدة ، ولـكن كان لا بد من جهة أخرى من تنظيم جميع فروع الحياة الداخلية والدينية والشرعية لمسلمين .

وكان لا بد من وضع قاعدة ثابتة للمحاربين الذين تشتتوا فى أنحاء البلاد قبل تحديد الشعائر الدينية نهائيا فى البلدان النائية التى يرتبط بعضها ببعض برابطة الدين ، وذلك لكى يستطيع أولئك المحاربون أداء جميع واجباتهم الدينية وإقامة جميع شعائرهم المتعلقة بها ، وكذلك كان لا بد من إعطائهم قاعدة ثابتة — وهذا ما كان أشد صعوبة بكثير — لتحديد العلاقات القانونية التى بقى معظمها الى ذلك الوقت مجهولا عند الفاتحين الذين نزحوا من بلاد العرب ، فنى سوريا ، ومصر ، والفرس ، كانوا يلجئون الى استقصاء العادات القـديمة المحلية المؤسسة على الحضارات الغابرة ، وأحيانا الى التوفيق بين القوانين الوراثية وبين القوانين المكتسبة حديثا وقصارى القول أنه كان لا بد من تقييد المسلمين فى معاملاتهم الشرعية بنظام من الوجهة الدينية ومن الوجهة المدنية ، فكانوا يتوسلون بالتقاليد الى حل المشاكل التى كانت تنشأ يوميا ، وفى الأحوال التى يختلف فيها الرأى كان يكفى فيها بلا شك حسن السياسة — وأخشى أن أقول كذلك — تعسف القضاة .

وهذا لم يـكن ليرضى الأتقياء من النـاس الذين كانوا يرمون الى توجيه الحيـاة الجديدة نحو قانون شرعى أراده المولى (سبحانه وتعالى) ومتفق مع ميول النبى (صلى الله عليه وسلم) . فكان لا بد فى كل الأمور من البحث عن إرادة الرسول (عليه السلام) واعتبارها كمبدأ يسترشد به فى الحياة العملية .

وإن أحسن مصدر يمكن أن يستقى منه العلم كان الصحابة ، وهم جماعة من الناس عاشوا فى صحبة النبى (عليه السلام) ورأوه وسمعوه يحكم ، وعليه فإنه كلما كان المرء قريبا من صحابى كلما كان فى استطاعته أن يستخلص من أخباره مقتضيات الحياة الدينية وتفاصيل الشريعة الإلهية ، ولما انقضى هذا العهد (عهد الصحابة) كان لا بد من أن نقنع بالمعلومات التى أمكن الحصول عليها فى بعض المسائل التى كانت تطرح على بساط البحث فى الأحوال المختلفة — كان لا بد أن نقنع فى هذه المسائل بالمعلومات التى تلقاها (من التابعين) ممن جاءوا بعد الصحابة والذين كانوا اتصلوا بهم ، وهكذا جيلا بعد جيل حتى الى أقرب الأزمنة الينا ، فكان يعتبر أى عمل من الأعمال أو حكم من الأحكام صحيحا وحلالا اذا أمكن إسناده الى حديث صحيح متصل اتصالا مسلسلا غير منقطع بصحابى كان شاهدا أو سامعا له من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومعبر عن رأيه (عليه الصلاة والسلام) .

وإنه يمثل هـذا الحديث الذى وضعت على أساسه تفاصيل المذهب والشريعة أمكن تدوين هـذه التفاصيل بصفتها الأعمال التى اتبعها قادة الإسلام وأول معتنقيه على مرأى وبموافقة الرسول (عليه السلام) ، وهى السنة ، أو الأعمال التى اعتادها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وإن الشكل الذى تدونت عليه يسمى «الحديث» وليس الحديث عبارة عن مجموعة مبادئ متشابهة ، وإنما الحديث هو الوثيقة التى تضمنت السنة ، فهى تثبت بواسطة سلسلة من الرواة الثقات الذين يروون جيلا بعد جيل الرواية المرددة عما كان يعتبره الصحابة المبدأ الصحيح الوحيد فى مسائل الدين والشرع ، مستندين فى ذلك الى إقرار هـذا المبدأ من الرسول (صلى الله عليه وسلم) والذى يصبح بذلك القاعدة الواجب اتباعها فى الحياة العملية .

ولما كانت السنة هى عبارة عن مجمل عادات وآراء أقدم طائفة من المسلمين ، فإنها تعتبر أوفى تفسير للقرآن ، وهناك مثال يبين ما للسنة من القيمة الكبيرة وهو ذلك

القول المنسوب للإمام عليّ (رضى الله عنه) الذى قيل إنه وصية أسداها الى عبد الله ابن عباس عند ما أرسله لمفاوضة العصاة ، إذ قال له فيه : « لا تجابههم بالقرآن فإنه يحتمل تفاسير مختلفة وعدة وجوه ، بل جابههم بالسنة فهى لا تترك لهم منفذا يخرجون منه » . ولا نبحث هنا عن صحة نسبة هذا القول لعليّ ، وإنما هو على أى حال قول معروف من قديم الزمن ويعبّر عن حقيقة عقلية المسلمين فى ذلك الزمن .

هذا وإننا لا نريد أن ننكر كلية أنه لا يزل يوجد فى الأحاديث التى نقلتها الينا الأجيال اللاحقة بعض المواد القديمة التى إن لم تكن نمت من نفس فيه النبى (صلى الله عليه وسلم) فهى على الأقل منقولة عن الجيل الأول من زعماء الإسلام . ولكن من جهة أخرى فمن السهل أن ندرك أنه كلما بعد المرء من حيث الزمان والمكان كلما كان يخشى الإنسان من أن يكون قد صنعت بعض الأسانيد على شكل أحاديث صحيحة تماما فى ظاهرها ، وترجع الى أعظم مصادر الإسلام : الى النبى (صلى الله عليه وسلم) والى الصحابة ، وذلك لتعزيز بعض المبادئ من الوجهة النظرية أو لتى يراد منها أن تتبع فى الحياة المادية .

وفعلا قد حدث على أثر ذلك أنّ كل رأى وكل فريق وكل ممثل لمذهب من المذاهب قد اتخذ هذه الطريقة ، وعلى ذلك قد وضع من القواعد ما كان منافيا بعضه البعض بسبب هذه الطريقة ، ولكن هذا لم يكن ليعزب عن يقظة المسلمين المتمسكين بدينهم ، وفقهائهم الذين هم أول من وضعوا قاعدة علمية من أقوم القواعد العلمية وأعمها فائدة ، وهى علم « نقد الحديث » الذى كان الغرض منه لتمييز بين الحديث الصحيح والحديث المشكوك فيه عند احتدام الخلاف ، فكانت النتيجة النهائية لهذه الحركة النقدية هى الاعتراف فى القرن السابع عشر بأن المؤلفات الستة لتى جمعها بعض الفقهاء منذ القرن الثالث عبارة عن مجموعة للقواعد الشرعية ؛ وقد اعتبرت هذه الكتب بأنها

المصدر الصحيح الأكيد لسنة الرسول (عليه السلام) ومن بين هـذه المؤلفات يوجد اثنان رسميان (وسميا بهذا الاسم لأنه محظور رسميا المناقشة فيما اشتملا عليه) وهما البخارى (٢٥٦هـ/٨٧٠م) ومسلم (٢٦١هـ/٨٧٥م) ويعتبران أعظم مصادر سنة النبى (عليه السلام) وألحق بهما كتب أبى داود (٢٧٥هـ/٨٨٨م) والنسائى (٣٠٣هـ/٩١٥م) والترمذى (٢٧٩هـ/٨٩٢م) وابن ماجه (٢٧٣هـ/٨٨٦م).

ويحل هذا المكان الأخير مع بعض الاعتراض، وقبل ذلك كان مالك بن أنس جمع عادات المدينة وطن السنة، إلا أن رأيه لم يتفق مع جامعى الحديث.

وبذلك قد ظهر بجانب القرآن مجموعة جديدة لمراجع الدين المكتوبة، وهى مراجع من أهم المراجع التى يرجع اليها فى تفهم الاسلام والحياة الاسلامية. (يتبع)

الغلط فى هذا الجزء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٩٥	٢١	فى وجود	فى وجوده
٦٩٩	١١	وجزوع	وجذوع
٧٢٣	٦	المواهب الأدبية	والمواهب الخلقية
٧٢٣	٧	عام ١٩٢٩	عام ١٩٢٨
٧٢٤	٤	خلوا تماما	خلوا تاما

dead from the living by the generation of animals from matter and matter from animals; and thou givest sustenance to whomsoever thou pleasest beyond all measures."

(Baidawy's Commentary).

We should like to point out here that present-day physicists know more of the theory of the generation of life from matter than the commentators of the Koran knew.

WARNING AGAINST GOD'S WRATH.

To the ungrateful people who invoke the Lord in distress and forget Him in prosperity, the Koran saith :

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً . أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ
الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً . أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ
يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And when distress afflicteth you out at sea and ye fear drowning, ye remember none of those whom you invoke except Allah to whom ye turn for deliverance yet when He saveth you from drowning and bringeth you safely to the land, ye turn aside in thanklessness, for man is ever ungrateful.

What ! do you then feel secure that Allah will not turn the land upside down with you on it or that He will not send upon you a whirlwind that smiteth you with gravel ? Then ye shall find no protector to protect you therefrom.

Or do you feel secure that Allah will not cause you to put back to sea another time for some pressing need, and then send upon you a fierce gale and thus drown you on account or your thanklessness ? Then ye shall find no helper against Us."

(Baidawy's Commentary).

THE END.

مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Whatever mercy Allah sendeth unto men as prosperity, peace, health and knowledge. there is none to withhold it; and whatever He withholdeth, there is none to send forth after His keeping it back, He is the Mighty with whom no one can dispute, the Wise who doth nothing except with perfect knowledge."

(Baidawy's Commentary).

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"It is We who distribute among men their livelihood in this world's life wherefore they are unable to secure it for themselves though it is their personal concern; and We have exalted some of them by grades above others, and distinguished between them in livelihood."

(Baidawy's Commentary).

CONTROL OF CREATION.

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Say . O Allah, Possessor of all power, thou givest of this power what thou wilt to whomsoever thou pleasest and takest away power from whomsoever thou pleasest; and thou exaltest in this world and the next, whomsoever thou pleasest extending thereunto thy favour and support, and thou abasest in this life and the hereafter, whomsoever thou pleasest imposing thereon failure and ignominy; in thine hands lieth all good and verily thou hast power over all things. Thou causest the night to pass into the day, and thou causest the day to pass into the night through the succession thereof; and thou bringest forth the living from the dead and the

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And with Him are the repositories of unknown things, none knoweth them but He, He knoweth their set times and the wisdom of expediting or delaying their occurrence : He knoweth whatever is in the land or sea; and so great and comprehensive is His knowledge, that there falleth not a leaf but He knows it, neither a grain in the darknesses of earth, nor a green or sere thing but it is all in the Book of Decrees."

(Baidawy's Commentary).

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And certainly We have created man, and We know what passeth in his mind, and are more informed of his state than any one as close to him as his life-vein."

(Baidawy's Commentary)

FINALITY OF HIS WILL.

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And if Allah should afflict you with misfortune as sickness or poverty, then there is none to lift it but He, and if He willeth you any good as health and prosperity, there is none to stop His favour; He will bestow His grace on whomsoever He pleaseth among His servants, and He is the Forgiving the Merciful, whose mercy is extended to those who obey His commands, and His forgiveness to those who never despair of His pardon."

(Baidawy's Commentary).

« مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ

and its people think they are able to reap its harvest, Our behest to destroy it, cometh to it by night or by day and We render it mown down as though it had never teemed with fertility only yesterday. Thus do We make clear our signs to a people who reflect for they benefit thereby."

(Baidawy's Commentary).

GOD'S OMNIPOTENCE.

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily the way of Allah when He willeth aught, is but to say to it, Be, and It Is. So glory be to Him, He is above what the unbelievers say; He holdeth sway over all things and to Him shall all men, believers and unbelievers, be brought back."

(Baidawy's Commentary).

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And Allah is Almighty and Supreme over His servants; and He is wise in His ways and ministrations, and is cognisant of the secret state of His servants."

(Baidawy's Commentary).

HIS OMNISCIENCE.

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And you shall not be engaged in any affair, nor do you recite concerning it any text of the Koran, nor do you pursue any work, great or small, but We are witnesses over you and cognisant thereof when you are engrossed in it, and not the weight of an atom in the whole existence lieth concealed from thy Lord, nor is there aught smaller or greater than that, but it is recorded in the Preserved Tablet (Book of Decrees).

(Baidawy's Commentary).

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"And as for those who disbelieved, they find that their deeds which they have deemed acceptable unto Allah, are void and disappointing in their results, like the mirage in a barren plain (desert) which the thirsty, in his great need, deems to be water; until he cometh to what he thought to be the the place thereof, he findeth naught of what he imagined, and there findeth Allah to reckon with and is fully paid by Him in recompense of his deeds, for swift is the reckoning of Allah."

"Or (their deeds) like utter darkness in a deep sea covered by billows riding upon billows, above which are clouds that hide the stars and their light : layers of utter darkness one upon another, that when he reacheth forth his hand he could scarce see it ! And whomsoever Allah depriveth of guidance, will he have no light to guide him."

(Baidawy's Commentary).

VICISSITUDES OF TIME.

Yet another striking parable showing the way of the world and the changes to which men are subject, is the following verse :

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Verily the strange way of this world's life, in its rapid elapsion, its short-lived prosperity and its deluding of men, is like unto the water which We send down from heaven, and which causeth the herbage of earth, such as vegetables and grass, of which men and cattle eat, to grow luxuriantly and entwine together, till the earth puteth forth its beauteous raiment and is decked out in all the glory of plants and flowers of different hues,

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ
وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Allah, besides whom there is no God worthy of worship, the eternal, the self-subsistent by whom all creation subsisteth; slumber overtaketh Him not nor doth sleep; His, whatever is in heavens and whatever is on earth. Who there is, in heavens or earth, that can intercede with Him without His permission for none is equal or like unto Him. He knoweth men's future and past, yet nought of His knowledge can they grasp save what He willeth them to know. His knowledge extendeth over the heavens and the earth, and the preservation and control of both burdeneth Him not; He is the Most High, the Great, none to compare with Him."

(Baidawy's Commentary).

WORSHIP OF GODS OTHER THAN ALLAH.

To those who worship gods other than Allah the Koran saith :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ
لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ
مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"O men ! a parable revealing a strange case is set forth unto you, wherefore hearken attentively unto it. Surely the idols whom ye invoke to the exclusion of Allah, cannot create a fly, small as it is, even though they should all assemble for its creation ! And should a fly carry off aught from them, they cannot resist and are unable to recover what is taken from it. Weak indeed are they both (worshipper and worshipped or idol and fly).

(Baidawy's Commentary).

STATE OF UNBELIEVERS.

Of those who disbelieved, the Koran saith :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا
جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

إِلَى إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"The unbelievers say that the Beneficient Allah hath begotten issue (1); glory be to Him for He is above what they say. Nay the angels are but his honoured servants created by Him and are not His issue. They speak not except what He ordaineth and never do they act against His bidding. Nothing there is that He knoweth not of their future and past deeds, and they intercede (plead) not save for whom He pleaseth, and for fear of Him they tremble.

And whoever among the angels or creatures, should say : "Surely I am a god besides Allah," such will We recompense with hell for thus do We recompense the offender who attributeth partners to Allah and claimeth godship for himself."

(Baidawy's Commentary).

« وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"The God who meriteth worship is only one having no partner to be worshipped with Him; there is no god worthy of worship but He, He is the Merciful, the Beneficient who is the source of all blessings."

(Baidawy's Commentary).

In these verses, the Koran has established once for all, that there is no God but Allah and that prophets are definitely excluded from godship. Nay they have no right to intercede or plead for anyone unless it pleases the Lord that they should do so. Could there be then a more conclusive evidence of their exclusion from godship than the very words of the Koran ? Yet, it pleases the missionaries in Europe and America to convey to the simple-minded people that Mohammed called men to worship him and that the Moslems worship Mohammad to the exclusion of God. The reason for this unfounded libel is not hard to find, they wish to portray Islam before the eyes of the world, as a pagan religion and a savage creed; but truth shall prevail some day and the world shall know of True Islam no matter how dark missionaries choose to paint it.

ALL-PERVADING PROVIDENCE.

« اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا

(1) Khuzaha, an unbelieving tribe, alleged that angels are the daughters of God.

English Supplement to

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

THE HOLY KORAN (1)

(Continued):

In the preceding chapter, we have discussed the miraculous nature of the Koran and advanced many proofs in testimony of its divine origin. The discussion would not however be complete without a short survey of the subject matter of the Book itself, and we therefore, give in the following pages a few quotations from this Holy Book treating of diverse subjects and leave it to the reader to judge for himself the truth thereof.

UNITY OF GOD.

To begin with we quote what the Koran says concerning the unity of God :

« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا . فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Had there been in heavens and earth other gods besides Allah, they would both have surely fallen into disorder on account of the difference and contrariety between them; so glory be to Allah the Lord of might and power, who holdeth sway over all things and is above what the unbelievers attribute unto Him of having a partner, wife or son.

"He shall not be questioned concerning what He doth for He is mighty, omnipotent, but they shall be called to account being mere servile servants."

(Baidawy's Commentary).

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's book "Messages of Peace."